فتح القدير

الجامع

بين فني الرواية والدراية من علم التفسير

تأليف

الإمام محمد بن علي الشوكاني

١١٧٣ - ١٢٥٠ هـ

حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه وضبط نصه

محمد صبحي بن حسن حلاق

راجعه وقابل أصوله وصنع فهارسه

د. عبد الرحمن بن محمد العيزري

الجزء الخامس

دار ابن الجوزي

فتح القدير

٥

دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية:
الدمام - حي الريان - شارع عثمان بن عفان
ت: ٠١٣٨٤٢٨١٤٦ - ٠١٣٨٤٦٧٥٩٣
٠١٣٨٤١٢١٠٠
ص ب. واصل: ٨١١٤
الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦
الرقم الإضافي: ٤٩٧٣
الرياض - ت: ٠٥٩٢٦٦٢٤٩٥
جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨
الأحساء - ت: ٠١٣٥٨٨٣١٢٢
جدة - ت: ٠١٢٦٨١٤٥١٩
جوّال: ٠٥٨٣٠١٧٩٥١

لبنان:
بيروت - ت: ٠٣/٨٦٩٦٠٠
فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

مصر:
القاهرة - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠
جوّال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨

aljawzi@hotmail.com
+966503897671
aljawzi
eljawzi
aljawzi.net

ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٤٢هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الشوكاني، محمد علي
فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير./ محمد علي الشوكاني؛ محمد صبحي حلاق؛ عبد الرحمن بن محمد العيزري.- الدمام، ١٤٤٢هـ
١٠مج.
ردمك: ٩ - ٧٤ - ٨٢٩٨ - ٦٠٣ - ٩٧٨ (مجموعة)
ردمك: ٤ - ٧٩ - ٨٢٩٨ - ٦٠٣ - ٩٧٨ (ج٥)
١ - القرآن - تفسير أ. حلاق، محمد صبحي (محقق)
ب. العيزري، عبد الرحمن بن محمد (محقق) ج. العنوان
ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٤٢/٤٠٧٩

الطبعة الأولى
١٤٤٢هـ

الباركود الدولي: 9786038298749

فتح القدير

الجامع

بين فني الرواية والدراية من علم التفسير

تأليف

الإمام محمد بن علي الشوكاني

١١٧٣ - ١٢٥٠ هـ

حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه وضبط نصه

محمد صبحي بن حسن حلاق

راجعه وقابل أصوله وصنع فهارسه

د. عبد الرحمن بن محمد العيزري

الجزء الخامس

دار ابن الجوزي

بسم الله الرحمن الرحيم

سُورَةُ يُوسُفَ

[سورة يوسف مكية[1]]:

قيل: هي مائة وإحدى عشرة آية، وهي مكية كلها، وقيل: نزلت ما بين مكة والمدينة وقت الهجرة.

قال ابن عباس[2] في رواية عنه وقتادة: إلاّ أربع آيات.

وأخرج النحاس وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس[3] قال: نزلت سورة يُوسف بمكة.

وأخرج ابن مردويه[4] عن ابن الزبير مثلَه.

وأخرج الحاكم[5] وصححه عن رفاعة بن رافع الزُّرقي: أنه خرج هو وابن خالته معاذ بن عفراء حتى قدما مكة، وذكر قصة وفي آخرها: أن رسول الله ﷺ علّمهما سورة يوسف، و﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١]، ثم رجعا.

وأخرج البيهقي في «الدلائل»[6] مِنْ طريق الكلبي عن أبي صالح، عن ابن عباس: «أن حَبْراً من اليهود دخل على رسول الله ﷺ، فوافقه وهو يقرأ سورة يوسف، فقال: يا مُحمد، مَنْ علَّمكها؟ قال: الله علَّمنيها. فعجب الحَبْر لما سمع منه، فرجع إلى اليهود، فقال لهم: واللهِ إنَّ محمداً ليقرأ القرآن كما أُنزل في التوراة، فانطلق بنفرٍ منهم حتى دخلوا عليه فعرفوه بالصفة، ونظروا إلى خاتم النبوّة بين كتفيه، فجعلوا سمعهم إلى قراءته لسورة يوسف فتعجبوا منه، وأسلموا عند ذلك».

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٢٤٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٥).

(٢) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (١٢/ ١٧٤) عن ابن عباس، وقتادة.

(٣) أخرجه النحاس في «ناسخه» (ص٥٣٣).

(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٤٩٤).

(٥) أخرجه الحاكم (٤/١٤٩، ١٥٠) وصحَّحه ووافقه الذهبي.

(٦) أخرجه البيهقي في «الدلائل» (٦/٢٧٦) بسند ضعيف جدّاً.

• وقد تقدم أن الكلبي قد صرح بأن كل ما رواه عن أبي صالح، عن ابن عباس، فهو كذب.

وأخرج الثعلبي(١) عن أُبيّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «علّموا أقاربكم سورة يوسف، فإنّه؛ أيما مُسلم تلاها أو علَّمها أهلَه وما ملكت يمينه هوّن الله عليه سكرات الموت، وأعطاه القوّة أنْ لا يحسد مسلماً». وفي إسناده سلّام بن سالم، ويقال: ابن سليم المدائني، وهو متروك عَنْ هارون بن كثير.

قال أبو حاتم: مجهول.

وقد ذكر له الحافظ ابنُ عساكر متابعاً من طريق القاسم بن الحكم عن هارون بن كثير، ومِنْ طريق شبابة عَنْ مجلز بن عبد الواحد البصري، عن عليّ بن زيد بن جدعان، وعَنْ عطاء بن ميمون، عن زِر بن حبيش، عن أُبيّ بن كعب مرفوعاً فذكر نحوه، وهو منكر(٢) مِنْ جميع طرقه.

قال القرطبي(٣): قال سعد بن أبي وقاص(٤): أُنزل القرآن على رسول الله ﷺ فتلاه عليهم زماناً، فقالوا: لو حدّثتنا، فنزل قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣].

قال: قال العلماء(٥): وذكر الله أقاصيصَ الأنبياء في القرآن، وكرّرها بمعنى واحد في وجوه مختلفة، بألفاظ متباينة على درجات البلاغة. وقد ذكر قصة يوسف ولم يكررها، فلم يقدر مخالف على معارضة ما تكرّر، ولا على معارضة غير المتكرّر.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ۝٣ إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ۝٤﴾.

---

(١) أخرجه الثعلبي في تفسيره «الكشف والبيان» (٥/ ١٩٦). وهو حديث منكر.

(٢) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٨/ ٥).

(٣) في «تفسيره» (١١/ ٢٤٠).

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٨ ـ ٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٠٩٩)، وابن حبان رقم (٦٢٠٩)، والحاكم (٢/ ٣٤٥)، وأبو يعلى رقم (٧٤٠)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص٢٠٣)، والبزار رقم (١١٥٢، ١١٥٣) من طرق. وهو حديث حسن.

(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١/ ٢٤٠).

[رؤيا يوسف تشير إلى اختيار الله له، وإتمام نعمته عليه وعلى آل يعقوب]:

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٦﴾﴾.

قولُه: ﴿الٓرۚ﴾ قد تقدّم الكلام فيه في فاتحة سورة يونس، والإشارة بقوله: ﴿تِلۡكَ﴾ إلى آيات السورة، و﴿ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ السورة؛ أي: تلك الآياتُ التي أنزلت إليك في هذه السورة آيات السورة الظاهرُ أَمرِها في إعجاز العرب، وتبكيتهم، و﴿ٱلۡمُبِينِ﴾ مِنْ أبان بمعنى: بانَ؛ أي: الظاهر أمرُه في كونه مِنْ عند الله وفي إعجازه، أو المُبين بمعنى: الواضح المعنى بحيث لا يلتبس على قارئه وسامعه، أو المبين لما فيه من الأحكام.

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ﴾؛ أَيْ: الكتاب المُبين حال كونه ﴿قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾، فعلى تقدير أَنَّ الكتاب (السورة) تكون تسميتها قرآناً باعتبار أَنَّ القرآن اسمُ جنسٍ يقع على الكل وعلى البعض، وعلى تقدير أنّ المراد بالكتاب كل القرآن، فتكون تسميته قرآناً واضحة، و(عربياً) صفة لـ﴿قُرۡءَٰنًا﴾؛ أي: على لغة العرب ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾؛ أي: لكي تعلموا معانيه وتفهموا ما فيه ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ القَصص: تَتَبعُ الشيء، ومِنْه قوله تعالى: ﴿وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ﴾ [القصص: ١١]؛ أي: تتبعي أثره وهو مصدر(١)، والتقديرُ: نحن نقصّ عليك قصصاً أحسنَ القصص، فيكون بمعنى الاقتصاص، أو هو بمعنى المفعول؛ أي: المقصوص.

﴿بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾؛ أي: بإيحائنا إليك ﴿هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ وانتصاب(٢) (القرآن) على أنّه صفة لاسم الإشارة، أَو بدل مِنْه، أو عطف بيان، وأجاز(٣) الزجّاج الرفعَ

---

(١) «البحر المحيط» (٦/ ٢٣٥)، و«التبيان» (٢/ ٧٢٠)، و«الفريد» (٣/ ٢٢)، و«روح المعاني» (١٢/ ١٨٧).

(٢) في «معاني القرآن» (٣/ ٨٨).

(٣) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٢).

على تقدير مبتدأ، وأجاز الفراء[١] الجرّ، ولعلّ وجهه أن يقدّر حرف الجرّ، في ﴿بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ﴾ داخلاً على اسم الإشارة، فيكون المعنى: نحن نقص عليك أحسن القصص بهذا القرآن.

﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ «إنْ» هي[٢] المخففة مِنْ الثقيلة بدليل اللّام الفارقة بينها وبين النافية، والضمير[٣] في ﴿مِن قَبۡلِهِۦ﴾ عائد على الإيحاء المفهوم من أوحينا، والمعنى: أنك قبل إيحائنا إليك من الغافلين عن هذه القصة.

واختُلف[٤] في وجه كون ما في هذه السورة هو أحسن القصص، فقيل: لأن ما في هذه السورة من القصص يتضمن من العبر والمواعظ والحكم ما لم يكن في غيرها.

وقيل: لما فيها من حسن المحاورة، وما كان من يوسف عليه السلام من الصبر على أذاهم وعفوه عنهم.

وقيل: لأَنَّ فيها ذكر الأنبياء والصالحين والملائكة والشياطين والجنّ والإنس والأنعام والطير، وسير الملوك والمماليك والتجار والعلماء والجهال والرجال والنساء وحيلهنّ ومكرهنّ.

وقيل[٥]: لأنّ فيها ذكرَ الحبيب والمحبوب وما دار بينهما؛ وقيل: إن ﴿أَحۡسَنَ﴾ هنا بمعنى أعجب.

وقيل: إنَّ كل مَنْ ذُكر فيها كان مآله السعادة.

قولُه: ﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾ «إذْ» منصوب[٦] على الظرفية بفعل مقدّر؛ أي: اذْكرْ وقتَ قال يوسف.

---

(١) «البحر المحيط» (٦/ ٢٣٥)، و«الفريد» (٣/ ٢٣ ـ ٢٤)، و«روح المعاني» (١٢/ ١٩٠).
(٢) «التبيان» (٢/ ٧٢٠)، و«والبحر المحيط» (٦/ ٢٣٦).
(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٢٤٢ ـ ٢٤٣)، و«المحرر الوجيز» (٩/ ٢٤٧).
(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٢٤٤).
(٥) «الدر المصون» (٦/ ٢٣١)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٣١٠).
(٦) «البحر المحيط» (٦/ ٢٣٧)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٢٤٤).

قرأ الجمهور «يوسُف» بضم السين[١]، وقرأ طلحة بن مُصرِّف بكسرها مع الهمز مكان الواو، وحكى ابنُ زيد الهمز[٢] وفتح السين، وهو غير مُنْصرف للعُجْمة والعلَمية.

وقيل: هو عربي[٣]. والأول أولى بدليل عدم صرفه، ﴿لِأَبِيهِ﴾؛ أي: يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ بكسر التاء في قراءة أبي عمرو وعاصم وحمزة والكسَائي ونافع وابن كثير، وهي عند البصريين علامة التأنيث، ولحقت في لفظ أب في النّداء خاصة بدلاً مِنْ الياء[٤] وأصله يا أبي، وكسرها للدلالة على أنها عوض عَنْ حرف يناسب الكسر، وقرأ ابن عامر بفتحها[٥]؛ لأن الأصل عنده يا أبتا، ولا يُجمع بين العوض والمعوّض، فيقال: يا أبتي، وأجاز الفرّاء[٦] يا أبتُ بضم التاء، ﴿إِنِّي رَأَيْتُ﴾ مِنْ الرؤيا النومية لا من الرؤية البصرية كما يدل عليه ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾.

قوله: ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ قُرِئ بسكون العين[٧] تخفيفاً لتوالي الحركات، وقرأ بفتحها[٨] على الأصل ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ إنما أخرهما[٩] عن الكواكب لإظهار مزيتهما، وشرفهما كما في عطف جبريل وميكائيل على الملائكة.

وقيل: إنّ الواو بمعنى[١٠] «مع»، وجملة ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾[١١] مستأنفة

---

(١) «القراءات الشاذة» (ص٦٢)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٣١٠)، و«حاشية الشهاب» (٥/ ١٥٣ ـ ١٥٤). قراءة الجمهور هي المتواترة وغيرها شاذ.

(٢) الزمخشري في «الكشاف» (٣/ ٢٥١): يوسف اسم عبراني، وقيل: عربي وليس بصحيح؛ لأنّه لو كان عربيّاً لا نصدق، لخلوّه عن سبب آخر سوى التعريف.

(٣) «التيسير» (ص٦٠، ١٢٧)، و«النشر» (٢/ ٢٩٣)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ٣).

(٤) «الفريد» (٣/ ٢٦ ـ ٢٧)، و«التبيان» (٢/ ٧٢١).

(٥) «النشر» (٢/ ٢٩٣)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٣١٠)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٢٤٥)، و«التبيان» (٢/ ٧٢١). وهما قراءتان متواترتان ومع ابن عامر أبو جعفر.

(٦) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٢).

(٧) «النشر» (٢/ ٢٧٩)، و«روح المعاني» (١٢/ ١٩٧)، و«البحر المحيط» (٦/ ٢٣٧)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٣١٣). وهما قراءتان متواترتان، فسكون العين عن أَبي جعفر والباقون بالفتح.

(٨) انظر: المصادر المتقدمة.

(٩) «روح المعاني» (١٢/ ١٩٧)، و«البحر المحيط» (٦/ ٢٣٧ ـ ٢٣٨).

(١٠) «البحر المحيط» (٦/ ٢٣٨).

(١١) «الدر المصون» (٦/ ٤٣٧)، و«التبيان» (٢/ ٧٢٢)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ١٠٣).

لبيان الحالة التي رآهم عليها، وأُجريتْ مجرى العقلاء في الضمير المختص بهم لوصفها بوصف العقلاء، وهو كونها ساجدةً، كذا قال الخليل[١] وسيبويه، والعرب تجمع ما لا يعقل جمع مَنْ يعقل إذ أنزلوه منزلته، ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾ الرؤيا[٢] مصدر رأى، في المنام، رؤيا على وزن فُعْلى كالسقْيا والبُشْرى، وألفه للتأنيث [٣/٦٦] ولذلك لم يُصرف، نهى يعقوب عليه السلام ابنَه يوسف عن أن يقصّ رؤياه على إخوته؛ لأنّه قد علم تأويلَها، وخاف أَنْ يقصّها على إخوته فيفهمون تأويلها، ويحصل منهم الحسَد له، ولهذا قال: ﴿فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا﴾ وهذا جواب النّهي وهو منصوب[٣] بإضمار: أَنْ؛ أي: فيفعلوا لك؛ أَي: لأجلك كيداً مثبتا راسخاً لا تقدر على الخلوص منه، أَو كيداً خفياً عَنْ فهمك، وهذا المعنى الحاصل بزيادة اللام آكد مِنْ أن يقال: فيكيدوا كيداً.

وقيل: إنما جيء باللام لتضمينه معنى[٤] الاحتيال المتعدّي باللام، فيفيد هذا التضمين معنى الفعلين جميعاً الكيد والاحتيال كما هو القاعدة في التضمين أَنْ يقدر أحدهما أصلاً والآخر حالاً.

وجملة ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ مستأنَفة[٥]، كأنَّ يوسف عليه السلام قال: كيف يقع منهم؟ فنبهه بأنّ الشيطان يحملهم على ذلك؛ لأنّه عدو للإنسان، مُظْهِر للعدواة مُجاهر بها.

قولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾؛ أي: مثل ذلك الاجتباء البديع الذي رأيته في النوم، مِنْ سجود الكواكب والشمس والقمر يجتبيك ربُّك، ويحقق فيك تأويل تلك الرؤيا، فيجعلك نبيّاً، ويصطفيك على سائر العباد، ويسخرهم لك كما تسخرت لك تلك الأجرام التي رأيتها في منامك فصارت ساجدةً لك.

قال النحاس[٦]: والاجتباء أصله مِنْ جبيتُ الشيء: حصَّلتُه، ومِنْه: جبيت

---

(١) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٢/٣١٣)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/٢٤٧)، و«الفريد» (٣/٢٨ ـ ٢٩).
(٢) «الدر المصون» (٦/٤٣٨)، و«الفريد» (٢/٢٩)، و«روح المعاني» (١٢/٢٠٠).
(٣) «التبيان» (٢/٧٢٢)، و«البحر المحيط» (٦/٢٣٨ ـ ٢٣٩)، و«الفريد» (٢/٢٩).
(٤) «روح المعاني» (١٢/٢٠٥ ـ ٢٠٦)، و«الدر المصون» (٦/٤٣٩).
(٥) «تفسير أبي السعود» (٤/١٠٤).
(٦) في «إعراب القرآن» للنحاس (٢/٣١٤).

الماءَ في الحوض: جمعتُه، ومعنى الاجتباء[١]: الاصْطفاء، وهذا يتضمن الثناء على يوسف وتعديد نعم الله عليه، ومنها ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾؛ أي: تأويلِ الرؤيا.

قال القُرطبي[٢]: وأَجمعوا أَنَّ ذلك في تأويل الرؤيا. وقد كانَ يوسف عليه السلام أعلمَ النّاس بتأويلها، وقيل: المراد: ويعلمك مِنْ تأويل أحاديث الأمم[٣] والكتب، وقيل: المراد به: إحواج[٤] إخوته إليه، وقيل: إنجاؤه مِنْ كل مكروه، وقيل: إنجاؤه مِنْ القتل خاصة.

﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ فيجمع لك بين النبوة والمُلْك كما تدل عليه هذه الرؤيا التي أراك الله، أَو يجمع لك بين خيري الدنيا والآخرة ﴿وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ وهم قرابته مِنْ إخوته وأولاده ومَنْ بعدهم؛ وذلك أن الله سبحانه أعطاهم النبوة كما قاله جماعة من المفسرين[٥]، ولا يبعد أن يكون إشارة إلى ما حصل لهم بعد دخولهم مصر من النِّعم التي من جملتها كون المُلك فيهم مع كونهم أنبياء ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ﴾؛ أي: إتماماً مثل إتمامها على أبويك وهي نعمةُ النبوّة عليهما، مع كون إبراهيم اتخذه الله خليلاً، ومع كون إسحاق نجّاه الله سبحانه مِنْ الذبح وصار لهما الذرية الطيبة: وهم يعقوب، ويوسف، وسائر الأسباط.

ومعنى ﴿مِن قَبْلُ﴾: من قبل هذا الوقت الذي أنتَ فيه، أو مِنْ قبلك، و﴿إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾ عطف[٦] بيان (لأبويك)، وعبّر عنهما بالأبوين مع كون أحدهما جَدّاً وهو إبراهيم، لأن الجدّ أب، ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ﴾ بكلِّ شيء ﴿حَكِيمٌ﴾ في كلِّ أفعاله.

والجملة مستأنفة مقررة[٧] لمضمون ما قبلها تعليلاً له؛ أي: فعل ذلك؛ لأنّه عليم حكيم، وكان هذا الكلام مِنْ يعقوب مع ولده يوسف تعبيراً لرؤياه على طريق الإجمال، أو علم ذلك مِنْ طريق الوحي، أو عرفه بطريق الفراسة وما تقتضيه المخايل اليوسفية.

---

(١) «مفردات ألفاظ القرآن» (ص١٨٧). (٢) في «تفسيره» (١١/ ٣٥٨).
(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٩٢).
(٤) «زاد المسير» (٤/ ١٨١)، و«روح المعاني» (١٢/ ٢١٠).
(٥) «روح المعاني» (١٢/ ٢١٣ ـ ٢١٤)، و«جامع البيان» (١٣/ ١٥).
(٦) «تفسير أبي السعود» (٤/ ١٠٧).
(٧) «البحر المحيط» (٦/ ٢٣٩)، و«روح المعاني» (١٢/ ٢١٦).

وقد أخرج ابن جرير[١] عن مجاهد في قوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ قال: بيَّن الله حلالَه وحرامَه.

وأخرج ابنُ جرير[٢] عَنْ معاذ قال: بيَّن الله الحروف التي سقطت عن ألسن الأعاجم، وهي ستةُ أحرف.

وأخرج الحاكم[٣] عن جابر: أن رسول الله ﷺ تلا قرآناً عربيّاً، ثم قال رسول الله ﷺ: «أُلهم إسماعيل هذا اللسان العربي إلهاماً».

وأخرج ابن أبي حاتم[٤] عن مجاهد قال: نزل القرآن؛ بلسانِ قريش، وهو كلامهم.

وأخرج ابن جرير[٥] عن ابن عباس قال: قالوا: يا رسولَ اللهِ، لو قصصتَ علينا، فنزلت ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾.

وأخرج ابن مردويه[٦] عن ابن مسعود مثله.

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة[٧] في قوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ قال: من الكتب الماضية وأمورِ الله السالفة في الأمم، ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ﴾؛ أي: مِنْ قبل هذا القرآن ﴿لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾.

وأخرج أبو الشيخ[٨] عن الضحاك ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ قال: القرآن.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم،

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٥) من طريق سعيد بن عمرو السُّكونيُّ، به.
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٦) من طريق الوليد بن سلمة، به.
(٣) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٤٣٩)، والبيهقي في «الشعب» رقم (١٦١٨) وقال الحاكم: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وتعقبه الذهبي بأن مدار الحديث على إبراهيم بن إسحاق وهو ممن يسرق الحديث».
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٠٩٩) بسند ضعيف.
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٧) من طريق عمرو الملائي، به. بسند ضعيف لضعف أيوب وهو ابن سيار الزهري.
(٦) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٤٩٦).
(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٧) بسند صحيح.
(٨) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٤٩٨).

وابن مردويه عن ابن عباس(١) في قوله: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ قال: رؤيا الأنبياء وحيٌ.

وأخرَج سعيد بن منصور، والبزار، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والعقيلي، وابن حبَّان في الضعفاء، وأبو الشيخ، والحاكم وصحّحه، وابنُ مردويه، وأبو نُعيم، والبيهقي عَنْ جابر(٢) بن عبد الله قال: «جاء بستانيٌّ يهودي إلى النبي ﷺ فقال: يا مُحمد، أخبرني عَنْ الكواكب التي رآها يوسف ساجدةً له ما أسماؤها؟ فسكت النبي ﷺ فلم يجبه بشيء، فنزل عليه جبريل فأخبره بأسمائها، فبعث رسولُ الله ﷺ إلى البستاني اليهودي فقال: هل أنت مؤمن إنْ أخبرتك بأسمائها؟ قال: نعم، قال: خرثان، والطارق، والذيال، وذو الكتفان، وقابس، ووثاب، وعمودان، والفيلقُ، والمصبح، والضروحُ، ذو الفرع، والضياء، والنور، رآها في أُفُق السماء ساجدةً له، فلما قص يوسف على يعقوب قال: هذا أمر مُشتّت يجمعه الله مِنْ بعدُ، فقال اليهودي: إي والله إنّها لأسماؤها»، هكذا ساقه السيوطي في «الدر المنثور».

وأما ابن كثير(٣) فجعل قوله: «فلما قص. . . إلخ»، رواية منفردة وقال: تفرد بها الحكم بن ظهيرة الفزاري، وقد ضعّفوه، وتركه الأكثرون.

وقال الجوزجاني: ساقط. وقال ابنُ الجوزي: هو موضوع.

وأخرج ابن المنذر(٤) عن ابن عباس في قوله: ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ قال: إخوته، ﴿وَالشَّمْسَ﴾ قال: أمه، ﴿وَالْقَمَرَ﴾ قال: أبوه.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٩، ١٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٠١)، والحاكم (٢/ ٤٣١) بسند صحيح.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ١٠)، وسعيد بن منصور في «سننه» رقم (١١١١ ـ تفسير)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٠١)، والبزار في «مسنده» رقم (٢٢٢٠ ـ كشف)، والعقيلي (١/ ٢٥٩)، وابن حبان في «المجروحين» (١/ ٢٥٠، ٢٥١)، والحاكم (٤/ ٣٩٦)، والبيهقي في «الدلائل» (٦/ ٢٧٧)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ١٤٥، ١٤٦) بسند ضعيف جدّاً.

(٣) في «تفسيره» (٨/ ١٣ ـ ١٤).

(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٤٩٩).

وأخرج ابن جرير عن السُّدي[١] نحوه أيضاً.

وأخرج ابن جرير[٢] عن ابن زيد نحوه أيضاً.

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس[٣] ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ قال: يصطفيك.

وأخرج ابن أبي حاتم[٤] عن قتادة مثلَه.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد[٥] ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ قال: عِبارة الرؤيا.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن زيد[٦] ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ قال: تأويل العلم والحلم، وكان يوسف من أعبر الناس.

وأخرج ابن جرير عن عكرمة[٧] ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ﴾ قال: فنعمتُه على إبراهيم: أَنْ نجّاه من النار، وعلى إسحاق: أَنْ نجّاه مِنْ الذبح.

﴿۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝١٠﴾.

أي: ﴿لَّقَدْ كَانَ﴾ في قصتهم علاماتٌ دالة على عظيم قدرة الله، وبديع صنعه

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ١٢) بسند ضعيف.
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ١٣) بسند صحيح.
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ١٥) من طريق أبي بكر الهُذَليِّ، عن عكرمة.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٠٤) بسند صحيح.
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ١٦)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (١١/ ٨٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٠٣) بسند ضعيف.
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ١٦) من طريق ابن وهب، عن ابن زيد. بسند صحيح.
وأخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٠٣) من طريق أصبغ، عن ابن زيد. بسند ضعيف.
(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ١٦) من طريق أبي إسحاق، به.

﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ مِنْ الناس عنها، وقرأ أهل مكة «آية» على التوحيد(١)، وقرأ الباقون على الجمع(٢)، واختار قراءة الجمع أبو عُبيد(٣).

قال النّحاس(٤): وآية ها هنا قراءة حسنة؛ وقيل: المعنى: لقد كان في يوسف وإخوته آياتٌ دالة على نبوة محمد ﷺ للسائلين له من اليهود، فإنه روي أنه قال له جماعة من اليهود وهو بمكة: أخبرنا عَنْ رجل من الأنبياء كان بالشام أخرج ابنه إلى مصر فبكى عليه حتى عَمِي، ولم يكن بمكة أحد من أهل الكتاب [٣/٦٧] ولا من يعرف خبر الأنبياء، وإنما وجهوا إليه من أهل المدينة مَنْ يسأله عن هذا، فأنزل الله سورة يوسف جملةً واحدة كما في التوراة(٤).

وقيل: معنى ﴿ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ عجب لهم، وقيل: بصيرة، وقيل: عبرة.

قال القرطبي(٥): وأسماؤهم يعني: إخوة يوسف: رُوبيل، وهو أكبرهم، وشِمْعون، ولاوى، ويهوذا، وريالون، ويشجر، وأمُّهم ليا بنت ليان وهي بنت خال يعقوب، وولد له من سريتين أربعة، وهم: دان، ونفتال، وجاد، وآشر، ثم ماتت ليا فتزوج يعقوب أختها راحيل فولدت له يوسف، وبنيامين(٦).

وقال السهيلي(٧): إن أم يوسف اسمها وقفا، وراحيل ماتت مِنْ نفاس بنيامين وهو أكبر مِنْ يوسف.

﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ﴾؛ أي: وقت قالوا، والظرف متعلق بكان ﴿أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ والمراد بقوله: ﴿وَأَخُوهُ﴾ هو بنيامين، وخصّوه بكونه أخاه مع أنهم جميعاً إخوته؛ لأنّه أخوه لأبويه كما تقدم، ووحّد(٨) الخبر فقال: ﴿أَحَبُّ﴾ مع تعدد المبتدأ؛ لأنّ أفعل التفضيل يستوي فيه الواحد وما فوقه إذا لم يعرّف.

---

(١) «روح المعاني» (١٢/ ٢١٧)، و«البحر المحيط» (٦/ ٢٤١)، و«النشر» (٢/ ٢٩٣)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ٥)، و«التيسير» (ص١٢٧). وهما قراءتان متواترتان.

(٢) انظر: المصادر المتقدمة.

(٣) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ٣١٢).

(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٢٥٩)، و«معاني القرآن» للنحاس (٣/ ٣٩٩).

(٥) في «تفسيره» (١١/ ٢٦٠).

(٦) انظر: «معالم التنزيل» (٢/ ٤١٠ ـ ٤١١).

(٧) في «التعريف والإعلام» (ص٧٩ ـ ٨٠).

(٨) «روح المعاني» (١٢/ ٢١٨)، و«الفريد» (٣/ ٣١)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٣١٥).

واللام[١] في ﴿لَيُوسُفُ﴾ هي الموطئة للقَسَم، وإنما قالوا: هذه؛ لأنه بلغهم خبر الرؤيا فأجمع رأيهم على كيده.

وجملة ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ في محلِّ نصب[٢] على الحال، والعصبة: الجماعة، قيل: وهي ما بين الواحد إلى العشرة، وقيل: إلى الخمسة عشر.

وقيل: من العشرة[٣] إلى الأربعين ولا واحد لها من لفظها؛ بل هي كالنَّفَر والرَّهْط، وقد كانوا عشرةً.

﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: لفي ذهاب عَنْ وجه التدبير بالترجيح لهما علينا، وإيثارهما دوننا مع استوائنا في الانتساب إليه، ولا يصح أن يكون مرادهم أنه في دينه في ضلال مبين، ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾؛ أي: قالوا: افعلوا به أحد الأمرين: إما القتل، أو الطرح في أرض، أَو المشير بالقتل بعضهم، والمشير بالطرح البعض الآخر، أو كان المتكلم بذلك واحد منهم فوافقه الباقون، فكانوا كالقائل في نسبة هذا المقول إليهم.

وانتصاب ﴿أَرْضًا﴾ على الظرفية[٤]، والتنكير للإبهام[٥]؛ أي: أرضاً مجهولة، وجواب الأمر ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾؛ أي: يَصْفُ ويخْلصُ فيقبل عليكم ويحبكم حبّاً كاملاً ﴿وَتَكُونُوا۟﴾ معطوف[٥] على ﴿يَخْلُ﴾، ويجوز أن يكون منصوباً بإضمار أَنْ ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾؛ أي: مِنْ بعد يوسف، والمراد: بعد الفراغ مِنْ قتله أو طرحه.

وقيل: مِنْ بعد الذنب الذي اقترفوه في يوسف ﴿قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ في أمور دينكم وطاعة أبيكم، أو صالحين في أمور دنياكم لذهاب ما كان يشغلكم عن ذلك، وهو الحسَدُ ليوسف، وتكدّر خواطركم بتأثيره عليكم هو وأخوه، أو المراد بالصالحين التائبين[٦] مِنْ

---

(١) انظر: المصادر المتقدمة.

(٢) «الدر المصون» (٦/ ٤٤٢)، و«روح المعاني» (١٢/ ٢١٨)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ١٠٩)، و«الفريد» (٣/ ٣١).

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٢٦١).

(٤) «الدر المصون» (٦/ ٤٤٢)، و«التبيان» (٢/ ٧٢٣)، و«الفريد» (٣/ ٣٢)، و«روح المعاني» (١٢/ ٢٢٢).

(٥) «روح المعاني» (١٢/ ٢٢١ ـ ٢٢٢)، و«المحرر الوجيز» (٩/ ٢٥٣).

(٦) في المخطوط: (التائبين). وصوابه: الرفع على اعتبار المبتدأ، ولعل وجه النصب في المخطوط جرياً على النصب في الآية. أو بتقدير: أعني.

الذنب، ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾؛ أي: من الإخوة، قيل[١]: هو يهوذا، وقيل: روبيل، وقيل: شمْعون ﴿لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ قيل: ووجه الإظهار في لا تقتلوا يوسف استجلاب شفقتهم عليه.

قرأ أهل مكة وأهل البصرة وأهل الكوفة وأهل الشام «في غيابة الجُبِّ» بالإفراد[٢]، وقرأ أهل المدينة «في غيابات» بالجمع[٣]، واختار أبو عُبيد[٤] الإفراد وأنكر الجمع؛ لأنّ الموضع الذي ألقوه فيه واحد.

قال النحاس[٥]: وهذا تضييق في اللغة، و«غيابات» على الجمع تجوّز، والغيابة: كلُّ شيء غيب عنك شيئاً، وقيل للقبر: غَيابة، والمراد به هنا: غور البئر الذي لا يقع البصر عليه، أو طاقة فيه. قال الشاعر[٦]:

ألا فالبَثا شهرَيْنِ أو نصفَ ثالثٍ ... إلى ذا كما قَدْ غَيَّبَتْني غِيابيا

والجُبُّ[٧]: البئر التي لم تُطْوَ، ويقال لها قبل الطيّ: رَكِّية، فإذا طويت قيل لها: بئر، سُميت[٨] جبّاً لأنها قُطعت في الأرض قطعاً، وجمع الجب: جبب وجِباب وأَجْباب، وجمع بين الغيابة والجبّ مبالغة في أَنْ يلقوه في مكان من الجبّ شديد الظلمة حتى لا يدركه نظر الناظرين.

قيل: وهذه البئر ببيت المقدس[٩]، وقيل[١٠]: بالأردن.

---

(١) انظر هذه الأقوال في: «معالم التنزيل» (٢/ ٤١١)، و«جامع البيان» (١٣/ ٢٠ ـ ٢١)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٢٦٢).

(٢) «النشر» (٢/ ٢٩٣)، و«روح المعاني» (١٢/ ٢٢٤)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٢٦٢ ـ ٢٦٣)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٣١٥)، و«البحر المحيط» (٦/ ٢٤٤).

(٣) انظر: المصادر المتقدمة.

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١/ ٢٦٢)، والنحاس في «إعرابه» (٢/ ٣١٥).

(٥) في «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٣١٦).

(٦) هو: ابن أحمر، كما ذكره الأخفش في «معاني القرآن» (١/ ١٨٧).

(٧) «تفسير الغريب» لابن عزيز (ص١٩٤)، و«مفردات ألفاظ القرآن» (ص١٨٢).

(٨) «تهذيب اللغة» (١٠/ ٥١١).

(٩) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٢١ ـ ٢٢)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣١٨) بسند صحيح.

(١٠) انظر: «الوسيط» للواحدي (٢/ ٦٠٢).

وجواب الأمر ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ قرأ مجاهد، وأبو رجاء، والحسن، وقتادة «تَلْتقطه» بالمثناة[١] الفوقية، ووجهه: أَنّ بعض السيارة سيارة.

وحكي عن سيبويه[٢]: سقطت بعضُ أصابعه.

ومِنْه قول الشاعر[٣]:

أرى مرَّ السنين أخذْنَ مني كما أخَذ السَّرَارُ[٤] من الهلالِ

وقرأ الباقون[٥] «يلتقطه» بالتحتية.

والسيّارة: الجمعُ الذي يسيرون في الطريق، والالتقاط: هو أخذ شيء مُشْرِف[٦] على الضياع، وكأنّهم أرادوا أنَّ بعضَ السيارة إذا التقطه حمله إلى مكان بعيد بحيث يخفى عَنْ أبيه ومَنْ يعرفه، ولا يحتاجون إلى الحركة بأنفسهم إلى المكان البعيد، فربما أَنّ والدهم لا يأذن لهم بذلك.

ومعنى ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾: إنْ كنتم عاملين بما أشرتُ به عليكم في أمره، كأنّه لم يجزم بالأمر؛ بل وكله إلى ما يجمعون عليه كما يفعله المشير مع من استشاره.

وفي هذا دليل على أَنّ إخوة يوسف ما كانوا أنبياء، فإنّ الأنبياء لا يجوز عليهم التواطؤ على القتل لمسلمٍ ظلماً وبغياً.

وقيل: كانوا أنبياء، وكان ذلك منهم زلة قدمٍ، أوقعهم فيها التهاب نار الحسد في صدورهم، واضطرام جمرات الغيظ في قلوبهم.

ورُدَّ بأنّ الأنبياء معصومون عن مثل هذه المعصية الكبيرة المتبالغة في الكبر، مع ما في ذلك مِنْ قطع الرحم، وعقوق الوالد، وافتراء الكذب، وقيل: إنهم لم يكونوا في ذلك الوقت أنبياء؛ بل صاروا أنبياء من بعد.

---

(١) «القراءات الشاذة» (ص٦٢)، و«روح المعاني» (١٢/ ٢٢٥)، و«البحر المحيط» (٦/ ٢٤٤)، و«المحتسب» (١/ ٢٣٧). القراءة بالتاء الفوقية شاذة.

(٢) في «الكتاب» (١/ ٥٢).

(٣) البيت لجرير. انظر: «ديوانه» (١/ ٥٤٦).

(٤) مشتقٌّ من قولهم استسرَّ القمرُ: أي: خفي ليلة السَّرَار، فربَّما كان ليلةً وربما كان ليلتين. «الصحاح» (٢/ ٦٨٢). وقال الفراء: السرَار، آخر ليلة إذا كان الشهر تسعاً وعشرين، وسراره ليلة ثمان وعشرين، وإذا كان الشهر ثلاثين فسراره ليلة تسع وعشرين. «اللسان» (٤/ ٣٥٧).

(٥) «البحر المحيط» (٦/ ٢٤٤)، و«جامع البيان» (١٣/ ٢٣ ـ ٢٤)، و«روح المعاني» (١٢/ ٢٢٥).

(٦) «روح المعاني» (١٢/ ٢٢٥).

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن الحسن[١] في قوله: ﴿ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ قال: عِبْرة.

وأخرج أيضاً عن قتادة[٢] في الآية يقول: مَنْ سأل عن ذلك فهو هكذا ما قصّ الله عليكم وأنبأكم به.

وأخرج أبو الشيخ[٣] عَنْ الضحاك نحوه.

وأخرج ابن جرير[٤] عن ابن إسحاق قال: إنما قصّ الله على محمد ﷺ خبر يوسف وبَغْيَ إخوته عليه، وحسدَهم إياه حين ذكر رُؤياه لما رأى رسول الله ﷺ من بغي قومه عليه، وحسدهم إيّاه حين أكرمه الله بنبوّته ليأتسّى به.

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة[٥] في قوله: ﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ﴾ يعني: بنيامين هو أخوه لأبيه وأمه، وفي قوله: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ قال: العصبة ما بين العشرة إلى الأربعين.

وأخرج ابن أبي حاتم، وابن جرير، وأبو الشيخ عن ابن زيد[٦] قال: العُصْبة: الجماعة، ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ قال: لفي خطأ مِنْ رأيه.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ في قوله[٧]: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ﴾ قال: قاله كبيرُهم الذي تخلّف، قال: والجُبّ: بئر بالشام ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ قال: التقطه ناس مِنْ الأعراب.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه[٨] في قوله: ﴿وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ يعني: الرّكية.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٠٤) من طريق عثمان بن سعد، به.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٠٤) بسند صحيح.
(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٥٠٠).
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ١٧) من طريق سلمة بن الفضل، عن ابن إسحاق.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٠٥) بسند صحيح.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٠٥) من طريق أصبغ بن الفرج، عن ابن زيد. وسنده ضعيف.
وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ١٩) من طريق ابن وهب، عن ابن زيد. وسنده صحيح.
(٧) وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٢٢) بسند ضعيف. ابن جريج لم يسمع من ابن عباس.
(٨) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٢٢) عن ابن عباس من طريق العوفي، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٠٦) بسند ضعيف.

وأخرج ابن جرير[١] عن الضحاك قال: الجُبّ: البئر.

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ[٢] قال: هي بئر ببيت المقدس، يقول: في بعض نواحيها.

وأخرج ابن أبي حاتم[٣] عن ابن زيد قال: الجُبّ بحذاء طبرية، بينه وبينها أميالٌ.

[يوسف وإخوته وما كان منهم]:

﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾.

لما أجمع رأيهم على أنْ يلقوه في غيابات الجبّ، جاءوا إلى أبيهم وخاطبوه بلفظ الأبوّة؛ استعطافاً له وتحريكاً للحنوّ الذي جُبلت عليه طبائع الآباء للأبناء، وتوسلاً بذلك إلى تمام ما يريدونه مِنْ الكيد الذي دبّروه، واستفهموه[٤] استفهام المُنْكِر لأمرٍ ينبغي أن يكون الواقع على خلافه، فـ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾؛ أي: أيّ شيء لك لا تجعلنا أمناء عليه، وكأنهم قد كانوا سألوه قبل ذلك أن يخرج معهم يوسف فأبى.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٢٢ ـ ٢٣) بسند ضعيف.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٢١ ـ ٢٢)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣١٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٠٧) بسند صحيح.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٠٧) بسند صحيح.

(٤) «الفريد» (٣/ ٣٤)، و«روح المعاني» (١٢/ ٢٢٦).

وقرأ يزيد بن القعقاع، وعَمرو بن عبيد، والزهري «لا تأمنا» بالإدغام[(١)] [٦٨/٣] بغير إشمام.

وقرأ طلحة[(٢)] بن مُصِّرف «لا تأمننا» [٣/٦٨] بنونين ظاهرتين على الأصل.

وقرأ يحيى بن وثّاب، وأبو رزين، والأعمش[(٣)] «لا تِيمَنَّا» وهو لغة تميم كما تقدم.

وقرأ سائر القراء بالإدغام[(٤)] والإشمام ليدلّ على حال الحرف قبل إدغامه.

﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ في حفظه وحيطته حتى نردّه إليك ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا﴾؛ أي: إلى الصحراء التي أرادوا الخروج إليها، و﴿غَدًا﴾ ظرف[(٥)]، والأصل عند سيبويه[(٦)]: غدوة.

قال النضر بن شميل[(٧)]: ما بين الفجر وطلوع الشمس يقال له: غدوة، وكذا يقال له: بُكْرة «نرتعْ ونلعبْ» هذا جواب الأمر.

قرأ أهل البصرة وأهل مكة وأهل الشام بالنون وإسكان[(٨)] العين كما رواه البعض عنهم.

وقرءوا أيضاً بالاختلاس.

وقرأ الباقون[(٩)] بالنون وكسر العين.

---

(١) «النشر» (١/ ٣٠٣)، و«روح المعاني» (١٢/ ٢٢٧)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٢٧٢)، و«التيسير» (ص١٢٧)، و«البحر المحيط» (٦/ ٢٥٤).

(٢) انظر: المصادر المتقدمة. قراءة يزيد بن القعقاع أبي جعفر بالإدغام دون إشمام قراءة متواترة، وقرأ باقي العشرة بالإدغام مع الإشمام أو الرَّوم وتضبطه المشافهة وغير هذين القراءتين فشاذ.

(٣) «روح المعاني» (١٢/ ٢٢٧)، و«البحر المحيط» (٦/ ٢٥٤).

(٤) «النشر» (١/ ٣٠٣)، و«البحر المحيط» (٦/ ٢٥٤)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٣١٦)، و«معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٩٤).

(٥) «روح المعاني» (١٢/ ٢٢٧)، و«الفريد» (٢/ ٣٤).

(٦) «الكتاب» (١/ ٢٤).

(٧) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ٣١٧).

(٨) «جامع البيان» (١٣/ ٢٤ ـ ٢٥)، و«التيسير» (ص١٢٨)، و«روح المعاني» (١٢/ ٢٢٩)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٢٧٣).

(٩) «البحر المحيط» (٦/ ٢٥٥)، و«روح المعاني» (١٢/ ٢٢٩)، و«جامع البيان» (١٣/ ٢٥)، و«التيسير» (ص١٣٨).

والقراءة الأولى[١] مأخوذة من قول العرب: رتع الإنسان أو البعير إذا أكل كيف شاء، أو المعنى: نتسع في الخَصْب، وكلُّ مُخْصِب راتع. قال الشاعر[٢]:

فـارعَـىْ فـزارةُ لا هَـنَـاكِ الـمَـرْتَـعُ[٣]

ومنه قول الشاعر[٤]:

تَـرْتـعُ مـا رَتَـعَـتْ حـتّـى إذا ادَّكَـرَتْ　　فـإنـمّـا هـي إقـبـالٌ وإدبـارُ

والقراءة الثانية مأخوذة مِنْ رعي الغنم.

وقرأ مجاهد وقتادة ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ بالتحتية فيهما[٥]، ورفع يلعبُ على الاستئناف، والضمير ليوسف.

وقال القتيبي[٦]: معنى «نرتع» نتحارس ونحافظ ويرعى بعضُنا بعضاً، من قولهم: رعاك الله؛ أي: حَفِظَك، (ونلعب) مِنْ اللعب.

قيل لأبي عمرو بن العلاء: كيف قالوا: ونلعب وهم أنبياء؟ فقال: لم يكونوا[٧] يومئذٍ أنبياء.

وقيل: المراد به: اللّعب المباح مِنْ الأنبياء، وهو مجرّد الانبساط.

وقيل: هو اللّعب الذي يتعلمون به الحرب، ويتقوّون به عليه كما في قولهم: ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ لا اللّعب المحظور الذي هو ضدّ الحق، ولذلك لم ينكر[٨] يعقوب عليهم لمّا قالوا: ونلعب، ومنه قوله لجابر[٩]: «فهلا بكراً تلاعبها وتلاعبك».

---

(١) انظر: المصادر المتقدمة.
(٢) الفرزدق. انظر: «ديوانه» (١/ ٤٠٨).
(٣) وصدر البيت:
ومـضـت لـمَـسـلَـمـةَ الـركـاب مـودَّعـاً
(٤) البيت للخنساء. انظر: «ديوانها» (ص٤٨).
(٥) «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٣١٧)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٢٧٤)، و«المحتسب» (١/ ٣٢٣)، و«البحر المحيط» (٦/ ٢٥٥). قال في «تخريج القراءات في فتح القدير» (ص١٧٧): الصواب في العزو في هذا الموضع هو: قرأ نافع وأبو جعفر (يرتع ويلعبَ) بالياء وكسر عين (يرتع)، وقرأ ابن كثير (نرتع ونلعبَ) بالنون فيهما وكسر عَين (نرتع)، وقرأ أبو عمرو وابن عامر بالنون فيهما وسكون عين (نرتعْ) وقرأ الباقون بالياء فيهما وسكون عين (يرتعْ)، وهناك وجه لقنبل عن ابن كثير بإثبات الياء بعد العين في (نرتعي) وغير هذا مما ذكر فشاذ.ا.هـ.
(٦) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١/ ٢٧٤).
(٧) «جامع البيان» (١٣/ ٢٥)، و«المحرر الوجيز» (٩/ ٢٥٧).
(٨) «زاد المسير» (٤/ ١٨٨)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٢٧٤).
(٩) أخرجه أحمد رقم (١٤٣٠٦)، والبخاري رقم (٢٣٠٩)، ومسلم رقم (٧١٥).

فأجابهم يعقوب بقوله: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ﴾؛ أي: ذهابكم به، واللام في ﴿لَيَحْزُنُنِيٓ﴾ لام الابتداء(١) للتأكيد ولتخصيص المضارع بالحال، أخبرهم أنه يَحْزن لغيبة يوسف عنه، لفرط محبّته له وخوفه عليه، ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾؛ أي: ومع ذلك أخاف أن يأكله الذئب.

قال يعقوب هذا تخوّفاً عليه منهم، فكنَى عَنْ ذلك بالذئب.

وقيل: إنه خاف أن يأكله الذئب حقيقة؛ لأن ذلك المكان كان كثير الذئاب، ولو خاف منهم عليه أن يقتلوه لأرسل معهم مَنْ يحفظه.

قال ثعلب(٢): والذئب مأخوذ من تذأَّبت الريحُ: إذا هاجت مِنْ كل وجه.

قال: والذئب مهموز؛ لأنّه يجيء مِنْ كل وجه. وقد قرأ ابن كثير ونافع في رواية عنه بالهمز(٣) على الأصل، وكذلك أبو عمرو في رواية عنه وابن عامر، وعاصم، وحمزة.

وقرأ الباقون بالتخفيف(٤). ﴿وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾ لاشتغالكم بالرتع واللعب، أو لكونهم غير مهتمين بحفظه ﴿قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾: اللام هي الموطئة(٥) للقسم.

والمعنى: والله لئن أكله الذئب والحال: إن ﴿نَحْنُ عُصْبَةٌ﴾؛ أي: جماعة كثيرة عشرة ﴿إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾؛ أي: إنما في ذلك الوقت، وهو أكل الذئب له لخاسرون هالكون ضعفاً وعجزاً، أو مستحقون للهلاك لعدم الاعتداد بنا، وانتفاء القدرة على أيسر شيء وأقلّه، أو مستحقون لأن يُدْعى علينا بالخسار والدّمار، وقيل: ﴿لَّخَٰسِرُونَ﴾ لجاهلون حقه، وهذه الجملة جواب(٦) القسم المقدّر في الجملة التي

---

(١) «الدر المصون» (٦/ ٤٥١)، و«الفريد» (٣/ ٣٦)، و«روح المعاني» (١٢/ ٢٣٠).
(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١/ ٢٧٥)، والنحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ٣١٨).
(٣) «روح المعاني» (١٢/ ٢٣٢)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٢٧٥)، و«البحر المحيط» (٦/ ٢٤٦)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٨٣)، و«زاد المسير» (٤/ ١٨٨)، و«النشر» (١/ ٣٩٤).
(٤) انظر: المصادر المتقدمة. قرأ ورش عن نافع والكسائي وأبو جعفر وخلف بإبدال الهمزة ياءً بلاخلاف، وأبدلها أبو عمرو بخلافٍ عنه، والابدال قراءة حمزة إذا وقف على كلمة (الذئب) وغير هؤلاء قرأ بالهمزة على الأصل.ا.هـ.
(٥) «روح المعاني» (١٢/ ٢٣٤)، و«الفريد» (٣/ ٣٦)، و«البحر المحيط» (٦/ ٢٤٦).
(٦) «روح المعاني» (١٢/ ٢٣٤)، و«الدر المصون» (٦/ ٤٥٢)، و«الفريد» (٣/ ٣٦).

قبلها ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ﴾ مِنْ عند يعقوب ﴿وَأَجْمَعُوٓا۟﴾ أمرَهم ﴿أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ قد تقدّم تفسير الغيابةِ والجُبِّ قريباً، وجواب «لمّا»[1] محذوف لظهوره ودلالة المقام عليه، والتقدير: فعلوا به ما فعلوا، وقيل: جوابه ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ وقيل: الجواب[2] المقدّر: جعلوه فيها، وقيل: الجواب ﴿أَوْحَيْنَآ﴾ [يوسف: ٣] والواو مقحمة[3]، ومثله قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ۝١٠٣ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ [الصافات: ١٠٣ ـ ١٠٤]؛ أي: ناديناه ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾؛ أي: إلى يوسف تيسيراً له وتأنيساً لوحشته مع كونه صغيراً اجتمع على إنزال الضرر به عشرة رجال من إخوته، بقلوب غليظة فقد نُزعت عنها الرحمةُ، وسلبت منها الرأفة، فإنّ الطبع البشري ـ دع عنك الدين ـ يتجاوز عَنْ ذنب الصغير ويغتفره لضعفه عن الدفع وعجزه عن أيسر شيء يراد منه، فكيف بصغير لا ذنبَ له؛ بل كيفَ بصغير هو أخ وله ولهم أب مثل يعقوب؟ فلقد أبعد مَنْ قال: إنّهم كانوا أنبياء في ذلك الوقت، فما هكذا عمل الأنبياء ولا فعل الصالحين.

وفي هذا دليل على أنه يجوز أَنْ يوحي[4] اللهُ إلى مَنْ كان صغيراً ويعطيه النبوّة حينئذٍ كما وقع في عيسى ويحيى بن زكريا، وقد قيل: إنه كان ذلك الوقت قد بلغ مبالغ الرجال، وهو بعيد جدّاً، فإن مَنْ كان قد بلغ مبالغ الرجال لا يخاف عليه أن يأكله الذئب.

﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا﴾؛ أي: لتخبرنّ إخوتك بأمرهم هذا الذي فعلوه معك بعد خلوصك مما أرادوه بك من الكيد وأنزلوه عليك من الضرر.

وجملة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ في محل[5] نصب على الحال؛ أي: لا يشعرون بأنّك أخوهم يوسف لاعتقادهم هلاكك بإلقائهم لك في غيابة الجبّ، ولبعد عهدهم بك، ولكونك قد صرت عند ذلك في حال غير ما كنت عليه وخلاف ما عهدوه منك، وسيأتي ما قاله لهم عند دخولهم عليه بعد أن صار إليه مُلْك مصر.

---

(١) «التبيان» (٢/ ٧٢٥)، و«روح المعاني» (١٢/ ٢٣٥)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ١١٢).

(٢) «الفريد» (٣/ ٣٨).

(٣) «البحر المحيط» (٦/ ٢٤٨)، و«جامع البيان» (١٣/ ٣٠).

(٤) «النكت والعيون» (٣/ ١٤)، و«جامع البيان» (١٣/ ٣١ ـ ٣٢)، و«زاد المسير» (٤/ ١٩٠ ـ ١٩١).

(٥) «البحر المحيط» (٦/ ٢٤٨)، و«الدر المصون» (٦/ ٤٥٤)، و«الفريد» (٣/ ٣٧)، و«التبيان» (٢/ ٧٢٥).

قوله: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ﴾ ﴿عِشَآءٗ﴾ منتصب[١] على الظرفية، وهو آخر النهار، وقيل: في الليل، و﴿يَبۡكُونَ﴾ في محل نصب[٢] على الحال؛ أي: باكين أو متباكين لأنّهم لم يبكوا حقيقة؛ بل فعلوا فعل مَنْ يبكي ترويجاً لكذبهم، وتنفيقاً لمكرهم وغدرهم. فلمّا وصلوا إلى أبيهم ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ﴾؛ أي: نتسابق في العَدْو أو في الرمي؛ وقيل: ننتضل، ويؤيده قراءة ابن مسعود «ننتضل»[٣].

قال الزجّاج[٤]: وهو نوع مِنْ المسابقة.

وقال الأزهري[٥]: النِّضال في السهام، والرّهان في الخيل، والمسابقة تجمعهما.

قال القُشيري[٦]: نستبق؛ أي: في الرمي أو على الفرس أو على الأقدام. والغرض مِنْ المسابقة التدرّب بذلك في القتال ﴿وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا﴾؛ أي: عند ثيابنا ليحرسَها ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ﴾ الفاء للتعقيب[٧]؛ أي: أكله عقب ذلك.

وقد اعتذروا إليه بما خافه سابقاً عليه، وربّ كلمةٍ تقول لصاحبها دعني ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾ بمصدّق لنا في هذا العذر الذي أبدينا، والكلمة التي قلناها ﴿وَلَوۡ كُنَّا﴾ عندك أو في الواقع ﴿صَٰدِقِينَ﴾ لما قد علق بقلبك من التهمة لنا في ذلك مع شدة محبتك له[٨].

قال الزجاج[٩]: والمعنى: ولو كنا عندك من أهل الثقة والصدق ما صدّقتنا في هذه القضية لشدّة محبتك ليوسف.

وكذا ذكره ابن جرير[١٠] وغيره ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ﴾ ﴿عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ﴾

---

(١) «التبيان» (٢/ ٧٢٥)، و«الدر المصون» (٦/ ٢٥٤)، و«روح المعاني» (١٢/ ٢٤٠).
(٢) «الفريد» (٣/ ٣٨)، و«التبيان» (٢/ ٧٢٥)، و«الدر المصون» (٦/ ٤٥٤).
(٣) «روح المعاني» (١٢/ ٢٤١)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٢٨١)، و«معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٩٥). وهي قراءة شاذة مخالفة للرسم.
(٤) في «معاني القرآن» (٣/ ٩٥).
(٥) في «الزاهر» (ص٥٣٠).
(٦) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١/ ٢٨١).
(٧) انظر: «البحر المحيط» (٦/ ٢٤٩).
(٨) «النكت والعيون» (٣/ ١٤)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٢٨٢).
(٩) في «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٩٦).
(١٠) في «جامع البيان» (١٣/ ٣٤).

في محل نصب[١] على الظرفية؛ أي: جاءوا فوقَ قميصِه بدم، ووصف الدم بأنه كذب مبالغة كما هو معروف في وصف اسم العين باسم المعنى.

وقيل: المعنى: بدم ذي كذب أو بدم مكذوب فيه. وقرأ الحسن وعائشة (بدم كدبٍ) بالدال[٢] المهملة؛ أي: بدم طريّ. يقال: للدم الطريّ: كدب.

وقال الشعبي[٣]: إنّه المتغير، والكذب أيضاً: البياض الذي يخرج في أظفار الأحداث، فيجوز أن يكون شبه الدم في القميص بالبياض الذي يخرج في الظفر من جهة اللونين.

وقد استدّل يعقوب[٤] على كذبهم بصحة القميص، وقال لهم: متى كان هذا الذئبُ حكيماً يأكل يوسف ولا يخرق القميص؟ ثم ذكر الله سبحانه ما أجاب به يعقوب عليهم فقال: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾؛ أي: زيّنت وسهّلت. قال النيسابوري[٥]: التسويل تقرير في معنى النفس مع الطمع في تمامه، وهو تفعيل من السَّوَل وهو الأمنية.

قال الأزهري[٦]: وأصله مهموز غير أن العرب استثقلوا فيه الهمزة ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ قال الزجاج[٧]: أي: فشأني [٣/٦٩] أو الذي أعتقده صبر جميل.

وقال قُطْرب[٨]: أي: فصبري صبرٌ جميل؛ وقيل: فصبرٌ جميل أولى بي، قيل: والصبر الجميل هو الذي لا شكوى معه.

قال الزجّاج[٩]: قرأ عيسى بن عمر فيما زعم سهل بن يوسف «فصبراً جميلاً»[١٠] قال: وكذا في مصحف أنس. قال المبرِّد[١١]: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ بالرفع

---

(١) «التبيان» (٢/٧٢٦)، و«الفريد» (٣/٣٩)، و«الدر المصون» (٦/٤٥٦).

(٢) «القراءات الشاذة» (ص٦٢ ـ ٦٣)، و«المحتسب» (١/٣٣٤)، و«روح المعاني» (١٢/٢٤٣)، و«البحر المحيط» (٦/٢٥٠). وهي قراءة شاذة مخالفة للرسم.

(٣) «النكت والعيون» (٣/١٥).

(٤) «أحكام القرآن» لابن العربي (٣/١٠٦٥).

(٥) تفسيرنيسابوري.

(٦) في «تهذيب اللغة» (١٣/٦٧).

(٧) في «معاني القرآن» (٣/٩٦).

(٨) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٢/٣١٨).

(٩) في «معاني القرآن» (٣/٩٦).

(١٠) «القراءات الشاذة» (ص٦٣)، و«روح المعاني» (١٢/٢٤٦). وهي قراءة شاذة مخالفة للرسم.

(١١) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٢/٣١٨).

أولى من النصب؛ لأن المعنى: قال: رَبِّ عندي صبر جميل، وإنما النصب على المصدر؛ أي: فلأصبرنّ صبراً جميلاً. قال الشاعر[(١)]:

شكا إليّ جَمَلي طولَ السّرى صبراً جميلاً فكلانا مُبْتلى

﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ﴾؛ أي: المطلوب مِنْه العون ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾؛ أي: على إظهار حال ما تصفون، أو على احتمال ما تصفون، وهذا منه عَلَيْهِ السَّلَامُ إنشاء لا إخبار.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[(٢)] في قوله: «أرسله معنا غدا نرتع ونلعب» قال: نَسْعى وننشط ونَلْهو.

وأخرج أبو الشيخ، وابن مردويه، والسِّلَفي في «الطيوريات» عن ابن عمر[(٣)] قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُلَقّنوا الناسَ فيكذبوا، فإنّ بني يعقوب لم يعلموا أن الذئبَ يأكل الناسَ، فلما لقّنهم أبوهم كذبوا، فقالوا: أكله الذئبُ».

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد[(٤)] في قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ الآية، قال: أُوحِي إلى يوسفَ وهو في الجُبّ لتُنبئنّ إخوتك بما صنعوا ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بذلك الوحي.

وأخرج هؤلاءِ عَنْ قتادة[(٥)] قال: أوحى الله إليه وحياً وهو في الجُبّ أن سينبّئهم بما صنعوا ﴿وَهُمْ﴾؛ أي: إخوته ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ بذلك الوحي. فهوّن ذلك الوحيُّ عليه ما صنع به.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس[(٦)] في قوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ قال: لم يعلموا بوحي الله إليه.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه[(٧)] قال: لما دخل إخوة يوسف على

---

(١) يراجع: «جامع الأصول» (٣/ ٢٥٠).
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٢٦) بسند ضعيف.
(٣) عزاه إليهم السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٥١٠).
(٤) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣١٨)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٣١، ٣٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٠٩) بسند صحيح.
(٥) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣١٨)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٣٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٠٩) بسند صحيح.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٠٩، ٢١١٠) من طريق عباد بن إسحاق، به.
(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٣٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٦٢) من =

يُوسُفَ فعرفهم وهم له مُنْكرون جيء بالصُّواع فوضعه على يده، ثم نقره فطَنّ، فقال: إنّه ليخبرني هذا الجام أنّه كان لكم أخ مِنْ أبيكم يقال له: يوسف يُدْنيه دوَنكم، وأنكم انطلقتم به فألقيتموه في غَيابة الجُبّ فأتيتم أباكم فقلتم: إنّ الذئب أكلَه، وجئتم على قميصه بدمٍ كذبٍ، فقال بعضُهم لبعض: إنّ هذا الجام ليخبره «بخبركم»، فقال ابن عباس: فلا نرى هذه الآية نزلت إلاّ في ذلك ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

وأخرج ابنُ أبي حاتم، وابن مردويه عن أبي بكر بن عياش[(١)] قال: كان يوسف في الجبّ ثلاثة أيام.

وأخرج أبو الشيخ[(٢)] عن الضحاك ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ قال: بمصدّق لنا.

وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[(٣)] ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ قال: كان دَمَ سَخْلة.

وأخرج ابن جرير عن مجاهد[(٤)] مثلَه.

وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس[(٥)] ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ قال: لمّا أُتي يعقوبُ بقميص يوسف فلم ير فيه خَرْقاً قال: كَذَبْتم لو كان كما تقولون أكله الذئب لخرَق القميصَ.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس[(٦)] في قوله: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ قال: أمرتكم أنفسُكم.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عَنْ قتادة[(٧)] في قوله: ﴿بَلْ

= طريق صدقة بن عبادة الأسدي وأبوه. سكت عنهما البخاري في «التاريخ الكبير» (٤/ ٢٩٧)، وكذلك ابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» (٤/ ٤٣٣).

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٠٧) من طريق أحمد بن عبد الله بن يونس، به.

(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٥١٢).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١١١)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٣٦)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣١٨) بسند حسن.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٣٥) بسند صحيح.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٣٨) بسند صحيح.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١١١) بسند ضعيف. الضحاك لم يسمع من ابن عباس.

(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٣٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١١١) بسند صحيح.

سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ يقول: بل زيّنت لكم أنفسكم أمراً ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾؛ أي: على ما تكذبون.

وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب «الصبر»، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عَنْ حبان بن أبي جَبَلة[1] قال: «سُئل رسولُ الله ﷺ عن قوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ قال: لا شكوى فيه، مَنْ بثّ لم يَصْبِرْ»، وهو مِنْ طريق هشيم عن عبد الرحمٰن، عن حبّان بن أبي حبلة، وهو مرسل.

وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد[2] في قوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ قال: ليس فيه جَزَعٌ.

[نهاية المحنة الأولى في حياة يوسف عليه السلام]:

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٩) وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (٢٠)﴾.

[يوسف في مصر و التمكين]:

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢)﴾.

هذا شروع في حكاية خلاص يوسف وما كان بعد ذلك من خبره، وقد تقدم تفسير السيارة، والمراد بها هنا رفقةٌ مارة تسير[3] مِنَ الشام إلى مصر، فأخطئوا الطريق وهاموا حتى نزلوا قريباً مِنْ الجُبّ، وكان في قفرة بعيدة من العمران.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٤٠ ـ ٤١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١١٢)، وابن أبي الدنيا في كتاب «الصبر» رقم (١١٠) بسند ضعيف؛ لإرسال حبّان بن أبي جبلة، فهو تابعي.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٤١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١١٢) بسند صحيح.

(٣) «جامع البيان» (١٣/ ٤٢)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٢٩١).

والوارد: الذي يَرِدُ الماءَ ليستقي للقوم، وكان اسمه فيما ذكر المفسرون: مالك بن ذعر(١) مِنْ العرب العاربة ﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾؛ أي: أرسلَه، يقال: أدلى دلوه إذا أرسلها ليملأها، ودلّاها: إذا أخرجها، قاله الأصمعي(٢) وغيره. فتعلّق يوسف بالحَبْل، فلما خرج الدلو مِنْ البئر أبصره الوارد فـ«قال يا بشراي(٣)» هكذا قرأ أهل المدينة وأهل مكة وأهل البصرة، وأهل الشام بإضافة البشرى إلى الضمير.

وقرأ أهل الكوفة(٤) ﴿يَـٰبُشْرَىٰ﴾ غير مضاف، ومعنى مناداته للبشرى: أنه أراد حضورها في ذلك الوقت، فكأنّه قال: هذا وقت مجيئك وأوان حضورك.

وقيل: إنّه نادى رجلاً اسمه بُشْرى. والأوّل أولى.

قال النحاس(٥): والمعنى مِنْ نداء البشرى: التبشير لمن حضر، وهو أوكد من قولك: بشرته كما تقول: يا عجبا؛ أي: يا عجب هذا من أيامك فاحضر. قال(٦): وهذا مذهب سيبويه.

﴿وَأَسَرُّوهُ﴾؛ أي: أسرّ الوارد(٧) وأصحابه الذين كانوا معه يوسف فلم يُظهروه لهم؛ وقيل: إنّهم لم يخفوه؛ بل أخفوا وجدانه لهم في الجبّ، وزعموا أنه دفعه إليهم أهل الماء ليبيعوه لهم بمصر.

وقيل: ضمير الفاعل(٨) في «أسرّوه» لإخوة يوسف، وضمير المفعول(٨) ليوسف، وذلك أنّه كان يأتيه أخوه يهوذا كلّ يوم بطعام، فأتاه يوم خروجه من البئر فأخبر إخوته فأتوا الرفقة وقالوا: هذا غلام أبقَ منّا فاشتروه منهم، وسكت يوسف مخافة أَنْ يأخذوه فيقتلوه، والأوّل أولى.

وانتصاب(٩) ﴿بِضَـٰعَةً﴾ على الحال؛ أي: أخفوه حال كونه بضاعة؛ أي: متاعاً للتجارة، والبضاعة: ما يُبْضع مِنْ المال؛ أي: يُقطع مِنْه لأنها قطعة من المال الذي يتّجر به.

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٢٩١)، و«المحرر الوجيز» (٩/ ٢٦٦).
(٢) ذكره النحاس في «معاني القرآن» (٣/ ٤٠٥).
(٣) «النشر» (٢/ ٢٩٣)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٢٩٢)، و«جامع البيان» (١٣/ ٤٥)، و«المحرر الوجيز» (٩/ ٢٦٧)، و«البحر المحيط» (٦/ ٢٥٢).
(٤) انظر: المصادر المتقدمة.
(٥) في «إعراب القرآن» (٢/ ٣١٩).
(٦) النحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ٣١٩).
(٧) «جامع البيان» (١٣/ ٤٦).
(٨) «الفريد» (٣/ ٤٢)، و«البحر المحيط» (٦/ ٢٥٢)، و«التبيان» (٢/ ٧٢٧).
(٩) «مشكل إعراب القرآن» (١/ ٤٢٥)، و«التبيان» (٢/ ٧٢٧).

قيل: قاله لهم الوارد وأصحابُه إِنّه بضاعة استبضعناها[١] مِنْ الشام مخافة أن يشاركوهم فيه.

وفي قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ وعيدٌ شديد لمن كان فعله سبباً لما وقع فيه يوسف مِنْ المحن، وما صار فيه من الابتذال بجري البيع والشراء فيه، وهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم: يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم كما قال نبينا ﷺ في وصفه بذلك. قوله: ﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ﴾ يقال: شراه بمعنى: اشتراه، وشراه: بمعنى: باعه. قال الشاعر[٢]:

وَشَرَيْتُ بُرداً ليتني مِنْ بعدِ بُردٍ كنتُ هامَه

أي: بعته.

وقال آخر[٣]:

فلما شَراها فاضَتْ العينُ عَبرةً[٤]

أي: اشتراها. والمراد هنا: وباعوه؛ أي: باعه الوارد وأصحابه ﴿بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ﴾؛ أي: ناقص أو زائف، وقيل[٥]: يعود إلى إخوة يوسف على القول السابق، وقيل: عائد إلى الرفقة، والمعنى: اشتروه؛ وقيل: بَخَسَ: ظلمَ، وقيل: حرام. قيل: باعوه بعشرين درهماً، وقيل: بأربعين، ودراهم[٦] بدل مِنْ ثمن؛ أي: دنانير.

و﴿مَعۡدُودَةٖ﴾ وصف لدراهم، وفيه إشارة إلى أنَّها قليلة تُعدّ ولا توزن؛ لأنهم كانوا لا يزنون ما دون أوقية وهي أربعون درهماً، ﴿وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ يقال: زهَدتُ وزهِدتُ بفتح الهاء وكسرها.

قال سيبويه[٧] والكسائي: قال أهل اللغة[٨]: يقال: زهد فيه؛ أي: رغب عنه، وزهد عنه؛ أي: رغب فيه.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/٤٦) عن مجاهد. بسند صحيح.
(٢) قائله: يزيد بن مُفرِّغ الحميري.
(٣) هو: الشَّماخ بن ضرار. انظر: «ديوانه» (ص١٩٠).
(٤) وعجز البيت: وفي الصَّدر حُزَّازٌ من اللَّومِ حَافِزُ
(٥) سيأتي تخريج هذه الأقوال.
(٦) «مشكل إعراب القرآن» (١/ ٤٢٥)، و«الفريد» (٣/ ٤٢)، و«التبيان» (٢/ ٧٢٧).
(٧) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ٣٢٠).
(٨) «الصحاح» (٢/ ٤٨١).

والمعنى: أنهم كانوا فيه من الراغبين عنه، الذين لا يبالون به فلذلك باعوه بذلك الثمن البخس، وذلك لأنّهم التقطوه، والملتقط للشيء متهاون به، والضمير من ﴿وَكَانُوا۟﴾ يرجع إلى ما قبله على حسب اختلاف الأقوال فيه.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ﴾ هو العزيز الذي كان على خزائن مصر، [٣/٧٠] وكان وزيراً لملك مصر، وهو الريّان[١] بن الوليد من العمالقة.

وقيل: إنّ الملك هو فرعون موسى[٢]، قيل: اشتراه بعشرين ديناراً.

وقيل: تزايدوا في ثمنه فبلغ أضعاف وزنه مسكاً وعنبراً وحريراً وورقاً وذهباً ولآلئ وجواهر.

فلما اشتراه العزيز قال: ﴿لِٱمْرَأَتِهِۦٓ﴾ واللّام متعلقة باشتراه ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾؛ أي: منزله[٣] الذي يثوى فيه بالطعام الطيب واللباس الحسن. يقال: ثوى بالمكان؛ أي: أقام به ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾؛ أي: يكفينا بعض المُهمّات مما نحتاج إلى مثله فيه ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾؛ أي: نتبناه فنجعله ولداً لنا.

قيل[٤]: كان العزيز حصوراً لا يُولد له، وقيل: كان لا يأتي النساء، وقد كان تفرّس فيه أنّه ينوب عَنْه فيما إليه من أمر المملكة.

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ الكاف في محل نصب[٥] على أنه نعت مصدر محذوف، والإشارة إلى ما تقدّم من إنجائه من إخوته وإخراجه من الجبّ، وعطف قلب العزيز عليه؛ أي: مثل ذلك التمكين البديع مكنا ليوسف حتى صار متمكناً من الأمر والنهي، يقال: مكّنه فيه؛ أي: أثبته فيه، ومكن له فيه؛ أي: جعل له فيه مكاناً، ولتقارب المعنيين يُستعمل كل واحد منهما مكان الآخر.

قوله: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ هو علّة[٦] لمعلل محذوف كأنه قيل: فعلنا ذلك التمكين لنعلِّمه مِنْ تأويل الأحاديث، أو كان ذلك الإنجاء لهذه العلة، أو

---

(١) ذكره ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٦١)، والقرطبي في «تفسيره» (١١/ ٢٩٩).
(٢) «جامع البيان» (١٣/ ٦١ ـ ٦٢).
(٣) ذكره الرازي في «تفسيره» (١٨/ ١٠٨ ـ ١٠٩).
(٤) «جامع البيان» (١٣/ ٦٣)، و«الوسيط» للواحدي (٢/ ٦٠٥).
(٥) «التبيان» (٢/ ٧٢٧)، و«البحر المحيط» (٦/ ٢٥٢).
(٦) «البحر المحيط» (٦/ ٢٥٣)، و«التبيان» (٢/ ٧٢٧)، و«الفريد» (٣/ ٤٤).

معطوف على مقدّر، وهو أن يقال: مكنّا ليوسف ليترتب على ذلك ما يترتب مما جرى بينه وبين امرأة العزيز، ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ﴾؛ ومعنى تأويل الأحاديث: تأويل الرؤيا فإنّها كانت مِنْ الأسباب التي بلغ بها ما بلغ من التمكن، وقيل: معنى تأويل الأحاديث: فهم أسرار الكتب الإلٰهية وسنن من قبله من الأنبياء، ولا مانع من حمل ذلك على الجميع ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾؛ أي: على أمر نفسه لا يمتنع منه شيء، ولا يغالبه عليه غيرُه مِنْ مخلوقاته ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]. ومِنْ جملة ما يدخل تحت هذا العام كما يفيد ذلك إضافة اسم الجنس إلى الضمير ما يتعلق بيوسف عليه السلام من الأمور التي أرادها الله سبحانه في شأنه.

وقيل: معنى ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾: أنّه كان مِنْ أمر يعقوب أن لا يقصّ رؤيا يوسف على إخوته، فغلب أمر الله سبحانه حتى قصت عليهم حتى وقع منهم ما وقع، وهذا بعيد جدّاً ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: لا يطلعون على غيب[1] الله وما في طيه من الأسرار العظيمة والحكم النافعة، وقيل: المراد بالأكثر الجميع؛ لأنه لا يعلم الغيب إلاّ الله.

وقيل: إن الله سبحانه قد يطلع بعض عبيده على بعض غيبه كما في قوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧].

وقيل: المعنى: ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن الله غالب على أمره وهم المشركون ومن لا يؤمن بالقدر[2].

قوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ﴾ الأشدّ. قال سيبويه[3]: جمعٌ واحده شِدّة.

وقال الكسائي[4]: واحده شَدّ.

---

(١) «أحكام القرآن» لابن العربي (٣/ ١٠٦٨).
(٢) «معالم التنزيل» (٢/ ٤٠٧)، و«الوسيط» للواحدي (٢/ ٦٠٦)، و«جامع البيان» (١٣/ ٦٦).
(٣) في «الكتاب» (٣/ ٥٨١ ـ ٥٨٢).
(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١/ ٣٠٤)، والنحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ٣٢١).

وقال أبو عُبيدة[١]: إنه لا واحد له من لفظه عند العرب، ويردّه قول الشاعر[٢]:

عـهـدي بـه شَـد الـنـهـارِ كـأنَّـمـا خُـضَـبَ الـبَـنـانَ ورأسَـهُ بـالـعِـظْـلَـم

والأشُدّ: هو وقت استكمال القوة ثم يكون بعده النقصان. قيل[٣]: هو ثلاث وثلاثون سنة، وقيل: بلوغ الحُلُم، وقيل: ثاني عشرة سنة، وقيل غير ذلك مما قد قدمنا بيانه في النِّساء والأنعام.

والحكم: هو ما كان يقع منه مِنْ الأحكام في سلطان ملك مصر، والعلم: هو العلم[٤] بالحكم الذي كان يحكمه؛ وقيل[٥]: العقل والفهم والنبوّة.

وقيل: الحكم هو النبوّة، والعلم: هو العلم بالدين؛ وقيل: علم الرؤيا. ومن قال: إنه أوتي النبوة صبيّاً قال: المراد بهذا الحكم والعلم الذي آتاه الله هو: الزيادة فيهما ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾؛ أي: ومثل ذلك الجزاء العجيب نجزي المحسنين، فكلُّ مَنْ أحسن في عمله أحسن الله جزاءه. وجعل عاقبة الخير من جملة ما يجزيه به. وهذا عام يدخل تحته جزاء يوسف على صبره الحسن دخولاً أوليّاً.

قال الطبري[٦]: هذا وإن كان مخرجه ظاهراً على كل محسن فالمراد به: محمد ﷺ، يقول الله تعالى كما فعل هذا بيوسف ثم أعطيته ما أعطيته كذلك أنجيك من مشركي قومك الذين يقصدونك بالعداوة، وأمكن لك في الأرض. والأولى ما ذكرناه مَنْ حمل العموم على ظاهره فيدخل تحته ما ذكره ابن جرير الطبري.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن المنذر، وأبو الشيخ عن الضحاك[٧] في قوله: ﴿وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ﴾ قال: جاءت سيارة فنزلت على الجُبِّ ﴿فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ﴾ فاستسقى الماء فاستخرج يوسف، فاستبشروا بأنّهم أصابوا غلاماً لا يعلمون علمَه ولا منزلتَه مِنْ ربِّه، فزهدوا فيه فباعوه، وكان بيعه حراماً، وباعوه بدراهم معدودة.

---

(١) في «مجاز القرآن» (١/ ٣٠٥). (٢) انظره في: «ديوان عنترة» (ص٢٧).
(٣) سيأتي تخريج هذه الأقوال.
(٤) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ٣٢١).
(٥) انظر: «جامع البيان» (١٣/ ٦٨). (٦) في «جامع البيان» (١٣/ ٦٩).
(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٦٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١١٧) بسند حسن.

وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة(١) ﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ﴾ يقول: فأرسلوا رسولَهم ﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ﴾ فنشب الغلام بالدلو، فلما خرج ﴿قَالَ يَـٰبُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَـٰمٌ﴾ تباشروا به حين استخرجوه، وهي بئر ببيت المقدس معلومٌ مكانها.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن السدّي(٢) في قوله: ﴿يَـٰبُشْرَىٰ﴾ قال: كانَ اسمُ صاحبه بُشْرى كما تقول يا زيدُ.

وهذا على ما فيه مِنْ البعد لا يتم إلّا على قراءة مَنْ قرأ ﴿يَـٰبُشْرَىٰ﴾ بدون إضافة.

وأخرج أبو الشيخ(٣) عَنْ الشعبي نحوه.

وأخرج ابن جرير(٤) عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَـٰعَةً﴾ يعني: إخوة يوسف أسرّوا شأنَه وكتموا أَنْ يكون أخاهم، وكتم يوسفُ شأنَه مخافة أن يقتله إخوته واختار البيع فباعه إخوتُه بثمنٍ بخسٍ.

وأخرج ابنُ جرير، وأبو الشيخ عن مجاهد(٥) قال: أسرّه التجار بعضُهم من بعض.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عنه(٦) ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَـٰعَةً﴾ قال: صاحب الدلو ومَنْ معه، قالوا لأصحابهم: إنا استبضعناه خيفَة أنْ يشركوهم فيه إنْ علموا به، واتبعهم إخوتُه يقولون للمدلي

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٤٣ ـ ٤٤)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٢٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١١٣) بسند صحيح.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٤٤ ـ ٤٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١١٣) بسند حسن.
قال ابن كثير في «تفسيره» (٨/ ٢٢): «وهذا القول من السدي غريب؛ لأنه لم يسبق إلى تفسير هذه القراءة بهذا إلا عن ابن عباس، والله أعلم».

(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٥١٥).

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٤٩) بسند ضعيف.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٤٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١١٤) بسند ضعيف.

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٤٦ ـ ٤٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١١٤، ٢١١٧) بسند صحيح.

وأصحابه: استوثقوا مِنْه لا يأبق حتى وقفوا بمصر، فقال: مَنْ يبتاعني ويُبشّر، فابتاعه الملك، والمَلِكُ مسلم.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عَنْ مجاهد[(١)] في قوله: ﴿وَشَرَوْهُ﴾ قال: إخوة يوسف باعوه حينَ أخرجه المُدلي دَلوَه.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ عن ابن عباس[(٢)] قال: بِيعَ بينهم بثمن بخس، قال: حرام لم يحلّ لهم بيعه، ولا أكل ثمنه.

وأخرج ابنُ جرير[(٣)] عن قتادة ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ قال: هم السيارة.

وأخرج أبو الشيخ[(٤)] عن عليّ بن أبي طالب أنه قضى في اللقيط أنه حرّ، وقرأ ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾.

وأخرج ابنُ جرير[(٥)] عن مجاهد قال: البَخْس القليل.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن الشعبي[(٦)] مثله.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، والحاكم وصحّحه عن ابن مسعود[(٧)] قال: إنما اشتُرِي يوسف بعشرين درهماً، وكان أهلُه حين أُرسل إليهم بمصر ثلثمائة وتسعين إنساناً، رجالُهم أنبياء، ونساؤهم صدّيقات، والله ما خرجوا مع موسى حتى بلغوا ستمائة ألف وسبعين ألفاً.

وقد روي في مقدار ثمن يوسف غير هذا المقدار مما لا حاجة إلى التطويل بذكره.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٥١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١١٦) بسند صحيح.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٥٤) بسند ضعيف.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٥٢)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٢٠) بسند صحيح.

(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٥١٦).

(٥) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٥١٦).

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٥٥) من طريق يحيى بن آدم، به.

(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٥٦)، والحاكم (٢/ ٥٧٢)، والطبراني رقم (٩٠٦٨) بسند ضعيف.
وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٣٩): «رجاله رجال الصحيح إلا أن أبا عبيدة ـ يعني: ابن عبد الله بن مسعود ـ لم يسمع من أبيه».

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس[(١)] في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ﴾ قال: كان اسمه قُطْيفير.

وأخرج أبو الشيخ[(٢)] عن شعيب الجبائي: أن اسم امرأة العزيز: زليخا.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن محمد بن إسحاق[(٣)] قال: الذي اشتراه أطيفير بن روحب، وكان اسم امرأته راعيل بنت رعاييل.

وأخرج ابن جرير، وابن إسحاق، وأبو الشيخ عن ابن عباس[(٤)] قال: اسم الذي باعه مِنْ العزيز مالك بن دُعْر.

وأخرج ابن جرير[(٥)]، وابن المنذر عنه في قوله: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ قال: منزلته.

وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن قتادة[(٦)] مثله.

وأخرج سعيد بن منصور، وابن سعد، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه عن ابن مسعود[(٧)] قال: أفرسُ الناس ثلاثةٌ: العزيز حين تَفرّس في يوسف فقال لامرأته:

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٦١)، وابن جرير في «جامع البيان» (٧/ ٢١١٧) بسند ضعيف.

(٢) لم أجده في «الدر المنثور» (٤/ ٥١٧) ط. دار الفكر، ولعله في نسخة أخرى.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٦١، ٦٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١١٧) بسند ضعيف جدّاً؛ لأن كل ما رواه الكلبي ـ محمد بن السائب ـ عن أبي صالح، عن ابن عباس: كذب. وقد تقدم ذكره مراراً.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٦٢) بسند حسن.

(٥) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٥١٧).

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٦٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١١٧) بسند صحيح.

(٧) أخرجه سعيد بن منصور في «سننه» رقم (١١١٣ ـ تفسير)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٦٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١١٨)، وابن سعد في «الطبقات» (٣/ ٢٧٣)، وابن أبي شيبة (١٤/ ٥٧٥)، والطبراني رقم (٨٨٢٩، ٨٨٣٠) بسند منقطع، أبو عبيدة لم يسمع من ابن مسعود ولكنه توبع فأخرجه الطبراني رقم (٨٨٢٩)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٦٣ ـ ٦٤)، والحاكم (٢/ ٣٤٥) من طريق أبي الأحوص، عن ابن مسعود.

﴿أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًاۚ﴾، والمرأة التي أتت موسى فقالت لأبيها: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُۖ﴾ [القصص: ٢٦]، وأبو بكر حين استخلف عُمر.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عَنْ مجاهد[١] في قوله: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ﴾ قال: عبارة الرؤيا.

وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري في كتاب «الأضداد»، والطبراني في «الأوسط»، وابن مردويه عن ابن عباس[٢] في قوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ [٧٢/٣]﴾ قال: ثلاثاً وثلاثين سنة.

وأخرج ابن أبي حاتم[٣] عن الحسن قال: أربعين سنة.

وأخرج عن عكرمة[٤] قال: خمساً وعشرين سنة.

وأخرج[٥] عن السدّي قال: ثلاثين سنة.

وأخرج[٦] عن سعيد بن جبير قال: ثمانية عشر سنة.

وأخرج[٧] عن ربيعة قال: الحلم.

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن الشعبي[٨] نحوه.

وأخرج ابن جرير[٩] عن الضحاك قال: عشرين سنة.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن مجاهد[١٠] ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ﴾ قال: هو الفقه والعلم والعقل قبل النبوّة.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٦٥)، وابن أبي شيبة (١١/ ٨٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١١٨) بسند صحيح.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٦٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٥١)، والطبراني رقم (٦٨٢٩)، وابن الأنباري (ص٢٢٤).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١١٨) من طريق منصور بن زاذان، به. بسند حسن.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١١٩) بسند حسن.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١١٩) بسند حسن.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١١٩) بسند حسن.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١١٩) بسند حسن.

(٨) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٩/ ٦٦٤) و(٢١/ ١٣٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ٢٤١٩).

(٩) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٦٨) بسند ضعيف.

(١٠) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٦٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ١٤١٩) بسند صحيح.

وأخرج ابن جرير(١) عن ابن عباس ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ قال: المهتدين.

[محنة يوسف مع امرأة عزيز مصر]:

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾.

المراودة: الإرادةُ والطلبُ برفق ولين، وقيل: هي مأخوذة مِنْ الرَّوْد؛ أي: الرفق(٢) والتأني، يقال: أرْوَدَني: أمهلني؛ وقيل: المراودة مأخوذة مِنْ راد يرود إذا جاء وذهب. كأنّ المعنى: أنها فعلت في مراودتها له فعل المخادع، ومنه الرائد لمن يطلب الماء والكلأ، وقد يُخصّ بمحاولة الوقاع فيقال: راود فلان جاريتَه عَنْ نفسها وراودته هي عَنْ نفسه: إذا حاول كل واحد منهما الوطء والجماع، وهي مفاعلة، وأصلها أَنْ تكون مِنْ الجانبين، فجعل السبب هنا في أحد الجانبين قائماً مقام المسبب، فكأن يوسف ﷺ لما كان ما أعطيه مِنْ كمال الخَلْق(٣) والزيادة في الحُسن سبباً لمراودة امرأة العزيز له مراود.

وإنما قال: ﴿ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾ ولم يقل: امرأة العزيز، وزليخا قصداً إلى زيادة التقرير مع استهجان التصريح(٤) باسم المرأة، والمحافظة على الستر عليها

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٦٩) بسند صحيح.
(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٣٠٤)، و«جامع البيان» (١٣/ ٦٩)، و«مفردات ألفاظ القرآن» (ص٣٧٤).
(٣) «روح المعاني» (١٢/ ٢٦٥).
(٤) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (١٢/ ٢٦٦).

﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ قيل: في هذه الصيغة ما يدلّ على التكثير، فيقال: غلّق الأبواب، ولا يُقال: غلّق الباب؛ بل يقال: أُغْلقَ الباب، وقد يقال: أغلق الأبواب، ومنه قول الفرزدق[1] في أَبي عمرو بن العلاء:

ما زِلتُ أُغلقُ أبواباً وأفتحُها   حتى أتيْتُ أَبا عَمْرو بنِ عمّارِ

قيل: وكانت الأبواب سبعة.

قوله: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾. قرأ أَبو عمرو، وعاصم، والكسائي، وحمزة، والأعمش بفتح الهاء[2] وسكون الياء وفتح التاء، وبها قرأ ابن مسعود، وابن عباس، وسعيد بن جبير، والحسن، ومجاهد، وعكرمة.

قال ابن مسعود[3]: لا تَنطَّعوا في القراءة، فإنما هو مثل قول أحدكم: هلمّ وتعال، وقرأ ابن أبي إسحاق[4] النَحْوي بفتح الهاء وكسر التاء.

وقرأ أبو عبد الرحمٰن السلمي وابن كثير (هَيْتُ) بفتح الهاء[5] وضم التاء، ومنه قول طَرَفة:

ليس قومي بالأبعدين إذا ما   قالَ داعٍ مِنْ العشيرةِ هَيْتُ

وقرأ أبو جعفر ونافع بكسر الهاء[6] وسكون الياء وفتح التاء.

وقرأ عليّ وابن عباس في رواية عنه وهشام بكسر الهاء[7] وبعدها همزة ساكنة وضم التاء.

---

(١) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ٣٢١)، والقرطبي في «تفسيره» (١١/ ٣٠٥).

(٢) «البحر المحيط» (٦/ ٢٥٧)، و«جامع البيان» (١٣/ ٧٧)، و«النشر» (٢/ ٢٩٣)، و«فتح الباري» (٨/ ٢٧٤)، و«التبيان» (٢/ ٧٢٨)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ٨). قال في «تخريج القراءات في فتح القدير» (ص١٧٨): في هذا الموضع خمس قراءات متواترة فأهل العراق (هَيْتَ) بفتح السكون ففتح، وابن كثير (هيتُ) بفتح فسكون فضم، وأهل المدينة (هِيْتَ) بكسر فسكون ففتح، وهي قراءة ابن ذكوان عن ابن عامر، أمّا هشام فله قراءاتان (هِئتُ) بكسر فهمز ساكن فضم، و(هِئتَ) بكسر فهمز ساكن ففتح، أما القراءة السادسة (هَيتِ) بفتح فسكون فكسر، فشاذ.ا.هـ.

(٣) «المحتسب» (١/ ٣٣٧).

(٤) «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٣٢٢)، و«التيسير» (ص١٢٨).

(٥) انظر: «ديوان طرفة بن العبد» (ص١٤٣).

(٦) «النشر» (٢/ ٢٩٣)، و«التيسير» (ص١٢٨)، و«التبيان» (٢/ ٧٢٨).

(٧) «المحتسب» (١/ ٣٣٧)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٣٢١).

وقرأ ابن عامر وأهل الشام بكسر الهاء[١] وبالهمزة وفتح التاء.

ومعنى «هَيْتَ» على جميع القراءات معنى: هُلمّ وتعال؛ لأنّها من أسماء الأفعال إلاّ في قراءة مَنْ قرأ بكسر الهاء بعدها همزة وتاء مضمومة. فإنها بمعنى: تهيّأتُ لك. وأنكر أبو عمرو هذه القراءة.

وقال أبو عُبيدة[٢]: سُئل أَبو عمرو عَنْ قراءة مَنْ قرأ بكسر الهاء والهمزة وضم التاء فقال: باطل جعلها بمعنى: تهيأتُ، اذهبْ فاستعرض العرب حتى تنتهي إلى اليمن، هل تعرف أحداً يقول هكذا؟ وأنكرها أيضاً الكسائي[٣].

وقال النّحاس[٤]: هي جيدة عند البصريين؛ لأنّه يقال: هاء الرجل يَهاءُ ويَهيء هَيئةً، ورجّح[٥] الزجاج القراءة الأولى، وأنشد بيت طَرَفة المذكور هيتا بالفتح، ومنه[٦] قول الشاعر في عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه:

أَبلغْ أميرَ المؤمنين ... أخا العراق إذا أتيتا

أنَّ العراقَ وأهلَه ... سِلْمٌ إليكَ فَهيتَ هَيْتَا

وتكون اللّام في ﴿لَكَۚ﴾ على القراءات الأولى التي هي فيها بمعنى اسم الفعل للبيان؛ أي: لك. أقول هذا كما في هلمّ لك. قال النحويون[٧]: هيت جاء بالحركات الثلاث: فالفتح للخفَّة، والكسر لالتقاء الساكنين، والضم تشبيهاً بحيثُ، وإذا بين باللام نحو (هيت لك) فهو صوت قائم مقام المصدر كأفٍّ له؛ أي: لك أقول هذا، وإن لم يُبين باللام فهو صوت قائم مقام مصدر الفعل فيكون اسم فعل، إما خبر؛ أي: تهيأتُ، وإما أمر؛ أي: أَقْبل.

وقال في الصِّحاح[٨]: يقال: هوّت به وهيّتَ به: إذا صاح به ودعاه، ومنه قول الشاعر:

يحدو بها كلُّ فتى هيَّاتِ[٩]

---

(١) «التيسير» (ص١٢٨)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/٣٠٧)، و«روح المعاني» (١٢/٢٦٩).
(٢) في «مجاز القرآن» (١/٣٠٦ ـ ٣٠٧).
(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١/٣٠٨)، والنحاس في «إعراب القرآن» (٢/٣٢٢).
(٤) في «معاني القرآن» للنحاس (٣/٤١٠). (٥) في «معاني القرآن» للزجاج (٣/١٠٠).
(٦) ذكره ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/٧٠)، والقرطبي في «تفسيره» (١١/٣٠٩).
(٧) «التبيان» (٢/٧٢٨)، و«مشكل إعراب القرآن» (١/٤٢٦)، و«الفريد» (٣/٤٦).
(٨) أي: الجوهري في «الصحاح» (١/٢٧١).
(٩) ذكره الجوهري في «الصحاح» (١/٢٧١)، والقرطبي في «تفسيره» (١١/٣١٠).

وقد روي عن ابن عباس(١) والحسن(٢) أنها كلمة سريانية معناها: أنها تدعوه إلى نفسها.

قال أبو عُبيد(٣): كان الكسائي(٤) يقول: هي لغة لأهل حُوران وقعت إلى أهل الحجاز معناها: تعال.

قال أبو عُبيد(٥): فسألتُ شيخاً عالماً مِنْ حوران فذكر أنها لغتهم. ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: أعوذُ بالله مُعاذاً مما دعوتني إليه، فهو مَصْدر مُنْتصب بفعل محذوف(٦) مضاف إلى اسم الله سبحانه، وجملة ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ تعليل(٧) للامتناع الكائن منه ببعض الأسباب التي هي أقرب إلى فهم امرأة العزيز، والضمير(٨) للشأن؛ أي: إنّ الشأن ربي، يعني: العزيز؛ أي: سيدي الذي ربّاني وأحسن مثواي حيث أمرك بقوله: ﴿أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ﴾ [يوسف: ٢١]، فكيف أخونه في أهله وأجيبك إلى ما تريدين مِنْ ذلك؟!

وقال الزجّاج(٩): إنّ الضمير لله سبحانه؛ أي: إن الله ربي تولاني بلطفه فلا أركب ما حرّمه.

وجملة ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ تعليل(١٠) آخر للامتناع مِنْه عن إجابتها، والفلاح: الظَّفَر. والمعنى: أنّه لا يظفر الظالمون بمطالبهم، ومِنْ جملة الظالمين الواقعون في مثل هذه المعصية التي تطلبها امرأة العزيز مِنْ يوسف.

قولُه: ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا﴾ يقال: همّ بالأمر إذا قصده وعزم عليه.

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١/ ٣٠٩).
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٧٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٢٢) بسند حسن.
(٣) انظر: «جامع البيان» (١٣/ ٧٤)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٣٠٩).
(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١/ ٣٠٩).
(٥) انظر: «جامع البيان» (١٣/ ٧٤)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٣٠٩).
(٦) «مشكل إعراب القرآن» (١/ ٤٢٦)، و«التبيان» (٢/ ٧٢٨).
(٧) «مشكل إعراب القرآن» (١/ ٤٢٦)، و«روح المعاني» (١٢/ ٢٧٠).
(٨) «التبيان» (٢/ ٧٢٨)، و«الفريد» (٣/ ٤٧).
(٩) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١٠١).
(١٠) «روح المعاني» (١٢/ ٢٧٠)، و«التبيان» (٢/ ٧٢٨)، و«البحر المحيط» (٦/ ٢٥٧).

والمعنى: أَنَّه همّ بمخالطتها كما همّت بمخالطته، ومال كلٌّ واحدٍ منهما إلى الآخر بمقتضى الطبيعة البشرية والجبلّة الخَلْقية، ولم يكن من يوسف عليه السلام القصد إلى ذلك اختياراً كما يفيده ما تقدّم مِنْ استعاذته بالله، وإن ذلك نوع من الظلم.

ولما كان الأنبياء معصومين عَنْ الهمّ بالمعصية والقصد إليها شطح أهل العلم في تفسير هذه الآية بما فيه نوع تكلّف، فمِنْ ذلك ما قاله أبو حاتم[(١)] قال: كنت أقرأ على أبي عُبيدة غريب القرآن، فلما أتيت على ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾ قال: هذا على التقديم[(٢)] والتأخير: كأنه قال: ولقد همت به ولولا أن رأى برهان ربه لهمّ بها.

وقال أَحمد بن يحيى[(٣)] ثعلب: أي: همّت زُليخا بالمعصية وكانت مصرّةً، وهمّ يوسف ولم يوقع ما همّ به، فبين الهمين[(٤)] فرق، ومِنْ هذا قول الشاعر:

هـمـمـتُ بـهـمَ مِـنْ بـثـيـنـة لـو بـدا شفيْتُ غليلاتِ الهوى من فُؤاديا[(٥)]

فهذا إنما هو حديث نفس مِنْ غير عزم، وقيل: همّ بها؛ أي: همّ بضربها[(٦)]، وقيل: همّ بها بمعنى: تمنى أن يتزوّجها.

وقد ذهب جمهور[(٧)] المفسرين مِنْ السلف والخلف إلى ما قدّمنا من حمل

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١/ ٣١١).

(٢) وهذا القول مخالف لأقوال السلف كما سيأتي.

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١/ ٣١١). (٤) «تهذيب اللغة» (٥/ ٣٨٢).

(٥) انظره في: «النكت والعيون» (٣/ ٢٤).

(٦) ذكر ابن جرير هذه الأقوال واعتبرها ممَّن خالف أقوال السلف، وتأوَّلوا القرآن بآرائهم، ثم قال: ويُفسِدُ هذين القولين أن العرب لا تقدم جواب «لولا» قبلها، لا تقول: «لقد قمتُ لولا زيد»، وهي تريد: «لولا زيد لقد قمتُ»، هذا مع خلافهما جميع أهل العلم بتأويل القرآن، الذين عنهم نأخذ تأويله. «جامع البيان» (١٣/ ٨٦ ـ ٨٧).

(٧) انظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٥ ـ ٣٠).

● وقال ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٩٩ ـ ١٠٠) وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إنَّ الله جلَّ ثناؤه أخبر عن همِّ يوسف وامرأة العزيز، كل واحد منهما بصاحبه، لولا أن رأى يوسف برهان ربه، وذلك آيةٌ من آيات الله، زجرته عن ركوب ما همَّ به يوسف من الفاحشة، وجائز أن تكون تلك صورة يعقوب، وجائز أن تكون صورة الملك، وجائز أن يكون الوعيد في الآيات التي ذكرها الله في القرآن على الزنا ولا حجة للعذر قاطعة ذلك من أيٍّ.

والصواب: أن يقال في ذلك، ما قاله الله تبارك وتعالى، والإيمان به، وترك ما عدا ذلك إلى عالمِهِ.

اللفظ على معناه اللغوي، ويدل على هذا ما سيأتي من قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ [يوسف: ٥٢].

وقوله: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣] ومجرد الهمّ لا ينافي العصمة، فإنّها قد وقعت العصمة عَنْ الوقوع في المعصية، وذلك المطلوب.

وجواب لو في[١] ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ محذوف؛ أي: لولا أَنْ رأى برهان ربه لفعل ما همّ به.

واختلف[٢] في هذا البرهان الذي رآه ما هو؟ فقيل: إنّ زُليخا قامت عند أن همّت به وهمّ بها إلى صنمٍ لها في زاوية البيت فسترته بثوب فقال: ما تصنعين؟ قالت: أستحي مِنْ إلٰهي هذا أن يراني على هذه الصورة، فقال يوسف: أنا أولى أن أستحي من الله تعالى.

وقيل: إنه رأى [٣/٧٣] في سقف البيت مكتوباً ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ الآية [الإسراء: ٣٢].

وقيل: رأى كفّاً مكتوباً عليها ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ﴾ [الإنفطار: ١٠] وقيل: إن البرهان هو تذكره عهد الله وميثاقه وما أخذه على عباده.

وقيل: نودي يا يوسف أنتَ مكتوب في الأنبياء، وتعمل عمل السفهاء؟

وقيل: رأى صورةَ يعقوب على الجدار عاضّاً على أنملته يتوعده.

وقيل: غير ذلك مما يطول ذكره.

والحاصل: أنّه رأى شيئاً حال بينه وبين ما همّ به. قوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ الكاف نعت[٣] مصدر محذوف، والإشارة بذلك إلى الإراءة المدلول عليها بقوله: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ أو إلى التثبيت المفهوم من ذلك؛ أي: مثل تلك الإراءة أريناه، أو مثل ذلك التثبيت ثبتناه ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ﴾؛ أي: كل ما يسوؤه، والفحشاء: كُل أمرٍ مُفْرِط القُبْح.

---

(١) «مشكل إعراب القرآن» (١/٤٢٧)، و«التبيان» (٢/٧٢٩)، و«الفريد» (٣/ ٤٧ ـ ٤٨).
(٢) «جامع البيان» (١٣/٨٧)، و«معالم التنزيل» (٢/ ٤٢٠ ـ ٤٢١)، و«روح المعاني» (١٢/ ٢٧٤).
(٣) «الدر المصون» (٦/٤٦٩)، و«روح المعاني» (١٢/٢٧٨)، و«التبيان» (٢/ ٧٢٩).

وقيل: السوء: الخيانة للعزيز في أهله، والفحشاء: الزنا.

وقيل: السوء الشهوة، والفحشاء: المباشرة.

وقيل: السوء: الثناء القبيح. والأولى الحمل على العموم فيدخل فيه ما يدل عليه السياق دخولاً أولياً، وجملة ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ تعليل[١] لما قبله.

قرأ ابن عامر، وابن كثير، وأبو عمرو (المخلِصين) بكسر اللام[٢]، وقرأ الآخرون بفتحها[٣].

والمعنى على القراءة الأولى: أنّ يوسف ﷺ كان ممن أخلص طاعته لله، وعلى الثانية: أنه كان ممن استخلصَه الله للرسالة، وقد كان ﷺ مُخْلِصاً مُستَخْلَصاً ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾؛ أي: تسابقا إليه، فحذف حرف الجرّ[٤] وأوصل الفعل بالمفعول، أو ضمّن الفعل معنى فعلٍ آخر يتعدّى بنفسه كابتدرا الباب، وهذا الكلام متصل بقوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ﴾ وما بينهما اعتراض، ووجه تسابقهما أنّ يوسف يريد الفرار والخروج مِنْ الباب، وامرأة العزيز تريد أن تسبقه إليه لتمنعه، ووحّد الباب هنا وجمعه فيما تقدّم؛ لأن تسابقهما كان إلى الباب الذي يَخْلص منه إلى خارج الدار ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾؛ أي: جذبت قميصَه من ورائه فانشق إلى أسفله، والقدّ: القطعُ، وأكثر ما يستعمل فيما كان طولاً، والقط بالطاء يُستعمل فيما كان عَرْضاً، وقع منها ذلك عند أن فرّ يوسف لما رأى برهان ربه فأرادت أن تمنَعه مِنْ الخروج بجذبها لقميصه.

﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ﴾؛ أي: وجدا العزيز هنالك، وعني بالسيد: الزوج لأنّ القبط يُسمّون الزوج سيداً، وإنما لم يقل: سيدهما؛ لأنّ ملكه ليوسف لم يكن صحيحاً فلم يكن سيداً له.

وجملة ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ مستأنفة[٥] جواب سؤال مقدّر كأنه قيل: فما كان منهما عند أَنْ ألفيا سيدها لدى الباب، و«ما» استفهامية، والمراد بالسوء هنا: الزنا.

---

(١) «روح المعاني» (١٢/ ٢٧٩)، و«التبيان» (٢/ ٧٢٩).

(٢) «النشر» (٢/ ٢٩٥)، و«التيسير» (ص١٢٨)، و«روح المعاني» (١٢/ ٢٨٠)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٣١٨).

(٣) انظر: المصادر المتقدمة.

(٤) «الكشاف» (٣/ ٢٧١)، و«الفريد» (٣/ ٤٩).

(٥) «البحر المحيط» (٦/ ٢٦٠)، و«روح المعاني» (١٢/ ٢٨٢)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ١٢٦).

قالت هذه المقالة[١] طلباً منها للحيلة وللستر على نفسها، فنسبت ما كان منها إلى يوسف؛ أيّ: جزاء يستحقه منْ فعل مثل فعل هذا؟ ثُمّ أجابت عن استفهامها بقولها: ﴿إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ﴾؛ أي: ما جزاؤه إلاّ أن يسجن، ويحتمل أن تكون ما نافية؛ أي: ليس جزاؤه إلّا السجن أو العذاب الأليم.

قيل: والعذاب الأليم هو: الضرب بالسياط، والظاهر: أَنّه ما يصدق عليه العذاب الأليم مِنْ ضرب أو غيره، وفي الإبهام للعذاب زيادة تهويل، وجملة ﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ﴾ مستأنفة[٢] كالجملة الأولى.

وقد تقدّم بيان معنى المراودة؛ أي: هي التي طلبت مني ذلك ولم أرد بها سوءاً ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾؛ أي: مِنْ قرابتها، وسُمّي الحكم بينهما شهادة لما يحتاج فيه مِنْ التثبت والتأمل، قيل: لما التبس الأمر على العزيز احتاج إلى حاكم يحكم بينهما ليتبين له الصادق من الكاذب. قيل: كان ابن عمّ لها واقفاً مع العزيز في الباب، وقيل: ابن خال لها.

وقيل: إنّه طفل في المهد تكلم. قال السهيلي[٢]: وهو الصحيح للحديث[٣] الوارد في ذلك عَنْ النبي ﷺ في ذكر مَنْ تكلم في المهد، وذكر من جملتهم شاهد يوسف.

وقيل: إنّه رجل حكيم كان العزيز يستشيره في أموره، وكان من قرابة المرأة ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ﴾؛ أي: فقال الشاهد هذه المقالة مستدلّاً على بيان صدق الصادق منهما وكذب الكاذب بأنّ قميص يوسف إن كان مقطوعاً من قُبل؛ أي: مِنْ جهة القُبُل ﴿فَصَدَقَتۡ﴾؛ أي: فقد صدقت بأنّه أراد بها سوءاً ﴿وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ في قوله إنّها راودته عن نفسه.

وقرأ يحيى بن يَعْمَر وابن أبي إسحاق «من قُبلُ» بضم اللام[٤]. وكذا قرأ «من

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٣٢٠)، و«المحرر الوجيز» (٩/ ٢٨٢).
(٢) «روح المعاني» (١٢/ ٢٨٤)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ١٢٥).
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٣/ ١٠٦)، وأحمد (٥/ ٣٢)، والبزار في «مسنده» رقم (٥٤ ـ كشف)، والحاكم (٢/ ٤٩٦، ٤٩٧) وصحَّحه الحاكم ووافقه الذهبي، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٣٨٩). والصحيح وقفه، كما أخرجه أحمد رقم (٢٨٢١) بسند حسن.
(٤) «البحر المحيط» (٦/ ٢٦١)، و«التبيان» (٢/ ٧٢٩)، و«روح المعاني» (١١/ ٢٩٣). وهي قراءة شاذة في الكلمتين.

دبرُ» قال الزجاج(١): جعلاهما غايتين كقبلُ وبعدُ كأنّه قيل: من قبله ومن دبره، فلما حذف المضاف إليه: وهو مراد صار المضاف غاية بعد أن كان المضاف إليه هو الغاية.

﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾؛ أي: مِنْ ورائه ﴿فَكَذَبَتْ﴾ في دعواها عليه ﴿وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في دعواه عليها، ولا يخفى أن هاتين الجملتين الشرطيتين(٢) لا تلازم بين مقدّميهما وتاليهما، لا عقلاً ولا عادة، وليس ها هنا إلاّ مجرد أمارة غير مُطردة، إذ مِنْ الجائز أن تجذبه إليها وهو مقبل عليها فينقدّ القميص من دبر، وأن تجذبه وهو مدبر عنها فينقدّ القميص من قبل ﴿فَلَمَّا رَءَا﴾؛ أي: العزيز ﴿قَمِيصَهُۥ﴾؛ أي: قميص يوسف ﴿قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ﴾؛ أي: هذا الأمر الذي وقع فيه الاختلاف بينكما، أو أن قولك: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ ﴿مِن كَيْدِكُنَّ﴾؛ أي: مِنْ جنس كيدكنّ يا معشر النساء ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ والكيد: المكر والحيلة.

ثم خاطب العزيز يوسف عليه السلام بقوله: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾؛ أي: عن هذا الأمر الذي جرى واكتمه ولا تتحدّث به، ثم أقبل عليها بالخطاب فقال: ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ﴾ الذي وقع منك ﴿إِنَّكِ كُنتِ﴾ بسبب ذلك ﴿مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾؛ أي: من جنسهم، والجملة تعليل(٣) لما قبلها من الأمر بالاستغفار ولم يقل: من الخاطئات تغليباً(٤) للمذكر على المؤنث كما في قوله: ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢] ومعنى من الخاطئين: من المتعمِّدين، يقال: خَطِئ إذا أذنب متعمداً، وقيل: إن القائل ليوسف ولامرأة العزيز بهذه المقالة: هو الشاهد الذي حكم بينهما.

وقد أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة(٥) في قوله: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ قال: هي امرأة العزيز.

وأخرج ابن أبي حاتم(٦) عن ابن زيد قال: راودته حين بلغ مبلغ الرجال.

---

(١) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ١٠٣). (٢) انظر: «روح المعاني» (١١/ ٢٩٢ ـ ٢٩٣).
(٣) «تفسير أبي السعود» (٤/ ١٣٠)، و«الفريد» (٣/ ٥١).
(٤) «روح المعاني» (١٢/ ٢٩٧)، و«البحر المحيط» (٦/ ٢٦٢).
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٢٠) بسند صحيح.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٢٠) بسند صحيح.

وأخرج أَبو عُبيد، وابنُ جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس[١] في قوله: ﴿هَيۡتَ لَكَۚ﴾ قال: هلمّ لك تدعوه إلى نفسها.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه[٢] قال: هلمّ لك بالقبطية.

وأخرج ابن جرير[٣] عن الحسن قال: هي كلمة بالسريانية؛ أَي: عليك.

وأخرج ابنُ جرير، وأبو الشيخ عَنْ سعيد بن جبير[٤] قال: معناها: تَعالَهْ.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد[٥]: إنَّها لغة عربية تدعوه بها إلى نفسِها.

وأخرج أبو عُبيد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[٦] أنه قرأ: (هِئتُ لك) مكسورة الهاء مضمومة التاء مهموزة قال: تَهيّأتُ لك.

وأخرج ابنُ أبي شيبة، وابنُ جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عَنْ مجاهد[٧] في قوله: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ﴾ قال: سيدي، قال: يعني: زوج المرأة.

وأخرج عبدُ الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه عن ابن عباس[٨] قال: لما همّت به

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٧١، ٧٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٢١) بسند حسن.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٧/ ٢١٢١)، وابن أبي شيبة (١٠/ ٤٧٢، ٤٧٣) بسند ضعيف.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٧٢) بسند حسن.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٢٢١)، والبخاري في «صحيحه» بإثر رقم (٤٦٩٢) تعليقاً.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٧٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٢١) بسند صحيح.

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٧٤) بسند صحيح.

(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٧٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٢٢) بسند صحيح.

(٨) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣١٢)، وسعيد بن منصور في «سننه» رقم (١١١٦ ـ تفسير)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٨٧ ـ ٨٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٣١٢٣، ٣١٢٧)، والحاكم (٢/ ٣٤٦) بسند صحيح.

- ولعله من الإسرائيليات.

تزيّنت ثم استلقتْ على فراشها، وهمّ بها جلسَ بين رجليها يُحلّ ثيابه، فنودي من السماء: يا ابنَ يعقوب لا تكن كطائرٍ نُتف ريشُه فبقي لا ريشَ له، فلم يتعظ على النِّداء شيئاً حتى رأى برهان ربِّه جبريل في صورة يعقوب عاضّاً على أصبعه، ففزع فخرجت شهوته مِنْ أنامله فوثب إلى الباب فوجده مغلقاً، فرفع يوسف رجله فضرب بها الباب الأدنى فانفرج له واتّبعته فأدركته، فوضعت يديها في قميصه فشقته حتى بلغت عضلةَ ساقه فألفيا سيدها لدى الباب.

وأخرج أبو نعيم في «الحِلْية»[١] عن عليّ بن أبي طالب في قوله: ﴿هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾ قال: طمعت فيه وطمع فيها، وكان فيه مِنْ الطمع أن همّ أن يحلّ التِّكة، فقامت إلى صنم لها مكلل بالدرّ والياقوت في ناحية البيت، فسترته بثوب أبيض بينها وبينه، فقال: أيّ شيء تصنعين؟ فقالت: أستحي مِنْ إلٰهي أن يراني على هذه السوءة، فقال يوسف: [٣/٧٤] تستحين مِنْ صنم لا يأكل ولا يشرب، ولا أستحي أنا مِنْ إلٰهي الذي هو قائم على كل نفس بما كسبت؟ ثم قال: لا تناليها مني أبداً، وهو البرهان الذي رأى.

وأخرج ابنُ جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه عن ابن عباس[٢] في قوله: ﴿لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ﴾ قال: مُثّل له يعقوب، فضرب بيده في صدره فخرجت شهوته مِنْ أنامله.

وقد أطال المفسرون في تعيين البرهان الذي رآه، واختلفت أقوالهم في ذلك اختلافاً كثيراً.

وأخرج ابن جرير[٣] عن زيد بن ثابت قال: السيد الزوج، يعني في قوله: ﴿وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ﴾.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد[٤] نحوه.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ١٨١).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٩٠، ٩١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٣١٢٣)، والحاكم (٢/ ٣٤٦) بأسانيد يقوي بعضها بعضاً.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ١٠٢) بسند حسن.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ١٠٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٢٧) بسند ضعيف.

وأخرج أبو الشيخ[١] عن ابن عباس في قوله: ﴿إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ قال: القيد.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس[٢] في قوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾ قال: صبيٌّ أنطقه الله كان في الدار.

وأخرج أحمد، وابن جرير، والبيهقي في «الدلائل»، عن ابن عباس[٣]، عن النبي ﷺ قال: «تكلّم أربعة وهم صغار: ابنُ ماشطة بنت فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى ابنُ مريم».

وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه عَنْ ابن عباس[٤] في قوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾ قال: كان رجلاً ذا لحية.

وأخرج الفريابي، وابنُ جرير، وأبو الشيخ عنه[٥] قال: كان مِنْ خاصة الملك.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن الحسن[٦] قال: هو رجل له فهم وعلم.

وأخرج ابن أبي حاتم[٧] عن زيد بن أسلم قال: ابن عمّ لها كان حكيماً.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد[٨] قال: إنّه ليس

---

(١) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٥٢٣).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ١٠٦) بسند صحيح.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ١٠٦)، وأحمد في «مسنده» رقم (٢٨٢٢)، والبزار في «مسنده» رقم (٥٤ ـ كشف)، والحاكم (٢/ ٤٩٦)، والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٣٨٩)، وقد تقدم.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ١٠٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٢٨)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٢٢) بسند صحيح.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ١٠٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٢٩) بسند ضعيف.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٢٩)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ١١٠) بسند ضعيف.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٢٩) من طريق محمد بن أبان، به.

(٨) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ١١١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٢٨) بسند ضعيف.

بإنسيّ ولا جنيّ هو خلق مِنْ خلق الله. قلتُ: ولعلّه لم يستحضر قوله تعالى: ﴿مِّنْ أَهْلِهَآ﴾.

﴿۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾.

يقال: (نُسوة) بضم[1] النون، وهي قراءة الأعمش والمفضّل وسليمان، ويقال: (نِسوة) بكسر[2] النون، وهي قراءة الباقين، والمراد: جماعة مِنْ النساء، ويجوز التذكير في الفعل المسند إليهنّ كما يجوز التأنيث.

قيل[3]: وهنّ امرأة ساقي العزيز، وامرأة خبّازه، وامرأة صاحب دوابه، وامرأة صاحب سجنه، وامرأة حاجبه.

والفتى في كلام العرب: الشاب، والفتاة: الشابة، والمراد به هنا: غلامها، يقال: فتاي وفتاتي؛ أي: غلامي وجاريتي، وجملة ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ في محل[4] رفع على أنها خبر ثانٍ للمبتدأ، أو في محل نصب على الحال، ومعنى ﴿شَغَفَهَا حُبًّا﴾: غلبها حبُّه، وقيل: دخل حبه في شغافها. قال أبو عبيدة[5]: وشغاف القلب غلافه وهو جلدةٌ عليه.

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٣٢٦)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٣٢٥)، و«حاشية الشهاب» (٥/ ١٧٢)، و«التبيان» (٢/ ٧٣٠).
(٢) انظر: المصادر المتقدمة. ضم النون قراءة شاذة، أما الكسر فقراءة العشرة.
(٣) انظر: «زاد المسير» (٤/ ٢١٤)، و«معالم السنن» (٢/ ٤٢٢).
(٤) «التبيان» (٢/ ٧٣٠)، و«روح المعاني» (١٢/ ٣٠١)، و«البحر المحيط» (٦/ ٢٦٤ ـ ٢٦٥).
(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١/ ٣٢٦)، والنحاس في «معاني القرآن» (٢/ ٤١٩).

وقيل: هو وسط القلب[١]، وعلى هذا يكون المعنى: دخل حبُّه إلى شغافها فغلب عليه، وأنشد الأصمعي قولَ الراجز:

يـتـبـعُـهـا وهِـي لـه شَـغَـافُ[٢]

وقرأ جعفر بن مُحمد، وابن محيصن، والحسن «شَعفها» بالعين[٣] المهملة. قال ابن الأعرابي[٤]: معناه: أجرى حبُّه عليها.

وقرأ غيرهم بالمعجمة. قال الجوهري[٥]: شغفه الحبّ: أحرق قلبه.

وقال أبو زيد[٦]: أمرضَه. قال النّحاس[٧]: معناه عند أكثر أهل اللغة: قد ذهب بها كلّ مَذْهب؛ لأن شعاف الجبال: أعاليها، وقد شغف بذلك شغْفاً بإسكان الغين المعجمة: إذا ولع به، وأنشد أبو عبيدة بيتَ امرئ القيس[٨]:

أتقتُلُني مَنْ قد شَغَفْتُ فؤادَها   كما شَغَفَ المهنّوءَ الرجلُ الطّالي

قال: فُشبّهت لوعة الحبِّ بذلك.

وقرأ الحسن «قد شغُفها» بضم الغين[٩]. قال النحاس[٩]: وحكي قد شغِفها بكسر الغين، ولا يعرف ذلك في كلام العرب إلاّ شغَفَها بفتح الغين؛ ويقال: إن الشغاف الجلدة اللّاصقة بالكبد التي لا تُرى، وهي الجلدة البيضاء، فكأنه لصق حبه بقلبها كلصوق الجلدة بالكبد.

وجملة ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ مقرّرة[١٠] لمضمون ما قبلها. والمعنى: إنا لنراها؛ أي: نعلمها في فعلها هذا، وهو المراودة لفتاها في ضلال عن طريق الرشد والصواب: ﴿مُّبِينٍ﴾: واضح لا يلتبس على من نظر فيه.

---

(١) «مفردات ألفاظ القراءات» (ص٤٥٧).
(٢) ذكره النحاس في «معاني القرآن» (٣/ ٤١٩).
(٣) «المحتسب» (١/ ٣٣٩)، و«البحر المحيط» (٦/ ٢٦٦)، و«روح المعاني» (١١/ ٣٠٠). وهي قراءة شاذة.
(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١/ ٣٢٧).   (٥) في «الصحاح» (٤/ ١٣٨٢).
(٦) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١/ ٣٢٧).   (٧) انظر: «ديوان امرئ القيس» (ص١٢٦).
(٨) «جامع البيان» (١٣/ ١١٥)، و«زاد المسير» (٤/ ٢١٥)، و«البحر المحيط» (٦/ ٢٦٦)، و«التبيان» (٢/ ٧٣٠).
(٩) «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٣٢٥).
(١٠) «روح المعاني» (١٢/ ٣٠١)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ١٣١).

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ﴾ امرأة العزيز ﴿بِمَكْرِهِنَّ﴾؛ أي: بغيبتهنّ إيّاها، سُمّيت الغيبة مكراً لاشتراكهما في الإخفاء، وقيل: أردن أنْ يتوسلن بذلك إلى رؤية يوسف، فلهذا سُمّي قولهنّ مكراً؛ وقيل: إنها أسرّت عليهنّ فأفشين سرّها فسمي ذلك مكراً، ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾؛ أي: تدعوهنّ إليها لينظرن إلى يوسف حتى يقعن فيما وقعت فيه ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾؛ أي: هيأت لهنّ مجالس يتكئن عليها، ﴿وَأَعْتَدَتْ﴾ من الاعتداد، وهو كلّ ما جعلته عدّةً لشيء. وقرأ مجاهد وسعيد بن جبير «مُتْكا» مخففاً[١] غير مهموز، والمتك: هو الأترجُّ بلغة القِبْط، ومنه قول الشاعر:

نشربُ الإثمَ بالصُّواع جِهارا ... وترى المُتكَ بيننا مستعارا[٢]

وقيل: إن ذلك هو لغة أزد شنوءة، وقيل: حكي ذلك عن الأخفش[٣].

وقال الفراء[٤]: إنه ماء الورد.

وقرأ الجمهور «مُتّكأ» بالهمز[٥] والتشديد، وأصح ما قيل فيه: إنّه المجلس، وقيل: هو الطعام، وقيل: المتكأ: كل ما اتكئ عليه عند طعام أو شراب أو حديث.

وحكى[٦] القتيبي أنَّه يقال: اتكأنا عند فلان؛ أي: أكلنا، ومنه قول الشاعر:

فظَلِلْنا بنعمةٍ واتكأْنا ... وشربْنا الحلالَ من قُلَلِه[٧]

ويؤيد هذا قوله: ﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ فإن ذلك إنما يكون لشيء يأكلنه بعد أَنْ يقطعنه، والسكين تُذكّر وتؤنّث، قاله الكسائي[٨] والفراء[٩].

---

(١) «المحتسب» (١/ ٣٣٩)، و«البحر المحيط» (٦/ ٢٦٥)، و«روح المعاني» (١٢/ ٣٠٤)، و«القراءات الشاذة» (ص٦٣). وهي قراءة أبي جعفر والباقون بالهمز، وحمزة وقف عليها بالتسهيل.

(٢) انظر: «تهذيب اللغة» (١٥/ ١٦١)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٣٣٠).

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١/ ٣٣٠).

(٤) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٤٢).

(٥) «فتح الباري» (٨/ ٣٧٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٢١٧)، و«التبيان» (٢/ ٧٣٠)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٣٣٠).

(٦) في «تفسير الغريب» (ص٢١٢)، و«تأويل المشكل» (ص١٣٨).

(٧) جميل بثينة. انظر: «ديوانه» (ص١٨٩).

(٨) ذكره أبو حيان في «البحر المحيط» (٢/ ٢٦٥).

(٩) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٤٢).

قال الجوهري[١]: والغالب عليه التذكير، والمراد مِنْ إعطائها لكل واحدة سكيناً أن يقطعن ما يحتاج إلى التقطيع مِنْ الأطعمة، ويمكن أنها أرادت بذلك ما سيقع منهنّ مِنْ تقطيع أيديهنّ ﴿وَقَالَتِ﴾ ليوسف: ﴿ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾؛ أي: في تلك الحالة التي هنّ عليها مِنْ الاتكاء والأكل وتقطيع ما يحتاج إلى التقطيع من الطعام.

قوله[٢]: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾؛ أي: عظمْنَه، وقيل: أمذينَ، ومِنْه قول الشاعر:

إذا ما رأَيْنَ الفحلَ مِنْ فوقِ قُلّةٍ   صَهَلْن وأكبرْن المنيّ المُقطَّرا

وقيل: حِضْنَ. قال الأزهري[٣]: أكبرن بمعنى: حِضْنَ، والهاء للسكت، يقال: أكبرت المرأة؛ أي: دخلت في الكِبَر بالحيض، وقع منهنّ ذلك دهشاً وفزعاً لما شاهدنه مِنْ جماله الفائق، وحُسنه الرائق، ومن ذلك قول الشاعر:

نأتي النساءَ على أطهارِهِنَّ ولا   نأتي النساءَ إذا أكبرْن إكبارا[٤]

وأنكر ذلك أبو عبيدة[٥] وغيره قالوا: ليس ذلك في كلام العرب.

قال الزجّاج[٦]: يقال: أكبرنه ولا يقال: حِضْنه، فليس الإكبار بمعنى الحيض. وأجاب الأزهري[٧] فقال: يجوز أَنْ تكون هاء الوقف لا هاء الكناية. وقد زُيّف هذا بأن هاء الوقف تسقط في الوصل.

وقال ابن الأنباري[٨]: إنّ الهاء كناية عَنْ مصدر الفعل؛ أي: أكبرن إكباراً بمعنى: حُضْنَ حيضاً ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾؛ أي: جَرحْنها، وليس المراد به القطع الذي تبين منه اليد؛ بل المراد به الخَدْش والحَزّ، وذلك معروف في اللغة كما قال النحاس[٩]؛ يقال: قطع يد صاحبه إذا خدَشها؛ وقيل: المراد بأيديهنّ هنا أناملهنّ، وقيل: أكمامهنّ.

---

(١) في «الصحاح» (٥/ ٢١٣٧).
(٢) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٣٣٢).
(٣) في «تهذيب اللغة» (١٠/ ٢١١ ـ ٢١٢).
(٤) قال ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ١٣٢): وقد زعم بعضُ الرواة أن بعض الناس أنشده في «أكبرن» بمعنى: حِضن، بيتاً لا أحسبُ أن له أصلاً؛ لأنه ليس بالمعروف عند الرواة.
وقال ابن عطية في «المحرر» (٩/ ٢٩٠): «وهذا قول ضعيف من معناه منكور، والبيت مصنوع مختلق».
(٥) في «مجاز القرآن» (١/ ٣٠٩).
(٦) في «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١٠٦).
(٧) في «تهذيب اللغة» (١٠/ ٢١١ ـ ٢١٢).
(٨) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١/ ٣٣٣).
(٩) في «معاني القرآن» (٣/ ٤٢٢).

والمعنى: أَنّه لما خرج يوسف عليهنّ أعظمنه ودهشن، وراعهنّ حُسنه حتى اضطربت أيديهنّ فوقع القطع عليها وهنّ في شُغلٍ عن ذلك بما دهمهنّ، مما تطيش عنده الأحلام وتضطرب له الأبدان [٣/٧٥] وتزول به العقول.

﴿وقُلْن حاشا﴾ كذا قرأ أبو عمرو بن العلاء بإثبات[١] الألف في حاشا.

وقرأ الباقون بحذفها[٢]. وقرأ الحسن «حاش لله» بإسكان[٣] الشين.

وروي عنه أنّه قرأ «حاش الإلٰه»[٤].

وقرأ ابن مسعود وأُبيّ «حاشا الله»[٥].

قال الزجّاج[٦]: وأصل الكلمة مِنْ الحاشية بمعنى الناحية، تقول: كنت في حاشية فلان؛ أي: في ناحيته، فقولك: حاشا لزيد مِنْ هذا؛ أي: تباعد مِنْه.

وقال أبو عليّ[٧]: هو مِنْ المحاشاة: وقيل: إنْ حاش حرف، وحاشا فعل، وكلام أهل النحو في هذه الكلمة معروف، ومعناها هنا: التنزيه كما تقول: أتى القوم حاشا زيداً، فمعنى ﴿حاشا لله﴾: براءةً لله وتنزيهً له.

قوله: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ إعمال (ما) عمل ليس[٨] هي لغة أهل الحجاز، وبها نزل القرآن كهذه الآية، وكقوله سبحانه ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ﴾ [المجادلة: ٢]. وأما بنو تميم فلا يعملونها عمل ليس.

وقال الكوفيون[٩]: أصله: ما هذا ببشر، فلما حذفت الباء انتصب. قال أحمد بن يحيى ثعلب: إذا قلت: ما زيد بمنطلق، فموضع الباء موضع نصب، وهكذا سائر حروف الخفض.

---

(١) «التيسير» (ص١٢٨)، و«النشر» (٢/ ٢٩٥)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ١٠)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٣٣٤). قراءة أبي عمرو بن العلاء إثبات الألف في (حاشا) وصلاً وحذفها وقفاً، وقرأ باقي العشرة بحذفها في الحالين موافقةً للرسم، وغير هذين مما ذكره المؤلف فشاذ.

(٢) «القراءات الشاذة» (ص٦٢)، و«المحتسب» (١/ ٣٤١)، و«البحر المحيط» (٦/ ٢٧٠)، و«روح المعاني» (١٢/ ٣١٠).

(٣) «القراءات الشاذة» (ص٦٢)، و«المحتسب» (١/ ٣٤١)، و«البحر المحيط» (٦/ ٢٧٠).

(٤) «روح المعاني» (١٢/ ٣١٠)، و«المحتسب» (١/ ٣٤١)، و«القراءات الشاذة» (ص٦٢).

(٥) انظر: المصادر المتقدمة.

(٦) في «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١٠٧).

(٧) في «الحجة» للفارسي (٤/ ٤٢٢ ـ ٤٢٣).

(٨) «الفريد» (٣/ ٥٩)، و«التبيان» (٢/ ٧٣١ ـ ٧٣٢).

(٩) انظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٣٢٧ ـ ٣٢٨)، و«معاني القرآن» للفراء (٢/ ٤٢).

وأما الخليل[(١)]، وسيبويه[(٢)]، وجمهور النحْويين فقد أعملوها عمل ليس، وبه قال البصريون، والبحث مُقرّر في كُتب النحو بشواهده وحُججه، وإنما نفين عنه البشرية؛ لأنّه قد برز في صورةٍ قد لبست مِنْ الجمال البديع ما لم يعهد على أحد من البشر، ولا أبصر المبصرون ما يقاربه في جميع الصور البشرية؛ ثم لما نفين عنه البشرية لهذه العلة أثبتن له الملَكية وإنْ كن لا يعرفن الملائكة لكنّه قد تقرّر في الطباع أنّهم على شكل فوق شكل البشر في الذّات والصفات، وأنهم فائقون في كل شيء، كما تقرّر أنَّ الشياطين على العكس من ذلك، ومن هذا قول الشاعر:

فلستَ لإنْسيٍّ ولكنْ لِمَلاكٍ   تَنزّل مِنْ جوّ السماء يُصوِّبُ[(٣)]

وقرأ الحسن (ما هذا بِشِرًّي) على أن الباء حرف جرّ[(٤)]، والشين مكسورة؛ أي: ما هذا بعبد يشترى، وهذه قراءة ضعيفة لا تناسب ما بعدها من قوله: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ﴾.

واعلم أنَّه لا يلزم مِنْ قول النسوة هذا أنّ الملائكة صورهم أحسن مِن صور بني آدم، فإنهنّ لم يقلنه لدليل؛ بل حكمن على الغيب بمجرد الاعتقاد المرتكز في طباعهن وذلك ممنوع، فإن الله سبحانه يقول: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ [التين: ٤].

وظاهر هذا أَنّه لم يكن شيء مثله مِنْ أنواع المخلوقات في حسن تقويمه وكمال صورته، فما قاله[(٥)] صاحب «الكشاف» في هذا المقام هو من جملة تعصباته لما رسخ في عقله مِنْ أقوال المعتزلة، على أن هذه المسألة أعني: مسألة المفاضلة بين الملائكة والبشر ليست مِنْ مسائل الدين في ورد ولا صدر، فما أغنى عباد الله عنها، وأحوجهم إلى غيرها من مسائل التكليف.

﴿قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ﴾ الإشارة إلى يوسف، والخطاب للنسوة[(٦)]؛ أي:

---

(١) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ٣٢٨).

(٢) في «الكتاب» (١/ ٥٧ ـ ٦٩).

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٣٢٧).

(٤) «روح المعاني» (١٢/ ٣٣٧)، و«المحتسب» (١/ ٣٤٢)، و«البحر المحيط» (٦/ ٢٧١). وهي قراءة شاذة.

(٥) أي: الزمخشري في «الكشاف» (٣/ ٢٨١).

(٦) «روح المعاني» (١٢/ ٣١٤)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ١٣٣).

عيرتنني فيه. قالت لهنّ هذا لما رأت افتتانهنّ بيوسف إظهاراً لعذر نفسها؛ ومعنى ﴿فِيهِۖ﴾؛ أي: في حُبِّه؛ وقيل: الإشارة إلى الحبّ، والضمير له أيضاً، والمعنى: فذلك الحب الذي لمتنني فيه هو ذلك الحب، والأول أولى. ورجّحه ابن جرير[١].

وأصل اللوم: الوصف بالقبيح. ثم لما أظهرت عذَر نفسِها عند النسوة بما شاهدته مما وقعن فيه عند ظهوره لهنّ، ضاق صدرها عَنْ كتم ما تجده في قلبها من حبه، فأقرّت بذلك وصرّحت بما وقع منها من المراودة له.

فقالت: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَۖ﴾؛ أي: استعفّ وامتنع مما أريده طالباً لعصمة نفسه عن ذلك، ثم توعدته إنْ لم يفعل ما تريده كاشفةً لجلباب[٢] الحياء هاتكةً لستر العفاف فقالت: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾؛ أي: لئنْ لم يفعل ما قد أمرته به فيما تقدّم ذكره عند أن غلقت الأبواب وقالت: هيتَ لك ليسجننّ؛ أي: يُعتقل في السجن وليكونن مِنْ الصاغرين الأذلّاء لما يناله من الإهانة، ويُسلب عنه مِنْ النعمَة والعزّة في زعمها، قُرِئ «ليكوننّ» بالتثقيل[٣] والتخفيف.

قيل: والتخفيف أولى لأنّ النون كتبت في المصحف ألفاً على حكم الوقف. وذلك لا يكون إلاّ في الخفيفة.

وأما ﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾ فبالتثقيل[٤] لا غير؛ فلما سمع يوسف مقالها هذا، وعرف أنّها عزمة منها مع ما قد علمه مِنْ نفاذ قولها عند زوجها العزيز؛ قال مناجياً لربه سبحانه: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ﴾؛ أي: يا ربّ السجن الذي أوعدتني هذه به ﴿أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِۖ﴾ مِنْ مؤاتاتها والوقوع في المعصية العظيمة التي تذهب بخير الدنيا والآخرة.

قال الزجّاج[٥]: أي: دخول السجن، فحذف المضاف.

وحكى أبو حاتم[٦] أن عثمان بن عفان رضي الله عنه قرأ (السَّجْن) بفتح السين، وقرأ

(١) في «جامع البيان» (١٣/ ١٤١).
(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١/ ٣٣٨).
(٣) «جامع البيان» (١٣/ ١٤٢)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٣٣٨)، و«روح المعاني» (١٢/ ٣١٨)، و«البحر المحيط» (٦/ ٢٧٢). القراءة المتواترة بالتخفيف، أما التثقيل فشاذ مخالف للرسم.
(٤) انظر: المصادر المتقدمة.
(٥) في «معاني القرآن» (٣/ ١٠٨).
(٦) «النشر» (٢/ ٢٩٥)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٣٣٩)، و«روح المعاني» (١٢/ ٣١٩).

كذلك ابن[١] أبي إسحاق وعبد الرحمٰن الأعرج، ويعقوب، وهو مصدر سَجنَه سَجْناً.

وإسناد الدعوة إليهنّ جميعاً؛ لأنّ النسوة رغّبنه في مطاوعتها، وخوّفنه من مخالفتها، ثم جرى على هذا في نسبة الكيد إليهن جميعاً، فقال: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾ أما الكيد مِنْ امرأة العزيز فما قد قصه الله سبحانه في هذه السورة، وأما كيد سائر النسوة فهو ما تقدّم مِنْ الترغيب له في المطاوعة والتخويف من المخالفة.

وقيل: إنّها كانت كل واحدة[٢] تخلو به وحدها وتقول له: يا يوسف اقض لي حاجتي فأنا خير لك مِنْ امرأة العزيز، وقيل: إنّه خاطب امرأة العزيز بما يصلح لخطاب جماعة النساء تعظيماً لها، أو عدولاً عن التصريح إلى التعريض، والكيد: الاحتيال. وجزم ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ على أنه جواب الشرط؛ أي: أمل إليهنّ، مِنْ صبا يصبو: إذا مال واشتاق، ومنه قول الشاعر:

إلى هندٍ صَبا قلبي وهندٌ حُبُّها يُصْبي[٣]

﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ معطوف على ﴿أَصْبُ﴾؛ أي: أكن ممن يجهل ما يحرم ارتكابه ويقدم عليه، أو ممن يعمل عمل الجهال. قوله: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ لما قال: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾ كان ذلك منه تَعرّضاً للدعاء، وكأنه قال: اللَّهُمَّ اصرفْ عني كيدهنّ، فالاستجابة مِنْ الله تعالى له هي بهذا الاعتبار؛ لأنه لم يتقدّم دعاء صريح منه ﷺ، والمعنى: أنه لطف به وعصمه عن الوقوع في المعصية؛ لأنه إذا صرف عنه كيدَهنّ لم يقع شيء مما رمنه منه، ووجه إسناد الكيد قد تقدّم، وجملة ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ تعليلٌ لما قبلها مِنْ صرف كيد النسوة عنه؛ أي: إنه هو السميع لدعوات الداعين له، العليم بأحوال الملتجئين إليه.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس[٤] في قوله: ﴿قَدْ شَغَفَهَا﴾ قال: غلبها.

---

(١) «إعراب القرآن» للنحاس (٢/٣٢٨)، و«النشر» (٢/٢٩٥).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١١/٣٤٠)، و«روح المعاني» (١١/٣٢٣).

(٣) هو: يزيد بن ضبة. «مجاز القرآن» (١/٣١١).

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/١١٦) بسند صحيح.

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عنه[١] ﴿قَدْ شَغَفَهَا﴾ قال: قتلها حبُّ يوسف، الشّغَفُ: الحبّ القاتل، والشَّعفُ: حبٌّ دون ذلك، والشغاف: حجاب القلب.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه[٢] أيضاً ﴿قَدْ شَغَفَهَا﴾ قال: قد عَلِقَها.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة[٣] في قوله: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ قال: بحديثهنّ.

وأخرج ابن أبي حاتم[٤] عن سفيان ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ قال: بعملهن، وكلُّ مكر في القرآن فهو عمل.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في قوله[٥]: ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾ قال: هيّأت لهنّ مجلساً، وكان سُنَّتهم إذا وضعوا المائدة أعطوا كلَّ إنسان سكيناً يأكل بها ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥ﴾ قال: فلما خرج عليهن يوسف ﴿أَكْبَرْنَهُۥ﴾ قال: أعظمْنَه ونظرن إليه، وأقبلن يحزُزن أيديهنّ بالسكاكين وهنّ يحسبن أنهن يقطعن الطعام.

وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس[٦] ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾ قال: أعطتهنّ أُترنجاً، وأعطت كل واحدة منهنّ سِكّيناً، فلما رأين يوسف أكبرنه، وجعلن يقطعن أيديهنّ وهن يحسبن أنهنّ يقطعن الأُتْرنج.

وأخرج مُسدّد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه عنه[٧]: المتكأ الأترنج، وكان يقرؤها خفيفة.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٣١) بسند ضعيف. الضحاك لم يلق ابن عباس.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ١١٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٣) بسند ضعيف.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ١٢٢) من طريق سعيد بن أبي عروبة، به. وسنده صحيح. وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٣٢) بسند ضعيف، من طريق سعيد بن بشير، به.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٣٢) من طريق ابن أبي عمر، به.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ١٣١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٣٥) من طريق عبد الصمد، عن أبيه، عن جده ابن عباس.

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ١٢٥) بسند صحيح.

(٧) أخرجه مسدد كما في «المطالب العالية» رقم (٤٠١٨)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ١٢٦)، =

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد[١] ﴿مُتَّكَـًٔا﴾ قال: طعاماً.

وأخرج أبو عبيد، وابن المنذر عنه[٢] قال: هو الأترنج.

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة[٣] قال: هو كلُّ شيءٍ يقطع بالسكين.

وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن الضحاك مثله[٤].

وأخرج أَبو الشيخ[٥] مِنْ طريق عبد العزيز بن الوزير بن الكمُيت بن زيد قال: حدّثني أبي، عن جدّي يقول في قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾ قال: أَمْنينَ. وأنشد:

ولما رأته الخيلَ مِنْ رأسِ شاهقٍ صَهَلْن وأَمْنيْنَ المنيَّ المُدفَّقا

وأخرج ابن جرير[٦]، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طريق عبد الصمد بن عليّ بن عبد الله بن عباس، عن أبيه، عن جده ابن عباس في قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾ قال: لما خرج عليهنّ يوسف حِضْنَ مِنْ الفرح، وذكر قول الشاعر الذي قدّمنا ذكره:

نأتي النساء لدى أطهارهنّ. . . . البيت[٧]

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد[٨] في قوله: ﴿أَكْبَرْنَهُۥ﴾ قال: أعظمْنَه ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ قال: حزّاً بالسكين حتى ألقينها ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ قال: معاذ الله.

= وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٣٢)، وابن خالويه في «مختصر الشواذ» (ص٦٨) بسند ضعيف.

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ١٢٧) بسند صحيح.

(٢) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٥٣٠). وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ١٢٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٣٣) بسند صحيح.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٣٣) بسند ضعيف.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ١٢٨) بسند حسن.

(٥) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٥٣٠ ـ ٥٣١).

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ١٣١، ١٣٢).

(٧) انظر: «جامع البيان» (١٣/ ١٣٢) وقد تقدم.

(٨) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ١٣٠، ١٣٣، ١٣٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٦٣٦) بسند صحيح.

[٣/٧٦] وأخرج عبد الرزاق وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة[١] في قوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ قال: قُلْنَ: مَلَك مِنْ الملائكة مِنْ حُسنه.

وأخرج أَبو الشيخ[٢] عن منبه، عن أبيه قال: مات من النسوة التي قطعن أيديهنّ تسع عشرة امرأة كَمَداً.

وأخرج أحمد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والحاكم عن أنس[٣]، عن النبيّ ﷺ قال: «أُعطِيَ يوسف وأمُّه شَطْر الحُسْن».

وقد وردت روايات عن جماعة من السلف في وصف حسن يوسف؛ والمبالغة في ذلك، ففي بعضها أَنّه أعطي نصف الحسن، وفي بعضها ثلثه، وفي بعضها ثلثيه.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس[٤] ﴿فَٱسْتَعْصَمَ﴾ قال: امتنع.

وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن قتادة[٥] ﴿فَٱسْتَعْصَمَ﴾ قال: فاستعصى.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن زيد[٦] في قوله: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾ قال: إنْ لا تكن منك أنت القويُ، والمنعة لا تكن مني ولا عندي.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ قال: أتَّبعهنّ[٧].

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ١٤١)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٢٢، ٣٢٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٣٧) بسند صحيح.

(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٥٣١).

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ١٣٦)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٤/ ٣٩٦)، والحاكم (٢/ ٥٧٠)، وابن عدي (٥/ ٢٠٢١)، وأحمد في «مسند» رقم (١٤٠٥٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٣٦)، وأبو يعلى رقم (٣٣٧٢) من طرق.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ١٤٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٣٧) بسند صحيح.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ١٤٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٣٨) بسند صحيح.

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ١٤٥) بسند صحيح من طريق ابن وهب، عن ابن زيد.
وأخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٣٨) من طريق أصبغ، عن ابن زيد.

(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ١٤٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٣٨) بسند صحيح.

وأخرج أبو الشيخ[(١)] عن ابن عباس قال: أطاوعهنّ.

[محنة السجن للبريء المظلوم]:

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَـٰصَـٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

معنى ﴿بَدَا لَهُم﴾ ظهرَ لهم، والضمير[(٢)] للعزيز وأصحابه الذين يُدبِّرون الأمر معه ويشيرون عليه، وأما فاعل ﴿بَدَا لَهُم﴾ فقال سيبويه[(٣)]: هو ﴿لَيَسْجُنُنَّهُۥ﴾؛ أي: ظهر لهم أنْ يسجنوه. قال المبرِّد[(٤)]: وهذا غلط لأنّ الفاعل لا يكون جملة، ولكن الفاعل ما دلّ عليه «بدا» وهو المصدر كما قال الشاعر[(٥)]:

وحَقَّ لمن أبو موسى أَبوه ... يُوفِّقُه الذي نصبَ الجبالا

أي: وحقّ الحقّ فحذف[(٦)] الفاعل لدلالة الفعل عليه، وقيل: الفاعل المحذوف هو رأي؛ أي: وظهر لهم رأيٌ لم يكونوا يعرفونه مِنْ قبل، وهذا الفاعل

(١) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/٥٣٣).
(٢) «روح المعاني» (١٢/٣٢٢)، و«تفسير أبي السعود» (٤/١٣٧)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/٣٤١).
(٣) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٢/٣٢٩).
(٤) في «الكتاب» (١/٤٥٦)، وذكره القرطبي في «تفسيره» (١١/٣٤٢)، والنحاس في «إعراب القرآن» (٢/٣٢٩).
(٥) انظر: «ديوان ذي الرمة» (٣/١٥٤٦).
(٦) «مشكل إعراب القرآن» (١/٤٣٠)، و«الفريد» (٣/٦٢)، و«التبيان» (٢/٧٣٢).

حُذف لدلالته ﴿لَيَسْجُنُنَّهُۥ﴾ عليه، واللّام في «ليسجنّنه»[١] جواب قسم محذوف على تقدير القول؛ أي: ظهرَ لهم مِنْ بعد ما رأوا الآيات قائلين: والله ليسجنّنه. وقرىء «لتَسْجننّه» بالمثناة[٢] الفوقية على الخطاب، إما للعزيز ومَنْ معه، أو له وحده على طريق التعظيم.

والآيات قيل: هي القميص، وشهادة الشاهد، وقطع الأيدي.

وقيل: هي البركات[٣] التي فتحها الله عليهم بعد وصول يوسف إليهم ولم يجد ذلك فيهم؛ بل كانت امرأته هي الغالبة على رأيه الفاعلة لما يطابق هواها في يوسف، وإنفاذ ما تقدّم منها مِنْ الوعيد له بقولها: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢].

قيل: وسببُ ظهور هذا الرأي لهم في سجن يوسف أَنّهم أرادوا ستر القالة، وكتم ما شاع في الناس مِنْ قصة امرأة العزيز معه.

وقيل: إنّ العزيز قصد بسجنه الحيلولة بينه وبين امرأته لما علم أنها قد صارت بمكان مِنْ حبّه لا تبالي معه بحمل نفسها عليه على أيّ صفة كانت.

ومعنى قوله: ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ إلى مدّة غير معلومة كما قاله أكثر المفسرين[٤]، وقيل: إلى انقطاع ما شاع[٥] في المدينة.

وقال سعيد بن جبير[٦]: إلى سبع سنين[٧]، وقيل: إلى خمس[٨]، وقيل: إلى ستة أشهر[٧].

---

(١) «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٣٢٩)، و«البحر المحيط» (٦/ ٢٧٤)، و«التبيان» (٣/ ٧٣٢).

(٢) «البحر المحيط» (٦/ ٢٧٤)، و«روح المعاني» (١٢/ ٢٣٧)، و«القراءات الشاذة» (ص٦٣). وهي قراءة شاذة.

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٣٤٠).

(٤) «روح المعاني» (١٢/ ٣٢٤ ـ ٣٢٥)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٣٤٢)، و«جامع البيان» (١٣/ ١٤٩ ـ ١٥٠).

(٥) «معالم التنزيل» (٢/ ٤٢٥)، و«الوسيط» للواحدي (٢/ ٦١٢).

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٤١) عن عكرمة وطارق، عن سعيد بن جبير، قالا: «الحين ستة أشهر».

(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ١٥١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٤١) بسند ضعيف.

(٨) «معالم التنزيل» (٢/ ٤٢٥).

وقد تقدّم في البقرة الكلام في تفسير الحين وحتى بمعنى إلى.

قوله: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ﴾ في الكلام حذف متقدّم عليه، والتقدير: وبدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجنّنه حتى حين، فسجنوه.

ودخل معه السجن فتيان، ومع للمصاحبة، وفتيان تثنية فتى، وذلك يدّل على أنهما عبدان له، ويَحْتمل أَنْ يكون الفتى اسماً للخادم وإنْ لم يكن مملوكاً.

وقد قيل: إنّ أحدهما خبّاز الملِك، والآخر ساقيه، وقد كانا وضعا[(١)] للملك سُمّاً لما ضمن لهما أهل مصر مالاً في مقابلة ذلك، ثم إنّ الساقي رجع عن ذلك وقال للملك: لا تأكل الطعامَ فإنّه مسموم، وقال الخبّاز: لا تشرب فإن الشراب مَسْموم، فقال الملك للساقي: اشربْ فشرب فلم يضرّه، وقال للخباز كل فأبى، فجرّب الطعام على حيوان فهلك مكانَه فحبسهما، وكانَ دخولهما السجن مع دخول يوسف، وقيل: قبله، وقيل: بعده.

قال ابنُ جرير[(٢)]: إنهما سألا يوسف عَنْ علمه فقال: إني أُعبّر الرؤيا، فسألاه عَنْ رؤياهما كما قص الله سبحانه ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾؛ أي: رأيتُني، والتعبير بالمضارع لاستحضار الصورة.

والمعنى: إنِّي أراني أعصرُ عنباً، فسمّاه باسم ما يؤول إليه لكونه المقصود من العصر. وفي قراءة ابن مسعود[(٣)] «أعصر عنباً».

قال الأصمعي[(٤)]: أخبرني المعتمر بن سليمان أنه لقي أعرابيّاً ومعه عنب، فقال له: ما معك؟ فقال: خَمْر.

وقيل: معنى ﴿أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾؛ أي: عنب خمر، فهو على حذف المضاف، وهذا الذي رأى هذه الرؤيا هو الساقي، وهذه الجملة[(٥)] مستأنفة بتقدير سؤال، وكذلك الجملة التي بعدها وهي: ﴿وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا﴾.

---

(١) «زاد المسير» (٤/ ٢٢٢)، و«معالم التنزيل» (٢/ ٤٢٥).
(٢) في «جامع البيان» (١٣/ ١٥٢ ـ ١٥٣).
(٣) «المحتسب» (١/ ٣٤٣)، و«روح المعاني» (١٢/ ٣٢٩)، و«البحر المحيط» (٦/ ٢٧٥ ـ ٢٧٦). وهي قراءة شاذة.
(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١/ ٣٤٨)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (٩/ ٢٩٩).
(٥) «التبيان» (٢/ ٧٣٢).

ثم وصف الخبز هذا بقوله: ﴿تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ﴾ وهذا الرائي لهذه الرؤيا هو الخبّاز، ثم قالا ليوسف جميعاً بعد أن قصا رؤياهما عليه ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ﴾؛ أي: بتأويل ما قصصناه عليك مِنْ مجموع المرئيين، أو بتأويل المذكور لك من كلامنا.

وقيل: إنّ كل واحد منهما قال له ذلك عقب قصّ رؤياه عليه، فيكون الضمير راجعاً[١] إلى ما رآه كل واحد منهما؛ وقيل: إن الضمير في «بتأويله» موضوع موضع اسم الإشارة، والتقدير بتأويل ذلك ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ أي: من الذين يُحسنون عبارة الرؤيا، وكذا قال[٢] الفراء: إن معنى ﴿مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: من العالمين الذين أحسنوا العلم.

وقال ابن إسحاق[٣]: من المحسنين إلينا إنْ فسرت ذلك، أو من المحسنين إلى أهل السجن، فقد روي أنه كان كذلك.

وجملة ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾ مستأنفة جواب[٤] سؤال مقدّر، ومعنى ذلك: أنّه يعلم شيئاً مِنْ الغيب، وأنه لا يأتيهما إلى السجن طعام إلاّ أخبرهما بماهيته قبل أن يأتيهما، وهذا ليس من جواب سؤالهما تعبير ما قصّاه عليه؛ بل جعله عَلَيْهِ السَّلَامُ مقدّمة قبل تعبيره لرؤياهما بياناً لعلوّ مرتبته في العلم، وأنّه ليس من المعبّرين الذين يعبرون الرؤيا عن ظنّ وتخمين، فهو كقول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ﴾ [آل عمران: ٤٩] وإنما قال يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لهما بهذا ليحصل الانقياد منهما له فيما يدعوهما إليه بعد ذلك من الإيمان بالله والخروج من الكفر، ومعنى ﴿تُرْزَقَانِهِۦٓ﴾: يَجري عليهما مِنْ جهة الملك أو غيره، والجملة صفة لطعام[٥]، أو يرزقكما الله سبحانه.

والاستثناء[٦] بقوله: ﴿إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ مُفرّغ مِنْ أعمّ الأحوال؛ أي:

---

(١) «البحر المحيط» (٦/ ٢٧٦)، و«المعاني» (١٢/ ٣٣٠)، و«الدر المصون» (٦/ ٤٩٦).
(٢) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٤٥).
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ١٥٨) من طريق سلمة بن الفضل، به.
(٤) «البحر المحيط» (٦/ ٢٧٧)، و«روح المعاني» (١٣/ ٤٤٤).
(٥) «الفريد» (٣/ ٦٤)، و«روح المعاني» (١٣/ ٤٤٤).
(٦) «روح المعاني» (١٢/ ٣٣٤)، و«الفريد» (٣/ ٦٥)، و«الدر المصون» (٦/ ٤٩٦).

لا يأتيكما طعام في حال مِنْ الأحوال إلا حال ما نبأتكما؛ أي: بينتُ لكما ماهيته وكيفيته قبل أن يأتيكما، وسمّاه تأويلاً بطريق المشاكلة؛ لأنّ الكلام في تأويل الرؤيا، أو المعنى: إلا نبأتكما بما يؤول إليه الكلام مِنْ مطابقة ما أخبركما به للواقع.

والإشارة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ مَا﴾ [ق: ١٩] إلى التأويل، والخطاب للسائلين له عن تعبير رؤياهما ﴿مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾ بما أوحاه إليّ وألهمني إياه لا من قبيل الكهانة والتنجيم ونحو ذلك مما يكثر فيه الخطأ، ثم بيَّن لهما أن ذلك الذي ناله من هذه الرتبة العلية والعلوم الجمّة هو بسبب ترك الملّة التي لا يؤمن أهلها بالله ولا بالآخرة واتباعه لملّة الأنبياء مِنْ آبائه فقال: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ وهو كلام مستأنف[1] يتضمن التعليل لما قبله، والمراد بالترك: هو عَدمُ التلبّس بذلك من الأصل، لا أنّه قد كان تلبس به، ثم تركه كما يدلّ عليه قوله: ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ﴾ ثم وصف هؤلاء القوم بما يدلّ على تصلبهم في الكفر وتهالكهم عليه.

فقال: ﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾؛ أي: هم مُختصون بذلك دون غيرهم لإفراطهم في الكفر بالله.

وقوله: ﴿وَٱتَّبَعْتُ﴾ معطوف[2] على ﴿تَرَكْتُ﴾، وسمّاهم آباء جميعاً لأن الأجداد آباء، وقدّم الجدّ الأعلى، ثم الجدّ الأقرب ثم الأب لكون إبراهيم هو أصل هذه الملّة التي كان عليها أولاده ثم تلقّاها عنه إسحاق ثم يعقوب، وهذا منه عليه السلام لترغيب صاحبيه [٣/٧٧] في الإيمان بالله ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: ما صحّ لنا ذلك فضلاً عَنْ وقوعه.

والضمير[3] في ﴿لَنَآ﴾ له وللأنبياء المذكورين، والإشارة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى الإيمان المفهوم من قوله: ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ﴾، و﴿مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا﴾ خبر[4] اسم الإشارة؛ أي: ناشئ مِنْ تفضلات الله علينا، ولطفه بنا بما جعله لنا من

---

(١) انظر: المصادر المتقدمة.

(٢) «الفريد» (٣/ ٦٥)، و«روح المعاني» (١٢/ ٣٣٤).

(٣) «البحر المحيط» (٦/ ٢٧٧)، و«روح المعاني» (١٢/ ٣٣٥).

(٤) «الفريد» (٣/ ٦٥)، و«روح المعاني» (١٢/ ٣٣٦).

النبوّة المتضمنة للعصمة عَنْ معاصيه، ومِنْ فضل الله على الناس كافةً ببعثة الأنبياء إليهم، وهدايتهم إلى ربهم، وتبيين طرائق الحق لهم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ الله سبحانه على نعمه التي أنعم بها عليهم، فيؤمنون به، ويوحدونه، ويعملون بما شرعه لهم.

قوله: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ جعلهما مُصاحبين للسجن لطول مقامهما فيه، وقيل: المراد: يا صاحبي في السجن؛ لأن السجن ليس بمصحوبٍ؛ بل مصحوب فيه، وأن ذلك من باب: يا سارق الليلة[(١)]. وعلى الأوّل يكون من باب قوله: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٤٤] والاستفهام[(٢)] للإنكار مع التقريع والتوبيخ.

ومعنى التفرّق هنا: هو التفرّق في الذوات[(٣)] والصفات والعدد؛ أي: هل الأرباب المتفرقون في ذواتهم[(٤)]، المختلفون في صفاتهم، المتنافون في عددهم خير لكما يا صاحبي السجن، أم الله المعبودُ بحقٍ، المتفرّد في ذاته وصفاته الذي لا ضدّ له ولا ندّ ولا شريك، القهار الذي لا يغالبه مغالِبٌ ولا يعانده معاند؟ أورد يوسف عليه السلام على صاحبي السجن هذه الحجة القاهرة على طريق الاستفهام؛ لأنهما كانا ممّن يعبد الأصنام.

وقد قيل: إنّه كان بين أيديهما أصنام يعبدونها عند أن خاطبهما بهذا الخطاب، ولهذا قال لهما: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ﴾؛ أي: إلا أسماء فارغة سميتموها ولا مسميات لها.

وإن كنتم تزعمون أن لها مسمياتٍ، وهي الآلهة التي تعبدونها، لكنها لما كانت لا تستحق التسمية بذلك صارت الأسماء كأنها لا مسميات لها.

وقيل: المعنى: ما تعبدون مِنْ دون الله إلاّ مسميات أسماء سميتموها أنتم

---

(١) هذا بيت من الرجز: يا سارق الليلة أهلَ الدار
«الكتاب» (١/ ٨٩، ٩٩)، و«المحتسب» (١/ ١٨٣).
(٢) «روح المعاني» (١٢/ ٣٣٨)، و«الفريد» (٣/ ٦٥).
(٣) «روح المعاني» (١٢/ ٣٣٩)، و«البحر المحيط» (٦/ ٢٧٨).
(٤) «جامع البيان» (١٣/ ١٦٣).

وآباؤكم من تلقاء أنفسكم، وليس لها مِنَ الإلٰهية شيء إلاّ مجرد الأسماء لكونها جمادات لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضرّ؛ وإنما قال: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ﴾ على خطاب الجمع وكذلك ما بعده من الضمائر؛ لأنّه قصد خطاب صاحبي السجن ومَنْ كان على دينهم، ومفعول[1] (سميتموها) الثاني محذوف؛ أي: سميتموها آلهة من عند أنفسكم ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا﴾؛ أي: بتلك التسمية ﴿مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾ مِنْ حُجةٍ تدلّ على صحتها ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ﴾؛ أي: ما الحكم إلّا لله في العبادة، فهو الذي خلقكم وخلق هذه الأصنام التي جعلتموها معبودةً بدون حجة ولا برهان، وجملة[2] ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ﴾ مستأنفة.

والمعنى: أنَّه أمركم بتخصيصه[3] بالعبادة دون غيره مما تزعمون أنه معبود، ثم بيَّن لهم أن عبادته وحده دون غيره هي دين الله الذي لا دين غيره فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: تخصيصه بالعبادة ﴿ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾؛ أي: المستقيم الثابت ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أن ذلك هو دينه القويم، وصراطه المستقيم، لجهلكم وبعدكم عن الحقائق.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن عكرمة[4] قال: سألت ابن عباس عن قوله: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ فقال: ما سألني عنها أحد قبلك، من الآيات: قَدُّ القميص، وأثرُها في جسده، وأثرُ السكين، وقالت امرأة العزيز: إن أنتَ لم تسجُنْه ليصدقنّه الناس.

وأخرج أبو الشيخ[5] عن ابن زيد قال: مِنْ الآيات: كلام الصبي.

وأخرج ابن جرير[6] عن قتادة قال: الآيات حزّهنّ أيديهنّ وقدّ القميص.

---

(١) «الفريد» (٣/ ٦٦)، و«التبيان» (٢/ ٧٣٣).
(٢) «روح المعاني» (١٢/ ٣٤١)، و«التبيان» (٢/ ٧٣٣)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ١٤٢).
(٣) «جامع البيان» (١٣/ ١٦٥).
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٣٩) بسند ضعيف.
(٥) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٥٣٤).
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ١٤٨)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٢٣) بسند صحيح.

وأقول: إن كان المراد بالآيات: الآيات[١] الدالة على براءته فلا يصح عدّ قطع أيدي النسوة مِنْها؛ لأنّه وقع منهن ذلك لما حصل لهن مِنْ الدهشة عند ظهوره لهن مع ما ألبسه الله سبحانه مِنْ الجمال الذي تنقطع عند مشاهدته عُرى الصبر، وتضعف عند رؤيته قُوى التجلّد.

وإنْ كان المراد: الآيات الدالة على أنَّه قد أعطي مِنْ الحسن ما يسلب عقول المبصرين، ويذهب بإدراك الناظرين، فَنَعمْ يصح عدّ قطع الأيدي من جملة الآيات، ولكن ليس هذه الآيات هي المرادة هنا.

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصحّحه عن ابن عباس[٢] قال: عُوقب يوسف ثلاث مرات: أما أوّل مرة فبالحبس لِمَا كان مِنْ همّه بها، والثانية لقوله: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: ٤٢] عُوقب بطول الحبس، والثالثة حيثُ قال: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠] فاستقبل في وجهه: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف: ٧٧].

وأخرج ابن أبي حاتم[٣] عن ابن عباس في قوله: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ﴾ خازن الملك على طعامه، والآخر ساقيه على شرابه.

وأخرج ابن جرير[٤] عنه في قوله: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ قال: عنباً.

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد[٥] ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ قال: عبارته.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة[٦] في قوله: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ قال: كان إحسانه فيما ذُكر لنا أنّه كان يعزّي حزينهم، ويداوي مريضهم. ورأوا منه عبادةً واجتهاداً فأحبوه.

---

(١) «زاد المسير» (٤/ ٢٢١)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٣٤١).
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ١٤٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٤٠)، والحاكم (٢/ ٣٤٦) من طريق خصيف، به.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٤١) بسند صحيح.
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ١٥٥) بسند ضعيف.
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ١٥٦) بسند صحيح.
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ١٥٧ ـ ١٥٨) من طريق أبي بكر بن عبد الله، عن قتادة.

وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي في «الشُّعب» عن الضحاك[١] قال: كان إحسانه أنه إذا مرض إنسان في السجن قام عليه، وإذا ضاق عليه المكان أوسع له، وإذا احتاج جمع له.

وأخرج أبو الشيخ[٢] عن ابن عباس قال: دعا يوسف لأهل السجن فقال: اللَّهُمَّ لا تُعمّ عليهم الأخبارَ، وهوّن عليهم مَرّ الأيام.

وأخرج أبو عبيد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن جريج[٣] في قوله: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ﴾ الآية، قال: كره العبارةَ لهما فأجابهما بغير جوابهما ليريهما أن عنده علماً، وكان الملِكُ إذا أراد قتل إنسان صنع له طعاماً معلوماً فأرسل به إليه، فقال يوسف: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ﴾ إلى قوله: ﴿يَشْكُرُونَ﴾ فلم يَدْعه صاحبا الرؤية حتى يعبّر لهما، فكره العبارة فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قال: فلم يَدَعَاه فعبّر لهما.

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة[٤] في قوله: ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ قال: إنّ المؤمن ليشكرُ ما به من نعمة الله، ويشكر ما بالناس من نعم الله، ذُكر لنا أنّ أبا الدرداء كان يقول: يا رُبّ شاكرٍ نعمةَ غير مُنْعم عليه لا يدري، ويا ربّ حامل فقهٍ غير فقيه.

وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن قتادة[٥] في قوله: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ﴾ الآية، قال: لما عرف يوسف أن أحدهما مقتول دعاهما إلى حظهما مِنْ ربهما وإلى نصيبهما من آخرتهما.

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور في «سننه» رقم (١١٢٤ ـ تفسير)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ١٥٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٤٣)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٩٥٧٩) بسند ضعيف.

(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٥٣٧).

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ١٦١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٤٧) بسند ضعيف.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ١٦٣) بسند صحيح.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ١٦٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٤٦) بسند صحيح.

وأخرج أبو الشيخ[١] عن ابن جريج في قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ قال: العَدْل.

[تأويل يوسف لرؤيا صاحبيه]:

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْـَٔاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

هذا هو بيان ما طلباه منه مِنْ تعبير[٢] رؤياهما. والمراد بقوله: ﴿أَمَّآ أَحَدُكُمَا﴾ هو الساقي، وإنما أبهمه لكونه مفهوماً، أو لكراهة التصريح للخبّاز بأنّه الذي سيصلب ﴿فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا﴾؛ أي: مالكه، وهي عهدته التي كان قائماً بها في خدمة الملك، فكأنه قال: أما أنت أيها الساقي فستعود إلى ما كنت عليه ويدعو بك الملك ويطلقك من الحبس.

﴿وَأَمَّا ٱلْـَٔاخَرُ﴾ وهو الخبّاز ﴿فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ﴾ تعبيراً لما رآه مِنْ أنّه يحمل فوق رأسه خبزاً فتأكل الطير منه.

﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ وهو ما رأياه وقصّاه عليه. يقال: استفتاه إذا طلب منه بيان حكم شيء سأله عنه مما أشكل عليه، وهما قد سألاه تعبير ما أشكل عليهما مِنْ الرؤيا.

﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾؛ أي: قال يوسف، والظان هو أيضاً يوسف، والمراد بالظنّ: العلم؛ لأنّه قد علم مِنْ الرؤيا نجاة الشرابي وهلاك الخباز، هكذا قال جمهور[٣] المفسرين وقيل: الظاهر على معناه؛ لأن عابر الرؤيا إنما يظن ظنّاً، والأوّل أولى وأنسب بحال الأنبياء، ولا سيّما وقد أخبر عَنْ نفسه عليه السلام بأنه قد أطلعه الله على شيء من علم الغيب كما في قوله: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ﴾ الآية [يوسف: ٣٧]، وجملة ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ هي مقول القول أمره بأن يذكره عند سيده، ويصفه بما شاهده منه من جودة التعبير والاطلاع على شيء مِنْ علم الغيب،

---

(١) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٥٣٩).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٣٤٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٢٣).

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٣٥٢)، و«روح المعاني» (١٢/ ٣٤٥)، و«جامع البيان» (١٣/ ١٦٩).

[٣/٧٨] وكانت هذه المقالة منه عليه السلام صادرة عن ذهول ونسيان عن ذكر الله بسبب الشيطان، فيكون ضمير[(١)] المفعول في «أنساه» عائداً إلى يوسف، هكذا قال بعضُ المفسرين[(٢)] ويكون المراد بربه في قوله: ﴿ذِكۡرَ رَبِّهِۦ﴾ وهو الله سبحانه؛ أي: إنساء الشيطانِ يوسفَ ذكر الله تعالى في تلك الحال ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا﴾ يذكره عند سيده ليكون ذلك سبباً لانتباهه على ما أوقعه مِنَ الظلم البيِّن عليه بسجنه بعد أَنْ رأى من الآيات ما يدل على براءته.

وذهب كثير من المفسرين إلى أن الذي أنساه الشيطان ذكر ربه هو الذي نجا[(٣)] مِنْ الغلامين، وهو الشرابي، والمعنى: إنساء الشيطان الشرابي ذكر سيده؛ أي: ذكره لسيده فلم يبلّغ إليه ما أوصاه به يوسف مِنْ ذكره عند سيده، ويكون المعنى: فأنساه الشيطان ذكر إخباره بما أمره به يوسف مع خلوصه من السجن ورجوعه إلى ما كان عليه من القيام بسقي الملك.

وقد رجّح هذا بكون الشيطان لا سبيل له على الأنبياء.

وأُجيب بأنّ النسيان وقع مِنْ يوسف، ونسبته إلى الشيطان على طريق المجاز، والأنبياء غير معصومين عن النسيان إلّا فيما يخبرون به عن الله سبحانه.

وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكروني»[(٤)].

ورجح أيضاً بأن النسيان ليس بذنب، فلو كان الذي أنساه الشيطان ذكر ربه هو يوسف لم يستحق العقوبة على ذلك بلبثه في السجن بضع سنين.

وأجيب بأنّ النسيان هنا بمعنى: الترك، وأنه عوقب بسبب استعانته بغير الله سبحانه، ويؤيد رجوع الضمير إلى يوسف ما بعده من قوله: ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ﴾.

ويؤيد رجوعه إلى الذي نجا من الغلامين قوله فيما سيأتي: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا

---

(١) «البحر المحيط» (٦/ ٢٨٠)، و«الفريد» (٣/ ٦٨).

(٢) انظر: «المحرر الوجيز» (٩/ ٥٠٦)، و«جامع البيان» (١٣/ ١٧٢).

(٣) «البحر المحيط» (٦/ ٢٨٠)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٣٥٥)، و«روح المعاني» (١٢/ ٣٤٦).

(٤) أخرجه أحمد (١/ ٤٢٤)، ومسلم رقم (٥٧٢)، والنسائي في «المجتبى» (٣/ ٣٣)، وفي «الكبرى» رقم (٥٨٤) ورقم (١١٨٣)، وابن ماجه رقم (١٢٠٣).

﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥] سنة ﴿فَلَبِثَ﴾؛ أي: يوسف ﴿فِي السِّجْنِ﴾ بسبب ذلك القول الذي قاله للذي نجا مِنْ الغلامين، أو بسبب ذلك الإنساء ﴿بِضْعَ سِنِينَ﴾ البضع: ما بين الثلاث إلى التسع كما حكاه الهروي[١] عَنْ العرب.

وحكي عن أبي عبيدة[٢] أنّ البضع: ما دون نصف العقد، يعني: ما بين واحد إلى أربعة.

وقيل: ما بين ثلاث إلى سبع، حكاه قطرب[٣].

وحكى الزجاج[٤] أنه ما بين الثلاث إلى الخمس.

وقد اختلف في تعيين قدر المدة التي لبث فيها يوسف في السجن، فقيل: سبع سنين، وقيل: ثنتا عشرة سنة، وقيل: أربع عشرة سنة، وقيل: خمس سنين.

وقد أخرج ابن جرير[٥] عن عكرمة في قوله: ﴿أَمَّآ أَحَدُكُمَا﴾ قال: أتاه فقال: رأيتُ فيما يرى النائم أنّي غرستُ حَبلةً مِنْ عنب فنبتت، فخرج فيه عناقيد فعصرتهنّ ثم سقيتهنّ الملِكَ؛ فقال: تمكث في السجن ثلاثة أيام، ثُم تخرج فتسقيه خَمْراً.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن مسعود[٦] قال: ما رأى صاحبا يوسف شيئاً، إنما تحالما ليجرّبا علمَه. فلما أوّل رؤياهما قالا: إنما كنا نلعبُ ولم نرَ شيئاً، فقال ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ يقول: وقعت العبارة فصار الأمر على ما عبّر يوسف.

وأخرج أبو عبيد، وابن المنذر، وأبو الشيخ عن أبي مِجْلَز[٧] قال: كان أحد اللذين قَصَّا على يوسف الرؤيا كاذباً.

وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن ابن سابط[٨] ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ قال: عند مِلكِ الأرض.

---

(١) في «الغريبين في القرآن والحديث» (١/ ١٨٥).
(٢) ذكره الزجاج في «معاني القرآن» (٣/ ١١٢).
(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١/ ٣٥٧). (٤) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ١١٢).
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ١٥٥) من طريق أبي حمزة، به.
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ١٦٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٤٨)، والحاكم (٢/ ٢٤٦) من طريق سفيان، به.
(٧) عزاه إليهم السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٥٤٠).
(٨) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ١٧٠) بسند ضعيف.

وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب «العقوبات»، وابن جرير، والطبراني، وابن مردويه عن ابن عباس[١] قال: قال رسول الله ﷺ: «لو لم يقل يوسف الكلمة التي قال، ما لِبثَ في السجن طول ما لبثَ، حيثُ يبتغي الفرَجَ مِنْ عند غير الله».

وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وأبو الشيخ، عن عكرمة[٢] مرفوعاً نحوه، وهو مرسل.

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن أبي هريرة[٣] مرفوعاً نحوه.

وأخرج أحمد في «الزهد»، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن الحسن[٤] مرفوعاً نحوه، وهو مرسل.

وأخرج ابنُ جرير، وأبو الشيخ عَنْ قتادة[٥] فذكر نحوه وهو مرسل أيضاً.

وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد»، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن أنس[٦] قال: أُوحيَ إلى يوسف: مَنْ استنقذك من القتل حين همّ إخوتك أن يقتلوك؟ قال: أنتَ يا ربّ، قال: فمن استنقذك من الجبّ إذ ألقوك فيه؟ قال: أنتَ يا ربّ، قال: فمَنْ استنقذك مِنْ المرأة إذ همّت بك؟ قال: أنتَ يا ربّ، قال: فما لك نسيتني وذكرَت آدميّاً؟ قال: جَزَعاً، وكلمة تكلم بها

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب «العقوبات» رقم (١٦٠)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ١٧٣)، والطبراني رقم (١١٦٤٠)، وابن مردويه، كما في «تخريج أحاديث الكشاف» (٢/ ١٦٧). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٤٠): «وفيه إبراهيم بن يزيد القرشي المكي، وهو متروك».

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٢٣)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ١٧٢) بسند صحيح.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٤٨) بسند صحيح.

(٤) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٨٠)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ١٧٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٤٨) مرسلاً بسند صحيح، من طريق يونس، به.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ١٧٣) مرسلاً بسند صحيح، من طريق معمر، عن قتادة. قال ابن كثير في «تفسيره»: «وهذه المرسلات هٰهنا لا تقبل لو قبل المرسل من حيث هو في غير هذا الموطن، والله أعلم».

(٦) أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» (ص٨١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٤٩) من طريق ثابت، عن أنس.

لساني، قال: فوعزّتي لأخلدنَّك في السجن بضع سنين، فلبث فيه سبع سنين، وقد اختلف السلف في تقدير مدّة لبثه في السجن على حسب ما قدّمنا ذكره، فلم نشتغل ها هنا بذكر مَنْ قال بذلك ومَنْ خرّجه.

[تأويل يوسف لرؤيا ملك مصر]:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

المراد بالملِك هُنا: هو الملك الأكبر، وهو الريَّان بن الوليد الذي كان العزيز وزيراً له، رأى في نومه لما[1] دنا فَرَجُ يوسف عليه السلام أنه خرج من نهر يابس ﴿سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ﴾ جمع سمين وسمينة، في إثرهن سبع عجاف؛ أي: مهازيل، وقد أقبلت العجاف على السمان فأكلتهنّ.

والمعنى: إنّي رأيتُ، ولكنّه عبر بالمضارع لاستحضار[2] الصورة، وكذلك قوله: ﴿يَأْكُلُهُنَّ﴾ عبَّر بالمضارع للاستحضار، والعجاف جمع عجفاء، وقياس[3] جمعه عُجْف؛ لأنّ فَعْلاء وأفْعَل لا تجمع على فِعال، ولكنّه عدل عَنْ القياس حملاً على سِمان ﴿وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ﴾ معطوف على سبع[4] بقرات.

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٣٥٩)، و«الوسيط» للواحدي (٢/ ٦١٥)، و«معالم التنزيل» (٢/ ٤٢٨).
(٢) «روح المعاني» (١٢/ ٣٤٨)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ١٤٤).
(٣) «روح المعاني» (١٢/ ٣٤٩)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٣٦١).
(٤) «الفريد» (٣/ ٦٨)، و«التبيان» (٢/ ٧٣٣).

والمراد بقوله: ﴿خُضْرٍ﴾: أنَّه قد انعقد حبُّها، واليابسات التي قد بلغت حدّ الحصاد. والمعنى: وأرى سبعاً أُخر يابسات، وكان قد رأى أن السبع السنبلات اليابسات قد أدركت الخضر والتوت عليها حتى غلبتها، ولعلّ عدم التعرّض لذكر هذا في النظم القرآني للاكتفاء بما ذكر مِنْ حال البقرات.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ﴾ خطاب[١] للأشراف من قومه ﴿أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ﴾؛ أي: أخبروني بحكم هذه الرؤيا ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾؛ أي: تعلمون عبارة الرؤيا، وأصل العبارة مشتقة مِنْ عبور النهر، فمعنى عَبرتُ النهرَ: بلغتُ شاطئه، فعابر الرؤيا يخبر بما يؤول إليه أمرها.

قال الزجاج[٢]: اللام في «للرؤيا» للتبيين؛ أي: إنْ كنتم تعبرون. ثم بيَّن فقال: (للرؤيا) وقيل: هو للتقوية، وتأخير الفعل العامل فيه لرعاية الفواصل. وجملة ﴿قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ مستأنفة جواب[٣] سؤال مقدّر، والأضغاث: جمع ضِغْث، وهو كلُّ مختلط[٤] مِنْ بَقْل أو حشيش أو غيرهما.

والمعنى: أخاليط أحلام، والأحلام: جمع حُلُم: وهي الرؤيا الكاذبة التي لا حقيقة لها كما يكون من حديث النفس ووسواس الشيطان، والإضافة بمعنى (من)، وجمعوا (الأحلام) ولم يكن من الملك إلاّ رؤيا واحدة مبالغة منهم في وصفها بالبطلان، ويجوز أن يكون رأى مع هذه الرؤيا غيرها مما لم يقصّه الله علينا.

﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ قال الزجاج[٥]: المعنى: بتأويل الأحلام المختلطة[٦]، نفوا عن أنفسهم علمَ ما لا تأويل له، لا مطلق العلم بالتأويل، وقيل: إنّهم نفوا عَنْ أنفسهم علم التعبير مطلقاً، ولم يدّعوا أنه لا تأويل لهذه الرؤيا.

وقيل: إنّهم قصدوا محوها[٧] مِنْ صدر الملك حتى لا يشتغل بها، ولم يكن ما ذكروه من نفي العلم حقيقة ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا﴾؛ أي: من الغلامين، وهو الساقي الذي قال له يوسف: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢] ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾

---

(١) «روح المعاني» (١٢/ ٣٥٢)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ١٤٤).
(٢) في «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١١٢).
(٣) «روح المعاني» (١٢/ ٣٥٣)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ١٤٤).
(٤) «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (١/ ٣٥).
(٥) في «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١١٣).
(٦) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١/ ٣٦٢).
(٧) «أحكام القرآن» لابن العربي (٣/ ١٠٧٨).

بالدال المهملة[١] على قراءة الجمهور، وهي القراءة الفصيحة؛ أي: تذكر الساقي يوسُفَ وما شاهده منه مِنَ العلم بتعبير الرؤيا، وقُرئ بالمعجمة[٢]؛ ومعنى ﴿بَعۡدَ أُمَّةٍ﴾: بعد حينٍ، ومنه ﴿إِلَىٰٓ أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ﴾ [هود: ٨]؛ أي: إلى وقت.

قال ابن درستويه[٣]: والأمة لا تكون على الحين إلّا على حذف مضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، كأنه قال: والله أعلم. وادّكَر بعد حين أمةٍ أو بعد زمن أمة، والأمة: الجماعة الكثيرة من الناس.

قال الأخفش[٤]: [٣/٧٩] هو في اللفظ واحد وفي المعنى جمع، وكل جنس من الحيوان أمة.

وقرأ ابن عباس وعكرمة «بعد أَمَةٍ» بفتح الهمزة[٥] وتخفيف الميم؛ أي: بعد نسيان، ومنه قول الشاعر[٦]:

أَمَّـمـتُ وكـنـتُ لا أنـسـى حـديـثـا كـذاك الـدهـرُ يُـودي بـالـعـقـولِ

ويقال: أمه يأمه أمها: إذا نسي.

وقرأ الأشهب العقيلي «بعد إِمَّة» بكسر[٧] الهمزة؛ أي: بعد نعمة[٨]، وهي نعمة النجاة.

﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ﴾؛ أي: أخبركم به بسؤالي عنه مَنْ له علم بتأويله، وهو يوسف ﴿فَأَرۡسِلُونِ﴾ خاطب الملكَ بلفظ التعظيم، أو خاطبه ومَنْ كان عنده من الملأ، طلب منهم أن يرسلوه إلى يوسف ليقصّ عليه رؤيا الملك حتى يخبره بتأويلها فيعود بذلك إلى الملك ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا﴾؛ أي: يا يوسف، وفي الكلام حذف.

والتقدير: فأرسلوه إلى يوسف فسار إليه، فقال له: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ إلى

---

(١) «التبيان» (٢/ ٧٣٤)، و«جامع البيان» (١٣/ ١٨١)، و«روح المعاني» (١٢/ ٣٥٨)، و«البحر المحيط» (٦/ ٢٨٤).

(٢) «القراءات الشاذة» (ص٦٤)، و«البحر المحيط» (٦/ ٢٨٤)، و«روح المعاني» (١٢/ ٣٥٨). عزاها في «إتحاف فضلاء البشر» (ص٢٦٥) للحسن، وهي قراءة شاذة.

(٣) في «تصحيح الفصيح وشرحه» لابن دُرُسِتَوَيْه (ص٣٦٥).

(٤) في «معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٥٩١).

(٥) «القراءات الشاذة» (ص٦٤)، و«المحتسب» (١/ ٣٤٤).

(٦) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١/ ٣٦٤).

(٧) «روح المعاني» (١٢/ ٣٥٨)، و«القراءات الشاذة» (ص٦٤)، و«المحتسب» (١/ ٣٤٤). وقراءة ابن عباس بفتح الهمزة، وتخفيف الميم وبهاءٍ منوّنة وهي قراءة شاذة، وكذلك قراءة الأشهب شاذة.

(٨) «المحرر الوجيز» (٩/ ٣١١).

آخر الكلام، والمعنى: أخبرنا في رؤيا مَنْ رأى سبع بقرات. . . إلخ وترك ذكر ذلك اكتفاء بما هو واثق به مِنْ فهم يوسف بأن ذلك رؤيا، وأن المطلوب منه تعبيرها ﴿لَعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: إلى الملك ومَنْ عنده من الملأ ﴿لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ ما تأتي به مِنْ تأويل هذه الرؤيا، أو يعلمون فضلك ومعرفتك لفنّ التعبير، وجملة ﴿قَالَ تَزۡرَعُونَ﴾ إلخ مستأنفة[١] جواب سؤال مقدّر كغيرها مما يرد هذا المورد ﴿سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا﴾؛ أي: متوالية متتابعة، وهو مصدر[٢].

وقيل: هو حال[٣]؛ أي: دائبين، وقيل: صفة لسبع؛ أي: دائبة.

وحكى أبو حاتم عَنْ يعقوب أنه قرأ «دأَباً» بتحريك[٤] الهمزة، وكذا روى حفص عَنْ عاصم وهما لغتان، قال الفرّاء[٥]: حُرك لأن فيه حرفاً من حروف الحلق، وكذلك كل حرف فتح أوّله وسكّن ثانيه فتثقيله جائز في كلمات معروفة. فعبر يوسف عليه السلام السبع البقرات السِّمان بسبع سنين فيها خَصْب، والعِجَاف بسبع سنين فيها جَدْب، وهكذا عبّر السبع السنبلات الخضر والسبع السنبلات اليابسات، واستدل بالسبع السنبلات الخُضْر على ما ذكره في التعبير من قوله: ﴿فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾؛ أي: ما حصدتم في كلِّ سنة مِنْ السنين المُخْصَبة فذروا ذلك المحصود في سنبله ولا تفصلوه عنها لئلا يأكله السوس[٦] إلّا قليلاً مما تأكلون في هذه السنين المخصبة فإنّه لا بدّ لكم مِنْ فصله عن سنبله وإخراجه عنها، واقتصر على استثناء المأكول دون ما يحتاجون إليه مِنْ البذر الذي يبذرونه في أموالهم؛ لأنه قد علم من قوله تزرعون: ﴿ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: مِنْ بعد السبع السنين المخصبة ﴿سَبۡعٞ شِدَادٞ﴾؛ أي: سبع سنين مُجْدبة يصعب أمرها على الناس ﴿يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ﴾ من تلك الحبوب المتروكة في سنابلها، وإسناد الأكل إلى السنين مجاز[٧].

---

(١) «تفسير أبي السعود» (٤/ ١٤٦)، و«روح المعاني» (١٢/ ٣٦١).

(٢) «التبيان» (٢/ ٧٣٤)، و«البحر المحيط» (٦/ ٢٨٥)، و«روح المعاني» (١٢/ ٣٦١)، و«الكشاف» (٣/ ٢٩٢).

(٣) انظر: المصادر المتقدمة.

(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٣٦٦)، و«التيسير» (ص١٢٩)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٣٣٢).

(٥) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٤٧).

(٦) «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٣٦٧)، و«الكشاف» (٣/ ٣٣٢).

(٧) «روح المعاني» (١٢/ ٣٦٣)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ١٤٧).

والمعنى: يأكل الناس فيهنّ أو يأكل أهلهنّ ما قدمتم لهنّ؛ أي: ما ادخرتم لأجلهنّ فهو مِنْ باب: نهارُه صائمٌ، ومنه قول الشاعر:

نهارُكَ يا مغرورُ سهوٌ وغفلةٌ وليلُك نومٌ والرَّدى لك لازمُ[١]

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾؛ أي: مما تَحْبسون مِنْ الحب لتزرعوا به؛ لأن في استبقاء البذر تحصين الأقوات.

وقال أبو عُبيدة[٢]: معنى ﴿تُحْصِنُونَ﴾: تُحرزون، وقيل: تدَّخرون، والمعنى واحد.

قوله: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾؛ أي: من بعد السنين المُجْدبات، فالإشارة إليها، والعام: السّنَة ﴿فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾ من الإغاثة أو الغوث، والغيث: المطرُ، وقد غاثَ الغيثُ الأرضَ؛ أي: أصابها، وغاث الله البلاد يغيثها غوثاً: أمطرَها، فمعنى يُغاثُ الناس: يُمْطرون ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾؛ أي: يعصرون الأشياء التي تُعْصَر كالعنب والسمسم والزيتون، وقيل: أراد حَلْب الألبان.

وقيل: معنى يعصرون: ينجون، مأخوذ مِنْ العُصْرة وهي المنجاة.

قال أبو عُبيدة[٣]: والعَصَر بالتحريك: الملجأ والمَنْجاة، ومنه قول الشاعر:

صادياً يستغيثُ غيرَ مُغاثٍ ولقد كان عصرةَ المنجودِ[٤]

واعتصرت[٥] بفلان: التجأتُ به. وقرأ حمزة والكسائي «تَعْصرون» بتاء[٦] الخطاب.

وقرئ (يُعْصَرون) بِضم حرف المضارعة[٧] وفتح الصاد، ومعناه: يُمْطَرون. ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا﴾ [النبأ: ١٤].

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن أبي حاتم عن مجاهد[٨] قال: قال يوسف

---

(١) نسبه ابن عساكر في «تاريخ مدينة دمشق» (١٢/ ٣١٤) إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه. وانظر: «جامع البيان» (١٣/ ١٩٠ ـ ١٩١)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٣٦٨).

(٢) في «مجاز القرآن» له (١/ ٣١٣).

(٣) في «مجاز القرآن» له (١/ ٣١٣).

(٤) انظر: «جمهرة أشعار العرب» (٢/ ٧٣٣).

(٥) «الصحاح» (٢/ ٧٤٩).

(٦) «التبيان» (٢/ ٧٣٤)، و«النشر» (٢/ ٢٩٥)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ١٩). قرأ الكوفيون عدا عاصم بالخطاب (تَعْصرون) وقرأ الباقون بالياء أما قراءة (يُعْصَرون) بالبناء للمجهول فشاذ.

(٧) انظر: المصادر المتقدمة.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٥٠، ٢١٥١) بسند صحيح.

للساقي: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢]؛ أي: الملك الأعظم، ومَظلمتي وحبسي في غير شيء، فقال: أفعلُ، فلما خرج الساقي رُدّ على ما كان عليه، ورضي عنه صاحبه، وأنساه الشيطان ذكر الملك الذي أمره يوسف أنْ يذكرَه له، فلبث يوسف بعد ذلك في السجن بضعَ سنين، ثم إنّ الملك ريّان بن الوليد رأى رؤياه التي أري فيها فهالته وعرَف أنّها رؤيا واقعة ولم يدر ما تأويلها، فقال للملأ حوله مِنْ أهل مملكته: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ﴾ فلما سمع من الملك ما سمع منه ومسألته عن تأويلها، ذكر يوسفَ ما كان عبر له ولصاحبه وما جاء مِنْ ذلك على ما قال فقال: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ﴾.

وأخرج ابن جرير[(١)] عن ابن عباس في قوله: ﴿أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖ﴾ يقول: مشتبهة.

وأخرج أبو يعلى، وابن جرير عنه[(٢)] قال: من الأحلام الكاذبة.

وأخرج ابن جرير[(٣)] عن الضحاك مثلَه.

وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ من طرق عن ابن عباس[(٤)] في قوله: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ﴾ قال: بعد حينٍ.

وأخرج ابن جرير عن مجاهد[(٥)] والحسن[(٦)] وعكرمة[(٧)] وعبد الله[(٨)] بن كثير والسدّي[(٩)] مثله.

وأخرج ابن جرير[(١٠)] عن ابن عباس قال: بعد سنين.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ١٧٩) بسند صحيح.
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ١٨٠) بسند ضعيف.
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ١٨٠) بسند ضعيف.
(٤) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٢٤)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ١٨١، ١٨٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٥١) بسند صحيح.
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ١٨٣) بسند صحيح.
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ١٨٣)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٢٤) بسند صحيح.
(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ١٨٣) بسند حسن.
(٨) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ١٨٣) من طريق ابن جريج، به.
(٩) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ١٨٣) بسند حسن.
(١٠) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ١٨٣) بسند ضعيف.

وأخرج ابن أبي حاتم[١] عن الحسن قال: بعد أُمّةٍ مِنْ النّاس.

وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة[٢] في قوله: ﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ﴾ الآية، قال: أما السِّمان فسِنون فيها خَصْب، وأما العِجافُ فسنون مُجْدبة، ﴿وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ﴾ هي السنون المخاصيب تَخْرج الأرضُ نباتَها وزرعها وثمارها، ﴿وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ المُحُول الجُدوبُ لا تُنبت شيئاً.

وأخرَج عبدُ الرزاق، وابنُ جرير، وابنُ المنذر، وابنُ أبي حاتم، عَنْ عكرمة[٣] قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد عجبتُ مِنْ يوسف وكرمه وصبره ـ والله يغفر له ـ حين سُئل عَنْ البقرات العجاف والسِّمان، ولو كنتُ مكانه ما أخبرتهم حتى اشترط عليهم أَنْ يخرجوني، ولقد عجبتُ مِنْ يوسف وصبره وكرمه ـ والله يغفر له ـ حين أتاه الرسول، ولو كنتُ مكانه لبادرتهم الباب ولكنّه أراد أَنْ يكون له العذر».

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[٤] في قوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ يقول: تخزُنون، وفي قوله: ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ يقول: الأعناب والدُّهن.

وأخرجَ ابنُ جرير، وابن أبي حاتم عنه[٥] في قوله: ﴿فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾ يقول: يصيبُهم فيه غَيثٌ ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ يقول: يعصرون فيه العنب، ويعصرون فيه الزبيبَ ويعصرون مِنْ كلِّ الثمرات.

وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٥٢) بسند صحيح.

(٢) أخرجه عبد الرزاق (١/ ٣٢٤)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ١٨١، ١٨٢) بسند صحيح.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٢٣)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٢٠٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٥٦) بسند صحيح.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ١٩٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٥٥) بسند صحيح.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ١٩٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٥٥) بسند ضعيف.

الشيخ[١] عنه أيضاً ﴿وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ﴾ قال: يحتلبون.

وأخرج ابنُ جرير، وأبو الشيخ[٢] عنه أيضاً ﴿ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ﴾ قال: أخبرهم بشيء لم يسألوه عنه كأنّ الله قد علّمه إياه ﴿فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾ بالمطر، ﴿وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ﴾ السمسم دُهناً، والعنب خَمْراً، والزيتون زَيتاً.

[يوسف واثق من براءته مطمئن إلى أن الحق لا يخفى طويلاً، ولا يخذل طويلاً]:

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ۝٥٠ قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٥١ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ۝٥٢ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٥٣ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ۝٥٤ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ۝٥٥ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٥٦ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٥٧﴾.

[طلب يوسف رفع الاتهام عن سمعته قبل أن يطلب رفع السجن عن بدنه]:

قولُه: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ﴾ في الكلام حذف قبل هذا، والتقدير: فذهب الرسول إلى الملك فأخبره بما أخبره به يوسف مِنْ تعبير تلك الرؤيا، وقال الملك لمن بحضرته: «ائتوني به»؛ أي: بيوسف، رَغِب إلى رؤيته ومعرفة حاله بعد أن علم مِنْ فضله ما علمه مِنْ وصف الرسول له، ومِنْ تعبيره لرؤياه ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ﴾؛ أي: جاء إلى يوسف ﴿ٱلرَّسُولُ﴾ واستدعاه إلى حضرة الملك وأمره بالخروج من السجن ﴿قَالَ﴾ يوسف للرسول ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾؛ أي: سيدك ﴿فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ١٩٥)، وسعيد بن منصور في «سننه» رقم (١١٢٧ ـ تفسير)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٥٥) بسند صحيح.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ١٩٤) بسند ضعيف.

﴿أَيْدِيَهُنَّ﴾ أمره بأنْ يسأل الملك عَنْ ذلك، وتوقف عَنْ الخروج من السجن، ولم يسارع إلى إجابة الملك، [٣/٨٠] ليظهر للناس براءة ساحته، ونزاهة جانبه، وأنه ظُلمَ بكيد امرأة العزيز ظلماً بيّناً، ولقد أُعطى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ الحلم والصبر والأناة ما تضيق الأذهان عَنْ تصوّره، ولهذا ثبت في «الصحيح»[1] مِنْ قوله ﷺ: «ولو لبثتُ في السجن ما لبثَ يوسفُ لأجبتُ الداعي»، يعني: الرسول الذي جاء يدعوه إلى الملك.

قال ابن عطية[2]: هذا الفعل مِنْ يوسف أناةً وصبراً، وطلباً لبراءة ساحته، وذلك أنّه خشي أن يخرج وينال من الملك مرتبة، ويسكت عن أمر ذنبه فيراه الناس بتلك العين يقولون: هذا الذي راود امرأة العزيز، وإنّما قال: ﴿فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ﴾ وسكت[3] عن امرأة العزيز رعايةً لذمام الملك العزيز، أو خوفاً مِنْه من كيدها وعظيم شرّها، وذكر السؤال عَنْ تقطيع الأيدي، ولم يذكر مراودتهنّ له، تنزهاً منه عَنْ نسبة ذلك إليهنّ، ولذلك لم ينسب المراودة فيما تقدّم إلى امرأة العزيز إلاّ بعد أَنْ رمته بدائها وانسلت.

وقد اكتفى هنا بالإشارة الإجمالية بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ فجعل علم الله سبحانه بما وقع عليه من الكيد منهنّ مُغْنياً عَنْ التصريح، وجملة ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ مستأنفة[4] جواب سؤال مقدّر، كأنه قيل: فماذا قال الملك بعد أن أبلغه الرسول ما قال يوسف؟ والخطبُ: الشأنُ العظيم الذي يحق له أن يخاطب فيه صاحبه خاصة.

والمعنى: ما شأنكنّ إذا راودتنّ يوسف عَنْ نفسه. وقد تقدّم معنى المراودة، وإنما نسب إليهنّ المراودة؛ لأنّ كل واحدة منهم وقع منها ذلك كما تقدم؛ ومن جملة مَنْ شمله خطاب الملك امرأة العزيز، أو أراد بنسبة ذلك إليهنّ وقوعه منهنّ في الجملة كما كان مِنْ امرأة العزيز تحاشياً عَنْ التصريح منه بنسبة ذلك إليها لكونها

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٤٦٩٤)، ومسلم رقم (١٥١)، وأحمد رقم (٨٣٢٨ ـ ٨٣٢٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) في «المحرر الوجيز» (٩/ ٣١٧). (٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٣٧٣).
(٤) «روح المعاني» (١٢/ ٣٧١)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ١٤٨).

امرأة وزيره وهو العزيز، فأجبن عليه بقولهنّ: ﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾؛ أي: معاذ الله ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾؛ أي: مِنْ أمر سيء يُنْسب إليه، فعند ذلك ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾ منزهةً لجانبه، مقرّةً على نفسها بالمراودة له ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: تبين وظهر.

وأصله: حَصّ، فقيل: حَصْحَصَ كما قيل في كُبّوا: ﴿فَكُبْكِبُوا۟﴾ [الشعراء: ٩٤]، قاله الزجّاج[١]، وأصل الحَصّ: استئصال الشيء، يقال: حَصّ شعرَه إذا استأصله، ومنه قول أبي قيس[٢] بن الأسْلَت:

قد حصَّت البيضةُ رأسي فما ... أطعَمُ نوماً غيرَ تَهْجاع

والمعنى: أنّه انقطع الحق عَنْ الباطل بظهوره وبيانه، ومنه:

فمن مُبلغٌ عني خِداشا فإنّه ... كَذوبٌ إذا ما حَصْحصَ الحقُّ ظالمُ[٣]

وقيل: هو مشتق مِنْ الحِصّة. والمعنى: بانت حِصّة الباطل.

قال الخليل[٤]: معناه: ظهرَ الحقُّ بعد خفائه، ثم أوضحت ذلك بقولها: ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ ولم تقع منه المراودة لي أصلاً ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فيما قاله من تبرئة نفسه ونسبة المراودة إليها، وأرادت بالآن زمان تكلمها بهذا الكلام.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ ذهبَ أكثرُ المفسرين إلى أن هذا من كلام يوسف[٥] عليه السلام.

قال الفرّاء[٦]: ولا يبعد وصل كلام إنسان بكلام إنسان آخر إذا دلت القرينة الصارفة لكلٍّ منهما إلى ما يليق به، والإشارة إلى الحادثة الواقعة منه، وهي تثبته وتأنيه؛ أي: فعلتُ ذلك ليعلم العزيز أنّي لم أخنْه في أهله بالغيب؛ والمعنى بظهر الغيب، والجار[٧] والمجرور في محل نصب على الحال؛ أي: وهو غائب عني، أو وأنا غائب عنه.

---

(١) في «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٣/ ١١٥).

(٢) انظر: «خزانة الأدب» (٣/ ٤١١).

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١/ ٣٧٤).

(٤) قال الخليل في كتاب «العين» (ص١٩٢): «الحَصْحَصَةُ: بيان الحقِّ بعد كتمانه».

(٥) «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٣٧٥)، و«جامع البيان» (١٣/ ٢٠٧ ـ ٢٠٨).

(٦) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٤٧).

(٧) «الفريد» (٣/ ٧٥)، و«روح المعاني» (١٢/ ٣٧٦)، و«الكشاف» (٣/ ٢٩٦).

قيل: إنّه قال ذلك وهو في السجن بعد أن أخبره الرسولُ بما قالته النسوة، وما قالته امرأة العزيز، وقيل: إنّه قال ذلك وقد صار عند الملك، والأوّل أولى.

وذهب الأقلون مِنْ المفسرين إلى أن هذا من كلام[1] امرأة العزيز.

والمعنى: ذلك القول الذي قلته في تنزيهه، والإقرار على نفسي بالمراودة ليعلم يوسف أَنّي لم أخنه فأنسب إليه ما لم يكن منه وهو غائب عني، أو وأنا غائبة عنه.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾؛ أي: لا يثبته ويسدّده، أو لا يهديهم في كيدهم حتى يوقعوه على وجه يكون له تأثير يثبت به ويدوم، وإذا كان من قول يوسف ففيه تعريض بامرأة العزيز حيثُ وقع منها الكيد له والخيانة لزوجها، وتعريض بالعزيز حيث ساعدها على حَبْسه بعد أن علم براءته ونزاهته.

﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ﴾ إنْ كان مِنْ كلام يوسف فهو من باب الهضم للنفس، وعدم التزكية بها مع أنه قد علم هو وغيره من الناس أنّه بريء وظهر ذلك ظهور الشمس، وأقرّت به المرأة التي ادّعت عليه الباطل، ونزهته النسوة اللاتي قطعن أيديهنّ، وإن كان مِنْ كلام امرأة العزيز فهو واقع على الحقيقة؛ لأنها قد أقرت بالذنب، واعترفت بالمراودة بالافتراء على يوسف.

وقد قيل: إن هذا من قول العزيز[2] وهو بعيد جدّاً؛ ومعناه: وما أبرئ نفسي من سوء الظن بيوسف، والمساعدة على حبسه بعد أن علمت ببراءته ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾؛ أي: إن هذا الجنس من الأنفس البشرية شأنه الأمر بالسوء لميله إلى الشهوات، وتأثيرها بالطبع، وصعوبة قهرها، وكفها عن ذلك ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾؛ أي: إلاّ مَنْ رحم مِنْ النفوس فعصمها عَنْ أن تكون أمّارةً بالسوء، أو إلاّ وقت رحمة ربي وعصمته لها، وقيل: الاستثناء[3] منقطع.

والمعنى: لكن رحمة ربي هي التي تَكُفّها عَنْ أن تكون أمارةً بالسوء، وجملة

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١/ ٣٧٦) عن السدي. وانظر: «معالم التنزيل» (٢/ ٤٣١).

(٢) انظر: «زاد المسير» (٤/ ٢٤٠).

(٣) «الفريد» (٣/ ٧٦)، و«التبيان» (٢/ ٧٣٥)، و«روح المعاني» (١٢/ ٣٧٩)، و«المحرر الوجيز» (٩/ ٣٢١).

﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تعليل لما قبلها؛ أي: إنّ مِنْ شأنه كثرة المغفرة لعباده والرحمة لهم.

قوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾ الملك هو الريّان[١] بن الوليد لا العزيز كما تقدّم؛ ومعنى ﴿أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾: أجعله خالصاً لي دون غيري، وقد كان قبل ذلك خالصاً للعزيز، والاستخلاص: طلبُ خلوص الشيء من شوائب الشركة، قال ذلك لما كان يوسف نَفيساً، وعادة الملوك أَنْ يجعلوا الأشياء النفيسة خالصةً لهم دون غيرهم ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾ في الكلام حذف، وتقديره فأتوه به فلما كلمه؛ أي: فلما كلم الملكُ يوسفَ ويحتمل أن يكون المعنى: فلما كلّم يوسُفُ الملكَ.

قيل: والأوّل أولى؛ لأنّ مجالس الملوك لا يتكلم فيها ابتداء إلّا هم دون من يدخل عليهم.

وقيل: الثاني أولى لقول الملك: ﴿قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ فإن هذا يفيد أنه لما تكلم يوسف في مقام الملك جاء بما حبّبه إلى الملك، وقَرّبه مِنْ قلبه، فقال له هذه المقالة، ومعنى مكين: ذو مكانة وأمانةٍ بحيث يتمكن مما يريده من الملك، ويأمنه الملكُ على ما يطلع عليه مِنْ أمره، أو على ما يكله إليه من ذلك.

قيل: إنّه لما وصل إلى الملك أجلسه على سريره، وقال له: إني أحبّ أن أسمع منك تعبير[٢] رؤياي، فعبّرها له بأكمل بيان وأتمّ عبارة، فلما سمع الملك منه ذلك قال له: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ فلما سمع يوسف منه ذلك ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: ولّني أمَر الأرض التي أمرها إليك وهي أرض مصر، أو اجعلني على حفظ خزائن الأرض، وهي الأمكنة التي تخزن فيها الأموال. طلب يوسف عليه السلام منه ذلك ليتوصل به إلى نَشْر العدل ورفع الظلم، ويتوسل به إلى دعاء أهل مصر إلى الإيمان بالله وترك عبادة الأوثان. وفيه دليل على أنّه يجوز لمن وثق مِنْ نفسه إذا دخل في أمرٍ من أمور السلطان أَنْ يرفع منار الحق ويهدم ما أمكنه من الباطل طلب ذلك لنفسِه، ويجوز له أَنْ يصف نفسه بالأوصاف التي لها ترغيباً فيما

(١) «جامع البيان» (١٣/ ٢١٥)، و«البداية والنهاية» (١/ ٤٦٧، ٤٨٤).
(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٣٧٩).

يرومه، وتنشيطاً لمن يخاطبه من الملوك بإلقاء مقاليد الأمور إليه وجعلها منوطة به، ولكنه يعارض هذا الجواز ما ورد عن نبينا ﷺ من النهي عن طلب الولاية والمنع من تولية مَنْ طلبها أو حرص عليها(١).

والخزائن: جمع خزانة، وهي اسم للمكان الذي يخزن فيه الشيء، والحفيظ: الذي يحفظ الشيء؛ أي: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ﴾ لما جعلته إليّ من حفظ الأموال لا أخرجها في غير مخارجها، ولا أصرفها في غير مصارفها ﴿عَلِيمٌ﴾ بوجوه جمعها وتفريقها ومدخلها ومخرجها. ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾؛ أي: ومثل ذلك التمكين العجيب [٣/٨٠] مكنّا ليوسف في الأرض؛ أَي: جعلنا له مكاناً، وهو عبارة عن كمال قدرته ونفوذ أمره ونهيه حتى صار الملك يصدر عن رأيه، وصار النّاس يعملون على أمره ونهيه ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾؛ أي: ينزل مِنْها حيث أراد ويتخذه مباءة، وهو عبارة عَنْ كمال قدرته كما تقدّم، وكأنّه يتصرف في الأرض التي أمْرها إلى سلطان مصر كما يتصرف الرجل في منزله.

وقرأ ابن كثير بالنون(٢)، وقد استدلّ بهذه الآية على أنه يجوز تولي الأعمال مِنْ جهة السلطان الجائر؛ بل الكافر لمن وثق مِنْ نفسه بالقيام بالحق.

وقد قدمنا الكلام على هذا مستوفى في قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ [هود: ١١٣] ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾ من العباد فنرحمه في الدنيا بالإحسان إليه والإنعام عليه، وفي الآخرة بإدخاله الجنة وإنجائه من النار ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ في أعمالهم الحسنة التي هي مطلوب الله منهم؛ أي: لا نضيع ثوابهم فيها، ومجازاتهم عليها ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْأَخِرَةِ﴾؛ أي: أجرهم في الآخرة، وأضيف الأجر

---

(١) • عن عبد الرحمٰن بن سمرة قال: «قال رسول الله ﷺ: يا عبد الرحمٰن بن سمرة لا تسأل الإمارة، فإنَّك إن أعطيتها من غير مسألةٍ أعنت عليها، وإن أُعطيتها عن مسألةٍ وُكِلتَ إليها».
[أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ٦٢ ـ ٦٣)، والبخاري رقم (٧١٤٧)، ومسلم رقم (١٣/ ١٦٥٢)].
• وعن أبي موسى قال: «دخلتُ على النَّبيِّ ﷺ أنا ورجلان من بني عمي، فقال أحدهما: يا رسول الله أمِّرنا على بعض ما ولاك الله ﷻ، وقال الآخر مثل ذلك، فقال: إنَّا والله لا نُولي هذا العمل أحداً يسأله أو أحداً حَرَص عليه».
[أخرجه أحمد (٤/ ٣٩٣، ٤٠٩)، والبخاري رقم (٧١٤٩)، ومسلم رقم (١٤/ ١٧٣٣)].

(٢) «النشر» (٢/ ٢٩٥)، و«التيسير» (ص١٢٩)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ١١)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٤٥).

إلى الآخرة للملابسة، وأَجْرهم هو الجزاء الذي يجازيهم اللهُ به فيها، وهو الجنة التي لا ينفذ نعيمها، ولا تنقضي مدّتها ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ الوقوع فيما حرّمه عليهم. والمراد بهم: المُحْسنون المتقدم ذكرهم، وفيه تنبيه على أن الإحسان المعتدّ به هو الإيمان والتقوى.

وقد أخرج ابن المنذر[(١)] عن ابن عباس في قوله: ﴿مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ﴾ قال: أراد يُوسفُ العذَر قبل أَنْ يخرج مِنْ السجن.

وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي في «الشعب»[(٢)] عنه قال: لما قالت امرأة العزيز: ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ﴾، قال يوسف: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ فغمزه جبريل فقال: ولا حينَ هممتَ بها؟ فقال: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ﴾ الآية.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه[(٣)] أيضاً: ﴿حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ قال: تبين.

وأخرج ابن جرير عن مجاهد[(٤)]، وقتادة[(٥)]، والضحاك[(٦)]، وابن زيد[(٧)]، والسدّي[(٨)] مثله.

وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي حاتم، عن حكيم بن حزام[(٩)] في قوله:

---

(١) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥٤٨/٤).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٢٠٢/١٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢١٥٦/٧) عن عكرمة بسند صحيح.
وأخرجه الطبراني رقم (١١٦٤٠) عن ابن عباس.
قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤٠/٧): «فيه إبراهيم بن يزيد القرشي المكي، وهو متروك».

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٢٠٤/١٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢١٥٦/٧) بسند صحيح.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٢٠٤/١٣) بسند صحيح.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٢٠٥/١٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢١٥٦/٧) بسند صحيح.

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٢٠٥/١٣ ـ ٢٠٦) بسند ضعيف.

(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٢٠٦/١٣) بسند صحيح.

(٨) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٢٠٥/١٣) بسند حسن.

(٩) أخرجه سعيد بن منصور في «سننه» رقم (١١٢٨ ـ تفسير)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢١٥٨/٧) بسند صحيح. ولعلها من الإسرائيليات.

﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ فقال له جبريل: ولا حينَ حللتَ السراويل؟ فقال عند ذلك: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾.

وأخرج ابنُ عبد الحكم في «فتوح مصر»[(١)] مِنْ طريق الكلبي عن أبي صالح، عن ابن عباس[(١)] في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ﴾ قال: فأتاه الرسول فقال: ألقِ عنك ثياب السجن، وألبس ثياباً جُدُداً، وقم إلى الملِك، فدعا له أهل السجن ـ وهو يومئذٍ ابن ثلاثين سنة ـ فلما أتاه رأى غلاماً حَدثاً، فقال: أيعلم هذا رؤياي ولا يعلمها السحرة والكهنةُ؟ وأقعده قدّامه وقال: لا تَخفْ، وألبسه طوقاً من ذهب، وثياب حرير، وأعطاه دابة مُسروجةً مزينة كدابة الملك، وضُرب الطبل بمصر: إنّ يوسف خليفة الملك.

وأخرجَ سعيد بن منصور، وابنُ المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس[(٢)] قال: قال الملك ليوسف: إنّي أحبّ أن تخالطني في كلِّ شيء إلّا في أهلي. وأنا آنَفَ أَنْ تأكل معي، فغضب يوسف وقال: أنا أحق أَنْ آنف، أنا ابن إبراهيم خليل الله، وأنا ابن إسحاق ذبيح الله، وأنا ابن يعقوب نبيّ الله.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن شيبة[(٣)] بن نعامة الضبي في قوله: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ يقول: على جميع الطعام ﴿إِنِّي حَفِيظٌ﴾ لما استودعتني ﴿عَلِيمٌ﴾ بسني المجاعة.

وأخرج ابنُ جرير، وابن أبي حاتم عن ابن زيد[(٤)] في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ قال: ملّكناه فيها يكون فيها حيثُ يشاء مِنْ تلك الدنيا يصنع فيها ما يشاء.

وأخرج أبو الشيخ[(٥)] عن زيد بن أسلم أَنَّ يوسف تزوج امرأة العزيز فوجدها بكراً، وكان زوجها عنِّيناً.

---

(١) أخرجه ابن عبد الحكم في «فتوح مصر» (ص١٣) وسنده ضعيف جدّاً.

(٢) أخرجه سعيد بن منصور في «سننه» رقم (١١٢٩ ـ تفسير)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٢٩) بسند ضعيف.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٢١٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٦٠) بسند ضعيف.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٢٢١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٦١) بسند صحيح.

(٥) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٥٥٣).

﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَـٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَـٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَـٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَـٰذِهِۦ بِضَـٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾؛ أي: جاؤوا إلى مصر(١) مِنْ أرض كنعان ليمتاروا لما أصابهم القحط ﴿فَدَخَلُوا۟﴾ على يوسف ﴿فَعَرَفَهُمْ﴾؛ لأنَّه فارقهم رجالاً ﴿وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ لأنهم فارقوه صبيّاً يباع بالدراهم في أيدي السيارة بعد أن أخرجوه من الجُبّ، ودخلوا عليه الآن وهو رجل عليه أُبهّة المُلْك، ورونق الرئاسة، وعنده الخَدَم والحَشَمُ.

وقيل: إنِّهم أنكروه لكونه كان في تلك الحال(٢) على هيئة ملك مصر، ولبس تاجه، وتطوّق بطوقه، وقيل: كانوا بعيداً منه فلم يعرفوه، وقيل غير ذلك، ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ المراد هنا أنه أعطاهم ما طلبوه مِنْ الميرة وما يصلحون به سفرهم مِنْ العدّة التي يحتاجها المسافر.

يقال: جَهزتُ القوَم تجهيزاً إذا تكلّفتُ لهم جهازاً للسفر. قال الأزهري(٣): القرّاء كلُّهم على فتح الجيم، والكسر لغة جيدة(٤).

---

(١) «جامع البيان» (١٣/ ٢٢٢)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٣٩١).
(٢) «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٣٣٣ ـ ٣٣٤)، و«تفسير البغوي» (٢/ ٤٣٤).
(٣) في «تهذيب اللغة» (٦/ ٣٦).
(٤) بل قال: وجِهاز ـ بالكسر ـ لغة ليست جيدة.
انظر: «القراءات الشاذة» (ص٦٤)، و«البحر المحيط» (٦/ ٢٩٣)، و«روح المعاني» (١٢/ ٣٩١).

﴿قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ﴾ قيل: لا بدّ من كلام ينشأ عنه طلبه لهم بأن يأتوه بأخ لهم مِنْ أبيهم.

فروي أنّه لما رآهم وكلّموه[١] بالعبرانية قال لهم: مَنْ أنتم وما شأنكم فإنِّي أنكركم؟ فقالوا: نَحنُ قوم مِنْ أهل الشام، جئنا نمتار، ولنا أبٌ شيخ صدّيق نبيّ من الأنبياء اسمه يعقوب. قال: كم أنتم؟ قالوا: عشرة وقد كنّا اثني عشر، فذهب أخ لنا إلى البرية فهلك، وكان أحبَّنا إلى أبينا، وقد سكن بعده إلى أخ له أصغر منه هو باقٍ لديه يتسلّى به، فقال لهم حينئذٍ: ﴿ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ﴾ يعني: أخاه «بنيامين» الذي تقدّم ذكره، وهو أخو يوسف لأبيه وأمه، فوعدوه بذلك، فطلب منهم أن يتركوا أحدَهم رهينةً عنده حتى يأتوه بالأخ الذي طلبه، فاقترعوا فأصابت القرعة «شمْعون» فخلّفوه عنده، ثم قال لهم: ﴿أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ﴾؛ أي: أتممه، وجاء بصيغة الاستقبال مع كونه قال لهم هذه المقالة بعد تجهيزهم للدلالة على أنّ ذلك عادته المستمرّة، ثم أخبرهم بما يزيدهم وثوقاً به، وتصديقاً لقوله، فقال: ﴿وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ﴾؛ أي: والحال أنّي خير المنزلين لمن نزل بي كما فعلته بكم مِنْ حسن[٢] الضيافة وحسن الإنزال.

قال الزجّاج[٣]: قال يوسف: ﴿وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ﴾؛ لأنّه حين أنزلهم أحسن ضيافتهم، ثم توعدهم إذا لم يأتوه به فقال: ﴿فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي وَلَا تَقۡرَبُونِ﴾؛ أي: فلا أبيعكم شيئاً فيما بعدُ، وأما في الحال فقد أوفاهم كيلهم، ومعنى «لا تقربون»: لا تدخلون بلادي فضلاً عَنْ أن أحسن إليكم وقيل: معناه: لا أنزلكم عندي كما أنزلتكم هذه المرّة، ولم يرد أنهم لا يقربون بلاده، ﴿وَلَا تَقۡرَبُونِ﴾ مجزوم[٤] إما على أن «لا» ناهية أو على أنّها نافية، وهو معطوف على محل الجزاء داخل في حكمه كأنّه قال: فإنْ لم تأتوني تُحْرموا ولا تقربوا فلما سمعوا منه ذلك وعدوه بما طلبه منهم ف﴿قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ﴾؛ أي: سنطلبه منه، ونجتهد في ذلك بما نقدر عليه.

---

(١) «معالم التنزيل» (٢/ ٤٣٤ ـ ٤٣٥)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٣٩٢).

(٢) «جامع البيان» (١٣/ ٢٢٥)، و«النكت والعيون» (٣/ ٥٤).

(٣) في «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١١٧).

(٤) «البحر المحيط» (٦/ ٢٩٤)، و«الكشاف» (٣/ ٣٠٢)، و«الفريد» (٣/ ٧٨).

وقيل: معنى المراودة هنا: المُخادعة منهم لأبيهم، والاحتيال عليه حتى ينتزعوه منه ﴿وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ هذه المراودة غير مُقصّرين فيها. وقيل: معناه: وإنّا لقادرون على ذلك، لا نتعانى به ولا نتعاظمه.

قوله: ﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾. قرأ أهل المدينة وأبو عمرو وعاصم من رواية شعبة وابن عامر «لفتيته»[١]، واختار هذه القراءة أبو حاتم والنحاس[٢] وغيرهما.

وقرأ سائر الكوفيين «لفتيانه»[٣]، واختار هذه القراءة أبو عُبيد[٤]، وفي مصحف عبد الله بن مسعود كالقراءة الآخرة.

قال النّحاس[٥]: لفتيانه مخالف للسواد الأعظم، ولا يُترك السواد المجمع عليه لهذا الإسناد المنقطع وأيضاً: فإنّ فتية أشبه مِنْ فتيان؛ لأن فتية عند العرب لأقل العدد، وأمر القليل [٣/٨٢] بأن يجعلوا البضاعة في الرحال أشبه.

والجملة مستأنفة جواب سؤال كأنه قيل: فما قال يوسف بعد وعدهم له بذلك؟ فأجيب بأنّه قال لفتيته. قال الزجاج[٦] الفتية والفتيان في هذا الموضع المماليك.

وقال الثعلبي[٧]: هما لغتان[٨] جيدتان مثل الصِّبيان والصِّبْية. والمراد بالبضاعة هنا: هي التي وصلوا بها مِنْ بلادهم ليشتروا بها الطعام، وكانت نعالاً وأدماً، فعل يوسف عليه السلام ذلك تفضلاً عليهم؛ وقيل: فعل ذلك ليرجعوا إليه مرة أخرى لعلمه أنهم لا يقبلون الطعام إلا بثمن. قاله الفرّاء[٩].

وقيل: فعل ذلك ليستعينوا بها على الرجوع إليه لشراء الطعام؛ وقيل: إنه استقبح[١٠] أن يأخذ من أبيه وإخوته ثمن الطعام، ثم علّل يوسف عليه السلام ما أمر به من

---

(١) «التيسير» (ص١٢٩)، و«البحر المحيط» (٦/ ٢٩٤)، و«النشر» (٢/ ٢٩٥)، و«التبيان» (٢/ ٧٣٦).
(٢) في «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٣٣٤).
(٣) «النشر» (٢/ ٢٩٥)، و«الفريد» (٣/ ٧٨)، و«البحر المحيط» (٦/ ٢٩٤).
(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١/ ٣٩٤).
(٥) في «إعراب القرآن» له (٢/ ٣٣٤).
(٦) في «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١١٧).
(٧) في «الكشف والبيان» (٥/ ٢٣٥).
(٨) «اللسان» (١٥/ ١٤٤).
(٩) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٤٨).
(١٠) «المحرر الوجيز» (٩/ ٣٣١)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٤٩ ـ ٢٥٠)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٣٩٥).

جعل البضاعة في رحالهم بقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ﴾ فجعل علة جعل البضاعة في الرِّحال هي معرفتهم لها إذا انقلبوا إلى أهلهم، وذلك لأنهم لا يعلمون بردّ البضاعة إليهم إلّا عند تفريغ الأوعية التي جعلوا فيها الطعام، وهم لا يُفرِّغونها إلّا عند الوصول إلى أهلهم.

ثم علّل معرفتهم للبضاعة المردودة إليهم المجعولة في رحالهم بقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ فإنّهم إذا عرفوا ذلك وعلموا أنهم أخذوا الطعام بلا ثمن، وأن ما دفعوه عوضاً عنه قد رجع إليهم، وتفضّل به من وصلوا إليه عليهم نشطوا إلى العود إليه، ولا سيما مع ما هم فيه مِنْ الجدب الشديد والحاجة إلى الطعام وعدم وجوده لديهم، فإن ذلك من أعظم ما يدعوهم إلى الرجوع، وبهذا يظهر أن يوسف عليه السلام لم يردّ البضاعة إليهم إلّا لهذا المقصد، وهو رجوعهم إليه فلا يتمّ تعليل ردّها بغير ذلك، والرحال: جمع رَحْل.

والمراد به هنا: ما يستصحبه الرجلُ معه مِنْ الأثاث.

قال الواحدي[1]: الرَّحْل كلُّ شيء مُعدّ للرحيل مِنْ وعاء للمتاع، ومركب للبعير ومجلس ورسن. انتهى. والمراد هنا: الأوعية التي يجعلون فيها ما يمتارونه من الطعام.

قال ابنُ الأنباري[2]: يقال للوعاء: رَحْل، وللبيت: رَحْل ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾ أرادوا بهذا ما تقدّم من قول يوسف لهم: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى﴾؛ أي: منع منا الكيل في المستقبل، وفيه دلالة على أن الامتيار مرة بعد مرة معهود فيما بينهم وبينه، ولعلّهم قالوا له بهذه المقالة قبل أن يفتحوا متاعهم ويعلموا بردّ بضاعتهم كما يفيد ذلك قوله فيما بعد: ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ﴾ إلى آخره، ثم ذكروا له ما أمرهم به يوسف، فقالوا: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا﴾ يعنون: بنيامين و﴿نَكْتَلْ﴾ جواب[3] الأمر؛ أي: نكتل بسبب إرساله معنا ما نريده من الطعام.

---

(١) في «الوسيط» للواحدي (٢/ ٦٢٠).
(٢) انظر: «البحر المحيط» (٦/ ٣٠٢ ـ ٣٠٣)، و«روح المعاني» (١١/ ٣٩٤).
(٣) «روح المعاني» (١٢/ ٣٩٦)، و«الفريد» (٣/ ٧٨)، و«التبيان» (٢/ ٧٣٦).

قرأ أهلُ الحرَمينَ، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم «نَكْتل»[١] بالنون. وقرأ سائر الكوفيون بالياء[٢] التحتية.

واختار أبو عُبيد[٣] القراءة الأولى قال: ليكونوا كلهم داخلين فيمن يكتال، وزعم أَنَّه إذا كان بالياء كان للأخ وحده؛ أي: يكتال أخونا بنيامين، واعترضه النحاس مما حاصله: أن إسناد الكيل إلى الأخ لا ينافي كونه للجميع، والمعنى: يكتال بنيامين لنا جميعاً.

قال الزّجاج[٤]: أي: إنْ أرسلته اكتلنا وإلّا مُنعنا الكيل ﴿وَإِنَّا لَهُۥ﴾؛ أي: لأخيهم بنيامين ﴿لَحَٰفِظُونَ﴾ مِنْ أن يصيبه سوء أو مكروه، وجملة ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ مستأنفة[٥] جواب سؤال مقدّر كما تقدّم في نظائر ذلك في مواضع كثيرة.

والمعنى: أنّه لا يأمنهم على بنيامين إلّا كما أمنهم على أَخيه يوسف وقد قالوا له في يوسف: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ كما قالوا هنا: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ ثم خانوه في يوسف فهو إنْ أمنهم في بنيامين خاف أن يخونوه فيه كما خانوه في يوسف ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ لعل هنا إضماراً والتقديرُ فتوكل يعقوب على الله ودفعه إليهم وقال: فالله خيرٌ حفظاً.

قرأ أهلُ المدينة «حِفْظاً» وهو منتصب[٦] على التمييز، وهي قراءة أبي عمرو، وعاصم، وابن عامر. وقرأ سائر الكوفيين «حافظاً»، منتصب[٧] على الحال.

وقال الزجّاج[٨]: على البيان يعني: التمييز؛ ومعنى الآية: أن حفظ الله إياه

---

(١) «التيسير» (ص١٢٩)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ١٢)، و«النشر» (٢/ ٢٩٥)، و«التبيان» (٢/ ٧٣٦)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٣٩٦).

(٢) انظر: المصادر المتقدمة.

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١/ ٣٩٦)، والنحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ٣٣٤ ـ ٣٣٥).

(٤) في «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١١٧).

(٥) «الفريد» (٣/ ٧٩)، و«البحر المحيط» (٦/ ٢٩٤ ـ ٢٩٥)، و«روح المعاني» (١٢/ ٣٩٧).

(٦) «جامع البيان» (١٣/ ٨)، و«النشر» (٢/ ٢٩٦)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ١٣).

(٧) انظر: المصادر المتقدمة. قراءة أهل الكوفة عدا أبي بكر عن عاصم (حافظاً) وقرأ الباقون (حِفْظاً) بكسر الحاء وسكون الفاء وحذف الألف.

(٨) في «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٣/ ١١٨).

خيرٌ مِنْ حفظهم له، لمّا وكل يعقوب حفظه إلى الله سبحانه حفظه وأرجعه إليه، ولما قال في يوسف: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ [يوسف: ١٣] وقع له من الامتحان ما وقع. ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ﴾؛ أي: أوعية الطعام أو ما هو أعمّ من ذلك مما يطلق عليه لفظ المتاع سواء كان الذي فيه طعاماً أو غير طعام ﴿وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾؛ أي: البضاعة التي حملوها إلى مصر ليمتاروا بها، وقد تقدّم بيانها.

وجملة ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا﴾ مستأنفة[١] كما تقدّم ﴿مَا نَبْغِى﴾ «ما» استفهامية والمعنى: أيُّ شيء نطلب مِنْ هذا الملك بعد أن صنع معنا ما صنع من الإحسان بردّ البضاعة والإكرام عند القدوم إليه، وتوفير ما أردناه من الميرة؟ ويكون الاستفهام[٢] للإنكار، وجملة ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ مقرّرة لما دلّ عليه الاستفهام[٣] مِنْ الإنكار لطلب شيء مع كونها قد رُدّت إليهم.

وقيل: إن (ما) في ﴿مَا نَبْغِى﴾ نافية[٣]؛ أي: ما نبغي في القول وما نتزيد فيما وصفنا لك مِنْ إحسان الملِك إلينا وإكرامه لنا، ثم برهنوا على ما لقوه من التزيد في وصف الملك بقولهم: ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ فإن مَنْ تفضّل عليهم بردّ ذلك حقيق بالثناء عليه منهم، مستحق لما وصفوه به، ومعنى ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾: نجلب إليهم المِيرةَ وهي الطعام، والمائر الذي يأتي بالطعام.

وقرأ السلمي بضم[٤] النون، وهو معطوف[٥] على مقدر يدلّ عليه السياق. والتقدير: هذه بضاعتنا ردّت إلينا فنحنُ نستعين بها على الرجوع ونمير أهلنا ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ بنيامين مما تخافه عليه ﴿وَنَزْدَادُ﴾ بسبب إرساله معنا ﴿كَيْلَ بَعِيرٍ﴾؛ أي: حِمْل بعير زائد على ما جئنا به هذه المرّة؛ لأنه كان يكال لكل رجل وِقْر بعير.

---

(١) «تفسير أبي السعود» (٤/ ١٥٧)، و«روح المعاني» (١٢/ ٣٩٩).

(٢) «الكشاف» (٣/ ٣٠٤)، و«البحر المحيط» (٦/ ٢٩٦)، و«روح المعاني» (١٢/ ٣٩٩)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ١٥٧).

(٣) «مشكل إعراب القرآن» (١/ ٤٣٣)، و«التبيان» (٢/ ٧٣٧)، و«روح المعاني» (١٢/ ٤٠١).

(٤) انظر: المصادر المتقدمة.

(٥) «روح المعاني» (٢/ ٤٠١)، و«المحرر الوجيز» (٩/ ٣٣٤)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٣٩٧)، و«البحر المحيط» (٦/ ٢٩٦).

ومعنى ﴿ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ﴾ أنّ زيادة كيل بعير لأخينا يسهل على الملك، ولا يمتنع علينا مِنْ زيادته له لكونه يسيراً لا يتعاظمه ولا يضايقنا فيه، وقيل: إن المعنى: ذلك المكيل لأجلنا قليل نريد أن ينضاف إليه حِمْل بعير لأخينا. واختار الزجّاج(١) الأوّل.

وقيل: إنّ هذا مِنْ كلام يعقوب جواباً على ما قاله أولاده، ﴿وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ﴾ يعني: إن حِمْل بعير شيء يسير لا يخاطر لأجله بالولد وهو ضعيف؛ لأن جواب يعقوب هو ﴿قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: حتّى تعطوني ما أثق به وأركن إليه مِنْ جهة الله سبحانه، وهو الحَلْف به، واللّام في ﴿لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ﴾ جواب(٢) القسم؛ لأن معنى ﴿حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ﴾: حتى تحلفوا بالله لتأتني به؛ أي: لتردنّ بنيامين إليّ، والاستثناء(٣) بقوله: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ﴾ هو من أعمّ العام؛ لأن ﴿لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ﴾ وإن كان كلاماً مثبتاً فهو في معنى النفي، فكأنه قال: لا تمنعون من إتياني به في حال من الأحوال لعلّةٍ من العلل إلّا لعلة الإحاطة بكم، والإحاطة مأخوذة مِنْ إحاطة العدو، ومَنْ أحاط به العدوّ فقد غُلِب أو هَلَك، فأخذ يعقوب عليهم العهد بأن يأتوه ببنيامين إلّا أن تغلبوا عليه أو تهلكوا دونه، فيكون ذلك عذراً لكم عندي.

﴿فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ﴾؛ أي: أعطوه ما طلبه منهم من اليمين ﴿قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ﴾؛ أي: قال يعقوب: الله على ما قلناه مِنْ طلبي الموثق منكم، وإعطائكم لي ما طلبته منكم، مطلع رقيب لا يخفى عليه منه خافية، فهو المعاقِب لمن خاس في عهده، وفجَر في الحلف به، أو موكول إليه القيام بما شهد عليه منا.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس(٤) قال: إن إخوة يوسف لما دخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون، جاء بصواع الملك الذي كان يشرب فيه، فوضعه على يده [٣/٨٣] فجعل ينقُره ويَطِنّ، وينقره ويِطنّ، فقال:

---

(١) في «معاني القرآن» (٣/١١٨).

(٢) «التبيان» (٢/٧٣٧)، و«البحر المحيط» (٦/٢٩٧)، و«روح المعاني» (١٢/٤٠٣).

(٣) «الفريد» (٣/٨١)، و«التبيان» (٢/٧٣٧)، و«البحر المحيط» (٦/٢٩٧).

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/٣٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/٢١٦٢) من طريق صدقة بن عُبادة الأسدي، عن أبيه، عن ابن عباس.

إن هذا الجام ليخبرُني عنكم خبراً. هَلْ كان لكم أخ من أبيكم يقال له: يوسف وكان أبوه يحبُّه دونكم، وإنكم انطلقتم به فألقيتموه في الجُبّ وأخبرتم أباكم أن الذئب أكله، وجئتم على قميصه بدم كذب؟ قال: فجعل بعضُهم ينظر إلى بعض ويعجبون.

وأخرج أبو الشيخ[١] عَنْ وهيب قال: لما جعل يوسف ينقُر الصُّواع ويخبرهم قام إليه بعض إخوته فقال: أنشُدك بالله أَنْ لا تكشف لنا عورةً.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة[٢] في قوله: ﴿ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ قال: يعني: بنيامين، وهو أخو يوسف لأبيه وأمِّه.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس[٣] في قوله: ﴿وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ قال: خير مَنْ يضيف بمصر.

وأخرج ابن جرير عن قتادة[٤] في قوله: ﴿لِفِتْيَـٰنِهِ﴾؛ أي: لغلمانه ﴿ٱجْعَلُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ﴾؛ أي: أوراقهم.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة[٥] في قوله: ﴿مَا نَبْغِى ۖ هَـٰذِهِۦ بِضَـٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ﴾ يقولون: ما نبغي وراء هذا ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ﴾؛ أي: حِمْل بعير.

وأخرج أبو عبيد، وابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد[٦] ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ﴾ قال: حِمْل حمار، قال: وهي لغة، قال أبو عُبيد: يعني مجاهداً: أن الحمار يقال له: في بعض اللّغات بعير.

---

(١) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٥٥٥).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٢٢٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٦٣) بسند صحيح.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «جامع البيان» (٧/ ٢١٦٤) بسند ضعيف.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٢٢٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٦٥) بسند صحيح.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٢٣٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٦٦) بسند صحيح.

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٢٣٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٧٤) من طريق ابن جريج، به.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد[١] في قوله: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ﴾ قال: تَهلكوا جميعاً. وفي قوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ﴾ قال: عهدَهم.

وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة[٢] في قوله: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ﴾ قال: إلّا أنْ تُغلبوا حتى لا تطيقوا ذلك.

[يعقوب يوصي أبناءه الذاهبين إلى مصر]:

﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

[حكم السارق في دين يعقوب]:

﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ وَأَقۡبَلُواْ عَلَيۡهِم مَّاذَا تَفۡقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ ﴿٧٢﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ﴿٧٦﴾﴾.

لما تجهّز أولاد يعقوب للمسير إلى مصر خاف عليهم أبوهم أنْ تصيبهم العينُ

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٢٣٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٦٧) بسند صحيح.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٢٥)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٢٣٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٦٨) بسند صحيح.

لكونهم كانوا ذوي جَمال ظاهرٍ، وثياب حسنة مع كونهم أولاد رجل واحد، فنهاهم أَنْ يدخلوا مجتمعين من باب واحد؛ لأنَّ في ذلك مظنة لإصابة الأعين لهم، وأمرهم أَنْ يدخلوا مِنْ أبواب متفرقة، ولم يكتف بقوله: ﴿لَا تَدْخُلُواْ مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ﴾ عن قوله: ﴿وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ لأنّهم لو دخلوا مِنْ بابين مثلاً كانوا قد امتثلوا النهي عن الدخول مِنْ باب واحد، ولكنه لما كان في الدخول من بابين مثلاً نوع اجتماع يخشى معه أن تصيبهم العين أمرهم أن يدخلوا من أبواب متفرّقة، قيل: وكانت أبواب مصر أربعة.

وقد أنكر بعضُ المعتزلة كأبي هاشم والبلْخي أنّ للعين تأثيراً، وقالا: لا يمتنع أَنَّ صاحب العين إذا شاهد الشيءَ وأُعجب به كانت المصلحة له في تكليفه أن يغير الله ذلك الشيء حتى لا يبقى قلب ذلك المكلف مُعلّقاً به. وليس هذا بمستنكر مِنْ هذين وأتباعهما، فقد صار دفع أدلة الكتاب والسُّنَّة بمجرد الاستبعادات العقلية دأبهم وديدنهم، وأيّ مانع مِنْ إصابة العين بتقدير الله سبحانه لذلك؟ وقد وردت الأحاديث الصحيحة بأن العين[(١)] حقّ، وأصيب بها جماعة في عصر النبوّة، ومنهم رسول الله ﷺ.

وأعجب مِنْ إنكار هؤلاء لما وردت به نصوص هذه الشريعة ما يقع من بعضهم مِنْ الإزراء على مَنْ يعمل بالدليل المخالف لمجرد الاستبعاد العقلي والتنطع في العبارات كالزمخشري في تفسيره، فإنّه في كثير من المواطن لا يقف على دفع دليل الشرع بالاستبعاد الذي يدّعيه على العقل حتى يضمّ إلى ذلك الوقاحة في العبارة على وجه يوقع المقصرين في الأقوال الباطلة والمذاهب الزائفة.

وبالجملة[(٢)] فقول هؤلاء مدفوع بالأدلة المتكاثرة وإجماع مَنْ يعتدّ به من هذه

---

(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النَّبيِّ ﷺ قال: «العين حقٌّ، ولو كان شيءٌ سابقٌ القدر لسبقته العين، وإذا استغسلتم فاغسلوا».
[أخرجه أحمد (١/ ٢٧٤)، ومسلم رقم (٤٢/ ٢١٨٨)، والترمذي رقم (٢٠٦٢) وقال: «هذا حديث صحيح»]. وهو حديث صحيح.
• وعن أسماء بنت عُميس أنَّها قالت: يا رسول الله إنَّ بني جعفرٍ تُصيبهم العين أفنسترقي لهم؟ قال: «نعم، فلو كان شيءٌ سبق القدر لسبقته العين».
[أخرجه أحمد (٦/ ٤٣٨)، والترمذي رقم (٢٠٥٩) وقال: «هذا حديث حسن صحيح». وابن ماجه رقم (٣٥١٠). وهو حديث صحيح].
(٢) «المعلم بفوائد مسلم» (٣/ ٩٢)، و«زاد المعاد» (٤/ ١٥٤).

الأمة سلفاً وخلفاً، وبما هو مشاهد في الوجود، فكم مِنْ شخصٍ من هذا النوع الإنساني وغيره من أنواع الحيوان هلك بهذا السبب.

وقد اختلف(١) العلماء فيمن عُرف بالإصابة بالعين، فقال قوم: يمنع من الاتصال بالناس دفعاً لضرره بحبس أو غيره مِنْ لزوم بيته.

وقيل: ينفى؛ وأبعد مَنْ قال: إنه يقتل. إلّا إذا كان يتعمّد ذلك وتتوقف إصابته على اختياره وقصده ولم ينزجر عن ذلك، فإنَّه إذا قتل كان له حكم القاتل.

ثم قال يعقوب لأولاده: ﴿وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾؛ أي: لا أدفع عنكم ضرراً، ولا أجلب إليكم نفعاً بتدبيري هذا؛ بل ما قضاه الله عليكم فهو واقع لا محالة.

قال الزجّاج(٢) وابنُ الأنباري(٣): لو سبق في علم الله أنّ العين تهلكهم مع الاجتماع لكان تفرّقهم كاجتماعهم.

وقال آخرون: ما كان يغني عنهم يعقوب شيئاً قط حيثُ أصابهم ما أصابهم مع تفرقهم من إضافة السرقة إليهم. ثُمَّ صرّح يعقوب بأنه لا حكم إلا لله سبحانه فقال: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ لا لغيره ولا يشاركه فيه مشارك في ذلك ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في كل إيراد وإصدار لا على غيره؛ أي: اعتمدتُ ووثقت.

﴿وَعَلَيْهِ﴾ لا على غيره ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ على العموم، ويدخل فيه أولاده دخولاً أوّلياً. ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾؛ أي: من الأبواب المتفرقة ولم يجتمعوا داخلين مِنْ باب واحد.

وجواب(٤) لما ﴿مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم﴾ ذلك الدخول ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: من جهته ﴿مِن شَىْءٍ﴾ مِنْ الأشياء مما قدّره الله عليهم لأن الحذر لا يدفع القدرَ.

والاستثناء(٥) بقوله: ﴿إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾ منقطع؛ والمعنى:

---

(١) «المفهم» للقرطبي (٥/ ٥٦٨)، و«روضة الطالبين» (٩/ ٤٣٨)، و«فتح الباري» (١٠/ ٢٠٥)، و«التمهيد» (١٣/ ٦٩).

(٢) في «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٣/ ١١٩).

(٣) «جامع البيان» (١٣/ ٢٤٠ ـ ٢٤١)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٣٣٦).

(٤) «البحر المحيط» (٦/ ٢٩٨)، و«روح المعاني» (١٢/ ٤١٥).

(٥) «الفريد» (٣/ ٨٢)، و«الكشاف» (٣/ ٣٠٧)، و«روح المعاني» (١٢/ ٤١٧).

ولكن حاجة كانت في نفس يعقوب، وهي[١] شفقتُه عليهم، ومحبتُه لسلامتهم قضاها يعقوب؛ أي: أظهرها لهم ووصّاهم بها غير معتقد أنّ للتدبير الذي دبره لهم تأثيراً في دفع ما قضاه الله عليهم.

وقيل[٢]: إنَّه خطر ببال يعقوب أنَّ الملِكَ إذا رآهم مجتمعين مع ما يظهر فيهم مِنْ كمال الخلقة. وسيما الشجاعة أوقع بهم حسداً وحقداً أو خوفاً منهم، فأمرهم بالتفرّق لهذه العلة.

وقد اختار هذا النّحاس[٣] وقال: لا معنى للعين ها هنا، وفيه أنَّ هذا لو كان هو السبب لأمرهم بالتفرّق ولم يخصّ النهي عن ذلك بالاجتماع عند الدخول من باب واحد؛ لأنّ هذا الحسد أو الخوف يحصل باجتماعهم داخل المدينة كما يحصل باجتماعهم عند الدخول من باب واحد.

وقيل: إنّ الفاعل في ﴿قَضَىٰهَاۚ﴾ ضمير يعود إلى الدخول لا إلى يعقوب.

والمعنى: ما كان الدخول[٤] يُغني عنهم مِنْ جهة الله شيئاً، ولكنه قضى ذلك الدخول حاجة في نفس يعقوب لوقوعه حسب إرادته ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ﴾؛ أي: وإنّ يعقوبَ لصاحب علم لأجل تعليم الله إياه بما أوحاه الله من أن الحذر لا يدفع القدر، وأن ما قضاه الله سبحانه فهو كائن لا محالة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ بذلك كما ينبغي.

وقيل: لا يعلمون أَنَّ الحذر مندوب إليه وإن كانَ لا يغني من القدر شيئاً، والسياق يدفعه؛ وقيل: المراد بأكثر الناس: المشركون ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ﴾؛ أي: ضمّ إليه أخاه بنيامين، قيل: إنه أمر بإنزال كل اثنين في منزل فبقي أخوه منفرداً فضمّه إليه و﴿قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾ يوسف، قال له ذلك سرّاً، مِنْ دون أن يطلع عليه إخوته ﴿فَلَا تَبۡتَئِسۡ﴾؛ أي: فلا تحزن[٥] ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾؛ أي: إخوتك مِنْ الأعمال الماضية التي عملوها.

---

(١) «روح المعاني» (١٢/ ٤١٧ ـ ٤١٨)، و«جامع البيان» (١٣/ ٢٣٩).
(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٤٠٢)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٣٣٦).
(٣) في «إعراب القرآن» له (٢/ ٣٣٦).
(٤) «روح المعاني» (١٢/ ٤٢٢)، و«الكشاف» (٣/ ٣٠٧).
(٥) «المحرر الوجيز» (٩/ ٣٤١)، و«البحر المحيط» (٦/ ٣٠٢ ـ ٣٠٣).

وقيل: إنّه لم يخبره بأنّه يوسف؛ بل قال له: إنِّي أخوك مكان[١] أخيك يوسف فلا تَحْزن بما كنت تلقاه مِنْهم مِنْ الجفاء حسداً وبغياً؛ وقيل: إنه أخبره بما سيدبره معهم مِنْ جعل السقاية في رحله، فقال: لا أبالي، وقيل: إنه لما أخبر يوسف أخاه بنيامين [٣/٨٤] بأنّه أخوه قال: لا تردّني إليهم، فقال: قد علمتُ اغتمام أبينا يعقوب فإذا حبستك عندي ازداد غمّه، فأتى بنيامين فقال له يوسف: لا يمكن حبسك عندي إلّا بأن أنسبك إلى ما لا يجمل بك، فقال: لا أُبالي، فدس الصاعَ في رحله، وهو المراد بالسقاية، وأصلها المشربة التي يُشْرب بها جُعلت صاعاً يكال به.

وقيل: كان تسقى بها الدوابّ[٢]، ويكال بها الحبّ، وقيل: كانت من فضة وقيل: كانت مِنْ ذهب، وقيل غير ذلك. وقد تقدم تفسير الجهاز والرحل. والمعنى: أنّه جعل السقاية التي هي الصواع في رَحْل أخيه الذي هو الوعاء الذي يجعل فيه ما يشتريه مِنْ الطعام من مصر ﴿ثُمَّ﴾ بعد ذلك ﴿أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾؛ أي: نادى منادٍ قائلاً: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ﴾ قال الزجاج[٣]: معناه: يا أَصحاب العير. وكل ما امتير عليه من الإبل والحمير والبغال فهو عِير.

وقيل: هي قافلةُ الحمير. وقال أبو عبيدة[٤]: العِير: الإبل المرحولة المركوبة.

﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ نسبة السرق إليهم على حقيقتها؛ لأن المنادي غير عالم بما دبّره يوسف؛ وقيل: إنّ المعنى: إنّ حالكم حال السارقين كون الصُّواع صار لديكم مِن غير رضاً مِنْ الملك.

﴿قَالُوا۟﴾؛ أي: إخوة يوسف ﴿وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم﴾؛ أي: حال كونهم مقبلين على من نادى منهم المنادي مِنْ أصحاب الملك: ﴿مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾؛ أي: ما الذي فقدتموه؟ يقال: فقدت[٥] الشيء إذا عدمته بضياع أو نحوه، فكأنّهم قالوا ماذا ضاع عليكم؟ وصيغة المستقبل لاستحضار الصورة ﴿قَالُوا۟﴾ في جوابهم: ﴿نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾.

قرأ يحيى بن يَعْمَر (صُوْغ) بالغين[٦] المعجمة.

---

(١) «روح المعاني» (١٢/ ٤٢٢)، و«البحر المحيط» (٦/ ٣٠٣).
(٢) «تهذيب اللغة» (٣/ ٨٢). (٣) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ١٢٠).
(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١/ ٤٠٦). (٥) «تهذيب اللغة» (٩/ ٤١).
(٦) «القراءات الشاذة» (ص٦٤)، و«حاشية الشهاب» (٥/ ١٩٤)، و«جامع البيان» (١٣/ ٢٤٩)، و«المحتسب» (١/ ٣٤٦).

وقرأ أبو رجاء (صُوْع) بضم الصاد[1] المهملة وسكون الواو بعدها عين مهملة.

وقرأ أبيّ (صياع)[2].

وقرأ أبو جعفر[3] (صَاع)، وبها قرأ أبو هريرة.

وقرأ الجمهور (صُوَاع) بالصاد[4] والعين المهملتين.

قال الزجّاج[5]: الصواع هو الصَّاع بعينه، وهو يُذكّر ويؤنّث، وهو السقاية، ومِنْه قول الشاعر:

نشربُ الخمرَ بالصُّواع جِهارا[6]

﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ﴾؛ أي: قالوا: ولمن جاء بالصُّواع من جهة نفسه حِمْل بعير. والبعير الجَمَلُ، وفي لغة بعض العرب أنّه الحمار[7]، والمراد بالحِمْل ها هنا ما يحمله البعير مِنْ الطعام، ثم قال المنادي: ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ﴾؛ أي: بحمل البعير الذي جُعل لمن جاء بالصواع قبل التفتيش للأوعية، والزعيم هو الكفيل، ولعلّ القائل نفقد صواع الملك هو المنادي، وإنما نسب القول إلى الجماعة[8] لكونه واحداً منهم، ثم رجع الكلام إلى نسبة القول إلى المنادي وحده؛ لأنه القائل بالحقيقة ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ التاء بدل مِنْ واو القسم[9] عند الجمهور.

وقيل: مِنْ الباء، وقيل: أصل بنفسها، ولا تدخل إلّا على[10] هذا الاسم الشريف دون سائر أسمائه سبحانه، وقد دخلت نادراً على الربِّ، وعلى الرحمٰن، والكلام على هذا مستوفى في علم الإعراب.

---

(١) «القراءات الشاذة» (ص٦٤)، و«المحتسب» (١/ ٣٤٦)، و«حاشية الشهاب» (٥/ ١٩٤).

(٢) انظر: المصادر المتقدمة. قراءة الجمهور (صُوَاع) بضم الصاد وفتح الواو فألف ثم عين مهملة، هي القراءة المتواترة، وما عزاه لأبي جعفر فراوية شاذة عنه، والقراءة الأخرى التي ذكرها المؤلف شاذة.

(٣) «القراءات الشاذة» (ص٦٤)، و«المحتسب» (١/ ٣٤٦).

(٤) «جامع البيان» (١٣/ ٢٤٩)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٤٠٤)، و«فتح الباري» (٨/ ٢٧١)، و«البحر المحيط» (٦/ ٣٠٣ ـ ٣٠٤).

(٥) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ١٢٠).

(٦) انظر: «تهذيب اللغة» (١٥/ ١٦١)، و«زاد المسير» (٣/ ١٩١).

(٧) انظر: «تهذيب اللغة» (٣/ ١٦٧).

(٨) «روح المعاني» (١٢/ ٤٢٥ ـ ٤٢٦).

(٩) «روح المعاني» (١٢/ ٤٢٩)، و«جامع البيان» (١٣/ ٢٥٥)، و«الفريد» (٣/ ٨٥).

(١٠) قاله الزجاج في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ١٢٠).

وجعلوا المقسم عليه هو علم يوسف وأصحابه بنزاهة جانبهم وطهارة ذيلهم عن التلوّث بقذَر الفساد في الأرض، الذي مِنْ أعظم أنواعه السرقة؛ لأنهم قد شاهدوا منهم في قدومهم عليه المرّة الأولى، وهذه المرّة من التعفّف والزهد عما هو دون السرقة بمراحل ما يستفاد منه العلم الجازم بأنّهم ليسوا بمن يتجارأ على هذا النوع العظيم من أنواع الفساد، ولو لم يكن مِنْ ذلك إلّا ردّهم لبضاعتهم التي وجدوها في رحالهم.

والمراد بالأرض هنا: أرض مصر، ثم أكّدوا[1] هذه الجملة التي أقسموا بالله عليها بقولهم: ﴿وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ لزيادة التبرّي مما قرفوهم به، والتنزه عن هذه النقيصة الخسيسة، والرذيلة الشنعاء.

﴿قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ﴾ هذه الجملة مستأنفة كما تقدّم غير مرّة في نظائرها، والقائلون: هم أصحاب يوسف، أو المنادي منهم وحده كما مرّ.

والضمير[2] في ﴿جَزَٰٓؤُهُۥٓ﴾ للصُّواع على حذف مضاف؛ أي: فما جزاء سرقة الصواع عندكم، أو الضمير للسارق؛ أي: فما جزاء سارق الصواع عندكم ﴿إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ﴾ فيما تدّعونه لأنفسكم مِنْ البراءة عن السرقة، وذلك بأن يوجد الصواع معكم، فأجاب أخوة يوسف و﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ﴾؛ أي: جزاء سرقة الصواع أو جزاء سارق الصواع.

وجزاؤه[3] مبتدأ، والجملة الشرطية: وهي مِنْ وجد في رحله فهو جزاؤه خبر المبتدأ على إقامة الظاهر مقام المضمر فيها، والأصل جزاؤه مِنْ وجد في رحله فهو، فيكون الضمير الثاني عائد إلى المبتدأ، والأوّل إلى «من»، ويجوز أن يكون خبر المبتدأ ومَنْ وجد في رحله.

والتقدير: جزاء السرقة للصواع أخذ مَنْ وجد في رحله، وتكون جملة فهو[4] جزاؤه لتأكيد الجملة الأولى وتقريرها.

قال الزجّاج[5]: وقوله: ﴿فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ﴾ زيادة في البيان؛ أي: جزاؤه أخذ السارق فهو جزاؤه لا غير.

---

(١) «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٣٣٨).
(٢) «التبيان» (٢/ ٧٣٩)، و«الفريد» (٣/ ٨٥)، و«البحر المحيط» (٦/ ٣٠٦).
(٣) «البحر المحيط» (٦/ ٣٠٥)، و«التبيان» (٢/ ٧٣٩)، و«الفريد» (٣/ ٨٥ ـ ٨٦)، و«مشكل إعراب القرآن» (١/ ٤٣٣).
(٤) انظر: المصادر المتقدمة.
(٥) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ١٢١).

قال المفسِّرون[١]: وكان حكم السارق في آل يعقوب أن يُسترقّ سنة فلذلك استفتوهم في جزائه ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: مثل ذلك الجزاء الكامل نجزي الظالمين لغيرهم من الناس بسرقة أمتعتهم، وهذه الجملة[٢] مؤكدة لما قبلها إذا كانت من كلام إخوة يوسف، ويجوز أَنْ تكون من كلام أصحاب يوسف؛ أي: كذلك نحن نجزي الظالمين بالرقّ.

ثم لما ذكروا جزاء السارق أرادوا أَنْ يفتشوا أمتعتهم حتى يتبين الأمر، فأقبل يوسفُ على ذلك ﴿فَبَدَأَ﴾ بتفتيش ﴿أَوْعِيَتِهِمْ﴾؛ أي: أَوعية الإخوة العشرة ﴿قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ أي: قَبل تفتيشه لوعاء أخيه بنيامين دفعاً للتُّهمة، ورفعاً لما دبّره مِنْ الحيلة ﴿ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا﴾ أي: السقاية أو الصُّواع؛ لأَنّه يُذكّر[٣] ويؤنّث ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ أي: مِثْل ذلك الكيد العجيب كدنا ليوسف يعني: علّمناه إيّاه وأوحيناه إليه، والكيد مبدؤه السعي في الحيلة والخديعة، ونهايته إِلقاء المخدوع مِن حيث لا يشعر في أمر مكروه لا سبيل إلى دفعه، وهو محمول في حق[٤] الله سبحانه على النهاية لا على البداية. قال القتيبي[٥]: معنى ﴿كِدْنَا﴾: دبّرنا.

وقال ابن الأنباري[٦]: أردنا.

[جواز التوصل إلى الأغراض الصحيحة بالحيلة ما لم يخالف ذلك شرعاً ثابتاً]:

وفي الآية دليل على جواز التوصل[٧] إلى الأغراض الصحيحة بما صورته صورة الحيلة والمكيدة إذا لم يخالف ذلك شرعاً ثابتاً.

---

(١) «معالم التنزيل» (٢/ ٤٣٩)، و«المحرر الوجيز» (٩/ ٣٤٤)، و«جامع البيان» (١٣/ ٢٦٢).
(٢) «روح المعاني» (١٢/ ٤٣٣)، و«الفريد» (٣/ ٨٦).
(٣) «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٣٣٩)، و«معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١٢٢).
(٤) الكيد: صفة فعلية ثابتة لله ﷻ بالكتاب، ولا يوصف به إلا مقيداً في مقابلة كيد المخلوق. ولا ينبغي أن يشتق له من هذه الصفة اسماً، فيقال: كائد؛ بل يوقف عندما ورد به النص من أنّه يكيد لأعدائه.
«مدارج السالكين» (٣/ ٤١٥)، و«التدمرية» (ص٢٦)، و«مجموع فتاوى» (٧/ ١١١).
(٥) انظر: «تفسر الغريب» له (ص٢٢٠). (٦) في «الأضداد» (ص٩٧).
(٧) «أحكام القرآن» لابن العربي (٣/ ١٠٨٨)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٤١٤)، و«جامع البيان» (١٣/ ٢٦٠).

﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ أي: ما كانَ يوسف ليأخذ أخاه بنيامين في دِين الملك؛ أي: مَلِك مصر، وفي شريعته التي كان عليها؛ بل كان دينه وقضاؤه أن يضُرب السارق، ويغرم ضعف ما سرقه دون الاستعباد سنة كما هو دين يعقوب وشريعته.

وحاصله: أنّ يوسف ما كان يتمكن مِنْ إجراء حكم يعقوب على أخيه مع كونه مخالفاً لدين الملك وشريعته لولا ما كاد الله له ودبّره، وأراده حتى وجد السبيل إليه، وهو ما أجراه على ألسن إخوته مِنْ قولهم: إن جزاء السارق الاسترقاق، فكان قولهم هذا هو بمشيئة الله وتدبيره، وهو معنى قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ أي: إلا حال مشيئته وإذنه بذلك وإرادته له.

وهذه الجملة: أعني: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ﴾ إلخ تعليل[١] لما صنعه الله من الكيد ليوسف أو تفسير له ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ﴾ بضروب العلوم والمعارف والعطايا والكرامات كما رفعنا درجة يوسف بذلك ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ﴾ ممن رفعه[٢] الله بالعلم ﴿عَلِيمٌ﴾ أرفعُ رتبة مِنْهم، وأعلى درجةً لا يبلغون مداه ولا يرتقون شأوه.

وقيل: معنى ذلك: أنَّ فوق كل أهل العلم[٣] عليم وهو اللهُ سبحانه.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[٤] في قوله: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ﴾ قال: رهب يعقوبُ عليهم العين.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر عن محمد بن كعب[٥] قال: خَشِي عليهم العين.

وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، وأبو الشيخ عن النخعي[٦] في قوله:

---

(١) «أحكام القرآن» لابن العربي (٣/ ١٠٨٨)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٤١٤)، و«جامع البيان» (١٣/ ٢٦٠).
(٢) انظر: المصادر المتقدمة. (٣) «جامع البيان» (١٣/ ٢٦٨).
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٢٣٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٦٨) بسند ضعيف.
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٢٣٨) من طريق أبي معشر، به. بسند ضعيف.
(٦) أخرجه سعيد بن منصور في «سننه» رقم (١١٣٣ ـ تفسير) بسند ضعيف.

﴿وَٱدۡخُلُواْ [٣/٨٥] مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ﴾ قال: أحبَّ يعقوب أَنْ يلقى يوسف أخاه في خلوة.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد[١] في قوله: ﴿إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ﴾ قال: خيفة العين على بنيه.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة[٢] في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ﴾ قال: إنّه لعامل بما علم، ومَنْ لا يعمل لا يكون عالماً.

وأخرج هؤلاء[٣] عنه في قوله: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ﴾ قال: ضمّه إليه، وفي قوله: ﴿فَلَا تَبۡتَئِسۡ﴾ قال: لا تَحزنْ ولا تيأس، وفي قوله: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ﴾ قال: قضى حاجتهم وكالَ لهم طعامَهم، وفي قوله: ﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ﴾ قال: هو إناء الملك الذي يشرب منه ﴿فِي رَحۡلِ أَخِيهِ﴾ قال: في متاع أخيه.

وأخرج ابن أبي حاتم، وابن الأنباري في «المصاحف» عن ابن عباس[٤] في قوله: ﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ﴾ قال: هو الصُّواع، وكلُّ شيء يُشرب منه فهو صواع.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد[٥] نحوه.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن زيد[٦] نحوه أيضاً.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد[٧] في قوله: ﴿أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ﴾ قال: كانت العير حميراً.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٢٣٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٦٩) بسند صحيح.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٢٤٠، ٢٤١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٧٠) بسند صحيح.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٧٠، ٢١٧١، ٢١٧٢) بسند صحيح.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٢٤٥ ـ ٢٤٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٧١، ٢١٧٣) بسند ضعيف.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٢٤٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٧١) بسند صحيح.

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٢٤٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٧١) بسند صحيح.

(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٢٤٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٧٢) بسند ضعيف.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه[١] في قوله: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ قال: حِمْل حمار طعام، وهي لغة.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس[٢] في قوله: ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ يقول: كفيل.

وأخرج ابنُ جرير عن سعيد بن جبير[٣]، ومجاهد[٤]، وقتادة[٥]، والضحاك[٦] مثله.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن الربيع بن أنس في قوله: ﴿مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يقول: ما جئنا لنعصيَ في الأرض.

وأخرج ابنُ جرير، وابن أبي حاتم عن ابن زيد[٧] في قوله: ﴿فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ﴾ قال: عرفوا الحكم في حكمهم فقالوا: مَنْ وجد في رحله فهو جزاؤه. وكان الحكم عند الأنبياء يعقوب وبنيه أَنْ يؤخذ السارق بسرقته عبداً يُسترقّ.

وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة[٨] في قوله: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ﴾ قال: ذكر لنا أنه كان كلما فتح متاع رجل استغفر تأثماً مما صنع حتى بقي متاع الغلام قال: ما أظنُّ أن هذا أخذ شيئاً. قالوا: بلى فاستبْرِه.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الضحاك[٩] في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ قال: كذلك صنعنا ليوسف ﴿مَا كَانَ

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٢٥٢) بسند صحيح.
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٢٥٣) بسند صحيح.
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٢٥٤) بسند ضعيف.
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٢٥٣) بسند صحيح.
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٢٥٤) بسند صحيح.
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٢٥٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٧٤) بسند ضعيف.
(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٢٦٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٧٤) بسند صحيح.
(٨) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٢٦٠)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٢٥، ٣٢٦) بسند صحيح.
(٩) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٢٦٣ ـ ٢٦٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٧٦) بسند حسن.

لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ يقول: في سُلطان الملك. قال: كان في دين مَلِكهم أنَّه مَنْ سرق أخذت منه السرقة ومثلها معها مِنْ ماله فيعطيه المسروق.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس(١) في قوله: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ يقول: في سُلطان الملِك.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد(٢) في قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ قال: إلَّا بعلّة كادها الله ليوسف فاعتلّ بها.

وأخرج ابنُ المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عنه(٣) في قوله: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ قال: يوسف وإخوته أُوتوا علماً، فرفعنا يوسف في العلم فوقهم درجة.

وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير(٤) قال: كنّا عند ابن عباس فحدث بحديث، فقال رجل عنده: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ فقال ابن عباس: بئس ما قلتَ، الله العليم الخبير، وهو فوق كلِّ عالم.

وأخرج ابن جرير عن محمد بن كعب(٥) قال: سأل رجل عليّاً عن مسألة، فقال فيها، فقال الرجل: ليس هكذا ولكن كذا وكذا، قال عليّ: أصبت وأخطأت ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٢٦٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٧٦) بسند ضعيف.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٢٦٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٧٦) بسند صحيح.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٢٦٧) بسند ضعيف. وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٥٦٢) إلى ابن جرير وابن المنذر وأبي الشيخ عن ابن جريج.

(٤) أخرجه عبد الرزاق (١/ ٣٢٦)، وسعيد بن منصور في «سننه» رقم (١١٣٧ ـ تفسير)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٢٦٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٧٧) بسند ضعيف؛ لضعف عبد الأعلى الثعلبي.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٢٦٩) بسند ضعيف.

في «الأسماء والصفات» عَنْ عكرمة[(١)] في قوله: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ قال: علم الله فوق كلِّ عالم.

﴿۞ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَـٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

قوله: ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ﴾؛ أي: بنيامين ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ يعنون: يوسف.

وقد اختلف المفسرون في هذه السرقة التي نسبوها إلى يوسف ما هي؟ فقيل: إنّه كان ليوسف عمّةٌ[(٢)] هي أكبر مِنْ يعقوب، وكانت عندها مِنْطقة إسحاق لكونها أسنّ أولاده وكانوا يتوارثونها فيأخذها الأكبر سنّاً مِنْ ذكر أو أنثى، وكانت قد حضنت يوسف وأحبّته حبّاً شديداً، فلما ترعرع قال لها يعقوب: سلِّمي يوسف إليّ فأشفقت مِنْ فراقه واحتالت في بقائه لديها، فجعلت المِنْطقة تحت ثيابه وحزمته بها، ثم قالت: قد سُرقت مِنْطقة إسحاق فانظروا مَنْ سرقها، فبحثوا عنها فوجدوها مع يوسف فأخذته عندها كما هو شرع الأنبياء في ذلك الوقت مِنْ آل إبراهيم. وقد سبق بيان شريعتهم في السرقة، وقيل: إنّ يوسف أخذ صنماً كان لجدّه أبي أمِّه فكسره وألقاه على الطريق تغييراً للمنكر.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٢٦٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٧٧)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» رقم (٢٣٧) بسند صحيح.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٢٧٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٧٨) بسند حسن، من طريق سلمة، عن ابن إسحاق، عن عبد الله بن أبي نجيح، عن مجاهد.

وحكي عن الزجّاج[١] أنّه كان صنماً من ذهب. وحكى الواحدي[٢] عن الزجاج[٣] أنه قال: [الله][٤] أعلم، أسرق أخ له أم لا؟ وحكى القرطبي في «تفسيره»[٥] عن الزجاج أنه قال: كذبوا عليه فيما نسبوه إليه.

قلتُ: وهذا أولى، فما هذه الكذبة بأوّل كذباتهم، وقد قدّمنا ما يدفع قول من قال: إنّهم قد كانوا أنبياء عند صدور هذه الأمور مِنْهم.

قوله: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ﴾ قال الزجاج[٦] وغيره[٧]: الضمير في أسرّها يعود إلى الكلمة أو الجملة، كأنّه قيل: فأسرّ الجملة في نفسه ﴿وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ ثم فسرها بقوله: ﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾.

وقد ردّ أبو عليّ[٨] الفارسي هذا فقال: إنّ هذا النوع من الإضمار على شريطة التفسير غير مستعمل؛ وقيل: الضمير عائد إلى الإجابة؛ أي: أسرّ يوسف إجابتهم في ذلك الوقت إلى وقت آخر.

وقيل: أسرّ في نفسه قولَهم: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾. وهذا هو الأولى، ويكون معنى ﴿وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾: أنّه لم يبد لهم هذه المقالة التي أسرّها في نفسه بأنْ يذكر لهم صحتها أو بطلانها.

وجملة ﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ مفسرة على القول الأوّل، ومستأنفة على القولين الآخرين، كأنّه قيل: فماذا قال يوسف لمّا قالوا هذه المقالة؟ أي: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ أي: موضعاً ومنزلاً ممّن نسبتموه إلى السرقة وهو بريء، فإنكم قد فعلتم ما فعلتم مِنْ إلقاء يوسف إلى الجبّ، والكذب على أَبيكم وغير ذلك من أفاعيلكم، ثم قال: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ مِنْ الباطل بنسبة السرقة إلى يوسف، وأنّه لا حقيقة لذلك.

---

(١) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ١٢٣). (٢) في «الوسيط» (٢/ ٦٢٥).
(٣) في «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٣/ ١٢٣).
(٤) سقطت من الوسيط، وما أثبتناه من «معاني القرآن» للزجاج.
(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١/ ٤١٩). (٦) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ١٢٣).
(٧) «التبيان» (٢/ ٧٤٠)، و«الفريد» (٣/ ٨٩).
(٨) انظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٣٤٠)، و«روح المعاني» (١٢/ ٤٤٢ ـ ٤٤٣).

[استعطافهم ليوسف ليطلق لهم أخاهم]:

ثم أرادوا أَنْ يستعطفوه ليطلق لهم أخاهم بنيامين، يكون معهم يرجعون به إلى أبيهم، لما تقدّم مِنْ أخذه الميثاق عليهم بأن يردّوه إليه.

﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ أي: إنّ لبنيامين هذا أباً متصفاً بهذه الصفة، وهي كونه شيخاً كبيراً لا يستطيع فراقه ولا يصبر عنه، ولا يقدر على الوصول إليه ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ﴾ يبقى لديك، فإنّ له منزلةً في قلب أبيه ليست لواحد منّا فلا يتضرّر بفراق أحدنا كما لا يتضرّر بفراق بنيامين، ثم علّلوا ذلك بقوله: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ إلى النّاس كافةً، وإلينا خاصةً، فتمم إحسانك إلينا بإجابتنا إلى هذا المطلب، فأجاب يوسف عليهم بقوله: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ أي: نعوذُ بالله مُعاذاً، فهو مصدر(١) منصوب بفعلٍ محذوف، والمستعيذ بالله هو المعتصِم به، و﴿أَن نَّأْخُذَ﴾ منصوب(٢) بنزع الخافض، والأصل مِنْ أن نأخذ إلّا مَنْ وجدنا متاعنا عنده، وهو بنيامين؛ لأنّه الذي وُجد الصُّواع في رَحْله [٨٦/٣] فقد حلّ لنا استعبادَه بفتواكم التي أفتيتمونا بقولكم: ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ [يوسف: ٧٥].

﴿إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ﴾ أي: إنّا إذا أخذنا غير مَنْ وجدنا متاعنا عنده لظالمون في دينكم، وما تقتضيه فتواكم ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ﴾ أي: يئسوا مِنْ يوسف وإسعافهم منه إلى مطلبهم الذي طلبوه، والسين والتاء(٣) للمبالغة ﴿خَلَصُواْ نَجِيًّا﴾ أي: انفردوا حال كونهم مُتناجين فيما بينهم، وهو مصدر(٤) يقع على الواحد والجمع كما في قوله: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢].

قال الزجّاج(٥): معناه: انفردوا وليس معهم أخوهم، متناجين فيما يعملون به في ذهابهم إلى أبيهم من غير أخيهم ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾، قيل: هو «رُوبيل»؛ لأنه

---

(١) «التبيان» (٢/ ٧٤١)، و«الكشاف» (٣/ ٣١٢)، و«روح المعاني» (١٢/ ٤٤٥).
(٢) «الفريد» (٣/ ٩٠)، و«روح المعاني» (١٢/ ٤٤٥ ـ ٤٤٦)، و«البحر المحيط» (٦/ ٣١٠).
(٣) «روح المعاني» (١٢/ ٤٤٦)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ١٧١).
(٤) «التبيان» (٢/ ٧٤١)، و«روح المعاني» (١٢/ ٤٤٨)، و«البحر المحيط» (٦/ ٣١١).
(٥) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ١٢٤).

الأسنّ، وقيل: «يهوذا»؛ لأنّه الأوفر عَقْلاً، وقيل: «شمْعون»؛ لأنه رئيسهم ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: عهداً مِنْ الله في حفظ ابنه وردّه إليه، ومعنى كونه ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أنّه بإذنه.

﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ﴾ معطوف[1] على ما قبله. والتقدير: ألم تعلموا أَنَّ أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله، وتعلموا تفريطكم في يوسف، ذكر هذا النحاس[2] وغيره، و﴿مِن قَبْلُ﴾ متعلّقة بتعلموا؛ أي: وتعلموا تفريطكم في يوسف من قبل، على أن «ما»[3] مصدرية، ويجوز أَنْ تكون زائدة، وقيل: ما فرّطتم مرفوع المحل على الابتداء، وخبره مِنْ قبل.

وقيل: إنّ «ما» موصولة أو موصوفة، وكلاهما في محل[4] النصب أو الرفع، وما ذكرناه هو الأولى.

ومعنى ﴿فَرَّطتُمْ﴾: قصّرتم في شأنه، ولم تحفظوا عهد أبيكم فيه ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾. يقال: بَرِحَ بَراحاً وبُروحاً؛ أي: زال، فإذا دخله النفي صار مثبتاً؛ أي: لن أبرح من الأرض؛ بل ألزمها ولا أزال مقيماً فيها ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ﴾ في مفارقتها والخروج منها.

وإنما قال ذلك؛ لأنّه يستحي مِنْ أبيه أَنْ يأتي إليه بغير ولده الذي أخذ عليهم الموثق بإرجاعه إليه إلّا أن يحاط بهم كما تقدّم، ﴿أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى﴾ بمفارقتها والخروج منها.

وقيل: المعنى: أو يحكم الله لي بخلاص أخي مِنْ الأسر حتى يعود إلى أبي وأعود معه، وقيل: المعنى: أو يحكم اللهُ لي بالنصر على مَنْ أخذ أخي فأحاربه وآخذ أخي منه، أو أعجز فأنصرف بعد ذلك ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ لأن أحكامه لا تجري إلّا على ما يوافق الحق، ويطابق الصواب، ثم قال كبيرهم مخاطباً لهم: ﴿ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾. قرأ الجمهور: (سَرَقَ) على

---

(١) «التبيان» (٢/ ٧٤٢)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٣٤٠ ـ ٣٤١)، و«روح المعاني» (١٢/ ٤٤٩).

(٢) في «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٣٤١).

(٣) «التبيان» (٢/ ٧٤٢)، و«الفريد» (٣/ ٩١ ـ ٩٢)، و«روح المعاني» (١٢/ ٤٤٩).

(٤) انظر: المصادر المتقدمة.

البناء[١] للفاعل، وذلك لأنّهم قد شاهدوا استخراج الصُّواع من وعائه.

وقرأ ابن عباس، والضحّاك، وأبو رزين على البناء[٢] للمفعول، وروى ذلك النحاس[٣] عن الكسائي.

قال الزجاج[٤]: إنّ سرق يحتمل معنيين: أحدهما: علم منه السَّرَق، والآخر: اتُّهم بالسَّرَق ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ مِنْ استخراج الصواع من وعائه، وقيل: المعنى: ما شهدنا عند يوسف بأنّ السارق[٥] يسترق إلا بما علمنا من شريعتك وشريعة آبائك ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ﴾ حتى يتضح لنا هل الأمر على ما شاهدناه أو على خلافه؟ وقيل: المعنى: ما كنّا وقت أخذنا له منك ليخرج معنا إلى مصر للغيب حافظين بأنّه سيقع منه السَّرق الذي افتضحنا به؛ وقيل: الغيب هو: الليل، ومرادهم: أنّه سرق وهم نيام.

وقيل: مرادهم أنّه فعل ذلك وهو غائب عنهم، فخفي عليهم فعله ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾ هذا من تمام قول كبيرهم لهم؛ أي: قولوا لأبيكم أسأل القرية التي كنّا فيها؛ أي: مصر[٦]، والمراد: أهلها؛ أي: أسأل أهل القرية؛ وقيل: هي قرية[٧] مِنْ قرى مصر نزلوا فيها وامتاروا منها.

وقيل: المعنى: واسأل القرية نفسها وإن كانت[٨] جماداً فإنك نبيّ الله، والله سبحانه سينطقها فتجيبك. ومما يؤيد هذا أنّه قال سيبويه[٩]: لا يجوز كَلْم هنداً وأنت تريد غلام هند ﴿وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ أي: وقولوا لأبيكم: اسأل العيَر التي أقبلنا فيها؛ أي: أَصْحابها وكانوا قوماً معروفين مِنْ جيران يعقوب ﴿وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ﴾

---

(١) «البحر المحيط» (٦/ ٣١٢)، و«روح المعاني» (١٢/ ٤٥٢)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٣٤١).

(٢) «البحر المحيط» (٦/ ٣١٢)، و«روح المعاني» (١٢/ ٤٥٢)، و«المحرر الوجيز» (٩/ ٣٥٥). قراءة الجمهور بالبناء للفاعل في (سَرَق) هي المتواترة، والقراءة بالبناء للمفعول (سُرِق) شاذة.

(٣) في «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٣٤١)، وفي «معاني القرآن» له (٤/ ٤٥٥).

(٤) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ١٢٤).

(٥) «جامع البيان» (١٣/ ٢٨٨ ـ ٢٨٩).

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٢٩١) عن قتادة بسند صحيح.

(٧) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٤٢٧).

(٨) «زاد المسير» (٤/ ٢٦٨)، و«المحرر الوجيز» (٩/ ٣٥٥).

(٩) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ٣٤١).

فيما قلنا، جاؤوا بهذه الجملة مؤكدة هذا التأكيد؛ لأن ما قد تقدّم منهم مع أبيهم يعقوب يوجب كمال الريبة في خبرهم هذا عند السامع.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد[1] في قوله: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ قال: يَعْنون يوسف.

وأخرج ابن المنذر[2] عن ابن عباس قال: سرق مُكْحُلة لخالته، يعني: يوسف.

وأخرج أبو الشيخ[3] عن عطية قال: سرق في صباه مِيلين مِنْ ذهب.

وأخرج ابن مردويه[4] عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «سرق يوسف صنماً لجدّه أَبي أمّه مِنْ ذهب وفضة فكسره وألقاه على الطريق فعيّره بذلك إخوته».

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن سعيد[5] بن جبير مثله غير مرفوع، وقد روى نحوه عَنْ جماعة من التابعين.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[6] في قوله: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ﴾ قال: أسرّ في نفسه قوله: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾.

وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ عن قتادة[7] مثله.

وأخرج ابن جرير عن ابن إسحاق في قوله[8]: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ﴾ قال: أيسوا منه، ورأوا شدّته في أمره.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٢٧٢) بسند صحيح.

(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٥٦٣).

(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٥٦٤).

(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٥٦٤).

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٢٧٢ ـ ٢٧٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٧٧) من طريق الفيض بن الفضل، به.

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٢٧٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٢١٧٩) بسند ضعيف.

(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٢٧٦)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٢٦) بسند صحيح.

(٨) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٢٨٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٨٠) بسند حسن.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة[١] في قوله: ﴿خَلَصُواْ نَجِيًّاۖ﴾ قال: وحدهم.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد[٢] في قوله: ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ قال: «شمعون» الذي تخلّف أكبرهم عقلاً، وأكبر منه في الميلاد «روبيل».

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة[٣] ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ هو: روبيل، وهو الذي كان نهاهم عَنْ قتله وكان أكبر القوم.

وأخرج ابن المنذر[٤] عن مجاهد في قوله: ﴿أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ﴾ قال: أقاتل بسيفي حتى أقتل.

وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن أبي صالح[٥] نحوه.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن عكرمة[٦] ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾ قال: ما كنّا نعلم أنّ ابنك يسرق.

وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة[٧] نحوه.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس[٨] في قوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ قال: يعنون مصر.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٢٨٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٨١) بسند صحيح.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٢٨٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٨١) بسند ضعيف.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٢٨٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٨١) بسند صحيح.

(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٥٦٥).

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٢٨٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٨٢) من طريق إسماعيل بن أبي خالد، به.

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٢٨٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٨٣) من طريق الفضل بن موسى، به.

(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٢٩٠)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٢٧) بسند صحيح.

(٨) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٢٩١) بسند ضعيف.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة[1] مثلَه.

[قوة إيمان يعقوب عليه السلام وصبره]:

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

قوله: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ أي: زيّنت[2]، والأمر هنا قولهم: ﴿إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ﴾ [يوسف: ٨١] وما سَرَق في الحقيقة، وقيل: المراد بالأمر إخراجهم بنيامين، والمُضيّ به إلى مصر طلباً للمنفعة فعاد ذلك بالمضرّة.

وقيل: التسويل: التخييل؛ أي: خَيّلتْ لكم أنفسُكم أمراً لا أصل له؛ وقيل: الأمر الذي سوّلت لهم أنفسُهم: فتياهم بأنّ السارق يُؤخذ بسرقته، والإضراب هنا هو باعتبار ما أثبتوه من البراءة لأنفسهم، لا باعتبار أصل الكلام فإنه صحيح، والجملة مستأنفة[3] مبنية على سؤال مقدّر كغيرها.

وجملة ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ خبر مبتدأ[4] محذوف، أو مبتدأ خبرهُ محذوف؛ أي: فأمري صبرٌ جميل أو فصبرٌ جميل أَجملُ بي وأولى لي، والصبر الجميل: هو الذي لا يبوح صاحبُه بالشكوى؛ بل يفوّض أمره إلى الله ويسترجع.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٢٩١) من طريق سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة. بسند صحيح.
وأخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٨٣) من طريق سعيد بن بشير، عن قتادة. بسند ضعيف.

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٤٢٨)، و«جامع البيان» (١٣/ ٢٩٢).

(٣) «روح المعاني» (١٢/ ٤٥٥)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ١٧٣).

(٤) «الفريد» (٣/ ٤٠)، و«مشكل إعراب القرآن» (١/ ٤٢٤)، و«التبيان» (٢/ ٧٢٦).

وقد ورد أَنَّ الصبر عند أوّل الصدمة ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًاۚ﴾ أي: بيوسف وأخيه بنيامين، والأخ الثالث الباقي بمصر، وهو كبيرهم كما تقدّم، [٣/٨٧] وإنما قال هكذا؛ لأنه قد كان عنده أن يوسف[١] لم يمت، وأنه باقٍ على الحياة وإن غاب عنه خبره ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بحالي ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فيما يقضي به ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ أي: أعرض عنهم، وقطع الكلام معهم ﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾.

قال الزجّاج[٢]: الأصل يا أسفي، فأبدل من الياء ألفاً لخفة الفتحة، والأسف: شدة الجَزَع؛ وقيل: شدة الحزن، ومنه قول كُثيّر[٣]:

فيَا أَسَفا للقلبِ كيفَ انصرافُه ... وللنفسِ لما سُلِّيَت فتسلَّتِ

قال يعقوب هذه المقالة لما بلغ منه الحُزْنُ غايةَ مبلغه؛ بسبب فراقه ليوسف، وانضمام فراقه لأخيه بنيامين، وبلوغ ما بلغه من كونه أسيراً عند ملك مصر، فتضاعفت أحزانه، وهاج عليه الوجد القديم بما أثاره مِنْ الخبر الأخير.

وقد روي عن سعيد بن جبير[٤]: أَنَّ يعقوب لم يكن عنده ما ثبت في شريعتنا مِنْ الاسترجاع والصبر على المصائب، ولو كان عنده ذلك لما قال: يا أسفا على يوسف. ومعنى المناداة للأسف: طلب حضوره، كأنّه قال: تعال يا أسفي[٥] وأقبل إليّ ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ أي: انقلب سواد عينيه بياضاً مِنْ كثرة البكاء. قيل: إنّه زال إدراكه بحاسة البصر بالمرّة.

وقيل: كان يدرك إدراكاً ضعيفاً. وقد قيل في توجيه ما وقع من يعقوب عليه السلام مِنْ هذا الحزن العظيم المفضي إلى ذهاب بصره كلّاً أو بعضاً بأنه إنّما وقع منه ذلك؛ لأنه علم أن يوسف حيّ، فخاف على دينه مع كونه بأرض مصر وأهلها حينئذٍ كفار.

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٤٢٩).

(٢) في «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٣/ ١٢٥).

(٣) انظر: «ديوان كثير» (ص٧٧).

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٢٩٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٨٥)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٢٧)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٩٦٩١) بسند صحيح.

(٥) «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٤٣٠)، و«المحرر الوجيز» (٩/ ٣٥٨).

وقيل: إنّ مجرد الحُزن ليس بمحرّم، وإنما المحرّم ما يفضي منه إلى الولَه وشق الثياب، والتكلّم بما لا ينبغي، وقد قال النبيّ ﷺ عند موت ولده إبراهيم: «تدمع العينُ، ويحزن القلبُ، ولا نقول ما يسخط الربّ، وإنا عليك يا إبراهيم لمحزنون»(١).

ويؤيد هذا قوله: ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي: مكظوم(٢)، فإنّ معناه: أنه مملوء من الحُزن ممسك له لا يبثّه، ومنه كظمُ الغيظ وهو إخفاؤه، فالمكظوم المسدود عليه طريق حُزنه، مِنْ كظم السقاء: إذا سدّه على ما فيه، والكظَم بفتح الظاء. مَخْرج النفس، يقال: أخذ بأكظامه، وقيل: الكظيم بمعنى الكاظم؛ أي: المشتمل على حُزنه الممسك له، ومنه:

فإن أكُ كاظماً لمصابِ ناسٍ ... فإني اليومَ منطلقٌ لساني(٣)

ومنه ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]. وقال الزجاج(٤): معنى كظيم: محزون.

وروي عن ابن عباس(٥) أنه قال: معناه: مَغْموم مكروب. قال بعض أهل اللغة(٦): الحُزْن بالضم والسكون: البكاء، وبفتحتين: ضدّ الفرح، وقال أكثر أهل اللغة: هما لغتان بمعنى ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ أي: لا تفتؤ، فحُذف حرف النفي لعدم اللّبس. قال الكسائي(٦): فَتأتُ وفَتِئتُ أفعل كذا؛ أي: ما زلتُ.

وقال الفراء(٧): إنْ «لا» مضمرة؛ أي: لا تفتأ.

قال النّحاس(٨): والذي قال صحيح.

---

(١) أخرجه البخاري رقم (١٣٠٣)، ومسلم رقم (٦٢/ ٢٣١٥)، وأبو داود رقم (٣١٢٦)، وابن ماجه رقم (١٥٨٩).
(٢) «مفردات ألفاظ القرآن» (ص٧١٢).
(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١/ ٤٢٢).
(٤) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ١٢٥).
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٢٩٧) عن عطاء الخراساني.
(٦) «الصحاح» (٥/ ٢٠٩٩).
(٧) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٥٤).
(٨) في «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٣٤٣).

وقد روي عن الخليل[١] وسيبويه[٢] مثل قول الفراء، وأنشد الفراء[٣] محتجّاً على ما قاله:

فقلْتُ يمينُ اللّهِ أبرحُ قاعدا ... ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي[٤]

ويقال: فَتِئ وفَتَأ لغتان، ومنه قول الشاعر[٥]:

فما فَتِئَتْ حتى كأنَّ غُبارَها ... سُرادِقُ يومٍ ذي رياح تَرَفَّعُ

﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ الحَرَضُ مصدر[٦] يستوي فيه الواحد والجمع والمذكّر والمؤنّث والصفة المُشبّهة، حَرِض بكسر الراء كدنِف ودنف، وأصل الحَرَض: الفساد في الجسم أو العقل مِنْ الحزن أو العشق أو الهرم، حكي ذلك عن أبي عبيدة وغيره، ومنه قول الشاعر:

سَرى همّي فأمرَضني ... وقِدماً زادنِي مرضَا

كذاكَ الحبُّ قبل اليو ... مِ مما يُورِث الحَرَضا[٧]

وقيل: الحَرَضُ ما دون الموت، وقيل: الهَرَم، وقيل: الحارض: البالي الدائر. وقال الفراء[٨]: الحارض: الفاسد الجسم والعقل، وكذا الحَرَض.

وقال مؤرِّج[٩]: هو الذائب مِنْ الهمّ، ويدّل عليه قول الشاعر[١٠]:

إني امرؤ لَجّ بي حبٌّ فأحرضَني ... حتى بَلِيتُ وحتى شَفَّني السَّقَمُ

ويقال: رجل مُحْرَض، ومنه قول الشاعر:

طَلَبتُهُ الخيلُ يوماً كاملا ... ولَو ألْفَتْه لأضحى مُحْرَضا[١١]

---

(١) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ٣٤٣)، والقرطبي في «تفسيره» (١١/ ٤٣٣).
(٢) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ٣٤٣).
(٣) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٥٤). (٤) انظر: «ديوان امرئ القيس» (ص٣٢).
(٥) قائله: أوس بن حجر التميمي. وهو في «ديوانه» (ص٥٩).
(٦) «روح المعاني» (١٢/ ٤٦٦)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ١٧٥).
(٧) ذكرهما القرطبي في «تفسيره» (١١/ ٤٣٤).
(٨) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٥٤).
(٩) «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٤٣٤).
(١٠) نسبه القرطبي إلى العرجيّ. وهو عبد الله بن عمر بن عبد الله. «ديوان العرجيّ» (ص٥).
(١١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١/ ٤٣٥)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٣٠١).

قال النحاس[١]: وحكى أهل اللغة أحرضه الهمّ: إذا أسْقَمه، ورجل حارض؛ أي: أحمق. وقال الأخفش[٢]: الحارض الذاهب.

وقال ابن الأنباري[٣]: هو الهالك.

والأولى تفسيرُ الحَرَض هنا بغير الموت والهلاك مِنْ هذه المعاني المذكورة حتى يكون لقوله: ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَـٰلِكِينَ﴾ معنى غير معنى الحرض، فالتأسيس أولى مِنْ التأكيد، ومعنى ﴿مِنَ ٱلْهَـٰلِكِينَ﴾: مِنْ الميتين، وغرضَهم منع يعقوب من البكاء والحزن؛ شفقةً عليه وإنْ كانوا هم سبب أحزانه، ومنشأ همومه وغمومه ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ هذه الجملة مستأنفة، كأنّه قيل: فما قال يعقوب لما قالوا له ما قالوا؟ والبثُّ: ما يَرِدُ على الإنسان مِنْ الأشياء التي يعظم حزن صاحبها بها حتى لا يقدر على إخفائها، كذا قال أهل اللغة[٤]، وهو مأخوذ من بثثتُه؛ أي: فرّقته، فَسُميت المصيبة بثّاً مَجازاً، قال ذو الرّمة[٥]:

وقِفْتُ على رَبعٍ لميةَ ناقتي ... فما زلْتُ أبكي عِنْدَه وأخاطبُه
وأسقيه حتى كادَ مما أبثُّهُ ... تكلمُني أحجارُه وملاعبُه

وقد ذكر المفسرون أنّ الإنسان إذا قدر على كتم ما نزل به مِنْ المصائب كان ذلك حُزْناً، وإن لم يقدر على كتمه كان ذلك بثّاً، فالبثّ على هذا: أعظم[٦] الحزن وأصعبه، وقيل: البثّ الهمّ[٧].

وقيل: هو الحاجة[٨]. وعلى هذا القول يكون عطف الحزن على البثّ واضح المعنى. وأما على تفسير البث بالحزن العظيم، فكأنه قال: إنما أشكو حزني العظيم وما دونه مِنْ الحزن إلى الله لا إلى غيره من الناس.

---

(١) في «إعراب القرآن» (٢/ ٣٤٣).
(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١/ ٤٣٤).
(٣) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ٣٤٣).
(٤) «الصحاح» (١/ ٢٧٣).
(٥) انظر: «ديوانه» (٢/ ٨٢١).
(٦) «المحرر الوجيز» (٩/ ٣٦٠).
(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٣٠٦) بسند ضعيف، من طريق ابن جريج، عن ابن عباس.
(٨) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٣٠٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢١٨٩) بسند صحيح.

وقد قرئ (حُزْني) بضم الحاء[١] وسكون الزاي (وحَزَني) بفتحهما[٢] ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: أعلم مِنْ لطفه وإحسانه وثوابه على المصيبة ما لا تعلمونه أنتم.

وقيل: أراد علمه بأنّ يوسف حيّ، وقيل: أراد علمه بأن رؤياه صادقة؛ وقيل: أعلم مِنْ إجابة المضطرين إلى الله ما لا تعلمون ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ التحسُّس بمهملات: طلبُ الشيء بالحواس، مأخوذ مِنْ الحسّ، أو من الإحساس؛ أي: اذهبوا فتعرّفوا خبر يوسف وأخيه وتطلبوه، وقرئ بالجيم[٣]، وهو أيضاً التطلب.

﴿وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا تقنطوا مِنْ فَرِجه وتنفيسه.

قال الأصمعي[٤]: الرَّوح ما يجده الإنسان مِنْ نسيم الهواء فيسكنِ إليه، والتركيب يدل على الحركة والهزة، فكل ما يهتز الإنسان بوجوده ويلتذ به فهو روح.

وحكى الواحدي[٥] عَنْ الأصمعي أيضاً أنّه قال: الرَّوح الاستراحة من غمّ القلب.

وقال أبو عمرو[٦]: الرَّوح: الفَرَجُ، وقيل: الرحمة ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ لكونهم لا يعلمون بقدرة الله سبحانه، وعظيم صنعه، وخفيّ ألطافه.

قوله: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ﴾ أي: على يوسف، وفي الكلام حذف[٧]، والتقدير: فذهبوا كما أمرهم أبوهم إلى مصر ليتحسّسوا مِنْ يوسف وأخيه، فلما دخلوا على يوسف ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ﴾ أي: المَلِكُ الممتنع القادر ﴿مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ أي: الجوعُ والحاجةُ، وفيه دليل على أنَّه تجوز الشكوى عند الضرورة إذا خاف من إصابته على نفسه كما يجوز للعليل أَنْ يشكو إلى الطبيب ما يجده من العلة، وهذه

---

(١) «البحر المحيط» (٦/ ٣١٤)، و«روح المعاني» (١٢/ ٤٦٨)، و«الدر المصون» (٤/ ٢١٠).
(٢) «القراءات الشاذة» (ص٦٥)، و«البحر المحيط» (٦/ ٣١٦)، و«روح المعاني» (١٢/ ٤٦٨).
قراءة العشرة (حُزْني) بضم فسكون، أما قراءة (حَزَنى) بفتحتين فشاذ وعزاها في «البحر المحيط» (٦/ ٣١٤) للحسن وعيسى.
(٣) «القراءات الشاذة» (ص٦٥)، و«روح المعاني» (١٢/ ٤٦٨). بالجيم شاذة.
(٤) انظر: «الوسيط» (٢/ ٦٢٩). (٥) في «الوسيط» (٢/ ٦٢٩).
(٦) انظر: «البحر المحيط» (٦/ ٣١٥)، و«الفريد» (٣/ ٩٥).
(٧) «البحر المحيط» (٦/ ٣١٧)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٤٣٧).

المرّة التي دخلوا فيها مصر هي المرّة الثالثة كما يفيده ما تقدّم من سياق الكتاب العزيز ﴿وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ﴾ [٨٩/٣] البضاعة هي القِطْعة مِنْ المال يقصد بها شراء شيء، يقال: أبضعت الشيء واستبضعته: إذا جعلته بضاعة، وفي المثل: «كمستبضع التمر إلى هَجَر». والإزجاء: السَّوق بدفعٍ.

قال الواحدي[(١)]: الإزجاء في اللغة السَّوْق والدفع قليلاً قليلاً، ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا﴾ [النور: ٤٣]، والمعنى: أنها بضاعة تُدفع ولا يقبلها التجار.

قال ثعلب[(٢)]: البضاعة المُزْجاة الناقصة غير التامة. قال أبو عبيدة: إنما قيل للدراهم الرديئة مَزْجاة لأنها مردودة مدفوعة غير مقبولة.

واختلف في هذه البضاعة ما هي؟ فقيل: كانت قديداً وحيساً، وقيل: صوف وسمن[(٣)]، وقيل: الحبة الخضراء[(٤)] والصنوبر، وقيل: دراهم[(٥)] رديئة، وقيل: النعال[(٦)] والأدَم. ثم طلبوا منه بعد أن أخبروه بالبضاعة التي معهم أن يوفي لهم الكيل؛ أي: يجعله تاماً لا نقص فيه، وطلبوا منه أن يتصدّق عليهم إما بزيادة يزيدها لهم على ما يقابل بضاعتهم، أو بالإغماض عَنْ رداءة البضاعة التي جاؤوا بها، وأن يجعلها كالبضاعة الجيدة في إيفاء الكيل لهم بها، وبهذا قال أكثر المفسرين[(٧)].

وقد قيل: كيف يطلبون التصدّق عليهم وهم أنبياء والصدقة محرّمة على الأنبياء.

---

(١) في «الوسيط» (٢/ ٦٣٠).

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١/ ٤٣٨).

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٣١٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٩١)، وسعيد بن منصور في «سننه» رقم (١١٤٠ ـ تفسير) عن عبد الله بن الحارث، بسند ضعيف؛ لضعف يزيد بن أبي زياد.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٣١٩ ـ ٣٢٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٩١) عن أبي صالح.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٣١٧ ـ ٣١٨) عن ابن عباس. بسند صحيح.

(٦) قاله الضحاك كما في «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٤٣٩).

(٧) «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٤٣٩ ـ ٤٤٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٧٧)، و«جامع البيان» (١٣/ ٣١٥ ـ ٣١٦).

وأجيب باختصاص ذلك بنبيِّنا ﷺ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ﴾ بما يجعله لهم مِنْ الثواب الأخروي، أو التوسيع عليهم في الدنيا.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة[١] في قوله: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ﴾ قال: يوسف وأخيه ورُوبيل.

وأخرج ابن المنذر[٢] عن ابن جريج في الآية قال: يوسف وأخيه وكبيرهم الذي تخلّف.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس[٣] في قوله: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ قال: يا حَزَناً.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر عن قتادة[٤] مثله.

وأخرجوا عن مجاهد[٥] قال: يا جَزَعا.

وأخرج ابن جرير[٦] عن ابن عباس في قوله: ﴿فَهُوَ كَظِيمٞ﴾ قال: حزين.

وأخرج ابن المبارك، وعبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة[٧] قال: كظم على الحُزْن فلم يقل إلّا خيراً.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن عطاء الخراساني[٨] قال: كظيم مكروب.

وأخرج ابن أبي حاتم[٩] عن عكرمة مثله.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٢٩٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٨٤) بسند صحيح.

(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٥٦٦).

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٢٩٣ ـ ٢٩٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٨٥) بسند ضعيف.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٢٩٤) بسند صحيح.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٢٩٤) بسند صحيح.

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢٥٦).

(٧) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» رقم (٤٦٨)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٢٧)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٢٩٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٨٧) بسند صحيح.

(٨) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٢٩٧) من طريق يزيد بن زريع، به.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٨٧) بسند حسن.

الضحاك[١] قال: الكظيم: الكَمِد.

وأخرج ابن جرير[٢] عن مجاهد نحوه.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس[٣] في قوله: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ قال: لا تزال تذكر يوسف ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ قال: دَنِفاً مِنْ المرض ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ قال: الميتين.

وأخرج هؤلاء عن مجاهد[٤] نحوه.

وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ عن قتادة[٥] في قوله: ﴿تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ قال: لا تزال تذكر يوسف ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ قال: هرماً ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ قال: أو تموت.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن الضحاك[٦] ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ قال: الحرضُ: البالي ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ قال: من الميتين.

وأخرج ابن جرير، وعبد الرزاق عن مسلم[٧] بن يسار يرفعه إلى النبيّ ﷺ قال: «مَنْ بثَّ لم يصبر، ثم قرأ ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾».

وأخرج ابن منده[٨] في «المعرفة» عن مسلم بن يسار عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ فذكره.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٢٩٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٨٧)، وابن أبي الدنيا في «الهم والحزن» رقم (٨٨) بسند ضعيف.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٢٩٦) بسند صحيح.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٢٩٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٨٧) بسند حسن.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٢٩٩) بسند صحيح.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٢٩٩)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٢٧) بسند صحيح.

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٣٠٣، ٣٠٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٨٨) بسند ضعيف.

(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٣١٣)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٢٧، ٣٢٨) من طريق الثوري، به.

(٨) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٨/ ٢١١) ط. عالم الكتب.

وأخرج ابن مردويه[١] من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً مثلَه.

وأخرجه ابن المنذر، وابن مردويه عن عبد الرحمٰن[٢] بن يعمر مرفوعاً مرسلاً.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ عن ابن عباس[٣] في قوله: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي﴾ قال: همّي.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه[٤] في قوله: ﴿وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ قال: أعلم أنّ رؤيا يوسف صادقةٌ وأنّي سأسجد له.

وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ[٥] في قوله: ﴿وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ﴾ قال: مِنْ رحمة الله.

وأخرج ابن جرير[٦]، عن الضحاك مثله.

وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن ابن زيد[٧] قال: من فرج الله يُفرِّج عنكم الغمِّ الذي أنتم فيه.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة[٨] في قوله: ﴿مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ قال: أي: الضرّ في المعيشة.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[٩] في قوله: ﴿بِبِضَٰعَةٖ﴾ قال: دراهم ﴿مُّزۡجَىٰةٖ﴾ قال: كاسدة.

وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي

---

(١) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٢١١) ط. عالم الكتب.

(٢) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٨/ ٣١١) ط. عالم الكتب.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٣٠٦) بسند ضعيف.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٣٠٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٨٩) بسند ضعيف.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٣١٤) عن قتادة. بسند صحيح.

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٣١٥) بسند حسن.

(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٣١٥) بسند صحيح.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٩٠) بسند ضعيف.

(٩) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٣١٧ ـ ٣١٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٦١) بسند صحيح.

حاتم، وأبو الشيخ[(١)] عنه قال: مزجاة: رثّة المتاع، خَلَقة الحَبْل والغِرارة والشيء.

وأخرج أبو عبيد، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عنه[(٢)] أيضاً: مزجاة قال: الوَرِق الزيوف التي لا تنفق حتى يوضع منها.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ عن ابن جريج[(٣)] في قوله: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ قال: أردد علينا أخانا.

[يوسف يعلن لهم ويذكرهم في إجمال بما فعلوه به وأخيه في دفعة الجهالة]:

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾.

الاستفهام في قوله: ﴿هَلْ عَلِمْتُم﴾ للتوبيخ[(٤)] والتقريع، وقد كانوا عالمين بذلك، ولكنّه أراد ما ذكرناه، ويستفاد منه تعظيم الواقعة لكونه في قوّة: ما أعظم

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٢٨)، وسعيد بن منصور في «سننه» رقم (١١٤١ ـ تفسير)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٣١٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٩١) بسند صحيح.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٣١٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٩١) بسند صحيح.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٣٢٥ ـ ٣٢٦) بسند ضعيف.

(٤) «روح المعاني» (١٢/ ٤٧٥)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ١٧٦)، و«الوسيط» (٢/ ٦٣٠)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٤٤١).

الأمر الذي ارتكبتم مِنْ يوسف وأخيه، وما أقبحَ ما أقدمتم عليه؛ كما يقال للمذنب: هل تدري مَنْ عصيَت؟ والذي فعلوا بيوسف هو ما تقدّم مما قصّه الله سبحانه علينا في هذه السورة وأمّا ما فعلوا بأخيه، فقال جماعة مِنْ المفسرين: هو ما أدخلوه عليه مِنْ الغمّ بفراق أخيه يوسف، وما كان يناله منهم من الاحتقار والإهانة، ولم يستفهمهم عما فعلوا بأبيهم يعقوب مع أنه قد ناله منهم ما قصّه الله فيما سبق من صنوف الأذى.

قال الواحدي[(١)]: ولم يذكر أباه يعقوب مع عِظم ما دخل عليه مِنْ الغمّ بفراقه تعظيماً له ورفعاً مِنْ قدره، وعلماً بأن ذلك كان بلاءً له مِنْ الله ﷻ ليزيد في درجته عنده ﴿إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾ نفى عنهم العلم وأثبت لهم صفة الجهل؛ لأنهم لم يعملوا بما يقتضيه العلم، وقيل: إنّه أثبت لهم صفة الجهل لقصد الاعتذار عنهم وتخفيف الأمر عليهم، فكأنّه قال: إنما أقدمتم على ذلك الفعل القبيح المنكر وقت عدم علمكم بما فيه مِنْ الإثم وقصور معارفكم عن عاقبته، وما يترتب عليه، أو أراد أنهم عند ذلك في أوان الصِّبا وزمان الصغر، اعتذاراً لهم ودفعاً لما يدهمهم من الخجل والحيرة [٣/٩١] مع علمه وعلمهم بأنّهم كانوا في ذلك الوقت كباراً ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ﴾. قرأ ابن كثير (إنّك) على الخبر[(٢)] بدون استفهام.

وقرأ الباقون[(٣)] على الاستفهام التقريري، وكان ذلك منهم على طريق التعجب والاستغراب، قيل: سبب معرفتهم له بمجرد قوله لهم: ﴿مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ أَنّهم لما قال لهم ذلك تنبهوا وفهموا أنّه لا يخاطبهم بمثل هذا إلّا هو.

وقيل: إنّه لما قال لهم بهذه المقالة وضع التاج عَنْ رأسه فعرفوه، وقيل: إنه تبسم[(٤)] فعرفوا ثناياه ﴿قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ﴾ أجابهم بالاعتراف بما سألوه عنه.

---

(١) في «الوسيط» (٢/ ٦٣٠).

(٢) «روح المعاني» (٤٧٨/١٢)، و«المحتسب» (٣٤٩/١). ومعه أبو جعفر.

(٣) «البحر المحيط» (٣١٩/٦)، و«روح المعاني» (٤٧٠/١٢)، و«النشر» (١/ ٣٧٠)، و«جامع البيان» (٣٢٨/١٣).

(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٤٤٢)، و«معالم التنزيل» (٤٤٧/٢).

قال ابن الأنباري: أظهر الاسم فقال: أَنا يوسف[(١)] ولم يقل: أنا هو، تعظيماً لما وقع به مِنْ ظلم إخوته؛ كأنه قال: أَنا المظلوم المُستحل مِنْه المحرم، المراد قتله. فاكتفى بإظهار الاسم عَنْ هذه المعاني، وقال: وهذا أَخي مع كونهم يعرفونه ولا ينكرونه؛ لأنّ قصده وهذا أخي المظلوم كظلمي، ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾ بالخلاص عمّا ابتلينا به، وقيل: منّ الله علينا بكلِّ خيرٍ في الدنيا والآخرة.

وقيل: بالجمع بيننا بعد التفرق، ولا مانع من إرادة جميع ذلك ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ﴾. قرأ الجمهور بالجزم على أن «مَنْ» شرطية[(٢)]. وقرأ ابن كثير بإثبات الياء[(٣)] في يتقي، كما في قول الشاعر[(٤)]:

ألم يأتيك والأنباءُ تُنمي ... بما لاقَت لبونُ بني زيادِ

وقيل: إنّه جعل «مَنْ» موصولة[(٥)] لا شرطية، وهو بعيد.

والمعنى: إنَّه مَنْ يفعل التقوى أو يفعل ما يقيه عَنْ الذنوب ويصبر على المصائب ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ على العموم، فيدخل فيه ما يفيده السياق دخولاً أوّليّاً، وجاء بالظاهر، وكان المقام مقام المضمر؛ أي: أجرهم للدلالة على أن الموصوفين بالتقوى موصوفون بصفة الإحسان ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾ أي: لقد اختارك وفضّلك علينا بما خصّك به من صفات الكمال، وهذا اعتراف منهم بفضله وعظيم قدره، ولا يلزم من ذلك أن لا يكونوا أنبياء، فإنّ درج الأنبياء متفاوتة، قال الله تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ [البقرة: ٢٥٣] ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ أي: وإن الشأن ذلك. قال أبو عبيدة[(٦)]: خطئ وأخطأ بمعنى واحد.

---

(١) «المحرر الوجيز» (٩/ ٣٦٨)، و«روح المعاني» (٦/ ٤٧٩ ـ ٤٨٠)، و«الكشاف» (٣/ ٣٢١ ـ ٣٢٢).
(٢) «الفريد» (٣/ ٩٧)، و«التبيان» (٢/ ٧٤٤).
(٣) «التيسير» (ص١٣١)، و«روح المعاني» (١١/ ٤٨١)، و«النشر» (٢/ ٢٩٧). وهي رواية قُنبل عن ابن كثير وباقي العشرة وبالكسر فقط.
(٤) هو: قيس بن زهير. انظر: «النوادر في اللغة» لأبي زيد (ص٢٠٣)، و«المحتسب» (١/ ٦٧).
(٥) «الفريد» (٣/ ٩٧ ـ ٩٨)، و«المفصل» (ص٣٨٧)، و«التبيان» (٢/ ٧٤٤).
(٦) في «مجاز القرآن» (١/ ٣١٨).

وقال الأزهري[(١)]: المخطئ مَنْ أراد الصواب فصار إلى غيره، ومنه قولهم: المجتهد يُخطئ ويُصيب، والخاطئ مَنْ تعمد ما لا ينبغي. قالوا هذه المقالة المتضمنة للاعتراف بالخطأ والذنب استجلاباً لعفوه واستجذاباً لصفحه ﴿قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ﴾ التثريب[(٢)]: التعيير والتوبيخ؛ أي: لا تعيير ولا توبيخَ، ولا لومَ عليكم. قال الأصمعي[(٣)]: ثَرَّبتُ عليه: قَبّحتُ عليه فعلَه.

وقال الزجاج[(٤)]: المعنى: لا إفساد لما بيني وبينكم مِنْ الحرمة وحق الأخوّة، ولكم عندي الصلح والعفو، وأصل التثريب: الإفساد، وهي لغة أهل الحجاز.

وقال ابن الأنباري[(٥)]: معناه: قد انقطع عنكم توبيخي عند اعترافكم بالذنب. قال ثعلب[(٦)]: ثَرّب فلانُ على فلان: إذا عدّد عليه ذنوبه، وأصل التثريب من الثَّرْب، وهو الشحم الذي هو غاشية الكرش، ومعناه: إزالة التثريب، كما أن التجليد والتقريع إزالة الجلد والقرع، وانتصاب[(٧)] ﴿ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ بالتثريب أي: لا أثرب عليكم أو منتصب بالعامل المقدّر في ﴿عَلَيۡكُمُ﴾ وهو مستقرّ أو ثابت أو نحوهما؛ أي: لا تثريب مستقر أو ثابت عليكم.

وقد جوّز الأخفش[(٨)] الوقف على «عليكم»، فيكون اليوم متعلق بالفعل الذي بعده.

وقد ذكر مثل هذا ابن الأنباري[(٩)]، ثم دعا لهم بقوله: ﴿يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾ على تقدير الوقف على اليوم، أو أخبرهم بأنّ الله قد غفر لهم ذلك اليوم على تقدير الوقف على عليكم ﴿وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ يرحم عبادَه رحمةً يتراحمون بها فيما بينهم فيجازي محسنهم ويغفر لمسيئهم.

قوله: ﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا﴾ قيل: هذا القميص[(١٠)] هو القميص الذي

---

(١) في «تهذيب اللغة» (٥/ ٧٩).
(٢) «الصحاح» (١/ ٩٢)، و«مفردات ألفاظ القرآن» (ص١٧٣).
(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١/ ٤٤٤). (٤) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ١٢٨).
(٥) في «الزاهر» (١/ ١٤٢).
(٦) ذكره الأزهري في «تهذيب اللغة» (٥/ ١٤٢).
(٧) «مشكل إعراب القرآن» (١/ ٤٣٨)، و«التبيان» (٢/ ٧٤٥)، و«روح المعاني» (١٢/ ٤٨٢)، و«الفريد» (٣/ ٩٨).
(٨) في «معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٥٩٣). (٩) في «البيان» (٢/ ٤٥).
(١٠) «معالم التنزيل» (٢/ ٤٤٨)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٤٤٦).

ألبسه الله إبراهيم لما ألقي في النار، وكسَاه إبراهيم إسحاق، وكساه إسحاق يعقوب. وكان يعقوبُ أَدْرجَ هذا القميص في قصَبةٍ وعلقه في عُنق يوسف لما كان يخاف عليه مِنْ العين، فأخبر جبريل يوسف أن يرسل به إلى يعقوب ليعود عليه بصره لأنّ فيه ريح الجنّة، وريح الجنة لا يقع على سقيم إلا شفي ولا مبتلى إلّا عوفي ﴿فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾ أي: يصر بصيراً على أن «يأت» هي التي من أخوات كان.

قال الفراء[١]: يرجع بصيراً. وقال السدّي[٢]: يعد بصيراً. وقيل: معناه: يأتِ إليّ إلى مصر وهو بصير قد ذهب عنه العمى، ويؤيده قوله: ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: جميع مَنْ شمله لفظ الأهل من النساء والذراري، قيل: كانوا نحو سبعين، وقيل: ثلاثة وتسعين.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ أي: خرجتْ منطلقة مِنْ مصر إلى الشام. يقال: فَصَل فُصولاً، وفَصَلْته فَصْلاً، لازم ومتعدٍّ، ويقال: فَصل مِنْ البلد فصولاً: إذا انفصل عنه وجاوز حيطانَه ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ أي: يعقوب لمن عنده في أرض كنعان من أهله ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ قيل: إنّها هاجت[٣] ريح فحملت ريح القميص إلى يعقوب مع طول المسافة، فأخبرهم بما وجد، ثم قال: ﴿لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾ لولا أن تَنْسبوني إلى الفَنَد، وهو ذهاب[٤] العقل مِنْ الهَرَم، يقال: أفنَد الرجلُ: إذا خَرِفَ وتغيّر عقله.

وقال أبو عبيدة[٥]: لولا أن تُسفهِّون، فجعل الفَنَد السّفَه. وقال الزجاج[٦]: لولا أن تُجهِّلون، فجعل الفند الجهل، ويؤيد قول مَنْ قال إنه السفه[٧] قول النابغة[٨]:

---

(١) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٥٥).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٣٢٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٩٦) بسند حسن.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٣٣٥)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٢٩) بسند صحيح.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٣٣٨) عن مجاهد. بسند صحيح.

(٥) في «مجاز القرآن» (١/ ٣١٨).

(٦) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ١٢٨).

(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٣٣٨)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٢٩) عن ابن عباس. بسند صحيح.
وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٣٣٨) عن قتادة. بسند صحيح.

(٨) انظر: «ديوانه» (ص٣٣).

إلّا سُليمانَ إذ قال المليكُ له   قُمْ في البريةِ فاحددْها عن الفَنَدِ

أي: امنعها عن السَّفَه.

وقال أبو عمرو[(١)] الشيباني: التفنيد: التقبيح، ومنه قول الشاعر[(٢)]:

يا صاحبيَّ دعا لومي وتَفْنيدي   فليس ما فاتَ من أمري بمردود

وقيل: هو الكذب، ومنه قول الشاعر:

هل في افتخارِ الكريمِ مِنْ أَوَد   أم هل لقول الصدّيقِ من فَنَد[(٣)]

وقال ابنُ الأعرابي[(٤)]: ﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾: لولا أن تُضعِّفوا رأي. وروي مثله عَنْ أبي عُبيدة[(٥)]. وقال الأخفش[(٦)]: التفنيد اللوم وضعف الرأي. وكل هذه المعاني راجع إلى التعجيز وتضعيفُ الرأي، يقال: فنّده تفنيداً: إذا عجزه، وأفند: إذا تكلم بالخطأ، والفَنَد: الخطأ مِنْ الكلام، ومما يدل على إطلاقه على اللّوم قول الشاعر[(٧)]:

يا عاذليَّ دعا الملامَ وأقصِرا   طالَ الهوى وأَطَلْتما التَّفنيدا

أخبرهم يعقوب بأنّ الصَّبا قد حملت إليه ريح حبيبه، وأنّه لولا ما يخشاه من التفنيد لما شك في ذلك:

فإن الصَّبا ريحٌ إذا ما تنفَّسَتْ   على نَفَسِ مهموم تجلَّت همومُها

إذا قلْتُ هذا حينَ أسلو يهيجُني   نسيمُ الصَّبا مِنْ حيثُ يطلعُ الفجرُ

ولقد تهبُّ ليَ الصَّبا مِنْ أرضِها   فيلذُّ مسُّ هبوبِها ويطيبُ

﴿قَالُواْ تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ أي: قال الحاضرون عنده من أهله: إنّك يا يعقوب لفي ذهابك عَنْ طريق الصواب الذي كنت عليه قديماً من إفراط حبك ليوسف لا تنساه، ولا تفترّ عنه، ولسان حال يعقوب يقول لهم:

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١/ ٤٤٨).
(٢) انظر: «ديوان بشار بن برد» (١/ ٥٤٣)، ونسبه أبو عبيدة في «مجاز القرآن» (١/ ٣١٨) إلى هانئ بن شكيم العدوي.
(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١/ ٤٤٨).
(٤) ذكره الأزهري في «تهذيب اللغة» (١٤/ ١٣٨).
(٥) في «مجاز القرآن» (١/ ٣٦٨).
(٦) انظر: «الصحاح» (٢/ ٥٢٠)، و«معاني القرآن» للنحاس (٢/ ٤٥٣).
(٧) انظر: «ديوان جرير» (١/ ٣٣٧).

لا يَعرِفَ الشوقَ إلّا مَنْ يكابدُه ... ولا الصبابةَ إلّا مَنْ يعانيها
لا تعذِلِ المشتاقَ في أشواقِه ... حتّى تكونَ حشاك في أحشائِه

وقيل: المعنى: إنَّك لفي جنونك القديم، وقيل: في محبتك القديمة. قالوا له ذلك؛ لأنّه لم يكن قد بلغهم قدوم البشير

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾ قال المفسّرون: البشير هو يهوذا[1] بن يعقوب، قال لإخوته: أنا جئته بالقميص ملطخاً بالدم، فأعطني اليوم قميصك لأخبره أنك حيّ، فأفرّحه كما أحزنته ﴿أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ أي: أَلْقى البشير قميصَ يوسف على وجه يعقوب، أو ألقاه يعقوب على وجه نفسه ﴿فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ الارتداد: انقلابُ الشيءِ إلى حال قد كان عليها، والمعنى: عاد ورجع إلى حالته الأولى من صحة بصره ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾ أي: قال يعقوب لمن كان عنده مِنْ أهله الذين قال لهم: إني لأجد ريح يوسف، ألم أقل لكم هذا القول فقلتم ما قلتم، ويكون قوله: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ كلاماً مبتدأ[2] لا يتعلّق بالقول، ويجوز أَنْ تكون جملة ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1] مقول القول، ويُريد بذلك إخبارهم بما قاله لهم سابقاً ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ [٣/٩٣] مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٦]، ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾ طلبوا منه أن يستغفر لهم، واعترفوا بالذنب، وفي الكلام حذف، والتقدير: ولما رجعوا مِنْ مصر ووصلوا إلى أبيهم قالوا هذا القول، فوعدهم بما طلبوه منه و﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ﴾.

قال الزجّاج[3]: أراد يعقوب أَنْ يستغفر لهم في وقت السّحَر[4]؛ لأنه أخلق بإجابة الدعاء، لا أنه بخل عليهم بالاستغفار، وقيل: أَخّره إلى ليلة الجمعة[5]، وقيل: أخّره إلى أن يستحلّ لهم من يوسف، ولم يعلم أنه قد عفا عنهم. وجملة ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ تعليل[6] لما قبله.

---

(١) «زاد المسير» (٤/ ٢٨٦)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٤٥٠).
(٢) «الفريد» (٣/ ١٠١)، و«روح المعاني» (١٢/ ٤٧٠).
(٣) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ١٢٩).
(٤) قاله ابن عباس. «زاد المسير» (٤/ ٢٨٧)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٤٥٢).
(٥) قاله طاوس. «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٤٥٢).
(٦) «الكشاف» (٣/ ٣٢٤).

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن عكرمة[١] في قوله: ﴿لَا تَثۡرِيبَ﴾ قال: لا تَعيِير.

وأخرج أبو الشيخ[٢] عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جدّه قال: «لما فتح رسول الله ﷺ مكة التفت إلى النَّاس فقال: ماذا تقولون وماذا تظنّون؟ فقالوا: ابن عمٍّ كريم، فقال: لا تثريب عليكم اليوم يغفرُ الله لكم».

وأخرج ابن مردويه[٣] عَنْ ابن عباس مرفوعاً نحوه.

وأخرج البيهقي في «الدلائل»[٤] عَنْ أبي هريرة مرفوعاً نحوه.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن عطاء الخراساني[٥] قال: طلب الحوائج إلى الشباب أسهل منها عند الشيوخ، ألم تر إلى قول يوسف: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾؟ وقال يعقوب: ﴿سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ﴾.

أقول: وفي هذا الكلام نظر فإنَّهم طلبوا مِنْ يوسف أن يعفو عنهم بقولهم: لقد آثرك الله علينا، فقال: لا تثريبَ عليكم اليوم؛ لأنّ مقصودهم صدور العفو منه عنهم، وطلبوا مِنْ أبيهم يعقوب أَنْ يستغفر الله لهم وهو لا يكون إلّا بطلب ذلك منه إلى الله ﷻ، وبين المقامين فرق، فلم يكن[٦] وعد يعقوب لهم بخلاً عليهم بسؤال الله لهم، ولا سيما إذا صح ما تقدّم من أنه أخّر ذلك إلى وقت الإجابة. فإنه لو طلبه لهم في الحال لم يحصل له علم بالقبول.

وأخرج الحكيم الترمذي، وأَبو الشيخ عن وهب[٧] بن منبه قال: لما كان من أمر إخوة يوسف ما كان، كتب يعقوب إلى يوسف وهو لا يعلم أنه يوسف: بسم الله الرحمٰن الرحيم، مِنْ يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم إلى عزيز آل فرعون، سلام عليك فإنّي أحمدُ إليك الله الذي لا إلٰه إلّا هو، أما بعد: فإنّا أهلُ بيتٍ مولَع بنا أسباب

---

(١) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٥٧٨).
(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٥٧٨).
(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٥٧٨).
(٤) أخرجه البيهقي في «الدلائل» (٥/ ٥٧)، وفي «السنن الكبرى» (٩/ ١١٨).
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٩٥) من طريق رجاء بن أبي سلمة.
(٦) «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٤٤٥ ـ ٤٤٦)، و«جامع البيان» (١٣/ ٣٣٠).
(٧) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٥٧٩).

البلاء، كان جدّي إبراهيم خليلُ الله ألقي في النار في طاعة ربِّه، فجعلها الله عليه برداً وسلاماً، وأمر الله جدّي أَنْ يذبح له أبي ففداه الله بما فداه، وكان لي ابن وكان مِنْ أحبّ الناس إليّ ففقدته، فأذهب حزني عليه نورَ بصري، وكان له أخ من أمِّه كنت إذا ذكرته ضممته إلى صدري فأذهب عنّي بعض وجدي، وهو المحبوس عندك في السرقة، وإنّي أخبرك أنّي لم أسرق، ولم ألد سارقاً؛ فلما قرأ يوسف الكتاب بكى وصاح وقال: ﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا﴾.

وأخرج أَبو الشيخ[1] عَنْ أنس: أَنَّ رسول الله ﷺ قال في قوله: «﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا﴾ أن نُمروذ لما ألقى إبراهيم في النار نزل إليه جبريل بقميص من الجنّة وطنفسة مِنْ الجنة، فألبسه القميص وأقعده على الطِّنفسة، وقعد معه يتحدّث، فأوحى الله إلى النار ﴿كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا﴾ [الأنبياء: ٦٩]». ولولا أنه قال: (وسلاماً) لأذاه البرد.

وأخرج أبو الشيخ[2] عَنْ ابن عباس مرفوعاً: «إنّ الله كسا إبراهيم ثوباً من الجنّة، فكساه إبراهيم إسحاق، وكساه إسحاق يعقوب، فأخذه يعقوب فجعله في قصبةٍ من حديد وعلقه في عنق يوسف، ولو علم إخوته إذ ألقوه في الجُبّ لأخذوه؛ فلما أراد الله أن يردّ يوسف على يعقوب كان بين رؤياه وتعبيره أربعون سنة، أَمرَ البشير أَنْ يبشره مِنْ ثمان مراحل، فوجد يعقوب ريحه فقال: إنّي لأجد ريح يوسف لولا أن تُفنّدون، فلما ألقاه على وجهه ارتدّ بصيراً، وليس يقع شيء من الجنّة على عاهة مِنْ عاهات الدنيا إلّا أبرأها بإذن الله».

وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وأحمد في الزهد، وابن جرير وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه عن ابن عباس[3] في قوله: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾ قال: لما خرجت العير هاجت الريحُ، فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف فقال: ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾: تُسفِّهون؛ فوجد ريحه من مسيرة ثمانية أيام.

---

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ مدينة دمشق» (٦/ ١٨٨) من حديث أنس.

(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٥٨٠).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٢٩)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٣٣٣، ٣٣٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٩٧) بسند صحيح.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عنه[١] قال: وجد ريحه مِنْ مسيرة عشرة أيام.

وأخرج ابن أبي حاتم[٢] من وجه آخر عنه قال: وجده من مسيرة ثمانين فرسخاً.

وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عنه[٣] أيضاً ﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ قال: تُجهِّلون.

وأخرج ابن جرير[٤] عنه أيضاً قال: تُكذِّبون.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد[٥] قال: تُهرِّمون، يقولون: قد ذهب عقلُك.

وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن الربيع[٦] قال: لولا أن تُحمِّقون.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[٧] ﴿إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ يقول: خطئك القديم.

وأخرج ابن أبي حاتم[٨] عن سعيد بن جبير قال: جنونك القديم.

وأخرج ابن جرير[٩] عن ابن جريج قال: حبك القديم.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[١٠] قال: البشير البريد.

وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن الضحاك[١١] مثله.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٩٧) بسند ضعيف.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٩٧) بسند صحيح.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٣٣٧) بسند صحيح.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٣٤٠) بسند ضعيف.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٢٣٨) بسند صحيح.

(٦) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٥٨١).

(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٣٤٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٩٨) بسند صحيح.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٩٨) بسند ضعيف.

(٩) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٣٤٣) بسند ضعيف. وفي النسخة الأم (عن مجاهد) ولعلَّ الصواب ابن جريج لما عند ابن جرير الطبري.

(١٠) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٣٤٣ ـ ٣٤٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٩٩) بسند ضعيف.

(١١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٣٤٥) بسند ضعيف.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن سفيان[١] قال: البشير هو يهوذا بنُ يعقوب.

وأخرج ابن أبي حاتم[٢] عن الحسن قال: لما أن جاء البشير إلى يعقوب فألقى عليه القميص قال: على أيّ دين خلفتَ يوسف؟ قال: على الإسلام، قال: الآن تمّت النعمة.

وأخرج أبو عبيد، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني عن ابن مسعود[٣] في قوله: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾ قال: إن يعقوب أخّر بنيه إلى السّحَر.

وأخرج ابن المنذر، وابن مردويه عن ابن عباس[٤] قال: أخّرهم إلى السّحَر، وكان يصلي بالسحر.

وأخرج أبو الشيخ، وابن مردويه عنه[٥] قال: أخّرهم إلى السحر لأن دعاء السحر مُستجاب.

وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عنه[٦] أيضاً قال: قال النبيّ ﷺ في قصه: «هو قول أخي يعقوب لبنيه: سوف أستغفر لكم ربي»، يقول: حتى تأتي ليلةُ الجمعة.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٣٤٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٩٩) بسند ضعيف.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٩٩) من طريق مخلد بن حسين، به.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٣٤٧)، وسعيد بن منصور في «سننه» رقم (١١٤٤ ـ تفسير)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٠٠)، والطبراني رقم (٤٥٤٨) بسند ضعيف.
قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٥٥): «فيه عبد الرحمٰن بن إسحاق الكوفي، وهو ضعيف».

(٤) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٥٨٤).

(٥) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٥٨٤).

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٣٤٨) بسند ضعيف.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾.

قوله: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ لعلّ في الكلام محذوفاً[١] مقدّراً، وهو: فرحل يعقوب وأولادُه وأهلُه إلى مصر فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه أي: ضمّهما وأنزلهما عنده.

قال المفسّرون[٢]: المراد بالأبوين هنا يعقوب وزوجته خالة[٣] يوسف؛ لأن أمَّه قد كانت ماتت في ولادتها لأخيه بنيامين كما تقدّم؛ وقيل: أحيا الله[٤] له أمَّه تحقيقاً للرؤيا حتى سجدت له ﴿وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ ممّا يكرهون، وقد كانوا فيما مضى يخافون ملوك مصر، ولا يدخلونها[٥] إلّا بجواز منهم.

قيل: والتقييد بالمشيئة عائد إلى الأمن، ولا مانع مِنْ عوده إلى الجميع؛ لأن دخولهم لا يكون إلا بمشيئة الله سبحانه، كما أنهم لا يكونون آمنين إلّا بمشيئته؛ وقيل: إنّ التقييد بالمشيئة[٦] راجعٌ إلى قوله: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ﴾ [يوسف: ٩٨] وهو بعيد.

---

(١) «روح المعاني» (١٢/ ٤٧١).
(٢) «جامع البيان» (١٣/ ٣٥٢)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٤٥٤).
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٣٥٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٠١) عن السُّدي. بسند حسن.
(٤) قاله الحسن وابن إسحاق. «معالم التنزيل» (٢/ ٤٥٠)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٤٥٥).
• وقال الألوسي في «روح المعاني» (١٢/ ٤٩٧) عن الحسن وابن إسحاق أنَّهما قالا: «إنَّ الله تعالى أَحياها له ليصدّق رؤياه». والظاهر أنَّه لم يثبت، ولو ثبت مثله لاشتهر.
(٥) «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٤٥٤)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٨٩)، و«معالم التنزيل» (٢/ ٤٥٠).
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٣٥١) عن ابن جرير. بسند ضعيف.

وظاهر النظم القرآني: أَنَّ يوسف قال لهم هذه المقالة؛ أي: ادخلوا مصر قبل دخولهم، وقد قيل في توجيه ذلك: أَنّه تلقاهم إلى خارج[(١)] مصر، فوقف منتظراً لهم في مكان أو خيمة، فدخلوا عليه فـ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ﴾ فلما دخلوا مصر، ودخلوا عليه دخولاً آخر في المكان الذي له بمصر ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ أي: أجلسهما معه على السرير الذي يجلس عليه كما هو عادة الملوك ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ﴾ أي: الأبوان والأخوة، والمعنى: أنهم خرّوا ليوسف سجداً، وكان ذلك جائزاً في شريعتهم مُنزّلاً منزلة التحية[(٢)]؛ [٣/٩٤] وقيل: لم يكن ذلك سجوداً؛ بل هو مجرد إيماء، وكانت تلك تحيتهم، وهو يخالف معنى: وخرّوا له سجداً، فإن الخرور[(٣)] في اللغة المقيد بالسجود لا يكون إلّا بوضع الوجه على الأرض.

وقيل: الضمير في قوله: «له» راجع إلى الله سبحانه؛ أي: وخرّوا لله سجداً، وهو بَعيد جدّاً؛ وقيل: إنّ الضمير ليوسف، واللام للتعليل؛ أي: وخرّوا لأجله[(٤)] سجداً، وفيه أيضاً بعد وقال يوسف: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ﴾ يعني: التي تقدّم ذكرها ﴿مِن قَبۡلُ﴾ أي: من قبل هذا الوقت ﴿قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ﴾ بوقوع تأويلها على ما دلت عليه ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ﴾ الأصل أن يتعدّى[(٥)] فعل الإحسان بإلى، وقد يتعدّى بالباء كما في قوله تعالى: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾ [البقرة: ٨٣، الإسراء: ٢٣]، وقيل: إنّه ضمّن أحسن معنى لطَفَ؛ أي: لطف بي مُحْسناً، ولم يذكر إخراجه مِنْ الجُبّ؛ لأنَّ في ذكره نوع تثريب للإخوة، وقد قال: لا تثريب عليكم.

---

(١) وصوَّبه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٣٥١ ـ ٣٥٢).
(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٤٥٥)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٩٠)، و«المحرر الوجيز» (٩/ ٣٧٨)، و«روح المعاني» (١٢/ ٤٩٩).
(٣) قال أبو البقاء في «الإملاء» (٣/ ٣٦١): ﴿سُجَّدٗا﴾ [البقرة: ٥٨] حال مقدَّرة؛ لأن السجود يكون بعد الخرور.
(٤) وتعقّب بأنَّه يردُّه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ﴾ إذ فيها ﴿رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤] ودفع بأن القائل به يجعل اللام للتعليل فيهما. «روح المعاني» (١٢/ ٤٩٩).
(٥) «البحر المحيط» (٦/ ٣٢٨)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ١٨١)، و«روح المعاني» (١٢/ ٥٠٢).

وقد تقدّم سبب سجنِه، ومدّة بقائه فيه، وقد قيل: إنّ وجه عدم ذكر إخراجه من الجبّ أن المنّة[١] كانت في إخراجه مِنْ السجن أكبر من المنّة في إخراجه من الجُبّ، وفيه نظر، ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ أي: البادية، وهي أرض كنعان بالشام، وكانوا أهل مواش وبرية.

وقيل: إنّ الله لم يبعث[٢] نبيّاً مِنْ البادية، وأن المكان الذي كان فيه يعقوب يقال له: بدا، وإيّاه عَنى جميل[٣] بقوله:

وأنتِ التي حَبَّبْتِ شغْباً إلى بَدَا ... إليّ وأوطاني بلادٌ سواهما

وفيه نظر.

﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾ أي: أفسد بيننا وحمل بعضنا على بعض، يقال: نزغه إذا نخسه، فأصله مِنْ نخس الدابة ليقوى مشيها. وأحال يوسف ذنب إخوته على الشيطان تكرماً منه وتأدّباً ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ اللطيف: الرفيق.

قال الأزهري[٤]: اللطيف مِنْ أسماء الله تعالى معناه: الرفيق بعباده، يقال: لطف فلان بفلان يلطف: إذا رفق به، وقال عمرو بن أبي عمرو: اللطيف: الذي يوصل إليك أربك في لطف.

قال الخطابي[٥]: اللّطيفُ: هو البَرّ بعباده، الذي يلطف بهم من حيث لا يعلمون، ويسبب لهم مصالحهم من حيثُ لا يحتسبون، وقيل: اللطيف: العالم بدقائق[٦] الأمور، ومعنى ﴿لِّمَا يَشَآءُ﴾: لأجل ما يشاء حتى يجيء على وجه الصواب ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي: العليم بالأمور الحكيم في أفعاله.

ولما أتم الله نعمته على يوسف ﷺ بما خلّصه منه مِنْ المحن العظيمة، وبما

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٤٥٩ ـ ٤٦٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٩١)، و«معالم السنن» (٣/ ٨٣).

(٢) انظر: المصادر المتقدمة.

(٣) انظر: «ديوان جميل بثينة» (ص٢٠٠).

(٤) في «تهذيب اللغة» (١٣/ ٣٤٧).

(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١/ ٤٦٠)، وانظر: «النهاية في غريب الحديث» (٢/ ٦٠١).

(٦) قال عبد الرحمٰن السعدي في «تفسيره» (٥/ ٣٠١): «واللطيف: الذي أحاط علمه بالسرائر والخفايا، وأدرك الخبايا والبواطن والأمور الدقيقة، اللطيف بعباده المؤمنين، الموصل إليهم مصالحهم بلطفه وإحسانه من طريق لا يشعرون بها، فهو بمعنى الخبير، وبمعنى الرؤوف».

خوّله مِنْ الملك، وعلّمه من العلم، تاقت نفسُه إلى الخير الأخروي الدائم الذي لا ينقطع، فقال: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ «مِنْ»[(١)] للتبعيض؛ أي: بعض الملك؛ لأنّه لم يؤت كلَّ المُلك، إنما أوتي ملكاً خاصاً، وهو ملك مصر في زمن خاص ﴿وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ أي: بعضها؛ لأنه لم يؤت جميع علم التأويل سواء أريد به مطلق العلم والفهم، أو مجرد تأويل الرؤيا.

وقيل: «مِنْ» للجنس[(٢)] كما في قوله: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ﴾ [الحج: ٣٠] وقيل: زائدة؛ أي: آتيتني الملك وعلمتني تأويل الأحاديث ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ منتصب[(٣)] على أنّه صفة لربّ، لكونه منادى مضافاً، ويجوز أن يكون انتصابه على أنَّه منادى بحرف مقدّر؛ أي: يا فاطرَ[(٤)]، والفاطر: الخالق والمنشئ والمخترع والمبدع ﴿أَنتَ وَلِىِّۦ﴾ أي: ناصري ومتولّي أموري ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ تتوالاني فيهما ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ أي: توفني على الإسلام لا يفارقني حتى أموت، وألحقني بالصالحين مِنْ النبيين من آبائي وغيرهم فأظفر بثوابهم منك ودرجاتهم عندك.

قيل: إنَّه لما دعا بهذا الدعاء توفَّاه الله ﷻ، وقيل: كان عمره عند أن ألقي في الجُبّ سبع عشرة سنة، وكان في العبودية والسجن والملك ثمانين سنة إلى قدوم أبيه يعقوب عليه، ثم عاش بعد اجتماع شملهم حتى كمل عمره المقدار الذي سيأتي وتوفاه الله.

قيل: لم يتمنّ الموت أحدٌ غير يوسف لا نبيّ ولا غيره. وذهب الجمهور[(٥)] إلى أنَّه لم يتمنّ الموت بهذا الدعاء، وإنما دعا ربه أَنْ يتوفاه على الإسلام ويلحقه بالصالحين من عباده عند حضور أجله.

---

(١) «الفريد» (٣/ ١٠٢)، و«التبيان» (٢/ ٧٤٦)، و«البحر المحيط» (٦/ ٣٢٩).
(٢) «التبيان» (٢/ ٧٤٦)، و«روح المعاني» (١٢/ ٥٠٥).
(٣) «البحر المحيط» (٦/ ٣٢٩)، و«تفسير أبي السعود (٤/ ١٨٢)، و«روح المعاني» (١٢/ ٥٠٦).
(٤) «جامع البيان» (١٣/ ٣٦٥ ـ ٣٦٦)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٣٤٥).
(٥) «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٤٦٢)، و«الكشاف» (٣/ ٣٢٧)، و«المحرر الوجيز» (٩/ ٣٨٢ ـ ٣٨٣).

وقد أخرج أبو الشيخ[1] عن أبي هريرة قال: دخل يعقوب مصر في مُلك يوسف وهو ابن مائة وثلاثين سنة، وعاش في ملكه ثلاثين سنة، ومات يوسف وهو ابن مائة وعشرين سنة.

قال أبو هريرة: وبلغني أنّه كان عمر إبراهيم خليل الله مائة وخمسة وتسعين سنة.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة[2] في قوله: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ﴾ قال: أبوه وأمه ضمّهما.

وأخرجا عن وهب[3] قال: أبوه وخالته، وكانت توفيت أمّ يوسف في نفاس أخيه بنيامين.

وأخرج أبو الشيخ[4] نحوه عَنْ سفيان بن عيينة.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[5] في قوله: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ قال: السرير.

وأخرج ابن أبي حاتم عن عدي بن حاتم[6] في قوله: ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ﴾ قال: كانت تحية مَنْ كان قبلكم فأعطاكم الله السلام مكانها.

وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة[7] نحوه.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن زيد[8] قال: ذلك سجود تَشْرفةً كما سجدت الملائكة تَشْرِفةً لآدم، وليس سجود عبادة.

---

(١) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٥٨٧).
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٠١) بسند ضعيف.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٠١) من طريق إبراهيم بن خالد الصنعاني، به.
(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٥٨٨).
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٣٥٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٠١) بسند ضعيف.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٠٢) من طريق عبد العزيز بن رفيع، به.
(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٣٥٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٠٢) بسند صحيح.
(٨) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٣٥٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٠٢) بسند صحيح.

وأخرج أبو الشيخ[(١)] عن قتادة في قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ قال: لطيف ليوسف وصنع له حين أخرجه مِنْ السجن، وجاء بأهله من البدو، ونزع من قلبه نَزْغ الشيطان، وتحريشه على إخوته.

وأخرج ابن أبي حاتم[(٢)] عن ابن عباس قال: ما سأل نبيّ الوفاة غير يوسف.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ[(٣)] عنه قال: اشتاق إلى لقاء الله وأحب أن يلحق به وبآبائه، فدعا الله أَنْ يتوفاه، وأن يلحقه بهم.

وأخرج أبو الشيخ[(٤)] عن الضحاك في قوله: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ قال: يعني: إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب.

وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عكرمة[(٥)] قال: يعني: أهل الجنة.

[توجيه الأبصار إلى الآيات الدالة على الله ووحدانيته وقدرته]:

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾.

الخطاب بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ لرسول الله ﷺ وهو مبتدأ[(٦)] خبره ﴿مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾،

---

(١) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٥٨٩ ـ ٥٩٠).
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٠٤) بسند ضعيف.
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٣٦٥ ـ ٣٦٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٠٤) عن قتادة. بسند صحيح.
(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٥٩١).
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٠٤) بسند حسن.
(٦) «الفريد» (٣/ ١٠٢)، و«روح المعاني» (١٢/ ٥١١ ـ ٥١٢)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ١٨٣).

و﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ خبر ثان[١].

قال الزجّاج[٢]: ويجوز أَنْ يكون ﴿ذَٰلِكَ﴾ بمعنى الذي و﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ خبره؛ أي: الذي مِنْ أنباء الغيب نوحيه إليك.

والمعنى: الإخبار مِنْ الله تعالى لرسوله الله ﷺ بأن هذا الذي قصه عليه من أمر يوسف وإخوته من الأخبار التي كانت غائبةً[٣] عن رسول الله ﷺ، فأوحاه الله إليه وأعلمه به ولم يكن عنده قبل الوحي شيء من ذلك، وفيه تعريض بكفار قريش؛ لأنّهم كانوا مكذبين له ﷺ بما جاء به جحوداً وعناداً وحسداً مع كونهم يعلمون حقيقة الحال ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ أي: لدى إخوة يوسف ﴿إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ﴾ إجماع الأمر: العزم عليه؛ أي: وما كنتَ لدى إخوة يوسف إذ عَزَموا جميعاً على إلقائه في الجُبّ ﴿وَهُمْ﴾ في تلك الحالة ﴿يَمْكُرُونَ﴾ به؛ أي: بيوسف في هذا الفعل الذي فعلوه به ويبغونه الغوائل.

وقيل: الضمير ليعقوب؛ أي: يمكرون بيعقوب حين جاؤوه بقميص يوسف ملطخاً بالدم وقالوا: أكله الذئب.

وإذا لم يكن رسول الله ﷺ لديهم عند أَنْ فعلوا ذلك، انتفى علمه بذلك مشاهدةً، ولم يكن بين قومٍ لهم علم بأحوال الأمم السالفة ولا خالطهم ولا خالطوه، فانتفى علمه بذلك بطريق الرواية عن الغير، فلم يبق لعلمه بذلك طريق إلّا مجرّد الوحي مِنْ الله سبحانه، فهذا يستلزم الإيمان بما جاء به، فلما لم يؤمن بذلك مَنْ عاصره من الكفار، قال الله سبحانه ذاكراً لهذا: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ أي: وما أكثر الناس المعاصرين لك يا محمد، أو ما أكثر النّاس على العموم [٣/٩٥] ولو حرصتَ على[٤] هدايتهم وبالغت في ذلك بمؤمنين بالله؛ لتصميمهم على الكفر الذي هو دين آبائهم، يقال: حَرَصَ يَحْرِصُ مثل: ضرب يضرب، وفي لغة[٥] ضعيفة حَرِصَ يَحْرَص مثل حَمِد يَحمُد،

(١) «روح المعاني» (١٢/ ٥١٢)، و«البحر المحيط» (٦/ ٣٢٩).
(٢) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ١٣٠).
(٣) «روح المعاني» (١٢/ ٥١٢ ـ ٥١٣)، و«البحر المحيط» (٦/ ٣٣٠ ـ ٣٣١).
(٤) انظر: «معاني القرآن» للنحاس (٣/ ٤٥٩).
(٥) انظر: «تهذيب اللغة» (٤/ ٢٣٩).

والحرص: طلبُ الشيء باجتهاد(١).

قال الزجّاج(٢): ومعناه: وما أكثرُ النّاس بمؤمنين ولو حرصَت على أن تهديهم؛ لأنّك لا تهدي مَنْ أحببت ولكن الله يهدي من يشاء. قال ابن الأنباري: إنّ قريشاً واليهود سألتْ رسولَ الله ﷺ عن قصة يوسف وإخوته فشرحها شرحاً شافياً، وهو يؤمّل أَنْ يكون ذلك سبباً لإسلامهم، فخالفوا ظنه، وحزن رسول الله ﷺ لذلك فعزاه الله بقوله: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ﴾ الآية، ﴿وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ﴾ أي: على القرآن وما تتلوه عليهم منه، أو على الإيمان وحرصك على وقوعه منهم أو على ما تحدّثهم به من هذا الحديث ﴿مِنۡ أَجۡرٍۚ﴾ من مال يعطونك إيّاه، ويجعلونه لك كما يفعله أحبارهم ﴿إِنۡ هُوَ﴾ أي: القرآن أو الحديث الذي حدّثتهم به ﴿إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: ما هو إلّا ذكر للعالمين كافةً لا يختص بهم وحدَهم.

﴿وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ قال الخليل(٣) وسيبويه(٤)، والأكثر: إن كأين أَصْلُها؛ أيّ: دخل عليها كاف التشبيه، لكنّه انمحى عن الحرفين المعنى الإفرادي، وصار المجموع كاسم واحد بمعنى «كم» الخبرية، والأكثر إدخال مِنْ في مُميّزه، وهو تمييز عن الكاف لا عن؛ أيّ: كما في مثلُك رجلاً. وقد مرّ الكلام على هذا مستوفى في آل عمران.

والمعنى: كم مِنْ آية تدلّهم على توحيد الله كائنة في السمٰوات من كونها منصوبة بغير عمد، مزينة بالكواكب النيرة السيارة والثوابت، وفي الأرض من جبالها وقفارها وبحارها ونباتها وحيواناتها تدلهم على توحيد الله سبحانه، وأنه الخالق لذلك، الرزاق له المحيي والمميت، ولكن أكثر الناس يمرّون على هذه الآيات غير متأمّلين لها، ولا مفكرين فيها، ولا ملتفتين إلى ما تدل عليه من وجود خالقها، وأنه المتفرد بالألوهية مع كونهم مشاهدين لها ﴿يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ﴾ وإن نظروا إليها بأعيانهم فقد أعرضوا عما هو الثمرة للنظر بالحدقة، وهي التفكر

(١) «تفسير الرازي» (٢/٣٤٦)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/٤٦٦).
(٢) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ١٣٠).
(٣) ذكره أبو حيان في «البحر المحيط» (٦/ ٣٣٠)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/٢٩٣).
(٤) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (١/ ٤١٠) و(٢/٢٤٦).

والاعتبار والاستدلال. وقرأ عكرمة وعَمْرو بن فايد برفع[١] ﴿وَالأَرْضُ﴾ على أنه مبتدأ، وخبره ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾. وقرأ السُّدّي بنصب[٢] الأرض بتقدير فَعَل.

وقرأ ابنُ مسعود[٣] «يَمْشون عليها» ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ﴾ أي: وما يصدّق ويقرّ أكثرُ الناس بالله مِنْ كونه الخالق الرزاق المحيي المميت ﴿إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ بالله يعبدون معه غيره كما كانت تفعله الجاهلية، فإنهم مقرّون بالله سبحانه وبأنه الخالق لهم ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]. ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥، الزمر: ٣٨] لكنّهم كانوا يُثْبتون له شركاء فيعبدونهم ليقرّبوهم إلى الله ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ﴾ [الزمر: ٣] ومثل هؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله المعتقدون في الأموات بأنهم يقدرون على ما لا يقدر عليه إلّا الله سبحانه كما يفعله كثير مِنْ عبّاد القبور.

ولا ينافي هذا ما قيل مِنْ أنَّ الآية نزلت في قوم مخصوصين، فالاعتبار بما يدل عليه اللفظ لا بما يفيده السبب مِنْ الاختصاص بمن كان سبباً لنزول الحكم ﴿أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ﴾ الاستفهام[٤] للإنكار، والغاشية ما يغشاهم ويغمرهم مِنْ العذاب كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥٥] وقيل: هي الساعة، وقيل: الصواعق والقوارع، ولا مانع مِنْ الحمل على العموم ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ أي: فجأة، وانتصاب[٥] بغتة على الحال.

قال المبرِّد[٦]: جاء عَنْ العرب حال بعد نكرة، وهو قولهم وقع أمر بغتةً، يقال: بغتهم الأمر بغتاً وبغتةً: إذا فاجأهم ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانه، ويجوز انتصاب بغتة على أنها صفة مصدر محذوف ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي﴾ أي: قل يا محمد للمشركين هذه الدعوة التي أدعو إليها والطريقة التي أنا عليها سبيلي أي: طريقتي

---

(١) في «الكتاب» (٢/ ١٧٠ ـ ١٧١).

(٢) «القراءات الشاذة» (ص٦٥)، و«المحتسب» (١/ ٣٤٩ ـ ٣٥٠)، و«التبيان» (٢/ ٧٤٦)، و«الجامع لأحكام القراءات» (١١/ ٤٦٧)، و«روح المعاني» (١٢/ ٥١٦). رفع الأرض ونصبها قراءتان شاذتان.

(٣) انظر: المصادر المتقدمة. قراءة شاذة مخالفة للرسم

(٤) «روح المعاني» (١٢/ ٥١٧)، و«البحر المحيط» (٦/ ٣٣٢).

(٥) «التبيان» (٢/ ٧٤٧)، و«الفريد» (٣/ ١٠٤)، و«مشكل إعراب القرآن» (١/ ٤٣٨).

(٦) في «المقتضب» (٤/ ١٥٠ ـ ١٥١).

وسُنَّتي، فاسم الإشارة[١] مبتدأ وخبره سبيلي، وفسر ذلك بقوله: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ أي: على حُجةٍ واضحة، والبصيرة: المعرفة التي يتميز بها الحق من الباطل والجملة في محل نصب[٢] على الحال ﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ أي: ويدعو إليها مَنْ اتبعني واهتدى بهديي.

وقال الفرّاء[٣]: والمعنى: ومَنْ اتبعني يدعو إلى الله كما أدعو. وفي هذا دليل على أَنَّ كل مُتبعٍ لرسول الله ﷺ حقٌّ عليه أن يقتدي به في الدعاء إلى الله؛ أي: الدعاء إلى الإيمان به وتوحيده والعمل بما شرعه لعباده ﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ أي: وقل يا محمد لهم: سبحان الله وما أنا من المشركين بالله الذين يتخذون من دونه أنداداً. قال ابن الأنباري: ويجوز أن يتم الكلام عند قوله: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ ثم ابتدأ، فقال: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس[٤] في قوله: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ﴾ قال: هم بنو يعقوب إذ يمكرون بيوسف.

وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن قتادة[٥] في الآية يقول: وما كنت لديهم وهم يُلْقونه في غيابة الجُب، وهم يمكرون بيوسف.

وأخرج أبو الشيخ[٦] عن الضحاك ﴿وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٍ﴾ قال: كم من آية في السماء، يعني: شمسَها وقمرَها ونجومها وسحابها، وفي الأرض ما فيها من الخلق والأنهار والجبال والمدائن والقصور.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس[٧] في قوله: ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ﴾ قال: سلهم مَنْ خلقهم ومَنْ

---

(١) «روح المعاني» (١٢/ ٥١٨)، و«البحر المحيط» (٦/ ٣٣٣).

(٢) «التبيان» (٢/ ٧٤٧)، و«روح المعاني» (١٢/ ٥١٨).

(٣) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٥٥).

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (ص١٣) بسند ضعيف.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٣٧٠) بسند صحيح.

(٦) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٥٩٣).

(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٣٧٢ ـ ٣٧٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٠٧) بسند صحيح.

خلق السموات والأرض فسيقولون الله، فذلك إيمانهم وهم يعبدون غيره.

وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ عن عطاء[١] في قوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ قال: كانوا يعلمون أنّ الله ربُّهم وهو خالقُهم وهو رازقهم، وكانوا مع ذلك يشركون.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن الضحاك[٢] في الآية قال: كانوا يشركون به في تلبيتهم يقولون: لبيك اللَّهُمَّ لبيك لا شريك لك إلّا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك.

وأخرج أبو الشيخ[٣] عن الحسن في الآية قال: ذلك المنافق يعمل بالرياء وهو مشرك بعمله.

وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة[٤] في قوله: ﴿غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ﴾ قال: وقيعة تغشاهم.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس[٥] في قوله: ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ قل: هذه دعوتي.

وأخرج أبو الشيخ[٦] عنه ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ قال: صلاتي.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن زيد[٧] في الآية قال: أمري ومشيئتي ومنهاجي، وأخرجا عَنْ قتادة في قوله: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ أي: على هدى ﴿أَنَا۠ وَمَنِ اتَّبَعَنِى﴾.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/٢٧٦)، وسعيد بن منصور في «سننه» رقم (١١٤٦ ـ تفسير) بسند صحيح.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/٣٧٦) بسند ضعيف.

(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/٥٩٣).

(٤) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/٣٢٩)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٣/٢٧٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/٢٢٠٩) بسند صحيح.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/٢٢٠٩) بسند ضعيف.

(٦) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/٥٩٤).

(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/٣٧٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/٢٢٠٩) بسند صحيح.

[رسالة محمد ﷺ ماضية على سُنَّة الله في إرسال رجال من البشر إليهم]:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾.

قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا﴾ هذا رد على مَنْ قال: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ﴾ [الفرقان: ٧، الأنعام: ٨] أي: لم نبعث مِنْ الأنبياء إلى من قبلهم إلا رجالاً لا ملائكة. فكيف ينكرون إرسالنا إياك؟ وتدل[١] الآية على أن الله سبحانه لم يبعث نبيّاً مِنْ النساء ولا مِنْ الجنّ، وهذا يردّ على مَنْ قال: إن في النساء أربع نبيات: حواء، وآسية، وأم موسى، ومريم.

وقد كان بعثة الأنبياء من الرجال [٣/٩٧] دون النساء أمراً معروفاً عند العرب، حتى قال قيسَ بن عاصم[٢] في سَجاح المُتنبّئة:

أضحَتْ نبيتُنا أُنثى نُطيفُ بها ... وأصبحَتْ أنبياءُ اللّهِ ذُكرانا

فلعنةُ اللّه والأقوامِ كلِّهمُ ... على سَجاحٍ ومَنْ باللومِ أغرانا

﴿نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم﴾ كما نوحي إليك ﴿مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ﴾ أي: المدائن دون أهل البادية لغلبة الجفاء والقسوة على البدو، ولكون أهل الأمصار أتمَّ عقلاً وأكمل حلماً وأجلّ فضلاً ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ﴾ يعني: المشركين المنكرين لنبوّة محمد ﷺ؛ أي: أفلم يسر المشركون هؤلاء فينظروا إلى مصارع الأمم الماضية، فيعتبروا بهم حتى ينزعوا عما هم فيه من التكذيب ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ﴾ أي: لدار الساعة الآخرة، أو لحالة الآخرة على حذف الموصوف.

وقال الفراء[٣]: إن الدار هي الآخرة، وأضيف الشيء إلى نفسه لاختلاف

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٤٧٠). (٢) انظر: «غرر الخصائص» (ص٢٢٢).

(٣) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٥٥).

اللفظ كيوم الجمعة، وصلاة الأولى، ومسجد الجامع، والكلام في ذلك مُبين في كتب الإعراب.

والمراد بهذه الدار: الجنّة؛ أي: هي خير للمتقين من دار الدنيا. وقرئ «وللدار[١] الآخرة». وقرأ نافع وعاصم ويعقوب «أفلا تعقلون» بالتاء[٢] الفوقية على الخطاب. وقرأ الباقون[٣] بالتحتية.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ هذه الغاية المحذوف[٤] دلّ عليه الكلام، وتقديره: وما أرسلنا مِنْ قبلك يا محمد إلّا رجالاً ولم نُعاجل أممهم الذين لم يؤمنوا بما جاءوا به بالعقوبة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ مِنْ النصر بعقوبة قومهم، أو حتّى إذ استيأس[٥] الرسل مِنْ إيمان قومهم لانهماكهم في الكفر ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ﴾.

قرأ ابنُ عباس، وابن مسعود، وأبو عبد الرحمٰن السلمي، وأبو جعفر بن القعقاع، والحسن، وقتادة، وأبو رجاء العطاردي، وعاصم وحمزة والكسائي، ويحيى بن وثاب، والأعمش وخلف «كَذَبوا» بالتخفيف[٦]؛ أي: ظنّ القوم أن الرسل قد كذّبوهم فيما أخبروا به مِنْ العذاب ولم يَصْدقوا، وقيل: المعنى: ظنّ القوم أن الرسل قد كذبوا فيما ادعوا مِنْ نصرهم، وقيل: المعنى وظنّ الرسل أنها قد كذبتهم أنفسهم حين حدّثتهم بأنهم ينصرون عليهم، أو كذبهم رجاؤهم للنصر.

وقرأ الباقون «كُذِّبوا» بالتشديد[٧]، والمعنى عليها واضح؛ أي: ظنّ الرسل بأن قومهم قد كذبوهم فيما وعدوهم به من العذاب، ويجوز في هذا أن يكون فاعل ظنّ القوم المرسل إليهم على معنى: أنّهم ظنوا أنّ الرسل قد كُذِّبوا فيما جاءوا به من الوعد والوعيد.

---

(١) «روح المعاني» (١٢/ ٥٢٠). وهي قراءة شاذة.

(٢) «البحر المحيط» (٦/ ٣٣٤)، و«النشر» (٢/ ٢٥٧)، و«التيسير» (ص١٣٠)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٤٢٩). ومتن قرأ بالفوقية من كلمة (تعقلون) ابن عامر وأبو جعفر.

(٣) انظر: المصادر المتقدمة.

(٤) «الفريد» (٣/ ١٠٥)، و«التبيان» (٢/ ٧٤٧).

(٥) «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٤٧٢)، و«معاني القرآن» للفراء (٢/ ٥٦)، و«المحرر الوجيز» (٩/ ٣٩٤).

(٦) «جامع البيان» (٣/ ٣٩٢)، و«النشر» (٢/ ٢٢٢)، و«التيسير» (ص١٣٠)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ١٥)، و«فتح الباري» (٨/ ٢٧٧).

(٧) انظر: المصادر المتقدمة. قرأ الكوفيون وأبو جعفر (كُذبوا) بضم الكاف وكسر الذال مُخفّفة، وقرأ الباقون بتشديد الذال مع ضم الكاف (كُذّبوا) وأما قراءة (كَذَبوا) بفتحتين فشاذ.

وقرأ مجاهد وحميد «قد كَذَبوا» بفتح الكاف[(١)] والذال مخففتين على معنى: وظنّ قوم الرسل أنّ الرسل قد كَذَبوا؛ وقد قيل: إنّ الظنّ في هذه الآية بمعنى اليقين؛ لأنّ الرسل قد تيقنوا أنّ قومهم كذّبوهم، وليس ذلك مجرد ظنٍّ منهم. والذي ينبغي أنْ يُفسّر الظنّ باليقين في مثل هذه الصورة ويفسّر بمعناه الأصلي فيما يحصل فيه مجرد ظنّ فقط مِنْ الصور السابقة ﴿جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ أي: فجاء الرسل نصر الله سبحانه فجأةً، أو جاء قوم الرسل الذين كذبوهم نصرُ الله لرسله بإيقاع العذاب على المكذبين ﴿فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ﴾. قرأ عاصم «فَنُجّيَ» بنون واحدة[(٢)].

وقرأ الباقون «فَنُنجّي» بنونين[(٣)]، واختار أبو عُبيد[(٤)] القراءة الأولى؛ لأنها في مصحف عثمان كذلك.

وقرأ ابنُ محيصن «فنجا» على البناء[(٥)] للفاعل، فتكون مِنْ على القراءة الأولى في محل رفع على أنها نائب الفاعل، وتكون على القراءة الثانية في محل نصب على[(٦)] أنها مفعول، وعلى القراءة الثالثة في محل رفع على أنها فاعل، والذين نجّاهم الله هم الرسل ومَنْ آمن معهم، وهلك المُكذِّبون ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ عند نزوله بهم، وفيه بيان مَنْ يشاء الله نجاته من العذاب وهم من عدا هؤلاء المجرمين ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ﴾ أي: قصص الرسل ومن بعثوا إليه من الأمم، أو في قصص يوسف وإخوته وأبيه ﴿عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ والعبرة: الفكرةُ والبصيرة المُخّلصة مِنْ الجهل والحيرة.

وقيل: هي نوع مِنْ الاعتبار، وهي العبور مِنْ الطرف المعلوم إلى الطرف المجهول، وأولوا الألباب: هم ذوو العقول السليمة الذين يعتبرون بعقولهم، فيدرون

---

(١) «البحر المحيط» (٦/ ٣٣٤)، و«المحتسب» (١/ ٣٥٠)، و«القراءات الشاذة» (ص٦٥)، و«فتح الباري» (٨/ ٢٧٧).

(٢) «روح المعاني» (١٢/ ٥٣١)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ١٧)، و«التيسير» (ص١٣٠)، و«النشر» (٢/ ٢٩٦).

(٣) «البحر المحيط» (٦/ ٣٣٤)، و«روح المعاني» (١٢/ ٥٣١)، و«حاشية الشهاب» (٥/ ٢١٣)، و«النشر» (٢/ ٢٩٦). قراءة عاصم وابن عامر ويعقوب (فنجّى) بنون واحدة، وتشديد الجيم وفتح الياء، وقرأ الباقون (فننجي) بنونين مخففاً وإسكان الياء، وهما متواترتان وأما قراءة ابن محيصن فشاذة.

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٢/ ٤٧٤).

(٥) «القراءات الشاذة» (ص٦٥)، و«روح المعاني» (١٢/ ٥٣١)، و«البحر المحيط» (٦/ ٣٣٤).

(٦) «التبيان» (٢/ ٧٤٧).

ما فيه مصالح دينهم، وإنّما كان هذا القَصص عبرةً لما اشتمل عليه مِنْ الإخبارات المطابقة للواقع مع بُعد المدّة بين النبي ﷺ وبين الرسل الذين قصّ حديثهم، ومنهم يوسف وإخوته وأبوه مع كونه لم يطلع على أخبارهم ولا اتصل بأحبارهم ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ أي: ما كانَ هذا المقصوص الذي يدلّ عليه ذكر القصص وهو القرآن المشتمل على ذلك حديثاً يُفْترى و﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: ما قبله مِنْ الكتب المنزلة كالتوراة والإنجيل والزبور. وقرئ برفع «تصديقُ» على أنه خبر[1] مبتدأ محذوف؛ أي: هو تصديقُ وتفصيلُ كلِّ شيء من الشرائع المجملة المحتاجة إلى تفصيلها؛ لأنّ الله سبحانه لم يفرّط في الكتاب مِنْ شيء؛ وقيل: تفصيل كل شيء مِنْ قصة يوسف مع إخوته وأبيه.

قيل: وليس المراد به ما يقتضيه مِنْ العموم؛ بل المراد به الأصول والقوانين وما يؤول إليها ﴿وَهُدًى﴾ في الدُّنيا يهتدي به كل من أراد الله هدايته ﴿وَرَحْمَةً﴾ في الآخرة يرحم الله بها عباده العاملين بما فيه شرط الإيمان الصحيح، ولهذا قال: ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: يْصدّقون به وبما تضمنه من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وشرائعه وقدره، وأما مَنْ عداهم فلا ينتفع به ولا يهتدي بما اشتمل عليه مِنْ الهدى، فلا يستحق ما يستحقونه.

وقد أخرج ابن أبي حاتم[2] عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ قال: أي: ليسوا مِنْ أهل السماء كما قلتم.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة[3] في الآية قال: ما نعلم أَنّ الله أرسل رسولاً قط إلّا مِنْ أهل القرى؛ لأنهم كانوا أعلم وأحلم من أهل العمود.

وأخرج ابن أبي حاتم[4] عن الحسن في قوله: ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ قال: كيف عذّب الله قومَ نوح وقوم لوط وقوم صالح والأمم التي عذب الله.

---

(١) «التبيان» (٢/ ٦٧٥)، و«روح المعاني» (١٢/ ٥٣٣ ـ ٥٣٤). القراءة المتواترة نصب (تصديقَ) وقراءة الرفع شاذة.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢١٠) بسند ضعيف.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٣٨٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢١٠) بسند صحيح.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢١٠) بسند حسن.

وأخرج البخاري وغيره من طريق عروة(١) أنّه سأل عائشة عن قول الله سبحانه ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ قال: قلت: أَكُذِبوا أم كُذِّبوا؟ يعني: على هذه الكلمة مخففة أم مشددة؟ فقالت: بل (كُذِّبوا) تعني بالتشديد. قلت: والله لقد استيقنوا أَنّ قومهم كذّبوهم فما هو بالظن. قالت: أَجَلْ لعَمْري لقد استيقنوا بذلك. فقلتُ: لعلّها، وظنوا أنهم قد (كُذبوا) مخففة(٢) قالت: معاذ الله لم تكن الرسل لتظن ذلك بربِّها، قلت: فما هذه الآية؟ قالت: هم أتباع الرسل الذين آمنوا بهم، وصدقوهم وطال عليهم البلاء واستأخر عليهم النصر، حتى إذا استيأس الرسل ممن كذّبهم مِنْ قومهم وظنت الرسل أن أتباعهم قد كَذَّبوهم جاءهم نصر الله عند ذلك.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه عن عبد الله بن أبي مليكة: أن ابن عباس(٣) قرأها عليه ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ مخففة يقول: أُخْلفوا.

وقال ابن عباس(٤): كانوا بشراً، وتلا ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ﴾ [البقرة: ٢١٤] قال ابن أبي مليكة: وأخبرني عروة عن عائشة أنها خالفت ذلك وأبَتْه، وقالت: واللهِ ما وعد الله رسولَه مِنْ شيء إلّا علم أنه سيكون قبل أن يموت، ولكنه لم يزل البلاء بالرسل حتى ظنوا أن مَنْ معهم من المؤمنين قد كذّبوهم، وكانت تقرؤها مثقلة.

وأخرج ابن مردويه(٥) من طريق عروة عن عائشة: أن النبي ﷺ قرأ: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ مخففة.

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٤٦٩٥)، والنسائي رقم (١١٢٥٥)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٣٩٥، ٣٩٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢١١).

(٢) انظر: «فتح الباري» (٨/ ٣٦٧)، و«مجموع الفتاوى» (١٥/ ١٧٦ ـ ١٨٣).
قال الحافظ في «الفتح» (٨/ ٣١٧، ٣٦٨): «وهذا ظاهر في أنّها أنكرت القراءة بالتحقيق بناء على أن الضمير للرسل، وليس الضمير للرسل على ما بينته، ولا لإنكار القراءة بذلك معنى بعد ثبوتها، ولعلّها لم يبلغها ممّن يرجع إليه في ذلك.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٣٩٥)، والطبراني رقم (١١٢٤٥)، وهو عند البخاري رقم (٤٥٢٤، ٤٥٢٥).

(٤) انظر: التعليقة المتقدمة.

(٥) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٥٩٦).

وأخرج أبو عبيد، وسعيد بن منصور، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، [٣/٩٩] وابن مردويه من طرق عن ابن عباس[(١)] أنه كان يقرأ «قد كُذِبوا» مخففة. قال: يئس الرسل مِنْ قومهم أن يستجيبوا لهم، وظنّ قومهم أن الرسل قد كذّبوهم بما جاءوا به ﴿جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا﴾ قال: جاء الرسل نصرنا.

وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، وأبو الشيخ عن تميم[(٢)] بن حذلم قال: قرأت على ابن مسعود القرآن فلم يأخذ عليّ إلّا حرفين ﴿وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧] فقال: أتوه مخففة، وقرأت عليه ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ فقال: كُذِبوا مخففة. قال: استيأس الرسل من إيمان قومهم أن يؤمنوا بهم، وظنّ قومهم حين أبطأ الأمر أنهم قد كذبوا.

وأخرج ابن مردويه[(٣)] من طريق أبي الأحوص عنه قال: حفظت عن رسول الله ﷺ في سورة يوسف ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ خفيفة. وللسلف في هذا كلام يرجع إلى ما ذكرناه مِنْ الخلاف عن الصحابة.

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس[(٤)] ﴿فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ﴾ قال: فننجي الرسل ومن نشاء ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ وذلك أن الله بعث الرسل يدعون قومهم، فأخبروهم أن مَنْ أطاع الله نجا ومن عصاه عُذِّب وغوى.

وأخرج أبو الشيخ[(٥)] عنه قال: ﴿جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا﴾ العذاب.

وأخرج أبو الشيخ[(٥)] عن السدّي ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا﴾ قال: عذابه. وأخرج

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور في «سننه» رقم (١١٤٧ ـ تفسير)، والنسائي في «السنن الكبرى» رقم (١١٢٥٧)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٣/٣٨٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢١٢) بسند صحيح.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٢٩)، وسعيد بن منصور في «سننه» رقم (١١٥٠ ـ تفسير)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٣٩٠، ٣٩١)، والطبراني رقم (٨٦٧٥). وهو أثر صحيح.

(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٥٩٧).

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٤٠٠ ـ ٤٠١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢١٢، ٢٢١٣) بسند ضعيف.

(٥) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٥٩٨).

ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد[١] في قوله: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ﴾ قال: يوسف وإخوته.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ ﴿عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ قال[٢]: معروفة لذوي العقول.

وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن قتادة[٣] ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ قال: الْفِرْية: الكذبُ. ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ قال: القرآن يصدّق الكتب التي كانت قبله من كتب الله التي أنزلها على أنبيائه، كالتوراة والإنجيل والزبور، ويصدّق ذلك كله، ويشهد عليه أنَّ جميعه حقٌّ مِنْ عند الله ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ فصل الله بين حلاله وحرامه، وطاعتِه ومعصيته.

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٤٠٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢١٣) بسند صحيح.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢١٣) بسند ضعيف.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٤٠٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢١٣) بسند صحيح.

سورة الرعد

قد وقع الخلاف هل هي مكية أو مدنية؟ فروى النّحاس[١] في «ناسخه» عن ابن عباس أَنّها نزلت بمكة.

وروى أبو الشيخ وابن مردويه عنه[٢] أَنّها نزلت بالمدينة.

وممّن ذهب[٣] إلى أَنّها مكية: سعيد بن جبير، والحسن، وعكرمة، وعطاء، وجابر بن زيد.

وممّن ذهب[٤] إلى أَنّها نزلت بالمدينة: ابن الزبير والكلبي ومقاتل.

وقول ثالث: إنَّها مدنية إلّا آيتين منها فإنّهما نزلتا بمكة:

وهما: قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ [الرعد: ٣١].

وقيل قوله: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ﴾ [الرعد: ٣١].

وقد روي[٥] هذا عن ابن عباس أيضاً وقتادة.

وقد أخرَج ابنُ أبي شيبة والمروزي في «الجنائز» عَنْ جابر[٦] بن زيد قال: كان يُستحبّ إذا حُضِر الميتُ أَنْ يقرأ عنده سورةُ الرعد فإن ذلك يخفف عن الميت وإنَّه أهونُ لقبضه، وأيسرُ لشأنه.

---

(١) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٥٥٩).

(٢) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٥٩٩).

(٣) ذكره عنهم القرطبي في «تفسيره» (١٢/ ٥).

(٤) انظر «روح المعاني» (١٣/ ٥)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٥).

(٥) انظر: «الإتقان» (١/ ٣٦، ٤٥).

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣/ ٢٣٧)، وعزاه للمروزي ابن حجر في «التلخيص الحبير» (٢/ ١٠٤).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

[هذا القرآن وحي من عنده سبحانه إلى رسوله ﷺ]:

﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝١ ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ۝٢ وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ۝٣ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ۝٤﴾.

قولُه: ﴿الٓمٓرۚ﴾ قد تقدّم الكلام في هذه الحروف الواقعة في أوائل السور بما يغني عن الإعادة، وهو اسم للسورة مرفوع[1] المحل على أنه خبر مبتدأ محذوف، أو على أنه مبتدأ خبره ما بعده، والتقدير على الأول: هذه السورة اسمها هذا، والإشارة[2] بقوله: ﴿تِلۡكَ﴾ إلى آيات هذه السورة.

والمراد بالكتاب: السورة؛ أي: تلكَ الآيات آياتُ السورة الكاملة العجيبة الشأن، ويكون قوله: ﴿وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ﴾ مراداً به القرآن كله أي: هو الحقُّ البالغُ في اتصافه بهذه الصفة، أو تكون الإشارة بقوله: ﴿تِلۡكَ﴾ إلى آيات القرآن جميعه على أن المراد بالكتاب جميع القرآن ويكون قوله: ﴿وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ﴾ جملة مبينة لكون هذا المنزل هو الحق.

قال الفرّاء[3]: ﴿وَٱلَّذِيٓ﴾ رفع بالاستئناف وخبره ﴿ٱلۡحَقُّ﴾، قال: وإن شئت جعلت (الذي) خفضاً نعتاً للكتاب، وإن كانت فيه الواو كما في قوله:

إلى المَلِكِ القَرْمِ وابنِ الهُمامِ[4]

---

(١) «البحر المحيط» (٦/ ٣٤٣)، و«روح المعاني» (١٣/ ٧)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ١٨٩).

(٢) «البحر المحيط» (٦/ ٣٤٠)، و«روح المعاني» (١٣/ ٦ ـ ٧).

(٣) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٥٨).

(٤) وعجزه: وَليثِ الكتيبةِ في المُزْدَحَمْ. =

ويجوز أن يكون محل ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ الجرّ[١] على تقدير: وآيات الذي أنزل إليك، فيكون ﴿ٱلْحَقُّ﴾ على[٢] هذا خبراً لمبتدأ محذوف ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بهذا الحق الذي أنزله الله عليك.

قال الزجّاج[٣]: لما ذكر أنهم لا يؤمنون ذكر الدليل الذي يوجب التصديق بالخالق فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ والعَمَد: الأساطين جمع عماد؛ أي: قائمات بغير عَمَدٍ تعتمد عليه؛ وقيل: لها عَمَد ولكن لا نراه.

قال الزجاج[٣]: العَمَد قدرتُه التي يمسك بها السمٰوات، وهي غير مرئية لنا، وقُرِئ (عُمُد) على أنه جمع عَمود يُعمد به؛ أي: يسند إليه. قال النابغة[٤]:

وخبرُ الجنِّ إني قد أذِنْتُ لهم ... يبنون تدْمر بالصِّفاح والعُمُدِ

وجملة ﴿تَرَوْنَهَا﴾ مستأنفة[٥] استشهاد على رؤيتهم لها كذلك، وقيل: هي صفة لعمَدَ، وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: رفع السمٰوات ترونها بغير عمد، ولا ملجئ إلى مثل هذا التكلف.

[معنى الاستواء]:

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أي: استولى[٦] عليه بالحفظ والتدبير، أو استوى أمره، أو أَقبل على خلق العرش[٧]، وقد تقدّم الكلام على هذا مستوفى، والاستواء على

= يريد: إلى الملك القَرْم ابن الهمام ليثِ الكتيبة.

(١) «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٣٤٩)، و«مشكل إعراب القرآن» (١/ ٣٩٦).

(٢) «البحر المحيط» (٦/ ٣٤٣)، و«التبيان» (٢/ ٧٤٩)، و«روح المعاني» (١٣/ ٧).

(٣) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ١٣٦).

(٤) انظر: «ديوان النابغة» (ص٣٣). وقراءة (عُمُد) بالجمع قراءة شاذة انظر: «البحر المحيط» (٥/ ٣٥٩).

(٥) «تفسير أبي السعود» (٤/ ١٩٠)، و«التبيان» (٢/ ٧٥٠)، و«البحر المحيط» (٦/ ٣٤٤)، و«روح المعاني» (١٣/ ١٦).

(٦) خرج الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ في «تفسيره» (استوىٰ)؛ أي: استولى عن معتقد أهل السُّنَّة والجماعة، والذي عندهم «الاستواء»: العلو، والارتفاع، والاستقرار، والصعود.
انظر: «نونية ابن القيم» (١/ ٢١٥ ـ الهرَّاس)، و«اجتماع الجيوش الإسلامية» لابن القيِّم (ص١٠٧)، و«أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة» للالكائي (٢/ ٣٠٦). فالاستواء: صفة فعلية ثابتة لله ﷻ بالكتاب والسُّنَّة. [وقد تقدم بيانه عند تفسير الآية: ٥ من سورة طه، والآية: ٥٤ من سورة الأعراف، والآية: ٣ من سورة يونس].

(٧) انظر: المصادر في التعليقة المتقدمة.

العرش صفة لله سبحانه بلا كيف كما هو مقرّر في موضعه من علم الكلام.

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ﴾ أي: ذلّلهما[١] لما يراد منهما مِنْ منافع الخلق ومصالح العباد ﴿كُلٌّ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ﴾؛ أي: كلٌّ مِنْ الشمس والقمر يجري إلى وقت معلوم: وهو فناء الدنيا، وقيام الساعة التي تكوّر عندها الشمس ويخسف القمر وتنكدر النجوم وتنتثر[٢].

وقيل: المراد[٣] بالأجل المسمّى: درجاتهما ومنازلهما التي تنتهيان إليها لا يجاوزانها، وهي سَنَةٌ للشمس، وشَهْر للقمر ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ﴾ أي: يُصرّفه على ما يُريد، وهو أمر ملكوته وربوبيته ﴿يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي: يبيّنها وهي الآيات الدالة على كمال قدرته وربوبيته، ومنها ما تقدّم مِنْ رفع السماء بغير عمد، وتسخير الشمس والقمر وجريهما لأجل مسمى، والجملتان في محل[٤] نصب على الحال، أو خبر إنّ لقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ﴾ على أنّ الموصول صفة للمبتدأ.

[المشاهد الكونية في السماوات وفي الأرض وفي كوامن الحياة]:

والمراد من هذا تنبيه العباد أنّ مَنْ قدر على هذه الأشياء فهو قادر على البعث والإعادة، ولذا قال: ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ﴾ أي: لعلّكم عند مشاهدة هذه الآيات تُوقنون بذلك لا تشكّون فيه، ولا تمترون في صدقه، ولما ذكر الدلائل السماوية أتبعها بذكر الدلائل الأرضية فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ﴾ قال الفرّاء[٥]: بسطها طولاً وعرضاً.

وقال الأصمّ[٦]: إنّ المدّ: هو البَسْطُ إلى ما لا يُدرك منتهاه، وهذا المدّ الظاهر للبصر لا ينافي كريتها في نفسها لتباعد أطرافها ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ أي: جبالاً ثوابتَ، واحدها راسية لأنّ الأرض تَرسو بها؛ أي: تَثْبت، والإرْساء: الثبوتُ. قال عنترة[٧]:

فصبَرت عارفةً لذلك حُرّةً ترسو إذا نَفْسُ الجبانِ تَطلَّعُ

وقال جميل[٨]:

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٧). (٢) «جامع البيان» (١٣/ ٤١١ ـ ٤١٢).
(٣) قاله ابن عباس: «معالم التنزيل» (٣/ ٦)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٧).
(٤) «التبيان» (٢/ ٧٥٠)، و«روح المعاني» (١٣/ ١١)، و«الفريد» (٣/ ١١١).
(٥) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٥٨). (٦) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (١٣/ ١٩).
(٧) انظر: «ديوان عنترة» (ص٤٩). (٨) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٨).

أحبَّها والذي أَرْسى قواعدَهُ حتى إذا ظَهرت آياتُه بَطَنا

﴿وَأَنۡهَٰرٗاۖ﴾ أي: مياهاً جاريةً في الأرض فيها منافع الخلق، أو المراد: جعل فيها مجاري الماء ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ﴾ مِنْ كلِّ الثمرات متعلق بالفعل الذي بعده؛ أي: جعل فيها مِنْ كل الثمرات زوجين اثنين، الزوج يطلق على الاثنين(١)، وعلى الواحد المزاوج لآخر.

والمراد هنا بالزوج الواحد، ولهذا أكّد الزوجين بالاثنين لدفع توهم أنه أريد بالزوج هنا الاثنين، وقد تقدّم تحقيق هذا مستوفى؛ أي: جعل كل نوع من أنواع ثمرات الدنيا صِنْفين، إما في اللّونية: كالبياض والسواد ونحوهما، أو في الطعمية كالحلو والحامض ونحوهما، أو في القدر كالصغر والكبر، أو في الكيفية كالحرّ والبرد.

قال الفرّاء(٢): يعني بالزوجين هنا: الذكر والأنثى. والأول أولى.

﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ﴾ أي: يلبسه مكانه، فيصير أسود [٣/١٠٠] مظلماً بعدما كان أبيضَ منيراً، شبَّه إزالة نور الهدى بالظلمة بتغطية الأشياء الحسية بالأغطية التي تسترها، وقد سبق تفسير هذه في الأعراف.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: فيما ذُكر مِنْ مدّ الأرض وإثباتها بالجبال، وما جعله الله فيها مِنْ الثمرات المتزاوجة، وتعاقب النور والظلمة آيات بينة للناظرين المتفكرين المعتبرين ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ﴾ هذا كلام مستأنف(٣) مشتمل على ذكر نوع آخر مِنْ أنواع الآيات.

قيل: وفي الكلام حذف(٤)؛ أي: قِطَعٌ متجاورات، وغير متجاورات كما في قوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] أي: وتقيكم البرد. قيل: والمتجاورات: المُدن وما كان عامراً، وغير المتجاورات: الصحارى وما كان غير عامر.

وقيل: المعنى: متجاورات مُتدانيات، ترابها واحد وماؤها واحد، وفيها زرع وجنات، ثم تتفاوت في الثمار فيكون البعض حلواً والبعض حامضاً، والبعض طيباً

(١) انظر: «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (٢/٥٨).
(٢) في «معاني القرآن» للفراء (٢/٥٨).
(٣) «روح المعاني» (١٣/٤١)، و«تفسير أبي السعود» (٤/١٩٣).
(٤) «الفريد» (٣/١١٣)، و«التبيان» (٢/٧٥٠).

والبعض غير طيب، والبعض يصلح فيه نوع، والبعض الآخر نوع آخر ﴿وَجَنَّتٌ مِّنْ أَعْنَبٍ﴾ الجنات: البساتين.

قرأ الجمهور برفع[1] «جناتٌ» على تقدير: وفي الأرض جناتٌ، فهو معطوف على قِطَعٌ متجاورات، أو على تقدير: وبينها جناتٌ.

وقرأ الحسن بالنصب[2] على تقدير: وجعل فيها جناتٍ، وذكر سبحانه الزرع بين الأعناب والنخيل؛ لأنّه يكون في الخارج كثيراً كذلك، ومثله في قوله سبحانه: ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ [الكهف: ٣٢]. ﴿صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾، قرأ ابنُ كثير، وأبو عمرو، وحفص (وزرعٌ ونخيلٌ صنوانٌ وغيرُ صنوان) برفع[3] هذه الأربع عطفاً على جنات.

وقرأ الباقون[4] بالجرّ عطفاً على ﴿أَعْنَبٍ﴾. وقرأ مجاهد والسلمي بضم الصاد[5] من صُنْوان.

وقرأ الباقون[6] بالكسر، وهما لغتان.

قال أبو عُبيدة[7]: صِنْوان: جمع صنو، وهو أن يكون الأصل واحداً، ثم يتفرّع فيصير نخيلاً، ثم يحمل، وهذا قول جميع أهل اللغة والتفسير.

قال ابن الأعرابي[8]: الصِّنْو: المِثْل، ومنه قوله ﷺ: «عمُّ الرجل صِنْو أبيه». فمعنى الآية على هذا: أنّ أشجار النخيل قد تكون متماثلة وقد لا تكون.

قال في «الكشّاف»[9]: والصنوان جمع صِنْو، وهي النخلة لها رأسان وأصلها واحد، وقيل: الصنوان المجتمع، وغير الصنوان المتفرق. قال النحاس[10]: وهو

---

(١) «روح المعاني» (١٣/ ٤٢)، و«البحر المحيط» (٦/ ٣٤٩)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ١١).

(٢) «القراءات الشاذة» (ص٦٦)، و«روح المعاني» (١٣/ ٤٢)، و«البحر المحيط» (٦/ ٣٤٩). قراءة الحسن شاذة.

(٣) «البحر المحيط» (٦/ ٣٤٩)، و«التيسير» (ص١٣١)، و«المحتسب» (١/ ٣٥١)، و«القراءات الشاذة» (ص٦٦).

(٤) «النشر» (٢/ ٢٩٧)، و«البحر المحيط» (٦/ ٣٤٩)، و«التيسير» (ص١٣١).

(٥) «القراءات الشاذة» (ص٦٦)، «المحتسب» (١/ ٣٥١). قراءة ضم «الصاد» من كلمة «صُنوان» شاذة.

(٦) «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ١١)، و«روح المعاني» (١٣/ ٤٣)، و«البحر المحيط» (٦/ ٣٤٩)، و«التيسير» (ص١٣١).

(٧) في «مجاز القرآن» (١/ ٣٢٢).

(٨) انظر: «تهذيب اللغة» (١٢/ ٢٤٣).

(٩) (٣/ ٣٣٣).

(١٠) في «معاني القرآن» للنحاس (٣/ ٤٧٠).

كذلك في اللغة، يقال للنخلة إذا كانت فيها نخلة أخرى أو أكثر: صنوان، والصنو: المِثْل، ولا فرق بين التثنية والجمع إلّا بكسر النون في المثنى، وبما يقتضيه الإعراب في الجمع.

﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾، قرأ عاصم وابن عامر: (يُسْقى) بالتحتية[1] أي: يُسقى ذلك كلّه.

وقرأ الباقون بالفوقية[2] بإرجاع الضمير إلى جنّات، واختاره[3] أبو حاتم وأبو عُبيد وأبو عَمرو، قال أبو عمرو: التأنيث أحسن لقوله: ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ ولم يقل: بعضَه.

وقرأ حمزة والكسائي (يُفضل)[4] بالتحتية كما في قوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ وقرأ الباقون بالنون[5] على تقدير: ونحنُ نفضّل.

وفي هذا مِنْ الدلالة على بديع صنعه، وعظيم قدرته ما لا يخفى على مَنْ له عقل، فإنّ القطع المتجاورة والجنات المتلاصقة المشتملة على أنواع النبات مع كونها تُسقى بماء واحد، وتتفاضل في الثمرات في الأكل، فيكون طعم بعضها حلواً والآخر حامضاً، وهذا في غاية الجودة، وهذا ليس بجيد، وهذا فائق في حسنه، وهذا غير فائق ممّا يقطع مَنْ تفكّر واعتبر ونظر نظر العقلاء أنّ السبب المقتضي لاختلافها ليس إلّا قدرة الصانع الحكيم جلّ سلطانه وتعالى شأنه؛ لأن تأثير الاختلاف فيما يخرج منها ويحصل من ثمراتها لا يكون في نظر العقلاء إلّا لسببين:

إما اختلاف المكان الذي هو المَنْبت، أو اختلاف الماء الذي تُسقى به، فإذا كان المكان متجاوراً، وقِطَع الأرض متلاصقة، والماء الذي تُسقى به واحداً، لم يبق سبب للاختلاف في نظر العقل إلّا تلك القدرة الباهرة والصنع العجيب، ولهذا قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: يعملون على قضية العقل

(١) «التيسير» (ص١٣١)، و«زاد المسير» (٤/٣٠٣)، و«النشر» (٢/٢٩٧)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٢/١٩).

(٢) انظر: المصادر المتقدمة.

(٣) ذكره عنهم القرطبي في «تفسيره» (١٢/١٢).

(٤) «النشر» (٢/٢٩٧)، و«البحر المحيط» (٦/٣٤٩)، و«جامع البيان» (١٣/٤٢٨)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٢/١٩). وهما قراءتان متواترتان ومع حمزة والكسائي خلف.

(٥) انظر: المصادر المتقدمة.

وما يوجبه، غير مُهملين لما يقتضيه مِنْ التفكر في المخلوقات والاعتبار في العبر الموجودات.

وقد أخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن ابن عباس[١] في قوله: ﴿الٓمٓرۚ﴾ قال: أنا الله أَرَى.

وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عَنْ مجاهد[٢] ﴿الٓمٓرۚ﴾: فواتح يفتتح بها كلامَه.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه[٣] في قوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ﴾ قال: التوراة والإنجيل ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ قال: القرآنُ.

وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن قتادة[٤] نحوه.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس[٥] في قوله: ﴿رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ﴾ قال: وما يدريك لعلّها بعَمَدٍ لا ترونها.

وأخرج عبدُ الرزاق، وابنُ المنذر، وأبو الشيخ عنه[٦] في الآية قال: يقول: لها عَمَد ولكن لا ترونها؛ يعني: الأعماد.

وأخرج ابن جرير عن إياس بن معاوية[٧] في الآية قال: السماء مُقبَّبة على الأرض مثل القُبّة.

وأخرج ابن أبي حاتم[٨] عَنْ ابن عباس قال: السماء على أربعة أملاك كل زاوية مُوكّل بها مَلَك.

وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ[٩] في قوله: ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ﴾ قال: الدنيا.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٤٠٥) من طريق عطاء بن السائب، به.
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٣/ ٤٠٦) بسند حسن.
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٤٠٦، ٤٠٧) بسند حسن.
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٤٠٧) بسند صحيح.
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٤٠٩) بسند صحيح.
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٤٠٩/ ٤١٠) بسند صحيح.
(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٤١١)، وأبو الشيخ في «العظمة» رقم (٥٤٢) بسند صحيح.
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢١٥ ـ ٢٢١٦) بسند حسن.
(٩) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٤١٢)، عن مجاهد بسند صحيح.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عَنْ مجاهد[١] في قوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ قال: يقضيه وحدَه.

وأخرج ابنُ أبي حاتم[٢] عَنْ عبد الله بن عَمْرو قال: الدُّنيا مسيرة خمسمائة عام، أربعمائة خراب، ومائة عمران في أيدي المسلمين مِنْ ذلك مسيرة سنة. وقد روي عَنْ جماعة مِنْ السلف في ذلك تقديرات لم يأتِ عليها دليلٌ يصح.

وأخرج ابنُ جرير[٣] عَنْ عليّ بن أبي طالب قال: لما خلق اللهُ الأرضَ قَمصَتْ وقالت: أي: ربِّ تجعلُ عليّ بني آدم يَعْملون عليّ الخطايا ويجعلون عليّ الخَبَث؟ فأرسل الله فيها مِنْ الجبال ما ترون وما لا ترون، فكان إقرارها كاللَّحم تَرجْرج.

وأخرج أبو الشيخ[٤] عَنْ مجاهد في قوله: و﴿جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ قال: ذكراً وأنثى مِنْ كلِّ صنف.

وأخرج ابنُ جرير، وأبو الشيخ عَنْ قتادة[٥] في قوله: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ أي: يُلْبِسُ الليلَ النهار.

وأخرج ابنُ جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأَبو الشيخ عَنْ ابن عباس[٦] في قوله: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ قال: يريد الأرض الطيبة العَذِبة التي يخرج نباتها بإذن ربِّها، تجاورها السَّبْخة القبيحة المالحة التي لا تُخرج، وهما أرض واحدة، وماؤها شيء واحد، مِلْح أو عذب، ففُضِّلت إحداهما على الأخرى.

وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عَنْ قتادة[٧] في الآية قال: قرئ (متجاوراتٌ) قَريبٌ بعضُها مِنْ بعض.

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس[٨] في الآية قال: الأرض تُنْبت حُلواً، والأرض تُنْبت حامضاً، وهي متجاوراتٌ تُسْقى بماءٍ واحد.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٤١٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢١٧) بسند صحيح.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢١٨) بسند صحيح.
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٢٤/ ٩٦).
(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٦٠٢).
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٤١٥) بسند صحيح.
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٤١٧) بسند ضعيف.
(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٤١٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٢٠) بسند صحيح.
(٨) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٤١٨) بسند حسن.

وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، وابنُ جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه عن البراء[١] بن عازب في قوله: ﴿صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ قال: الصِّنوان: ما كان أصله واحداً وهو متفرّق، وغير صنوان: التي تَنْبت وحدها، وفي لفظ: صِنوان: النخلة في النخلة ملتصقة، وغير صنوان: النخلُ المتفرِّق.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[٢] ﴿صِنْوَانٌ﴾ قال: مجتمِع النخل في أصل واحد ﴿وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ قال: النخل المتفرّق.

وأخرج الترمذي وحسنه والبزار، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، وابن مردويه عن أبي هريرة[٣]، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ﴾ قال: «الدَّقَل والفارسيُّ والحُلْو والحامض».

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[٤] في الآية قال: هذا حامض، وهذا حلو، وهذا دَقَل، وهذا فارسي.

﴿۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٤٢٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٢٠، ٢٢١١)، وسعيد بن منصور في «سننه» رقم (١١٥٣ ـ تفسيره) بسند ضعيف منقطع.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٤٢٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٢٠) بسند صحيح.

(٣) أخرجه الترمذي رقم (٣١١٨)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٤٣١). وهو حديث حسن.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٤٣٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٢١) بسند صحيح.

قوله: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ أي: إنْ تعجب يا محمد من تكذيبهم لك بعد ما كنتَ عندهم مِنْ الصادقين؛ فأعجب منه تكذيبهم بالبَعْث، والله تعالى لا يجوز[(١)] عليه التعجب؛ لأنّه تغير النفس بشيء تَخْفى أسبابُه، وإنما ذكر ذلك ليعجب منه رسولُه وأتباعه.

قال الزّجاج[(٢)]: أي: هذا موضوع عجب أيضاً أنهم أنكروا البعث، وقد بيَّن لهم مِنْ خلق السمٰوات والأرض ما يدل على أن البعث أسهل في القدرة، وقيل: الآية في مُنكري الصانع؛ أي: إنْ تعجب مِنْ إنكارهم الصانع مع الأدلة الواضحة بأن المتغير لا بدّ له من مغير، فهو محل التعجب، [٣/١٠١] والأول أولى لقوله: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وهذه الجملة[(٣)] في محل رفع على البدلية من ﴿قَوْلُهُمْ﴾، ويجوز أَنْ تكون في محل نصب[(٤)] على أَنّها مَقُول القول، والعجب على الأول كلامهم، وعلى الثاني تكلّمهم بذلك، والعامل في «أئذا» ما يفيده قوله: ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وهو: نُبعث أو نُعاد، والاستفهام[(٥)] منهم للإنكار المفيد لكمال الاستبعاد، وتقديم الظرف في قوله: ﴿لَفِى خَلْقٍ﴾ لتأكيد[(٦)] الإنكار بالبعث، وكذلك تكرير الهمزة في قوله: ﴿أَءِنَّا﴾. ثم لما حكى الله سبحانه ذلك عنهم حكم عليهم بأمور ثلاثة:

---

(١) بل العَجَب صفة من صفات الله ﷻ الفعلية الخبرية الثابتة له بالكتاب والسُّنَّة.
● قال ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/٤٣٢): «وإن تعجب يا محمد من هؤلاء المشركين المتخذين ما لا يضرُّ ولا ينفع آلهة يعبدونها من دوني فعجبٌ قولهم: أئذا كنا تراباً وبلينا فعُدِمنا ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ إنا لمجدَّد إنشاؤنا وإعادتنا خلقًا جديداً كما كنا قبل وفاتنا؟ تكذيبًا منهم بقدرة الله، وجحوداً للثواب والعقاب، والبعث بعد الممات.
وأخرج ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/٤٢٢) عن قتادة قوله: «﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ﴾ إن عجبت يا محمد فعجبٌ قولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾. عجِبَ الرحمٰن تبارك وتعالى من تكذيبهم بالبعث بعد الموت» بسند صحيح.
انظر: «الحجة» (٢/٤٥٧)، و«إبطال التأويلات» (ص٢٤٥)، و«مجموع الفتاوى» لشيخ الإسلام ابن تيمية (٤/١٨١) (٦/١٢٣، ١٢٤).

(٢) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/١٣٨).

(٣) «الفريد» (٣/١١٥)، و«البحر المحيط» (٦/٣٥٢)، و«التبيان» (٢/٧٥١).

(٤) انظر: المصادر المتقدمة.

(٥) «الفريد» (٣/١١٥)، و«البحر المحيط» (٦/٣٥٢)، و«التبيان» (٢/٧٥١).

(٦) «روح المعاني» (١٣/٤٧)، و«تفسير أبي السعود» (٤/١٩٤).

الأول: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ﴾ أي: أولئك المنكرون لقدرته سبحانه على البعث هم المتمادون في الكفر الكاملون فيه.

والثاني: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ﴾ الأغلال: جمع غُلّ، وهو طَوق تشد به اليد إلى العُنق؛ أي: يُغلّون بها يوم القيامة، وقيل: الأغلال أعمالهم السيئة التي هي لازمة لهم لزوم الأطواق للأعناق.

والثالث: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ لا ينفكون عنها بحال من الأحوال، وفي توسيط ضمير[(١)] الفصل دلالة على تخصيص الخلود بمنكري البعث ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ﴾ السيئة: العقوبة المُهْلِكة، والحسنة: العافية والسلامة، قالوا هذه المقالة لِفَرْط إنكارهم وشدّة تصميمهم وتهالكهم على الكفر.

وقيل: معنى الآية: أَنَّهم طلبوا العقوبة قبل[(٢)] الحسنة، وهي الإيمان ﴿وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُۗ﴾.

قرأ الجمهور (مَثُلات) بفتح[(٣)] الميم وضمّ المثلثة جمع مَثُلة كسَمُرة، وهي العقوبة.

قال ابن الأنباري: المَثُلة: العقوبة التي[(٤)] تبقى في المعاقب شَيناً بتغيير بعض خَلْقه من قولهم: مثَّل فلان بفلان: إذا شان خلقه بقطع أنفه وسَمَل عينيه، وبَقَر بطنَه.

وقرأ الأعمش بفتح[(٥)] الميم وإسكان المثلثة تخفيفاً لثقل الضّمة، وفي لغة تميم بضم الميم والمثلثة جميعاً، واحدتها على لغتهم: مُثْلة، بضم الميم وسكون المثلثة مثل غُرْفة وغُرُفات.

---

(١) «روح المعاني» (١٣/ ٥٠)، و«البحر المحيط» (٦/ ٣٥٥)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ١٩٥).
(٢) «جامع البيان» (١٣/ ٤٣٤ ـ ٤٣٥)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ١٥).
(٣) «جامع البيان» (١٣/ ٤٣٥)، و«فتح الباري» (٨/ ٢٨١)، و«روح المعاني» (١٣/ ٥١)، و«البحر المحيط» (٦/ ٣٥٣).
(٤) «البحر المحيط» (٦/ ٣٥٣)، و«روح المعاني» (١٣/ ٥١).
(٥) «القراءات الشاذة» (ص٦٦)، و«المحتسب» (١/ ٣٥٤)، و«روح المعاني» (١٣/ ٥١). قراءة الجمهور بفتح الميم ثم ضم الثاء من كلمة (مَثُلات) هي المتواترة، وما عداها فشاذ.

وحُكي عَنْ الأعمش[١] في رواية أخرى أنّه قرأ هذا الحرف بضمها على لغة تميم. والمعنى: أَنّ هؤلاء يستعجلونك بإنزال العقوبة بهم، وقد مضت مِنْ قبلهم عقوبات أمثالهم مِنْ المكذّبين، فما لهم لا يعتبرون بهم، ويَحْذرون من حلول ما حلّ بهم، والجملة في محل[٢] نصب على الحال، وهذا الاستعجال من هؤلاء هو على طريقة الاستهزاء كقولهم: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ﴾ الآية [الأنفال: ٣٢].

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ﴾ أي: لذو تجاوز عظيم ﴿لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ﴾ أنفسهم باقترافهم الذنوب، ووقوعهم في المعاصي إنْ تابوا عن ذلك، ورجعوا إلى الله سبحانه، والجارّ والمجرور؛ أي: على ظلمهم في محل نصب[٣] على الحال؛ أي: حال كونهم ظالمين، و«على» بمعنى «مع»؛ أي: مع ظلمهم. وفي الآية بشارة عظيمة ورجاء كبير؛ لأنّ مِنْ المعلوم أن الإنسان حال اشتغاله بالظلم لا يكون تائباً، ولهذا قيل: إنّها في عصاة الموحدين خاصةً، وقيل: المراد بالمغفرة هنا: تأخير العقاب إلى الآخرة ليطابق ما حكاه الله مِنْ استعجال الكفار للعقوبة.

وكما تفيده الجملة المذكورة بعد هذه الآية، وهي ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ يعاقب العصاة المكذبين من الكافرين عقاباً شديداً على ما تقتضيه مشيئته في الدار الآخرة. ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ﴾ أي: هلّا أُنزل عليه آية غير ما قد جاء به مِنْ الآيات، وهؤلاء الكفار القائلون هذه المقالة هم المستعجلون للعذاب.

قال الزجاج[٤]: طلبوا غير الآيات التي أتى بها، فالتمسوا مثل آيات موسى وعيسى، فقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ﴾ تنذرهم بالنّار، وليس إليك من الآيات شيء. انتهى.

وهذا مكابرة مِنْ الكفار وعناد، وإلّا فقد أنزل الله على رسوله من الآيات ما يُغني البعض منه، وجاء في ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ﴾ بصيغة الحصر لبيان أنّه مرسل لإنذار

---

(١) «القراءات الشاذة» (ص٦٦)، و«المحتسب» (١/ ٣٥٤)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ١٥).
(٢) «الفريد» (٣/ ١١٥ ـ ١١٦)، و«التبيان» (٢/ ٧٥٢).
(٣) «التبيان» (٢/ ٧٥٢)، و«الفريد» (٣/ ١١٧)، و«روح المعاني» (١٣/ ٥٢).
(٤) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ١٤٠).

العباد، وبيان ما يحذرون عاقبته، وليس عليه غير ذلك، وقد فعل ما هو عليه، وأنذر أَبلغ إنذار، ولم يدع شيئاً مما يحصل به ذلك إلّا أتى به وأوضحه وكرّره، فجزاه الله عَنْ أمته خيراً.

﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ أي: نبيّ يدعوهم إلى ما فيه هدايتهم ورشادهم، وإنْ لم تقع الهداية لهم بالفعل ولم يقبلوها، وآيات الرسل مختلفة هذا يأتي بآية أو آيات لم يأت بها الآخر بحسب ما يعطيه الله منها، ومَنْ طلب مِنْ بعضهم ما جاء به البعض الآخر فقد بلغ في التعنت إلى مكان عظيم، فليس المراد من الآيات إلّا الدلالة على النبوّة لكونّها معجزة خارجة عَنْ القدرة البشرية، وذلك لا يختص بفرد منها، ولا بأفراد معينة.

وقيل: إنَّ المعنى: ولكل قوم هاد، وهو الله ﷻ فإنه القادر على ذلك، وليس على أنبيائه إلّا مجرد الإنذار. ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ الجملة مستأنفة[١] مسوقة لبيان إحاطته بالعلم سبحانه، وعلمه بالغيب الذي هذه الأمور المذكورة منه.

قيل: ويجوز أَنْ يكون الاسم الشريف خبراً[٢] لمبتدأ محذوف؛ أي: ولكل قوم هاد وهو الله.

وجملة ﴿يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ تفسير لهادٍ على[٣] الوجه الأخير، وهذا بعيد جدّاً، و«ما» موصولة؛ أي: يعلم الذي تحمله كل أنثى في بطنها مِنْ علقة، أو مُضْغة، أو ذكرٍ، أو أنثى، أو صَبيح، أو قبيح، أو سَعيد، أو شقي.

ويجوز أن تكون استفهامية؛ أيّ: يعلم أي شيء في بطنها، وعلى أيّ حال هو. ويجوز أَنْ تكون مصدرية أي: يعلم حَمْلَها ﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ الغيض: النقص؛ أي: يعلم الذي تغيضه الأرحام؛ أي: تنقصه، ويعلم ما تزداده.

---

(١) «التبيان» (٢/ ٧٥٢)، و«الفريد» (٣/ ١١٧)، و«البحر المحيط» (٦/ ٣٥٦).

(٢) «التبيان» (٢/ ٧٥٣)، و«روح المعاني» (١٣/ ٥٤)، و«الفريد» (٣/ ١١٧)، و«البحر المحيط» (٦/ ٣٥٦).

(٣) انظر: المصادر المتقدمة.

فقيل: المراد: نقص خِلْقة الحَمْل وزيادته، كنقص أصبع أو زيادتها[1]. وقيل: إنَّ المراد نقص مدّة الحمل على تسعة أشهر أو زيادتها، وقيل[2]: إذا حاضت المرأة في حال حَمْلها كان ذلك نقصاً في ولدها، وقيل: الغيضُ: ما تنقصه الأرحامُ من الدم، والزيادة ما تزداده مِنْه[3].

و «ما» في «ما تَغيض» ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ تحتمل[4] الثلاثة الوجوه المتقدّمة في ﴿مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾، ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ أي: كلُّ شيء مِنْ الأشياء التي من جملتها الأشياء المذكورة عند الله سبحانه بمقدار.

والمقدار: القَدْر الذي قدّره الله، وهو معنى قوله سبحانه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩] أي: كلُّ الأشياء عند الله سبحانه جارية على قدره الذي قد سبق وفرغ منه، لا يخرج عَنْ ذلك شيء.

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أَي: عالم كل غائب[5] عَنْ الحسّ، وكل مشهود حاضر، أو كل معدوم وموجود، ولا مانع من حمل الكلام على ما هو أعمّ من ذلك.

﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ أَي: العظيم الذي كلّ شيء دونه، المتعالي عما يقوله المشركون، أو المستعلي[6] على كل شيء بقدرته وعظمته وقهره، ثم لمّا ذكر سبحانه أنه يعلم تلك المغيبات لا يغادره شيء مِنْها، بيَّن أنَّه عالم بما يسرّونه في أنفسهم وما يجهرون به لغيره، وأنّ ذلك لا يتفاوت عنده فقال: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ فهو يعلم ما أسرّه الإنسان كعلمه بما جَهر به مِنْ خير وشر.

وقولهُ: ﴿مِّنكُم﴾ متعلّق بـ﴿سَوَآءٌ﴾ على معنى: يستوي[7] مِنْكم من أسرّ ومَنْ جهر، أو سرّ مِنْ أسرّ وجهر مِنْ جهر ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِٱلَّيْلِ﴾ أي: مستتر في الظلمة الكائنة في الليل متوار عن الأعين. يقال: خفي الشيء واستخفى؛ أي: استتر

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ١٧). (٢) «جامع البيان» (١٣/ ٤٤٥ ـ ٤٥١).
(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ١٧)، «جامع البيان» (١٣/ ٤٥٦).
(٤) «التبيان» (٢/ ٧٥٣)، و«الفريد» (٣/ ١١٧)، و«الكشاف» (٣/ ٣٣٥)، و«روح المعاني» (١٣/ ٥٤).
(٥) «أحكام القرآن» لابن العربي (٣/ ١٠٩٦). (٦) «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ١٤).
(٧) «معان القرآن» للزجاج (٣/ ١٤١).

وتوارى ﴿وَسَارِبٌ بِٱلنَّهَارِ﴾ قال الكسائي[(١)]: سَرَبَ يَسْرُب سَرَباً وسُروباً: إذا ذهب. ومِنْه قول الشاعر:

وكلُّ أناسٍ قاربوا قيدَ فحلِهم ونحنُ خلعنا قَيدَه فهو ساربُ[(٢)]

أي: ذاهبٌ. وقال القُتَيبي[(٣)]: سَارِبٌ بالنهار مُتصرّف في حوائجه بسرعةٍ، من قولهم: أسرب الماء. قال الأصمعي[(٤)]: حلّ سربه؛ أي: طريقته.

وقال الزجاج[(٥)]: معنى الآية: الجاهر بنطقه، والمضمر في نفسه، والظاهر في الطرقات، والمستخفي في الظلمات علم الله فيهم جميعاً سوى، وهذا ألصق بمعنى الآية كما تفيده المقابلة بين المستخفي والسارب[(٦)] فالمستخفي: المستتر، والسارب: البارز الظاهر.

﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ﴾ الضمير في «له»[(٧)] راجع إلى مَنْ في قوله: ﴿مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ﴾ أي: لكلٍّ مِنْ هؤلاء معقبات.

والمعقبات المتناوبات التي يخلف كل واحد منها صاحبه، ويكون بدلاً منه، وهم الحفظة مِنْ الملائكة في قول عامة المفسرين.

قال الزجّاج[(٨)]: المعقبات ملائكة يأتي بعضُهم بعقب بعض، وإنما قال: معقبات مع كون الملائكة ذكوراً لأنّ الجماعة من الملائكة [٣/١٠٢] يقال لها: مُعقِّبة، ثم جمع معقبة على معقبات: ذكر معناه الفرّاء[(٩)]؛ وقيل: أنث لكثرة ذلك منهم نحو نسّابة وعلّامة.

قال الجوهري[(١٠)]: والتعقب العود بَعد البدء. قال الله تعالى: ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ [النمل: ١٠، والقصص: ٣١] وقرئ (معاقيب)[(١١)] جمع مُعقِّب ﴿مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾ أي: من بين يدي من له المعقبات.

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٢/٢٦). (٢) قائله: الأخنس بن شهاب التغلبي.
(٣) انظر في: «تفسير الغريب» لابن قتيبة (ص٢٢٤).
(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٢/٢٦)، و«النحاس في معاني القرآن» (٣/٤٧٧).
(٥) في «معاني القرآن» للزجاج (٣/١٤٢). (٦) «تهذيب اللغة» (١٢/٤١٤).
(٧) «التبيان» (٢/٧٥٣ ـ ٧٥٤). (٨) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/١٤٢).
(٩) في «معاني القرآن» للفراء (٢/٦٠). (١٠) في «الصحاح» (١/١٨٦).
(١١) «القراءات الشاذة» (ص٦٦)، و«المحتسب» (١/٣٥٥)، و«البحر المحيط» (٦/٣٦٠). وهي قراءة شاذة.

والمراد: إنّ الحفظة مِنْ الملائكة مِنْ جميع جوانبه، وقيل: المراد بالمعقِّبات: الأعمال، ومعنى ﴿مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾: ما تقدم منها وما تأخر ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ أي: مِنْ أجل أمر الله، وقيل: يحفظونه مِنْ بأس الله إذا أذنب بالاستمهال له والاستغفار حتى يتوب.

قال الفراء[١]: في هذا قولان: أحدهما: أنه على التقديم والتأخير، تقديره: له معقبات مِنْ أمر الله يحفظونه مِنْ بين يديه ومن خلفه، والثاني: أن كون الحفظة يحفظونه هو ممّا أمر الله به.

قال الزجّاج[٢]: المعنى: حفظهم إياه من أمر الله؛ أي: مما أمرهم به لا أنهم يقدرون أَنْ يدفعوا أمر الله.

قال ابن الأنباري: وفي هذا قول آخر، وهو أن «من» بمعنى الباء[٣]؛ أي: يحفظونه بأمر الله؛ وقيل[٤]: إنّ «من» بمعنى عن؛ أي: يحفظونه عن أمر الله بمعنى: مِنْ عند الله. لا من عند أنفسهم؛ كقوله: ﴿أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ﴾ [قريش: ٤] أي: عن جوع، وقيل: يحفظونه مِنْ ملائكة العذاب؛ وقيل: يحفظونه من الجن.

واختار ابن جرير[٥] أن المعقبات المواكب بين أيدي الأُمراء، على معنى أن ذلك لا يَدْفع عنه القضاء. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ﴾ مِنْ النعمة والعافية ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ مِنْ طاعة الله.

والمعنى: أنّه لا يسلب قوماً نعمةً أنعم بها عليهم حتى يغيروا الذي بأنفسهم من الخير والأعمال الصالحة، أو يغيروا الفطرة التي فطرهم الله عليها.

قيل: وليس المراد، أنّه لا ينزل بأحد من عباده عقوبة حتى يتقدم له ذنب؛ بل قد تنزل المصائب بذنوب الغير كما في الحديث «أنه سأل رسول الله سائل فقال: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كَثُر الخَبَثِ»[٦].

﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا﴾ أي: هلاكاً وعذاباً ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ﴾؛ أي: فلا ردّ له. وقيل: المعنى: إذا أراد الله بقومٍ سوءاً أعمى قلوبهم حتى يختاروا ما فيه البلاء ﴿وَمَا

---

(١) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٦٠). (٢) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ١٤٣).
(٣) انظر: «زاد المسير» (٤/ ٣١٢)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٢٩).
(٤) «التبيان» (٢/ ٧٥٤)، و«الفريد» (٣/ ١٢١ ـ ١٢٢).
(٥) في «جامع البيان» (١٣/ ٤٦٢). (٦) تقدم نصه وتخريجه.

﴿لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ يلي أمرهم ويلتجئون إليه، فيدفع عنهم ما ينزل بهم من الله سبحانه مِنْ العقاب، أو من ناصر ينصرهم ويمنعهم مِنْ عذاب الله. والمعنى: أنه لا رادّ لعذاب الله ولا ناقض لحكمه.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن الحسن[1] في قوله: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ قال: إنْ تعجب يا محمد مِنْ تكذيبهم إياك فعجب قولهُم.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن زيد[2] في الآية قال: إنْ تعجب يا محمد مِنْ تكذيبهم، وهم رأوا مِنْ قدرة الله وأمره، وما ضرب لهم من الأمثال وأراهم مِنْ حياة الموتى والأرض الميتة ﴿فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أو لا يرون أنّه خلقهم مِنْ نطفة، فالخلق مِنْ نطفة أشد من الخلق من ترابٍ وعظام.

وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة[3] في قوله: ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ﴾ قال: العقوبات.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة[4] في ﴿ٱلْمَثُلَٰتُ﴾ قال: وقائع الله في الأمم فيمن خلا قبلَكم.

وأخرج ابن أبي حاتم[4] عن ابن عباس قال: ﴿ٱلْمَثُلَٰتُ﴾ ما أصاب القرون الماضية مِنْ العذاب.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن سعيد بن المسيب[5] قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ قال رسول الله ﷺ: «لولا عفو الله وتجاوزه ما هنأ لأحدٍ العيش، ولولا وعيده وعقابه لاتكلّ كلُّ أحد».

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٢١) بسند ضعيف.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٤٣٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٢١) بسند صحيح.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٤٣٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٢٣)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٣١، ٣٣٢) بسند صحيح.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٢٣)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٤٣٦) بسند صحيح.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٢٤) مرسلاً بسند ضعيف.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس[١] ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ قال: داعٍ.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد[٢] في قوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ قال: المنذر محمد ﷺ، ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ نبيّ يدعوهم إلى الله.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير[٣] قال: مُحمد المنذر والهادي الله ﷻ.

وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس[٤] نحوه.

وأخرج ابن جرير عن مجاهد[٥] نحوه أيضاً.

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس[٦] قال: رسول الله ﷺ هو المنذر وهو الهادي.

وأخرج ابن جرير عن عكرمة[٧] وأبي الضحى[٨] نحوه.

وأخرج ابن جرير، وابن مردويه، وأبو نعيم في «المعرفة»، والديلمي، وابن عساكر، وابن النجار عن ابن عباس[٩] قال: لما نزلت ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾: «وضع رسولُ الله ﷺ يده على صدره فقال: أنا المنذر، وأومأ بيده إلى منكب عليّ فقال: أنتَ الهادي يا علي بك يهتدي المهتدون مِنْ بعدي».

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٤٤٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٢٥)، بسند صحيح.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٤٤١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٢٤) بسند صحيح.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٤٣٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٢٤) من طريق سفيان، به.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٤٤٠) بسند ضعيف.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٤٣٩) من طريق هشيم، به.

(٦) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٦٠٨).

(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٤٣٨) بسند حسن.

(٨) وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٤٣٨) بسند حسن.

(٩) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٤٤٣)، وأبو نعيم في «المعرفة» (١/ ١٠٥ رقم ٣٤٤)، وابن عساكر في «تاريخ مدينة دمشق» (٤٢/ ٣٥٩) بسند ضعيف جدّاً.

قال ابن كثير في «تفسيره»[١]: وهذا الحديث فيه نكارة شديدة.

وأخرج ابن مردويه[٢] عَنْ أبي برزة الأسلمي قال: سمعتُ رسول الله ﷺ فذكر نحوه.

وأخرج ابن مردويه[٣] والضياء في «المختارة» عن ابن عباس مرفوعاً نحوه أيضاً.

وأخرج عبد الله بن أحمد في «زوائد المسند»، وابن أبي حاتم، والطبراني في «الأوسط»، والحاكم وصححه، وابن مردويه، وابن عساكر عن عليّ بن أبي طالب[٤] في الآية نحوه أيضاً.

وأخرج ابن جرير، عن الضحاك[٥] ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ قال: كل أنثى مِنْ خلق الله.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير[٦] في الآية قال: يعلم ذكراً هو أو أنثى ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾ قال: هي المرأة ترى الدم في حملها.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ عن مجاهد[٧] في قوله: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾ قال: خروج الدم ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ قال: استمساكُه.

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[٨] ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾ قال: أن ترى الدم في حملها ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ قال: في التسعة أشهر.

---

(١) في «تفسيره» (٨/ ١١٠).

(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٦٠٨).

(٣) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٦٠٨). وهو في «المختارة» (١٠/ ١٥٩).

(٤) أخره عبد الله بن أحمد (٢/ ٣٠٦ رقم ١٠٤١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٢٤)، والطبراني في «الأوسط» رقم (١٣٦١)، والحاكم (٣/ ١٢٩)، وابن عساكر (٤٢/ ٣٥٩) بسند ضعيف.
قال الذهبي معقباً على تصحيح الحاكم: «بل كذبٌ، قَبّح اللهُ واضعَه».

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٤٤٩) بسند ضعيف.

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٤٤٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٢٦) من طريق خصيف، به.

(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٤٤٦) بسند صحيح.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٢٦) من طريق خصيف، عن مجاهد وسعيد بن جبير، عن ابن عباس.

وأخرج ابن أبي حاتم[١] من طريق الضحاك عنه في الآية قال: ما تزداد على تسعة، وما تنقص مِنْ التسعة.

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ[٢] عنه أيضاً في الآية ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾ قال: السِّقْط ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ ما زادت في الحمل على ما غاضت حتى ولدته تماماً، وذلك أنّ مِنْ النساء مَنْ تحمل عشرة أشهر، ومنهنّ مَنْ تحمل تسعة أشهر، ومنهنّ مَنْ تنقص، فذلك الغيض والزيادة التي ذكر الله، وكل ذلك يعلمه تعالى.

وأخرج ابن أبي حاتم[٣] عنه أيضاً في قوله: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ قال: السرّ والعلانية.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم وأبو الشيخ[٤] في قوله: ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِٱلَّيْلِ﴾ قال: راكبٌ رأسَه في المعاصي ﴿وَسَارِبٌ بِٱلنَّهَارِ﴾ قال: ظاهر بالنهار بالمعاصي.

وأخرج أبو عبيد، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ عن ابن عباس[٥] ﴿وَسَارِبٌ بِٱلنَّهَارِ﴾ قال: الظاهر.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم[٦] عنه في الآية قال: هو صاحب ريبة مستخف بالليل، وإذا خرج بالنهار أرى الناس أنه بريء من الإثم.

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني في «الكبير»، وابن مردويه، وأبو نعيم في «الدلائل» من طريق عطاء بن يسار عن ابن عباس[٧]: أن سبب نزول

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٢٦) بسند ضعيف.

(٢) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٦٠٩).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٢٨) بسند ضعيف.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٤٤٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٢٦) بسند ضعيف.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٤٥٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٢٩) بسند ضعيف.

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٤٥٣ ـ ٤٥٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٢٩) بسند ضعيف.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٣٢) من كلام عطاء بن يسار وليس فيه ابن عباس. وأخرجه الطبراني في «الكبير» رقم (١٠٧٦٠)، وفي «الأوسط» رقم (٩١٢٧)، وأبو نعيم في «الدلائل» رقم (١٥٧) بسند ضعيف.

=

الآية قدوم عامر بن الطُّفيل، وأَرْبِد بن قيس على رسول الله ﷺ في القصة المشهورة، وأنه لما أُصيب عامر بن الطفيل بالغُدّة نزل قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ قال: المعقبات مِنْ أمر الله يحفظون محمداً ﷺ، ثم ذكر أربد بن قيس وما قتله، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ﴾ [الرعد: ١٣].

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه عن ابن عباس(١) في قوله: ﴿مُعَقِّبَٰتٞ﴾ الآية قال: هذه للنبي ﷺ خاصة.

وأخرج ابن أبي حاتم(٢) عنه ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ قال: ذلك الحفظ من أمر الله بأمر الله.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم(٣) عنه أيضاً ﴿مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ قال: بإذن الله.

وأخرج ابن جرير(٤) عن قتادة مثله.

وأخرج ابن جرير(٥) عن ابن عباس في الآية قال: وليّ السلطان يكون عليه الحراس يحفظونه مِنْ بين يديه ومن خلفه، يقول: يحفظونه مِنْ أمري، فإني إذا أردتُ بقوم سوءاً فلا مردّ له.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عنه(٦) في الآية قال: الملوك يتخذون الحرسَ يحفظونه مِنْ أمامه ومِنْ خلفه وعن يمينه وعن شماله

= قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٤٢): رواه الطبراني في «الأوسط» و«الكبير» وفي إسنادهما عبد العزيز بن عمران، وهو ضعيف.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٢٩) من طريق عمرو بن مالك، عن أبي الجوزاء. وليس فيه ابن عباس.
وأخرجه الطبراني رقم (١٢٧٨٩) من طريق أبي الجوزاء، عن ابن عباس.

(٢) عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٦١٢) إلى أبي الشيخ، عن ابن عباس.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٤٥٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٣٢) بسند صحيح.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٤٦٤) بسند صحيح، والقراءة فيه شاذة، «المحتسب» (١/ ٣٥٥).

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٤٦٠ ـ ٤٦١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٢٩) بسند ضعيف.

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٤٦٠) بسند ضعيف.

يحفظونه من القتل، ألم تسمع أن الله يقول: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ﴾؟ أي: إذا أراد سوءاً لم يُغنِ الحرسُ عنه شيئاً.

وأخرج ابن جرير عن عكرمة[١] في الآية قال: هؤلاء الأمراء.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[٢] قال: هم الملائكة تُعقِّب بالليل تكتب على ابن آدم.

وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه[٣] في الآية قال: ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، فإذا جاء قدر الله خلُّوا عنه.

وأخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ عن عليّ[٤] في الآية قال: ليس من عبد إلّا ومعه ملائكة يحفظونه مِنْ أن يقع عليه حائط، أو يتردّى في بئر، أو يأكله سبع أو غَرق أو حَرَقٌ، فإذا جاء القدر خلُّوا بينه وبين القدر، وقد ورد في ذكر الحفظة الموكلين بالإنسان أحاديث كثيرة مذكورة في كتب الحديث. [٣/١٠٣]

[من مظاهر قدرة الله وألوهيته]:

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ١٢ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ ١٣ لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۚ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ١٤ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ۩ ١٥ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ١٦﴾.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٤٦١) من طريق شعبة، عن عكرمة.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٣٠) بسند ضعيف.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٣٢)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٤٥٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٣٢) بسند صحيح.

(٤) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٦١٥).

[هذا مثل للحق وأهله وللباطل وحزبه]:

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾﴾.

لما خوّف سبحانه عباده بإنزال ما لا مردّ له، أتبعه بأمورٍ ترجى من بعض الوجوه ويُخاف مِنْ بعضها، وهي البَرْقُ والسحاب والرعد والصاعقة وقد مرّ في أول البقرة تفسير هذه الألفاظ وأسبابها.

وقد اختُلف في وجه انتصاب ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ فقيل: على المصدرية(١)؛ أي: لتخافوا خوفاً، ولتطمعوا طمعاً.

وقيل: على العلِّة(٢) بتقدير إرادة الخوف والطمع لئلا يختلف فاعل الفعل المعلِّل وفاعل المفعول له، أو على الحالية مِنْ البرق، أو من المخاطبين بتقدير ذوي خوف. وقيل غير ذلك مما لا حاجة إليه.

قيل: والمراد بالخوف هو الحاصل مِنْ الصواعق، وبالطمع هو الحاصل في المطر.

وقال الزجّاج(٣): الخوفُ للمسافر لما يتأذى به مِنْ المطر، والطمع للحاضر؛ لأنّه إذا رأى البرق طمع في المطر الذي هو سبب الخَصْب ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ التعريف للجنس والواحدة سحابة، والثِّقَال جمع ثقيلة. المراد: الله سبحانه يجعل السحابَ التي ينشئها ثقالاً بما يجعله فيها مِنْ الماء.

﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾؛ أي: يسبح الرعد نفسُه بحمد الله؛ أي: ملتبسّاً بحمده، وليس هذا بمستبعد، ولا مانع مِنْ أن ينطقه الله بذلك ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ

---

(١) «الفريد» (٣/ ١٢٣)، و«مشكل إعراب القرآن» (١/ ٤٤٢).

(٢) «التبيان» (٢/ ٧٥٤)، و«البحر المحيط» (٦/ ٣٦٣ ـ ٣٦٤)، و«الفريد» (٣/ ١٢٣).

(٣) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ١٤٢).

﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤]. وأما على تفسير[١] الرعد بملَك مِنْ الملائكة فلا استبعاد في ذلك. ويكون ذكره على الإفراد مع ذكر الملائكة بعده لمزيد خصوصية له، وعناية به؛ وقيل: المراد: ويسبح سامعو الرعد؛ أي: يقولون: سُبحان الله والحمد لله ﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾؛ أي: ويسبح الملائكة مِنْ خيفة الله سبحانه؛ وقيل: من خيفة الرعد.

وقد ذكر جماعة مِنْ المفسرين أن هؤلاء الملائكة هم أعوان الرعد، وأن الله سبحانه جعل له أعواناً ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ مِنْ خلقه فيهلكه، وسياق هذه الأمور هنا للغرض الذي سيقت له الآيات التي قبلها، وهي الدلالة على كمال قدرته ﴿وَهُمْ يُجَـٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾ الضمير[٢] راجع إلى الكفار المخاطبين في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾؛ أي: وهؤلاء الكفرة مع هذه الآيات التي أراهم الله يجادلون في شأن الله سبحانه فينكرون البعث تارة، ويستعجلون العذاب أخرى، ويُكذِّبون الرسلَ، ويعصون الله، وهذه الجملة في محل نصب على الحال[٣]، ويجوز أن تكون مستأنفة.

﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ قال ابن الأعرابي[٤]: المِحَال: المَكْر؛ والمكر من الله: التدبير بالحق.

وقال النحاس[٥]: المكر مِنْ الله إيصال المكروه إلى مَنْ يستحقه من حيث لا يشعر.

وقال الأزهري[٦]: المِحَال: القوّة والشدّة، والميم أصلية، وما حلتُ فلاناً مِحالاً أيُّنا أشدّ.

وقال أَبو عُبيدة[٧]: المِحَال: العقوبة والمكروه.

قال الزّجاج[٨]: يقال: ماحلتُه محالاً: إذا قاويتُه حتى يتبينَ أيكما أشدّ، والمُحْل في اللغة: الشدّة.

---

(١) «الوسيط» للواحدي (٣/ ١٠)، و«جامع البيان» (١٣/ ٤٧٦)، و«معالم التنزيل» (٣/ ١١).
(٢) «البحر المحيط» (٦/ ٣٦٦)، و«روح المعاني» (١٣/ ٨٥)، و«الكشاف» (٣/ ٣٤٠).
(٣) «الفريد» (٣/ ١٢٥)، و«البحر المحيط» (٦/ ٣٦٦)، و«روح المعاني» (١٣/ ٨٥).
(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٢/ ٣٩).
(٥) في «معاني القرآن» للنحاس (٣/ ٤٨٥).
(٦) في «تهذيب اللغة» (٥/ ٩٦).
(٧) في «مجاز القرآن» (١/ ٣٢٥).
(٨) «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ١٤٣).

وقال ابن قتيبة[١]: أي: شديد الكيد. وأصله مِنْ الحيلة، جُعل الميم كميم المكان، وأصله مِنْ الكون، ثم يقال: تمكنتُ.

قال الأزهري[٢]: غلط ابنُ قتيبة أن الميم فيه زائدة؛ بل هي أصلية، وإذا رأيت الحرف على مثال فِعَال أوّله ميم مكسورة فهي أصلية مثل: مِهاد ومِلاك ومِراس وغير ذلك مِنْ الحروف.

وقرأ الأعرج «وهو شديد المَحَال» بفتح الميم[٣]. وقد فُسِّرت هذه القراءة بالحول.

وللصحابة والتابعين في تفسير المِحَال هنا أقوال[٤] ثمانية: الأول: العداوة، الثاني: الحَول، الثالث: الأخْذ، الرابع: الحِقْد، الخامس: القوّة، السادس: الغَضَب، السابع: الهلاك، الثامن: الحِيلة.

﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ﴾ إضافة الدعوة إلى الحقِّ للملابسة؛ أي: الدعوة الملابسة للحق المختصة به التي لا مدخل للباطل فيها بوجهٍ من الوجوه كما يقال كلمة الحق.

والمعنى: أنها دعوةٌ مجابة واقعة في موقعها، لا كدعوة من دونه. وقيل: الحقُّ هو الله سبحانه؛ والمعنى: أنّ لله سبحانه دعوةَ المدعوّ الحق وهو الذي يسمع فيجيب.

وقيل: المراد بدعوة الحق ها هنا: كلمة التوحيد والإخلاص؛ والمعنى: لله مِنْ خلقه أن يوحّدوه ويخلصوا له. وقيل: دعوة الحق دعاؤه سبحانه عند الخوف فإنه لا يدعي فيه سواه كما قال تعالى: ﴿ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ﴾ [الإسراء: ٦٧].

وقيل: الدعوة: العبادة، فإنّ عبادة الله هي الحق والصدق ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ﴾؛ أي: والآلهة الذين يدعونهم، يعني: الكفار من دون الله ﷻ

---

(١) في «تفسير غريب القرآن» (ص٢٢٦). (٢) في «تهذيب اللغة» (٥/ ٩٥).

(٣) «جامع البيان» (١٣/ ٤٨٣)، و«روح المعاني» (١٣/ ٨٨)، و«المحتسب» (١/ ٣٥٦)، و«البحر المحيط» (٦/ ٣٦٦)، و«القراءات الشاذة» (ص٦٦). وهي قراءة شاذة، أي فتح الميم مِنْ كلمة «المَحَال».

(٤) «جامع البيان» (١٣/ ٤٨٣ ـ ٤٨٤)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٤٠ ـ ٤١)، و«روح المعاني» (١٣/ ٨٨ ـ ٨٩).

- فالمماحلة والمحال. من صفات الله الفعلية الثابتة بالكتاب العزيز.

«الواسطية» (ص٢٢٢)، و«الكواشف الجلية» (ص٢٦٦).

لا يستجيبون لهم بشيء مما يطلبونه منهم كائناً ما كان، إلّا استجابةً كاستجابة الماء لمن بسط كفيه إليه مِنْ بعيد فإنّه لا يجيبه؛ لأنّه جماد لا يشعر بحاجته إليه، ولا يدري أنّه طلب منه أن يبلغ فاه، ولهذا قال: ﴿وَمَا هُوَ﴾؛ أي: الماء ﴿بِبَٰلِغِهِۦۚ﴾؛ أي: ببالغ فيه.

قال الزجاج[١]: إلا كما يُستجاب للذي يبسط كفيه إلى الماء يدعو الماء إلى فيه، والماء لا يستجيب، أعلمَ اللهُ سبحانه أنّ دعاءهم الأصنامَ كدعاء العطشان إلى الماء يدعوه إلى بلوغ فمه، وما الماء ببالغه.

وقيل: المعنى: أنّه كباسط كفيه إلى الماء ليقبض عليه فلا يحصل في كفه شيء منه، وقد ضربت العرب لمن سعى فيما لا يُدْركه مثلاً بالقبض على الماء، كما قال الشاعر:

فأَصْبَحْتُ مما كان بَيْني وبَيْنَها ... مِنَ الوُدّ مِثْلَ القَابِضِ المَاءِ باليَدِ[٢]

وقال الآخر:

ومَنْ يَأْمَنِ الدُّنْيا يَكُنْ مِثْلَ قَابِضٍ ... على المَاءِ خَانَتْهُ فُرُوُج الأصَابِعِ

وقال الفراء[٣]: إنّ المراد بالماء هنا: ماء البئر لأنّها معدن للماء، وأنه شبهه بمن مدّ يده إلى البئر بغير رشاء، ضرب الله سبحانه هذا مثلاً لمن يدعو غيره من الأصنام ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾؛ أي: يضلّ عنهم ذلك الدعاء فلا يجدون منه شيئاً، ولا ينفعهم بوجه من الوجوه؛ بل هو ضائع ذاهب.

﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾ إنْ كان المراد بالسجود معناه الحقيقي، وهو وضع الجبهة على الأرض للتعظيم[٤] مع الخضوع والتذلل، فذلك ظاهر في المؤمنين والملائكة ومُسلمي الجنّ.

وأمّا في الكفار فلا يصح تأويل السجود بهذا في حقّهم، فلا بُدَّ أن يحمل السجود المذكور في الآية على معنى: حقَّ لله السجود، ووجب حتى يتناول السجود بالفعل وغيره، أو يفسر للسجود بالانقياد؛ لأنّ الكفار وإن لم يسجدوا لله سبحانه

---

(١) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ١٤٤). (٢) انظر: «مجاز القرآن» لأبي عبيد (١/ ٣٢٧).
(٣) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٦١).
(٤) «جامع البيان» (١٣/ ٤٥)، و«جامع البيان» (١٣/ ٤٩٣).

فهم منقادون لأمره[١]، وحكمه فيهم بالصحة والمرض والحياة والموت والفقر والغنى، ويدل على إرادة هذا المعنى قوله: ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ فإنّ الكفار ينقادون كرهاً كما ينقاد المؤمنون طوعاً، وهما منتصبان[٢] على المصدرية؛ أي: انقياد طوعٍ وانقياد كره، أو على الحال؛ أي: طائعين وكارهين.

وقال الفراء[٣]: الآية خاصة بالمؤمنين فإنّهم يسجدون طوعاً، وبعض الكفار[٤] يسجدون إكراهاً وخوفاً كالمنافقين، فالآية محمولة على هؤلاء؛ وقيل: الآية في المؤمنين، فمنهم مَنْ سجد طوعاً لا يثقل عليه السجود، ومنهم مَنْ يثقل عليه لأن التزام التكليف مشقة ولكنّهم يتحملون المشقة إيماناً بالله وإخلاصاً له.

﴿وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ وظلالُهم: جمع ظِل، والمراد به: ظل الإِنسان الذي يتبعه، جُعل ساجداً بسجوده حيثُ صار، لازماً له لا ينفك عنه.

قال الزجاج[٥] وابن الأنباري[٦]: ولا يبعد أَنْ يخلق الله للظلال أفهاماً تسجد بها لله سبحانه كما جعل للجبال أفهاماً حتى اشتغلت بتسبيحه، فظلّ المؤمن يسجد لله طوعاً، وظل الكافر يسجد لله كرهاً.

وخص الغدوّ والآصال بالذكر؛ لأنّه يزداد ظهور الظلال فيهما، وهما ظرف للسجود المقدّر؛ أي: ويسجد ظلالُهم [٣/١٠٤] في هذين الوقتين.

وقد تقدّم تفسير الغدوّ والآصال في الأعراف، وفي معنى هذه الآية قوله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ [النحل: ٤٨] وجاء بـ(مَن) في ﴿مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تغليباً للعقلاء على غيرهم، ولكون سجود غيرهم تبعاً لسجودهم، وممّا يؤيد حمل السجود على الانقياد ما يفيده[٧] تقديم (لله) على الفعل مِنْ الاختصاص، فإن سجود الكفار لأصنامهم معلوم، ولا ينقادون لهم كانقيادهم لله في الأمور التي يقرّون على أنفسهم بأنها مِنْ الله؛ كالخلق والحياة والموت ونحو ذلك.

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٤٥). (٢) «الفريد» (٣/ ١٢٨)، و«التبيان» (٢/ ٧٥٥).
(٣) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٦١).
(٤) «جامع البيان» (١٣/ ٤٩٢)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٤٤ ـ ٤٥).
(٥) انظر: «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ١٤٤).
(٦) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٢/ ٤٦). (٧) «روح المعاني» (١٣/ ٩٤).

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أمر الله سبحانه رسوله أنْ يسأل الكفار: مَنْ ربّ السمٰوات والأرض؟ ثم لما كانوا يقرّون بذلك ويعترفون به كما حكاه الله سبحانه في قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩]، وقولُه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧] أمر رسوله ﷺ أن يجيب، فقال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ فكأنه حكى جوابهم وما يعتقدونه؛ لأنهم ربما تلعثموا في الجواب؛ حذراً مما يلزمهم، ثم أمره بأن يلزمهم الحجة ويبكتهم فقال: ﴿قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ والاستفهام(١) للإنكار؛ أي: إذا كان ربّ السمٰوات والأرض هو الله كما تقرون بذلك وتعترفون به كما حكاه سبحانه عنكم بقوله: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٦، ٨٧]، فما بالكم اتخذتم لأنفسكم من دونه أولياء عاجزين؟ ﴿لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا﴾ ينفعونها به ﴿وَلَا ضَرًّا﴾ يضرون به غيرهم أو يدفعونه عن أنفسهم، فكيف ترجون منهم النفع والضر وهم لا يملكونهما لأنفسهم، والجملة(٢) في محل نصب على الحال.

ثم ضرب الله سبحانه لهم مثلاً وأمر رسوله ﷺ أن يقوله لهم، فقال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾؛ أي: هل يستوي الأعمى في دينه وهو الكافر، والبصير فيه وهو الموحد؟ فإنّ الأول جاهل لما يجب عليه وما يلزمه، والثاني عالم بذلك.

قرأ ابن مُحيصن وأبو بكر والأعمش وحمزة والكسائي «أم هلْ يستوي الظلمات والنور» بالتحتية(٣).

وقرأ الباقون(٤) بالفوقية، واختار القراءة الثانية أبو عُبيد(٥).

والمراد بالظلمات الكفر، وبالنور الإيمان، والاستفهام للتقريع(٦) والتوبيخ؛ أي: كيف يكونان مستويين وبينهما مِنْ التفاوت ما بين الأعمى والبصير، وما بين

---

(١) «البحر المحيط» (٦/ ٣٧٠)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ٢٠٤)، و«روح المعاني» (١٣/ ٩٨).
(٢) «الفريد» (٣/ ١٢٩)، و«روح المعاني» (١٣/ ٩٨).
(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٤٧)، و«التيسير» (ص١٣٣)، و«النشر» (٢/ ٢٩٧)، و«البحر المحيط» (٦/ ٣٧١). قرأ (يستوي) بالتحتية الكوفيون عدا حفص وقرأ الباقون بالتاء الفوقية.
(٤) انظر: المصاجر المتقدمة.
(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٢/ ٤٧).
(٦) «روح المعاني» (١٣/ ١٠٠)، «البحر المحيط» (٦/ ٣٧١).

الظلمات والنور؟ ووحّد النور وجمع الظلمة؛ لأنّ طريق الحق واحدة لا تختلف، وطرائق الباطل كثيرة غير منحصرة.

﴿أَمْ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِۦ﴾ أمْ هي المنقطعة[١] التي بمعنى: بَلْ والهمزة؛ أي: بل أجعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه؟ والاستفهام لإنكار الوقوع.

قال ابنُ الأنباري[٢]: معناه: أَجعلوا لله شركاءَ خلقوا مثل ما خلق الله فتشابه خلق الشركاء بخلق الله عندهم؛ أي: ليس الأمرُ على هذا حتّى يشتبه الأمر عليهم؛ بَلْ إذا فكّروا بعقولهم وجدوا الله هو المنفرد بالخلق، وسائر الشركاء لا يخلقون شيئاً، وجملة: خلقوا كخلقه[٣] في محل نصب صفة لشركاء. والمعنى: أنهم لم يجعلوا لله شركاء متصفين بأنهم خلقوا كخلقه ﴿فَتَشَٰبَهَ﴾ بهذا السبب ﴿ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْۚ﴾ حتى يستحقوا بذلك العبادة منهم؛ بل إنما جعلوا له شركاء الأصنام ونحوها، وهي بمعزل عن أن تكون كذلك، ثم أمره الله سبحانه بأن يوضّح لهم الحق ويرشدهم إلى الصواب فقال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ كائناً ما كان ليس لغيره في ذلك مشاركة بوجه مِنْ الوجوه.

قال الزجّاج[٤]: والمعنى: أَنّه خالق كل شيء مما يصح أَنْ يكون مخلوقاً، ألا ترى أَنّه تعالى شيء وهو غير مخلوق ﴿وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ﴾؛ أي: المتفرّد بالربوبية ﴿ٱلْقَهَّٰرُ﴾ لما عداه، فكلُّ ما عداه مربوب مقهور مغلوب.

ثم ضربَ سبحانه مثلاً آخر للحق وذويه، وللباطل ومنتحليه فقال: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾؛ أي: مِنْ جهتها، والتنكير للتكثير أو للنوعية ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ﴾ جمع وادٍ، وهو كل منفرج بين جبلين أو نحوهما.

قال أبو علي الفارسي[٥]: لا نعلم فاعلاً جُمع على أفْعِلة إلا هذا، وكأنه حُمل على فَعيل فجمع على أفعلة مثل جَريب وأجْرِبة، كما أن فَعيلاً حُمل على فاعل، فجُمع على أفعال مثل يَتيم وأيتام وشَريف وأشراف؛ كأصحاب وأَنْصار في صاحب

---

(١) «الفريد» (٣/ ١٢٩)، و«البحر المحيط» (٦/ ٣٧١)، و«روح المعاني» (١٣/ ٩٩).
(٢) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٤٧ ـ ٤٨).
(٣) «الفريد» (٣/ ١٢٩)، و«روح المعاني» (١٣/ ٩٩ ـ ١٠٠).
(٤) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ١٤٤ ـ ١٤٥).
(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٢/ ٤٩).

وناصر قال: وفي قوله: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ﴾ توسّعٌ؛ أي: سال ماؤها، قال: ومعنى ﴿بِقَدَرِهَا﴾: بقدر مائها؛ لأنّ الأودية ما سالت بقدر أنفسها.

قال الواحدي[١]: والقدَر مبلغ الشيء، والمعنى: بقدَرها مِنْ الماء، فإن صغر الوادي قلّ الماء وإن اتسع كَثُر، وقال في «الكشاف»: ﴿بِقَدَرِهَا﴾ بمقدارها الذي يعرف الله أنّه نافع للممطور عليهم غير ضارّ.

قال ابنُ الأنباري[٢]: شبّه نزول القرآن الجامع للهدى والبيان بنزول المطر، إذ نفع نزول القرآن يعمّ كعموم نفع نزول المطر، وشبّه الأودية بالقلوب؛ إذ الأودية يستكنّ فيها الماء كما يستكنّ القرآن والإيمان في قلوب المؤمنين.

﴿فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ﴾ الزَّبَد: هو الأبيض المرتفع المنتفخ على وجه السيل، ويقال له: الغُثاء والرّغْوة، والرابي: العالي المرتفع فوق الماء.

قال الزجاج[٣]: هو الطافي فوق الماء، وقال غيره: هو الزائد بسبب انتفاخه، مِنْ ربا يربو إذا زاد.

والمراد مِنْ هذا: تشبيه الكفر بالزبد الذي يعلو الماء، فإنه يضمحلّ ويَعْلَق بجنبات الوادي وتدفعه الرياح، فكذلك يذهب الكفر ويضمحلّ.

وقد تمّ المثل الأوّل.

ثم شرع سبحانه في ذكر المثل الثاني فقال: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ﴾ من[٤] لابتداء الغاية؛ أي: ومِنْه ينشأ زَبَد مثل زبد الماء، أو للتبعيض بمعنى: وبعضه زبد مثله، والضمير للناس، أضمر مع عدم سبق الذكر لظهوره، هذا على قراءة يُوقدون بالتحتية[٥]، وبها قرأ حُميد وابن محيصن والأعمش وحمزة والكسائي وحفص.

وقرأ الباقون[٦] بالفوقية على الخطاب، واختار القراءة الأولى أبو عبيد[٧]،

---

(١) في «الوسيط» (٣/ ١٢).

(٢) انظر: «البحر المحيط» (٦/ ٣٧٣ ـ ٣٧٤)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٥١ ـ ٥٢).

(٣) في «معاني القرآن» (٣/ ١٤٢ ـ ١٤٥).

(٤) «الفريد» (٣/ ١٣٠)، و«البحر المحيط» (٦/ ٣٧٤)، و«روح المعاني» (١٣/ ١٠٥).

(٥) «التيسير» (ص١٣٣)، و«النشر» (٢/ ٢٩٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٢١)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ٢٢).

(٦) انظر: المصادر المتقدمة.

(٧) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٢/ ٥٢).

والمعنى: ومما تُوقدون عليه في النار فيذوب مِنْ الأجسام المنطرقة الذائبة.

﴿ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ﴾؛ أي: لطلب اتخاذ حِلْية تتزينون بها، وتتجملون كالذهب والفضة ﴿أَوْ مَتَٰعٍ﴾؛ أي: أو طلب متاع تتمتعون[١] به مِنْ الأواني والآلات المتخذة من الحديد والصُّفْر والنّحاس والرصاص ﴿زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾ المراد بالزبد هنا: الخَبَثُ، فإنه يعلو فوق ما أُذيب مِنْ تلك الأجسام كما يعلو الزَّبد على الماء فالضمير في ﴿مِّثْلُهُۥ﴾ يعود إلى ﴿زَبَدًا رَّابِيًا﴾، وارتفاع زبد على الابتداء[٢] وخبره ﴿مِمَّا يُوقِدُونَ﴾.

﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾؛ أي: مثل ذلك الضرب البديع يضرب لله مثل الحق ومثل الباطل، ثم شرع في تقسيم المثل فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾ يقال: جفأ الوادي بالهمز جفاء: إذا رمى بالقذر والزَّبَدِ.

قال الفراء[٣]: الجُفاء الرمي، يقال: جَفأ الوادي غُثاءَه جفئاً: إذا رمى به، والجفاء بمنزلة الغُثاء.

وكذا قال أبو عمرو بن العلاء، وحكى أبو عُبيدة[٤] أَنَّه سمع رؤبة[٥] يقرأ جفالاً.

قال أبو عبيدة[٦]: يقال أجفلتْ القِدْر إذا قذفت بزَبدها، وأجفلت الريح السحاب إذا قطعته. قال أبو حاتم[٧]: لا يقرأ بقراءة رؤبة؛ لأنّه كان يأكل الفأر.

واعلم أنّ وجه المماثلة[٨] بين الزَّبدين في الزَّبد الذي يحمله السيل والزبد الذي يعلو الأجسام المنطرقة أنّ تراب الأرض لما خالط الماء وحمله معه صار زبداً رابياً فوقه، وكذلك ما يوقد عليه في النار حتى يذوب من الأجسام المنطرقة، فإن أصله مِنْ المعادن التي تنبت في الأرض فيخالطها التراب، فإذا أذيبت صار ذلك التراب الذي خالطها خَبَثاً مرتفعاً فوقها.

﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ منهما وهو الماء الصافي، والذائب الخالص من الخبث ﴿فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: يثبت فيها.

---

(١) «جامع البيان» (١٣/ ٥٠٠ ـ ٥٠١)، و«روح المعاني» (١٣/ ١٠٦).
(٢) «التبيان» (٢/ ٧٥٦)، و«الفريد» (٣/ ١٣١)، و«البحر المحيط» (٦/ ٣٧٤).
(٣) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٦٢).
(٤) في «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (١/ ٣٢٩).
(٥) «القراءات الشاذة» (ص٦٦). وهي قراءة شاذة مخالفة للرسم.
(٦) في «مجاز القرآن» (١/ ٣٢٩).
(٧) انظر: «معاني القرآن» للنحاس (٣/ ٤٨٩).
(٨) «روح المعاني» (١٣/ ١٠٧).

أما الماء فإنّه يسلك في عروق الأرض فتنتفع الناس به، وأما ما أذيب من تلك الأجسام فإنّه يصاغ حلية وأمتعة.

وهذان مثلان ضربهما الله سبحانه للحقِّ والباطل، يقول: إنّ الباطل وإن ظهر على الحق في بعض الأحوال وعلاه، فإنّ الله سبحانه سيمحقه ويبطله ويجعل العاقبة للحق وأهله، كالزبد الذي يعلو الماء فيلقيه الماء ويضمحلّ، وكخَبَث هذه الأجسام فإنه وإنْ علا عليها فإن الكير يقذفه ويدفعه، فهذا مثل الباطل.

وأمّا الماء الذي ينفع الناسَ، وينبت المراعي فيمكث في الأرض، وكذلك الصفو مِنْ هذه الأجسام فإنه يبقى خالصاً لا شوب فيه، وهو مثل الحق.

قال الزجّاج[(١)]: فمثل المؤمن واعتقاده ونفع الإيمان كمثل هذا الماء المنتفع به في نبات الأرض، وحياة كل شيء، [٣/١٠٥] وكمثل نفع الفضة والذهب وسائر الجواهر لأنها كلها تبقى منتفعاً بها، ومثل الكافر وكفره كمثل الزَّبَد الذي يذهب جفاء، وكمثل خَبث الحديد وما تخرجه النار من وسخ الفضة والذهب الذي لا ينتفع به.

وقد حُكينا عن ابن الأنباري فيما تقدّم أنَّه شبه نزول القرآن إلى آخر ما ذكرناه فجعل ذلك مثلاً ضربه[(٢)] الله للقرآن ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾؛ أي: مثل ذلك الضرب العجيب يضرب الله الأمثال في كلِّ باب لكمال العناية بعباده واللطف بهم، وهذا تأكيد لقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾.

ثم بيَّن سبحانه مَنْ ضرب له مثل الحق ومثل الباطل من عباده، فقال فيمن ضرب له مثل الحق: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ﴾؛ أي: أجابوا دعوته إذ دعاهم إلى توحيده وتصديق أنبيائه، والعمل بشرائعه، و﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ صفة موصوف[(٣)] محذوف؛ أي: المثوبة الحسنى وهي الجنّة.

وقال سبحانه فيمن ضُرب له مثل الباطل: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟﴾ لدعوته إلى ما دعاهم إليه، والموصول مبتدأ[(٤)] وخبره الجملة الشرطية، وهي ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى

(١) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ١٤٥ ـ ١٤٦).
(٢) «روح المعاني» (١٣/ ١٠٧)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٥٠ ـ ٥١)، و«جامع البيان» (١٣/ ٤٩٦ ـ ٤٩٧).
(٣) «الفريد» (٣/ ١٣٢)، و«الدر المصون» (٧/ ٤١ ـ ٤٢)، و«البحر المحيط» (٦/ ٣٧٥).
(٤) «الكشاف» (٣/ ٣٤٦)، و«التبيان» (٢/ ٧٥٦)، و«الفريد» (٣/ ١٣٢).

﴿ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ مِنْ أصناف الأموال التي يتملّكها العباد، ويجمعونها بحيث لا يخرج عَنْ ملكهم منها شيء ﴿وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ﴾؛ أي: مِثْل ما في الأرض جميعاً كائناً معه ومنضماً إليه ﴿لَافْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ﴾؛ أي: بمجموع ما ذُكر وهو ما في الأرض ومثله.

والمعنى: ليخلَّصوا به مما هم فيه مِنْ العذاب الكبير، والهول العظيم، ثم بيَّن الله سبحانه ما أعدّه لهم فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ يعني: الذين لم يستجيبوا ﴿لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾ قال الزجاج[1]: لأن كفرهم أحبط أعمالَهم، وقال غيره: سوء الحساب المناقشة فيه؛ وقيل: هو أنْ يحاسب الرجل بذنبه كله لا يغفر منه شيء ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾؛ أي: مرجعهُم إليها ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾؛ أي: المستقرّ الذي يستقرّون فيه. والمخصوص[2] بالذم محذوف.

وقد أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة[3] في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ قال: خوفاً للمسافر يخاف أذاه ومشقّته، وطمعاً للمقيم يطمع في رزق الله، ويرجو بركة المطر ومنفعته.

وأخرج أبو الشيخ[4] عن الحسن قال: خوفاً لأهل البحر، وطمعاً لأهل البر.

وأخرج أبو الشيخ[5] عن الضحاك قال: الخوف: ما يخاف من الصواعق، والطمع: الغيث.

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ والخرائطي في «مكارم الأخلاق» والبيهقي في «سننه» من طرق عن عليّ بن أبي طالب قال: البرق: مَخارِيق مِنْ نار بأيدي ملائكة السحاب، يزجرون به السحاب.

وروي عن جماعة من السلف ما يوافق هذا ويخالفه، ولعلّنا قد قدّمنا في سورة البقرة شيئاً مِنْ ذلك.

وأخرج أحمد[6] عَنْ شيخ مِنْ بني غِفار قد صحب رسول الله ﷺ قال: سمعت

---

(١) في «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١٤٦).
(٢) «روح المعاني» (١٣/ ١٠٩)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ٢٠٨).
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٤٧٥) بسند صحيح.
(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٦١٨).
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١/ ٣٦٦) من طريق ابن جريج، به.
(٦) أخرجه أحمد رقم (٢٣٦٨٦)، وابن أبي الدنيا في كتاب «المطر» رقم (٩١)، وأبو الشيخ =

رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يُنشىء السحاب فتنطق أحسن النطق، وتضحك أحسن الضحك» قيل: والمراد بنطقها الرعد، وبضحكها البرق.

وقد ثبت عند أحمد والترمذي والنسائي في «اليوم والليلة» والحاكم في «مستدركه» مِنْ حديث ابن عمر[1] قال: كان رسول الله ﷺ إذا سمع الرعد والصواعق قال: «اللَّهُمَّ لا تَقْتلنا بغضبك، ولا تُهْلكنا بعذابك، وعافِنا قبل ذلك».

وأخرج العقيلي وضعّفه، وابن مردويه عن أبي هريرة[2] قال: قال رسول الله ﷺ: «ينشىء الله السحابَ ثم ينزل فيه الماء، فلا شيء أحسن من ضحكه، ولا شيء أحسن مِنْ نطقه، ومنطقه الرعد، وضحكه البرق».

وأخرج ابن مردويه[3] عن جابر بن عبد الله أن خزيمة بن ثابت، وليس بالأنصاري، سأل رسول الله ﷺ عن منشأ السحاب فقال: «إن مَلَكاً موكلاً يلمُّ القاصية، ويلحَم الدانيةَ، في يده مِخْراق، فإذا رفَع برقتْ، وإذا زجر رَعدتْ، وإذا ضرب صعقتْ».

وأخرج أحمد، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في «العظمة»، وابن مردويه، وأبو نعيم في «الدلائل»، والضياء في «المختارة» عن ابن عباس[4] قال: أقبلت يهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم إنا نسألك عن خمسة أشياء، فإن أنبأتنا بهنّ عرفنا أنك نبيّ واتّبعناك، فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على بنيه إذ قال: ﴿ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [يوسف: ٦٦] ، قال: «هاتوا»، قالوا: أخبِرْنا عن علامة النبيّ؟ قال: «تنام عيناه ولا ينام قلبه»؛ قالوا:

= في «العظمة» رقم (٧٢٢)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» رقم (٩٨٨) بسند صحيح.

(١) أخرجه أحمد رقم (٥٧٦٣)، والبخاري في «الأدب» رقم (٧٢١)، والترمذي رقم (٣٤٥٠)، والنسائي في «السنن الكبرى» رقم (١٠٧٦٤)، وأبو الشيخ في «العظمة» رقم (٧٨٥)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٢٨٦)، والخرائطي رقم (٥٦٠ ـ منتقى). وهو حديث ضعيف، والله أعلم.

(٢) أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» رقم (٧٢٧) بسند ضعيف.

(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٦٢٠).

(٤) أخرجه أحمد رقم (٢٤٨٣)، والترمذي رقم (٣١١٧)، والنسائي في «السنن الكبرى» رقم (٩٠٧٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٥٤، ٥٥)، وأبو الشيخ في «العظمة» رقم (٧٦٩)، والضياء (١٠/ ٦٩ رقم ٦١). وهو حديث صحيح.

أخبرنا كيف تُؤنِثْ المرأة وكيف تُذْكِر؟ قال: «يلتقي الماءان، فإذا علا ماء الرجل ماء المرأة أَذْكرتْ، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل آنَثَتْ»؛ قالوا: أخبرنا عما حرّم إسرائيل على نفسه؟ قال: «كان يشتكي عِرْق النَّساء، فلم يجد شيئاً يلائمه إلا ألبان كذا وكذا؛ يعني: الإِبل، فحرّم لحومَها»، قالوا: صدقتَ؛ قالوا: أخبِرْنا ما هذا الرعدُ؟ قال: «مَلَكٌ مِنْ ملائكة الله موكل بالسحاب بيده مِخْراق مِنْ نار يزجر به السحاب يَسوقُه حيثُ أمرَه اللهُ»، قالوا: فما هذا الصوتُ الذي نسمعُ؟ قال: «صوتُه». قالوا: صدقتَ إنما بقيتْ واحدةٌ، وهي التي نتابعُك إنْ أخبرتنا، إنه ليس مِنْ نبيّ إلّا له مَلَكٌ يأتيه بالخبر، فأخبرنا مَنْ صاحبك؟ قال: «جبريلُ»، قالوا: جبريل: ذاك ينزلُ بالخراب والقتال والعذاب عدوّنا، لو قلتَ: ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والنبات والقَطْر لكان، فأنزَل الله: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ إلى آخر الآية [البقرة: ٩٧].

وأخرَج البخاريُّ في «الأدب المفرد»، وابنُ أبي الدنيا في «المطر»، وابن جرير عن ابن عباس[١] أنّه كان إذا سَمِع صوتَ الرعد قال: سبحانَ الذي سبّحتْ له، وقال: إنّ الرعد مَلَكٌ ينعِقُ بالغيثِ كما يَنْعِق الراعي بغنمه. وقد روي نحو هذا عنه من طرق.

وأخرج ابن أبي حاتم[٢] عن أبي هريرة أَنَّ الرعد صوت المَلَك.

وكذا أخرج نحوه أبو الشيخ[٣] عَنْ ابن عمرو.

وأخرَج ابنُ المنذر وابن مردويه عَنْ ابن عباس[٤] قال: الرعد مَلَكٌ اسمه الرعد، وصوتُه هذا تسبيحه؛ فإذا اشتدّ زجره احتّك السحاب واضطرم مِنْ خوفه فتخرج الصواعق مِنْ بينه.

وأخرج ابن أبي حاتم، والخرائطي، وأبو الشيخ في «العظمة» عن أبي

---

(١) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» رقم (٧٢٢)، وابن أبي الدنيا في كتاب «المطر» رقم (٩٤)، وابن جرير في «جامع البيان» (١/ ٣٦٠) بسند ضعيف.

(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٦٢٢).

(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٦٢٢).

(٤) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٦٢٢).

عمران[١] الجوني قال: إنّ بحوراً مِنْ نار دون العرش تكون منها الصواعق.

وأخرج أبو الشيخ عَنْ السدي[٢] قال: الصواعق نار.

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس[٣] ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ قال: شديد القوّة.

وأخرج ابنُ جرير عن عليّ[٤] قال: شديد الأخْذ.

وأخرج ابنُ جرير وأبو الشيخ عنه[٥] في قوله: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ قال: التوحيد: لا إلٰه إلا الله.

وأخرج عبدُ الرزاق، والفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي في «الأسماء والصفات» مِنْ طرق عن ابن عباس[٦] في قوله: دعوة الحق قال: شهادة أن لا إلٰه إلا الله.

وأخرَج ابنُ جرير[٧] عَنْ عليّ في قوله: ﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾ قال: كان الرجل العطشان يمدّ يده إلى البئر ليرتفعَ الماءُ إليه وما هو ببالغه.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس[٨] في الآية قال: هذا مثل المشرك الذي عبد مع الله غيره، فمثله كمثل الرجل العطشان الذي ينظر إلى خياله في الماء مِنْ بعيد وهو يريد أن يتناوله ولا يقدر عليه.

وأخرج أبو الشيخ[٩] عنه في قوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ قال: المؤمن والكافر.

---

(١) أخرجه ابو الشيخ في «العظمة» رقم (٧٧٩)، والخرائطي في «مكارم الأخلاق» (ص٨٥) بسند صحيح.
(٢) أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» رقم (٧٩٢) بسند حسن.
(٣) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٦٢٧).
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٤٨٣) بسند ضعيف.
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٤٨٦) بسند ضعيف.
(٦) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٣٤)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٤٨٥)، والطبراني في «الدعاء» رقم (١٥٨٠)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» رقم (١٠٤) بسند حسن.
(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٤٨٦) بسند ضعيف.
(٨) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٤٨٩ ـ ٤٩٠) بسند صحيح.
(٩) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٦٣١).

وأخرج ابنُ جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عنه(١) أيضاً في قوله: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ الآية قال: هذا مَثَلٌ ضربه الله، احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكها، فأما الشك فلا ينفع معه العمل، وأما اليقين فينفع الله به أهله، وهو قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾ وهو الشك ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وهو اليقين، وكما يُجعل الحُليّ في النار فيؤخذ خالصه ويترك خبثه في النار فكذلك يقبل الله اليقين ويترك الشك.

وأخرج هؤلاء(٢) عنه أيضاً ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ قال: الصغير قدر صغره، والكبير قدر كِبره.

[ذكر صفات أهل الحق العاملين به]:

﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾.

[ذكر بعض صفات أهل الباطل]:

﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾ [٣/١٠٦].

الهمزة في قوله: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ﴾ للإنكار(٣) على مَنْ يتوهم المماثلة بين من يعلم أنما أنزله الله سبحانه إلى رسوله ﷺ مِنْ الحق الذي لا شك فيه ولا شبهة وهو

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/٤٩٨) بسند صحيح.
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/٥٠٣) بسند ضعيف، ابن جريج لم يلقَ ابن عباس.
(٣) «البحر المحيط» (٦/٣٧٨)، و«الكشاف» (٣/٣٤٦)، و«روح المعاني» (١٣/١٢٠).

القرآن، وبين مَنْ هو أعمى لا يعلم ذلك، فإن الحال بينهما متباعد جدّاً كالتباعد الذي بين الماء والزّبد، وبين الخَبَث والخالص مِنْ تلك الأجسام، ثم بيّن سبحانه أنه إنما يقف على تفاوت المنزلتين، وتباين الرتبتين أهل العقول الصحيحة، فقال: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

ثم وصفهم بهذه الأوصاف المادحة، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بما عقدوه مِنْ العهود فيما بينهم وبين رَبِّهم، أو فيما بينهم وبين العباد ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ الذي وثّقوه على أنفسهم، وأكّدوه بالأيمان ونحوها.

وهذا تعميم بعد التخصيص(١)؛ لأنّه يدخل تحت الميثاق كل ما أوجبه العبد على نفسه كالنذور ونحوها، ويحتمل أَنْ يكون الأمر بالعكس فيكون من التخصيص بعد التعميم على أَنْ يراد بالعهد جمع عهود الله، وهي أوامره ونواهيه التي وصّى بها عبيدَه، ويدخل في ذلك الالتزامات التي يلزم بها العبد نفسه، ويراد بالميثاق: ما أخذه الله على عباده حين أخرجهم مِنْ صلب آدم في عالم الذرّ المذكور في قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ الآية [الأعراف: ١٧٢].

﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ ظاهره شمول كل ما أمر الله بصلته، ونهى عَنْ قطعه مِنْ حقوق الله وحقوق عباده، ويدخل تحت ذلك صلة الأرحام دخولاً أوّليّاً، وقد قصره كثير مِنْ المفسرين على صلة الرحم(٢)، واللفظ أوسع(٣) من ذلك ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ خشيةً تحملهم على فعل ما وجب، واجتناب ما لا يحلّ ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ وهو الاستقصاء فيه والمناقشة للعبد، فمن نُوقش الحساب عُذِّب، ومِنْ حق هذه الخيفة أَنْ يحاسبوا أنفسهم قبل أن يحاسبوا.

﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ قيل: هو كلام مستأنف(٤)، وقيل: معطوف على ما قبله والتعبير عنه بلفظ المضيّ للتنبيه على أنه ينبغي تحققه.

والمراد بالصبر: الصبر على الإتيان(٥) بما أمر الله به، واجتناب ما نهى عنه؛ وقيل: على الرزايا والمصائب، ومعنى كون ذلك الصبر لابتغاء وجه الله: أَنْ يكون

---

(١) «البحر المحيط» (٦/ ٣٧٩)، و«روح المعاني» (١٣/ ١٢٠).

(٢) «معالم التنزيل» (٣/ ١٤)، و«النكت والعيون» (٣/ ١٠٨).

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٥٧)، و«جامع البيان» (١٣/ ٥٠٨).

(٤) «الفريد» (٣/ ١٣٣).

(٥) «جامع البيان» (١٣/ ٥١٠).

خالصاً له، لا شائبة فيه لغيره ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ أي: فعلوها في أوقاتها على ما شرعه الله سبحانه في أذكارها وأركانها مع الخشوع والإخلاص.

والمراد بها: الصلوات المفروضة، وقيل: أعمّ مِنْ ذلك ﴿وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾؛ أي: أنفقوا بعضَ ما رزقناهم، والمراد بالسرّ: صدقة النفل، والعلانية: صدقة الفرض.

وقيل: السرّ لمن لم يعرف بالمال، أو لا يُتهم بترك الزكاة، والعلانية لمن كان يُعرف بالمال أو يُتهم بترك الزكاة ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾؛ أي: يدفعون سيئة من أساء إليهم بالإحسان إليه كما في قوله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت: ٣٤]، أو يدفعون بالعمل الصالح العملَ السيىء، أو يدفعون الشرّ بالخير، أو المنكر بالمعروف، أو الظلم بالعفو، أو الذنب بالتوبة، ولا مانع مِنْ حمل الآية على جميع(١) هذه الأمور.

والإشارة بقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ إلى الموصوفين بالصفات المتقدّمة ﴿لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ العقبى(٢) مصدر كالعاقبة.

والمراد بالدار: الدنيا، وعقباها: الجنّة؛ وقيل: المراد بالدار: الدار الآخرة، وعقباها: الجنة للمطيعين، والنار للعصاة.

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ بدل مِنْ عقبى(٣) الدار؛ أي: لهم جنات عدن، ويجوز أن يكون مبتدأ، وخبره يدخلونها، والعَدنْ أصله: الإقامةُ، ثم صار عَلَماً لجنة مِنْ الجنان.

قال القشيري(٤): وجنات عدن: وسَطُ الجنة وقصبُتها وسقفها عرش الرحمٰن، ولكنْ في «صحيح البخاري»(٥) وغيره: «إذا سألتم الله فاسألوه الفردوسَ فإنّه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمٰن، ومِنْه تفجر أنهار الجنة».

---

(١) «روح المعاني» (١٣/ ١٢٤)، و«البحر المحيط» (٦/ ٣٧٤ ـ ٣٧٥).

(٢) «التبيان» (٢/ ٧٥٧)، و«الفريد» (٣/ ١٣٤)، و«البحر المحيط» (٦/ ٣٨١).

(٣) «التبيان» (٢/ ٧٥٧)، و«الفريد» (٣/ ١٣٤).

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٢/ ٥٩).

(٥) أخرجه البخاري في «صحيحه» رقم (٢٧٩٠)، وأحمد في «مسنده» رقم (٨٤١٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ﴾ يشمل الآباء والأمهات ﴿وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ معطوف[١] على الضمير في يدخلون، وجاز ذلك للفصل بين المعطوف والمعطوف عليه؛ أي: ويدخلها أزواجُهم وذرياتُهم، وذكر الصلاح دليل على أنّه لا يدخل الجنة إلا من كان كذلك مِنْ قرابات أولئك، ولا ينفع مجرد كونه مِنْ الآباء أو الأزواج أو الذرية بدون صلاح.

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾؛ أي: مِنْ جميع أبواب المنازل التي يسكنونها، أو المراد: مِنْ كل باب من أبواب التحف والهدايا من الله سبحانه ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾؛ أي: قائلين: سلام عليكم؛ أي: سلمتم مِنْ الآفات أو دامت لكم السلامة ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾؛ أي: بسبب صبركم وهو متعلق[٢] بالسلام؛ أي: إنما حصلت لكم هذه السلامة بواسطة صبركم أو متعلق بعليكم، أو بمحذوف؛ أي: هذه الكرامة بسبب صبركم أو بدل ما احتملتم مِنْ مشاقّ الصبر ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ جاء سبحانه بهذه الجملة المتضمنة لمدح ما أعطاهم مِنْ عقبى الدار، المتقدم ذكرها للترغيب والتشويق.

ثم أتبع أحوال السعداء بأحوال الأشْقياء، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ وقد مرّ تفسير عدم النقض وعدم القطع فعرف منهما تفسير النقض والقطع، ولم يتعرض لنفي الخشية والخوف عنهم وما بعدهما مِنْ الأوصاف المتقدّمة لدخولها في النقض والقطع ﴿وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالكفر وارتكاب المعاصي والإضرار بالأنفس والأموال ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون[٣] بهذه الصفات الذميمة ﴿لَهُمُ﴾ بسبب ذلك ﴿ٱللَّعْنَةُ﴾؛ أي: الطرد والإبعاد من رحمة الله سبحانه ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾؛ أي: سوء عاقبة دار الدنيا، وهي النار أو عذاب النار.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة[٤] في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ قال: هؤلاء قومٌ انتفعوا بما سمعوا من

---

(١) «التبيان» (٢/ ٧٥٧)، و«الفريد» (٣/ ١٣٤)، و«البحر المحيط» (٦/ ٣٨٢).
(٢) «الكشاف» (٣/ ٣٤٩)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ٢١٢)، و«البحر المحيط» (٦/ ٣٨٣).
(٣) «روح المعاني» (١٣/ ١٣٦)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ٢١٣).
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٥٠٦) بسند صحيح.

كتاب الله، وعقَلوه ووعوه ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ قال: عَنْ الحق فلا يبصره ولا يعقله ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ فبيَّن مَنْ هم، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير(١) ﴿أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ قال: مَنْ كان له لبّ؛ أي: عقل.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة(٢) أن الله ذكر الوفاء بالعهد والميثاق في بضع وعشرين آية مِنْ القرآن.

وأخرج الخطيب، وابن عساكر عن ابن عباس(٣) قال: قال رسول الله ﷺ: «إن البرّ والصلة ليخفِّفان سوءَ الحساب يوم القيامة»، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير(٤) في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ يعني: مِنْ إيمان بالنبيين وبالكتب كلها ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ يعني: يخافون مِنْ قطيعة ما أمر الله به أَنْ يُوصل ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ يعني: شدّة الحساب، وقد ورد في صلة الرحم وتحريم قطعها أحاديث كثيرة.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن الضحاك(٥) ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ قال: يدفعون بالحسنةِ السيئةِ.

وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وابن أبي شيبة، وهناد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وأبو الشيخ عن ابن مسعود(٦) في قوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ قال: بُطْنان الجنة، يعني: وَسَطها.

وأخرج عبد بن حميد(٧) عن الحسن أَنَّ عمر قال لكعب: ما عَدْن؟ قال: هو قَصْر في الجنة لا يدخله إلا نبيّ أو صدّيق أو شهيد أو حَكَمٌ عَدْل.

---

(١) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٦٣٦).
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٥٠٧) بسند حسن.
(٣) أخرجه الخطيب في «تاريخه» (١/ ٣٨٥، ٣٨٦)، وابن عساكر في «تاريخ مدينة دمشق» (٣٦/ ٢٤٣). وهو حديث ضعيف. انظر: «السلسلة الضعيفة» رقم (٢٩٨٤).
(٤) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٦٣٦ ـ ٦٣٧).
(٥) عزاه إليهم السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٦٣٨).
(٦) أخرجه عبد الرزاق (١/ ٣٣٥)، وابن أبي شيبة (١٣/ ١٢٦)، وهنَّاد رقم (٤٨).
(٧) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٦٣٨).

وأخرج ابن مردويه(١) عن عليّ قال: قال رسول الله ﷺ: «جنة عدن قضيب غرسه الله بيده، ثم قال له: كن، فكان».

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عَنْ مجاهد(٢) ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ﴾ قال: مَنْ آمن في الدنيا.

وأخرج عبدُ الرزاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن أبي عمران(٣) الجوني في قوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ قال: على دينكم ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ قال: نِعَم ما أعقبكم الله مِنْ الدنيا في الجنّة.

وأخرج أحمد، والبزار، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن حبان، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والحاكم وصححه، وأبو نُعيم في «الحِلْية»، والبيهقي في «شُعب الإيمان» عن عبد الله بن عمرو(٤) قال: قال رسول الله ﷺ: «أوّل مَنْ يدخل الجنة مِنْ خلق الله فقراءُ المهاجرين الذين تُسدّ بهم الثغور، وتُتقى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجتُه في صدره لا يستطيع لها قضاء، فيقول الله لمن يشاء من ملائكته: ائتوهم فحيُّوهم، فتقول الملائكة: ربَّنا نحنُ سكان سمائك وخيرتك من خلقك، أفتأمرنا أن نأتي هؤلاء [٣/١٠٧] فنسلم عليهم؟ قال الله: إنّ هؤلاء عبادي كانوا يعبدونني ولا يشركون بي شيئاً، وتُسدّ بهم الثغور، وتُتقّى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء، فتأتيهم الملائكة عند ذلك فيدخلون عليهم من كل باب: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾».

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن أبي أُمامة(٥). «إنّ المؤمن ليكون مُتّكئاً على أريكةٍ إذا دخل الجنة وعنده سِماطان مِنْ خدم وعند طرف السِّماطين باب

---

(١) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/٦٣٩).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/٥١١) بسند صحيح.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/٣٣٥)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٣/٥١٣، ٥١٤)، وابن أبي الدنيا في «الصبر» رقم (٢٣) من طريق جعفر بن سليمان، به.

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» رقم (٦٥٧٠)، والبزار في «مسنده» رقم (٢٤٥٧)، وابن حبان في «صحيحه» رقم (٧٤٢١)، والحاكم (٢/٧١، ٧٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/٣٤٧)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٤٢٥٩) بسند جيد.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/٥١٢)، وابن أبي حاتم كما في «تفسير ابن كثير» (٨/١٣٨) بسند ضعيف.

مبوّب، فيُقْبل المَلَكُ فيستأذن، فيقول أقصى الخدَم للذي يليه: مَلَكٌ يستأذن، ويقول الذي يليه: مَلَكٌ يستأذن، حتى يبلغَ المؤمن، فيقول: ائذنوا له، فيقول أقربهم إلى المؤمن: ائذنوا له. ويقول الذي يليه للذي يليه ائذنوا له حتى يبلغ أقصاهم الذي عند الباب فيفتح له، فيدخل ويسلّم عليه، ثم ينصرف».

وأخرج ابنُ أبي حاتم[(١)] عَنْ ابن عباس ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ قال: سوءُ العاقبة.

﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَـٰعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَـٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَـٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾.

لما ذكر الله سبحانه عاقبة المشركين بقوله: ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥] كان لقائل أن يقول: قد نرى كثيراً منهم قد وفّر الله له الرزقَ وبسط له فيه، فأجاب عن ذلك بقوله: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ فقد يبسط الرزقَ لمن كان كافراً، ويقتّره على مَنْ كان مؤمناً ابتلاءً وامتحاناً، ولا يدلّ البسط على الكرامة ولا القبض على الإهانة، ومعنى يقدر: يُضيّق. ومنه ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾ [الطلاق: ٧]؛ أي: ضيّق.

وقيل: معنى يَقْدر: يُعطي بقدر الكفاية، ومعنى الآية: أنّه الفاعل لذلك وحده القادر عليه دون غيره ﴿وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: مشركو مكة فرحوا بالدنيا وجهلوا ما عند الله، قيل: وفي هذه الآية تقديم وتأخير.

والتقدير: الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل، ويفسدون في الأرض وفرحوا بالحياة الدنيا، فيكون ﴿وَفَرِحُوا۟﴾ معطوفاً[(٢)] على يفسدون ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَـٰعٌ﴾؛ أي: ما هي إلا شيء يستمتع به، وقيل: المتاع واحد الأمتعة كالقصّة والسُّكُرجَة ونحوهما.

---

(١) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٦٤١).

(٢) «البحر المحيط» (٦/ ٣٨٤)، و«روح المعاني» (١٣/ ١٣٨).

وقيل: المعنى: شيء قليل ذاهب، مِنْ مَتَع النهار: إذا ارتفع فلا بدّ له من زوال؛ وقيل: زاد كزاد الراكب يتزوّد به منها إلى الآخرة.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾؛ أي: يقول أولئك المشركون مِنْ أهل مكة: هلّا أنزل على محمد آية من ربّه؟ وقد تقدّم تفسير هذا قريباً، وتكرر في مواضع.

﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ أمره الله سبحانه أن يجيب عليهم بهذا، وهو أن الضلال بمشيئة الله سبحانه، مَنْ شاء أن يضله ضلّ كما ضلّ هؤلاء القائلون ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ ﴿وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ﴾؛ أي: ويهدي إلى الحق، أو إلى الإسلام، أو إلى جنابه ﷻ ﴿مَنۡ أَنَابَ﴾؛ أي: مَنْ رجع إلى الله بالتوبة والإقلاع عما كان عليه، وأصل الإنابة: الدخول في نوبة الخير، كذا قال النيسابوري(١)، ومحل ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ النصب(٢) على البدلية مِنْ قوله: ﴿مَنۡ أَنَابَ﴾؛ أي: أنهم هم الذين هداهم الله وأنابوا إليه، ويجوز أن يكون ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هم الذين آمنوا، أو منصوب على المدح ﴿وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ﴾؛ أي: تسكن وتستأنس بذِكر الله سبحانه بألسنتِهم؛ كتلاوة القرآن والتسبيح والتحميد والتكبير والتوحيد، أو بسماع ذلك من غيرهم.

وقد سمَّى سبحانه القرآن ذكراً قال: ﴿وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُۚ﴾ [الأنبياء: ٥]، وقال: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ﴾ [الحجر: ٩].

قال الزجاج(٣): أي: إذا ذُكر الله وحده آمنوا به غير شاكين بخلاف من وصف بقوله: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ [الزمر: ٤٥] وقيل(٤): تطمئن قلوبهم بتوحيد الله، وقيل: المراد بالذكر هنا: الطاعة(٥)، وقيل: بوعد الله.

---

(١) في «الوسيط» (٣/ ١٥).
(٢) «روح المعاني» (١٣/ ١٤٠)، و«الفريد» (٤/ ١٣٥)، و«الكشاف» (٣/ ٣٥١)، و«البحر المحيط» (٦/ ٣٨٥).
(٣) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ١٤٧).
(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٦٥)، و«النكت والعيون» (٣/ ١١٠).
(٥) «جامع البيان» (١٢/ ٥١٩).

وقيل: بالحَلْف بالله، فإذا حلف خصمه بالله سكن قلبه، وقيل: بذكر رحمته، وقيل: بذكر دلائله الدالة على توحيده ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ وحده دون غيره ﴿تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ والنظر في مخلوقات الله سبحانه وبدائع صنعه وإنْ كان يفيد طمأنينة في الجملة، لكنْ ليست كهذه الطمأنينة، وكذلك النظر في المعجزات من الأمور التي لا يطيقها البشر، فليس إفادتها للطمأنينة كإفادة ذكر الله، فهذا وجه ما يفيده هذا التركيب مِنْ القصر.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ الموصول[١] مبتدأ خبره الجملة الدعائية، وهي طُوبى لهم على التأويل المشهور، ويجوز أن يكون الموصول في محل نصب على المدح، وطوبى لهم خبر مبتدأ محذوف، ويجوز أن يكون الموصول بدلاً مِنْ القلوب على حذف مضاف؛ أي: قلوب الذين آمنوا.

قال أبو عبيدة[٢] والزجاج[٣] وأهل اللغة[٤]: طوبى فُعْلى مِنْ الطيب.

قال ابن الأنباري[٥]: وتأويلها الحال المستطابة، وقيل: طوبى شجرة في الجنة، وقيل: هي الجنّة، وقيل: هي البستان بلغة الهند، وقيل: معنى طوبى لهم: حُسْنى لهم، وقيل: خير لهم، وقيل: كرامة لهم، وقيل: غبطة لهم.

قال النحاس[٦]: وهذه الأقوال متقاربة، والأصل طيبى فصارت الياء واواً لسكونها وضَم ما قبلها، واللام في (لهم) للبيان مثل: سقياً لك ورعياً لك. وقرئ «حُسنَ مآب» بالنصب[٧] والرفع، مِنْ آب إذا رجَع؛ أي: وحسنُ مرجعٍ، وهو الدار الآخرة.

﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ﴾؛ أي: مثل ذلك الإرسال العظيم

---

(١) «التبيان» (٢/ ٧٥٨)، و«روح المعاني» (١٣/ ١٤٣)، و«الفريد» (٣/ ١٣٦).

(٢) في «الغريبين» (٤/ ١١٩١). (٣) في «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١٤٨).

(٤) «الصحاح» (١/ ١٧٣).

(٥) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٣/ ١٦)، والقرطبي في «تفسيره» (١٢/ ٦٨).

(٦) في «معاني القرآن» (٣/ ٤٩٤).

(٧) «روح المعاني» (٣/ ١٤٥)، و«البحر المحيط» (٦/ ٣٨٦). المتواتر عن القرّاء العشرة الرفع في كلمة «حسنُ» وأما النصب فشاذ.

الشأن المشتمل على المعجزة الباهرة أرسلناك يا محمد، وقيل: شبّه الإنْعام لمن أُرسل إليه محمد ﷺ بالإنْعام على مَنْ أرسل إليه الأنبياء قبله، ومعنى ﴿فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ﴾: في قَرْنٍ قد مضت مِنْ قبله قرون، أو في جماعة من الناس قد مضت من قبلها جماعات ﴿لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾؛ أي: لتقرأ عليهم القرآن، ﴿وَ﴾ الحال[1] أن ﴿هُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾؛ أي: بالكثير الرحمة لعباده، ومن رحمته لهم إرسال الرسل إليهم، وإنزال الكتب عليهم كما قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وجملة ﴿قُلۡ هُوَ رَبِّي﴾ مستأنفة[2] بتقدير سؤال كأنهم قالوا: وما الرحمٰن؟ فقال سبحانه: ﴿قُلۡ﴾ يا محمد: ﴿هُوَ رَبِّي﴾؛ أي: خالقي ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: لا يستحق العبادة له والإيمان به سواه ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ في جميع أموري ﴿وَإِلَيۡهِ﴾ لا إلى غيره ﴿مَتَابِ﴾؛ أي: توبتي، وفيه تعريض بالكفار وحثّ لهم على الرجوع إلى الله، والتوبة من الكفر والدخول في الإسلام.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن عبد الرحمٰن بن سابط[3] في قوله: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ﴾ قال: كزاد الراعي، يزوِّده أهلُه الكف مِنْ التمر أو الشيء من الدقيق أو الشيء يشرب عليه اللبن.

وأخرج ابنُ أبي حاتم[4] عن ابن عباس في الآية قال: كان الرجل يخرج في الزمان الأول في إبله، أو غنمه فيقول لأهله: متّعوني. فيمتعونه فِلقَة الخبز أو التمر، فهذا مَثَلٌ ضربه الله للدنيا.

وأخرج الترمذي[5] وصححه عن عبد الله بن مسعود قال: «نام رسول الله ﷺ على حصيرٍ فقام وقد أثَّر في جَنْبه، فقلنا: يا رسولَ الله لو اتخذنا لك؟ فقال: ما لي وللدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة، ثم راح وترَكَها».

---

(١) «الفريد» (٣/ ١٣٧)، و«البحر المحيط» (٦/ ٣٨٧)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ٢١٥).

(٢) «روح المعاني» (١٣/ ١٤٩)، و«البحر المحيط» (٦/ ٣٨٧).

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٥١٧) بسند ضعيف.

(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٦٤١).

(٥) أخرجه الترمذي في «السنن» رقم (٢٣٧٧). وهو حديث صحيح.

وأخرج مسلم، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه عن المستورد(١) قال: قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا كمَثل ما يجعل أحدُكم أصبعه هذه في اليمّ فلينظر بم يرجُع؟ وأشار بالسبابة».

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة(٢) في قوله: ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِۗ﴾ قال: هشّتْ إليه واستأنست به.

وأخرج أبو الشيخ(٣) عن السدّي في الآية قال: إذا حُلف لهم بالله صدَّقوا ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ قال: تَسْكُن.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد(٤) في الآية قال: بمحمد وأصحابه.

وأخرج أبو الشيخ(٥) عن أنس قال: «قال رسول الله ﷺ لأصحابه حين نزلت هذه الآية ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾: هل تدرون ما معنى ذلك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: مَنْ أحب اللهَ ورسولَه وأحبّ أصحابي».

وأخرج ابن مردويه(٦) عن عليّ؛ أن رسول الله ﷺ لما نزلت [٣/١٠٨] هذه الآية ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ قال: «ذاك مَنْ أحبّ الله ورسوله، وأحب أهل بيتي صادقاً غَير كاذب، وأحبّ المؤمنين شاهداً وغائباً، ألا بذكر الله يتحابُّون».

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس(٧) في قوله: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ قال: فَرَحٌ وقُرّة عين.

وأخرج ابن أبي شيبة، وعناد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن عكرمة(٨) في قوله: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ قال: نِعْمَ ما لهم.

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» رقم (٢٨٥٨)، والترمذي رقم (٢٣٢٣)، وابن ماجه رقم (٤١٠٨)، والنسائي كما في «تحفة الأشراف» (٨/ ٣٧٦).
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٥١٨) بسند صحيح.
(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٦٤٢).
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٥١٩) بسند صحيح.
(٥) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٦٤٢).
(٦) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٦٤٢).
(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٥٢١) بسند صحيح.
(٨) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٥٢٠)، وهنّاد في «الزهد» رقم (١٢١) بأسانيد يقوي بعضها بعضًا.

وقد روي عن جماعة من السلف نحو ما قدّمنا ذكره من الأقوال.

والأرجح: تفسير الآية بما روي مرفوعاً إلى النبيّ ﷺ كما أخرجه أحمد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي عن عتبة بن عبد[(١)] قال: «جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله في الجنة فاكهة؟ قال: نعم فيها شجرة تُدْعى طوبى» الحديث.

وأخرج أحمد، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والخطيب في «تاريخه» عن أبي سعيد الخدري[(٢)]، عَنْ رسول الله ﷺ: «أن رجلاً قال: يا رسولَ الله طوبى لمن رآك وآمن بك، قال: طوبى لمن آمن بي ورآني، ثم طُوبى ثم طُوبى ثم طُوبى لمَن آمن بي ولم يَرَني، فقال رجل: وما طوبى؟ قال: شجرة في الجنّة مسيرَ مائة عام، ثيابُ أهل الجنة تخرج مِنْ أكمامها»، وفي الباب أحاديث وآثار عن السلف.

وقد ثبت في «الصحيحين» وغيرهما من حديث أنس[(٣)] قال: قال رسول الله ﷺ: «في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة، اقرءوا إن شئتم ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٣٠]»، وفي بعض الألفاظ: «إنها شجرة الخلد».

وأخرج أبو الشيخ عن السديّ[(٤)] ﴿وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ قال: حسنُ منقلب.

وأخرج ابن جرير عن الضحاك[(٥)] مثله.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة[(٦)] في قوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ قال: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ زمن الحديبية حين صالح قريشاً كتب في

---

(١) أخرجه أحمد رقم (١٧٦٤٢)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٥٢٨)، وابن حبان رقم (٦٤٥٠)، والطبراني (ج١٧ رقم ٣١٢، ٣١٣)، وفي «الأوسط» رقم (٤٠٢)، والبيهقي في «البعث والنشور» (٣٠٠، ٣٠١) بسند جيد.

(٢) أخرجه أحمد رقم (١١٦٧٢)، وأبو يعلى رقم (١٣٧٤)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٥٢٩)، وابن حبان رقم (٧٤١٣)، والخطيب في «تاريخه» (٤/ ٩٠، ٩١) بسند ضعيف دون قوله: «طوبى لمن رآني وآمن بي، وطوبى لمن آمن بي ولم يرني» فهو حسن لغيره.

(٣) أخرجه البخاري رقم (٣٢٥١)، ومسلم رقم (٢٨٢٦/٧٢٦).

(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٦٥٠).

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٥٢٩) بسند ضعيف.

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٥٣٠) بسند صحيح.

الكتاب: «بسم الله الرحمٰن الرحيم، فقالت قريش: أمّا الرحمٰن فلا نعرفه، وكان أهل الجاهلية يكتبون باسمك اللَّهُمَّ، فقال أصحابه: دعنا نقاتلهم، فقال: لا، ولكن اكتبوا كما يُريدون».

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن جريج[١] في هذه الآية نحوه.

وأخرج ابن أبي حاتم[٢] عن مجاهد ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ قال: توبتي.

[ما صنعه هذا القرآن في النفوس التي تلقته وتكيفت به]:

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًاۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْۗ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَاۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ قيل: هذا متصل بقوله: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ﴾ [الرعد: ٧] وأنّ جماعة من[٣] الكفار سألوا رسولَ الله ﷺ أن يسيّر لهم جبال مكة حتى تنفسح فإنها أرض ضيقة، فأمره الله سبحانه بأن يجيب عليهم بهذا الجواب المتضمن لتعظيم شأن القرآن، وفساد رأي الكفار حيث لم يقنعوا به وأصرّوا على تعنتهم وطلبهم ما لو فعله الله سبحانه لم يبق ما تقتضيه الحكمة الإلٰهية من عدم إنزال الآيات التي يؤمن عندها جميع العباد. ومعنى ﴿سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ أي: بإنزاله وقراءته فسارت عَنْ محل استقرارها ﴿أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ﴾ أي: صدّعت

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٥٣١) بسند ضعيف.

(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٦٥١).

(٣) «جامع البيان» (١٣/ ٥٣١)، «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٧١).

حتى صارت قطعاً متفرقة ﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰۗ﴾ أي: صاروا أحياء بقراءته عليهم، فكانوا يفهمونه عند تكليمهم به كما يفهمه الأحياء.

وقد اختلف في جواب (لو) ماذا هو؟ فقال الفرّاء[1]: هو محذوف، وتقديره: لكانَ هذا القرآن، وروي عنه[2] أنّه قال: إن الجواب: لكفروا بالرحمٰن؛ أي: لو فعل بهم هذا لكفروا بالرحمٰن، وقيل: جوابه: لما آمنوا كما سبق في قوله: ﴿مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١] وقيل: الجواب متقدّم، وفي الكلام تقديم[3] وتأخير؛ أي: وهم يكفرون بالرحمٰن لو أن قرآناً إلى آخره، وكثيراً ما تحذف العرب جواب «لو» إذا دلّ عليه سياق الكلام، ومنه قول امرئ القيس[4]:

فلو أنها نفسٌ تموت جميعةً ولكنها نفسٌ تَساقطُ أنفُساً

أي: لهان عليّ ذلك ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًاۗ﴾ أي: لو أنّ قرآناً فعل به ذلك لكان هذا القرآن، ولكن لم يفعل؛ بل فعل ما عليه الشأن الآن، فلو شاء أن يؤمنوا لآمنوا وإذا لم يشأ أن يؤمنوا لم ينفع تسيير الجبال وسائر ما اقترحوه من الآيات، فالإضراب متوجه إلى ما يؤدّى إليه كون الأمر لله سبحانه، ويستلزمه من توقف الأمر على ما تقتضيه حكمته ومشيئته، ويدلّ على أن هذا هو المعنى المراد من ذلك قوله: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۗ﴾.

قال الفرّاء[5]: قال الكلبي ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ﴾ بمعنى: أَفلمْ يعلم؟ وهي لغة النّخَع.

قال في الصحاح[6]: وقيل: هي لغة هوازن، وبهذا قال جماعة من السلف.

قال أبو عُبيدة[7]: أفلم يعلموا ويتبينوا؟

قال الزجّاج[8]: وهو مجاز لأن اليائس من الشيء عالم بأنه لا يكون،

---

(١) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٦٣). (٢) أي: الفراء في «معاني القرآن» (٢/ ٦٤).
(٣) «جامع البيان» (١٣/ ٥٣١)، و«التبيان» (٢/ ٧٥٨ ـ ٧٥٩)، و«الفريد» (٣/ ١٣٧).
(٤) انظر: «ديوان امرئ القيس» (ص١٠٧).
(٥) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٦٤).
(٦) أي: الجوهري في «الصحاح» (٣/ ٩٩٣).
(٧) في «مجاز القرآن» (١/ ٣٣٢).
(٨) في «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٣/ ١٤٨).

نظيره استعمال الرجاء في معنى الخوف، والنسيان في الترك لتضمنهما إياهما، ويؤيده قراءة عليّ، وابن عباس، وجماعة (أفلم يتبيّن)(١)، ومن هذا قول رباح بن عدّي(٢):

ألـم يـيـأس الأقـوامُ أنـي أَنـا ابـنُـه وإن كنتُ عن أرضِ العشيرةِ نائبا

أي: ألم يعلم، وأنشد في هذا أبو عبيدة قول مالك بن عوف(٣) النصّري:

أقولُ لهم بالشِّعبِ إذْ يأْسرونني ألم تيأسُوا أني ابنُ فارسِ زهدمِ

أي: ألم تعلموا، فمعنى الآية على هذا: أفلم يعلم الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً من غير أن يشاهدوا الآيات.

وقيل: إن الإياس على معناه الحقيقي؛ أي: أَفلم ييأس الذين آمنوا من إيمان هؤلاء الكفار، لعلمهم أنّ الله تعالى لو أراد هدايتهم لهداهم؛ لأن المؤمنين تمنوا نزول الآيات التي اقترحها الكفار طمعاً في إيمانهم. ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ﴾ هذا وعيد للكفار على العموم، أو لكفّار مكة على الخصوص؛ أي: لا يزال الذين كفروا تُصيبهم بسبب ما صنعوا مِنْ الكفر والتكذيب للرسل قارعة؛ أي: داهية(٤) تفجؤهم، يقال: قرَعَه الأمر: إذا أصابه، والجمع قوارع، والأصل في القرع: الضرْبُ. قال الشاعر:

أفنى تِلادي وما جمعْتُ من نَشَبٍ قرعُ القراقير أفواهَ الأباريقِ(٥)

والمعنى: أن الكفار لا يزالون كذلك حتى تصيبهم(٦) داهيةٌ مهلكة من قتل أو أسْر أو جدْبٍ أو نحو ذلك من العذاب؛ وقد قيل: إن القارعة: النكبة، وقيل:

---

(١) «القراءات الشاذة» (ص٦٧)، و«المحتسب» (١/ ٣٥٧)، و«روح المعاني» (١٣/ ١٥٤). وهي قراءة شاذة، مخالفة للرسم.

(٢) «روح المعاني» (١٣/ ١٥٤)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٧٣).

(٣) «مجاز القرآن» (١/ ٣٣٢)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٧٣). وقيل البيت لسحيم بن وثيل اليربوعي كما في «تفسير الطبري» (١٣/ ٥٣٥) و«تفسير غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٢٢٨).

(٤) «جامع البيان» (١٣/ ٥٤١)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٧٥)، و«روح المعاني» (١٣/ ١٥٩ ـ ١٦٠).

(٥) «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٧٤)، و«المقتضب» (١/ ٢١).

(٦) «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٧٥).

الطلائع والسرايا، ولا يخفى أن القارعة تطلق على ما هو أعمّ من ذلك ﴿أَوْ تَحُلُّ﴾ أي: القارعة ﴿قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ فيفزعون منها ويشاهدون من آثارها ما ترجف له قلوبُهم، وترعد منه بوادرُهم.

وقيل: إن الضمير[(١)] في ﴿تَحُلُّ﴾ للنبي ﷺ. والمعنى: أو تحلّ أنت يا محمد قريباً مِنْ دارهم، محاصراً لهم، آخذاً بمخانقهم كما وقع منه لأهل الطائف ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾ وهو موتهم، أو قيام الساعة عليهم، فإنّه إذا جاء وعد الله المحتوم حلّ بهم مِنْ عذابه ما هو الغاية في الشدّة.

وقيل: المراد بوعد الله هنا الإذن منه بقتال الكفار، والأوّل أولى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ فما جرى به وعده فهو كائن لا محالة.

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ التنكير[(٢)] في رسل للتكثير؛ أي: برسل كثيرة، والإملاء: الإمهال، وقد مرّ تحقيقه في الأعراف ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ بالعذاب الذي أنزلته بهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ الاستفهام للتقريع[(٣)] والتهديد؛ أي: فكيف كان عقابي لهؤلاء الكفار الذين استهزءوا بالرسل، فأمليت لهم ثم أخذتهم؟ [٣/١٠٩] ثم استفهم سبحانه استفهاماً آخر للتوبيخ[(٤)] والتقريع يجري مجرى الحجاج للكفار واستركاك صُنعهم، والإزراء عليهم، فقال: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ﴾ القائم: الحفيظ والمتولي للأمور، وأراد سبحانه نفسَه، فإنّه المتولي لأمور خلقه المُدبِّر لأحوالهم بالآجال والأرزاق، وإحصاء الأعمال على كل نفس من الأنفس كائنة ما كانت، والجواب محذوف؛ أي: أفمن هو بهذه الصفة كمن ليس بهذه الصفة مِنْ معبوداتكم التي لا تنفع ولا تضرّ؟

قال الفراء[(٥)]: كأنه في المعنى: أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت كشركائهم الذين اتخذوهم مِنْ دون الله، والمراد من الآية: إنكار المماثلة بينهما.

---

(١) «التبيان» (٢/ ٧٥٩)، و«الفريد» (٣/ ١٣٩)؛ و«روح المعاني» (١٣/ ١٦٠).

(٢) «روح المعاني» (١٣/ ١٦١)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ٢٢٠).

(٣) «الفريد» (٣/ ١٣٩)، و«روح المعاني» (٣/ ١٦١)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ٢٢٠)، و«المحرر الوجيز» (٩/ ٤٤ ـ ٤٥).

(٤) انظر: المصادر المتقدمة.

(٥) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٦٤ ـ ٦٥).

وقيل: المراد بمن هو قائم على كل نفس: الملائكة[1] الموكّلون ببني آدم، والأوّل أولى.

وجملة ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ معطوفة[2] على الجواب المقدّر، مبينة له، أو حالية بتقدير قَدْ؛ أي: وقد جعلوا، أو معطوفة على ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ﴾ أي: استهزءوا وجعلوا ﴿قُلْ سَمُّوهُمْۚ﴾ أي: قُلْ يا مُحمّد: جعلتم له شركاء فسمّوهم مَنْ هم؟ وفي هذا تبكيت لهم، وتَوبيخ؛ لأنّه إنما يقال هكذا في الشيء المستحقر الذي لا يستحّق أَنْ يلتفت إليه، فيقال: سمّه إنْ شئت، يعني: أَنّه أحقر مِنْ أنْ يُسمّى.

وقيل: إن المعنى: سموهم[3] بالآلهة كما تزعمون، فيكون ذلك تهديداً لهم ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ﴾ أي: بل أتنبئون الله ﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مِنْ الشركاء[4] الذين تعبدونهم مع كونه العالِم بما في السمٰوات والأرض ﴿أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِۗ﴾ أي: بل أتسمونهم شركاء بظاهرٍ من القول مِنْ غير أن تكون له حقيقة؟

وقيل: المعنى: قل لهم: أتنبئون الله بباطنٍ لا يعلمه أم بظاهر يعلمه؟ فإن قالوا: بباطن لا يعلمه فقد جاءوا بدعوى باطلة، وإن قالوا: بظاهر يعلمه، فقل لهم: سمّوهم، فإذا سموا اللات والعزى ونحوهما، فقل لهم: إنّ الله لا يعلم لنفسه شريكاً، وإنما خصّ الأرض بنفي الشريك عنها، وإنْ لم يكن له شريك في غير الأرض؛ لأنهم ادّعوا له شريكاً في الأرض.

وقيل: معنى ﴿أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِۗ﴾: أم بزائل مِنْ القول باطل، ومنه قول الشاعر[5]:

أعيّرتَنا ألبانَها ولحومَها وذلك عارٌ يا ابنَ رَيطةَ ظاهرُ

أي: زائل باطل، وقيل: بكذبٍ من القول، وقيل: معنى بظاهر من القول: بحجة من القول ظاهرة على زعمهم ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ﴾ أي: ليس لله شريك؛ بل زُين للذين كفروا مكرُهم. وقرأ ابن عباس (زَيّنَ) على[6] البناء للفاعل على أَنّ الذي زين لهم ذلك هو مكرُهم.

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٢/ ٧٧)، عن الضحاك.
(٢) «الفريد» (٣/ ١٣٩)، و«التبيان» (٢/ ٧٥٩)، و«البحر المحيط» (٦/ ٣٩٣).
(٣) انظر: «تفسير الرازي» (١٩/ ٥٦). (٤) «جامع البيان» (١٣/ ٥٤٩).
(٥) هو: سَبُرةُ بن عمرو الفَقْعَسي، و«خزانة الأدب» (٩/ ٥٠٤).
(٦) «القراءات الشاذة» (ص٦٧). وهي قراءة شاذة.

وقرأ مَنْ عداه[1] بالبناء للمفعول، والمزين هو الله سبحانه، أو الشيطان ويجوز أَنْ يسمى المكر كُفْراً؛ لأن مكرهم برسول الله ﷺ كان كفراً. وأما معناه الحقيقي: فهو الكيدُ، أو التمويه بالأباطيل ﴿وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم (صدّوا) على البناء[2] للمفعول؛ أي: صَدّهم الله، أو صَدّهم الشيطان.

وقرأ الباقون على البناء للفاعل[3]؛ أي: صدّوا غيرَهم، واختار هذه القراءة أبو حاتم[4].

وقرأ يحيى بن وثّاب بكسر الصاد[5] ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ أي: يجعله ضالّاً، وتقتضي مشيئته إضلاله، فما له مِنْ هادٍ يهديه إلى الخير. قرأ الجمهور (هاد) من دون إثبات[6] الياء على اللغة الكثيرة الفصيحة. وقرئ بإثباتها[7] على اللغة القليلة.

ثم بيَّن سبحانه ما يستحقونه، فقال: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ﴾ بما يصابون به من القتل والأسر وغير ذلك ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّۖ﴾ عليهم من عذاب الحياة الدنيا ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ يقيهم عذابه، ولا عاصم يعصمهم منه. ثم لما ذكر سبحانه ما يستحقه الكفار مِنْ العذاب في الأولى والأخرى، ذكر ما أعدّه للمؤمنين، فقال: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ﴾ أي: صفتها العجيبة الشأن التي هي في الغرابة كالمثل.

قال ابن قتيبة[8]: المَثَل الشَّبَه في أَصْل اللغة، ثم قد يصير بمعنى صورة الشيء

---

(١) «التيسير» (ص١٣٣)، و«النشر» (٢/ ١٣٧).
(٢) «التيسير» (ص١٣٣)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٧٨)، و«البحر المحيط» (٦/ ٣٩٣). قراءة (صُدوا) بضم الصاد عن حمزة والكسائي وعاصم ومعهم يعقوب وخلف وأمّا (صَدّوا) بفتح الصاد فقراءة أهل الحرمين وابن عامر وأبي عمرو. وأمّا قراءة (صِدوا) بكسر الصاد فشاذة.
(٣) انظر: المصادر المتقدمة.
(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٢/ ٧٨).
(٥) «القراءات الشاذة» (ص٦٧).
(٦) «التيسير» (ص١٣٤)، و«النشر» (٢/ ١٣٧)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ٢٤)، و«التبيان» (٢/ ٧٥٢).
(٧) انظر: المصادر المتقدمة.
(٨) انظر: «معاني القرآن» (٣/ ٥٠١) لأبي جعفر النحاس.

وصفته، يقال: مثلت لك كذا؛ أي: صوّرته ووصفتُه، فأراد هنا بمثل الجنة وصورتها وصفتها، ثم ذكرها، فقال: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ وهو كالتفسير للمثل.

قال سيبويه(١): وتقديره: فيما قصصْنا عليك مثلُ الجنة.

وقال الخليل(٢) وغيره: إن ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ مبتدأ والخبر ﴿تَجْرِى﴾.

وقال الزجاج(٣): إنّه تمثيل للغائب بالشاهد، ومعناه: مثل الجنة جنة تجري من تحتها الأنهار؛ وقيل: إن فائدة الخبر ترجع إلى ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ أي: لا ينقطع، ومثله قوله سبحانه: ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٣].

وقال الفراء(٤): المَثل مقحم للتأكيد، والمعنى: الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار، والعرب تفعل ذلك كثيراً ﴿وَظِلُّهَا﴾ أي: كذلك دائم لا يتقلص ولا تنسخه الشمس، والإشارة بقوله: ﴿تِلْكَ﴾ إلى الجنة الموصوفة بالصفات المتقدّمة، وهو مبتدأ خبره(٥) ﴿عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ أي: عاقبة الذين اتقوا المعاصي، ومنتهى أمرهم ﴿وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ ليس لهم عاقبة ولا منتهى إلّا ذلك.

وقد أخرج الطبراني، وأبو الشيخ عن ابن عباس(٦) قال: قالوا للنبيّ ﷺ: إن كان كما تقول فأرِنا أشياخَنا الأُوَلَ من الموتى نكلِّمهم، وافسِحْ لنا هذه الجبال جبال مكة التي قد ضمَّتنا، فنزلت: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ الآية.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه عن عطية العوفي(٧) قال: قالوا لمحمد ﷺ: لو سَيّرتَ لنا جبال مكة حتى تتسع فنحرثَ فيها، أو قطعت لنا الأرض كما كان سليمان يقطع لقومه بالريح، أو أحييت لنا الموتى كما كان يحيي عيسى الموتى لقومه، فأنزل الله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ الآية إلى قوله: ﴿أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ قال: أفلم يتبين الذين آمنوا؟ قالوا: هل تروي هذا

---

(١) في «الكتاب» (١/ ١٤٣). (٢) «معاني القرآن» للنحاس (٣/ ٥٠١).

(٣) في «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٣/ ١٤٩).

(٤) «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٦٥).

(٥) «الفريد» (٣/ ١٤٠ ـ ١٤١)، و«مشكل إعراب القرآن» (١/ ٤٤٤)، و«روح المعاني» (١٣/ ١٧٣).

(٦) أخرجه الطبراني رقم (١٢٦١٧)، والضياء في «المختارة» (٩/ ٥٥٦، ٥٥٧).
قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٤٣): وفيه قابس بن أبي ظبيان وهو ضعيف.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم كما في «تخريج أحاديث الكشاف» (٢/ ١٩١)، وفي «تفسير ابن كثير» (٨/ ١٥١) بسند ضعيف، عطية العوفي، وبشر بن عمارة، ضعيفان.

الحديث عَنْ أحد من أصحاب النبيّ ﷺ؟ قال: عَنْ أبي سعيد الخدريّ عن النبيّ ﷺ.

وأخرجه أيضاً ابن أبي حاتم[١] قال: حدّثنا أبو زرعة، حدّثنا منجاب بن الحارث، أخبرنا بشر بن عمارة، حدّثنا عمر بن حسان، عن عطية العوفي فذكره.

وأخرج ابن جرير، وابن مردويه من طريق العوفي عن ابن عباس[٢] نحوه مختصراً.

وأخرج أبو يعلى، وأبو نعيم في «الدلائل»، وابن مردويه عن الزبير[٣] بن العوام في ذكر سبب نزول الآية نحو ما تقدّم مطوّلاً.

وأخرج ابن إسحاق، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[٤] في قوله: ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًاۗ﴾: لا يصنع من ذلك إلّا ما يشاء، ولم يكن ليفعل.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[٥] ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ﴾ يقول: يَعْلم.

وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ من طريق أخرى[٦] عنه نحوه.

وأخرج أبو الشيخ[٧] عن ابن زيد نحوه.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن أبي العالية[٨] ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ﴾ قال: قد يئس الذين آمنوا أن يُهْدَوا، ولو شاء الله لهدى الناس جميعاً.

وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس[٩] في قوله: ﴿تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ﴾ قال: السرايا.

وأخرج الطيالسي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ،

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٨/ ١٥١)، وانظر: «تخريج أحاديث الكشاف» (١٩١١٢).
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٥٣١ ـ ٥٣٢) بسند ضعيف.
(٣) أخرجه أبو يعلى في «مسنده» رقم (٦٧٩) بسند ضعيف.
(٤) «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٣٠٨ ـ ٣٠٩).
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٥٣٨) بسند صحيح.
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٥٣٨) بسند ضعيف.
(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٥٣٨) عن ابن زيد بسند صحيح.
(٨) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٦٥٤).
(٩) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٥٤٠) بسند صحيح.

وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل» عنه[(١)] نحوه، وزاد: ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ قال: أنت يا محمد حتى يأتي وعدُ الله. قال: فتح مكة.

وأخرج ابن مردويه[(٢)] عن أبي سعيد نحوه.

وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[(٣)] ﴿قَارِعَةٌ﴾ قال: نكبة.

وأخرج ابن جرير، وابن مردويه من طريق العوفي عنه[(٤)] ﴿قَارِعَةٌ﴾ قال: عذاب مِنْ السماء، ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ يعني: نزول رسول الله ﷺ بهم، وقتاله آباءهم.

وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عنه[(٥)] أيضاً في قوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ قال: يعني بذلك نفسه.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن عطاء[(٦)] في الآية قال: الله تعالى قائم بالقِسْط والعدل على كلِّ نفس.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عَنْ مجاهد[(٧)] في قوله: ﴿أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ قال: الظاهر مِنْ القول هو الباطل.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن عكرمة[(٨)] في قوله: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ قال: نعتُ الجنة؛ ليس للجنة مَثَلٌ.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن إبراهيم التيمي[(٩)] في قوله: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ قال: لذَّاتها دائمة في أفوائهم.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٥٤٠)، والبيهقي (٤/ ١٦٨) بسند حسن.
(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٦٥٥).
(٣) عزاه إليهم السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٦٥٥).
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٥٤١) بسند ضعيف.
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٥٤٦ ـ ٥٤٧) بسند ضعيف.
(٦) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٦٥٥).
(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٥٤٢، ٥٤٣)، والبيهقي في «الدلائل» (٤/ ١٦٨) بسند صحيح.
(٨) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٦٥٧).
(٩) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٦٥٧).

﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾.

[وحدة العبادة ووحدة الدعوة ووحدة المآب]:

اختلف المفسرون في تفسير الكتاب المذكور فقيل: هو التوراة والإنجيل، والذين يفرحون بما أنزل إلى رسول الله ﷺ هم مَنْ أسلم من اليهود والنصارى، وقيل: الذين يفرحون هم أهل الكتابين لكون ذلك موافقاً [٣/١١٠] لما في كتبهم مصدّقاً له، فعلى الأوّل يكون المراد بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾ مَنْ لم يسلم مِنْ اليهود والنصارى، وعلى الثاني يكون المراد به: المشركين من أهل مكة ومَنْ يمثالهم، أو يكون المراد به: البعض مِنْ أهل الكتابين؛ أي: من أحزابهما، فإنّهم أنكروه لما يشتمل عليه مِنْ كونه ناسخاً لشرائعهم فيتوجه فرح مَنْ فرح به منهم إلى ما هو موافق لما في الكتابين، وإنكار مَنْ أنكر منهم إلى ما خالفهما.

وقيل: المراد بالكتاب: القرآن، والمراد بمن يفرح به: المسلمون، والمراد بالأحزاب: المتحزّبون على رسول الله ﷺ مِنْ المشركين واليهود والنصارى، والمراد بالبعض الذي أنكروه: مَنْ خالف ما يعتقدونه على اختلاف اعتقادهم. واعترض على هذا بأنّ فرح المسلمين بنزول القرآن معلوم فلا فائدة في ذكره، وأجيب عنه بأن المراد: زيادة الفرح والاستبشار.

وقال كثير مِنْ المفسرين[1]: إن عبد الله بن سلام والذين آمنوا معه من أهل الكتاب ساءهم قلة ذكر الرحمٰن في القرآن مع كثرة ذكره في التوراة، فأنزل الله ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ [الإسراء: ١١٠] ففرحوا بذلك، ثم لما بيّن ما يحصل بنزول القرآن مِنْ الفرح للبعض والإنكار للبعض صرّح بما عليه رسول الله ﷺ، وأمره أن

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٨٢ ـ ٨٣)، و«الوسيط» (٣/ ١٨)، و«جامع البيان» (١٣/ ٥٥٥ ـ ٥٥٦).

يقول لهم ذلك، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾ أي: لا أشرك به بوجه مِنْ الوجوه؛ أي: قل لهم يا محمد إلزاماً للحجة وردّاً للإنكار: إنما أمرت فيما أنزل إليّ بعبادة الله وتوحيده، وهذا أمر اتفقت عليه الشرائع وتطابقت على عدم إنكاره جميع الملل المقتدية بالرسل.

وقد اتفق القرّاء على نصب[1] ﴿وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾ عطفاً على ﴿أَعْبُدَ﴾. وقرأ أبو خُليد بالرفع[2] على الاستئناف، وروى هذه القراءة عَنْ نافع ﴿إِلَيْهِ أَدْعُواْ﴾ أي: إلى الله لا إلى غيره، أو إلى ما أُمرت به وهو عبادة الله وحده، والأوّل أولى لقوله: ﴿وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ فإنّ الضمير لله سبحانه؛ أي: إليه وحده لا إلى غيره مرجعي.

ثم ذكر بعض فضائل القرآن[3]، وأوعد على الإعراض عن اتباعه مع التعرّض لردّ ما أنكروه مِنْ اشتماله على نسخ بعض شرائعهم فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّاۚ﴾ أي: مثل ذلك الإنزال البديع أنزلنا القرآن مشتملاً على أصول الشرائع وفروعها.

وقيل: المعنى: وكما أنزلنا الكتب على الرسل بلغاتهم كذلك أنزلنا عليك القرآن بلسان العرب، ويريد بالحكم ما فيه مِنْ الأحكام أو حكمة عربية مترجمة بلسان العرب، وانتصاب ﴿حُكْمًا﴾ على[4] الحال ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ التي يطلبون منك موافقتهم عليها كالاستمرار منك على التوجه إلى قبلتهم، وعدم مخالفتك لشيء مما يعتقدونه ﴿بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ الذي علمك الله إياه ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي: من جنابه ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ يلي أمرك وينصرك ﴿وَلَا وَاقٍ﴾ يقيك من عذابه، والخطاب لرسول الله ﷺ تعريض لأمّته، واللّام في ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ﴾ هي الموطئة[5] للقسم، و﴿مَا لَكَ﴾ سادّ مسدّ جواب القسم والشرط ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾ أي: إنّ الرسل الذين أرسلناهم قبلك هم من جنس البشر لهم أزواج من

---

(١) «البحر المحيط» (٦/ ٣٩٦)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٨٣)، و«روح المعاني» (١٣/ ١٧٥).
(٢) «القراءات الشاذة» (ص٦٧). قراءة القرّاء العشرة هو المتواتر، أما الرفع فشاذ، وهي رواية شاذة عن نافع.
(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٨٣ ـ ٨٤)، و«معالم التنزيل» (٣/ ٢٢)، و«جامع البيان» (١٣/ ٥٥٧).
(٤) «البحر المحيط» (٦/ ٣٩٦)، و«روح المعاني» (١٣/ ١٧٨).
(٥) «تفسير أبي السعود» (٤/ ٢٢٣)، و«روح المعاني» (١٣/ ١٧٩).

النساء، ولهم ذرّية توالدوا منهم ومن أزواجهم، ولم نُرسل الرسل مِنْ الملائكة الذين لا يتزوجون ولا يكون لهم ذرية.

وفي هذا ردّ على مَنْ كان ينكر على رسول الله ﷺ تزوّجه بالنساء؛ أي: أن هذا شأن رسل الله المرسلين قبل هذا الرسول فما بالكم تنكرون عليه ما كانوا عليه؟ ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: لم يكن لرسول من الرسل أن يأتي بآية من الآيات، ومِنْ جملتها ما اقترحه عليه الكفار إلّا بإذن الله سبحانه.

وفيه ردّ على الكفار حيث اقترحوا على رسول الله ﷺ من الآيات ما اقترحوا بما سبق ذكره. ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ أي: لكلّ أمر[١] مما قضاه الله، أو لكل وقت مِنْ الأوقات التي قضى الله بوقوع أمر فيها كتاب عند الله يكتبه على عباده، ويحكم به فيهم.

وقال الفرّاء[٢]: فيه تقديم وتأخير. والمعنى: لكلِّ كتاب أجلٌ؛ أي: لكل أمر كتبه الله أجل مؤجل، ووقت مَعْلوم كقوله سبحانه: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ [الأنعام: ٦٧] وليس الأمر على حسب إرادة الكفار واقتراحاتهم؛ بل على حسب ما يشاؤه ويختاره ﴿يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ أي: يمحو مِنْ ذلك الكتاب ويثبت ما يشاء منه. يقال: محوتُ الكتابَ محواً: إذا أذهبتُ أثرَه.

قرأ ابنُ كثير، وأبو عمرو، وعاصم (ويُثْبت) بالتخفيف.[٣] وقرأ الباقون[٤] بالتشديد، واختار هذه القراءة أبو حاتم[٥] وأبو عبيد[٦].

وظاهر النظم القرآني العموم[٧] في كلِّ شيء مما في الكتاب فيمحو ما يشاء محوه مِنْ شقاوة أو سعادة أو رزق أو عمر أو خير أو شرّ، ويبدل هذا بهذا، ويجعل هذا مكان هذا ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] وإلى هذا

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٨٧)، و«جامع البيان» (١٣/ ٥٥٨).
(٢) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٦٥).
(٣) «التيسير» (ص١٣٤)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٣٧)، و«روح المعاني» (١٣/ ١٨٠)، و«البحر المحيط» (٦/ ٣٩٩)، و«النشر» (٢/ ٢٩٨)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ٢٣). ومع هذه القراءة يعقوب.
(٤) انظر: المصادر المتقدمة.
(٥) ذكره النحاس في «معاني القرآن» (٣/ ٥٠٣).
(٦) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٢/ ٨٨)، والنحاس في «معاني القرآن» (٢/ ٥٠٣).
(٧) «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٨٨ ـ ٨٩)، و«روح المعاني» (١٣/ ١٨٢).

ذهب عمر بن الخطاب، وعبد الله بن مسعود، وابنُ عباس، وأبو وائل، وقتادة، والضحّاك، وابن جُريج وغيرهم؛ وقيل: الآية خاصة بالسعادة والشقاوة؛ وقيل: يمحو ما يشاء مِنْ ديوان الحفظة، وهو ما ليس فيه ثواب ولا عقاب ويثبت ما فيه الثواب والعقاب.

وقيل: يَمْحو ما يشاء[١] مِنْ الرزق، وقيل: يمحو مِنْ الأجل، وقيل: يمحو ما يشاء مِنْ الشرائع فينسخه، ويثبت ما يشاء فلا يَنْسخه، وقيل: يمحو ما يشاء من ذنوب عباده ويترك ما يشاء؛ وقيل: يمحو ما يشاء مِنْ الذنوب بالتوبة ويترك ما يشاء منها مع عدم التوبة؛ وقيل: يمحو الآباء ويثبت الأبناء؛ وقيل: يمحو القمر ويثبت الشمس كقوله: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢].

وقيل: يمحو ما يشاء مِنْ الأرواح التي يقبضها حال النوم فيميت صاحبه، ويثبت ما يشاء فيردّه إلى صاحبه؛ وقيل: يمحو ما يشاء مِنْ القرون ويثبت ما يشاء منها؛ وقيل: يمحو الدنيا ويثبت الآخرة.

وقيل غير ذلك مما لا حاجة إلى ذكره، والأوّل أولى كما تفيده «ما» في قوله: ﴿مَا يَشَآءُ﴾ مِنْ العموم مع تقدم ذكر الكتاب في قوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ ومع قوله: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: أصلُه، وهو اللوح[٢] المحفوظ، فالمراد من الآية: أنّه يمحو ما يشاء ممّا في اللوح المحفوظ فيكون كالعدم، ويثبت ما يشاء مما فيه فيجري فيه قضاؤه وقَدَرُه على حسب ما تقتضيه مشيئته، وهذا لا ينافي ما ثبت عنه ﷺ مِنْ قوله: «جفّ القلم»[٣]، وذلك لأنّ المحو والإثبات هو من جملة ما قضاه الله سبحانه؛ وقيل: إنّ أم الكتاب هو علم الله تعالى بما خلق وما هو خالق.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة[٤] في قوله: ﴿يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ قال: أولئك أصحابُ محمدٍ ﷺ فرحوا بكتاب الله

(١) «جامع البيان» (١٣/ ٥٦٦)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٩١)، و«فتح الباري» (١١/ ٣٠٩).
(٢) «معالم التنزيل» (٣/ ٢٣)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٩٤).
(٣) أخرجه البخاري رقم (٥٠٧٦)، والنسائي رقم (٥٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
وأخرجه أحمد (٢/ ١٧٦)، والترمذي رقم (٢٦٤٢) وقال: «هذا حديث حسن»، وابن حبان رقم (٦١٣٧) كلهم من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٥٥٦) بسند صحيح.

وبرسله وصدّقوا به ﴿وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥۚ﴾ يعني: اليهود والنصارى والمجوس.

وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن ابن زيد[١] في الآية قال: هؤلاء مَنْ آمن برسول الله ﷺ مِنْ أهل الكتاب يفرحون بذلك، ومنهم مَنْ يؤمن به، ومنهم من لا يؤمن به ﴿وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥۚ﴾ قال: الأحزاب الأمم اليهود والنصارى والمجوس.

وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة[٢] في قوله: ﴿وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ﴾ قال: إليه مصير كل عبد.

وأخرج ابن ماجه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه من طريق قتادة عن الحسن عن سَمُرة[٣] قال: نهى رسول الله ﷺ عن التبتل. وقرأ قتادة: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ﴾ الآية.

وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه عن سعد بن هشام[٤] قال: دخلت على عائشة فقلت: إنّي أريد أن أتبتل؟ قالت: لا تفعل، أما سمعت الله يقول: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗۚ﴾.

وقد ورد في النهي عَنْ التبتّل والترغيب في النِّكاح ما هو معروف.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد[٥] قال: قالت قريش حين أنزل: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾: ما نراك يا محمد تملك مِنْ شيء، ولقد فُرغ من الأمر، فأُنزلت هذه الآية تخويفاً لهم ووعيداً لهم ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ﴾ إنّا إن شئنا أحدثنا له من أمرنا شيئاً، ويحدث الله في كل رمضان فيمحو ما يشاء ويثبت من أرزاق الناس ومصائبهم وما يعطيهم وما يُقسِم لهم.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/٥٥٧) بسند صحيح.
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/٥٥٦ ـ ٥٥٧)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/٣٣٧) بسند صحيح.
(٣) أخرجه ابن ماجه رقم (١٨٤٩)، والطبراني رقم (٦٨٩٣). وهو حديث صحيح.
(٤) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٤/٦٥٩).
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/٥٦٨، ٥٦٩) بسند صحيح.

وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وابن جرير، وابن نصر، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «الشعب» عن ابن عباس[١] في قوله: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ [٣/١١١] قال: يَنزلُ الله في كلِّ شهر رمضان إلى سماء الدنيا، فيدبّر أمر السنة إلى السنة فيمحو ما يشاء ويثبت إلا الشقاوة والسعادة والحياة والموت.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم[٢] عنه في الآية قال: هو الرجل يعمل الزمان بطاعة الله، ثم يعود لمعصية الله فيموت على ضلالة، فهو الذي يمحو، والذي يثبت الرجلُ يعمل بمعصية الله وقد سبق له خيرٌ حتّى يموت على طاعة الله.

وأخرج ابن جرير، ومحمد بن نصر، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه[٣] عنه أيضاً في الآية قال: هما كتابان يمحو الله ما يشاء من أحدهما ويثبت، وعنده أم الكتاب؛ أي: جملةُ الكتاب.

وأخرج ابن جرير[٤] عنه أيضاً قال: إنّ لله لوحاً محفوظاً مسيرةَ خمسمائة عام مِنْ درّة بيضاء له دفّتان مِنْ ياقوت، والدفّتان لوحان: لله كل يوم ثلاث وستون لحظة ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾. وإسناده عند ابن جرير هكذا: حدّثنا محمد بن شهر بن عسكر، حدّثنا عبد الرزاق، أخبرنا ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس فذكره.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والطبراني عن أبي[٥] الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله ينزل في ثلاث ساعات يبقين من الليل فيفتح الذكر في الساعة الأولى منها، ينظر في الذكر الذي لا ينظر فيه أحدٌ غيره فيمحو الله ما يشاء ويثبت» الحديث.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٣٨)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٥٥٩، ٥٦٠)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٣٦٦٦) بسند صحيح.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٥٦٤، ٥٦٥) بسند ضعيف.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٥٦٢)، والحاكم (٢/ ٣٤٩) وصححه ووافقه الذهبي وسنده صحيح.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٥٧٠، ٥٧١) بسند ضعيف.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٥٧٠)، والطبراني في «الأوسط» رقم (٨٦٣٥) وفي الدعاء رقم (١٣٥).
قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٥٤): «فيه زيادة بن محمد الأنصاري وهو منكر الحديث».

وأخرج الطبراني في «الأوسط»[(١)]، وابن مردويه بإسناد قال السيوطي[(٢)]: ضعيف عن ابن عمر: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «يمحو الله ما يشاء ويثبت إلّا الشقاوة والسعادة والحياة والممات».

وأخرج ابن مردويه[(٣)] عن ابن عباس مرفوعاً نحوه.

وأخرج الحاكم[(٤)] وصححه عن ابن عباس قال: «لا ينفع الحذر مِنْ القدَر، ولكنّ الله يمحو بالدعاء ما يشاء من القدر».

وأخرج ابن جرير[(٥)] عن قيس بن عبّاد قال: العاشر من رجب وهو يوم يمحو الله فيه ما يشاء.

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «الشعب» عنه[(٦)] نحوه بأطول منه.

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن عمر[(٧)] بن الخطاب أنه قال وهو يطوف بالبيت: اللَّهُمَّ إن كنتَ كتبتَ عليّ شقوة أو ذنباً فامحه، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت، وعندك أمّ الكتاب، فاجعله سعادةً ومغفرة.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني عن ابن مسعود[(٨)] نحوه.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «المدخل»

---

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» رقم (٩٤٧٢) بسند ضعيف.
قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٤٣): «فيه محمد بن جابر اليمامي وهو ضعيف، من غير تعمد كذب».

(٢) في «الدر المنثور» (٤/ ٦٦٠).

(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٦٦٠ ـ ٦٦١).

(٤) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣٤٩ ـ ٣٥٠).

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٥٧١) بسند ضعيف.

(٦) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٣٧٤١، ٣٧٤٢) بسند جيد.

(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٥٦٣، ٥٦٤) بسند حسن.

(٨) أخرجه ابن أبي شيبة (١٠/ ٣٣١، ٣٣٢)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٥٦٤ ـ ٥٦٥)، والطبراني رقم (٨٨٤٧) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٨٥): «رجاله رجال الصحيح، إلا أن أبا قلابة لم يدرك ابن مسعود».

عن ابن عباس[(١)] في قوله: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ قال: يبدّل الله ما يشاء من القرآن فينسخه، ويثبت ما يشاء فلا يبدّله ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يقول: وجملة ذلك عنده في أمّ الكتاب: الناسخ والمنسوخ، ما يبدّل، وما يثبت كل ذلك في كتاب.

وأخرج ابن جرير[(٢)] عن ابن عباس ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ قال: الذكر.

وأخرج ابن المنذر[(٣)] عن مجاهد مثله.

وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير عن سيَّار، عن ابن عباس[(٤)]: أنَّه سأل كعباً عن أمّ الكتاب، فقال: عَلِم اللهُ ما هو خالقٌ، وما خلْقُه عاملون، فقال لعلمه: كن كتاباً، فكان كتاباً.

[طبيعة المواجهة والتحدي للرسول وللقرآن]:

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ [يونس: ٤٦] «ما» زائدة[(٥)] وأصله: وإن نرك ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ من العذاب كما وعدناهم بذلك بقولنا: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الرعد: ٣٤] وبقولنا: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ﴾ [الرعد: ٣١]، والمراد: أريناك بعض ما نعدهم قبل موتك، أو توفيناك قبل إراءتك لذلك ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ أي: فليس عليك إلّا تبليغ أحكام الرسالة، ولا يلزمك حصول الإجابة منهم لما بلّغته إليهم.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٥٦٦ ـ ٥٦٧) بسند ضعيف جدّاً.
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٥٧٢ ـ ٥٧٣) بسند ضعيف.
(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/).
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٥٧٢) بسند ضعيف.
(٥) «روح المعاني» (١٣/ ١٨٨)، و«البحر المحيط» (٦/ ٣٩٩)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٩٤).

﴿وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ أي: محاسبتهم بأعمالهم ومجازاتهم عليها، وليس ذلك عليك، وهذا تسلية من الله سبحانه لرسوله ﷺ، وإخبارٌ له أنه قد فعل ما أمره الله به، وليس عليه غيره، وأنّ مَنْ لم يجب دعوته، ويُصدّق نبوّته فالله سبحانه محاسبه على ما اجترم واجترأ عليه من ذلك ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ يعني: أهل مكة، والاستفهام[1] للإنكار؛ أي: أولم ينظروا؟ ﴿أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ أي: نأتي أرض الكفر كمكة ننقصها من أطرافها بالفتوح على المسلمين منها شيئاً فشيئاً.

قال الزجّاج[2]: أعلم الله أنّ بيان ما وعد المشركين من قهرهم قد ظهر، يقول: أولم يروا أنّا فتحنا على المسلمين من الأرض ما قد تبين لهم، فكيف لا يعتبرون؟ وقيل: إنّ معنى الآية: موت العلماء[3] والصلحاء.

قال القشيري[4]: وعلى هذا فالأطراف الأشراف، وقد قال ابن الأعرابي[5]: الطرف: الرجل الكريم.

قال القرطبي[6]: وهذا القول بَعيدٌ؛ لأن مقصود الآية: أنا أريناهم النقصان في أمرهم ليعلموا أنّ تأخير العقاب عنهم ليس عَنْ عجز إلّا أن يُحمل على موت أحبار اليهود والنصارى، وقيل: المراد مِنْ الآية: خراب[7] الأرض المعمورة حتى يكون العمران في ناحية منها.

وقيل: المراد بالآية: هلاك مَنْ هلك من الأمم[8]؛ وقيل: المراد: نقص ثمرات الأرض؛ وقيل: المراد: جور ولاتها حتى تنقص ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ أي: يحكم ما يشاء في خلقه، فيرفع هذا ويضع هذا، ويحيي هذا ويميت هذا، ويُغني هذا ويُفْقر هذا، وقد حكم بعزّة الإسلام وعلوّه على الأديان.

وجملة ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ في محل نصب[9] على الحال، وقيل: معترضة. والمعقب: الذي يكرّ على الشيء فيبطله، وحقيقته الذي يقفيه بالردّ والإبطال.

---

(١) انظر: المصادر المتقدمة.
(٢) في «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٣/ ١٥١).
(٣) «جامع البيان» (١٣/ ٥٧٨ ـ ٥٧٩).
(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٢/ ٩٥).
(٥) ذكره الأزهري في «تهذيب اللغة» (١٣/ ٣٢٠).
(٦) في «تفسيره» (١٢/ ٩٥).
(٧) «جامع البيان» (١٣/ ٥٧٦ ـ ٥٧٧).
(٨) انظر هذه الأقوال في: «جامع البيان» (١٣/ ٥٧٩)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٩٦).
(٩) «الفريد» (٣/ ١٤٢)، و«روح المعاني» (١٣/ ١٩١)، و«البحر المحيط» (٦/ ٤٠١).

قال الفراء(١): معناه: لا رادّ لحكمه، قال: والمعقّب: الذي يتبع الشيء فيستدركه، ولا يَستدرك أحد عليه، والمراد من الآية: أنّه لا يتعقب أحد حكمَ الله سبحانه بنقص ولا تغيير ﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته على السرعة ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ أي: قد مكر الكفار الذين مِنْ قبل كفار مكة بمن أرسله الله إليهم مِنْ الرسل فكادوهم وكفروا بهم، وهذا تسلية(٢) من الله سبحانه لرسوله ﷺ حيث أخبره أن هذا ديدن الكفار من قديم الزمان مع رسل الله سبحانه، ثم أخبره بأنّ مكرهم هذا كالعدم، وأن المكر كله لله، فقال: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ لا اعتداد بمكر غيره، ثم فسَّر سبحانه هذا المكر الثابت له دون غيره، فقال: ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ مِنْ خير وشرّ فيجازيها على ذلك، ومن علمَ ما تكسب كلُّ نفس وأعد لها جزاءها كان المكر كله له؛ لأنه يأتيهم من حيث لا يشعرون.

وقال الواحدي(٣): إنّ مكر الماكرين مخلوق له فلا يضرّ إلّا بإرادته؛ وقيل: المعنى: فللّه جزاء مكر الماكرين و﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾.

قرأ نافع، وابنُ كثير، وأبو عمرو (الكافر) بالإفراد(٤)، وقرأ الباقون(٥) (الكفار) بالجمع؛ أي: سيعلم جنس الكافر لمن العاقبة المحمودة من الفريقين في دار الدنيا، أو في الدار الآخرة، أو فيهما.

وقيل: المراد بالكافر: أبو جهل(٦).

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ أي: يقول المشركون أو جميع الكفار: لست يا محمد مرسلاً إلى الناس من الله، فأمره الله سبحانه بأن يجيب عليهم، فقال: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ فهو يعلم صحة رسالتي، وصدق دعواتي،

---

(١) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٦٦).
(٢) «جامع البيان» (١٣/ ٥٨٠)، و«الوسيط» (٣/ ٢١).
(٣) في «الوسيط» (٣/ ٢١).
(٤) «التيسير» (ص١٣٤)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٩٧)، و«روح المعاني» (١٣/ ١٩٣)، و«البحر المحيط» (٦/ ٤٠٢)، و«النشر» (٢/ ٢٩٨). ومع هذه القراءة بإفراد لفظ (الكافر) أبو جعفر.
(٥) انظر: المصادر المتقدمة.
(٦) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٢١) عن ابن عباس.

ويعلم كذبكم ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: علم[١] جنس الكتاب كالتوراة والإنجيل، فإن أهلهما العالمين بهما يعلمون صحة رسالة رسول الله ﷺ، وقد أخبر بذلك من أسلم منهم كعبد الله بن سلام، وسلمان الفارسي، وتميم الداري ونحوهم.

وقد كان المشركون من العرب يسألون أهل الكتاب ويرجعون إليهم، فأرشدهم الله سبحانه في هذه الآية إلى أن أهل الكتاب يعلمون ذلك؛ وقيل: المراد بالكتاب: القرآن ومن[٢] عنده علم منه: هم المسلمون؛ وقيل: المراد من عنده علم اللوح المحفوظ، وهو الله سبحانه، واختار هذا الزجاج[٣] وقال: لأن الأشبه أن الله لا يستشهد على خلقه بغيره.

وقد أخرج ابن مردويه[٤] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ في قوله: ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ قال: «ذهابُ العلماء».

وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، [٣/١١٢] ونعيم بن حماد في «الفتن»، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن ابن عباس[٥] في قوله: ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ قال: موت علمائها وفقهائها، وذهابُ خيار أهلها.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير عن مجاهد[٦] في تفسير الآية قال: موت العلماء.

وأخرج ابن جرير[٧] عن ابن عباس في الآية قال: أولم يروا أنا نفتح لمحمد الأرضَ بعد الأرض؟

وأخرج ابن جرير[٨]، وابن مردويه من طريق أخرى عنه نحوه.

وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي

---

(١) «أحكام القرآن» لابن العربي (٣/ ١١٠٢)، و«جامع البيان» (١٣/ ٥٨٢).
(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ١٠١).
(٣) في «معاني القرآن وإعرابه» (٢/ ١٥١ ـ ١٥٢).
(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٦٦٥).
(٥) أخرجه نعيم بن حماد في «الفتن» رقم (٦٩٠)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٥٧٨، ٥٧٩)، و«الحاكم» (٢/ ٣٥٠) وصححه وتعقبه الذهبي فقال: «طلحة بن عمرو، قال أحمد: متروك».
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٥٧٩)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٣٩) بسند صحيح.
(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٥٧٤) بسند حسن.
(٨) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٥٧٥) بسند ضعيف.

حاتم عن الضحّاك[١] في الآية قال: يعني: أنَّ نبيّ الله ﷺ كان يُنتقص له ما حوله من الأرَضين ينظرون إلى ذلك فلا يعتبرون. وقال الله في سورة الأنبياء: ﴿نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٤]؛ بل نبيُّ الله وأصحابه هم الغالبون.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[٢] في الآية قال: نقصان أهلها وبركتها.

وأخرج ابن المنذر[٣] عنه قال: إنما تنقص الأنفس والثمرات وأما الأرض فلا تنقص.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم[٤] عنه أيضاً قال: أولم يروا إلى القرية تَخْرَبُ حتى يكون العمران في ناحية منها.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن مجاهد[٥] نحوه.

وأخرج ابن أبي حاتم[٦] عن ابن زيد ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾: ليس أحد يتعقب حكمه فيردّه كما يتعقب أهل الدنيا بعضهم حكم بعض فيردّه.

وأخرج ابن مردويه[٧] عن ابن عباس قال: قدم على رسول الله ﷺ أسقف من اليمن فقال رسول الله ﷺ: «هل تجدني في الإنجيل؟ قال: لا، فأنزل الله: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾» يقول: عبد الله بن سَلَام.

وأخرج ابنُ مردويه[٧] مِنْ طريق عبد الملك بن عُمير عن جندب قال: جاء عبد الله بن سلام حتى أخذ بعضادتي باب المسجد، ثم قال: أنشدكم بالله أتعلمون أني الذي أُنزلت فيه: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾؟ قالوا: اللّهُمَّ نعم.

وأخرج ابن جرير، وابن مردويه من طريق أخرى[٨] عنه نحوه.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٥٧٥) من طريق عبيد بن سليمان عن الضحاك.
وأخرجه سعيد بن منصور في «سننه» رقم (١١٧٥ ـ تفسير) بسند ضعيف من طريق جويبر، عن الضحاك.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٥٧٧) بسند صحيح.

(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٦٦٥).

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٥٧٧) بسند حسن.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٥٧٦) من طريق ابن جريج.

(٦) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٦٦٥).

(٧) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٦٦٥).

(٨) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٥٧٥) بسند ضعيف.

وأخرج ابن جرير[١] من طريق العوفي عن ابن عباس ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ قال: هم أهل الكتاب من اليهود والنصارى.

وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم في الآية قال[٢]: كان قوم من أهل الكتاب يشهدون بالحق ويعرفونه، منهم عبد الله بن سلام، والجارود، وتميم الداري، وسلمان الفارسي.

وأخرج أبو يعلى، وابن جرير، وابن مردويه، وابن عديّ بسندٍ ضعيف عن ابن عمر[٣] أن النبي ﷺ قرأ: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ قال: «ومِنْ عندِ الله[٤] علم الكتاب».

وأخرج أبو عبيد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[٥] أنه كان يقرأ: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يقول: ومِنْ عند الله علمُ الكتاب.

وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والنحاس في «ناسخه» عن سعيد بن جبير[٦] أنه سُئل عن قوله: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أهو عبد الله بن سلام؟ قال: كيف وهذه السورة مكية؟.

وأخرج ابن المنذر[٧] عن الشعبي قال: ما نزل في عبد الله بن سلام شيء من القرآن.

وأخرج ابن أبي حاتم[٨] عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ قال: جبريل.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد[٩] قال: هو الله.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٥٨٢) بسند ضعيف.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٣٩)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٥٨٣، ٥٨٤) بسند صحيح.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٥٨٦، ٥٨٧)، وابن عدي (٦/ ٢٢٧٨)، وأبو يعلى رقم (٥٥٧٤).

(٤) وهي قراءة شاذة.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٥٨٤) من طريق سعيد بن جبير، عن ابن عباس.

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٥٨٦)، وسعيد بن منصور في «سننه» رقم (١١٧٧ ـ تفسير)، والنحاس في «ناسخه» (ص٥٣٦) بسند صحيح.

(٧) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٦٦٩).

(٨) أخرجه النحاس في «ناسخه» (ص٥٣٧).

(٩) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٥٨٤) من طريق شعبة، به.

سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ

اثنتان وخمسون آية. وقيل: إحدى وخمسون وهي مكية[١] كما أخرجه ابن مردويه[٢] عن ابن عباس.

وأخرجَه ابنُ مردويه[٢] أيضاً عَنْ الزبير، وحكاه القرطبي[٣] عن الحسن، وعكرمة، وجابر بن زيد، وقتادة: إلا آيتين منها، وقيل: إلّا ثلاث آيات نزلت في الذين حاربوا رسولَ الله ﷺ وهي قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨ ـ ٣٠].

وأخرج النّحاس في «ناسخه»[٤] عن ابن عباس قال: هي مكية سوى آيتين منها نزلتا بالمدينة، وهي: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ الآيتين نزلتا في قتلى بدر من المشركين.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

[العقيدة وأصولها الكبيرة: الوحي والرسالة والتوحيد والبعث والحساب والجزاء]:

﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾.

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/١٠٢).
(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/٣).
(٣) في «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/١٠٢).
(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/٣).

[مهمة الرسل عامة كانت هي البيان]:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾﴾.

قوله: ﴿الٓر﴾ قد تقدم الكلام في أمثال هذا، وبيان قول مَنْ قال: إنه متشابه، وبيان قول مَنْ قال: إنه غير متشابه وهو إما مبتدأ خبره[١] كتاب، أو خبر مبتدأ محذوف، ويكون ﴿كِتَٰبٌ﴾ خبراً لمحذوف[٢] مقدّر أو خبراً ثانياً لهذا المبتدأ أو يكون ﴿الٓر﴾ مسروداً على نمط التعديد فلا محلّ له، و﴿أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾ صفة لكتاب[٣]؛ أي: أنزلنا الكتاب إليك يا محمد.

ومعنى ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾: لتخرجهم مِنْ ظلمات الكفر والجهل والضلالة إلى نور الإيمان والعلم والهداية؛ جعل الكفر بمنزلة الظلمات، والإيمان بمنزلة النور على طريق الاستعارة، واللام في ﴿لِتُخْرِجَ﴾ للغرض[٤] والغاية، والتعريف[٥] في النّاس للجنس.

والمعنى: أنه ﷺ يُخرج الناسَ بالكتاب المشتمل على ما شرعه الله لهم من الشرائع مما كانوا فيه من الظلمات إلى ما صاروا إليه من النور؛ وقيل: إن الظلمة مستعارة[٦] للبدعة، والنور مستعار للسُّنَّة؛ وقيل: مَنْ الشك إلى اليقين، ولا مانع من إرادة جميع هذه الأمور، والباء[٧] في ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ متعلقة بـ«تخرج»، وأسند الفعل إلى النبي ﷺ؛ لأنّه الداعي والهادي والمنذر.

قال الزجّاج[٨]: بما أذن لك مِنْ تعليمهم ودعائهم إلى الإيمان ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ هو بدل مِنْ ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ بتكرير العامل كما يقع مثله كثيراً أي: لتخرج الناس من الظلمات إلى صراط العزيز الحميد، وهو طريقة الله الواضحة التي

---

(١) «التبيان» (٢/ ٧٦٢)، و«الفريد» (٣/ ١٤٥)، و«البحر المحيط» (٦/ ٤٠٥ ـ ٤٠٦).
(٢) انظر: المصادر المتقدمة.
(٣) «التبيان» (٢/ ٧٦٢)، و«الفريد» (٣/ ١٤٥).
(٤) «روح المعاني» (١٣/ ٢٠٤).
(٥) «روح المعاني» (١٣/ ٢٠٤)، و«البحر المحيط» (٦/ ٤٠٦).
(٦) «معاني القرآن» للنحاس (٣/ ٥١٣)، و«روح المعاني» (١٣/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥).
(٧) «البحر المحيط» (٦/ ٤٠٦)، و«الفريد» (٣/ ١٤٥).
(٨) في «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١٥٣).

شرعها لعباده، وأمرهم بالمصير إليها والدخول فيها؛ ويجوز أَنْ يكون مستأنفاً بتقدير سؤال كأنّه قيل: ما هذا النور الذي أخرجهم إليه؟ فقيل: صراط العزيز الحميد، والعزيز: هو القادر الغالب، والحميد: هو الكاملُ في استحقاق الحمد ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ﴾ قرأ نافعٌ وابن عامر بالرفع[(١)] على أنه خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هو اللهُ المتصفُ بملك ما في السمٰوات وما في الأرض.

وقرأ الجمهور بالجرّ[(٢)] على أنّه عطف بيان لكونه من الأعلام الغالبة، فلا يصح وصف ما قبله به؛ لأنّ العلَم لا يُوصف به؛ وقيل: يجوز أَنْ يوصف به مِنْ حيث المعنى.

وقال أبو عَمرو[(٣)]: إنّ قراءة الجرّ محمولة على التقديم والتأخير، والتقدير: إلى صراط الله العزيز الحميد. وكانَ يعقوب[(٤)] إذا وقف على ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ رفع، وإذا وصل خفض.

قال ابن الأنباري[(٥)]: مَنْ خفض وقف على ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ﴾. ثم توعد من لا يعترف بربوبيته فقال: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [٣/١١٣] قد تقدم بيان معنى الويل، وأصله: النصبُ كسائر المصادر، ثم رُفع[(٦)] للدلالة على الثبات.

قال الزجّاج[(٧)]: هي كلمة تُقال للعذاب والهلكة، فدعا ﷻ بذلك على مَنْ لم يخرج مِنْ الكفار بهداية رسول الله ﷺ له بما أنزله الله عليه مما هو فيه من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان و ﴿مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ متعلق بويل على معنى يُولْولون ويضجّون مِنْ العذاب الشديد الذي صاروا فيه، ثم وصف هؤلاء الكفار بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: يُؤثرونها لمحبتهم لها ﴿عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ الدائمة والنعيم الأبدي.

---

(١) «البحر المحيط» (٦/٤٠٦)، و«روح المعاني» (١٣/٢٠٨)، و«النشر» (٢/٢٩٨)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٢/٢٥). قال في «تخريج القراءات في فتح القدير» (ص١٨٦): هي ثلاث قراءات متواترة، ومع نافع أبو جعفر. وأما ما عزاه الإمام (يعني المؤلف) ليعقوب فهو من رواية رويس فقط أما روايته روح فيقرأ بالخفض في الحالين كقراءة الجمهور. وانظر: «البدور الزاهرة» (٢/٣).

(٢) انظر: المصادر المتقدمة.

(٣) «جامع البيان» (١٣/٥٨٩).

(٤) «النشر» (٢/٢٩٨).

(٥) في «إيضاح الوقف والابتداء» (٢/٧٣٩).

(٦) «التبيان» (٢/٧٦٢)، و«الفريد» (٣/١٤٦).

(٧) في «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٣/١٦٠).

وقيل: إنّ الموصول[١] في موضع رفع على أنّه خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هم الذين؛ وقيل: الموصول مبتدأ وخبره ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾.

وجملة ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ وكذلك (وَيبْغون) معطوفتان على ﴿يَسْتَحِبُّونَ﴾، ومعنى الصدّ ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: صرفُ الناس عنه، ومنعهم منه، وسبيل الله: دينُه الذي شرعه لعباده ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ﴾ أي: يطلبون لها زيغاً وميلاً لموافقة أهوائهم، وقضاء حاجاتهم وأغراضهم، والعِوج[٢] بكسر العين في المعاني وبفتح العين في الأعيان وقد سبق تحقيقه.

والأصلُ: يبغون لها؛ فحُذف الحرف[٣] وأوصل الفعل إلى الضمير، واجتماع هذه الخصال نهاية الضلال، ولهذا وصف ضلالهم بالبُعد عن الحق فقال: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ والإشارة إلى الموصوفين بتلك الصفات القبيحة، والبعدُ وإنْ كان من صفة الضال لكنّه يجوز وصف الضلال به مجازاً؛ لقصد المبالغة، ثم لمّا منّ على المكلفين بإنزال الكتاب، وإرسال الرسول ذكر مِنْ كمال تلك النعمة أن ذلك المرسل بلسان قومه فقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ أي: متلبِّساً بلسانهم مُتكلِّماً بلغتهم؛ لأنّه إذا كان كذلك فهِمَ عنه المرسَل إليهم، ما يقوله لهم، وسهل عليهم ذلك بخلاف ما لو كان بلسان غيرهم، فإنهم لا يدرون ما يقول، ولا يفهمون ما يخاطبهم به حتى يتعلموا ذلك اللسان دهراً طويلاً، ومع ذلك فلا بدّ أن يصعب عليهم فهم ذلك بعض صعوبة.

ولهذا علّل سبحانه ما امتن به على العباد بقوله: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْۖ﴾ أي: ليوضّح لهم ما أمرهم الله به من الشريعة التي شرعها لهم، ووحّد اللسان لأن المراد بها اللغة.

وقد قيل: في هذه الآية إشكال؛ لأنّ النبي ﷺ أرسل إلى الناس جميعاً؛ بل إلى الجنّ والإنس ولغاتهم متباينة وألسنتهم مختلفة.

وأجيب[٤]: بأنّه وإن كان ﷺ مُرْسلاً إلى الثقلين كما مرّ لكن لما كان قومه العرب وكانوا أخصَّ به وأقرَب إليه كان إرساله بلسانهم أولى مِنْ إرساله بلسان غيرهم، وهم يبينونه لمن كان على غير لسانهم، ويوضحونه حتى يصير فاهماً له

(١) «الفريد» (٣/ ١٤٦ ـ ١٤٧)، و«التبيان» (٢/ ٧٦٣)، و«البحر المحيط» (٦/ ٤٠٧).
(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ١٠٥).
(٣) «روح المعاني» (١٣/ ٢١٣)، و«الفريد» (٣/ ١٤٧)، و«التبيان» (٢/ ٣٨٥).
(٤) «روح المعاني» (١٣/ ٢١٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٧٦).

كفهمهم إياه، ولو نزل القرآن بجميع لغات مَنْ أرسل إليهم، وبيّنه رسول الله لكل قوم بلسانهم لكان ذلك مظنة للاختلاف، وفتحاً لباب التنازع؛ لأن كل أمة قد تدّعي مِنْ المعاني في لسانها ما لا يعرفه غيرها، وربما كان ذلك أيضاً مُفْضياً إلى التحريف والتصحيف بسبب الدعاوي الباطلة التي يقع فيها المتعصّبون، وجملة ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ مستأنفة؛ أي: يُضلّ مَنْ يشاء إضلاله، ويهدي من يشاء هدايته.

قال الفرّاء[١]: إذا ذُكر فعلٌ وبعده فعل آخر فإنْ لم يكن النسق مشاكلاً للأوّل فالرفع على الاستئناف هو الوجه، فيكون معنى هذه الآية: وما أرسلنا مِنْ رسول إلّا بلسان قومه ليبين لهم تلكَ الشرائع باللّغة التي ألفوها وفهموها، ومع ذلك فإن المضلّ والهادي هو الله ﷻ؛ والبيان لا يُوجب حصول الهداية إلّا إذا جعله الله سبحانَه واسطة وسبباً.

وتقديم[٢] الإضلال على الهداية؛ لأنَّه متقدّم عليها، إذ هو إبقاء على الأصل، والهداية إنشاء ما لم يكن ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُغالبه مغالب ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي يَجري أفعالُه على مقتضى الحكمة، ثم لمّا بيّن أن المقصود من بعثة نبينا ﷺ هو إخراج الناس من الظلمات إلى النور أراد أَنْ يبين أن الغَرض مِنْ إرسال الأنبياء لم يكن إلّا ذلك، وخصّ موسى بالذكر لأنّ أمته أكثر الأمم المتقدّمة على هذه الأمة المُحمدية فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ أي: متلبّساً بها، والمراد بالآيات: المعجزات التي لموسىٰ.

ومعنى ﴿أَنْ أَخْرِجْ﴾ أي: أخرج؛ لأنّ الإرسال فيه معنى القول، ويجوز أن يكون التقدير: بأنْ أخرج، والمراد بقومه: بنو إسرائيل بعد ملك فرعون ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ﴾ من الكفر أو من الجهل الذي قالوا بسببه: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ إلى الإيمان أو إلى العلم ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ أي: بوقائعه.

---

(١) قال الفراء في «معاني القرآن» (٢/ ٦٨): فإذا رأيت الفعل منصوباً، وبعده فعل قد نُسِقَ عليه بواو أو فاء أو ثمّ أو أو فإن كان يشاكل معنى الفعل الذي قبله نسَقْته عليه، وإن رأيته غير مشاكل لمعناه استأنفته فرفعته.

(٢) «روح المعاني» (١٣/ ٢١٩)، «تفسير أبي السعود» (٤/ ٢٣٢).

قال ابن السّكّيت[١]: العربُ تقول الأيام في معنى الوقائع، يُقال: فلان عالم بأيام العرب؛ أي: بوقائعها.

وقال الزجاج[٢]؛ أي: ذكّرهم بِنِعَم الله عليهم، وبنقم أيام الله التي انتقم فيها من قوم نوح وعاد وثمود. والمعنى: عِظْهم بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: في التذكير بأيام الله أو في نفس أيام الله ﴿لَآيَٰتٍ﴾ لدلالات عظيمة دالة على التوحيد، وكمال القدرة ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ أي: كثير الصبر على المحن والمنح ﴿شَكُورٍ﴾ كثير الشكر للنعم التي أنعم الله بها عليه.

وقيل: المراد بذلك: كلُّ مؤمن، وعبر عنه بالوصفين المذكورين لأنهما ملاك الإيمان، وقدّم الصبار على الشكور، لكون الشكر عاقبة الصبر.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة[٣] في قوله: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ قال: مِنْ الضلالة إلى الهدى.

وأخرج ابن أبي حاتم[٤] عن أبي مالك في قوله: ﴿يَسْتَحِبُّونَ﴾ قال: يختارون.

وأخرج عبد بن حميد، وأبو يعلى، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصحّحه، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل» عن ابن عباس[٥] قال: إن الله فضّل محمداً على أهل السماء وعلى الأنبياء، قيل: ما فضله على أهل السماء؟ قال: إن الله قال لأهل السماء: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٢٩] وقال لمحمد: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] فكتب له براءة مِنْ النار؛ قيل: فما فضله على الأنبياء؟ قال: إن الله يقول: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٤] وقال لمحمد: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨] فأرسله إلى الإنس والجنّ.

---

(١) انظر: «معالم التنزيل» (٣/ ٢٦)، و«جامع البيان» (١٣/ ٥٩٧).
(٢) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ١٥٤ ـ ١٥٥).
(٣) عزاه إليهم السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٤).
(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٤).
(٥) أخرجه أبو يعلى كما في «مجمع الزوائد» (٨/ ٢٥٥)، والطبراني رقم (١١٦١٠)، والحاكم (٢/ ٣٥٠)، والبيهقي في «الدلائل» (٥/ ٤٨٦، ٤٨٧) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٢٥٥): «رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح، غير الحكم بن أبان وهو ثقة».

وأخرج ابن مردويه[(١)] عن عثمان بن عفان ﴿إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ قال: نزل القرآن بلسان قريش.

وأخرج ابن المنذر[(١)] عن مجاهد مثلَه.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد[(٢)] وعطاء وعُبيد بن عمير في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ قال: بالآيات التسع: الطوفان والجراد، والقُمّل، والضفادع، والدم، والعصا، ويده، والسنين، ونقص من الثمرات.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[(٣)] ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ قال: من الضلالة إلى الهدى.

وأخرج النسائي، وعبد الله بن أحمد في «زوائد المسند»، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «شُعَب الإيمان» عن أُبَيّ بن كعب[(٤)]، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ قال: بنعم الله وآلائه.

وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر عن ابن عباس[(٥)] ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ قال: نِعم الله.

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد[(٦)] ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ قال: وعِظْهم.

وأخرج ابن أبي حاتم[(٧)] عن الربيع في الآية قال: بوقائع الله في القرون الأولى.

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة[(٨)]

---

(١) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/٥).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٥٩٣ ـ ٥٩٤) مختصراً عن مجاهد بسند صحيح.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٥٩٤) بسند ضعيف.

(٤) أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» رقم (١١٢٦٠)، وعبد الله بن أحمد رقم (٢١١٢٨)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٣/٥٩٨)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٤٤١٨). وهو حديث صحيح.

(٥) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٥/٦).

(٦) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٥/٦).

(٧) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/٦).

(٨) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/٥٩٨) بسند صحيح.

في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ قال: نِعْم العبدُ عبدٌ إذا ابتُلي صبر، وإذا أُعطي شكرَ.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾.

[قصة الرسل والرسالات وحقيقتها في مواجهة الجاهلية وعاقبة المكذبين]:

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ۚ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ [٣/١١٤] وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾ الظرف[١] متعلق بمحذوف هو: اذْكر؛ أي: اذكر وقت قول موسى: و﴿إِذْ أَنجَاكُم﴾ متعلّق باذكروا؛ أي: اذكروا إنْعامه عليكم وقت إنجائه لكم من آل فرعون، أو بالنّعمة، أو بمتعلّق عليكم؛ أي: مستقرة عليكم وقت إنجائه، وهو بدلُ اشتمال مِنْ النِّعمة مراداً بها الإنْعام أو العطية ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي: يَبْغونكم، يقال: سامه ظلماً؛ أي: أولاه ظُلْماً، وأصل السوم: الذهاب في طلبِ الشيء و﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾: مصدر سَاء يَسوءُ، والمراد: جنْس العذاب

(١) «البحر المحيط» (٦/ ٤١٠)، و«روح المعاني» (١٣/ ٢٢٣).

السيىء، وهو استعبادهم واستعمالُهم في الأعمال الشاقة، وعطف ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ على ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ وإنْ كان التذبيح مِنْ جنس سوء العذاب إخراجاً له عن مرتبة العذاب المعتاد، حتّى كأنه جنس آخر لما فيه من الشدّة، ومع طرح الواو كما في الآية الأخرى يكون التذبيح[١] تفسيراً لسوء العذاب ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ أي: يتركونهنّ في الحياة لإهانتهنّ وإذلالهنّ ﴿وَفِى ذَٰلِكُم﴾ المذكور من أفعالهم ﴿بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أي: ابتلاء لكم.

وقد تقدّم تفسير هذه الآية في سورة البقرة مستوفى.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ «تأذّن» بمعنى: أَذِنَ قاله الفراء[٢]، قال في «الكشّاف»[٣]: ولا بدّ في تفعّل مِنْ زيادة معنى ليست في أفْعلَ، كأنه قيل: وإذْ أذن ربكم إيذاناً بليغاً تنتفي عَنْه الشكوك وتنزاح الشُّبه.

والمعنى: وإذ تأذّن ربُكم فقال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾ أو أجرى ﴿تَأَذَّنَ﴾ مجرى قال؛ لأنّه ضَرْبٌ مِنْ القول. انتهى.

وهذا مِنْ قول موسى لقومه، وهو معطوف[٤] على نعمة الله؛ أي: اذكروا نعمة الله عليكم، واذكروا حينَ تأذّن ربُّكم، وقيل: هو معطوف على قوله: ﴿إِذْ أَنجَىٰكُم﴾ أي: اذكروا نعمة الله تعالى في هذين الوقتين، فإنّ هذا التأذّن أيضاً نعمة، وقيل: هو مِنْ قول الله سبحانه؛ أي: واذكر يا محمد إذ تأذن ربكم.

وقرأ ابن مسعود[٥] (وإذْ قال ربكم) والمعنى واحد كما تقدم، واللّام في لئن شكرتم هي الموطئة[٦] للقسَم، وقوله: ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ سادّ مسدّ جوابي الشرط والقسم، وكذا اللام في ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ وقوله: ﴿إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ سادّ مسدّ الجوابين أيضاً.

---

(١) «روح المعاني» (١٣/ ٢٢٤)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ٢٣٤).

(٢) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٦٩). (٣) «الكشاف» (٣/ ٣٦٤).

(٤) «التبيان» (٢/ ٧٦٤)، و«الفريد» (٣/ ١٤٩)، و«روح المعاني» (١٣/ ٢٢٦).

(٥) وهي قراءة شاذة مخالفة للرسم.
«البحر المحيط» (٦/ ٤١١)، و«روح المعاني» (١٣/ ٢٢٦)، و«جامع البيان» (١٣/ ٦٠١).

(٦) «روح المعاني» (١٣/ ٢٢٧).

والمعنى: لأنْ شكرتم إنعامي عليكم بما ذكر لأزيدنّكم نعمةً إلى نعمة تفضلاً مني، وقيل: لأزيدنّكم مِنْ طاعتي، وقيل: لأزيدنكم مِنْ الثواب، والأوّل أظهر فالشكر سبب المزيد، ولئن كفرتم ذلك وجحدتموه إن عذابي لشديد، فلا بدّ أن يصيبكم منه ما يصيب، وقيل: إن الجواب محذوف؛ أي: ولئن كفرتم لأعذبنكم، والمذكور تعليل للجواب المحذوف.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي: إنْ تكفروا نعمته تعالى أنتم وجميع الخلق ولم تشكروها ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه ﴿لَغَنِيٌّ﴾ عَنْ شكركم لا يحتاج إليه ولا يلحقه بذلك نقص ﴿حَمِيدٌ﴾ أي: مستوجب للحمد لذاته لكثرة إنعامه، وإن لم تشكروه، أو يحمده غيركم من الملائكة.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ يحتمل أن يكون هذا خطاباً من موسى[١] لقومه، فيكون داخلاً تحت التذكير بأيام الله، ويحتمل أن يكون من كلام الله سبحانه ابتداء خطاباً لقوم موسى وتذكيراً لهم بالقرون الأولى، وأخبارهم ومجيء رسل الله إليهم، ويحتمل أنه ابتداءُ خطابٍ من الله سبحانه لقوم محمد ﷺ تحذيراً لهم عن مخالفته، والنبأ: الخبَر، والجمع الأنباء، ومنه قول الشاعر:

ألَمْ يأتيك والأنباءُ تُنمي بما لاقَت لبونُ بني زيادِ[٢]

و﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾ بدل مِنْ الموصول[٣]، أو عطف بيان ﴿وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي: من بعد هؤلاء المذكورين ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي: لا يحصي عددهم ويُحيط بهم علماً إلّا الله سبحانه، والموصول[٤] مبتدأ وخبره لا يعلمهم إلّا الله والجملة معترضة، أو يكون الموصول معطوفاً على ما قبله، ولا يعلمهم إلّا الله اعتراض، وعدم العلم مِنْ غير الله إمّا أن يكون راجعاً إلى صفاتهم وأحوالهم وأخلاقهم ومدد أعمارهم؛ أي: هذه الأمور لا يعلمها إلّا الله ولا يعلمها غيره، أو يكون راجعاً إلى ذواتهم؛ أي: لا يعلم ذوات أولئك الذين من بعدهم إلّا الله سبحانه.

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ١١٢).
(٢) هو: لقيس بن زهير، وقد تقدم عند تفسير الآية (٩٠) من سورة يوسف.
(٣) «الفريد» (٣/ ١٥٠)، و«التبيان» (٢/ ٧٦٤).
(٤) «البحر المحيط» (٦/ ٤١٢)، و«التبيان» (٢/ ٧٦٤)، و«الفريد» (٣/ ١٥٠).

وجملة ﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ مستأنفة لبيان النبأ المذكور في ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ أي: جاءتهم الرسلُ بالمعجزات الظاهرة، وبالشرائع الواضحة ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾؛ أي: جعلوا أيدي أنفسهم في أفواههم ليعضّوها غيظاً[(١)] مما جاءت به الرسلُ، كما في قوله تعالى: ﴿عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ﴾ [آل عمران: ١١٩]؛ لأنّ الرسل جاءتهم بتسفيه أحلامهم، وشتم، أصنامهم.

وقيل: إنّ المعنى أنهم أشاروا بأصابعهم إلى أفواههم لما جاءتهم الرسل بالبينات؛ أي: اسكتوا، واتركوا هذا الذي جئتم به تكذيباً لهم وردّاً[(٢)] لقولهم؛ وقيل: المعنى: أنهم أشاروا إلى أنفسهم وما يصدر عنها مِنْ المقالة، وهي قولهم: ﴿إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾ أي: لا جواب لكم سوى هذا الذي قُلناه لكم بألسنتنا هذه.

وقيل: وضعوا أيديهم على أفواههم استهزاءاً وتعجباً كما يفعله مَنْ غلبه الضحكُ من وضع يده على فيه؛ وقيل: المعنى: ردّوا على الرسل قولهم وكذبوهم بأفواههم، فالضمير[(٣)] الأوّل للرسل والثاني للكفار.

وقيل: جعلوا أيديهم في أفواه الرسل ردّاً لقولهم؛ فالضمير الأول على هذا للكفار والثاني للرسل؛ وقيل: معناه: أومئوا إلى الرسل أنْ اسكتوا.

وقيل: أخذوا أيدي[(٤)] الرسل ووضعوها على أفواه الرسل ليسكتوهم ويقطعوا كلامهم؛ وقيل: إن الأيدي هنا[(٥)] النِّعم؛ أي: ردّوا نعم الرسل بأفواههم؛ أي: بالنطق والتكذيب، والمراد بالنعم هنا: ما جاءهم به من الشرائع.

---

(١) «جامع البيان» (١٣/ ٦٠٤)، و«المحرر الوجيز» (١٠/ ٦٥ ـ ٦٦)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ١١١).
(٢) «زاد المسير» (٤/ ٣٤٩)، و«روح المعاني» (١٣/ ٢٣١ ـ ٢٣٢).
(٣) «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١٥٦)، و«المحرر الوجيز» (١٠/ ٦٦)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ١١٢).
(٤) «المحرر الوجيز» (١٠/ ٦٦)، و«روح المعاني» (١٣/ ٢٣١).
(٥) «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٦٩ ـ ٧٠)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ١١٢)، و«روح المعاني» (١٣/ ٢٣١).

وقال أبو عُبيدة[(١)]: ـ ونِعَم ما قال ـ: هو ضَربُ مثل؛ أي: لم يؤمنوا ولم يجيبوا، والعربُ تقول للرجل إذا أمسك عَنْ الجواب وسكت: قد ردّ يده في فيه.

وهكذا قال الأخفش[(٢)]، واعترض ذلك القُتيبي[(٣)] فقال: لم يسمع أحد من العرب يقول ردّ يده في فيه: إذا ترك ما أُمر به، وإنما المعنى: عضّوا على الأيدي حنقاً وغيظاً، كقول الشاعر:

يـردّن فـي فـيـه غـيـظَ الـحـسـودِ حـتـى يَـعـضَّ عـلـيّ الأكُـفّـا[(٤)]

وهذا هو القول الذي قدّمناه على جميع هذه الأقوال، ومِنْه قول الشاعر:

لـو أنَّ سـلـمـى أبـصَـرَتْ تَـخـدُّدي عـضَّـتْ مِـنَ الـوَجْـدِ بـأطـرافِ الـيـدِ[(٥)]

وهو أقرب التفاسير للآية إنْ لم يصح عَنْ العرب ما ذكره أبو عبيدة[(٦)] والأخفش[(٧)]، فإنْ صح ما ذكراه فتفسير الآية به أقرب.

﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾؛ أي: قال الكفار للرسل: إنّا كفرنا بما أُرسلتم به مِنْ البينات على زعمكم ﴿وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ﴾ أي: في شك عظيم مما تدعوننا إليه مِنْ الإيمان بالله وحده وترك ما سواه ﴿مُرِيبٍ﴾ أي: موجب للريب. يقال: أَرَبْتُه: إذا فعلت أمراً أوجب رِيبةً وشكّاً، والريب: قلقُ النفس وعدم سكونها.

[لماذا الشك بعد تصريحهم بالكفر؟]:

وقد قيل: كيف صرحوا بالكفر ثم بنوا أمرهم على الشك؟ وأجيب: بأنهم أرادوا إنّا كافرون برسالتكم وإن نزلنا عَنْ هذا المقام فلا أقل من أنّا نشك في صحة نبوّتكم، ومع كمال الشك لا مطمع في الاعتراف بنبوتكم.

وجملة ﴿قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل:

---

(١) في «مجاز القرآن» (١/ ٣٣٦). (٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٢/ ١١٣).
(٣) في «تفسير غريب القرآن» (ص٢٣٠ ـ ٢٣١) وفي «المعاني الكبير» (٢/ ٨٣٤).
(٤) ذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ٣٤٨)، والقرطبي في «تفسيره» (١٢/ ١١٣)، وابن قتيبة في «المعاني الكبير» (٢/ ٨٣٤) وفي «تفسير غريب القرآن» (ص٢٣١).
(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٢/ ١١٢)، والمبرد في «الكامل» (١/ ٢٦٣).
(٦) في «مجاز القرآن» (١/ ٣٣٦). (٧) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٢/ ١١٣).

فماذا قالت لهم الرسل؟ والاستفهام [٣/١١٥] للتقريع[١] والتوبيخ؛ أي: أفي وحدانيته سبحانه شكٌ وهي في غاية الوضوح والجلاء؟! ثمّ إنّ الرسل ذكروا بعد إنكارهم على الكفار ما يؤكد ذلك الإنكار مِنْ الشواهد الدالة على عدم الشك في وجوده سبحانه ووحدانيته، فقالوا: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: خالقهما ومخترعهما ومبدعهما وموجدهما بعد العدم ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ إلى الإيمان به وتوحيده ﴿لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾.

قال أبو عُبيدة[٢]: «مِنْ» زائدة، ووجه ذلك: قوله في موضع آخر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣].

وقال سيبويه[٣]: هي للتبعيض، ويجوز أَنْ يذكر البعض ويراد منه الجميع؛ وقيل: التبعيض على حقيقته ولا يلزم مِنْ غفران جميع الذنوب لأمة محمد ﷺ غفران جميعها لغيرهم، وبهذه الآية احتج مَنْ جوّز زيادة «من» في الإثبات؛ وقيل: «من» للبدل[٤] وليست بزائدة ولا تبعيضية؛ أي: لتكون المغفرة بدلاً من الذنوب ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: إلى[٥] وقت مُسمّى عنده سبحانه، وهو الموت فلا يعذبكم في الدنيا.

﴿قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ أي: ما أنتم إلّا بشر مثلنا في الهيئة والصورة، تأكلون وتشربون كما نأكل ونشرب ولستم ملائكة ﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا﴾ وصفوهم بالبَشر أوّلاً، ثم بإرادة الصدّ لهم عما كان يعبد آباؤهم ثانياً؛ أي: تريدون أن تصرفونا عَنْ معبودات آبائنا مِنْ الأصنام ونحوها ﴿فَأْتُونَا﴾ إنْ كنتم صادقين بأنكم مرسلون من عند الله ﴿بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بحجّةٍ ظاهرة تدل على صحة ما تدّعونه، وقد جاؤهم بالسلطان المبين والحجة الظاهرة، ولكن هذا النوع من تعنتاتهم، ولون مِنْ تلوناتهم.

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أي: ما نحن في الصورة والهيئة

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ١١٣ ـ ١١٤)، و«روح المعاني» (١٣/ ٢٣٤).
(٢) في «مجاز القرآن» (١/ ٣٣٦). (٣) في الكتاب (١/ ٣٥٢).
(٤) «الفريد» (٣/ ١٥١)، و«روح المعاني» (١٣/ ٣٣٦)، و«التبيان» (٢/ ٧٦٥).
(٥) «جامع البيان» (١٣/ ٦٠٩ ـ ٦١٠).
«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ١١٤)، و«المحرر الوجيز» (١٠/ ٦٨ ـ ٦٩).

إلّا بشر مثلكم كما قلتم ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ أي: يتفضّل[١] على مَنْ يشاء منهم بالنبوّة؛ وقيل: بالتوفيق والهداية ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ﴾ أي: ما صح ولا استقام لنا أن نأتيكم بحجة من الحجج ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: إلّا بمشيئته وليس ذلك في قدرتنا.

قيل: المراد بالسلطان هنا: هو ما يطلبه الكفار مِنْ الآيات على سبيل التعنت، وقيل: أعم مِنْ ذلك، فإن ما شاءه الله كان وما لم يشأه لم يكن ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: عليه وحدَه، وهذا أمر مِنْهم للمؤمنين بالتوكل على الله دون من عداه، وكأنّ الرسل قصدوا بهذا الأمر للمؤمنين الأمر لهم أنفسَهم قصداً أوّليّاً، ولهذا قالوا: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: وأيّ عذر لنا في ألا نتوكل عليه سبحانه؟ ﴿وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾ أي: والحال أنّه قد فعل بنا ما يوجب توكلنا عليه من هدايتنا إلى الطريق الموصل إلى رحمته، وهو ما شرعه لعباده وأوجب عليهم سلوكه ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا﴾ بما يقع منكم مِنْ التكذيب[٢] لنا، والاقتراحات الباطلة ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ وحدَه دون من عداه ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ قيل: المراد بالتوكل الأوّل استحداثه، وبهذا السعيُ في بقائه وثبوته.

وقيل: **معنى الأوّل**: إنّ الذين يطلبون المعجزات يجب عليهم[٣] أن يتوكلوا في حصولها على الله سبحانه لا علينا، فإنْ شاء سبحانه أظهرها وإن شاء لم يظهرها.

ومعنى الثاني: إبداء التوكل على الله في دفع شر الكفار وسفاهتهم.

وقد أخرج ابن أبي حاتم[٤] عن الربيع في قوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ قال: أخبرهم موسى عن ربه أنهم إنْ شكروا النعمة زادهم من فضله، وأوسع لهم مِنْ الرزق، وأظهرهم على العالم.

وأخرج ابن جرير[٥] عن الحسن: ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ قال: مِنْ طاعتي.

وأخرج ابن المبارك، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «الشعب» عن

---

(١) «جامع البيان» (١٣/ ٦١٠ ـ ٦١١).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ١١٥).

(٣) «روح المعاني» (١٣/ ٢٤١ ـ ٢٤٢).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٣٥) معلقاً.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٦٠٢) بسند حسن.

عليّ بن صالح[١] مثله.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن سفيان الثوري[٢] في الآية قال: لا تذهب أنفسُكم إلى الدنيا فإنّها أهون عند الله من ذلك، ولكن يقول: لئن شكرتم لأزيدنكم مِنْ طاعتي.

وأخرج أحمد، والبيهقي عن أنس[٣] قال: «أتى النبيَّ ﷺ سائلٌ فأمر له بتمرة فلم يأخذْها، وأتاه آخر فأمر له بتمرة فقبِلَها وقال: تمرة مِنْ رسول الله ﷺ، فقال للجارية: اذهبي إلى أمّ سلمة فأعطيه الأربعين درهماً التي عندها»، وفي إسناد أحمد[٤] عمارة بن زاذان، وثّقه أحمد ويعقوب بن سفيان وابن حبَّان.

وقال ابن معين: صالح. وقال أبو زرعة: لا بأس به. وقال أبو حاتم: يُكتب حديثه ولا يحتج به ليس بالمتين.

وقال البخاري: ربما يضطرب في حديثه. وقال أحمد: رُوي عنه أحاديث منكرة. وقال أبو داود: ليس بذاك، وضعّفه الدارقطني.

وقال ابن عدي: لا بأس به.

وأخرج البخاري في «تاريخه»، والضياء المقدسي في «المختارة» عَنْ أنس[٥] قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أُلِهم خمسةً لم يُحرم خمسة، وفيها: ومَنْ أُلهم الشكر لم يُحْرم الزيادة».

وأخرج الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» عن أبي هريرة[٦] قال: قال رسول الله ﷺ: «أربعٌ مَنْ أعطيهنّ لم يُمْنع من الله أربعاً». وفيها: «ومن أعطي الشكر لم يمنع الزيادة».

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٦٠١)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٤٥٣٠)، وابن المبارك في «الزهد» رقم (٣٢٠)، وابن أبي الدنيا في «الشكر» رقم (٣) مرسلاً بسند صحيح.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٦٠١، ٦٠٢)، وذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٢٦).

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» رقم (١٢٥٧٤، ١٣٧٣١). وهو حديث ضعيف.

(٤) انظر: «تقريب التهذيب» رقم (٤٨٨١).
«ميزان الاعتدال» (٣/ ١٧٦ رقم ٦٠٢٤).

(٥) أخرجه الضياء في «المختارة» رقم (١٨١٤).

(٦) أخرجه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (٢/ ٢١١).

ولا وجه لتقييد الزيادة بالزيادة في الطاعة؛ بل الظاهرُ مِنْ الآية العموم كما يفيده جعل الزيادة جزاء للشكر، فمَنْ شكر الله على ما رزقه، وسَّع الله عليه في رزقه، ومَنْ شكر الله على ما أقدره عليه مِنْ طاعته زاده مِنْ طاعته، ومَنْ شكره على ما أنعم عليه به من الصحة زاده الله صحةً ونحو ذلك.

وأخرج عبد بن حُميد، وابن جَرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود[(١)] أنّه كان يقرأ: ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۛ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ ويقول: كذَبَ النسّابون.

وأخرج ابنُ أبي شيبة، وابن المنذر عَنْ عمرو بن ميمون[(٢)] مثله.

وأخرج ابنُ الضريس[(٣)] عن أبي مِجْلَز قال: قال رجل لعليّ بن أبي طالب: أنا أنسبُ الناس، قال: إنّك لا تنسب الناس، فقال: بلى فقال له عليّ: أرأيت قوله: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصۡحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونَۢا بَيۡنَ ذَٰلِكَ كَثِيرٗا﴾ [الفرقان: ٣٨] قال: أنا أنسب ذلك الكثير، قال: أرأيتَ قوله: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۛ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ فسكتَ.

وأخرج أَبو عُبيد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عَنْ عروة بن الزبير[(٤)] قال: ما وجدنا أحداً يعرف ما وراء مَعدّ بن عدنان.

وأخرج أبو عبيد، وابن المنذر عن ابن عباس[(٥)] قال: بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أباً لا يُعرفون.

وأخرج ابنُ جرير، وابنُ أبي حاتم عنه[(٦)] في قوله: ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ قال: لما سمعوا كتاب الله عجبوا ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ﴾ يقولون: لا نصدّقكم فيما جئتم به فإنّ عندنا فيه شكّاً قويّاً.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٦٠٤) بسند حسن.
(٢) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٩).
وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٦٠٤) بسند حسن.
(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٩).
(٤) عزاه إليهم السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ١٠).
(٥) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ١٠).
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٦٠٧) بسند ضعيف.

وأخرج عبدُ الرزاق، والفريابي، وأبو عُبيد، وابن جَرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصحّحه عن ابن مسعود[١]: ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ قال: عضّوا عليها. وفي لفظ: على أناملهم غيظاً على رسلهم.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسۡتَفۡتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ ﴿١٧﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾.

قولُه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ هؤلاء القائلون هم طائفة المتمرّدين عن إجابة الرسل، واللام في ﴿لَنُخۡرِجَنَّكُم﴾ هي الموطئة للقسَم[٢]؛ أي: واللهِ لنخرجنّكم من أرضنا أو لتعودنّ في ملتنا، لم يقنعوا بردهم لما جاءت به الرسل وعدم امتثالهم لما دعوهم إليه حتى اجترءوا عليهم بهذا، وخيّروهم بين الخروج من أرضهم، أو العود في ملتهم الكفرية.

وقد قيل: إن «أو» في ﴿أَوۡ لَتَعُودُنَّ﴾ بمعنى[٣]: حتى، أو يعني: إلّا أن تعودوا[٤] كما قاله بعضُ المفسرين، وُردّ بأنّه لا حاجة إلى ذلك؛ بل (أو) على بابها للتخيير بين أحد الأمرين، [٣/١١٦] وقد تقدّم تفسير الآية في سورة الأعراف.

قيل: والعود هنا بمعنى: الصيرورة لعصمة الأنبياء عَنْ أن يكونوا على ملة الكفر قبل النبوة وبعدها؛ وقيل: إن الخطاب للرسل ولمن آمن بهم فغلب على أتباعهم ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ﴾ أي: إلى الرسل ﴿لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: قال لهم:

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/٣٤١)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٣/٦٠٥)، والطبراني رقم (٩١١٨، ٩١١٩)، والحاكم (٢/٣٥٠) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/٤٣): «فيه عبد الله بن محمد بن سعيد بن أبي مريم، وهو ضعيف».

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/١١٦).

(٣) «جامع البيان» (١٣/٦١٢)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (٣/١١٠٤ ـ ١١٠٥).

(٤) «جامع البيان» (١٣/٦١٢).

لنهلكن الظالمين ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾؛ أي: أرض هؤلاء الكفار الذين توعدوكم بما توعدوا من الإخراج أو العود، ومثل هذه الآية قوله سبحانه: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧]، وقال: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ﴾ [الأحزاب: ٢٧].

وقُرئ «ليهلكنّ» و«ليسكننّكم» بالتحتية[١] في الفعلين اعتباراً بقوله ﴿فَأَوْحَىٰٓ﴾، والإشارة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى ما تقدّم مِنْ إهلاك الظالمين، وإسكان المؤمنين في مساكنهم ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِى﴾ أي: موقفي، وذلك يوم الحساب، فإنه موقف الله سبحانه، والمَقام بفتح الميم مكان الإقامة، وبالضم فعل الإقامة.

وقيل: إنّ المقام هنا مصدر[٢] بمعنى: القيام؛ أي: لمن خاف قيامي عليه ومراقبتي له كقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣].

وقال الأخفش[٣]: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى﴾ أي: عذابي ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ أي: خاف وعيدي بالعذاب، وقيل: بالقرآن وزواجره، وقيل: هو نفس العذاب، والوعيد الاسم مِنْ الوعد ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟﴾ معطوف على أوحى، والمعنى: أنهم استنصروا بالله على أعدائهم، أو سألوا الله القضاء بينهم، مِنْ الفتاحة وهي الحكومة.

ومن المعنى الأوّل قوله: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ [الأنفال: ١٩] أي: إن تستنصروا فقد جاءكم النصر؛ ومن المعنى الثاني قوله: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٨٩] أي: احكمْ، والضمير في استفتحوا للرسل؛ وقيل: للكفار.

وقيل: للفريقين ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ الجبّار: المتكبّر، الذي لا يرى لأحد عليه حقّاً، هكذا حكاه النَّحاس[٤] عن أهل اللغة[٥].

والعنيد: المُعاند للحق والمجانب[٦] له، وهو مأخوذ مِنْ العَند، وهو الناحية؛ أي: أخذ في ناحية مُعرضاً. قال الشاعر:

---

(١) «القراءات الشاذة» (ص٦٨)، و«البحر المحيط» (٦/ ٤١٧)، و«روح المعاني» (١٣/ ٢٤٥). وهما قراءتان شاذتان.
(٢) «الفريد» (٣/ ١٥٣)، و«البحر المحيط» (٦/ ٤١٧ ـ ٤١٨).
(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٢/ ١١٦ ـ ٤١٧).
(٤) في «معاني القرآن» للنحاس (٣/ ٥٢١). (٥) «الصحاح» (٢/ ٦٠٨).
(٦) «تهذيب اللغة» (١٥/ ٣٠٤).

إذا نـزلْـتُ فـاجـعـلـونـي وسـطـاً   إنـي كـبـيـرٌ لا أُطـيـقُ الـعَـنَّـدا[١]

قال الزجّاج[٢]: العنيد الذي يعدل عَنْ القصد، وبمثله قال الهروي[٣].

وقال أبو عُبيد[٤]: هو الذي عَنِد وبَغى، وقال ابن كيسان[٥]: هو الشامخ بأنفه؛ وقيل: المراد[٦] به: العاصي؛ وقيل: الذي أبى أَنْ يقول[٧]: لا إله إلّا الله؛ ومعنى الآية: أنّه خسر وهلكَ مَنْ كان متصفاً بهذه الصفة. ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ أي: من بعدِه جهنّم.

والمراد: بعد هلاكه على أنّ (وراء) ها هنا بمعنى: بَعد، ومنه قول النابغة[٨]:

حـلـفـتُ فـلـم أتـركْ لـنـفـسِـك ريـبـةً   ولـيـسَ وراءَ الـلّـهِ لـلـمـرءِ مـذهـبُ

أي: ليس بعد الله، ومثله قوله: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أي: من بعده. كذا قال الفراء[٩]، وقيل: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ﴾ أي: مِنْ أمامه.

قال أبو عُبيد[١٠]: هو مِنْ أسماء الأضداد[١١]؛ لأن أحدهما ينقلب إلى الآخر، ومِنْه قول الشاعر:

ومـن ورائِـكَ يـومٌ أنـت بـالـغُـه   لا حـاضرٌ معـجزٌ عنه ولا بادي[١٢]

وقال آخر:

أترْجو بنو مروانَ سَمْعي وطاعتي   وقومي تميمٌ والفلاةُ ورائيا[١٣]

أي: أمامي، ومِنْه قوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾

---

(١) انظر: «خزانة الأدب» (١١/ ٣٢٣).
(٢) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ١٥٦).
(٣) في «غريب الحديث» (٤/ ٢٣٥).
(٤) في «غريب الحديث» (٤/ ٢٣٥).
(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٢/ ١١٨).
(٦) «روح المعاني» (١٣/ ٢٤٣)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ١١٨).
(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٦١٦)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٤١) بسند صحيح.
(٨) انظر: «ديوان النابغة الذبياني» (ص١٧).
(٩) في «معاني القرآن» للفراء (١/ ٦٠).
(١٠) في «الغريبين» (٦/ ١٩٩٢ ـ ١٩٩٣).
(١١) بل قال أبو عبيد: «فزعم أبو عبيدة وأبو علي قطرب: أنَّ هذا من الأضداد...».
وقال أبو عبيد: بما بعده.
(١٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٢/ ١١٩).
(١٣) نسبه ابن الأنباري في «الأضداد» (ص٦٨)، لسوار بن المُضرَّب.

[الكهف: ٧٩]؛ أي: أمامهم، وبقول أبي عبيدة[١] هذا قال قُطْرب[٢].

وقال الأخفش[٣]: هو كما يقال: هذا الأمر مِنْ ورائك أي: سوف يأتيك، وأنا مِنْ وراء فلان أي: في طلبه.

وقال النحاس[٤]: مِنْ ورائه؛ أي: مِنْ أمامه، وليس من الأضداد، ولكنه من توارى؛ أي: استتر فصارت جهنم مِنْ ورائه؛ لأنها لا تُرى، وحكى مثله ابن الأنباري[٥].

﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾ معطوف على مقدّر جواباً عَنْ سؤال سائل، كأنه قيل: فماذا يكون إذن؟ قيل: يُلْقى فيها ويُسقى.

والصديد: ما يسيل مِنْ[٦] جلود أهل النّار، واشتقاقه مِنْ الصدّ؛ لأنه يصدّ الناظرين عَنْ رؤيته، وهو دَمٌ مختلط بقيح، والصديد صفة لماء، وقيل: عطف بيان منه و﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ في محل جر على أنّه صفة لماء، أو في محل نصب[٧] على أنه حال.

وقيل: هو استئناف مبنيّ على سؤال، والتجرّع: التحسّي؛ أي: يتحساه مرة بعد مرّة لا مرّة واحدة لمرارته وحرارته ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ أي: يبتلعه، يقال: ساغ الشرابُ في الحلق يسوغ سَوغاً: إذا كان سَهْلاً.

والمعنى: ولا يقارب إساغته، فكيف تكون الإساغة؟ بل يْغصُّ به، فيطول عذابه بالعطش تارة، ويشربه على هذه الحال أُخْرى؛ وقيل: إنّه يسيغه بعد شدة وإبطاء؛ كقوله: ﴿وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١] أي: يفعلون بعد إبطاء، كما يدلّ عليه قوله تعالى في آية أخرى: ﴿يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ﴾ [الحج: ٢٠] ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي: تأتيه أسبابُ الموت مِنْ كل جهة من الجهات، أو من كل موضع من مواضع بدنه.

وقال الأخفش[٨]: المراد بالموت هنا: البلايا التي تصيب الكافر في النار،

---

(١) في «مجاز القرآن» (١/ ٣٣٧).
(٢) ذكره أبو عبيد في «الغريبين» (٦/ ١٩٩٣).
(٣) في «معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٥٩٨).
(٤) في «معاني القرآن» للنحاس (٣/ ٥٢٢).
(٥) في «الأضداد» لابن الأنباري (ص٦٨).
(٦) «جامع البيان» (١٣/ ٦١٩)، و«المحرر الوجيز» (١٠/ ٧٣)، و«معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١٥٧).
(٧) «التبيان» (٢/ ٧٦٥)، و«الفريد» (٣/ ١٥٤).
(٨) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٢/ ١٢٢).

سمّاها موتاً لشدّتها ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ أي: والحال أنَّه لم يمت[١] حقيقة فيستريح؛ وقيل: تَعْلق نفسه[٢] في حنجرته فلا تخرج مِنْ فيه فيموت، ولا ترجع إلى مكانها من جوفه فيحيا، ومثله قوله تعالى: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه: ٧٤]، وقيل: معنى ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾: لتطاول[٣] شدائد الموت به، وامتداد سكراته عليه. والأولى تفسير الآية بعدم الموت حقيقةً لما ذكرنا من قوله سبحانه: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه: ٧٤].

وقوله: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦] ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾؛ أي: مِنْ أمامه، أو من بعده عذاب شديد، وقيل: هو الخلود، وقيل: حَبْس النفس. ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ﴾ قال سيبويه[٤]: (مَثَلُ) مرتفع على الابتداء[٥]، والخبر مقدّر؛ أي: فيما يُتلى عليكم مَثَلُ الذين كفروا. وبه قال الزجّاج[٦].

وقال الفرّاء[٧]: التقدير: مثلُ أعمال الذين كفروا فحُذف المضاف. وروي عنه أنه قال بإلغاء مَثَلُ. والتقدير: الذين كفروا بربهم أعمالهم كرمادٍ؛ وقيل هو: أعني «مثل» مبتدأ[٨] وخبره «أعمالهم كرماد» على أن معناه الصفة، فكأنه قال: صفتهم العجيبة أعمالُهم كرماد.

والمعنى: أنّ أعمالهم باطلة غير مقبولة، والرماد ما يبقى بَعد احتراق الشيء. ضربَ اللهُ سبحانه هذه الآية مثلاً لأعمال الكفار في أنّه يمحقها كما تمحق الريح الشديدة الرماد في يوم عاصف.

ومعنى ﴿ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾: حملته بشدّة وسرعة[٩]، والعَصْف: شدّة الريح، وصف به زمانها مبالغة كما يقال: يوم حارٍ، ويوم بارد، والبرد والحر فيهما لا منهما

---

(١) قاله الضحاك. ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٢/ ١٢٢).
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٦٢١) من طريق ابن جريج، عن مجاهد.
(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٢/ ١٢٣). (٤) في «الكتاب» (١/ ٧١ ـ ٧٢).
(٥) «روح المعاني» (١٣/ ٢٥٢)، و«التبيان» (٢/ ٧٦١)، و«الفريد» (٣/ ١٥٥).
(٦) في «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٣/ ١٥٧).
(٧) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٧٢).
(٨) «التبيان» (٢/ ٧٦١)، و«مشكل إعراب القرآن» (١/ ٤٠٢).
(٩) «جامع البيان» (١٣/ ٦٢٣ ـ ٦٢٤).

﴿لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ أي: لا يقدر الكفار مما كسَبوا مِنْ تلك الأعمال الباطلة على شيء منها، ولا يرون له أثراً في الآخرة يجازون به ويثابون عليه؛ بل جميع ما عملوه في الدنيا باطل ذاهب كذهاب الريح بالرماد عند شدة هبوبها، والإشارة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى ما دلّ عليه التمثيل؛ أي: هذا البطلان لأعمالهم وذهاب أثرها ﴿هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾ عَنْ طريق الحقّ المخالف لمنهج الصواب، لما كان هذا خسراناً لا يمكن تداركه سماه بَعيداً.

وقد أخرج ابنُ جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس[١] في قوله: ﴿لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ﴾ الآية، قال: كانت الرسل والمؤمنون يستضعفهم قومهم ويقهرونهم ويكذبونهم [٣/١١٧] ويدعونهم إلى أَنْ يعودوا في ملتهم، فأبى الله لرسوله والمؤمنين أن يعودوا في ملّة الكفر، وأمرهم أَنْ يتوكلوا على الله، وأمرهم أن يستفتحوا على الجبابرة، ووعدهم أَنْ يُسكنَهم الأرض مِنْ بعدهم، فأنجزَ لهم ما وعدهم، واستفتَحوا كما أمرهم الله أَنْ يستفتِحوا.

وأخرج عبد بن حُميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عَنْ قتادة[٢] في الآية قال: وعدَهم النّصرَ في الدنيا، والجنّة في الآخرة، فبيَّن الله مَنْ يسكنها من عباده فقال: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمٰن: ٤٦] وإنّ لله مقاماً هو قائمُه، وإنّ أهل الإيمان خافوا ذلك المقام فنصبوا ودأبوا اللّيل والنهار.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد[٣] في قوله: ﴿وَٱسۡتَفۡتَحُواْ﴾ قال: للرسل كلِّها يقول: استُنصروا، وفي قوله: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ﴾ قال: معاند للحقّ مجانب له.

وأخرج عبدُ الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة[٤] في

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٦١٥) بسند ضعيف. وذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٣٧).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٦١٣) بسند صحيح. وذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٣٧).

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٦١٥) بسند صحيح. وذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٣٨).

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٦١٦)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٤١) بسند صحيح. وذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٣٨).

الآية قال: استنصرت الرسل على قومها ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ يقول: عنيد عَنْ الحق مُعْرض عَنْه، أَبى أَنْ يقول لا إِله إِلّا اِلله.

وأخرج ابنُ جرير[(١)] عَنْ إبراهيم النخعي قال: العنيد الناكب عَنْ الحق.

وأخرج أحمد، والترمذي، والنسائي، وابن أبي الدنيا، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو نعيم في «الحلية»، وصححه، وابن مردويه، والبيهقي عن أبي أُمامة[(٢)] عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ قال: يُقرَّب إليه فيتكرَّهه، فإذا دنا منه شوى وجهه، ووقعت فروةُ رأسه، فإذا شربه قطَّع أمعاءَه حتى تخرج مِنْ دبره. يقول الله تعالى: ﴿وَسُقُوا مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]. وقال: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَآءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِى الْوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩].

وأخرج ابنُ أبي شيبة[(٣)] عن ابن عباس في قوله: ﴿مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾ قال: يسيل مِنْ جلد الكافر ولحمه.

وأخرج عبدُ بن حُميد، وابن أبي حاتم عن عكرمة[(٤)] قال: ﴿مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾ هو: القيح والدم.

وأخرج ابن أبي حاتم[(٥)] عن ابن عباس في قوله: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ قال: أنواع العذاب، وليس منها نوع إلّا الموت يأتيه منه لو كان يموت، ولكنَّه لا يموت لأنَّ الله يقول: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾ [فاطر: ٣٦].

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ميمون[(٦)] بن مهران ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ قال: مِنْ كلّ عظم وعرق وعصب.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٦١٥ ـ ٦١٦) من طريق هشيم، به.

(٢) أخرجه أحمد رقم (٢٢٢٨٥)، والترمذي رقم (٢٥٨٣)، والنسائي في «السنن الكبرى» رقم (١١٢٦٣)، وابن أبي الدنيا في «صفة النار» رقم (٧٣)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٦٢٠)، والطبراني رقم (٧٤٦٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ١٨٢)، و«الحاكم» (٢/ ٣٥١)، والبيهقي في «البعث والنشور» رقم (٦٠٢). وهو حديث ضعيف.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (١٣/ ٥٢٢).

(٤) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٣٩).

(٥) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٣٩).

(٦) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ١١).

وأخرج أبو الشيخ في «العظَمة»[(١)] عَنْ محمد بن كعب نحوَه.

وأخرج ابنُ أبي شيبة، وابنُ جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن إبراهيم التيمي[(٢)] قال: مِنْ موضع كلِّ شعرة في جسده ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ قال: الخلود.

وأخرج ابنُ المنذر[(٣)] عَنْ الفُضيل بن عياض ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ قال: حَبْس الأنفاس.

وأخرج ابنُ جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[(٤)] في قوله: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ﴾ الآية قال: مثل الذين عبدوا غيره فأعمالهم يوم القيامة كرمادٍ اشتدّت به الريحُ في يوم عاصف لا يقدرون على شيء من أعمالهم ينفعهم، كما لا يقدر على الرماد إذا أُرسل في يوم عاصف.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ (٢٠) وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍۚ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ (٢١) وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِىۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢) وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ (٢٣)﴾.

---

(١) أخرجه أبو الشيخ في «العظَمة» رقم (٤٦٣) بسند ضعيف لضعف محمد بن أبي معشر.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٣/ ٣٤٢)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٦٢١)، والبيهقي في «البعث والنشور» رقم (٦١١)، وابن أبي الدنيا في «صفة النار» رقم (١٢٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢١٢) بسند صحيح.

(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ١٦).

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٦٢٤) بسند ضعيف. وذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٣٩).

[القادر على خلق السماوات والأرض قادر على استخلاف قوم مكان قوم]

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ الرؤية هنا هي القلبية، والخطاب لرسول الله ﷺ تعريضاً لأمته، أو الخطاب لكلّ مَنْ يصلح له.

وقرأ حمزة والكسائي «خالق السمٰوات»(١). ومعنى ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: بالوجه الصحيح الذي يحقّ أن يخلقها عليه، ليستدلّ بها على كمال قدرته.

ثم بيّن كمال قدرته سبحانه واستغناءه عن كل واحد من خلقه فقال: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ فيعدم الموجودين ويوجد المعدومين ويهلك العصاة ويأتي بمن يطيعه مِنْ خلقه، والمقام يحتمل أن يكون هذا الخلق الجديد من نوع الإنسان، ويحتمل أن يكون مِنْ نوع آخر.

[من أحوال الآخرة]

﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي: بممتنع؛ لأنه سبحانه قادر على كل شيء، وفيه أنَّ الله تعالى هو الحقيق بأنْ يرجى ثوابه، ويخاف عقابه، فلذلك أتبعه بذكر أحوال الآخرة فقال: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي: برزوا مِنْ قبورهم(٢) يوم القيامة، والبروز: الظهور، والبَرَاز: المكان الواسع لظهوره، ومنه: امرأة بَرْزة؛ أي: تظهر للرجال؛ فمعنى (برزوا): ظهروا مِنْ قبورهم. وعبّر بالماضي(٣) عَنْ المستقبل تنبيهاً على تحقيق وقوعه كما هو مقرّر في علم المعاني، وإنما قال: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ﴾ مع كونه سبحانه عالماً بهم لا تخفى عليه خافية من أحوالهم برزوا أو لم يبرزوا؛ لأنهم كانوا يستترون عَنْ العيون عند فعلهم للمعاصي، ويظنون أنّ ذلك يخفى على الله تعالى، فالكلام خارج على ما يعتقدونه.

﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟﴾؛ أي: قال: الأتباع الضعفاء للرؤساء الأقوياء المتكبرين لما هم فيه من الرياسة: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ أي: في الدنيا، فكذبنا الرسلَ، وكفَرنا بالله متابعةً لكم، والتَّبَع: جمع تَابِع، أَوْ مصدر وُصف به للمبالغة أو على تقدير ذوي تَبعٍ.

---

(١) «التيسير» (ص١٣٤)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ٢٥)، و«النشر» (٢/ ٢٩٨)، و«البحر المحيط» (٦/ ٤٢٤). وهي قراءة متواترة، ومعهما خَلَف، وباقي العشرة قرأ «خَلَقَ» بصيغة الفعل الماضي.

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ١٢٥ ـ ١٢٦).

(٣) «زاد المسير» (٤/ ٣٥٦)، و«روح المعاني» (١٣/ ٢٥٧).

قال الزجّاج[١]: جمعهم في حشرهم فاجتمع التابع والمتبوع، فقال الضعفاء للذين استكبروا مِنْ أكابرهم عن عبادة الله: إنا كنا لكم تبعاً، جَمْع تابع مثل خادم وخَدَمٌ وحارس وحَرسَ وراصد ورَصَد ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا﴾ أي: دافعون عنا ﴿مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ﴾، (مِنْ) الأولى للبيان[٢]، والثانية للتبعيض[٣]؛ أي: بعض الشيء الذي هو عذاب الله؛ يقال: أغنى عَنْه إذا دفع عنه الأذى، وأغناه إذا أوصل إليه النفع.

﴿قَالُواْ لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ﴾ أي: قال المستكبرون مجيبين عن قول المستضعفين، والجملة مستأنفة بتقدير سؤال كأنّه قيل: كيف أجابوا؟ أي: لو هدانا الله إلى الإيمان لهديناكم إليه.

وقيل: لو هدانا الله إلى طريق الجنّة لهديناكم إليها؛ وقيل: لو نجانا الله من العذاب لنجيناكم منه ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ﴾ أي: مستوٍ علينا الجزَعُ والصبرُ.

والهمزة وأم لتأكيد[٤] التسوية في قوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾ [البقرة: ٦] ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ﴾ أي: مِنْ منجا[٥] ومَهْرب من العذاب، يقال: حاص فلان عَنْ كذا؛ أي: فرّ وزاغ يَحِيص حَيْصاً وحُيوصاً وحَيَصاناً.

والمعنى: ما لنا وجه نتباعد به عن النار، ويجوز أَنْ يكون هذا من كلام الفريقين، وإنْ كان الظاهر أنّه كلام المستكبرين.

﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ أي: قال للفريقين هذه المقالة، ومعنى لما ﴿قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾: لما دخل[٦] أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار على ما يأتي بيانه في سورة مريم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ﴾ وهو وعدُه سبحانه بالبعث والحساب،

---

(١) «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١٥٨).
(٢) «التبيان» (٢/ ٧٦٧)، و«الفريد» (٣/ ١٥٧)، و«روح المعاني» (١٣/ ٢٥٨).
(٣) انظر: المصادر المتقدمة.
(٤) «روح المعاني» (١٣/ ٢٦٠)، و«البحر المحيط» (٦/ ٤٢٧).
(٥) «جامع البيان» (١٣/ ٦٢٧)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ١٢٧).
(٦) «المحرر الوجيز» (١٠/ ٧٧)، و«جامع البيان» (١٣/ ٦٣٨).

ومجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ﴿وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ أي: وعدتكم وعداً باطلاً، بأنَّه لا بعثَ ولا حسابَ ولا جنَّة ولا نارَ فأخلفتكم ما وعدتكم به مِنْ ذلك.

قال الفرّاء[1]: وعدُ الحق هو مِنْ إضافة الشيء إلى نفسه كقولهم: مسجد الجامع.

وقال البَصْريون: وعدكم وعد اليوم الحق ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ أي: تسلّط عليكم بإظهار حجة على ما وعدتكم به وزيّنته لكم ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ أي: إلّا مجرّد دعائي لكم إلى الغواية والضلال بلا حُجة ولا برهان، ودعوته إياهم ليست مِنْ جنس السلطان حتى تُستثنى مِنْه؛ بل الاستثناء منقطع[2]؛ أي: لكن دعوتكم فاستجبتم لي؛ أي: فسارعتم إلى إجابتي؛ وقيل: المراد بالسلطان هنا: القهر؛ أَي: ما كانَ لي عليكم مِنْ قهر يضطركم [٣/١١٨] إلى إجابتي؛ وقيل: هذا الاستثناء هو مِنْ باب:

تحيةُ بينهم ضربٌ وجيعُ[3]

مبالغة في نفيه للسلطان عَنْ نفسه كأنه قال: إنما يكون لي عليكم سلطان إذا كان مجرّد الدعاء مِنْ السلطان، وليس مِنْه قطعاً ﴿فَلَا تَلُومُونِي﴾ بما وقعتم فيه بسبب وعدي لكم بالباطل وإخلافي لهذا الموعد ﴿وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ باستجابتكم لي بمجرّد الدعوة التي لا سُلطان عليها ولا حُجة، فإنّ مَنْ قَبِلَ المواعيد الباطلة والدعاوي الزائغة عَنْ طريق الحق فعلى نفسه جنى، ولمارنه قطعَ، ولا سيما ودعوتي هذه الباطلة وموعدي الفاسد وقعا معارضين لوعد الله لكم وعد الحق، ودعوته لكم إلى الدار السلام، مع قيام الحجة التي لا تخفى على عاقل، ولا تلتبس إلّا على مخذول.

وقريب مِنْ هذا مَنْ يقتدي بآراء الرجال المخالفة لما في كتاب الله سبحانه، ولما في سُنَّة رسوله ﷺ ويؤثرها على ما فيهما، فإنّه قد استجاب للباطل الذي لم تَقُم عليه حجة، ولا دلّ عليه بُرْهان، وترك الحجة والبرهان خلف ظهره كما يفعله كثير مِنْ المقتدين بالرجال، المتنكبين طريق الحق بسوء اختيارهم. اللَّهُمَّ غفرا.

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٢/١٢٨)، وأبو حيان في «البحر المحيط» (٦/٤٢٩).

(٢) «روح المعاني» (١٣/٢٦٢ ـ ٢٦٣).

(٣) هو لعمرو بن معديكرب. «خزانة الأدب» (٩/٢٦٥).

﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ﴾ يقال: صرخَ فلان إذا استغاث، يَصْرُخ صُراخاً وصَرخاً، واستصرخ بمعنى: صَرَخ، والمُصْرِخ المُغِيث، والمستصرِخ المُستَغيث، يقال: استصرخني فأصرختُه، والصريخ: صوتُ المستصْرِخ، والصريخ أيضاً: الصارخ وهو المُغيث والمستغيث، وهو مِنْ أسماء الأضداد كما في الصِّحاح(١).

قال ابنُ الأعرابي(٢): الصارخ: المُستغيث، والمُصْرِخ: المغيث، ومعنى الآية: ما أنا بمغيثكم مما أنتم فيه مِنْ العذاب، وما أنتم بمغيثي ممّا أنا فيه، وفيه إرشادٌ لهم إلى أنَّ الشيطان في تلك الحالة مبتلى بما ابتلوا به مِنْ العذاب، محتاج إلى مَنْ يغيثه ويخلّصه مما هو فيه، فكيف يطمعون في إغاثة مَنْ هو محتاج إلى من يغيثه؟! ومما ورد مورد هذه الأقوال مِنْ قول العرب قول أُميّة بن أبي الصلت(٣):

فلا تَجْزعوا إنّي لكم غيرُ مصرخٍ   وليسَ لكم عِندي غَناءٌ ولا نفرُ

و(مصرخيَّ) بفتح الياء في قراءة الجمهور(٤).

وقرأ الأعمَش(٥) وحمزة بكسر الياء على أصل التقاء الساكنين.

قال الفرّاء(٦): قراءة حمزة وهمٌ منه، وقلّ مَنْ سلم عَنْ خطأ، وقال الزجّاج(٧): هي قراءة رديئة ولا وجه لها إلّا وجه ضعيف؛ يعني: ما ذكرناه من أنه كسرها على الأصل في التقاء الساكنين.

وقال قُطْرب(٨): هذه لغة بني يَرْبوع يزيدون على ياء الإضافة ياء، وأنشد الفرّاء(٩) فيما ورد على هذه القراءة قول الشاعر:

قُلْتُ لها يا تاءُ هل لك فيّ   قالت لهُ ما أنتَ بالمُرضِيّ(١٠)

---

(١) «الصحاح» (١/ ٤٢٦).
(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١٥٩).
(٣) ذكره القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ١٢٩).
(٤) «البحر المحيط» (٦/ ٤٢٩)، و«النشر» (٢/ ٢٩٨)، و«روح المعاني» (١٣/ ٢٦٦)، و«التيسير» (ص١٣٤). وهما قراءتان متواترتان.
(٥) انظر: المصادر المتقدمة.
(٦) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٧٥).
(٧) في «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١٥٩).
(٨) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٢/ ١٣٠)، والألوسي في «روح المعاني» (١٣/ ٢٦٧).
(٩) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٧٥).
(١٠) هو للأغلب العجلي. «خزانة الأدب» (٤/ ٤٣٠ ـ ٤٣١).

﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُۗ﴾ لما كشف لهم القناعَ بأنّه لا يغني عنهم مِنْ عذاب الله شيئاً، ولا ينصرهم بنوعٍ مِنْ أنواع النصر.

صرَّح لهم بأنَّه كافر بإشراكهم له مع الله في الرّبوبية من قبل هذا الوقت الذي قال لهم الشيطان فيه هذه المقالة، وهو ما كان مِنْهم في الدنيا مِنْ جعله شريكاً.

ولقد قام لهم الشيطان في هذا اليوم مقاماً يقصم ظهورهم، ويقطع قلوبهم، فأوضح لهم:

(أولاً): أنَّ مواعيده التي كان يعدهم بها في الدنيا باطلة معارضة لوعد الحق مِنْ الله سبحانه، وأنّه أخلفهم ما وعدهم من تلك المواعيد، ولم يف لهم بشيء منها؛ ثم أوضح لهم:

(ثانياً): بأنَّهم قبلوا قولَه بما لا يوجب القبول، ولا يَنفُق على عقل عاقل لعدم الحُجة التي لا بدّ للعاقل منها في قبول قول غيره، ثم أوضح:

(ثالثاً): بأنَّه لم يكن منه إلّا مجرّد الدعوة العاطلة عَنْ البرهان الخالية عن أيسر شيء مما يتمسك به العقلاء، ثم نعى عليهم:

(رابعاً): ما وقعوا فيه، ودفع لومهم له، وأمرهم بأَنْ يلوموا أنفسَهم؛ لأنهم هم الذين قبلوا الباطل البحت الذي لا يلتبس بطلانه على مَنْ له أدنى عقل؛ ثم أوضح لهم:

(خامساً): بأنَّه لا نصر عنده ولا إغاثة ولا يستطيع لهم نفعاً ولا يدفع عنهم ضرّاً؛ بل هو مثلُهم في الوقوع في البلية، والعجز عَنْ الخلوص عن هذه المحنة؛ ثم صرّح لهم:

(سادساً): بأنَّه قد كفر بما اعتقدوه فيه، وأثبتوه له فتضاعفت عليهم الحسرات وتوالت عليهم المصائب.

وإذا كان جملة ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ من تتمة كلامه، كما ذهب إليه البعضُ فهو **نوع سابع** مِنْ كلامه الذي خاطبهم به، فأثبت لهم الظلم، ثم ذكر ما هو جزاؤهم عليه مِنْ العذاب الأليم، لا على قول من قال: إنه ابتداء كلام من جهة الله سبحانه.

وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أنَّ «ما» مصدرية[١] في «ما أشركتمون» وقيل: يجوز أَنْ تكون موصولة[٢] على معنى ﴿إِنِّي كَفَرْتُ﴾ بالذي أشركتمونيه وهو الله ﷻ، ويكون هذا حكاية لكفره بالله عند أَنْ أمره بالسجود لآدم ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ لما أخبر سبحانه بحال أهل النّار أخبر بحال أهل الجنّة.

وقرأ الجمهور ﴿وَأُدْخِلَ﴾ على البناء للمفعول[٣]، وقرأ الحسنُ (وأُدْخِلُ) على الاستقبال[٤] والبناء للفاعل؛ أي: وأنا أُدْخِلُ الذين آمنوا، ثم ذكر سبحانه خلودَهم في الجنات، وعدم انقطاع نعيمهم، ثم ذكر أن ذلك بإذن ربهم؛ أي: بتوفيقه ولطفه وهدايته، هذا على قراءة الجمهور، وأما على قراءة الحسن فيكون ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ متعلقاً بقوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ أي: تحية الملائكة في الجنة سلام بإذن ربهم، وقد تقدّم تفسير هذا في سورة يونس.

وقَدْ أخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن قتادة[٥] في قوله: ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ قال: بخلق آخر.

وأخرج ابنُ جرير، وابن المنذر عن ابن جريج[٦] في قوله: ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ﴾ قال: الأتباع ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ قال: للقادة.

وأخرج ابنُ المنذر، وابن أبي حاتم[٧] في قوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا﴾ قال زيد بن أسلم: جَزعوا مائة سنة، وصبروا مائة سنة.

وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه عَنْ كعب بن مالك[٨] يرفعه

---

(١) «التبيان» (٢/ ٧٦٨)، و«الفريد» (٣/ ١٦١)، و«روح المعاني» (١٣/ ٢٦٨).

(٢) انظر: المصادر المتقدمة.

(٣) «روح المعاني» (١٣/ ٢٦٨)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ١٣١)، و«البحر المحيط» (٦/ ٤٣٠).

(٤) «القراءات الشاذة» (ص٦٨)، و«المحتسب» (١/ ٣٦١)، و«البحر المحيط» (٦/ ٤٣٠). قراءة الحسن شاذة.

(٥) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ١٧).
وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ٣٥٣) بسند صحيح.

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٦٢٦) بسند ضعيف.

(٧) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٤٠).

(٨) أخرجه الطبراني في «الكبير» (ج١٩ رقم ١٧٢) بسند ضعيف.
وذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٤٠).

إلى النبي ﷺ في قوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡـنَآ﴾ الآية قال: «يقول أهل النّار: هلمّوا فلنصبر، فيصبرون خمسمائة عام، فلمَّا رأوا ذلك لا ينفعهم قالوا: هلمّوا فلنجزعْ، فبكوا خمسمائة عام، فلما رأوا ذلك لا ينفعهم قالوا: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡـنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾. والظاهر: أنّ هذه المراجعة كانت بينهم بعد دخولهم النار كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٧، ٤٨].

وأخرج ابنُ المبارك في «الزهد»، وابنُ جرير، وابنُ أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، وابن عساكر عَنْ عقبة بن عامر[١] يرفعه، وذكر فيه حديث الشفاعة، ثم قال: «ويقول الكافر عند ذلك: قد وجد المؤمنون مَنْ يشفع لهم، فمن يشفع لنا؟ ما هو إلّا إبليس فهو الذي أضلّنا، فيأتون إبليس فيقولون: قد وجد المؤمنون مَنْ يشفع لهم، قُمْ أنت فاشفعْ لنا، فإنّك أنتَ أضللتنا، فيقوم إبليس فيثور مِنْ مجلسه مِنْ أنتن ريح شمّها أحد قط، ثم يُعظِّهم بجهنم، ويقول عند ذلك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ﴾» الآية.

وضعّف السيوطي[٢] إسنادَه، ولعلّ سبب ذلك كون في إسناده [٣/١١٩] رشدين بن سعد عن عبد الرحمٰن بن زياد بن أنْعُم، عَنْ دجين الحجزي، عن عقبة.

وأخرج ابنُ جرير، وابنُ المنذر، وابن أبي حاتم عَنْ الحسن[٣] قال: إذا كان يوم القيامة قام إبليس خطيباً على منبر مِنْ نار فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّۖ﴾ قال: بناصريّ ﴿إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ﴾ قال: بطاعتكم إيايّ في الدنيا.

وأخرج ابن جرير، وابنُ المنذر عَنْ الشعبي[٤] في هذه الآية قال: خطيبان

---

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» رقم (٣٧٤ ـ زوائد نعيم)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٦٣٠ ـ ٦٣١)، والطبراني في «الكبير» (ج١٧ رقم ٨٨٧)، وابن عساكر في «تاريخه» (٧/ ٤٥٣)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٣٧٦): «فيه عبد الرحمٰن بن زياد بن أنعم، وهو ضعيف».

(٢) في «الدر المنثور» (٥/ ١٨).

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٦٣١) بسند ضعيف.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٦٣١) بسند حسن.

يقومان يوم القيامة: إبليس، وعيسى، فأمّا إبليس فيقوم في حزبه فيقول: هذا القول، يعني: المذكور في الآية، وأمّا عيسى فيقول: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧].

وأخرج ابنُ أبي حاتم[١] عن ابن عباس في قوله: ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ﴾ قال: ما أنا بنافعكم، وما أنتم بنافعيّ ﴿إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ﴾ قال: شركه: عبادته.

وأخرج عبدُ الرزاق، وابنُ المنذر عَنْ قتادة[٢] ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ﴾ قال: ما أنا بمغيثكم.

وأخرجَ ابنُ جرير، وابنُ المنذر عن ابن جريج[٣] في قوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ قال: الملائكة يُسلّمون عليهم في الجنّة.

[مثل الكلمة الطيبة، والكلمة الخبيثة]

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾.

لمّا ذكر سبحانه مَثَلَ أعمالِ الكفار، وأنّها كرمادٍ اشتدّت به الريح، ثم ذكر نعيم المؤمنين، وما جازاهم الله به من إدخالهم الجنة خالدين فيها، وتحية الملائكة لهم، ذكر تعالى ها هنا مَثَلاً للكلمة الطيبة، وهي كلمةُ الإسلام؛ أي: لا إله إلّا الله[٤]، أو ما هو أعمّ مِنْ ذلك من كلمات الخير.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٦٣٢) بسند ضعيف.
(٢) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٤١) بسند صحيح.
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٦٣٤) بسند ضعيف.
(٤) «جامع البيان» (١٣/ ٦٣٥ ـ ٦٣٦)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ١٣٢).

وذكر مثلاً للكلمة الخبيثة، وهي كلمةُ الشرك[١]، أو ما هو أعمُّ مِنْ ذلك من كلمات الشرّ، فقال مخاطباً لرسول الله ﷺ، أو مخاطباً لمن يصلح للخطاب: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ أي: اختار مثلاً وضعه في موضعه اللّائق به، وانتصاب[٢] مثلاً على أنّه مفعول ضَربَ و﴿كَلِمَةً﴾ بدل مِنهُ، ويجوز أن تنتصب[٣] الكلمة على أنّها عطف بيان لـ﴿مَثَلًا﴾، ويجوز أَنْ تنتصب الكلمة بفعل مقدّر؛ أي: جعل كلمةً طيبةً كشجرةٍ طيبة، وحكم بأنّها مثلها.

ومحل ﴿كَشَجَرَةٍ﴾ النصب على أَنَّها صفة لكلمة، أو الرفع على تقدير مبتدأ؛ أي: هي كشجرة، ويجوزُ أَنْ تكون ﴿كَلِمَةً﴾ أوّل مفعولي ﴿ضَرَبَ﴾، وأخرت عن المفعول الثاني، وهو ﴿مَثَلًا﴾ لئلّا تبعد عَنْ صفتها، والأوّل أولى.

و﴿كَلِمَةً﴾ وما بعدها تفسير للمَثَل. ثم وصف الشجرة بقوله: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ أي: راسخ آمن مِنْ الانقلاع بسبب تمكّنها من الأرض بعروقها و﴿وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: أعلاها ذاهب إلى جهة السماء مرتفع في الهواء، ثم وصفها سبحانه بأنّها ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ كلّ وقتٍ ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ بإرادته ومشيئته، قيل: وهي النخلة؛ وقيل غيرها.

قيل: والمراد بكونها ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ أي: كلّ ساعة مِنْ الساعات من ليل أو نهار في جميع الأوقات مِنْ غير فرق بين شتاء وصيف؛ وقيل: المراد: في أوقات مختلفة من غير تعيين؛ وقيل: كل غدوة وعشية، وقيل: كل شهر؛ وقيل: كل ستة أشهر.

قال النَّحاس[٤]: وهذه الأقوال متقاربة غير متناقضة، لأنَّ الحين عند جميع أهل اللغة إلّا مَنْ شذّ منهم بمعنى: الوقت يقع لقليل الزمان وكثيره، وأنشد الأصمعي قول النابغة[٥]:

تطلقه [حيناً وحيناً][٦] تراجعُ

---

(١) «الوسيط» للواحدي (٣/ ٣٠)، و«معالم التنزيل» (٣/ ٣٣).
(٢) «الفريد» (٣/ ١٦٢ ـ ١٦٣)، و«البحر المحيط» (٦/ ٤٣١)، و«التبيان» (٢/ ٧٦٨ ـ ٧٦٩).
(٣) انظر: المصادر المتقدمة.
(٤) في «معاني القرآن» للنحاس (٣/ ٥٢٨ ـ ٥٢٩).
(٥) انظر: «ديوان النابغة الذبياني» (ص٨٠).
(٦) كذا في المخطوط والذي في الديوان: طوراً طوراً.

قال النَّحاس[١]: وهذا يبين لك أنّ الحين بمعنى: الوقت. وقد ورد الحين في بعض المواضع يراد به: أكثر كقوله: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ [الإنسان: ١]. وقد تقدّم بيان أقوال العلماء في الحين في سورة البقرة في قوله: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦].

وقال الزجّاج[٢]: الحين: الوقت طال أم قصر. ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يتفكرون أحوال المبدأ والمعاد. وبدائع صنعه سبحانه الدالة على وجوده ووحدانيته، وفي ضرب الأمثال زيادة تذكير، وتفهيم وتصوير للمعاني.

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ قد تقدّم تفسيرها وقيل: هي الكافر نفسه، والكلمة الطيبة: المؤمن نفسه ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ أي: كمثل شجرة خبيثة. قيل: هي شجرة الحَنْظل[٣]، وقيل: هي شجرة الثوم[٤]، وقيل: الكمأة[٥]، وقيل: الطحلبة[٦].

وقيل: هي الكُشوث[٦] بالضم وآخره مثلثة، وهي شجرة لا ورقَ لها ولا عروق في الأرض. قال الشاعر:

وهو كُشُوث فلا أصلٌ ولا ثمرُ[٧]

وقرئ «ومثلاً كلمةً» بالنصب[٨] عطفاً على كلمةٍ طيبة ﴿ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: استُؤصلت واقتُلعت مِنْ أصلها، ومنه قول الشاعر[٩]:

هو الجَلاءُ الذي يجتثُّ أصلَكُمُ

---

(١) في «معاني القرآن» للنحاس (٣/ ٥٢٨ ـ ٥٢٩).
(٢) في «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١٦١). (٣) انظر: «جامع البيان» (١٣/ ٦٥٨ ـ ٦٥٩).
(٤) «زاد المسير» (٤/ ٣٦١)، و«معالم التنزيل» (٣/ ٣٣)، و«الوسيط» للواحدي (٣/ ٣٠).
(٥) انظر: المصادر المتقدمة.
(٦) «معالم التنزيل» (٣/ ٣٣)، و«الوسيط» للواحدي (٣/ ٣٠).
(٧) وعجز هذا البيت:

ولا نسيمٌ ولا ظلٌّ ولا ثمرٌ

انظر: «الصحاح» (١/ ٢٩١).
(٨) «البحر المحيط» (٦/ ٤٣١)، و«التبيان» (٢/ ٧٦٨ ـ ٧٦٩)، و«الفريد» (٣/ ١٦٢ ـ ١٦٣). عُزيتْ هذه القراءة لأبيّ بن كعب رضي الله عنه وهي قراءة شاذة.
(٩) انظر: ديوان لقيط بن يعمر (ص٨٦).

قال المورَج: أُخِذت جُثّتها وهي نفسُها، والجُثّة: شخص[(١)] الإنسان، يقال: جثّه: قَلَعه، واجتثه: اقتلعه.

ومعنى ﴿مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ﴾: أنَّه ليس لها أصل راسخٌ وعروق متمكنّة من الأرض ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ أي: مِنْ استقرار على الأرض؛ وقيل: مِنْ ثبات على الأرض، كما أنَّ الكافر وكلمتَه لا حجة له، ولا ثباتَ فيه، ولا خير يأتي منه أصلاً، ولا يصعد له قول طيب، ولا عمل طيب ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ أي: بالحُجّة الواضحة، وهي الكلمة الطيبة المتقدّم ذكرها.

وقد ثبت في «الصحيح»[(٢)] أَنّها كلمة الشهادة: «شهادة أن لا إله إلّا الله وأن محمداً رسول الله» وذلك إذا قعد المؤمن في قبره قال النبي ﷺ: «فذلك قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾»، وقيل: معنى تثبيت الله لهم هو أن يدوموا على القول الثابت، ومِنْه قول عبد الله بن رواحة[(٣)]:

يـثـبِّـتُ الله مـا آتـاك مِـنْ حَـسَـنٍ تثبيتَ موسى ونَصْراً كالذي [نُصِرا][(٤)]

ومعنى ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: أَنّهم يستمرّون على القول الثابت في الحياة الدنيا، قال جماعة: المراد[(٥)] بالحياة الدنيا في هذه الآية: القبر؛ لأنّ الموتى في الدنيا حتى يُبعثوا، ومعنى ﴿وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾: وقت الحساب.

وقيل: المراد بالحياة الدنيا: وقت المساءلة[(٦)] في القبر، وفي الآخرة: وقت المساءلة يوم القيامة.

والمراد: أَنَّهم إذا سُئلوا عَنْ معتقدهم ودينهم أوضحوا ذلك بالقول الثابت من دون تلعثم ولا تردّد ولا جهل، كما يقول مَنْ لم يوفق: لا أدري، فيقال له:

---

(١) ذكره الجوهري في «الصحاح» (١/ ٢٧٧).

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» رقم (٤٦٩٩) من حديث البراء بن عازب.

(٣) انظر: ديوان عبد الله بن رواحة (ص٤٦).

(٤) كذا في المخطوط والذي في الديوان: (نُصِروا).

(٥) ذكره السمرقندي في تفسيره «بحر العلوم» (٣/ ٢٠٦) عن الربيع بن أنس.

(٦) قاله البراء بن عازب وجماعة، «المحرر الوجيز» (١٠/ ٨٤).

لا دريتَ[١] ولا تليتَ ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ﴾ أي: يضلهم عَنْ حجتهم التي هي القول الثابت فلا يقدرون على التكلم بها في قبورهم ولا عند الحساب، كما أضلهم عَنْ اتباع الحق في الدنيا.

قيل: والمراد بالظالمين هنا: الكفرة، وقيل: كلُّ مَنْ ظلم نفسه ولو بمجرد الإعراض عَنْ البينات الواضحة فإنّه لا يثبت في مواقف الفتن، ولا يهتدي إلى الحق، ثم ذكر سبحانه أنَّه يفعل ما يشاء مِنْ التثبيت والخذلان لا رادّ لحكمه، ولا يسأل عما يفعل.

قال الفرّاء[٢]: أي: لا تُنْكر له قدرة، ولا يُسْأل عَمّا يفعل. والإظهارُ في محل الإضمار في الموضعين لتربية المهابة كما قيل، والله أَعْلَمُ.

وقد أخرج ابنُ جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن ابن عباس[٣] في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ قال: شهادة أن لا إلٰه إلّا الله ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ وهو المؤمن ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ يقول: لا إلٰه إلّا الله ثابتٌ في قلب المؤمن ﴿وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ يقول: يُرفعُ بها عمل المؤمن إلى السماء ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ وهي الشرك ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ يعني: الكافر ﴿ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ يقول: الشرك ليس له أصل يأخذ به الكافر ولا برهان، ولا يقبل الله مع الشرك عملاً.

وقد روي نحو هذا عَنْ جماعة مِنْ التابعين ومن بعدهم.

وأخرج الترمذي، والنسائي، والبزار، وأبو يعلى، وابنُ جرير، وابن أبي حاتم، وابن حبّان، والحاكم وصحّحه، وابن مردويه عن أنس[٤] قال: «أُتي رسول الله ﷺ بقناع مِنْ بُسْر فقال: ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ حتى بلغ

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» رقم (١٣٣٨)، ومسلم رقم (٢٨٧٠)، وأحمد رقم (١٢٢٧١) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٧٧).

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٦٣٥)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢٠٦) بسند ضعيف.

(٤) أخرجه الترمذي رقم (٣١١٩)، والنسائي في «السنن الكبرى» رقم (١١٢٦٢)، وأبو يعلى رقم (٤١٦٥)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٦٣٨)، وابن حبان رقم (٤٧٥)، والحاكم (٢/ ٣٥٢) وهو ضعيف مرفوعاً والموقوف أصح.

﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ﴾ قال: «هي النخلةُ» ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ حتى بلغ ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ قال: «هي الحَنْظلة».

وروي[١] موقوفاً على أنسْ، قال الترمذي: الموقوف أصحُّ.

وأخرج أحمد[٢] وابنُ مردويه. قال السيوطي[٣]: بسند جيد عَنْ عمر، عن النبيّ ﷺ في قوله: ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾: قال: «هي التي لا ينقص ورقُها» [٣/١٢٠] قال: «هي النخلة».

وأخرج البخاري[٤] وغيره مِنْ حديث ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ يوماً لأصحابه: «إنّ شجرةً مِنْ الشجر لا يُطرح ورقُها مِثلُ المؤمن»، قال: فوقع الناس في شجر البوادي. ووقع في قلبي أنّها النخلة، فاستحييتُ حتى قال رسول الله ﷺ: «هي النخلة».

وفي لفظ للبخاري[٥] قال: «أخبروني عَنْ شجرة كالرجل المسلم لا يتحاتّ ورقها وتُؤتي أكلَها كلَّ حين؟»، فذكر نحوه.

وفي لفظ لابن جرير[٦] وابن مردويه من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «هَلْ تدرون ما الشجرة الطيبة؟ ثم قال: هي النخلة»، وروي نحو هذا عَنْ جماعة مِنْ الصحابة والتابعين.

وأخرج ابن أبي حاتم[٧] عن ابن عباس في قوله: ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ﴾ قال: كل ساعة بالليل والنهار والشتاء والصيف، وذلك مثل المؤمن يطيع ربَّه بالليل والنهار والشتاء والصيف.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/٣٤٢)، والترمذي رقم (٣١١٩)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٣/٦٣٨ ـ ٦٣٩)، والرامهرمزي في «الأمثال» (ص٧٢) موقوفاً وهو أثر صحيح.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» رقم (٥٦٤٧) بسند ضعيف.

(٣) في «الدر المنثور» (٥/٦٦).

(٤) أخرجه البخاري رقم (٦١، ٦٢، ٧٢، ١٣١ وله ألفاظ)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٣/٦٤١ ـ ٦٤٢).

(٥) أخرجه البخاري في «صحيحه» رقم (٦١٤٤).

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/٦٤٢).

(٧) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/٢٢٤٣).

وأخرج ابن أبي حاتم[١] عنه في الآية قال: يكون أخضر ثُم يكون أصفر.

وأخرج عنه[١] أيضاً في قوله: ﴿كُلَّ حِينٍ﴾ قال: جُذَاذ النخل.

وأخرج الفريابي، وابنُ جرير، وابن المنذر، وابنُ أبي حاتم عنه[٢] أيضاً ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ قال: تُطعم في كل ستة أشهر.

وأخرج أبو عبيد، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر عنه[٣] أيضاً قال: الحِينُ هنا: سنة.

وأخرج البيهقي[٤] عنه أيضاً قال: الحينُ: قد يكون غدوةً وعشية.

وقد روي عن جماعة من السلف في هذا أقوال كثيرة.

وأخرج البخاري، ومسلم، وأهل السنن، وغيرهم عن البراء بن عازب[٥]: أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم إذا سُئل في القبر يشهد أن لا إله إلّا الله وأن محمداً رسول الله، فذلك قوله سبحانه: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ﴾».

وأخرج ابن أبي شيبة، والبيهقي عَنْ البراء بن عازب[٦] في قوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الآية قال: التثبيت في الحياة الدنيا إذا جاء الملَكان إلى الرجل في القبر فقالا: مَنْ ربك؟ فقال: ربي الله، قال: وما دينُك؟ قال: ديني الإسلام، قال: ومَنْ نبيك؟ قال: نبيي محمد ﷺ، فذلك التثبيت في الحياة الدنيا.

وأخرج البيهقي[٧] عن ابن عباس نحوه.

وأخرج الطبراني في «الأوسط»، وابن مردويه عن أبي سعيد[٨] في الآية قال: في الآخرة القبر.

---

(١) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٤٣).
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٦٤٦ ـ ٦٤٧) بسند صحيح.
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٦٤٩) بسند ضعيف.
(٤) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (١٠/ ٦١).
(٥) أخرجه البخاري رقم (١٣٦٩، ٤٦٩٩)، ومسلم رقم (٢٨٧١)، والطيالسي رقم (٧٨١)، وأبو داود رقم (٤٧٥٠)، والترمذي رقم (٣١٢٠)، وابن ماجه رقم (٤٢٦٩)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٦٥٨ ـ ٦٥٩)، والبيهقي في كتاب «عذاب القبر» رقم (٢).
(٦) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣/ ٣٦٨، ٣٧٧)، والبيهقي في كتاب «عذاب القبر» رقم (٥).
(٧) أخرجه البيهقي في كتاب «عذاب القبر» رقم (١٠).
(٨) أخرجه الطبراني في «الأوسط» رقم (٥٥٧٤).. =

وأخرج ابن مردويه(١) عن عائشة قالت: «قال النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الآية قال: هذا في القبر».

وأخرج البيهقي(٢) مِنْ حديثها نحوه.

وأخرج البزّار(٣) عنها أيضاً قالت: «قلتُ: يا رسولَ الله تُبتلى هذه الأمة في قبورها، فكيف بي وأنا امرأة ضعيفة؟ قال: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾» الآية، وقد وردتْ أحاديث كثيرة في سؤال الملائكة للميت في قبره، وفي جوابه عليهم وفي عذاب القبر وفتنته، وليس هذا موضع بسطها، وهي معروفة.

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِىَ الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ الصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ الثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ الْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾.

[كل هذه الآيات في هذا الكون مسخّرة لهذا الإنسان]

قولُه: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ هذا خطاب لرسول الله ﷺ أو لكل مَنْ يصلح له، وهو تعجيب مِنْ حال الكفار حيث جعلوا بدل نعمة الله عليهم الكفر؛ أي: بدل شكرها الكفر بها، وذلك بتكذيبهم محمداً ﷺ حينَ بعثه الله منهم، وأنعم عليهم به.

= قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٤٤): «فيه أحمد بن عبيد بن نسطاس ولم أعرفه وبقية رجاله ثقات».

(١) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٢٩).

(٢) أخرجه البيهقي في «عذاب القبر» رقم (١٥).

(٣) أخرجه البزار في «مسنده» رقم (٨٦٨ ـ كشف).
وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣/ ٥٣): «رجاله ثقات».

وقد ذهب جمهور[١] المفسرين إلى أنَّهم كفار مكة وأنَّ الآية نزلت فيهم، وقيل: نزلت في الذين قاتلوا رسولَ الله ﷺ يوم بدر؛ وقيل: نزلت في بطنين من بطون قريش بني مخزوم وبني أمية؛ وقيل: نزلت في متنصّرة العرب، وهم جَبَلة بن الأيهم وأصحابهُ، وفيه نظر، فإنّ جبلة وأصحابه لم يسلموا إلّا في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وقيل: إنّها عامة في جميع[٢] المشركين؛ وقيل: المراد بتبديل نعمة الله كفراً: أنَّهم لما كفروها سلبهم الله ذلك فصاروا متبدّلين بها الكفر ﴿وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ أي: أنزلوا قومَهم بسبب ما زينوه لهم مِنْ الكفر دار البوار، وهي جهنم، والبوار: الهلاك؛ وقيل: هم قادة قريش أحلّوا قومهم يوم بدر دار البوار؛ أي: الهلاك وهو القتلُ الذي أُصيبوا به، ومِنْه قول الشاعر:

فلم أرَ مثلَهم أبطالَ حربٍ غداةَ الحربِ إذ خِيفَ البوارُ[٣]

والأوّل أولى لقوله: ﴿جَهَنَّمَ﴾ فإنّه عطف[٤] بيان لدار البوار، و﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ في محلّ نصب[٥] على الحال، أو هو مستأنف لبيان كيفية حلولهم فيها ﴿وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ أي: بئس القرار قرارُهم فيها، أو بئس المقرّ جهنمُ، فالمخصوص بالذمّ محذوف. ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ معطوف[٦] على ﴿وَأَحَلُّواْ﴾ أي: جعلوا لله شركاء في الربوبية، أو في التسمية وهي الأصنام.

قرأ ابنُ كثير وأَبو عَمْرو «لِيَضلّوا» بفتح الياء[٧]؛ أي: لَيَضلّوا أنفسَهم عن سبيل الله، وتكون اللّام للعاقبة؛ أي: ليتعقّب جعلهم لله أنداداً ضلالهم؛ لأنّ

---

(١) «جامع البيان» (١٣/ ٦٦٨ ـ ٦٦٩)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٢٤١)، و«المحرر الوجيز» (١٠/ ٨٥ ـ ٨٦).

(٢) «روح المعاني» (١٣/ ٢٨٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٤٤).

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٢/ ١٤٢)، والألوسي في «روح المعاني» (١٣/ ٢٨٤).

(٤) «التبيان» (٢/ ٧٦٩)، و«الفريد» (٣/ ١٦٤)، و«روح المعاني» (١٣/ ٢٨٤).

(٥) «مشكل إعراب القرآن» (١/ ٤٥١)، و«التبيان» (٢/ ٧٦٩).

(٦) «البحر المحيط» (٦/ ٤٣٦)، و«روح المعاني» (١٣/ ٢٨٤)، و«الفريد» (٣/ ١٦٤).

(٧) «النشر» (٢/ ٢٩٩)، و«التيسير» (ص١٣٤)، و«البحر المحيط» (٦/ ٤٣٦)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ١٤٢).

العاقل لا يريد ضلالَ نفسِه، وحَسُنَ استعمال لام العاقبة[(١)] هنا لأنها تشبه الغرض والغاية مِنْ جهة حصولها في آخر المراتب، والمشابهة أَحد الأمور المصحّحة للمجاز.

وقرأ الباقون بضم الياء[(٢)]؛ أي: ليوقُعوا قومَهم في الضلال عَنْ سبيل الله، فهذا هو الغَرضَ مِنْ جعلهم لله أنداداً. ثم هدّدهم سبحانه، فقال لنبيِّه ﷺ: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا۟﴾ بما أنتم فيه مِنْ الشهوات، وما زينته لكم أنفسُكم مِنْ كفران النعم وإضلال النّاس.

﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أي: مردّكم ومرجعكم إليها ليس إلّا، ولما كان هذا حالهم، وقد صاروا لفَرْط تهالكهم عليه، وانهماكهم فيه لا يقلعون عنه، ولا يقبلون فيه نصح الناصحين جعل الأمر بمباشرته مكان النهي عَنْ قربانه إيضاحاً لما تكون عليه عاقبتهم، وأنَّهم لا محالة صائرون إلى النّار فلا بدّ لهم مِنْ تعاطي الأسباب المقتضية ذلك.

فجملة ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ تعليلُ للأمر بالتمتّع، وفيه مِنْ التهديد[(٣)] ما لا يُقادر قَدْرهُ، ويجوز أَنْ تكون هذه الجملة جواباً لمحذوف دلّ عليه سياق الكلام.

كأنّه قيل: فإنْ دمتم على ذلك فإنّ مصيركم إلى النار، والأوّل أولى والنظم القرآني عليه أدلّ، وذلك كما يقال لمن يسعى في مخالفة السلطان: اصنع ما شئت مِنْ المخالفة، فإن مصيرك إلى السيف ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ لمّا أمره بأَنْ يقول للمبدّلين نعمة الله كفراً الجاعلين لله أنداداً ما قاله لهم، أمره سبحانه أَنْ يقول للطائفة المُقابلة لهم، وهي طائفة المؤمنين هذا القول، والمقول محذوف دلّ عليه المذكور؛ أي: قل لعبادي: أقيموا وأنفقوا ويُقيموا ويُنفقوا، فجزم ﴿يُقِيمُوا۟﴾ على أَنَّه جواب الأمر المحذوف، وكذلك

---

(١) «المحرر الوجيز» (١٠/ ٨٧).

(٢) «النشر» (٢/ ٢٩٩)، و«البحر المحيط» (٦/ ٤٣٦)، و«روح المعاني» (١٣/ ١٤٢)، و«التيسير» (ص١٣٤).

(٣) «روح المعاني» (١٣/ ٢٨٧).

﴿ينفقوا﴾، ذكر معنى هذا الفرّاء[١].

وقال الزجّاج[٢]: إنّ ﴿يُقِيمُواْ﴾ مجزوم بمعنى اللام؛ أي: ليقيموا فأسقطت اللّام، ثم ذكر وجهاً آخر للجزم مثل ما ذكره الفراء.

وانتصاب[٣] ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾، إمَّا على الحال؛ أي: مُسرّين ومعلنين، أو على المصدر؛ أي: إنفاق سرٍّ وإنفاق علانيةٍ، أو على الظرف؛ أي: وقت سرّ ووقت علانية.

قال الجمهور: السرّ: ما خَفِيَ. والعلانية: ما ظَهر.

وقيل: السرّ التطوّعُ، والعلانية الفرض، وقد تقدم بيان هذا عند تفسير قوله: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾ [البقرة: ٢٧١]. ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾ قال أبو عُبيدة[٤]: البيع ها هنا: الفداء، والخلال: المخالة، وهو مصدر.

قال الواحدي[٥]: هذا قول جميع أهل اللغة، وقال أبو عليّ[٦] الفارسي: يجوز أَنْ يكون جمع خُلّة مثل بُرْمة وَبرام وعُلْبة وعِلاب، والمعنى: أَنّ يوم القيامة لا بيع فيه حتى يفتدي المقصّر في العمل نفسَه مِنْ عذاب الله بدفع عوض عن ذلك، [٣/١٢١] وليس هناك مخاللةٌ حتى يشفع الخليل لخليله، وينقذه من العذاب، فأمرهم سبحانه بالإنفاق في وجوه الخير مما رزقهم الله ما داموا في الحياة الدنيا قادرين على إنفاق أموالهم من قبل أَنْ يأتي يوم القيامة، فإنّهم لا يقدرون على ذلك؛ بل لا مال لهم إذ ذاك.

فالجملة أعني: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾ لتأكيد مضمون الأمر بالإنفاق مما رزقهم الله، ويُمكن أَنْ يكون فيها ـ أيضاً ـ تأكيد لمضمون الأمر بإقامة الصلاة، وذلك لأن تركها كثيراً ما يكون سببُه الاشتغال بالبيع ورعايةُ حقوق الأخلاء.

وقد تقدم في البقرة تفسير البيع والخلال.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي: أبدعهما واخترعهما على غير مثال

---

(١) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٧٧).
(٢) في «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١٦٢).
(٣) «التبيان» (٢/ ٧٦٩ ـ ٧٧٠)، و«الفريد» (٣/ ١٦٥ ـ ١٦٦).
(٤) في «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (١/ ٣٤١).
(٥) في «الوسيط» (٣/ ٣٢).
(٦) انظر: «الوسيط» للواحدي (٣/ ٣٢).

وخلق ما فيهما مِنْ الأجرام العُلْوية والسفلية. والاسم الشريف مبتدأ وما بعده خبره.

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ المراد بالسماء هنا جهة العُلوّ، فإنه يدخل في ذلك الفَلَك عند مَنْ قال: إن ابتداء المطر مِنْه. ويدخل فيه السحاب عند مَنْ قال: إن ابتداء المطر منها، وتدخل فيه الأسباب التي تثير السحاب كالرياح. وتنكير الماء هنا للنوعية؛ أي: نوعاً مِنْ أنواع الماء، وهو ماء المطر ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ أي: أخرج بذلك الماء مِنْ الثمرات المتنوعة رزقاً لبني آدم يعيشون به، و«من» في مِنْ الثمرات للبيان[1] كقولك: أنفقت مِنْ الدراهم.

وقيل: للتبعيض[2] لأن الثمرات منها ما هو رزق لبني آدم، ومنها ما ليس برزق لهم، وهو ما لا يأكلونه ولا ينتفعون به ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ﴾ فجرت على إرادتكم، واستعملتموها في مصالحكم.

ولذا قال: ﴿لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ﴾ كما تريدون وعلى ما تطلبون ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ أي: بأمر الله ومشيئته، وقد تقدم تفسير هذا في البقرة.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ أي: ذلّلها لكم بالركوب عليها، والإجراء لها إلى حيث تريدون ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ لتنتفعوا بهما، وتستضيئوا بضوئهما.

وانتصاب ﴿دَآئِبَيْنِ﴾ على الحال[3]. والدؤوب: مرور الشيء في العمل على عادةٍ جارية؛ أي: دائبين في إصلاح ما يصلحانه مِنْ النبات وغيره؛ وقيل: دائبين في السير امتثالاً لأمِر الله.

والمعنى: يجريان إلى يوم القيامة لا يَفْتُران ولا ينقطع سيرهما ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ يتعاقبان، فالنّهار لسعيكم في أمور معاشكم وما تحتاجون إليه من أمور دنياكم، والليل لتسكنوا كما قال سبحانه: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [القصص: ٧٣].

﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ قال الأخفش[4]: أي: أعطاكم من كل مسؤول سألتموه شيئاً فحذف شيئاً.

---

(١) «روح المعاني» (١٣/ ٢٩٤)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ٢٥٣).

(٢) «الفريد» (٣/ ١٦٧)، و«روح المعاني» (١٣/ ٢٩٤).

(٣) «مشكل إعراب القرآن» (١/ ٤٥١)، و«الفريد» (٣/ ١٦٧)، و«التبيان» (٢/ ٧٧٠).

(٤) في «معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٦٠٠).

=

وقيل: المعنى: وآتاكم مِنْ كل ما سألتموه ومِنْ كل ما لم تسألوه، فحذفت الجملة الأخرى. قاله ابن الأنباري[١]؛ وقيل: «مِنْ» زائدة؛ أي: آتاكم كلَّ ما سألتموه؛ وقيل: للتبعيض؛ أي: آتاكم بعضَ كلِّ ما سألتموه.

وقرأ ابنُ عباس، والضحّاك، والحسن، وقتادة «مِنْ كلٍّ»[٢] بتنوين كلّ. وعلى هذه القراءة يجوز أَنْ تكون «ما»[٣] نافية؛ أي: آتاكم من جميع ذلك حال كونكم غير سائلين له، ويجوز أن تكون موصولة؛ أي: آتاكم من كل شيء الذي سألتموه.

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾؛ أي: وإن تتعرّضوا لتعداد نِعم الله التي أنعَم بها عليكم ـ إجمالاً فضلاً عَنْ التفصيل ـ لا تطيقوا إحصاءها بوجهٍ من الوجوه، ولا تقوموا بحصرها على حال مِنْ الأحوال، وأصل الإحصاء: أَنّ الحاسب إذا بلغ عَقْداً معيناً مِنْ عقود الأعداد وضع حصاة ليحفظه بها، ومعلوم أنّه لو رام فرد من أفراد العباد أنْ يحصي ما أنعم الله به عليه في خَلْق عضوٍ من أعضائه، أو حاسة من حواسه لم يقدر على ذلك قط ولا أمكنَه أصلاً، فكيف بما عدا ذلك من النعم في جميع ما خلقه الله في بدنه؟ فكيفَ بما عدا ذلك من النِّعم الواصلة إليه في كل وقت على تنوعها واختلاف أجناسها؟ اللَّهُمَّ إنا نشكرك على كلّ نعمة أنعمت بها علينا مما لا يعلمه إلّا أنت، ومما علمناه شكراً لا يحيط به حصر ولا يحصره عد، وعدد ما شكرك الشاكرون بكل لسان في كل زمان. ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ﴾ لنفسه بإغفاله لشكر نعم الله عليه، وظاهرُه شمول كلِّ إنسان.

وقال الزجاج[٤]: إن الإنسان اسم جنس يقصد به: الكافر خاصة كما قال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢] ﴿كَفَّارٌ﴾ أي: شديد كفران نعم الله عليه جاحد لها غير شاكر لله سبحانه عليها، كما ينبغي ويجب عليه.

وقَدْ أخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، والبخاري، والنسائي، وابن جرير،

= وانظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٧٧ ـ ٧٨).

(١) في «البيان» لابن الأنباري (٢/ ٥٩ ـ ٦٠).

(٢) وهي قراءة شاذة.
«المحتسب» (١/ ٣٦٣)، و«روح المعاني» (١٣/ ٢٩٩)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ١٤٥).

(٣) «التبيان» (٢/ ٧٧٠)، و«الفريد» (٣/ ١٦٧ ـ ١٦٨).

(٤) في «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١٦٤).

وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس[١] في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ قال: هم كفار أهل مكة.

وأخرج البخاري في تاريخه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه عن عمر[٢] بن الخطاب في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ قال: هما الأفجران مِنْ قريش: بنو المغيرة، وبنو أُمية؛ فأمّا بنو المغيرة فكُفيتموهم يومَ بدر، وأما بنو أمية فمُتّعوا إلى حين.

وأخرج ابنُ مردويه[٣] عَنْ ابن عباس، عَنْ عُمر نحوه.

وأخرج ابنُ جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني في «الأوسط»، والحاكم وصحّحه، وابنُ مردويه مِنْ طرقٍ عن عليّ[٤] في الآية نحوه أيضاً.

وأخرج عبدُ الرزاق، والفريابي، والنسائي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي عن أبي الطفيل[٥]: أن ابن الكوّاء سأل عليّاً عَنْ الذين بدلوا نعمة الله كفراً قال: هم الفجّار مِنْ قريش كُفيتَهم يوم بدر. قال: فمن الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا؟ قال: مِنْهم أهلُ حروراء.

وقد روي في تفسير هذه الآية عن عليّ من طرق نحو هذا.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس[٦] في الآية قال: هم جَبَلَةُ بن الأيّهم والذين اتبعوه مِنْ العرب فلحقوا بالروم.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٤٢، ٣٤٣)، والبخاري رقم (٣٩٧٧، ٤٧٠٠)، والنسائي في «الكبرى» رقم (١١٢٦٨)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٦٧٣)، والبيهقي في «الدلائل» (٣/ ٩٥).

(٢) أخرجه البخاري في «تاريخه» (٨/ ٣٧٣)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٦٦٩) بسند ضعيف لضعف علي بن زيد وهو: ابن جدعان.

(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٤١).

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٦٧٠)، والطبراني في «الأوسط» رقم (٧٧٦)، و«الحاكم» (٢/ ٣٥٢) وصححه ووافقه الذهبي.

(٥) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٤٢، ٤١٣)، والنسائي في «السنن الكبرى» رقم (١١٢٦٧)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٦٧١)، والحاكم (٢/ ٣٥٢)، والبيهقي في «الدلائل» (٣/ ٩٥) بسند حسن.

(٦) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٤٧).

=

وأخرج ابنُ جرير، وابن المنذر عن ابن عباس[١] ﴿وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ قال: الهلاك.

وأخرج عبدُ بن حُميد، وابن المنذر عن قتادة[٢] في قوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ قال: أشركوا بالله.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد[٣] ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰرَ﴾ قال: بكل فائدة.

وأخرج ابنُ جرير[٤] عن ابن عباس ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾ قال: دؤوبهما في طاعة الله.

وأخرج ابن أبي حاتم[٥] عن عكرمة ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ قال: مِنْ كل شيء رغبتم إليه فيه.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد[٦] مثله.

وأخرج ابن جرير[٧] عن الحسن قال: مِنْ كلِّ الذي سألتموه.

وأخرج ابنُ أبي الدنيا، والبيهقي في «الشُّعب» عَنْ سليمان التيمي[٨] قال: إنّ الله أنعم على العباد على قدره، وكلّفهم الشكر على قدرهم. وأخرجا أيضاً عن بكر بن عبد الله المزني قال: يا ابن آدم إنْ أردَت أَنْ تعلم قدر ما أنعم الله عليك فاغمضْ عينيك.

وأخرج البيهقي عن أبي الدرداء[٩] قال: مَنْ لم يعرف نعمة الله عليه إلّا في مطعمه ومشربه، فقد قلّ علمُه وحضر عذابه.

= وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٦٧٧) بسند ضعيف من طريق العوفي، به.

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٦٧٧) بسند ضعيف.

(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٤٣).

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٦٨١) بسند صحيح.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٦٨٢) بسند ضعيف.

(٥) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٤٩).

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٦٨٣) بسند صحيح.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٣/ ٦٨٤) بسند صحيح.

(٨) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب «الشكر» رقم (٨)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٤٥٢٢).

(٩) أخرجه البيهقي في «الشعب» رقم (٤٤٦٧).

وأخرج ابن أبي الدنيا، والبيهقي عن أبي أيوب[(١)] القرشي مولى بني هاشم قال: قال داود عليه السلام: «ربّ أخبرني ما أدنى نعمتك عليّ، فأوحى إليّ: يا داود تنفّس فتنفس، فقال: هذا أدنى نعمتي عليك».

وأخرج ابنُ أبي حاتم[(٢)] عن عمر بن الخطاب أنه قال: اللَّهُمَّ اغفر لي ظلمي وكُفْري، فقال قائل: يا أميرَ المؤمنين هذا الظلم، فما بال الكفر؟ قال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾.

[دعاء إبراهيم لمكة]

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾
رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾
رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ
فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ
تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ
ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ
ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ
ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾.

قولُه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ﴾ متعلق بمحذوف [٣/١٢٢]؛ أي: اذكر وقتَ قوله، ولعلّ المراد بسياق ما قاله إبراهيم عليه السلام في هذا الموضع: بيان كفر قريش بالنِّعم الخاصة بهم، وهي إسكانُهم[(٣)] مكة بعد ما بيَّن كفرهم بالنِّعم العامة.

وقيل: إنّ ذكر قصة إبراهيم ها هنا لمثال الكلمة الطيبة؛ وقيل: لقصد الدعاء إلى التوحيد، وإنكار عبادة الأصنام. ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ المراد بالبلد هنا: مكة، دعا إبراهيم ربه أن يجعله آمنا؛ أي: ذا أمنٍ، وقدّم طلب الأمن على سائر المطالب المذكورة بعده؛ لأنّه إذا انتفى الأمنُ لم يفرغ الإنسان لشيء آخر من

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب «الشكر» رقم (٩٦)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٤٥٧٧).
(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٤٥).
(٣) «جامع البيان» (١٣/ ٦٨٦ ـ ٦٨٧)، و«روح المعاني» (١٣/ ٣١٣ ـ ٣١٤).

أمور الدين والدنيا، وقد تقدّم تفسير مثل هذه الآية في البقرة عند قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦] والفرق بين ما هنا وما هنالك أن المطلوب هنا مجرد الأمن للبلد، والمطلوب هنالك البلدية والأمن ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾، يقال: جنبته كذا، وأجنبته وجنبته؛ أي: باعدتُه عنه.

والمعنى: باعدني وباعد بَنيّ عَنْ عبادة الأصنام، قيل: أراد بنيه مِنْ صُلبه وكانوا ثمانيةً، وقيل: أراد مَنْ كان موجوداً حال دعوته مِنْ بنيه وبني بنيه، وقيل: أراد جميع ذريته ما تناسلوا، ويؤيد ذلك ما قيل من أنّه لم يعبد أحد من أولاد إبراهيم صنماً، والصنمُ هو التمثال الذي كانت تصنعه أهل الجاهلية مِنْ الأحجار ونحوها فيعبدونه.

وقرأ الجَحْدري وعيسى بن عمر «وأَجْنبني» بقطع الهمزة[١] على أن أصله أجنب. ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أسند الإضلال إلى الأصنام مع كونها جمادات لا تعقل؛ لأنّها سبب لضلالهم فكأنها أضلتهم.

وهذه الجملة تعليل لدعائه لربِّه، ثم قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِى﴾ أي: مَنْ تبع ديني من الناس فصار مُسلماً موحداً ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّى﴾ أي: مِنْ أهل ديني جعل أهل ملته كنفسه مبالغة ﴿وَمَنْ عَصَانِى﴾ فلم يتابعني ويدخل في ملتي ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قادر على أن تغفر له، قيل: قال هذا قبل أن يعلم أن الله لا يغفر أن يشرك به كما وقع منه الاستغفار لأبيه وهو مشرك، كذا قال ابن الأنباري[٢].

وقيل: المراد: عصيانه هنا فيما دون الشرك، وقيل: إنَّ هذه المغفرة مقيدة بالتوبة من الشرك، ثم قال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى﴾ قال الفرّاء: من للتبعيض؛ أي: بعض ذرّيتي.

وقال ابن[٣] الأنباري: إنها زائدة؛ أي: أسكنت ذرّيتي، والأوّل أولى؛ لأنه إنما أسكن إسماعيل وهو بعضُ ولده ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾ أي: لا زرع فيه، وهو وادي مكة ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ أي: الذي يَحْرم فيه ما يُستباح في غيره.

---

(١) «القراءات الشاذة» (ص٦٨)، و«المحتسب» (١/ ٣٦٣). وهي قراءة شاذة.
(٢) انظر: «روح المعاني» (١٣/ ٣١٩، ٣٢٠).
(٣) في «البيان» (٢/ ٦٠).

وقيل: إنّه محرّم على الجبابرة، وقيل: مُحرَّم مِنْ أن تنتهك حرمته، أو يستخفّ به. وقد تقدم في سورة المائدة ما يغني عن الإعادة.

ثم قال: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ اللّام متعلقة بأسكنتُ؛ أَي: أسكنتُهم ليقيموا الصلاة فيه، متوجهين إليه، مُتبركين به، وخصّها دون سائر العبادات لمزيد فضلها، ولعلّ تكرير النداء لإظهار العناية الكاملة بهذه العبادة ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ الأفئدة جمع فؤاد، وهو: القلبُ، عبّر به عَنْ جميع البدن؛ لأنه أشرف عضو فيه.

وقيل: هو جمع وَفْد والأصل أوفدة فقدّمت الفاء، وقلبت الواو ياء، فكأنه قال: واجعل وفوداً مِنْ الناس تهوي إليهم، و «من» في ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ للتبعيض[1].

وقيل: زائدة[2]، ولا يلزم منه أَنْ يحج اليهود والنصارى بدخولهم تحت لفظ الناس؛ لأن المطلوب توجيه قلوب الناس إليهم، للسكون معهم والجلب إليهم لا توجيهها إلى الحجّ، ولو كان هذا مراداً لقال تهوي إليه.

وقيل: مِنْ للابتداء كقولك: القلب مني سقيم، يريد قلبي، ومعنى ﴿تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾: تنزع إليهم.

يقال: هوى نحوه إذا مال، وهوتْ الناقةُ تهوي هوياً فهي هاوية: إذا عَدَتْ عَدْواً شديداً كأنّها تهوي[3] في بئر، ويحتمل أن يكون المعنى: تجيء إليهم أو تسرع إليهم، والمعنى مُتْقارب.

﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي: أرزقْ ذريتي الذين أسكنتهم هنالك أو، هم ومَنْ يساكنهم مِنْ الناس مِنْ أنواع الثمرات التي تنبت فيه، أو تُجلب إليه ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ نعمَك التي أنعمتَ بها عليهم ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ﴾ أي: ما نكتمه وما نظهره؛ لأنّ الظاهر والمُضْمَر بالنسبة إليه سبحانه سيّان. قيل: والمراد هنا: بما نُخفي ما يقابل ما نُعْلن، فالمعنى: ما نُظْهره وما لا نُظْهره، وقدّم ما نخفي على ما نعلن للدلالة على أَنّهما مستويان في عِلم الله سبحانه.

---

(١) «الفريد» (٣/ ١٦٩)، و«التبيان» (٢/ ٧٧٧)، و«روح المعاني» (١٣/ ٣١٨).

(٢) انظر: المصادر المتقدمة.

(٣) «تهذيب اللغة» (٦/ ٤٩١)، و«مفردات ألفاظ القرآن» (ص٨٤٩).

وظاهر النظم القرآني عموم كل ما لا يظهر وما يظهر مِنْ غير تقييد بشيء معين من ذلك؛ وقيل: المراد: ما يخفيه إبراهيم من وجده بإسماعيل وأمه حيث أسكنهما بوادٍ غير ذي زرع، وما يعلنه من ذلك.

وقيل: ما يخفيه إبراهيم مِنْ الوِجْد ويعلنه مِنْ البكاء والدعاء، والمجيء بضمير الجماعة يشعر بأن إبراهيم لم يرد نفسه فقط؛ بل أراد جميع العباد، فكأن المعنى: أن الله سبحانه يعلم بكلٍّ ما يُظْهره العبادُ وبكل ما لا يظهرونه.

وأمَّا قوله: ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ فقال جمهور المفسّرين[١]: هو مِنْ كلام الله سبحانه تصديقاً لما قاله إبراهيم مِنْ أنّه سبحانه يعلم بما يخفيه العباد وما يعلنونه، فقال سبحانه: ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ من الأشياء الموجودة كائناً ما كان، وإنّما ذكر السمٰوات والأرض لأنها المشاهدة للعباد، وإلّا فعلمه سبحانه محيط بكل ما هو داخل في العالم، وكل ما هو خارج عنه لا تخفى عليه منه خافية.

قيل: ويحتمل أن يكون هذا من قول إبراهيم تحقيقاً لقوله الأوّل، وتعميماً[٢] بعد التخصيص. ثم حمد الله سبحانه على بعض نِعَمَه الواصلة إليه فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ أي: وهب لي على كبر سني وسنّ أمرأتي.

قيل: ولد له إسماعيل[٣] وهو ابنُ تسع وتسعين سنة، وولد له إسحاق وهو ابن مائة واثنتي عشرة سنة، قيل: و«على» هنا بمعنى «مع»؛ أي: وهبَ لي مع كبري ويأسي عن الولد ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ أي: لمجيب الدعاء مِنْ قولهم: سمع كلامه: إذا أجابَه واعتدّ به، وعمل بمقتضاه، وهو مِنْ إضافة الصفة المتضمنة للمبالغة إلى المفعول؛ والمعنى: إنّك لكثير إجابة الدعاء لمن يدعوك. ثم سأل الله سبحانه بأَنْ يجعله مُقيم الصلاة، محافظاً عليها غَير مُهْمل لشيءٍ منها.

ثم قال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ أي: بعض ذريتي؛ أي: اجعلني واجعل بعض ذريتي

---

(١) «جامع البيان» (١٣/ ٧٠١)، و«معالم التنزيل» (٣/ ٣٨ ـ ٣٩)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ١٥٦).

(٢) «روح المعاني» (١٣/ ٣٣٠ ـ ٣٣١).

(٣) «معالم التنزيل» (٣/ ٣٨ ـ ٤٠)، و«جامع البيان» (١٣/ ٧٠٢).

مقيمين للصلاة، وإنما خصّ البعض مِنْ ذريته؛ لأنه علم أن منهم من لا يقيمها كما ينبغي. قال الزجاج[(١)]: أي: اجعل من ذرّيتي مَنْ يقيم الصلاة، ثم سأل الله سبحانه أن يتقبل دعاءه على العموم، ويدخل في ذلك دعاؤه في هذا المقام دخولاً أوّليّاً.

قيل: والمراد بالدعاء هنا: العبادة، فيكون المعنى: وتقبل عبادتي التي أعبدك بها. ثم طلب مِنْ الله سبحانه أن يغفر له ما وقع منه مما يستحق أن يغفره الله وإن لم يكن كبيراً لما هو معلوم مِنْ عصمة الأنبياء عن الكبائر، ثم طلب من الله سبحانه أن يغفر لوالديه.

وقد قيل: إنّه دعا لهما بالمغفرة قبل أن يعلم أنهما عدوان لله سبحانه كما في قوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُۚ﴾ [التوبة: ١١٤]. وقيل: كانت أمه مسلمة، وقيل: أراد بوالديه آدم وحوّاء[(٢)].

وقرأ سعيد بن جبير «ولوالِديْ» بالتوحيد[(٣)] على إرادة الأب وحده. وقرأ إبراهيم النخعي «ولولديّ»[(٤)] يعني: إسماعيل وإسحاق، وكذا قرأ يحيى[(٥)] بن يَعْمر، ثم استغفر للمؤمنين.

وظاهره شمول كل مؤمن سواء كان مِنْ ذرّيته أو لم يكن منهم.

وقيل: أراد المؤمنين من ذرّيته فقط ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ أي: يوم يثبت حساب المكلفين في المحشر، استعير[(٦)] له لفظ يقوم الذي [٣/١٢٣] هو حقيقته في قيام الرِّجْل للدلالة على أنّه في غاية الاستقامة؛ وقيل: إن المعنى: يوم يقوم الناس للحساب، والأول أولى.

وقد أخرج ابنُ جرير[(٧)] عَنْ مجاهد في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ﴾ الآية قال:

---

(١) في «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١٦٥).
(٢) انظر: «زاد المسير» (٤/ ٣٦٩)، و«معالم التنزيل» (٣/ ١٣٩).
(٣) «المحتسب» (١/ ٣٦٥)، و«روح المعاني» (١٣/ ٣٣٦)، و«البحر المحيط» (٦/ ٤٥٠)، و«حاشية الجمل» (٢/ ٥٣٠).
(٤) انظر: المصادر المتقدمة. وهما قراءتان شاذتان والجمهور قرأ «ولوالديَّ».
(٥) «المحتسب» (١/ ٣٦٥)، و«البحر المحيط» (٦/ ٤٥٠)، و«روح المعاني» (١٣/ ٣٣٦).
(٦) «روح المعاني» (١٣/ ٣٣٧)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ٢٦٢).
(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٦٨٧) بسند صحيح.

فاستجاب الله لإبراهيم دعوتَه في ولده، فلم يَعبُد أحدٌ من ولده صنماً بَعد دعوته، واستجاب الله له، وجعل هذا البلد آمناً، ورزق أهلَه مِنْ الثمرات، وجعله إماماً، وجعل مِنْ ذريته مَنْ يقيم الصلاة، وتقبَّل دعاءَه، فأراه مناسكه وتاب عليه.

وأخرج أبو نعيم[(١)] في «الدلائل» عن عَقيل بن أبي طالب: «أن النبيّ ﷺ لما أتاه الستة النفر مِنْ الأنصار جلس إليهم عند جمرة العقبة، فدعاهم إلى الله وإلى عبادته والمؤازرة على دينه، فسألوه أَنْ يعرض عليهم ما أُوحي إليه، فقرأ من سورة إبراهيم: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ إلى آخر السورة، فرقّ القوم وأخبتوا حين سمعوا منه ما سمعوا وأجابوه.

وأخرج الواقدي، وابنُ عساكر مِنْ طريق عامر بن سعد[(٢)] عن أبيه قال: كانت سارّة تحت إبراهيم، فمكثت تحته دهراً لا تُرزق منه ولداً، فلما رأتْ ذلك وهبتْ له هاجر أمةً لها قبطية، فولدتْ له إسماعيل، فغارت مِنْ ذلك سارة ووجدت في نفسها وعتبت على هاجر، فحلفتْ أَنْ تقطع منها ثلاثة أطراف، فقال لها إبراهيم: هل لك أن تبرّي يمينَك؟ قالت: كيف أصنُع؟ قال: اثقبي أذنيها واخفِضيها، والخفض: هو الختان، ففعلت ذلك بها فوضعت هاجر في أذنيها قُرْطين فازدادت بهما حسناً، فقالت سارّة: أراني إنما زدتها جمالاً. فلم تُقارّه على كونه معها ووجد بها إبراهيمُ وجْداً شديداً، فنقلها إلى مكة فكان يَزورها في كلِّ يوم مِنْ الشام على البُراق من شغِفه بها وقلةِ صبرِه عنها.

وأخرج ابن جرير[(٣)] عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى﴾ قال: أسكن إسماعيل وأمّه مكة.

وأخرج ابن المنذر[(٤)] عنه قال: إنَّ إبراهيم حين قال: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ لو قال أفئدة الناس تهوي إليهم لازدحمتْ عليه فارس والروم.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الحكم[(٥)]

---

(١) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/٤٦).

(٢) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٦٩/١٨٧).

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/٦٩٦) بسند حسن.

(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/٤٧).

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/٦٩٩)، وابن أبي شيبة (٤/١١١، ١١٢) بسند صحيح.

قال: سألتُ عكرمة وطاوساً وعطاءَ بن أبي رباح عن هذه الآية: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ فقالوا: البيتُ تَهوي إليه قلوبُهم يأتونه، وفي لفظ قالوا: هواهم إلى مكة أَنْ يحجوا.

وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر عن قتادة[1] في قوله: ﴿تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ قال: تَنزِعُ إليهم.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن مُحمّد بن مُسلم الطائفي[2]: أن إبراهيمَ لما دعا للحرم ﴿وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [البقرة: ١٢٦] نقل اللهُ الطائف مِنْ فلسطين.

وأخرج ابن أبي حاتم[3] عن الزهري قال: إنّ الله نقل قريةً مِنْ قرى الشام فوضعها بالطائف لدعوة إبراهيم.

وأخرج ابنُ جرير، وابن المنذر، والبيهقي في «شُعب الإيمان» قال السيوطي[4]: بسندٍ حسنٍ عن ابن عباس[5] قالوا: لو كانَ إبراهيم عليه السلام قال فاجعل أفئدة الناس تهوي إليهم لحجّ اليهود والنصارى والناس كلُّهم، ولكنه قال: ﴿أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ فخصّ به المؤمنين.

وأخرج ابنُ أبي حاتم[6] عَنْه في قوله: ﴿مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ﴾ قال: مِنْ الحزن.

وأخرج ابن أبي حاتم[7] عن إبراهيم النخعي في قوله: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي﴾ قال: مِنْ حبّ إسماعيل وأمّه ﴿وَمَا نُعۡلِنُۗ﴾ قال: ما نظهر لسارّة من الجفاء لهما.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[8] في قوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ﴾ قال: هذا بعد ذلك بحين.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٧٠٠)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٤٣) بسند صحيح.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٧٠١) بسند صحيح.

(٣) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٤٩).

(٤) في «الدر المنثور» (٥/ ٤٨).

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٦٩٩ ـ ٧٠٠)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٣٩٩٦) بسند حسن من طريق عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس.

(٦) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٤٧).

(٧) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٥٠).

(٨) عزاه إليهم السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٤٧).

وأخرجَ ابنُ جرير عَنْ سعيد بن جبير[(١)] قال: بُشِّر إبراهيمُ بعد سبع عشرة سنة ومائة سنة.

[تهديد الله الظالمين بأنَّه لا يغفل عَنْ ظلمهم]

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ خطاب للنبي ﷺ. وهو تعريض لأُمّته، فكأنه قال: ولا تحسب أمتك يا مُحمد، ويجوز أن يكون خطاباً لكل[(٢)] مَنْ يصلح له من المكلّفين، وإنْ كان الخطاب للنبي ﷺ مِنْ غير تعريض لأمته فمعناه: التثبيت على ما كان عليه مِنْ عدم الحسبان كقوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤] ونحوه.

وقيل: المراد: ولا تحسبنّه يعاملهم معاملة الغافل عمّا يعملون، ولكن معاملة الرقيب عليهم؛ أو يكون المراد بالنّهي عَنْ الحسبان: الإيذان بأنه عالم بذلك لا تخفى عليه منه خافية. وفي هذا تسلية[(٣)] لرسول الله ﷺ، وإعلام للمشركين بأن تأخير العذاب عنهم ليس للرضا بأفعالهم؛ بل سُنَّة الله سبحانه في إمهال العصاة ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ أي: يؤخر جزاءهم ولا يؤاخذهم بظلمهم. وهذه الجملة تعليل للنهي السابق. وقرأ الحسن والسُّلَمي وهو رواية عن أبي عمرو بالنون[(٤)] في «نؤخرهم».

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٧٠٢) من طريق ضرار بن مرة، به.

(٢) «روح المعاني» (١٣/ ٣٣٧)، و«جامع البيان» (١٣/ ٧٠٣).

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ١٥٧)، و«البحر المحيط» (٦/ ٤٥١).

(٤) «القراءات الشاذة» (ص٦٩)، و«البحر المحيط» (٦/ ٤٥١). هي رواية شاذة هم أَبي عَمْرو، وقراءة الحسن شاذة.

وقرأ الباقون[١] بالتحتية. واختارها أبو عُبيد[٢] وأبو حاتم[٣] لقوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ﴾ ومعنى ﴿لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ أي: ترفع فيه أبصار أهل الموقف، ولا تغمض مِنْ هول ما تراه في ذلك اليوم، هكذا قال الفراء[٤]. يقال: شخص[٥] الرجل بصرَه وشخص البصرُ نفسُه إلى السماء مِنْ هول ما يرى.

والمراد: أنّ الأبصار بقيت مفتوحة لا تتحرّك مِنْ شدة الحيرة والدهشة ﴿مُهْطِعِينَ﴾ أي: مُسْرعين مِنْ أهطع[٦] يُهطع إهْطاعاً: إذا أسرع؛ وقيل: المهطع الذي ينظر في ذلّ وخشوع. ومِنْه:

بِدجلةَ دارُهم ولقد أَراهم بدِجلةَ مُهطعينَ إلى السَّماعِ[٧]

وقيل: المُهْطع الذي يُديم النظر.

قال أبو عُبيد[٨]: قد يكون الوجهان جميعاً، يعني: الإسراع مع إدامة النظر؛ وقيل: المهطع الذي لا يرفع رأسَه.

وقال ثعلب[٩]: المهطع الذي ينظر في ذلّ وخضوع؛ وقيل: هو الساكت. قال النحاس[١٠]: والمعروف في اللغة[١١]: أهطع إذا أسرعَ ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ أي: رافعي رؤوسهم، وإقناع الرأس: رفعُه، وأقنع صوته: إذا رفعَه.

والمعنى: أنّهم يومئذٍ رافعون رؤوسهم إلى السماء، ينظرون إليها نظر فزع وذلّ ولا ينظر بعضُهم إلى بعض. وقيل: إن إقناع الرأس نَكْسُه؛ وقيل: يقال: أقنع: إذا رفع رأسه، وأقنع: إذا طأطأ ذلةً وخضوعاً، والآية محتملة[١٢] للوجهين.

---

(١) «النشر» (٢/ ٣٠٠)، و«البحر المحيط» (٦/ ٤٥١)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٧٠)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ١٥٨)، و«المحرر الوجيز» (١٠/ ٩٦).
(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٢/ ١٥٨). (٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٢/ ١٥٨).
(٤) انظر: «معالم التنزيل» (٣/ ٣٤٤).
(٥) «تهذيب اللغة» (٧/ ٧٣)، و«مفردات ألفاظ القرآن» (ص٤٤٧).
(٦) «الصحاح» (٣/ ١٣٠٧).
(٧) هو ليزيد بن مُفرِّغ. انظر: «ديوانه» (ص١١٠).
(٨) انظر: «الغريبين» (٦/ ١٩٣٢ ـ ١٩٣٣). (٩) ذكره أبو عبيد في «الغريبين» (٦/ ١٩٣٢).
(١٠) في «معاني القرآن» للنحاس (٣/ ٥٣٨).
(١١) «الصحاح» (٣/ ١٣٠٧)، و«تهذيب اللغة» (٧/ ٧٢).
(١٢) «معاني القرآن» للنحاس (٣/ ٥٣٩).

قال المبرِّد[١]: والقول الأوّل أعرف في اللغة. قال الشاعر:

أنغضَ نحوي رأسَه وأَقْنعا كأنّما أبصرَ شيئاً أطْمعا[٢]

﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ أي: لا ترجع إليهم أبصارُهم، وأصل الطرف: تحريك الأجْفَان، وسُميت العين طرفاً؛ لأنّه يكون بها، ومِنْ إطلاق الطرْف على العين قول عنترة[٣]:

وأغضُّ طَرْفي ما بَدت لي جارتي حتى يواري جارتي مأواها

﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ الهواء في اللغة[٤]: المجوف الخالي الذي لم تشغله الأجرام. والمعنى: أنّ قلوبهم[٥] خالية عَنْ العقل والفهم لما شاهدوا من الفزع والحيرة والدهش، وجعلها نفس الهوى مبالغة، ومنه قيل للأحمق والجبان: قلبه هواء؛ أي: لا رأي فيه ولا قوّة.

وقيل: معنى الآية: أنّها خرجت قلوبهم عَنْ مواضعها فصارت في الحناجر؛ وقيل: المعنى: إنِ أفئدة الكفار في الدنيا خالية عَنْ الخير؛ وقيل: المعنى: وأفئدتهم ذات هواء. ومما يقارب معنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا﴾ [القصص: ١٠]؛ أي: خالياً مِنْ كل شيء إلّا من همّ موسى. ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ﴾ هذا رجوع إلى خطاب رسول الله ﷺ، وأمره الله سبحانه بأَنْ ينذر الناس، والمراد الناس على العموم.

وقيل: المراد: كفار مكة؛ وقيل: الكفار على العموم. والأوّل أولى؛ لأن الإنذار كما يكون للكافر يكون أيضاً للمسلم، ومِنْه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ [يس: ١١].

ومعنى ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾: يوم القيامة؛ أي: خوّفهم هذا اليوم، وهو يوم إتيان العذاب، وإنما اقتصر على ذكر إتيان العذاب فيه مع كونه يوم إتيان الثواب؛ لأنّ المقام مقام تهديد[٦]؛ [٣/١٢٤] وقيل: المراد به: يوم موتهم، فإنه أوّل أوقات

---

(١) في «الكامل» (٢/ ١٠٢٧).
(٢) ذكره ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٧٠٨)، وأبو عبيدة في «مجاز القرآن» (١/ ٣٤٤).
(٣) انظر: «ديوان عنترة» (ص٧٦). (٤) «الصحاح» (١/ ٨٤ ـ ٨٥).
(٥) انظر: «جامع البيان» (١٣/ ٧١٠).
(٦) «روح المعاني» (١٣/ ٣٤٥)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ٢٦٤).

إتيان العذاب؛ وقيل: المراد: يوم هلاكهم بالعذاب العاجل، وانتصاب يوم على أنّه مفعول ثانٍ لأنذر ﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ المراد بالذين ظلموا ها هنا: همُ النَّاس؛ أي: فيقولون، والعدول إلى الإظهار مكان الإضمار للإشعار بأنّ الظلم هو العلّة فيما نزل بهم، هذا إذا كان المراد بالناس هم الكفار.

وعلى تقدير كون المراد بهم مَنْ يعمّ المسلمين، فالمعنى: فيقول الذين ظلموا مِنْهم وهم الكفار: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ﴾ أمهلنا ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ إلى أمدٍ مِنَ الزمان معلوم غير بعيد ﴿نُّجِبْ دَعْوَتَكَ﴾ أي: دعوتك لعبادك على ألسن أنبيائك إلى توحيدك ﴿وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ المرسلين منك إلينا فنعمل بما بلّغوه إلينا مِنْ شرائعك، ونتدارك ما فرط منا مِنْ الإهمال، وإنما جمع الرسل؛ لأنّ دعوتهم إلى التوحيد متفقة[(١)]، فاتباع واحد منهم اتباع لجميعهم، وهذا مِنْهم سؤال للرجوع إلى الدنيا لما ظهر لهم الحق في الآخرة ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨] ثُمّ حكى سبحانه ما يجاب به عنهم عند أَنْ يقولوا هذه المقالة، فقال: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ أي: فيقال لهم هذا القول توبيخاً[(٢)] وتقريعاً؛ أي: أولم تكونوا أقسمتم من قبل هذا اليوم ما لكم مِنْ زوال مِنْ دار الدنيا؟ وقيل: إنّه لا قسم منهم حقيقة، وإنما كان لسان حالهم ذلك لاستغراقهم في الشهوات وإخلادهم إلى الحياة الدنيا.

وقيل: قَسمهُم هذا هو ما حكاه الله عنهم في قوله: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨]، وجوابُ القسم: ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ وإنما جاء بلفظ الخطاب في ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ لمراعاة ﴿أَقْسَمْتُم﴾ ولولا ذلك لقال: ما لنا مِنْ زوال. ﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: استقررتم. يقال: سكن الدار وسكن فيها، وهي بلاد ثمود ونحوهم مِنْ الكفار الذين ظلموا أنفسهم بالكفر بالله والعصيان له ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾.

قرأ أبو عبد الرحمٰن السُّلمي «نبين» بالنون[(٣)] والفعل المضارع. وقرأ مَنْ عداه بالتاء الفوقية[(٤)]، والفعلُ الماضي؛ أي: تبين لكم بمشاهدة الآثار كيفَ فعلنا بهم من

---

(١) «روح المعاني» (١٣/ ٣٤٦)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ٢٦٤).

(٢) «تفسير أبي السعود» (٤/ ٢٦٥)، و«روح المعاني» (١٣/ ٣٤٧).

(٣) «القراءات الشاذة» (ص٦٩)، و«البحر المحيط» (٦/ ٤٥٣)، و«روح المعاني» (١٣/ ٣٤٩).

(٤) «البحر المحيط» (٦/ ٤٥٣)، و«روح المعاني» (١٣/ ٣٤٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٧٢)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ١٦٤).

العقوبة والعذاب الشديد بما فعلوا مِنْ الذنوب، وفاعل تبين ما دلّت عليه الجملة المذكورة بعده؛ أي: تبين لكم فعْلنا العجيب بهم ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ في كتب الله، وعلى ألسن رسله إيضاحاً لكم وتقريراً وتكميلاً للحجة عليكم ﴿وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ﴾ الجملة في محل نصب[1] على الحال؛ أي: فعلنا بهم ما فعلنا، والحال أنّهم قد مكروا في ردّ الحق وإثبات الباطل مكرهم العظيم، الذي استفرغوا فيه وسعَهم ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ أي: وعند الله جزاءُ مكرهِم، أو: وعند الله مكتوب مكرهم فهو مجازيهم، أو: وعند الله مكرُهم الذي يمكرهم به على أن يكون المكر مضافاً إلى المفعول.

قيل: والمراد بهم: قوم محمد ﷺ مكروا بالنبي ﷺ حين همّوا بقتله أو نفيه.

وقيل: المراد: ما وقع مِنْ النمروذ حيثُ حاول الصعود إلى السماء، فاتخذ لنفسه تابوتاً وربط قوائمه بأربعة نسور ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ قرأ عمر، وعلي، وابن مسعود، وأُبي «وإنْ كاد مكرهم» بالدال[2] المهملة مكان النون.

وقرأ غيرهم مِنْ القرّاء ﴿وَإِن كَانَ﴾ بالنون[3]. وقرأ ابن مُحيصن، وابن جُريج، والكسائي «لَتزولُ» بفتح اللّام[4] على أنها لام الابتداء.

وقرأ الجمهور[5] بكسرها على أنّها لام الجحود.

قال ابنُ جرير[6]: الاختيار هذه القراءة، يعني: قراءة الجمهور لأنها لو كانت زالت لم تكن ثابتة، فعلى قراءة الكسائي ومَنْ معه تكون إنْ هي المخففة من الثقيلة.

---

(١) «التبيان» (٢/ ٧٧٣)، و«الفريد» (٣/ ١٧٥)، و«روح المعاني» (١٣/ ٣٤٩).
(٢) «المحتسب» (١/ ٢٦٥ ـ ٢٦٦)، و«القراءات الشاذة» (ص٦٩)، و«مشكل إعراب القرآن» (١/ ٤٥٤). القراءة «وإن كاد» بالدال. قراءة شاذة.
(٣) «جامع البيان» (١٣/ ٧١٨)، و«النشر» (٢/ ٣٠٠)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ٢٧ ـ ٢٨)، و«روح المعاني» (١٣/ ٣٥٣).
(٤) «جامع البيان» (١٣/ ٧٢٣)، و«روح المعاني» (١٣/ ٣٥٣)، و«البحر المحيط» (٦/ ٤٥٤ ـ ٤٥٥). وهما قراءتان متواترتان ومن كسر اللّام الفعل (لِتزول) ومن فتح للام الأولى رفع لام الفعل (لَتزولُ).
(٥) «جامع البيان» (١٣/ ٧٢٣)، و«البحر المحيط» (٦/ ٤٥٥)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ٢٧)، و«روح المعاني» (١٣/ ٣٥٣).
(٦) في «جامع البيان» (١٣/ ٧٢٤).

واللام هي الفارقة، وزوال الجبال مَثَلٌ لعظم مكرهم وشدّته؛ أي: وإنّ الشأن كان مكرهم معدّاً لذلك.

قال الزجاج[(١)]: وإنْ كان مكرهم يبلغ في الكيد إلى إزالة الجبال، فإن الله ينصر دينَه؛ وعلى قراءة الجمهور يحتمل وجهين:

أحدهما: أَنْ تكون «إن» هي المخففة من الثقيلة، والمعنى كما مرّ.

والثاني: أن تكون نافية واللام المكسورة لتأكيد النفي كقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣] والمعنى[(٢)]: ومحال أَنْ تزول الجبال بمكرهم، على أن الجبال مثل لآيات الله وشرائعه الثابتة على حالها مدى الدهر، فالجملة على هذا حال مِنْ الضمير في مكروا لا مِنْ قوله: ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ أي: والحال أن مكرهم لم يكن لتزول مِنْه الجبال.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والخرائطي في «مساوي الأخلاق» عن ميمون بن مهران[(٣)] في قوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ قال: هي تعزيةٌ للمظلوم ووعيد للظالم.

وأخرج عبدُ بن حميد، وابنُ جرير، وابنُ أبي حاتم عَنْ قتادة[(٤)] في قوله: ﴿لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ قال: شَخَصتْ فيه واللهِ أبصارُهم فلا ترتدُّ إليهم.

وأخرج ابنُ جرير، وابنُ أبي حاتم عَنْ ابن عباس[(٥)] في قوله: ﴿مُهْطِعِينَ﴾ قال: يعني بالإهطاع النظر من غير أَنْ يطرف ﴿مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ﴾ قال: الإقناع رفع رؤوسهم ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ قال: شاخصة أبصارهم ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ ليس فيها شيء مِنْ الخير، فهي كالخربة.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن مجاهد[(٦)] ﴿مُهْطِعِينَ﴾ قال: مديمي النظر.

---

(١) في «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١٦٦).

(٢) «التبيان» (٢/ ٧٧٣ ـ ٧٧٤)، و«الفريد» (٣/ ١٧٥ ـ ١٧٦)، و«روح المعاني» (١٣/ ٣٥٣).

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٧٠٣ ـ ٧٠٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٨٣، ٨٤)، والخرائطي في «مساوئ الأخلاق» (٦٣٦) من طريق علي بن ثابت، عن جعفر بن بُرقان، به.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٧٠٤) بسند صحيح.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٧٠٥) بسند ضعيف.

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٧٠٦) بسند صحيح.

وأخرج عبدُ الرزاق، وابنُ جرير، وابنُ المنذر عن قتادة[١] ﴿مُهْطِعِينَ﴾ قال: مُسْرعين.

وأخرج هؤلاء عن قتادة[٢] في قوله: ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ قال: ليس فيها شيء، خرجت مِنْ صدورهم فنشبت في حلوقهم.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مرة[٣] ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ قال: منخرقة لا تعي شيئاً.

وأخرج عبدُ بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة[٤] في قوله: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾ يقول: أنذرهم في الدنيا مِنْ قبل أن يأتيَهم العذابُ.

وأخرج ابن جرير عَنْ مجاهد[٥] قال: ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾ هو يومُ القيامة.

وأخرج ابنُ المنذر[٦] عَنْ ابن عباس ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ قال: عما أنتم فيه إلى ما تقولون.

وأخرج ابنُ أبي حاتم[٧] عَنْ السدّي في قوله: ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ قال: بعثٍ بعد الموت.

وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن الحسن[٨] في قوله: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ قال: عملتم بمثل أعمالهم.

وأخرج ابن جرير[٩] عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ﴾ يقول: ما كان مكرهم ﴿لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٤٣)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٧٠٤ ـ ٧٠٥) بسند صحيح.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٧١٣)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٤٣) بسند صحيح.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٧١٠ ـ ٧١١)، وابن أبي شيبة (١٣/ ٤٠٨)، من طريق أبي إسحاق، به.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٧١٤) بسند صحيح.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٧١٤) بسند ضعيف.

(٦) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٥٢).

(٧) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٥١).

(٨) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٥٢).

(٩) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٧٢٤ ـ ٧٢٥) بسند ضعيف.

وأخرج ابنُ جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[١] ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ﴾ يقول: شركُهم كقوله: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾ [مريم: ٩٠].

وأخرج عبدُ بن حميد، ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري عن عليّ بن أبي طالب[٢] أنّه قرأ هذه الآية: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ ثم فسّرها فقال: إنّ جباراً مِنْ الجبابرة قال: لا أنتهي حتى أنظر إلى ما في السماء، فأمر بفراخ النسور تُعلَف اللحم، حتى شبّت وغلُظت، وأمر بتابوت فنُجر يَسعُ رجلين، ثم جعل في وسطه خشبةً، ثم ربط أرجلهنّ بأوتاد، ثم جوّعهنّ، ثم جعل على رأس الخشبة لحماً، ثم دخل هو وصاحبه في التابوت، ثم ربطهنّ إلى قوائم التابوت، ثم خلّي عنهنّ يُردن اللحم، فذهبن به ما شاء الله، ثم قال لصاحبه: افتح فانظر ماذا ترى؟ ففتح فقال: انظر إلى الجبال كأنّها الذُّباب، قال: أغلق فأغلق، فطرن به ما شاء الله، ثم قال: افتح ففتح، فقال: انظر ماذا ترى، فقال: ما أرى إلّا السماء وما أراها تزداد إلّا بُعداً، قال: صوّب الخشبة فصوّبها فانقضت تريد اللحم، فسمع الجبال هدّتها فكادت تزول عَنْ مراتبها[٣].

وقد روي نحو هذه القصة لبختنّصر وللنمروذ مِنْ طرق ذكرها في «الدرّ المنثور»[٤].

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٧٢٢) بسند صحيح.
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٧٢٠ ـ ٧٢١) بسند ضعيف.
(٣) قال ابن كثير في «تفسيره» (٨/ ٢٣١): وكذا روي، عن عكرمة: أن سياق هذه القصة لنمرود ملك كنعان: أنه رام أسباب السماء بهذه الحيلة والمكر، كما رام ذلك بعده فرعون ملك القبط في بناء الصرح، فعجزا وضعفا وهما أقل وأحقر وأصغر وأدحر.
(٤) في «الدر المنثور» (٥/ ٥٤ ـ ٥٩).

[القدرة القادرة التي تبدل الأرض وتبدل السموات في مقابل مكرهم الضئيل]

﴿مُخْلِفَ﴾ منتصب[(١)] على أنّه مفعول ﴿تَحْسَبَنَّ﴾، وانتصاب ﴿رُسُلَهُۥٓ﴾ على أنه مفعول ﴿وَعْدِهِۦ﴾، قيل: وذلك على الاتساع[(٢)]، والمعنى: مخلف رسله وعده.

قال القتيبي[(٣)]: هو مِنْ المقدّم الذي يوضحه التأخير. والمؤخر الذي يوضحه التقديم وسواء في ذلك مخلف وعده [٣/١٢٥] رسلَه ومخلف رسلِه وعدَه، ومثل ما في الآية قول الشاعر:

ترى الثورَ فيها مدخل الظلَّ رأسَه وسائرُهُ بادٍ إلى الشمس أجمعُ[(٤)]

وقال الزمخشري[(٥)]: قدّم الوعَد ليعلم أنّه لا يخلف الوعد أصلاً كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩، الرعد: ٣١].

ثم قال ﴿رُسُلَهُۥٓ﴾ ليؤذن أنه إذا لم يُخْلف وعده أحداً، وليس مِنْ شأنه إخلاف المواعيد، فكيف يخلفه رسله الذين هم خيرته وصفوته.

والمراد بالوعد هنا: هو ما وعدهم سبحانه بقوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: ٥١] و﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٢١].

وقرئ «مخلف وعدَه رسلِهِ» بجرّ «رسله»[(٦)] ونصب «وعدَه».

قال الزمخشري[(٧)]: وهذه القراءة في الضعف كمَنْ قرأ: «قتلُ أولادَهم شركائِهم».

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالبٌ لا يغالبه أحد ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ ينتقم من أعدائه لأوليائه والجملة تعليل للنهي، وقد مرّ تفسيره في أوّل آل عمران.

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ قال الزجاج: انتصاب ﴿يَوْمَ﴾ على البدل[(٨)] من ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ﴾ [إبراهيم: ٤٤]، أو على الظرف للانتقام. انتهى.

---

(١) «مشكل إعراب القرآن» (١/ ٤٥٤)، و«التبيان» (٢/ ٧٧٤)، و«الفريد» (٣/ ١٧٦).
(٢) انظر: المصادر المتقدمة.
(٣) في «تأويل مشكل القرآن» (ص١٤٨).
(٤) «البيان» لابن الأنباري (٢/ ٦٢)، و«معاني القرآن» للفراء (٢/ ٨٠).
(٥) في «الكشاف» (٣/ ٣٩٣).
(٦) «روح المعاني» (١٣/ ٣٥٦)، و«الكشاف» (٣/ ٣٩٣)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ١٦٧). وهي قراءة شاذة.
(٧) في «الكشاف» (٣/ ٣٩٣).
(٨) «التبيان» (٢/ ٧٧٤)، و«الفريد» (٣/ ١٧٨).

ويجوز أَنْ ينتصب بمقدّر يدل عليه الكلام؛ أي: واذكرْ أو: وارتقب، والتبديل قَدْ يكون في الذّات كما في: بدّلت الدراهم دنانيرَ، وقد يكون في الصفات كما في: بدّلت الحَلَقة خاتماً، والآية تحتمل الأمرين.

وقَدْ قيل: المراد: تغير صفاتها[١]، وبه قال الأكثر، وقيل: تغير ذاتها.

ومعنى ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ أي: وتبدّل السمٰوات[٢] غير السمٰوات على الاختلاف الذي مرّ ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ أي: برز العبادُ لله، أو الظالمون كما يفيده السياق؛ أي: ظهروا مِنْ قبورهم، أو ظهر من أعمالهم ما كانوا يكتمونه، والتعبير على المستقبل بلفظ الماضي[٣] للتنبيه على تحقق وقوعه كما في قوله: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ [الكهف: ٩٩، يس: ٥١، الزمر: ٦٨، قٓ: ٢٠] و﴿ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ المتفرد بالألوهية الكثير القهر لمن عانده ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ﴾ معطوف على ﴿وَبَرَزُواْ﴾ أو على ﴿تُبَدَّلُ﴾، والمجيء بالمضارع لاستحضار الصورة، والمجرمون: هُمْ المشركون.

و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يعني: يوم القيامة، و﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ أي: مشدودين إما بجعل بعضهم مقروناً مع بعض، أو قُرنوا مع الشياطين كما في قوله: ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦] أو جُعلت أيديهم مقرونة إلى أرجلهم، والأصفاد: الأغلال، والقيود، والجار والمجرور متعلق بمقرّنين أو حال من ضميره، يقال: صفدته صفداً؛ أي: قيّدتُه، والاسم الصَفْد، فإذا أردت التكثير قلت: صَفَّدتُه. قال عمرو بن كلثوم[٤]:

فآبوا بالنِّهاب وبالسبايا ... وأُبنا بالملوك مُصفَّدينا

وقال حسّان بن ثابت[٥]:

مِنْ بين مأسور يُشدُّ صِفادَه ... صقرٌ إذا لاقى الكريهةَ حامي

ويقال: صفدته وأصفدتُه: إذا أعطيتُه، ومنه قول النابغة[٦]:

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١٦٩)، و«جامع البيان» (١٣/ ٧٣٥).
(٢) «زاد المسير» (٤/ ٣٧٦)، و«جامع البيان» (١٣/ ٧٣٦).
(٣) «روح المعاني» (١٣/ ٣٦٢ ـ ٣٦٣)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ٢٧٠).
(٤) انظر: «معلقته» (ص١٠٠). (٥) انظر: «ديوان حسان بن ثابت» (ص٢١٥).
(٦) انظر: «ديوان النابغة الذبياني» (ص٣٧).

ولم أُعرِّضْ ـ أَبيتَ اللَّعنَ ـ بالصَّفدِ

﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ السرابيل: القُمُص، واحدها سربال، ومنه قول كعب بن مالك[١]:

تَلْقَاكُمْ عُصَبٌ حولَ النبيِّ لهم مِنْ نسجِ داودَ في الهيجا سرابيلُ

والقَطِران: هو قَطِران الإبل الذي تُهْنأ به؛ أي: قُمصانهم مِنْ قَطِران تُطلى به جلودُهم حتى يعود ذلك الطلاء كالسرابيل؛ وخُصّ القَطِران لسرعة[٢] اشتعال النار فيه مع نتن رائحته.

وقال جماعة: هو النُحاس[٣]؛ أي: قُمْصانهم مِنْ نحاس. وقرأ عيسى بن عمر «من قَطْران» بفتح القاف[٤] وتسكين الطاء. وقُرئ بكسر القاف وسكون الطاء، وقرئ بفتح[٥] القاف والطاء، رويت هذه القراءة عَنْ ابن عباس، وأبي هريرة، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ويعقوب، وهذه الجملة في محل نصب[٦] على الحال.

﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي: تَعلو وجوهَهم وتضربها؛ وخُص الوجوه لأنها أشرف ما في البدن، وفيها الحواس المدركة، والجملة في محل نصب[٧] على الحال أيضاً.

و﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ﴾ متعلق بمحذوف؛ أي: يفعل ذلك بهم ليجزي ﴿كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ مِنْ المعاصي؛ أي: جزاء موافقاً لما كسبت من خيرٍ أو شرّ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ لا يشغله عَنْه شيء.

وقد تقدّم تفسيره. ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ﴾ أي: هذا الذي أُنزل إليك بلاغٌ؛ أي: تبليغ وكفاية في الموعظة والتذكير. قيل: إنّ الإشارة إلى ما ذكره سبحانه هنا من قوله:

---

(١) «ديوان كعب بن مالك» (ص٢٠٣).
(٢) «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١٧٠)، و«جامع البيان» (١٣/ ٧٤٣).
(٣) «جامع البيان» (١٣/ ٧٤٣، ٧٤٤). وسيأتي تخريج هذه الأقوال.
(٤) «جامع البيان» (١٣/ ٧٤٢)، و«روح المعاني» (١٣/ ٣٦٥)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ١٧٢)، و«البحر المحيط» (٦/ ٤٥٨).
(٥) انظر: المصادر المتقدمة. وهذه القراءات الثلاث شاذة، والقراءة المتواترة هي بفتح القاف وكسر الطاء من كلمة «قَطِران».
(٦) «التبيان» (٢/ ٧٧٥)، و«الفريد» (٣/ ١٨٠)، و«روح المعاني» (١٣/ ٣٦٥).
(٧) انظر: المصادر المتقدمة.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا﴾ إلى ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [إبراهيم: ٤٢ ـ ٥١] أي: هذا فيه كفاية مِنْ غير ما انطوت عليه السورة.

وقيل: الإشارة إلى جميع السورة، وقيل: إلى القرآن، ومعنى: ﴿لِّلنَّاسِ﴾ للكفّار، أو لجميع الناس على ما قيل في قوله: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ [إبراهيم: ٤٤]، ﴿وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ﴾ معطوف على محذوف؛ أي: لِيُنصحوا ولِينذروا به.

والمعنى: وليخوّفوا به، وقرئ ﴿وَلِيَنذَرُوا﴾ بفتح الياء[1] التحتية والذال المعجمة، يقال: نَذِرتُ بالشيء أَنْذَر: إذا علمتَ به فاستعددتَ له ﴿وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي: ليعلموا بالأدلة التكوينية المذكورة سابقاً وحدانية الله سبحانه، وأنه لا شريك له ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: وليتعظ أصحابُ العقول، وهذه اللامات متعلقة بمحذوف، والتقدير: وكذلك أنزلنا، أو: متعلِّقة بالبلاغ المذكور؛ أي: كفاية لهم في أَنْ يُنصحوا ويُنذروا ويعلموا بما أقام الله مِنْ الحجج والبراهين وحدانيته سبحانه وأنّه لا شريك له، وليتعظَ بذلك أَصحابُ العقول التي تعقل وتدرك.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة[2] في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ قال: عزيز واللهِ في أمره، يُملي وكيدُه متين، ثم إذا انتقَم انتقَم بقُدْرة.

وأخرج مسلم وغيره من حديث ثوبان[3] قال: جاء رجل من اليهود إلى رسول الله ﷺ فقال: أينَ يكون الناس يوم تبدّل الأرض غير الأرض؟ فقال رسول الله ﷺ: «في الظُّلمة دونَ الجسر».

وأخرج مسلم أيضاً وغيره من حديث عائشة[4]، قالت: أنا أوّل من سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ قلت: أين الناس يومئذٍ؟ قال: «على الصراط».

---

(١) «البحر المحيط» (٦/ ٤٦٠)، و«روح المعاني» (١٣/ ٣٦٨)، و«المحتسب» (١/ ٣٦٧). وهي قراءة شاذة.

(٢) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٥٦).

(٣) أخرجه مسلم في «صحيحه» رقم (٣١٥)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٧٣٨، ٧٣٩)، و«الحاكم» (٣/ ٤٨١، ٤٨٢)، والبيهقي في «الدلائل» (٦/ ٢٦٣).

(٤) أخرجه أحمد رقم (٢٤٠٦٩، ٢٥٠٢٣، ٢٥٨٢٨)، ومسلم رقم (٢٧٩١)، والترمذي رقم (٣١٢١)، وابن ماجه رقم (٤٢٧٩)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٧٣٦، ٧٣٧)، وابن حبان رقم (٣٣١)، والحاكم (٢/ ٣٥٢).

وأخرج البزار، وابن المنذر، والطبراني في «الأوسط»، وابن مردويه، والبيهقي في «البعث»، وابن عساكر عن ابن مسعود[١] قال: قال رسول الله ﷺ: في قول الله ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ قال: «أرض بيضاء، كأنّها فضة، لم يُسْفك فيها دم حرامٌ، ولم يُعمل بها خطيئة».

وأخرجه عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ في العظمة، والحاكم وصححه، والبيهقي في «البعث» عنه[٢] موقوفاً نحوه، قال البيهقي: الموقوف أصح.

وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عن زيد بن ثابت[٣] قال: أتى اليهود النبي ﷺ فقال: «جاءوني يسألونني وسأخبرهم قبل أن يسألوني ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾» قال: «أرض بيضاء كالفضّة»، فسألهم فقالوا: أرض بيضاء كالنقيّ.

وأخرج ابن مردويه مرفوعاً عن عليّ نحو ما تقدّم عن ابن مسعود[٤].

وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عن أنس[٥] موقوفاً نحوه.

وقد روي نحو ذلك عن جماعة من الصحابة.

وثبت في «الصحيحين» من حديث سهل بن سعد[٦] قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُحشر الناس يوم القيامة على أرضٍ بيضاء عَفْراء كقُرصة نَقِّي». وفيهما أيضاً من حديث أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفؤها الجبار بيده» الحديث.

---

(١) أخرجه البزار في «مسنده» رقم (١٨٥٩)، والطبراني في «الأوسط» رقم (٧١٦٧) وفي «الكبير» (١٠٣٢٣)، وابن عساكر في «تاريخه» (٤٦/ ٤٠٧).
قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٤٥): وفيه جرير بن أيوب البجلي وهو متروك.
وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٣٤٥): وهو مجتمع على ضعفه.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٤٤) من قول عمرو بن ميمون.
وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٧٢٩ ـ ٧٣١)، والطبراني رقم (٩٠٠١)، وأبو الشيخ في «العظمة» رقم (٦٠٠)، والحاكم (٤/ ٥٧٠) بسند صحيح.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٧٣) بسند ضعيف من طريق جابر الجُعفيِّ، به.

(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٥٧).

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٧٣١ ـ ٧٣٢) بسند ضعيف.

(٦) أخرجه البخاري رقم (٦٥٢١)، ومسلم رقم (٢٧٩٠)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٧٣٢).

وأخرج ابن أبي حاتم[١] عن ابن عباس في قوله: ﴿مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ﴾ قال: الكُبول.

وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير عن قتادة[٢] ﴿فِي ٱلْأَصْفَادِ﴾ قال: القيود والأغلال.

وأخرج ابن أبي حاتم[٣] عن سعيد بن جبير قال: في السلاسل.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[٤] ﴿فِي ٱلْأَصْفَادِ﴾ يقول: في وثاق.

وأخرج ابن أبي حاتم[٥] عن السدّي ﴿سَرَابِيلُهُم﴾ قال: قُمُصهم.

وأخرج ابن جرير[٦] عن ابن زيد مثله.

وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الحسن[٧] في قوله: ﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾ قال: قطران الإبل.

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة[٨] في الآية قال: هذا القطران يطلى به حتى يشتعل ناراً.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[٩] قال: هو النحاس المُذاب.

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير[١٠] أنه قرأ ﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾ فقال: القطر: الصُّفْر. والآن: الحارّ.

---

(١) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٥٤).
(٢) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٤٤)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٧٤١).
(٣) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٥٤).
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٧٤١) بسند صحيح.
(٥) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٥٩).
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٧٤٢) بسند صحيح.
(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٧٤٣)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (٤/ ٣٤٤) بسند صحيح.
(٨) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٥٤).
(٩) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٧٤٥ ـ ٧٤٦) بسند صحيح.
(١٠) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٥٤).

وأخرج أبو عبيد، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر عن عكرمة[١] نحوه.

وأخرج مسلم وغيره عن أبي مالك الأشعري[٢] قال: قال رسول الله ﷺ: «النائحة إذا لم تتب قبل موتها، تُقام يوم القيامة وعليها سربال مِنْ قَطِران، ودرع من جَرَبٍ».

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن زيد[٣] في قوله: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾ قال: القرآن ﴿وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ﴾ قال: القرآن.

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٧٤٥) بسند حسن.

(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه» رقم (٩٣٤)، وأحمد في «مسنده» رقم (٢٢٩١٢)، وابن أبي شيبة (٣/ ٣٩٠).

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٧٤٧) بسند صحيح.

سورة الحجر

وهي تسع وتسعون آية. وهي مكية بالاتفاق كما قال القرطبي[١].

وأخرج النحاس في ناسخه، وابن مردويه عن ابن عباس[٢] قال: نزلت سورة الحجرة بمكة[٣].

وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير مثله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ۝١ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ
۝٢ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا
وَلَهَا [٣/١١٨] كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝٤ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ۝٥ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧
مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ۝٨ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ
۝٩ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٠ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ
۝١١ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝١٢ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَلَوْ
فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝١٤ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ
مَّسْحُورُونَ ۝١٥﴾.

[إنما يكذبون عن عناد لا عن نقص في دلائل الإيمان]

قوله: ﴿الٓرۚ﴾ قد تقدّم الكلام في محله مستوفى، والإشارة بقوله: ﴿تِلْكَ﴾ إلى ما تضمنته السورة من الآيات، والتعريف في الكتاب. قيل: هو للجنس، والمراد:

---

(١) انظر: «البحر المحيط» (٥/٤٤٣).

(٢) اخرجه النحاس في «ناسخه» (ص٥٣٩).

(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/٦١).

جنس الكتب المتقدّمة؛ وقيل: المراد به القرآن، ولا يقدح في هذا ذكر القرآن بعد الكتاب، فقد قيل: إنّه جمع له بين الاسمين[١].

وقيل: المراد بالكتاب هذه السورة، وتنكير القرآن للتفخيم[٢]؛ أي: القرآن الكامل.

﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ قرأ نافع وعاصم بتخفيف[٣] الباء مِنْ رَبَما. وقرأ الباقون بتشديدها[٤]، وهما لغتان. قال أبو حاتم[٥]: أهل الحجاز يخففون، ومِنْه قول الشاعر[٦]:

رُبَمَا ضربةٍ بسيفٍ صقيلٍ ... بين بُصْرى وطعنةٍ نجلاءِ

وتميم وربيعة يثقلونها. وقد تزاد التاء الفوقية، وأصلها أَنْ تستعمل في القليل. وقد تُستعمل في الكثير[٧].

قال الكوفيون[٨]: أي: يودّ الكفار في أوقات كثيرة لو كانوا مسلمين. ومنه قول الشاعر:

رُب رِفدٍ هرقتهُ ذلك اليو ... مَ وأَسْرى مِنْ معشرٍ أقيالِ

وقيل: هي هُنا للتقليل[٩]؛ لأنّهم ودّوا ذلك في بعض المواضع لا في كلِّها لشغلهم بالعذاب.

قيل: و«ما» هنا لحقت ربّ لتهيئها للدخول على الفعل.

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٢/ ١٧٤).

(٢) «روح المعاني» (١٣/ ٣٧٧)، و«البحر المحيط» (٦/ ٤٦٤).

(٣) «التيسير» (ص١٣٥)، و«البحر المحيط» (٦/ ٤٦٥)، و«النشر» (٢/ ٣٠١)، و«جامع البيان» (١٤/ ٢)، و«التبيان» (٢/ ٧٧٦). ومع نافع وعاصم أبو جعفر.

(٤) انظر: المصادر المتقدمة.

(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٢/ ١٧٥).

(٦) هو: عدي بن الرَّعلاء الغساني.
«معجم الشعراء» (ص٨٦)، و«الأصمعيات» (ص١٥٢).

(٧) «روح المعاني» (١٣/ ٣٨٣)، و«مغني اللبيب» (١/ ١٣٤)، و«معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١٧٢ ـ ١٧٣).

(٨) «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ١٧٥)، و«مغني اللبيب» (١/ ١٣٤ ـ ١٣٥)، و«روح المعاني» (١٣/ ٣٨٢)، و«البحر المحيط» (٦/ ٤٦٤).

(٩) انظر: المصادر المتقدمة.

وقيل: هي نكرة بمعنى[1] شيء، وإنما دخلت «رُبّ» هنا على المستقبل مع كونها لا تدخل إلّا على الماضي؛ لأنّ المترقب في أخباره سبحانه كالواقع المتحقق، فكأنّه قيل: ربما ودّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين؛ أي: منقادين لحكمه مذعنين له مِنْ جملة أهله.

وكانت هذه الودادة[2] مِنْهم عند موتهم أو يوم القيامة. والمراد: أنه لما انكشف لهم الأمر واتضح بطلان ما كانوا عليه من الكفر وأنّ الدين عند الله سبحانه هو الإسلام لا دينَ غيره حصلتْ منهم هذه الودادة التي لا تُسمن ولا تغني من جوع؛ بل هي لمجرد التحسّر والتندم ولوم النفس على ما فرّطت في جنب الله، وقيل: كانت هذه الودادة منهم عند معاينة حالهم وحال المسلمين.

وقيل: عند خروج عصاة الموحدين من النار، والظاهر: أن هذه الودادة كائنة منهم في كلِّ وقت مستمرة في كل لحظة بعد انكشاف الأمر لهم ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟﴾ هذا تهديدٌ لهم؛ أي: دَعْهم عما أنتَ بصدده من الأمر لهم والنهي، فهم لا يرعوون أبداً ولا يخرجون مِنْ باطل ولا يدخلون في حق؛ بل ذرهم بما هم فيه من الاشتغال بالأكل والتمتع بزهرة الدنيا، فإنّهم كالأنعام التي لا تهتم إلّا بذلك ولا تشتغل بغيره.

[الأمل يلهي والمطامع تضر، والعمر يمضي والفرصة تضيع]

والمعنى: اتركْهم على ما هم عليه مِنْ الاشتغال بالأكل ونحوه من متاع الدنيا ومِنْ إلهاء الأمل لهم عن اتباعك فسوف يعلمون عاقبةَ أمرهِم وسوءَ صنيعهم. وفي هذا مِنْ التهديد والزجر ما لا يقادر قدره، يقال: ألهاه كذا أي: شغله، ولَهِى[3] هو عَنْ الشيء يَلْهَى؛ أي: شغلهم الأملُ عن اتباع الحق، وما زالوا في الآمال الفارغة، والتمنيات الباطلة حتى أسفَر الصبحُ لذي عينين، وانكشف الأمر ورأوا العذاب يوم القيامة، فعند ذلك يذوقون وبال ما صنعوا.

---

(١) «مغني اللبيب» (١/ ١٣٥)، و«المقتضب» (٤/ ١٣٩)، و«أصول النحو» (١/ ٤١٢) لابن السراج.
(٢) «روح المعاني» (١٣/ ٣٩٢ ـ ٣٩٣).
(٣) «تهذيب اللغة» (٦/ ٤٢٨)، و«مفردات ألفاظ القرآن» (ص٧٤٨).

والأفعال الثلاثة مجزومة[١] على أنَّها جواب الأمر، وهذه الآية منسوخة[٢] بآية السيف.

﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ﴾ أي: وما أهلكنا قرية من القرى بنوع مِنْ أنواع العذاب ﴿إِلَّا وَلَهَا﴾ أي: لتلك القرية ﴿كِتَابٞ﴾؛ أي: أجل مقدّر لا تتقدم عليه ولا تتأخر عنه ﴿مَّعۡلُومٞ﴾ غير مجهول ولا منسيّ فلا يتصوّر التخلّف عنه بوجه مِنْ الوجوه.

وجملة ﴿وَلَهَا كِتَابٞ﴾ في محلِّ نصب على الحال[٣] من ﴿قَرۡيَةٍ﴾ وإن كانت نكرة؛ لأنّها قد صارت بما فيها مِنْ العموم في حكم الموصوفة، والواو للفرق بين كون هذه الجملة حالاً، أو صفة فإنّها تعيّنها للحالية كقولك: حالي رجلٌ على كتفه سيف.

وقيل: إنَّ الجملة صفة[٤] لـ﴿قَرۡيَةٍ﴾. والواو لتأكيد اللصوق بين الصفة والموصوف ﴿مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ أي: ما تسبق أمة مِنْ الأمم أجلَها المضروب لها المكتوب في اللوح المحفوظ؛ والمعنى: أَنَّه لا يأتي هلاكها قبل مجيء أجلها ﴿وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾ أي: وما يتأخرون عنه. فيكون مجيء هلاكهم بعد مضي الأجل المضروب له.

وإيراد الفعل على صيغة جمع المذكر للحمل على المعنى مع التغليب[٥] ولرعاية الفواصل، ولذلك حُذف الجار والمجرور، والجملة مبينة لما قبلها، فكأنه قيل: إنّ هذا الإمهال لا ينبغي أن يغترّ به العقلاء، فإنّ لكل أمة وقتاً معيناً في نزول العذاب لا يتقدّم ولا يتأخر.

وقد تقدم تفسير الأجل في أوّل سورة الأنعام.

ثم لما فرغ من تهديد الكفار شرعَ في بيان بعضِ عتوّهم في الكفر، وتماديهم

---

(١) «روح المعاني» (١٣/ ٣٩٥)، و«البحر المحيط» (٦/ ٤٦٥).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ١٧٦)، و«المحرر الوجيز» (١٠/ ١١٠).

(٣) «روح المعاني» (١٣/ ٣٩٦ ـ ٣٩٧)، و«التبيان» (٢/ ٧٧٧)، و«الفريد» (٣/ ١٨٦)، و«الإملاء» (٣/ ٤١٨).

(٤) انظر: المصادر المتقدمة.

(٥) «روح المعاني» (١٣/ ٣٩٩)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ٢٧٩).

في الغيّ، مع تضمنه لبيان كفرهم بمن أُنزل عليه الكتاب بعد بيان كفرهم بالكتاب، فقال ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ﴾؛ أي: قال كفار مكة مخاطبين لرسول الله ﷺ ومتهكمين[١]، به حيثُ أثبتوا له إنزال الذكر عليه مع إنكارهم لذلك في الواقع أشدّ إنكار، ونفيهم له أبلغ نفي، أو أرادوا: بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ﴾ في زعمه، وعلى وُفْق ما يدعيه.

﴿إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ﴾ أي: إنّك بسبب هذه الدعوى التي تدّعيها من كونك رسولاً لله، مأموراً بتبليغ أحكامه لمجنون، فإنّه لا يدّعي مثل هذه الدعوى العظيمة عندهم من كان عاقلاً، فقولهم هذا لمحمد ﷺ هو كقول فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ﴾ [الشعراء: ٢٧] ﴿لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ ﴿لَّوۡ مَا﴾ حرف تحضيض[٢] مركب من «لو» المُفيدة للتمنّي ومِنْ «ما» المزيدة، فأفادَ المجموع الحثّ على الفعل الداخلة هي عليه؛ والمعنى: هلا تأتينا بالملائكة ليشهدوا على صدقك ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾. قال الفرّاء[٣]: الميم في لو ما بدل مِنْ اللام في «لولا».

وقال الكسائي[٤]: (لولا) و(لو ما) سواء في الخبر والاستفهام. قال النحاس[٥]: لو ما ولولا وهلّا واحد؛ وقيل: المعنى: لو ما تأتينا بالملائكة فيعاقبونا على تكذيبنا لك.

و﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ قُرئ ﴿مَا نُنَزِّلُ﴾ بالنون[٦] مبنيّاً للفاعل، وهو الله سبحانه فهو على هذا من التنزيل.

والمعنى على هذه القراءة: قال الله سبحانه مُجيباً على الكفار لما طلبوا إتيان الملائكة إليهم: ما نُنزل نحن ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: تَنْزيلاً متلبِّساً بالحق الذي يحق عنده تنزيلنا لهم فيما تقتضيه الحكمة الإلٰهية، والمشيئة الربانية وليس هذا الذي اقترحتموه ممّا يحق عنده تنزيل الملائكة.

---

(١) «جامع البيان» (١٤/ ١٥)، و«الوسيط» للواحدي (٣/ ٤٠).
(٢) «المغني» (١/ ٢٧٦)، و«معاني القرآن» للنحاس (٤/ ١٠)، و«روح المعاني» (١٣/ ٤٠١).
(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٢/ ١٧٨).
(٤) انظر: «معاني القرآن» للنحاس (٤/ ١٠)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ١٧٨).
(٥) في «معاني القرآن» للنحاس (٤/ ١٠).
(٦) «النشر» (٢/ ٣٠١)، و«التيسير» (ص١٣٥)، و«البحر المحيط» (٦/ ٤٦٧)، و«التبيان» (٢/ ٧٧٧)، و«روح المعاني» (١٣/ ٤٠٢).

وقُرئ «نُنْزِل» مخففاً[١] من الإنزال؛ أي: ما ننزل نحن الملائكة إلّا بالحق.

وقرئ «ما تَنزّل» بالمثناة[٢] من فوق مضارعاً مثقلاً مبنيّاً للفاعل من التنزيل بحذف إحدى التاءين؛ أي: تتنزل، وقُرئ أيضاً بالفوقية مضارعاً مبنياً للمفعول.

وقيل: معنى ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾: إلّا بالقرآن، وقيل: بالرسالة، وقيل: بالعذاب ﴿وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ في الكلام حذف، والتقدير: ولو نزلنا الملائكة لعُوجلوا بالعقوبة وما كانوا إذاً منظرين.

فالجملة المذكورة جزاء للجملة الشرطية المحذوفة.

[القرآن باق محفوظ لا يندثر ولا يتبدل، ولا يلتبس بالباطل ولا يمسه التحريف]

ثم أنكر على الكفار استهزاءهم برسول الله ﷺ بقولهم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ فقال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ أي: نحنُ نزلنا ذلك الذكر الذي أنكروه، ونسبوك بسببه إلى الجنون ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ عَنْ كل ما لا يليق به من تصحيف وتحريف، وزيادة ونقص ونحو ذلك. وفيه وعيد شديد للمكذبين به المستهزئين برسول الله ﷺ.

وقيل: الضمير[٣] في (له) لرسول الله ﷺ، والأول أولى بالمقام. [٣/١٢٧] ثم ذكر سبحانه إنّ عادة أمثال هؤلاء الكفار مع أنبيائهم كذلك تسلية لرسول الله ﷺ، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ أي: رسلاً، وحُذِف لدلالة الإرسال عليه؛ أي: رسلاً كائنة مِنْ قبلك ﴿فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ في أُممهم وأتباعهم وسائر فرقهم وطوائفهم.

قال الفراء[٤]: الشيع: الأمة التابعة بعضُهم بعضاً فيما يجتمعون عليه، وأصله مِنْ شاعه إذا تبعه، وإضافته إلى ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ من إضافة الصفة[٥] إلى الموصوف عند

---

(١) «البحر المحيط» (٦/٤٦٧)، و«النشر» (٢/٣٠١)، و«روح المعاني» (١٣/٤٠٢). قرأ (ما نُنزّل) بالنون مبنياً للفاعل، مشدداً أهل الكوفة عدا أبي بكر فقد قرأ (تُنزّل) بضم التاء مبنياً للمجهول مشدداً والباقون (تَنزّل) بفتح التاء وتشديدها مبني للمعلوم وأما (نُنزل) مضارعاً مخففاً فشاذ.

(٢) «التيسير» (ص١٣٥)، و«البحر المحيط» (٦/٤٦٧)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/١٧٩).

(٣) «الفريد» (٣/١٨٨ ـ ١٨٩)، و«معاني القرآن» للفراء (٢/٨٥).

(٤) في «معاني القرآن» للفراء (٢/٨٥).

(٥) «روح المعاني» (١٣/٤١١)، و«البحر المحيط» (٦/٤٦٨).

بعض النحاة، أو من حذف الموصوف عند آخرين منهم ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: ما يأتي رسول مِنْ الرسل شيعتَه إلّا كانوا به يستهزءون كما يفعله هؤلاء الكفّار مع محمد ﷺ.

وجُمْلة ﴿إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ في محلِّ نصب[1] على الحال، أو في محل رفع على أنّها صفة ﴿رَّسُولٍ﴾، أو في محل جر على أنها صفة له على اللفظ لا على المحل ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: مثل ذلك الذي سلكناه في قلوب أولئك المستهزئين برسلهم ﴿نَسْلُكُهُۥ﴾ أي: الذكر ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، فالإشارة إلى ما دلّ عليه الكلام السابق مِنْ إلقاء الوحي مقروناً بالاستهزاء، والسَّلْكُ إدخالُ الشيء في الشيء كالخيط في المِخْيَط.

قاله الزجّاج[2]، قال[3]: والمعنى: كما فعل بالمجرمين الذين استهزءوا نسلك الضلال في قلوب المجرمين، وجملة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ في محل نصب على الحال من ضمير ﴿نَسْلُكُهُۥ﴾ أي: لا يؤمنون بالذكر الذي أنزلناه، ويجوز أن تكون مستأنفة لبيان ما قبلها فلا محل لها، وقيل: إنّ الضمير[4] في نسلكه للاستهزاء، وفي: لا يؤمنون به للذكر، وهو بعيد، والأولى أن الضميرين للذكر ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: مضتْ طريقتُهم التي سَنَّها الله في إهلاكهم، حيث فعلوا ما فعلوا من التكذيب والاستهزاء.

وقال الزجاج[5]: وقد مضت سُنَّة الله في الأوّلين بأنْ سلكَ الكفرَ والضلال في قلوبهم.

ثم حكى الله سبحانه إصرارهم على الكفر، وتصميمهم على التكذيب والاستهزاء، فقال: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم﴾ أي: على هؤلاء المعاندين لمحمد ﷺ المكذبين له المستهزئين به ﴿بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: مِنْ أبوابها المعهودة، ومكناهم من

---

(١) «التبيان» (٢/ ٧٧٧)، و«الفريد» (٣/ ١٨٩)، و«روح المعاني» (١٣/ ٤١١).
(٢) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ١٧٤).
(٣) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ١٧٤).
(٤) «روح المعاني» (١٣/ ٤١٦ ـ ٤١٧)، و«التبيان» (٢/ ٧٧٧).
(٥) في «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٣/ ١٧٤).

الصعود إليه ﴿فَظَلُّوا۟ فِيهِ﴾ أي: في ذلك الباب ﴿يَعۡرُجُونَ﴾ يَصْعدون بآلة أو بغير آلة حتى يشاهدوا ما في السماء مِنْ عجائب الملَكوت التي لا يجحدها جاحد، ولا يعاند عند مشاهدتها مُعاند؛ وقيل: الضمير[١] في فظلوا للملائكة؛ أي: فظل الملائكة يَعرُجون في ذلك الباب، والكفار يشاهدونهم وينظرون صعودهم من ذلك الباب ﴿لَقَالُوٓا۟﴾ أي: الكفار لفَرْط عنادهم، وزيادة عتوّهم ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَـٰرُنَا﴾ قرأ ابن كثير «سُكِرتْ» بالتخفيف[٢].

وقرأ الباقون[٣] بالتشديد، وهو من سُكر الشراب، أو من السكر، وهو سدّها عَنْ الإحساس، يقال: سَكَّر النهرَ إذا سدّه وحبسه عَنْ الجري. ورجح الثاني بقراءة التخفيف، وقال أبو عمرو بن العلاء[٤]: سُكّرت: غُشِّيتْ وغُطِّيت، ومنه قول الشاعر:

وطلعَت شمسٌ عليها مِغفرٌ   وجعلَت عين الجزور تَسْكرُ[٥]

وبه قال أبو عُبيد، وأبو عبيدة، وروي عن أبي عمرو أيضاً أنه من سُكْر الشراب؛ أي: غشيهم ما غطى أبصارَهم كما غشي السكران ما غطى عقلَه.

وقيل: معنى سكرت: حُبِستْ كما تقدم، ومنه قول أوس بن حِجْر[٦]:

فصِرْتُ على ليلةٍ ساهره   فليسَتْ بطَلْق ولا ساكره

قال النحاس[٧]: وهذه الأقوال متقاربة

﴿بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٌ مَّسۡحُورُونَ﴾ أضربوا عن قولهم: ﴿سُكِّرَتۡ أَبۡصَـٰرُنَا﴾، ثم ادّعوا أنهم مَسْحورون؛ أي: سحرهم محمد ﷺ، وفي هذا بيان لعنادهم العظيم الذي لا يقلعهم عَنْه شيء مِنْ الأشياء كائناً ما كان، فإنّهم إذا رأوا آية تُوجب عليهم الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله نسبوا إلى أبصارهم أنّ إدراكها غير حقيقي لعارض السُّكْر، أو

---

(١) «روح المعاني» (١٣/٤١٦ ـ ٤١٧)، و«التبيان» (٢/٧٧٨).
(٢) «النشر» (٢/٣٠١)، و«البحر المحيط» (٦/ ٤٧٠)، و«روح المعاني» (١٣/٤١٨)، و«جامع البيان» (١٤/ ٢٥)، و«التبيان» (٢/٧٧٨).
(٣) انظر: المصادر في التعليقة المتقدمة.
(٤) ذكره ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢٦).
(٥) نسبه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢٩) إلى المثنى بن جَندل الطُّهويُّ.
(٦) انظر: «ديوان أوس بن حِجْر» (ص٣٤).
(٧) في «معاني القرآن» للنحاس (٤/ ١٤).

أَنَّ عقولهم قد سُحرتْ فصار إدراكهم غير صحيح، ومَنْ بلغ في التعنت إلى هذا الحدّ فلا تنفع فيه موعظة، ولا يهتدي بآية.

وقد أخرج ابنُ جرير عن مجاهد[١] في قوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ قال: التوراة والإنجيل.

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم في ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ قال[٢]: الكتب التي كانت قبل القرآن ﴿وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ قال: مبينٌ واللهِ، هُداه ورُشْده وخيرُه.

وأخرج ابن أبي حاتم[٣] عن ابن عباس، وابن مسعود، وناس من أصحاب النبي ﷺ في قوله: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ قال: ودّ المشركون يوم بدر حين ضُربت أعناقهم فعرضوا على النار، أَنّهم كانوا مؤمنين بمُحمدٍ ﷺ.

وأخرج ابنُ جرير عَنْ ابن مسعودٍ[٤] في الآية قال: هذا في الجهنميين، إذا رأوهم يخرجون من النار.

وأخرج سعيد بن منصور، وهَنّاد بن السريّ في «الزهد»، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، والبيهقي في «البعث والنشور» عن ابن عباس[٥] قال: ما يزال الله يُشَفِّع ويُدخل ويُشفِّع ويرحَم حتى يقول: مَنْ كان مسلماً فليدخل الجنّة، فذلك قوله: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾.

وأخرج ابن المبارك في «الزهد»، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في «البعث» عن ابن عباس[٦] وأنس أنهما تذاكرا هذه الآية ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٥) من طريق سفيان، به.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٦)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١٣/ ٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٠٩٩) بسند صحيح.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٨٥٥) بسند ضعيف.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٩)، والبيهقي في «البعث والنشور» رقم (٨٦) بسند صحيح.

(٥) أخرجه هنّاد في «الزهد» رقم (١٩٠)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٩، ١٠)، والحاكم (٢/ ٣٥٢)، والبيهقي في «البعث والنشور» رقم (٨١) من طريق عطاء بن السائب، به.

(٦) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» رقم (١٦٠٢)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٨، ٩)، =

كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾ فقالا: هذا حيثُ يجمع الله مِنْ أهل الخطايا من المسلمين والمشركين في النار، فيقول المشركون: ما أغنى عنكم ما كنتم تعبدون، فيغضب الله لهم فيُخرجُهم بفضله ورحمته.

وأخرج الطبراني في «الأوسط»، وابنُ مردويه بسند، قال السيوطي: صحيح[(١)] عَنْ جابر[(٢)] بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ ناساً مِنْ أمتي يُعَذَّبون بذنوبهم فيكونون في النّار ما شاء الله أَنْ يكونوا، ثُمّ يُعيّرهم أهلُ الشرك فيقولون: ما نرى ما كنتم فيه مِنْ تصديقكم نفعكم، فلا يبقى موحِّد إلّا أخرجه الله من النار، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾».

وأخرج ابنُ أبي عاصم في «السُنَّة»، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي عن أبي موسى الأشعري[(٣)] مرفوعاً نحوه.

وأخرج إسحاق بن راهويه، وابن حبَّان، والطبراني، وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري[(٤)] مرفوعاً نحوه أيضاً.

وأخرج هنّاد بن السريّ، والطبراني في «الأوسط»، وأبو نعيم عن أنس[(٥)] مرفوعاً نحوه أيضاً.

وفي الباب أَحاديث في تَعيين هذا السبب في نزول هذه الآية.

وأخرج ابن أبي حاتم[(٦)] عن ابن زيد في قوله: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ﴾ الآية قال: هؤلاء الكفرة.

= والبيهقي في «البعث والنشور» رقم (٨٢) بسند حسن لغيره.

(١) في «الدر المنثور» (٥/ ٦٢).

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» رقم (٥١٤٦).

(٣) أخرجه ابن أبي عاصم في «السُنَّة» رقم (٨٤٣)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٨)، والحاكم (٢/ ٢٤٢)، والبيهقي في «البعث والنشور» رقم (٨٥). وهو حديث صحيح.

(٤) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» رقم (٧٤٣٢)، والطبراني في «الأوسط» رقم (٨١١٠). وهو حديث صحيح.

(٥) أخرجه الطبراني في «الأوسط» رقم (٧٢٩٣)، وأبو نعيم (١٠/ ٢١٧، ٢١٨). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٣٨٠): «وفيه من لم أعرفهم».

(٦) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٥٧).

وأخرج[١] أيضاً عن أبي مالك في قوله: ﴿ذَرْهُمْ﴾ قال: خلّ عنهم.

وأخرج ابنُ جرير عَنْ الزهري[٢] في قوله: ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ قال: نرى أنّه إذا حضره أجلُه، فإنّه لا يؤخر ساعة ولا يقدّم، وأما ما لم يحضر أجلُه فإنّ الله يؤخر ما شاء ويقدّم ما شاء. قلتُ: وكلام الزهري هذا لا حاصل له ولا مفاد فيه.

وأخرج ابنُ جرير[٣] عن الضحاك في قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ قال: القرآن.

وأخرج ابنُ أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد[٤] في قوله: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ قال: بالرسالة والعذاب.

وأخرج ابن أبي حاتم[٥] عن السديّ في قوله: ﴿وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ قال: وما كانوا لو نزلت الملائكة بمنظرين مِنْ أن يُعذّبوا.

وأخرج ابنُ أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد[٦] ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ قال: عندنا.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[٧] في قوله: ﴿فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ قال: أُمم الأوّلين.

وأخرج ابن أبي حاتم[٨] عن أنس في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ قال: الشرك نسلكه في قلوب المشركين.

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة[٩] مثله.

---

(١) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٥٧).
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ١٤ ـ ١٥) بسند صحيح.
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ١٦) بسند ضعيف.
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ١٧ ـ ١٨) بسند صحيح.
(٥) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٥٨).
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ١٨) بسند صحيح.
(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢٠) بسند صحيح.
(٨) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٥٨).
(٩) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢١)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٤٥) بسند صحيح.

وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر عن الحسن[١] مثله أيضاً.

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة[٢] ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ قال: وقائعُ الله فيمن خَلا مِنْ الأمم.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن جريج[٣] في قوله: ﴿فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ قال ابن جريج: قال ابن عباس: فظلت الملائكة تَعرُج فنظروا إليهم لقالوا: ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾ قال: قريش تقولُه.

وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، [٣/١٢٨] وابن أبي حاتم في الآية عن ابن عباس[٤] أيضاً يقول: ولو فتحنا عليهم باباً مِنْ أبواب السماء فظلت الملائكة تعرُج فيه، يختلفون فيه ذاهبين وجائين، لقال أهل الشرك: إنما أُخِذ أبصارنا وشُبّه علينا، وإنما سُحرنا.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد[٥] ﴿سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾ قال: سدّت.

وأخرج ابن جرير عن قتادة[٦] نحوه قال: ومن قرأ «سكرت» مخففة، فإنه يعني: سحرت.

[من مظاهر قدرته وآثار نعمته]:

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢١)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٤٥، ٣٤٦) بسند صحيح.
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢٢) بسند صحيح.
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢٣ ـ ٢٤) بسند ضعيف.
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢٣)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٤٦) بسند ضعيف.
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢٦) بسند صحيح.
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢٨) بسند صحيح.

[الآيات الكونية في السماء]:

لما ذكر سبحانه كفر الكافرين وعجزهم وعجز أصنامهم، ذكر قدرته الباهرة، وخلقَه البديع ليستدل بذلك على وحدانيته، فقال: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ الجَعْل إنْ كان بمعنى الخَلْق، فـ(في السماء) متعلِّق به، وإن كان بمعنى التصيير فـ(في السماء) خبرُه، والبروج في اللغة: القصورُ والمنازل.

والمراد بها هنا: منازلُ الشمس والقمرُ والنجوم السيارة، وهي الاثنا عشر المشهورة كما تدل على ذلك التجربة، والعرب تعدّ المعرفة بمواقع النجوم ومنازلها مِنْ أجلِّ العلوم، ويستدلون بها على الطرقات والأوقات والخصب والجدب، وقالوا: الفَلَك اثنا عشر بُرْجاً.

وأسماء[(١)] هذه البروج: الحمل، الثور، الجوزاء، السرطان، الأسد، السُّنبلة، الميزان، العقرب، القوس، الجَدْي، الدلو، الحوت. كل ثلاثة منها على طبيعة عنصر من العناصر الأربعة (عند) المشتغلين بهذا العلم، ويُسمّون الحمل والأسد والقوس مثلثة نارية، والثور والسنبلة والجدي مثلثة أرضية، والجوزاء والميزان والدلو مثلثة هوائية، والسرطان والعقرب والحوت مثلثة مائية. وأصل البروج[(٢)]: الظهور، ومنه: تَبرّج المرأة: بإظهار زينتها.

وقال الحسن وقتادة[(٣)]. البروج: النجوم، وسُمّيت[(٤)] بذلك لظهورها وارتفاعها؛ وقيل: السبعة السيارة منها قاله أبو صالح؛ وقيل: هي قصور وبيوت في السماء فيها حَرَس.

والضمير في ﴿وَزَيَّنَّـٰهَا﴾ راجع إلى السماء؛ أي: وزيّنا السماء بالشمس والقمر والنجوم والبروج للناظرين إليها، أو للمتفكرين المعتبرين المستدلين إذا كان من النظر، وهو الاستدلال ﴿وَحَفِظْنَـٰهَا﴾ أي: السماء ﴿مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ قال أبو عُبيدة[(٥)]: الرجيم: المرجوم بالنجوم، كما في قوله: ﴿رُجُومًا لِّلشَّيَـٰطِينِ﴾ [الملك: ٥]

---

(١) انظر: «الأزمنة والأمكنة» للمرزوقي (١/ ١٦١).
(٢) «زاد المسير» (٤/ ٣٨٧).
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٣١) بسند صحيح.
(٤) «زاد المسير» (٤/ ٣٨٧)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ١٨٧).
(٥) في «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (١/ ٣٤٨).

والرجْم في اللغة[(١)] هو: الرمْيُّ بالحجارة، ثم قيل للّعن والطرد والإبعاد: رجم؛ لأن الرامي بالحجارة يوجب هذه المعاني ﴿إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ﴾ استثناء[(٢)] متصل؛ أي: إلّا ممن استرق السمع، ويجوز أنْ يكون منقطعاً؛ أي: ولكن من استرق السمع ﴿فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ مُّبِينٞ﴾.

والمعنى: حفظنا السماء مِنْ الشياطين أَنْ تسمع شيئاً من الوحي وغيره إلّا من استرق السمع فإنّها تتبعه الشهبُ فتقتله أو تَخْبله، ومعنى ﴿فَأَتۡبَعَهُۥ﴾: تبعه ولحقه أو أدركه.

والشهاب: الكوكب أو النّار المشتعلة الساطعة كما في قوله: ﴿بِشِهَابٖ قَبَسٖ﴾ [النمل: ٧] قال ذو الرُّمة[(٣)]:

كـأنّـه كـوكـبٌ فـي إثْـرِ عِـفْـرِيَـةٍ

وسُمي الكوكب شهاباً لبريقه شِبْه النار، والمُبين: الظاهر للمبصرين يرونه لا يلتبس عليهم.

قال القرطبي[(٤)]: واختلف في الشهاب هل يقتل أم لا؟ فقال ابن عباس: الشهاب يَجْرح ويحرق ويَخْبِل ولا يقتل.

وقال الحسن وطائفة: يقتل. فعلى هذا القول في قتلهم بالشهب قبل إلقاء السمع إلى الجنّ قولان[(٥)]:

أحدهما: أنّهم يقتلون قبل إلقائهم ما استرقوه مِنْ السمع إلى غيرهم فلا تصل أخبار السماء إلى غير الأنبياء، ولذلك انقطعت الكهانة.

والثاني: أنّهم يقتلون بعد إلقائهم ما استرقوه مِنْ السمع إلى غيرهم من الجنّ.

قال: ذكره الماوردي[(٦)]، ثم قال: والقول الأوّل أصح.

قال[(٧)]: واختلف هل كان رميٌّ بالشهب قبل المبعث؟ فقال الأكثرون: نعم، وقيل: لا وإنما ذلك بعد المبعث.

---

(١) «الصحاح» (١٩٢٨/٥).
(٢) «التبيان» (٧٧٨/٢)، و«الفريد» (١٩١/٣).
(٣) انظر: «ديوانه» (١١١/١).
(٤) في «تفسيره» (١٨٩/١٢).
(٥) في «الجامع لأحكام القرآن» (١٨٩/١٢).
(٦) في «النكت والعيون» (١٥٣/٣).
(٧) القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (١٩٠/١٢).

[الآيات الكونية في الأرض]:

قال الزجّاج[1]: والرميُ بالشُّهُب مِنْ آيات النبي ﷺ مما حدث بعد مولده؛ لأنّ الشعراء في القديم لم يذكروه في أشعارهم. قال كثير من أهل العلم[2]: نحن نرى انقضاض الكواكب، فيجوز أَنْ يكون ذلك كما نرى. ثم يصير ناراً إذا أدرك الشيطان، ويجوز أَنْ يقال: يُرمون بشعلة من نار الهواء فيخيل إلينا أنه نجم يَسْري ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ أي: بسطناها وفرشناها كما في قوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠]، وفي قوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٨] وفيه ردّ على مَنْ زعم أنها كالكرة ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ أي: جبال ثابتة لئلا تحرك بأهلها، وقد تقدم بيان ذلك في سورة الرعد. ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ أي: أنبتنا في الأرض مِنْ كل شيء مقدّر معلوم، فعبّر عن ذلك بالوزن؛ لأنه مقدار تُعرف به الأشياء ومِنْه قول الشاعر:

قد كنْتُ قبل لقائِكم ذا مِرّةٍ ... عندي لكل مخاصمٍ ميزانهُ[3]

وقيل: معنى موزون: مَقْسوم؛ وقيل: معدود، والمقصود مِنْ الإثبات: الإنشاء والإيجاد؛ وقيل: الضمير راجع إلى الجبال؛ أي: أنبتنا في الجبال من كلِّ شيء موزون مِنْ الذهب والفضة والنحاس والرصاص ونحو ذلك.

وقيل: موزون بميزان الحكمة، ومُقدّر بقدر الحاجة، وقيل: الموزون هو المحكوم بحسنه كما يُقال كلام موزون؛ أي: حَسنٌ. ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ تعيشون بها مِنْ المطاعم والمشارب جمع معيشة، وقيل: هي الملابس؛ وقيل: هي التصرف في أسباب الرزق مدّة الحياة.

قال الماوردي[4]: وهو الظاهر. قلتُ: بل القول الأوّل أظهر، ومنه قول جرير[5]:

تكلِّفُني معيشةُ آلِ زيدٍ ... ومَنْ لي بالمرققِ والصِّنابِ

---

(١) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ١٧٦).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ١٩٠)، و«جامع البيان» (١٤/ ٣١ ـ ٣٢)، و«المحرر الوجيز» (١/ ١١٧).

(٣) انظره في: «جامع البيان» (١٤/ ٥٩٤)، و«النكت والعيون» (٣/ ١٥٤).

(٤) في «النكت والعيون» (٣/ ١٥٣ ـ ١٥٤).

(٥) انظر: «ديوان جرير» (٢/ ٨١٢ ـ تذييل) و«الضِّباب» بالضاد المعجمة.

﴿وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ معطوف على معايش؛ أي: وجعلنا لكم فيها مَنْ لستم له برازقين، وهم المماليك والخدم والأولادُ الذين رازقهم في الحقيقة هو الله، وإن ظنّ بعضُ العباد أنَّه الرازق لهم باعتبار استقلاله بالكسْب، ويجوز أن يكون معطوفاً على محل[1] ﴿لَكُمۡ﴾ أي: جعلنا لكم فيها معايش وجعلنا لمن لستم له برازقين فيها معايش، وهم مَنْ تقدّم ذكره، ويدخل في ذلك الدواب على اختلاف أجناسها، ولا يجوز[2] العطف على الضمير المجرور في ﴿لَكُمۡ﴾؛ لأنه لا يجوز عند الأكثر إلّا بإعادة الجارّ.

وقيل: أراد الوحش ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ «إنْ» هي النافية و«مِنْ» مزيدة للتأكيد، وهذا التركيب عام لوقوع النكرة في حيز النفي مع زيادة «من»، ومع لفظ ﴿شَيۡءٍ﴾ المتناول لكلِّ الموجودات الصادق على كل فردٍ منها، فأفاد ذلك أن جميع الأشياء عند الله خزائنُها لا يخرج مِنْها شيء، والخزائن جمع خزانة: وهي المكان الذي يُحفظ فيه نفائس الأمور، وذكرُ الخزائن تمثيل لاقتداره على كلِّ مقدور؛ والمعنى: أن كل الممكنات مقدورة، ومملوكة يخرجها مِنْ العدم إلى الوجود بمقدار كيف شاء.

وقال جمهور المفسرين[3]: إن المراد بما في هذه الآية: هو المطر؛ لأنه سبب الأرزاق والمعايش؛ وقيل: الخزائن: المفاتيح؛ أي: ما مِنْ شيء إلا عندنا في السماء مفاتيحه، والأولى ما ذكرناه مِنْ العموم لكل موجود؛ بل قد يصدق الشيء على المعدوم على الخلاف المعروف في ذلك ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعۡلُومٍ﴾؛ أي: ما ننزله مِنْ السماء إلى الأرض أو نوجده للعباد إلّا بقدر معلوم، والقدر المقدار.

والمعنى: أن الله سبحانه لا يوجد للعباد شيئاً مِنْ تلك الأشياء المذكورة إلّا متلبساً ذلك الإيجاد بمقدار معين، حسبما تقتضيه مشيئته على مقدار حاجة العباد إليه، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٢٧].

وقد فُسّر الإنزال بالإعطاء[4]، وفُسر بالإنشاء، وفسر بالإيجاد، والمعنى متقارب، وجملة ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ﴾ معطوفة على مقدّر؛ أي: وإن من شيء إلّا عندنا

---

(١) «الفريد» (٣/ ١٩٢)، و«التبيان» (٢/ ٧٧٩).
(٢) «روح المعاني» (١٣/ ٤٣٧)، و«التبيان» (٢/ ٧٧٩).
(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ١٩٣)، و«جامع البيان» (١٤/ ٣٧)، و«روح المعاني» (١٣/ ٤٣٦).
(٤) انظر هذه الأقوال في: «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ١٩٤)، و«معالم التنزيل» (٣/ ٤٧).

خزائنه ننزّله وما ننزله، أو في محلّ نصبٍ[١] على الحال ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ معطوف على ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ وما بينهما اعتراض.

قرأ حمزة «الريح» بالتوحيد[٢]. وقرأ مَنْ عداه ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾ بالجمع[٣]، وعلى قراءة حمزة فتكون اللّام في الريح للجنس.

قال الأَزْهري[٤]: وجعل الرياح لواقح لأنَّها تحمل السحاب؛ أي: تقلّه وتُصرفه، [٣/١٢٩] ثم تمرّ به فتنزله. قال الله سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ [الأعراف: ٧]؛ أي: حَمَلتْ. وناقة لاقح: إذا حَملت الجنين في بطنها، وبه قال الفراء[٥] وابن قتيبة[٦]، وقيل: ﴿لَوَٰقِحَ﴾ بمعنى: مُلْقِحة.

قال ابن الأنباري[٧]: تقول العرب: أبقل النبت فهو باقل؛ أي: مُبْقِل؛ والمعنى: أَنّها تلقّح الشجر؛ أي: بقوّتها؛ وقيل: معنى ﴿لَوَٰقِحَ﴾: ذوات لقح.

قال الزجّاج[٨]: معناه: وذات لقحة؛ لأنَّها تعصر السحاب وتدرّه كما تدرّ اللقحة، يقال: رامح؛ أي: ذُو رمح، ولابنٍ؛ أي: ذو لبن، وتامرٍ؛ أي: ذو تمر.

قال أبو عُبيدة[٩]: لواقح بمعنى: ملاقح، ذهب إلى أنها جمع مُلْقِحة. وفي هذه الآية تشبيه الرياح التي تحمل الماء بالحامل، ولقاح الشجر بلقاح الحمل ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [المؤمنون: ١٨، الفرقان: ٤٨، لقمان: ١٠] أي: مِنْ السحاب وكل ما علاك فأظلك فهو سماء، وقيل: مِنْ جهة السماء، والمراد بالماء هنا: ماء المطر ﴿فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾ أي: جعلنا ذلك المطر لسقياكم ولشرب مواشيكم وأرضكم.

قال أبو عليّ[١٠]: يقال: سقيتُه الماء: إذا أعطيته قدر ما يروي؛ وأسقيته نهراً أي: جعلته شرباً له، وعلى هذا فأسقيناكموه أبلغ مِنْ سقيناكموه؛ وقيل: سقى

---

(١) «روح المعاني» (١٣/ ٤٣٩).

(٢) «البحر المحيط» (٦/ ٤٧٤)، و«النشر» (٢/ ٢٢٣)، و«التبيان» (٢/ ٧٨٠)، و«التيسير» (ص١٣٦)، و«جامع البيان» (١٤/ ١٤)، و«مشكل إعراب القرآن» (٢/ ٧). وهما قراءتان متواترتان، ومع حمزة خلف.

(٣) انظر: المصادر المتقدمة.

(٤) في «تهذيب اللغة» (٣/ ٣٥٦).

(٥) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٨٧).

(٦) في «تفسير غريب القرآن» (ص٢٣٦).

(٧) انظر: «البيان» (٢/ ٦٧).

(٨) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ١٧٧).

(٩) في «مجاز القرآن» له (١/ ٣٤٨).

(١٠) انظر: «البحر المحيط» (٦/ ٤٧٤)، و«روح المعاني» (١٣/ ٤٤٢).

وأسقى بمعنى واحد ﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾؛ أي: ليستْ خزائنه عندكم؛ بل خزائنه عندنا، ونحن الخازنون له، فنفى عنهم سبحانه ما أثبته لنفسه في قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ وقيل: المعنى: إنْ ما أنتم له بخازنين بعد أن أنزلناه عليكم؛ أي: لا تقدرون على حفظه في الآبار والغُدران والعيون؛ بل نحن الحافظون له فيها ليكون ذخيرةً لكم عند الحاجة إليه.

[الآيات الكونية في الحياة والموت]

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾ أي: نُوجد الحياة في المخلوقات، ونَسْلبها عنها متى شئنا، والغرض مِنْ ذلك الاستدلال بهذه الأمور على كمال قدرته ﷻ، وأنه القادر على البعث والنشور والجزاء لعباده على حسب ما يستحقونه وتقتضيه مشيئته، ولهذا قال: ﴿وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾؛ أي: للأرض ومَنْ عليها؛ لأنه سبحانه الباقي بعد فناء خلقه، الحيّ الذي لا يموت، الدائم الذي لا ينقطع وجوده ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٨٠]، ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ﴾ هذه اللّام هي الموطئة للقسَم، وهكذا اللام في ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾.

والمراد: مَنْ تقدّم ولادةً وموتاً(١)، ومَنْ تأخر فيهما؛ وقيل(٢): من تقدّم طاعة ومَنْ تأخر فيها؛ وقيل: مَنْ تقدّم في صف القتال ومن تأخر؛ وقيل: المراد بالمستقدمين: الأموات، وبالمستأخرين: الأحياء؛ وقيل: المستقدمين هم الأمم المتقدّمون على أمة محمد، والمستأخرون هم أمة محمد؛ وقيل: المستقدمون: من قُتل في الجهاد، والمستأخرون: مَنْ لم يقتل.

[آيات البعث والحشر]

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ أي: هو المتولِّي لذلك القادر عليه دون غيره كما يفيده ضمير الفصل مِنْ الحصر. وفيه أنّه سبحانه يجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته؛ لأنه الأمر المقصود من الحشر ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ﴾ يجري الأمور(٣) على ما تقتضيه حكمته البالغة ﴿عَلِيمٌ﴾ أحاط علمه(٤) بجميع الأشياء لا يخفى عليه شيء منها، ومن

---

(١) «روح المعاني» (١٣/ ٤٤٤).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٢٠٠ ـ ٢٠١)، و«جامع البيان» (١٤/ ٤٨).

(٣) انظر: «النونية» لابن القيم (٢/ ٧٥).

(٤) انظر: «شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري» للشيخ عبد الله الغنيمان (١/ ١٠٣).

كان كذلك فله القُدرة البالغةُ على كلّ شيء مما وسعه علمه، وجرى فيه حكمه سبحانه لا إلٰه إلا هو.

وقد أخرج ابنُ أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد[(١)] في قوله: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ قال: كواكب.

وأخرج ابنُ جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة[(٢)] مثله.

وأخرج ابن أبي حاتم[(٣)] عن أبي صالح قال: الكواكب العظام.

وأخرج[(٤)] أيضاً عن عطية قال: قصوراً في السماء فيها الحرس.

وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة[(٥)] قال: الرجيم: الملعون.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[(٦)] في قوله: ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾ أراد أن يخطف السمعَ كقوله: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾ [الصافات: ١٠].

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن الضحاك[(٧)] قال: كان ابن عباس يقول: «إن الشُّهُب لا تَقْتل، ولكن تُحْرِق وتَخْبِل وتَجْرح مِنْ غير أن تقتل».

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه[(٨)] في قوله: ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ قال: معلوم.

وأخرج ابن أبي حاتم[(٩)] عنه أيضاً ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ قال: بقَدَرٍ.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن زيد[(١٠)] قال: الأشياء التي توزن.

وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عكرمة[(١١)] قال: ما أنبتت الجبال مثل الكُحْل وشَبَهِه.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٣١) بسند صحيح.
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٣١) بسند صحيح.
(٣) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٥٩).
(٤) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٥٩).
(٥) عزاه إليهم السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٦٩).
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٣٢) بسند ضعيف.
(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٣٣) بسند ضعيف.
(٨) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٣٤) بسند صحيح.
(٩) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٦٠).
(١٠) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٣٦ ـ ٣٧) بسند صحيح.
(١١) عزاه إليهم السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٧٠).

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد[١] في قوله: ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ قال: الدوابّ والأنعام.

وأخرج هؤلاء عن منصور[٢] قال: الوحش.

وأخرج البزار، وابن مردويه، وأبو الشيخ في «العظَمة» عن أبي هريرة[٣] قال: قال رسول الله ﷺ: «خزائنُ الله الكلامُ، فإذا أراد شيئاً قال له: كنْ فكان».

وأخرج ابن جرير[٤] عن ابن جريج في قوله: ﴿إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ قال: المطر خاصة.

وأخرج ابن المنذر[٥] عن مجاهد نحوه.

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[٦] قال: «ما نقصَ المطرُ منذ أنزله الله، ولكن تُمطر أرضٌ أكثر مما تُمطر أخرى ثم قرأ: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾.

وأخرج ابنُ جرير، وابن المنذر، وابن مردويه عن ابن مسعود[٧] قال: «ما من عام بأمطرَ من عام، ولكن الله يُصرّفه حيثُ يشاء، ثم قرأ ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾».

وأخرجه ابن مردويه[٨] عنه مرفوعاً.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني عن ابن مسعود[٩] في قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ قال: يرسل الله الريح فتحمل الماء فتُلقح به السحاب فتدرّ كما تدرّ اللِّقْحة ثم تمطر.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٣٧) بسند صحيح.
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٣٨) بسند صحيح.
(٣) أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» رقم (١٥٧) وهو ضعيف.
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٤٠) من طريق الحجاج، به.
(٥) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٧٠).
(٦) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٧١).
(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٤٠) بسند ضعيف، لضعف يزيد بن أبي زياد، به.
(٨) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٧١).
(٩) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٤٣)، والطبراني رقم (٩٠٨٠)، والبيهقي (٣/ ٣٦٤) بسند حسن.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في «العظمة» عن ابن عباس(١) نحوه.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن عبيد(٢) بن عمير قال: يبعث الله المُبشّرة فتُقمّ الأرض قَمّاً، ثم يبعث المُثيرة فتثير السحاب فتجعله كِسَفاً، ثم يبعث المؤلّفة فتؤلف بينه فيجعلُه ركاماً، ثم يبعث اللواقح فتُلقحه فتمطر.

وأخرج ابن أبي الدنيا، وابن جرير، وأبو الشيخ في «العظمة»، وابن مردويه، والديلمي بسندٍ ضعيف عن أبي هريرة(٣) قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «ريح الجنوب مِنْ الجنة، وهي الريح اللواقح التي ذكر الله في كتابه».

وأخرج الطيالسي، وسعيد بن منصور، وأحمد، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن خزيمة، وابن حبان، والطبراني، والحاكم وصحّحه عن ابن عباس(٤) قال: «كانت امرأة تُصلّي خلف رسول الله ﷺ حسناء مِنْ أحسن النساء، فكان بعضُ القوم يتقدّم حتى يكون في الصفّ الأول لئلا يراها، ويستأخر بعضُهم حتى يكون في الصف المؤخر، فإذا ركع نظر مِنْ تحت إبطيه، فأنزل الله ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾».

---

(١) أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» رقم (٧١٣) بسند موضوع فيه حبيب بن أبي ثابت، وهو ثقة لكنه كان يدلس وقد عنعنه، وفيه أسيد بن زيد الجمال. وهو علة هذا الحديث.
انظر: «الميزان» (١/ ٢٥٦)، و«التهذيب» (١/ ٣٤٤).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٤٥)، وأبو الشيخ في «العظمة» رقم (٧١٩) بسند ضعيف.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب «السَّحاب» رقم (١٣٧)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٤٦)، وأبو الشيخ في «العظمة» رقم (٨٠٤، ٨٠٥)، والديلمي في «مسند الفردوس» رقم (٣٠٨١). وهو حديث ضعيف. والله أعلم.
انظر: «السلسلة الضعيفة» رقم (٣٦٥٣).

(٤) أخرجه الطيالسي في «مسنده» رقم (٢٨٣٥)، وأحمد رقم (٢٧٨٣)، والترمذي رقم (٣١٢٢)، والنسائي رقم (٨٦٩)، وفي «الكبرى» رقم (١١٢٧٣)، وابن ماجه رقم (١٠٤٦)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٥٣، ٥٤)، وابن خزيمة رقم (١٦٩٦، ١٦٩٧)، وابن حبان رقم (٤٦)، والطبراني رقم (١٢٧٩١)، والحاكم (٢/ ٣٥٣)، والبيهقي (٣/ ٩٨) بسند ضعيف. ومتنه منكر.
وقال ابن كثير في «تفسيره» (٨/ ٢٥٤): وهذا الحديث فيه نكارة شديدة.

وهذا الحديث هو مِنْ رواية أبي الجوزاء عن ابن عباس.

وقد رواه عبد الرزاق[١]، وابن المنذر من قول أبي الجوزاء قال الترمذي[٢]: وهذا أشبه أَنْ يكون أصح. وقال ابن كثير[٣]: في هذا الحديث نكارةٌ شديدة.

وأخرج الحاكم، وابن مردويه عن ابن عباس[٤] في الآية قال: المستقدمين: الصفوف المقدّمة، والمستأخرين: الصفوف المؤخرة.

وقد وردت أحاديث كثيرة في أَنَّ خير صفوف الرجال أولها وشرّها آخرها، وخير صفوف النساء آخرها، وشرّها أوّلها.

وأخرج ابن أبي حاتم[٥] عن عطاء ومقاتل بن حبان: أن الآية في صفوف القتال.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن الحسن[٦] قال: المستقدمين: في طاعة الله، والمستأخرين: في معصية الله.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس[٧] قال: يعني بالمستقدمين: مَنْ مات، وبالمستأخرين: مَنْ هو حيّ لم يمت.

وأخرج هؤلاء عنه[٨] أيضاً قال: المستقدمين: آدم ومَنْ مضى من ذريته، والمستأخرين: في أصلاب الرجال.

وأخرج عبد الرزاق[٩]، وابن المنذر عن قتادة نحوه.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٤٨) بسند ضعيف.

(٢) بإثر الحديث رقم (٣١٢٢). (٣) في «تفسيره» (٨/ ٢٥٤).

(٤) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣٥٣).

(٥) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٦١).

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٥٢، ٥٣) بسند صحيح.

(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٥٠) بسند ضعيف.

(٨) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٤٩) بسند صحيح.

(٩) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٤٨)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٤٩ ـ ٥٠) بسند صحيح.

[قصة آدم وتكوينه وعلاقته بالملائكة والجنّ]

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ [٣/١٣٠] أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾.

المراد بالإنسان في قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ هو: آدم؛ لأنّه أصل هذا النوع، والصلصال قال أبو عبيدة[(١)]: هو: الطينُ المخلوط بالرمل الذي يتصلصل إذا حرّك، فإذا طبُخ في النّار فهو الفخّار. وهذا قول أكثر المفسرين[(٢)].

وقال الكسائي[(٣)]: هو الطين المُنْتن، مأخوذ مِنْ قول العرب: صلّ اللحم وأَصلَّ: إذا أنتن، مطبوخاً كان أو نيئاً. قال الحطيئة[(٤)]:

ذاك فتى يبذِلُ ذا قِدْره لا يُفسِدُ اللحمَ لديه الصُّلولُ

والحَمَأ: الطينُ الأسود المتغير. أو الطين الأسود مِنْ غير تقييد بالمتغير.

قال ابن السكيت[(٥)]: تقول منه: حَمَأْتُ البئرَ حَمْأً بالتسكين: إذا نزَعت حَمْأتها، وحَمِئتِ البئرُ حَمَأً بالتحريك: كَثُرتْ حَمْأتُها، وأحميتُها إحماءً: ألقيتُ فيها الحَمْأة.

---

(١) في «مجاز القرآن» (١/ ٤٥٠).

(٢) «جامع البيان» (١٤/ ٥٧)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٢٠٣ ـ ٢٠٤)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٩٧)، و«النكت والعيون» (٣/ ١٥٧).

(٣) انظر: «معالم التنزيل» (٣/ ٤٩).

(٤) انظر: «ديوان الحطيئة» (ص١٧٦).

(٥) في «إصلاح المنطق» (ص٢٥٥).

قال أبو عُبيدة[١]: الحَمْأةُ بسكونِ الميم مثل: الكَمْأة ـ يعني ـ بالتحريك، والجمع حَمْء مثل تَمْرة وتَمْر، والحَمَأُ المصدرُ: مثل الهَلَع والجَزَع، ثم سُمّي به.

والمسنون قال الفراء[٢]: هو المُتغيّر، وأصله مِنْ سَنَنْتُ الحجرَ على الحجر: إذا حَكَكْتَه، وما يخرج بين الحجرين يقال له: السنانة والسَّنِين، ومنه قول عبد الرحمٰن[٣] بن حسّان:

ثم حَاصرتُها إلى القُبةِ الحمراء تمشي في مَرْمرٍ مسنونِ

أي: محكوك، ويقال: أسنّ الماء إذا تغيّر، ومنه قوله: ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ [البقرة: ٢٥٩]، وقوله: ﴿مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ [محمد: ١٥] وكلا الاشتقاقين يدل على التغير؛ لأن ما يخرج بين الحجرين لا يكون إلّا مُنْتِناً.

وقال أبو عُبيدة[٤]: المسنون: المصبوب، وهو مِنْ قول العرب: سننت الماء على الوجه: إذا صببته، والسنّ: الصب.

وقال سيبويه[٥]: المسنون: المصوّر، مأخوذ مِنْ سنة الوجه، وهي صورته، ومنه قول ذي الرمة[٦]:

تريكَ سُنّةَ وجهٍ غيرَ مقرفةٍ ملساءَ ليس بها خالٌ ولا نَدَبُ

وقال الأخفش[٧]: المسنون المنصوب القائم، مِنْ قولهم: وجه مسنون إذا كان فيه طول.

والحاصل على هذه الأقوال: أنّ التراب لما بُلَّ صار طيناً، فلما أُنْتن صار حَمأً مسنوناً، فلما يبس صار صَلْصالاً. فأصل الصلصال: هو الحَمَأ المسنون، ولهذا وُصف بهما.

﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ الجانّ: أبو الجنّ عند جمهور المفسرين[٨].

---

(١) في «مجاز القرآن» (١/ ٣٥١). (٢) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٨٨).
(٣) انظر: «الشعر والشعراء» (١/ ٤٨٤ ـ ٤٨٥)، و«الكامل» للمبرد (١/ ٣٨٧).
(٤) في «مجاز القرآن» (١/ ٣٥١).
(٥) «البحر المحيط» (٦/ ٤٧٦)، و«الوسيط» للواحدي (٣/ ٤٤).
(٦) انظر: «ديوانه» (١/ ٢٩). (٧) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٢/ ٢٠٦).
(٨) «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٢٠٧)، و«جامع البيان» (١٤/ ٥٩ ـ ٦٠)، و«الوسيط» للواحدي (٣/ ٤٤ ـ ٤٥).

وقال عطاء والحسن وقتادة ومقاتل: هو إبليس. وسُمّي جاناً لتواريه عن الأعين. يقال: جنّ الشيء إذا ستره. فالجانّ: يستر نفسَه عَنْ أعين بني آدم، ومعنى ﴿مِن قَبۡلُ﴾: مِنْ قبل خلق آدم، والسَّمُوم: الريح الحادة النافذة في المسامّ، تكون بالنهار وقد تكون بالليل، كذا قال أبو عُبيدة[1]. وذكرُ خلق الإنسان والجانّ في هذا الموضع للدلالة على كمال القدرة الإلٰهية، وبيان أَنّ القادر على النشأة الأولى قادر على النشأة الأخرى.

﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ الظرف مَنْصوب بفعل مقدّر؛ أي: اذْكر، بيّنَ سبحانه بعد ذكره لخلق الإنسان ما وقع عند خلقه له، وقد تقدّم تفسير ذلك في البقرة، والبشر مأخوذ مِنْ البشرة، وهي ظاهر الجلد.

وقد تقدّم تفسير الصلصال والحمأ المسنون قريباً مستوفى.

﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ﴾ أَي: سويتُ خَلْقه وعدّلت صورتَه الإنسانيةو وكمّلتُ أجزاءَه ﴿وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ النفخ: إجراءُ الريح في تجاويف جسم آخر؛ فمَنْ قال: إن الروحَ جسمٌ لطيف كالهواء فمعناه ظاهر، ومَنْ قال: إنّه جوهر مجرد غير متحيز ولا حال في متحيز.

فمعنى النفخ عنده: تهيئة البدن لتعلّق النفس الناطقة به.

قال النيسابوري[2]: ولا خلافَ في أَنّ الإضافة في (روحي) للتشريف والتكريم، مثل «ناقة الله»، و«بيت الله». قال القرطبي[3]: والروح جسم لطيف، أجرى الله العادة بأَنْ يَخْلق الحياة في البدن مع ذلك الجسم.

وحقيقتُه إضافة خَلْق إلى خالقٍ، فالروح: خلق من خلقه أضافه إلى نفسه تشريفاً وتكريماً، قال[4]: ومثلُه ﴿وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ﴾ [النساء: ١٧١]. وقد تقدّم في النساء ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ الفاء تدلّ على أنّ سجودهم واجب عليهم عَقْب التسوية والنفخ مِنْ غير تراخٍ، وهو أمر بالوقوع من وقع يقع.

---

(١) في «مجاز القرآن» (١/ ٣٥١ ـ ٣٥٢).
(٢) نظام الدين الحسن بن محمد بن الحسن القُمّي النيسابوري في «غرائب القرآن ورغائب الفرقان» (١٤/ ١٨)، ط. البابي الحلبي.
(٣) في «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٢٠٨)، و«التذكرة» (ص١٢٤).
(٤) أي: القرطبي في «تفسيره» (١٢/ ٢٠٨).

[كان سجودهم لآدم سجود تحية وتكريم لا سجود عبادة]

وفيه دليلٌ على أَنّ المأمور به هو السجود لا مجرّد الانحناء كما قيل، وهذا السجود هو: سجود تحية وتكريم لا سجود عبادة، ولله أن يكرم مَنْ يشاء من مخلوقاته كيف يَشاء بما يشاء؛ وقيل: كانَ السجودُ لله تعالى، وكان آدم قبلة لهم ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ أخبر سبحانه بأن الملائكة سجدوا جميعاً عند أمر الله سبحانه لهم بذلك من غير تراخٍ، قال المبرِّد[١]: قولُه: ﴿كُلُّهُمْ﴾ أزال احتمال أن بعض الملائكة لم يسجد، وقوله: ﴿أَجْمَعُونَ﴾ توكيد بعد توكيد، ورجّح هذا الزجاج[٢].

قال النيسابوري[٣]: وذلك لأنّ أجمَع معرفةٌ فلا يقع حالاً، ولو صح أن يكون حالاً لكان منتصباً، ثم استثنى إبليس مِنْ الملائكة فقال: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ قيل: هذا الاستثناء متصل لكونه كان مِنْ جنس الملائكة ولكنه أبى ذلك استكباراً واستعظاماً لنفسه وحسداً لآدم فحقت عليه كلمة الله.

وقيل: إنّه لم يكن مِنْ الملائكة ولكنّه كان معهم فغلب اسم الملائكة عليه وأمر بما أمروا به، فكان الاستثناء[٤] بهذا الاعتبار متصلاً، وقيل: إنّ الاستثناء منفصلٌ بناءً على عدم كونه منهم، وعدم تغليبهم عليه؛ أي: ولكنْ إبليس أبى أن يكون مع الساجدين وقد تقدّم الكلام في هذا في سورة البقرة، وجملة ﴿أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ استئناف مبين لكيفية ما فُهم من الاستثناء من عدم السجود؛ لأنّ عدم السجود قد يكون مع التردّد، فبيّن سبحانه أنه كان على وجه الإِباء.

وجملة ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ مستأنفة أيضاً جواب سؤال مقدّر، كأنه قيل: فماذا قال الله سبحانه لإبليس بعد أن أبى السجود؟ وهذا الخطاب له ليس للتشريف والتكريم؛ بَلْ للتقريع[٥] والتوبيخ، والمعنى: أيُّ: غرض لك في الامتناع؟ وأيّ سبب حملك عليه على أنْ لا تكون مع الساجدين

---

(١) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (١٣/ ٤٦٩)، والواحدي في «الوسيط» (٣/ ٤٥).
(٢) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ١٧٩). (٣) في «الوسيط» (٣/ ٤٥).
(٤) «التبيان» (١/ ٥١)، و«الفريد» (٣/ ١٩٧)، و«روح المعاني» (١٣/ ٤٧٠ ـ ٤٧١).
(٥) «تفسير أبي السعود» (٤/ ٢٩٣)، و«روح المعاني» (١٣/ ٤٧٢).

لآدم مع الملائكة؟ وهم في الشرف وعلوّ المنزلة والقرب من الله بالمنزلة التي قد علمتها؟

وجملةُ ﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ مستأنفة كالتي قبلها، جعل العلّة لترك سجوده كون آدم بشراً مخلوقاً مِنْ صلصال من حمأ مسنون؛ زعماً منه أنّه مخلوق مِنْ عنصر أشرف من عنصر آدم، وفيه إشارة إجمالية في كونه خيراً منه.

وقد صرّح بذلك في موضع آخر، فقال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [صٓ: ٧٦].

وقال في موضع آخر: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١]. واللّام في (لأسجد)[1] لتأكيد النفي؛ أي: لا يصح ذلك مني، فأجابَ الله سبحانه عليه بقوله: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ والضمير في ﴿مِنْهَا﴾، قيل: عائد إلى الجنّة، وقيل: إلى السماء. وقيل: إلى زمرة الملائكة؛ أي: فاخرج مِنْ زمرة الملائكة.

﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ والضمير في ﴿مِنْهَا﴾ أي: مرجوم بالشُّهب؛ وقيل: معنى رجيم: ملعون؛ أي: مَطْرود لأنّ من يطرد يُرجم بالحجارة ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أي: عليك الطرد والإبعاد مِنْ رحمة الله سبحانه مستمراً عليك لازماً لك إلى يوم الجزاء، وهو يوم القيامة، وجعل يوم الدين غاية للعنة لا يستلزم انقطاعها في ذلك الوقت؛ لأنّ المراد دوامها مِنْ غير انقطاع، وذكر يوم الدين للمبالغة كما في قوله تعالى: ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [هود: ١٠٧].

أو أنّ المراد أنه في يوم الدين وما بعده يُعذب بما هو أشدّ مِنْ اللعن من أنواع العذاب، فكأنّه لا يجد له ما كان يجده قبل أَنْ يمسه العذاب.

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ﴾ أي: أخِّرني وأمْهلني ولا تمتني إلى يوم يبعثون؛ أي: آدم وذريته. طلب أَنْ يبقى حيّاً إلى هذا اليوم، لما سمع ذلك علم أن الله قد أخّر عذابه إلى الدار الآخرة وكأَنَّه طلب أَنْ لا يموت أبداً؛ لأنَّه إذا [٣/١٣١] أخّر موته إلى ذلك اليوم فهو يوم لا موت فيه.

---

(١) «الفريد» (٣/ ١٩٧)، و«روح المعاني» (١٣/ ٤٧٢).

وقيل: إنّه لم يطلب أن لا يموت(١)؛ بل طلب أن يؤخر عذابه إلى يوم القيامة ولا يعذب في الدنيا ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ لمّا سأل الإنظار أجابه الله سبحانه إلى ما طلبه، وأخبره بأنّه مِنْ جملة مَنْ أنظره ممن أخّر آجالهم مِنْ مخلوقاته، أو من جملة مَنْ أخّر عقوبتهم بما اقترفوا، ثم بيّن سبحانه الغاية التي أمهله إليها، فقال: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ وهو يوم القيامة، فإن ﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ و﴿يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ و﴿يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ كلّها عبارات عَنْ يوم القيامة.

وقيل: المراد بالوقت المعلوم هو الوقت القريب مِنْ البعث، فعند ذلك يموت.

[من عدته تزيين القبيح وتجميله]

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الباء للقسم، وما مصدرية، وجواب القسَم لأزيننّ لهم؛ أي: أقسم بإغوائك إيّاي لأزيننّ لهم في الأرض أي: ما داموا في الدنيا، والتزيين منه إما بتحسين المعاصي لهم وإيقاعهم فيها، أو يشغلهم بزينة الدنيا عَنْ فعل ما أمرهم الله به فلا يلتفتون إلى غيرها.

[ومن عدته الإغواء بزينته وتجميله]

وإقسامه ها هنا بإغواء الله له لا ينافي إقسامه في موضع آخر بعزة الله التي هي سلطانه وقهره؛ لأنّ الإغواء له هو مِنْ جملة ما تصدق عليه العزّة ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: لأضلنّهم عَنْ طريق الهدى، وأوقعهم في طريق الغواية وأحملهم عليها ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ قرأ أهل المدينة وأهل الكوفة بفتح اللام(٢)؛ أي: الذين استخلصتهم من العباد.

وقرأ الباقون بكسر اللام(٣)؛ أي: الّذين أخلصوا لك العبادةَ فلم يقصدوا بها غيرك ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي: حقٌّ عليّ أَنْ أراعيه، وهو أَنْ لا يكون لك على عبادي سلطان.

---

(١) «النكت والعيون» (٣/ ١٥٩ ـ ١٦٠)، و«جامع البيان» (١٤/ ٦٨)، و«روح المعاني» (١٣/ ٤٧٤ ـ ٤٧٥).

(٢) «روح المعاني» (١٣/ ٤٧٩)، و«النشر» (٢/ ٢٩٥)، و«التيسير» (ص١٢٨)، و«البحر المحيط» (٦/ ٤٧٨).

(٣) انظر: المصادر المتقدمة.

قال الكسائي[1]: هذا على الوعيد والتهديد؛ كقولك لمن تُهدِّد: طريقك عليّ ومصيرك إليّ، وكقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤] فكأنّ معنى هذا الكلام: هذا طريق مرجعه إليّ فأجازي كلّاً بعمله، وقيل: (عليَّ) هنا بمعنى (إليَّ)؛ وقيل: المعنى على الصراط المستقيم بالبيان والحجة؛ وقيل: بالتوفيق والهداية.

وقرأ ابن سيرين، وقتادة، والحسن، وقيس بن عباد، وأبو رجاء، وحميد، ويعقوب (هذا صراط عَلِيٌّ)[2] على أنّه صفة مشبهة.

ومعناه: رفيع ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ المراد بالعباد هنا: هم المخلصون، والمراد: أنّه لا تَسلّط له عليهم بإيقاعهم في ذنب يهلكون به، ولا يتوبون منه، فلا ينافي هذا ما وقع مِنْ آدم وحواء ونحوهما، فإنّه ذنب مغفور لوقوع التوبة عنه ﴿إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ استثنى سبحانه مِنْ عباده هؤلاء.

وهم المتبعون لإبليس مِنْ الغاوين عن طريق الحقّ، الواقعين في الضلال، وهو موافق لما قاله إبليس اللعين من قوله: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾، ويمكن أنْ يقال: إن بين الكلامين فرقاً؛ فكلام الله سبحانه فيه نفي سلطان إبليس على جميع عباده إلّا مَنْ اتبعه من الغاوين، فيدخل في ذلك المخلصون وغيرهم ممّن لم يتبع إبليس من الغاوين؛ وكلام إبليس اللعين يتضمن إغواء الجميع إلّا المخلَصين، فدخل فيهم مَنْ لم يكن مخلصاً ولا تابعاً لإبليس غاوياً.

والحاصل: أن بين المخلصين والغاوين التابعين لإبليس طائفة لم تكن مخلصة ولا غاوية تابعة لإبليس.

وقد قيل: إنّ الغاوين المتبعين لإبليس هم المشركون ويدلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١٠٠]، ثم

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٢/ ٢١٢).

(٢) «البحر المحيط» (٦/ ٤٧٨)، و«النشر» (٢/ ٣٠١)، و«المحتسب» (٢/ ٣)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٢١٣)، و«روح المعاني» (١٣/ ٤٨١). وهي قراءة متواترة عن يعقوب وهي بفتح العين وكسر اللّام وتشديد الياء مرفوعة منونة وباقي العشرة (عليَّ) بفتح العين واللّام وتشديد اللّام مفتوحة.

قال الله سبحانه متوعداً لأتباع إبليس: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: موعد المُتبعين الغاوين، و﴿أَجْمَعِينَ﴾ تأكيد للضمير[١] أو حال ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ يدخل أهل النار منها، وإنما كانت سبعة لكثرة أهلها ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: مِنْ الأتباع الغواة ﴿جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ أي: قَدْر معلوم متميز عَنْ غيره.

وقيل: المراد بالأبواب: الأطباق[٢]، طبقٌ فوقَ طبق، وهي: جهنّم[٣]، ثم لظى، ثم الحُطمة، ثم السعير، ثم سَقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية؛ فأعلاها للموحدين، والثانية لليهود، والثالثة للنصارى، والرابعة للصابئين، والخامسة للمجوس، والسادسة للمشركين، والسابعة للمنافقين[٤]، فجهنم أعلى الطباق، ثم ما بعدها تحتها، ثم كذلك، كذا قيل.

وقد أخرج ابنُ جرير، وابنُ المنذر، وأَبو الشيخ في «العظَمة» عَنْ ابن عباس[٥] قال: خُلق الإنسان مِنْ ثلاث: مِنْ طين لازبٍ وصَلْصال وحَمَأُ مسنون، فالطين اللّازب: اللازم الجَيد، والصّلْصال. المُدَقّق الذي يُصنع مِنْه الفخار، والحَمَأ المَسْنون: الطينُ الذي فيه الحَمْأَة.

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عنه[٦] قال: الصلصال: الماءُ يقعُ على الأرض الطيبة، ثم يَحسُر عنها فتشقَّق، ثم تصير مثل الخزف الرِّقاق.

وأخرج ابنُ جرير، وابنُ المنذر، وابن أبي حاتم عنه[٧] أيضاً قال: الصلصال: هو الترابُ اليابسُ الذي يُبلّ بعد يُبْسه.

وأخرج ابنُ أبي حاتم[٨] عنه أيضاً قال: الصَّلصال: طينٌ خُلِط برَمْلٍ.

---

(١) «الفريد» (٣/ ١٩٩)، و«التبيان» (٢/ ٧٨٢)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ٢٩٧).
(٢) «روح المعاني» (١٣/ ٤٨٤).
(٣) ذكرهم ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٧٢٦٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما.
(٤) ذكرهم ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٦٥) عن الضحاك.
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٥٨)، وأبو الشيخ في «العظمة» رقم (١٠١٦) بسند حسن.
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٥٧، ٥٨) من طريق الحسن بن صالح، به.
(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٥٨) بسند ضعيف.
(٨) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٦٣).

وأخرج ابن أبي حاتم[١] عنه أيضاً. قال: الصلصال: الذي إذا ضربته صَلْصَلْ.

وأخرج ابنُ أبي حاتم[٢] عنه أيضاً. قال: الصَّلْصال: الطين تُعصِر بيدك فيخرجُ الماءُ مِنْ بين أصابعك.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه[٣] أيضاً في قوله: ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ قال: مِنْ طين رَطْب.

وأخرج هؤلاء عنه[٤] أيضاً ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ قال: مِنْ طين مُنْتنٍ.

وأخرج ابن أبي حاتم[٥] عنه أيضاً قال: الجانُّ مسيخُ الجنّ كالقردة والخنازير مسيخُ الإنس.

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عَنْ قتادة[٦] قال: الجان: هو إبليس خُلق مِنْ قبل آدم.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس[٧] في قوله: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ قال: مِنْ أحسن النار.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم[٨] عنه قال: نار السموم الحارة التي تقتل.

وأخرج الطيالسي، والفريابي، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، والبيهقي في «الشعب» عن ابن مسعود[٩] قال: السَّموم التي خُلق منها الجان جزءٌ من سبعين جزءاً مِنْ نار جهنّم، ثم قرأ: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ وأخرجه ابن مردويه عنه مرفوعاً.

---

(١) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٦٣).
(٢) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٦٣).
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٦٢) بسند صحيح.
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٦١) بسند حسن.
(٥) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٧٧).
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٦٣) بسند صحيح.
(٧) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٦٣).
(٨) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٦٣) بسند ضعيف.
(٩) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٦٤)، والطبراني رقم (٩٠٥٧)، والحاكم (٢/ ٤٧٤)، والبيهقي في «الشعب» رقم (١٤٥) بسند صحيح.

وأخرج ابنُ أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس[١] في قوله: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ قال: أراد إبليس لا يذوق الموتَ فقيل: إنّك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم، قال: النفخة الأولى يموت فيها إبليس، وبين النفخة والنفخة أربعون سنة.

وأخرج أبو عبيد، وابن جرير، وابن المنذر عن ابن سيرين[٢] ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلِيٌّ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي: رَفيع.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة[٣] نحوه.

وأخرج ابن أبي حاتم[٤] عن ابن عباس في قوله: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ﴾ بعدد أطباق جهنّم كما قدّمنا.

وأخرج ابن المبارك، وابن أبي شيبة، وأحمد في «الزهد»، وهناد، وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا في «صفة النار»، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «البعث» من طرق عن عليّ[٥] قال: أطباق جهنم سبعة بعضها فوق بعض، فيملأ الأوّل، ثم الثاني، ثم الثالث حتى تملأ كلها.

وأخرج البخاري في «تاريخه»، والترمذي، وابن مردويه عن ابن عمر[٦] قال: قال رسول الله ﷺ: «لجهنم سبعة أبواب، بابٌ منها لمن سلّ السيف على أمتي». وقد ورد في صفة النار أحاديث وآثار.

وأخرج ابنُ مردويه، والخطيب في «تاريخه» عَنْ أنس[٧] قال: قال

---

(١) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٦٤).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٧١) بسند صحيح.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٧١) بسند صحيح.

(٤) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٦٥).

(٥) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» رقم (٢٩٤ ـ زوائد نعيم)، وهناد في «الزهد» رقم (٢٤٧)، وابن أبي شيبة (١٣/ ١٥٤)، وأحمد في «الزهد» (ص١٣١)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٧٣، ٧٤)، والبيهقي في «البعث» (٥٠٦) بسند صحيح.

(٦) أخرجه البخاري في «تاريخه» (٢/ ٢٣٥)، والترمذي رقم (٣١٢٣). وهو حديث ضعيف.

(٧) أخرجه الخطيب في «تاريخه» (٩/ ٢٩)، وذكره ابن الجوزي في «الموضوعات» (٣/ ٢٦٥)، وقال: هذا حديث موضوع على رسول الله ﷺ، وفيه سلام ليس بشيء. قال يحيى: لا يكتب حديثه ليس بشيء، وقال النسائي والدارقطني: متروك. وقال ابن حبان: «يروي عن الثقات الموضوعات».

رسول الله ﷺ: في قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ قال: «جزء أشركوا بالله، وجزء شكّوا في الله، وجزء غَفلوا عَنْ الله».

[المتقون يوم القيامة]

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾.

[قصص إبراهيم وبشارته على الكبر بغلام عليم]

[لوط ونجاته وأهله إلا امرأته]

[أصحاب الأيكة وأصحاب الحجر وما حل بهم من عذاب أليم]

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [٣/١٣٢].

قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي: المتقين للشرك بالله كما قاله جمهور الصحابة[1] والتابعين، وقيل: هم الذين اتقوا جميع المعاصي ﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾ وهي البساتين، ﴿وَعُيُونٍ﴾ وهي الأنهار. قُرِئ بضم العين مِنْ (عُيون) على الأصل، وبالكسر مراعاة للياء، والتركيب يحتمل أن يكون لجميع المتقين جنات وعيون، أو

(١) «جامع البيان» (١٤/٧٥)، و«روح المعاني» (١٣/٤٩٢ ـ ٤٩٣)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/٢١٨).

لكل واحد منهم جنات وعيون، أو لكل واحد منهم جنة وعين ﴿ٱدۡخُلُوهَا﴾ قرأ الجمهور[١] بلفظ الأمر على تقدير القول؛ أي: قيل لهم: ادخلوها.

وقرأ الحسن وأبو العالية، وروي عَنْ يعقوب بضم[٢] الهمزة مقطوعة، وفتح الخاء على أنه فعل مبني للمفعول؛ أي: أَدخَلهم اللهُ إياها.

وقد قيل: إنّهم إذا كانوا في جنات وعيون، فكيف يقال لهم بعد ذلك: ادخلوها على قراءة الجمهور؟ فإنّ الأمر لهم بالدخول يشعر بأنهم لم يكونوا فيها.

وأجيب بأن المعنى: أنّهم لما صاروا في الجنات، فإذا انتقلوا من بعضها إلى بعض يقال لهم عند الوصول إلى التي أرادوا الانتقال إليها: ادخلوها.

ومعنى ﴿بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾: بسلامة من الآفات، وأمن من المخافات، أو مسلّمين على بعضهم بعضاً، أو مسلّماً عليهم من الملائكة، أو من الله ﷻ.

﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ﴾ الغِلُّ: الحِقْدُ والعداوة، وقد مرّ تفسيره في الأعراف، وانتصاب ﴿إِخۡوَٰنًا﴾ على الحال[٣]؛ أي: إخوة في الدين والتعاطف ﴿عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ أي: حال كونهم على سرر، وعلى صورة مخصوصة وهي التقابل، ينظر بعضُهم إلى وجه بعض، والسُّرُر: جَمْعُ سرير.

وقيل: هو المجلس الرفيع المهيأ للسرور، ومِنْه قولهم: سرّ الوادي لأفضل موضع منه ﴿لَا يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٞ﴾ أي: تعب[٤] وإعياء لعدم وجود ما يتسبب عنه ذلك في الجنة؛ لأنها نعيم خالص، ولذّة مَحْضة تحصل لهم بسهولة، وتوافيهم مطالبهم بلا كسب ولا جهد؛ بل بمجرد حضور شهوة الشيء بقلوبهم يحصل ذلك الشيء عندهم صفواً عفواً.

---

(١) «البحر المحيط» (٦/ ٤٨٢)، و«النشر» (٢/ ٣٠١)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٢٧٤)، و«التبيان» (٢/ ٧٨٣)، و«التيسير» (ص٧٩).

(٢) انظر: المصادر المتقدمة. قال في «تخريج القراءات في فتح القدير» (ص١٩٠): الصواب: روى رويس بخلافٍ عن يعقوب (عيونٌ ادخلوها) بضم تنوين عيونٌ بعد نقل حركة الهمزة لها وحذف الهمزة ثم كسر الخاء أي: مِنْ أُدْخِل رباعيّاً مبنياً للمجهول والوجه الثاني له كقراءة الجمهور (ادخُلوها) بهمزة وصل، وضم الخاء وهما متواترتان.

(٣) «التبيان» (٢/ ٧٨٣)، و«الفريد» (٣/ ٢٠١)، و«البحر المحيط» (٦/ ٤٨٢ ـ ٤٨٣).

(٤) «الوسيط» للواحدي (٣/ ٤٦)، و«روح المعاني» (١٣/ ٤٩٨).

﴿وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ﴾ أبداً، وفي هذا الخلود الدائم[(١)] وعلمهم به تمام اللذة وكمال النعيم، فإنّ علمَ مَنْ هو في نعمةٍ ولذة بانقطاعها، وعدمها بعد حين، موجب لتنغص نعيمه، وتكدّر لذته.

ثم قال سبحانه بعد أنّ قصّ علينا ما للمتقين عنده من الجزاء العظيم والأجر الجزيل: ﴿۞ نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي: أخبرهم يا محمد أني أنا الكثير المغفرة لذنوبهم، الكثير الرحمة لهم، كما حكمت به على نفسي: «إن رحمتي سبقت غضبي»[(٢)]، اللَّهُمَّ اجعلنا مِنْ عبادك الذين تفضلت عليهم بالمغفرة، وأدخلتهم تحت واسع الرحمة.

ثم إنّه سبحانه لما أمر رسوله بأن يخبر عباده بهذه البشارة العظيمة، أمره بأن يذكر لهم شيئاً مما يتضمن التخويف والتحذير حتى يجتمع الرجاء والخوف، ويتقابل التبشير والتحذير ليكونوا راجين خائفين فقال: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ﴾ أي: الكثير الإِيلام، وعند أن جمع الله لعباده بين هذين الأمرين من التبشير والتحذير صاروا في حالة وسط بين اليأس والرجاء، وخير الأمور أوساطها، وهي القيام على قدمي الرجاء والخوف، وبين حالتي الأُنْس والهيبة.

وجملة ﴿وَنَبِّئۡهُمۡ عَن ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ معطوفة[(٣)] على جملة ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ﴾ أي: أخبرهم بما جرى على إبراهيم مِنْ الأمر الذي اجتمع فيه له الرجاء والخوف، والتبشير الذي خالطه نوع مِنْ الوجَل ليعتبروا بذلك ويعلموا أنها سُنَّة الله سبحانه في عباده، وأيضاً لما اشتملت القصة على إنجاء المؤمنين وإهلاك الظالمين كان في ذلك تقرير لكونه الغفور الرحيم، وأن عذابه هو العذاب الأليم.

وقد مرّ تفسير هذه القصة في سورة هود، وانتصاب[(٤)] ﴿إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ﴾ بفعل مضمر معطوف على ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ﴾ أي: واذكر لهم دخولهم عليه، أو في محل نصب على الحال. والضيف في الأصل مصدر، ولذلك وُحِّد وإنْ كانوا جماعةً، وسمي

---

(١) «جامع البيان» (١٤/ ٨١).

(٢) أخرجه البخاري رقم (٣١٩٤)، ومسلم رقم (٣٧٥١)، وابن ماجه في «السنن» رقم (١٨٩ ـ المقدمة) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) «الفريد» (٣/ ٢٠٢)، و«التبيان» (٢/ ٧٨٤)، و«البحر المحيط» (٦/ ٢٨٤).

(٤) «الفريد» (٣/ ٢٠٢)، و«التبيان» (٢/ ٧٨٤)، و«روح المعاني» (١٣/ ٥٠٠).

ضيفاً لإضافته إلى المُضيف ﴿فَقَالُواْ سَلَٰمًا﴾ أي: سلّمنا سلاماً ﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ أي: فَزِعون خائفون، وإنما قال هذا بعد أن قرّب إليهم العجل فرآهم لا يأكلون منه، كما تقدم في سورة هود ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود: ٧٠].

وقيل: أنكر السلام منهم؛ لأنه لم يكن في بلادهم، وقيل: أنكر دخولهم عليه بغير استئذان ﴿قَالُواْ لَا تَوْجَلْ﴾؛ أي: قالت الملائكة: لا تخف.

وقرئ «لا تاجل»(١) و«لا تُوجَل»(٢) مِنْ أوجله؛ أي: أخافه.

وجملة ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ مستأنفة لتعليل النهي عن الوجَل، والعليم: كثير العلم، وقيل: هو الحليم كما وقع في موضع آخر من القرآن، وهذا الغلام: هو إسحاق كما تقدّم في هود، ولم يسمّه هُنا ولا ذكر التبشير بيعقوب اكتفاء بما سلف ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي﴾ قرأ الجمهور(٣) بألف الاستفهام.

وقرأ الأعمش (بشرتموني) بغير الألف(٤) ﴿عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾ في محل نصب(٥) على الحال؛ أي: مع حالة الكبر والهرم ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ استفهام(٦) تعجب، كأنه عجب من حصول الولد له مع ما قد صار إليه من الهرم الذي جرت العادة بأنه لا يولد لمن بلغ إليه.

والمعنى: فبأي شيء تبشرون؟ فإن البشارة بما لا يكون عادة لا تصح.

وقرأ نافع (تبشرونِ) بكسر النون(٧) والتخفيف وإبقاء الكسرة لتدل على الياء المحذوفة.

---

(١) «القراءات الشاذة» (ص٧١)، و«روح المعاني» (١٣/ ٥٠١)، و«البحر المحيط» (٦/ ٤٨٤ ـ ٤٨٥).

(٢) انظر: المصادر المتقدمة. وهي قراءتان شاذتان.

(٣) «البحر المحيط» (٦/ ٤٨٥)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٢٢٣)، و«روح المعاني» (١٣/ ٥٠٢)، و«النشر» (٢/ ٣٠٢).

(٤) انظر: المصادر المتقدمة. قراءة الجمهور متواترة، وقراءة الأعمش شاذة.

(٥) «التبيان» (٢/ ٧٨٤)، و«الفريد» (٣/ ٢٠٣)، و«روح المعاني» (١٣/ ٥٠٣)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ٣٠١).

(٦) «روح المعاني» (١٣/ ٥٠٢)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ٣٠٢).

(٧) «التيسير» (ص١٣٦)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٢٢٣)، و«البحر المحيط» (٦/ ٤٨٥).

وقرأ ابن كثير، وابن محيصن بكسر النون[١] مشدّدة على إدغام النون في النون، وأصله: تبشرونني.

وقرأ الباقون (تبشرونَ) بفتح النون[٢] ﴿قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: باليقين الذي لا خُلْف فيه، فإن ذلك وعد الله وهو لا يخلف الميعاد ولا يستحيل عليه شيء، فإنه القادر على كلِّ شيء ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾ هكذا قرأ الجمهور بإثبات الألف.

وقرأ الأعمش، ويحيى بن وثّاب (مِنْ القنطين) بغير ألف[٣]، وروي ذلك عن أبي عمرو؛ أي: مِنْ الآيسين من ذلك الذي بشرناك به ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ قرئ بفتح النون[٤] من «يقنَط» وبكسرها وهما لغتان. وحكي فيه ضم النون[٥].

و﴿ٱلضَّآلُّونَ﴾ المكذِّبون، أو المخطئون الذاهبون عن طريق الصواب؛ أي: إنما استبعدت الولد لكبر سني لا لقنوطي مِنْ رحمة ربي؛ ثم سألهم عما لأجله أرسلهم الله سبحانه فـ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ الخَطْبُ: الأمر الخطير والشأن العظيم؛ أي: فما أمركم وشأنكم وما الذي جئتم به غير ما قد بشرتموني به؟ وكأنه قد فهم أن مجيئهم ليس لمجرد البشارة؛ بل لهم شأن آخر لأجله أرسلوا.

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ أي: إلى قوم لهم إجرام، فيدخل تحت ذلك الشرك وما هو دونه، وهؤلاء القوم: هم قوم لوط، ثم استثنى منهم من ليسوا مُجْرمين فقال: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ وهو استثناء متصل[٦]؛ لأنه من الضمير في ﴿مُّجْرِمِينَ﴾، ولو كان من قوم لكان منقطعاً لكونهم قد وصفوا بكونهم مجرمين، وليس آل لوط مجرمين.

---

(١) «البحر المحيط» (٦/ ٤٨٥)، و«روح المعاني» (١٣/ ٥٠٣)، و«النشر» (٢/ ٣٠٢)، و«التيسير» (ص١٣٦).

(٢) انظر: المصادر المتقدمة. وهي ثلاث قراءات متواترة.

(٣) «البحر المحيط» (٦/ ٤٨٦)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٣٨٣)، و«روح المعاني» (٦/ ٥٠٤). قراءة الجمهور متواترة، أما بحذف الألف فشاذة، وروايتها عن أبي عمرو شاذة عنه.

(٤) «النشر» (٢/ ٣٠٢)، و«التيسير» (ص١٣٦)، و«البحر المحيط» (٦/ ٤٨٦)، و«روح المعاني» (١٣/ ٥٠٤).

(٥) «المحتسب» (٢/ ٧)، و«البحر المحيط» (٦/ ٤٨٦)، و«روح المعاني» (١٣/ ٥٠٤) قرأ بكسر النون من (يقنِط) أبو عمرو، والكسائي ويعقوب وخلف وقرأ باقي العشرة بفتحها..

(٦) «التبيان» (٢/ ٧٨٥)، و«روح المعاني» (٦/ ٥٠٧)، و«الفريد» (٣/ ٢٠٤).

ثم ذكر ما سيختص به آل لوط من الكرامة لعدم دخولهم مع القوم في إجرامهم فقال: ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: آل لوط، وهم أتباعه وأهل دينه، وهذه الجملة مستأنفة على تقدير كون الاستثناء متصلاً كأنه قيل: ماذا يكون حال آل لوط؟ فقال: ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، وأما على تقدير كون الاستثناء منقطعاً[1] فهي خبر؛ أي: لكنْ آل لوط ناجون مِنْ عذابنا.

وقرأ حمزة والكسائي (لمُنْجوهم) بالتخفيف[2] من أنجا.

وقرأ الباقون[3] بالتشديد من نجّي.

واختار هذه القراءة الأخيرة أبو عُبيدة وأبو حاتم، والتنجية والإِنجاء التخليص ممَّا وقع فيه غيرهم ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ هذا الاستثناء مِنْ الضمير في منجّوهم إخراجاً لها مِنْ التنجية؛ أي: إلا امرأته فليست ممّن ننجيه؛ بل ممن نُهلكه؛ وقيل: إن الاستثناء من آل لوط باعتبار ما حَكَم لهم به مِنْ التنجية.

والمعنى: قالوا: إنّا أرسلنا إلى قوم مجرمين لنهلكهم إلّا آل لوط إنا لمنجوهم إلّا إمرأته فإنَّها من الهالكين، ومعنى ﴿قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾: قضينا وحكمنا أنّها مِنْ الباقين في العذاب مع [٣/١٣٣] الكفرة، والغابر: الباقي، قال الشاعر[4]:

لا تكسع الشَّولَ بأغبارها ... إنَّك لا تدري مَنْ الناتِجُ

والإِغبار: بقايا اللبن.

قال الزجّاج[5]: معنى قدّرنا: دبّرنا وهو قريب مِنْ معنى قضينا وأصل التقدير: جعل الشيء على مقدار الكفاية.

وقرأ عاصم مِنْ رواية أبي بكر والمفضّل (قَدَرْنا) بالتخفيف[6].

---

(١) «التبيان» (٢/ ٧٨٥)، و«روح المعاني» (٦/ ٥٠٧)، و«الفريد» (٣/ ٢٠٤).

(٢) «البحر المحيط» (٦/ ٤٨٧)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٠٦)، و«النشر» (٢/ ٢٥٨)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ٣١)، و«التيسير» (ص١٣٦).

(٣) انظر: المصادر المتقدمة.

(٤) هو: الحارث بن حلِّزة. انظر «ديوانه» (ص١١١).

(٥) انظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٣/ ١٨١ ـ ١٨٢).

(٦) «التيسير» (ص١٣٦)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٢٢٥)، و«البحر المحيط» (٦/ ٤٨٧)، و«روح المعاني» (١٣/ ٥١٤). ومع مَنْ يقرأ بالتخفيف يعقوب وخلف، والباقون بالتشديد.

وقرأ الباقون بالتشديد[١].

قال الهروي[٢]: هما بمعنى، وإنما أسند التقدير إلى الملائكة مع كونه مع فعل الله سبحانه لما لهم مِنْ القرب عند الله ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ هذه الجملة مستأنفة لبيان وإهلاك مَنْ يستحق الهلاك وتنجية مَنْ يستحق النجاة.

﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾؛ أي: قال لوط مخطاباً لهم: إنكم قوم مُنْكرون؛ أي: لا أعرفكم؛ بل أنكركم ﴿قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي: بالعذاب الَّذْي كانوا يشكّون فيه، فالإِضرابُ هو عَنْ مجيئهم بما ينكره؛ كأنهم قالوا: ما جئناك بما خطر ببالك مِنْ المكروه؛ بل جئناك بما فيه سرورك، وهو عذابهم الذي كنت تحذرهم منه وهم يكذبونك ﴿وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: باليقين الذي لا مرية فيه ولا تردّد، وهو العذابُ النازل بهم لا محالة ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ في ذلك الخبر الذي أخبرناك.

وقد تقدّم تفسير قوله: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ في سورة هود ﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ﴾ أي: كن مِنْ ورائهم تذودهم لئلا يتخلّف منهم أحد فيناله العذاب ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ أي: لا تلتفت أنت ولا يلتفت أحد منهم فيرى ما نزل بهم من العذاب، فيشتغل بالنظر في ذلك ويتباطأ عَنْ سرعة السير والبعد عن ديار الظالمين.

وقيل: معنى (لا يلتفت): لا يتخلّف ﴿وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ أي: إلى الجهة التي أمركم الله سبحانه بالمضيّ إليها، وهي جهة الشام، وقيل: مصر؛ وقيل: قرية مِنْ قرى لوط.

وقيل: أرض الخليل ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ أي: أَوحينا إلى لوط ﴿ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ وهو إهلاك قومه، ثم فسّره بقوله: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ﴾.

قال الزجّاج[٣]: موضع «أن» نصب، وهو بدل من ﴿ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾، والدابر هو الآخر؛ أي: أن آخر مَنْ يبقى منهم يهلك وقت الصبح، وانتصاب ﴿مُّصْبِحِينَ﴾ على الحال؛ أي: حال كونهم داخلين في وقت الصبح، ومثله ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ [الأنعام: ٤٥].

---

(١) انظر: المصادر المتقدمة.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٢/ ٢٢٥).

(٣) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ١٨٢).

وقد أخرج ابن أبي حاتم(١) عن الضحاك في قوله: ﴿ءَامِنِينَ﴾ قال: أمنوا الموتَ فلا يموتون ولا يَكْبَرون ولا يَسقَمون ولا يَعْرَون ولا يَجوعون.

وأخرج ابنُ جرير(٢) عن عليّ ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ قال: العداوة.

وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه عن الحسن البصري(٣) قال: قال عليّ بن أبي طالب: فينا والله أهلَ بدرٍ نزلت: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ﴾.

وأخرج ابنُ عساكر، وابن مردويه عنه(٤) في الآية قال: نزلت في ثلاثة أحياء مِنْ العرب: في بني هاشم، وبني تَيْمٍ، وبني عديّ، فيّ وفي أبي بكر وعمر.

وأخرج ابنُ أبي حاتم، وابن عساكر عَنْ كَثير النَّواء(٥)، قال: قلت لأبي جعفر: إن فلاناً حدثني عَنْ عليّ بن الحسين أن هذه الآية نزلت في أبي بكر وعمر وعليّ ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ قال: واللهِ إنها لفيهم أنزلت؛ وفيمن تنزل إلّا فيهم؟ قلت: وأي غلّ هو؟ قال: غلّ الجاهلية، إنّ بني تَيْمٍ وبني عديّ وبني هاشم كان بينهم في الجاهلية، فلما أسلم هؤلاء القوم تحابوا، فأَخذت أبا بكر الخاصرة، فجعل عليّ يُسخن يده فيكمّد بها خاصرة أبي بكر، فنزلت هذه الآية.

وأخرج سعيد بن منصور، وابنُ أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم، وابن مردويه عن عليّ(٦) من طرق أنه قال لابن طلحة: إني لأرجو أَنْ أكون أنا وأبوك مِنْ الذين قال الله فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم﴾ الآية، فقال رجل مِنْ همدان: الله أعدل من ذلك، فصاح عليّ صيحةً تداعى لها القصر وقال: فيمن إذنْ إنْ لم نكن نحن أولئك.

---

(١) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٦٦).
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٧٦) بسند ضعيف.
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٧٦) بسند منقطع، الحسن البصري لم يسمع من علي رضي الله عنه.
(٤) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٨٥).
(٥) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٦٧).
(٦) أخرجه ابن أبي شيبة (١٥/ ٢٨١، ٢٨٢)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٧٦، ٧٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٤٧٨ رقم ٨٤٦٧)، والحاكم (٢/ ٣٥٣، ٣٥٤) بسند حسن.

وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، والطبراني، وابن مردويه عن عليّ[(١)] قال: إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان والزبير وطلحة فيمن قال الله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾.

وأخرج ابن مردويه، وابن عساكر من طريق الكلبي عن أبي صالح، عن ابن عباس[(٢)] في هذه الآية قال: نزلت في عشرة: أَبي بكرٍ، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة والزبير، وسعد، وسعيد، وعبد الرحمٰن بن عوف، وعبد الله بن مسعود.

وأخرجه ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي صالح[(٣)] موقوفاً عليه.

وأخرج ابن أبي شيبة، وهناد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن مجاهد[(٤)] في قوله: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ﴾ قال: لا يرى بعضُهم قفا بعض.

وأخرجه ابن المنذر، وابن مردويه عن مجاهد، عن ابن عباس[(٥)].

وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو القاسم البغوي، وابن مردويه، وابن عساكر عن زيد بن أبي أوفى[(٦)] قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فتلا هذه الآية: «﴿إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ﴾ قال: المتحابّون في الله في الجنّة ينظر بعضهم إلى بعض».

وأخرج ابن أبي حاتم[(٧)] عن السديّ في قوله: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ قال: المشقة والأذى.

وأخرج ابن جرير، وابن مردويه من طريق عطاء بن أبي رباح عن رجل[(٨)] من

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٢/ ٢٨٢)، وأبو نعيم في «الفتن» (١/ ٨٥، ٨٨).

(٢) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٣/ ٣٣٧) بسند ضعيف جدّاً.

(٣) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٨٥).

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٨٠)، وابن أبي شيبة (١٣/ ١٣٨)، وهناد في «الزهد» رقم (٨٠)، وابن المبارك في «الزهد» رقم (٤٣٤ ـ زوائد نعيم) بسند صحيح.
ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٦٧) عن مجاهد.

(٥) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٨٥).

(٦) أخرجه الطبراني رقم (٥١٤٦)، وابن عساكر في «تاريخه» (٢١/ ٤١٦) و(٤٢/ ٥٢، ٥٣) بسند ضعيف.

(٧) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٦٨).

(٨) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٨٢) بسند ضعيف، مصعب بن ثابت لين الحديث.

أصحاب النبي ﷺ قال: «اطَّلع علينا رسولُ الله ﷺ مِنْ الباب الذي يدخل منه بنو شيبة فقال: ألا أراكم تضحكون؟ ثم أدبر حتّى إذا كان عند الحجر رجع القَهْقرى فقال: إني لما خرجت جاء جبريل فقال: يا محمد إنّ الله ﷻ يقول: لِمَ تُقنّط عبادي؟ ﴿۞ نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ﴾».

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عَنْ مصعب بن ثابت(١) قال: «مرّ النبي ﷺ على ناس من أصحابه يضحكون فقال: اذكروا الجنّة واذكروا النار»، فنزلت: ﴿۞ نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

وأخرج الطبراني، والبزار، وابن مردويه عن عبد الله بن الزبير(٢) قال: مرّ النبي ﷺ فذكر نحوه.

وأخرج البخاري، ومسلم وغيرهما عَنْ أبي هريرة(٣) أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة فأمسك عنده تسعة وتسعين رحمةً، وأرسل في خَلْقه كلهم رحمة واحدة، فلو يعلم الكافر كلَّ الذي عند الله من رحمته لم ييأس مِنْ الرحمة، ولو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله من العذاب لم يأمن من النار».

وأخرج ابن أبي حاتم(٤) عن عكرمة ﴿قَالُواْ لَا تَوۡجَلۡ﴾: لا تخف.

وأخرج ابن أبي حاتم(٥) عن السديّ ﴿مِّنَ ٱلۡقَٰنِطِينَ﴾ قال: الآيسين.

وأخرج ابن أبي حاتم(٦) عن قتادة ﴿إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ يعني: الباقين في عذاب الله.

---

(١) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٦٧) بسند ضعيف، عن موسى بن عبيدة عن مصعب بن ثابت.

(٢) أخرجه البزار في «مسنده» رقم (٢٢١٦)، والطبراني كما في «مجمع الزوائد» (٧/ ٤٥، ٤٦). وقال: «فيه موسى بن عبيدة وهو ضعيف».

(٣) أخرجه البخاري في «صحيحه» رقم (٦٠٠٠، ٦٤٦٩)، ومسلم رقم (٢٧٥٢ ـ ٢٧٥٥)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» رقم (١٠٣٦).

(٤) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٦٨).

(٥) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٦٨).

(٦) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٦٨).

وأخرج ابنُ جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد[١] في قوله: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ قال: أنكرهم لوط، وفي قوله: ﴿بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ قال: بعذاب قوم لوط.

وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن قتادة[٢] ﴿بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ قال: يَشُكّون.

وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة[٣] في قوله: ﴿وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ﴾ قال: أُمِر أَنْ يكون خلف أهله يتّبع أدبارهم في آخرهم إذا مشوا.

وأخرج ابن أبي حاتم[٤] عن السديّ ﴿وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ قال: أخرجهم الله إلى الشام.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن زيد[٥] ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ﴾ قال: أوحيناه إليه.

وأخرج ابن جرير[٦] عن ابن عباس ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ﴾ يعني: استئصالهم وهلاكهم.

[قصة ضيف إبراهيم مع لوط وقومه]

﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٨٧) بسند صحيح.
(٢) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٨٩).
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٨٨)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٤٩) بسند صحيح.
(٤) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٦٩).
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٨٨) بسند صحيح.
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٨٩) بسند ضعيف.

ذكر سبحانه ما كان مِنْ قوم لوط عند وصول الملائكة إلى قريتهم فقال: ﴿وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ أي: أهل مدينة قوم لوط، وهي سدوم كما سبق.

وجملة ﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ في محل نصب[١] على الحال؛ أي: مستبشرين بأضياف لوط؛ طمعاً في ارتكاب الفاحشة منهم فـ﴿قَالَ﴾ لهم لوط ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي﴾ وحّد الضيف؛ لأنّه مصدر[٢] كما تقدّم، والمراد: أضيافي، وسمّاهم ضيفاً؛ لأنه رآهم على هيئة الأضياف، وقومه رأوهم مُرْداً حسان الوجوه، فلذلك طمعوا فيهم ﴿فَلَا تَفۡضَحُونِ﴾ يقال: فضحَه[٣] يَفْضحه فضيحةً وفَضْحاً: إذا أظهر مِنْ أمره ما يلزمه العار بإظهاره.

والمعنى: لا تفضحون عندهم بتعرّضكم لهم بالفاحشة؛ فيعلمون أنّي عاجز عن حماية مَنْ نزل بي، أو: لا تفضحون بفضيحة ضيفي، فإنّ مَنْ فعل ما يفضح الضيف فقد فعل ما يفضخ المضيف.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في أمرهم ﴿وَلَا تُخۡزُونِ﴾ يجوز أَنْ تكون مِنْ الخزي: وهو الذلّ والهوان، ويجوز أن يكون مِنْ الخزاية وهي الحياء والخجل، وقد تقدّم تفسير ذلك في هود.

﴿قَالُوٓاْ﴾ أي: قوم لوط مجيبين له: ﴿أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ الاستفهام[٤] للإنكار، والواو للعطف [٣/١٣٤] على مقدّر؛ أي: ألم نتقدّم إليك وننهك عن أن تكلِّمنا في شأن أحدٍ من الناس إذا قصدناه بالفاحشة؟ وقيل: نَهوه عَنْ ضيافة الناس، ويجوز حمل ما في الآية على ما هو أعمّ مِنْ هذين الأمرين ﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ﴾ فتزوّجوهنّ ﴿إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾ ما عزمتم عليه مِنْ فعل الفاحشة بضيفي فهؤلاء بناتي تزوّجوهنّ حلالاً ولا ترتكبوا الحرام؛ وقيل: أراد ببناته: نساء قومه، لكون النبيّ بمنزلة الأب لقومه.

وقد تقدّم تفسير هذا في هود.

---

(١) «روح المعاني» (١٣/ ٥٢٤ ـ ٥٢٥)، و«الفريد» (٣/ ٢٠٦).

(٢) «الفريد» (٣/ ٢٠٦)، و«روح المعاني» (١٣/ ٥٢٥).

(٣) «جامع البيان» (١٤/ ٩٠).

(٤) «تفسير أبي السعود» (٤/ ٣٠٦)، و«روح المعاني» (١٣/ ٥٢٦).

[أقسم الله تعالى هاهنا بحياة محمد ﷺ تشريفاً له]

﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ العَمر والعُمر بالفتح والضم واحد، لكنهم خصّوا القسم بالمفتوح لإيثار الأخف فإنَّه كثير الدور على ألسنتهم، ذكر ذلك الزجاج[(١)].

قال القاضي عياض[(٢)]: اتفق أهلُ التفسير في هذا أَنَّه قسم مِنْ الله جَلَّ جَلَالُهُ بمدة حياة محمد ﷺ، وكذا حكى إجماع المفسرين على هذا المعنى أبو بكر بن العربي[(٣)] فقال: قال المفسرون بأجمعهم: أقسم الله تعالى ها هنا بحياة محمد ﷺ تشريفاً له.

قال أبو الجوزاء[(٤)]: ما أقسم الله سبحانه بحياة أحد غير محمد ﷺ؛ لأنه أكرم البرية عنده.

قال ابن العربي[(٥)]: ما الذي يمتنع أن يقسم الله سبحانه بحياة لوط، ويبلغ به من التشريف ما شاء، وكل ما يعطيه الله تعالى للوط مِنْ فضل يؤتى ضعفه من شرفٍ لمحمد ﷺ؛ لأنَّه أكرم على الله منه، أَوَلا تراه سبحانه أعطى إبراهيم الخُلّة وموسى التكليم، وأعطى ذلك لمحمد ﷺ؟ فإذا أقسم الله سبحانه بحياة لوط فحياة محمد أرفع.

قال القرطبي[(٦)]: ما قاله حَسنٌ؛ فإنَّه يكون قسمه سبحانه بحياة محمد ﷺ كلاماً معترضاً في قصة لوط.

فإنْ قيل: قد أقسم الله سبحانه بالتين والزيتون وطور سينين، ونحو ذلك فما فيهما من فضل؟ وأجيب بأنّه ما من شيء أقسم الله به إلّا وفي ذلك دلالة على فضله على جنسه، وذكر صاحب «الكشّاف»[(٧)] وأتباعه أنّ هذا القسم هو من الملائكة على إرادة القول؛ أي: قالت الملائكة للوط: لعمرك، ثم قال: وقيل[(٨)]: الخطاب لرسول الله ﷺ وأنه أقسم بحياته وما أقسم بحياة أحد قط كرامة له. انتهى.

---

(١) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ١٨٣).
(٢) في «الشفا» (١/ ٨٦).
(٣) في «أحكام القرآن» لابن العربي (٣/ ١١١٨).
(٤) انظر: «الشفا» للقاضي عياض (١/ ٨٦).
وأبو الجوزاء: هو أوس بن عبد الله الربعي، بصري، يرسل كثيراً، ثقة (ت٨٣هـ)، «تقريب التهذيب» رقم (٥٨٢).
(٥) في «أحكام القرآن» (٣/ ١١١٨).
(٦) في «تفسيره» (١٢/ ٢٢٩).
(٧) في «الكشاف» (٣/ ٤١٤).
(٨) أي: الزمخشري في «الكشاف» (٣/ ٤١٤).

وقد كره[١] كثير من العلماء القسم بغير الله سبحانه، وجاءت بذلك الأحاديث الصحيحة[٢] في النهي عَنْ القسم بغير الله فليس لعباده أن يقسموا بغيره، وهو سبحانه يقسم بما شاء من مخلوقاته ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

وقيل[٣]: الإقسام مِنْه سبحانه بالتين والزيتون وطور سينين، والنجم والضحى والشمس، والليل ونحو ذلك هو على حذف مضاف هو المقسم به؛ أي: وخالق التين وكذلك ما بعده.

وفي قوله: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ أي: وخالق عُمرك، ومعنى ﴿إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾: لفي غوايتهم يتحيرون، جعل الغواية سكرة لكونها تُذْهب بعقل صاحبها كما تذهب به الخمر، والضمير لقريش على أنّ القسم بمحمد ﷺ، أو لقوم لوط على أن القسم للوط عليه السلام ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ العظيمة، أو صيحة جبريل حال كونهم ﴿مُشْرِقِينَ﴾ أي: داخلين في وقت الشروق، يقال: أشرقت الشمسُ؛ أي: أضاءت وشرقت إذا طلعتْ، وقيل: هما لغتان بمعنى واحد. وأشرق القوم: إذا دخلوا في وقت شروق الشمس.

وقيل: أراد شروق الفجر؛ وقيل: أوّل العذاب كان عند شروق الفجر، وامتدّ إلى طلوع الشمس. والصيحة: العذاب ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ أي: عالي المدينة سافلها ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ مِنْ طين متحجّر، وقد تقدّم الكلام مستوفى على هذا في سورة هود.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: في المذكور مِنْ قصتهم، وبيان ما أصابهم ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ لعلاماتٍ يستدلّ بها ﴿لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ للمتفكّرين الناظرين في الأمر، ومنه قول زهير[٤]:

وفيهنَّ مَلْهى للصديقِ ومنظرٌ أنيقٌ لعينِ الناظرِ المُتَوَسمِ

وقال الآخر:

---

(١) «جامع البيان» (١٤/ ٩٣)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٢٣)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (٣/ ١١١٨ ـ ١١١٩).

(٢) (منها): ما أخرجه أحمد (٢/ ٧)، والبخاري رقم (٦٦٤٦، ٦٦٤٧)، ومسلم رقم (٣/ ١٦٤٦)، عن ابن عمر أنَّ النبي ﷺ سمع عمرَ وهو يحلف بأبيه فقال: «إنَّ الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، فمن كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت».

(٣) «الفريد» (٣/ ٢٠٧)، و«التبيان» (٢/ ٧٨٧).

(٤) انظر: «ديوان زهير بن أبي سلمى» (ص١٠ ـ شرح ثعلب).

أَوَ كُلَّما وَرَدَتْ عكاظَ قبيلةٌ بعثوا إليّ عريفَهم يتوسَّمُ[١]

وقال أبو عبيدة[٢]: للمتبصّرين، وقال ثعلب[٣]: الواسم الناظر إليك مِنْ قَرْنك إلى قدمك، والمعنى متقارب، وأصل التوسم: التثبّت والتفكر، مأخوذ من الوسْم وهو التأثير بحديدةٍ في جلد البعير ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ يعني: قُرى قوم لوط أو مدينتهم على طريق ثابت، وهي الطريقُ مِنْ المدينة إلى الشام، فإن السالك في هذه الطريق يمرّ بتلك القرى ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور من المدينة أو القرى ﴿لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعتبرون بها، فإنّ المؤمنين مِنْ العباد هم الذين يعتبرون بما يشاهدونه من الآثار.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة[٤] في قوله: ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ قال: استبشروا بأضياف نبيّ الله لوط حين نزلوا به لما أرادوا أن يأتوا إليهم من المنكر.

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه[٥] في قوله: ﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال: يقولون: أوَلم نَنْهك أن تُضِيف أحداً أو تؤويه؟ ﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ أمرهم لوط بتزويج النساء وأراد أن يقي أضيافه ببناته.

وأخرج ابن أبي شيبة، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وأبو نعيم عن ابن عباس[٦] قال: ما خلق الله وما ذرأ وما بَرأ نَفْساً أكرم عليه مِنْ محمد ، وما سمعتُ الله أقسمَ بحياة أحدٍ غيره قال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ يقول: وحياتِك يا محمد، وعَمْرِك وبقائك في الدنيا.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه[٧] في قوله: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ قال: لعيشك.

---

(١) هو: طريف بن تميم العنبري.
انظر: «الأصمعيات» (ص١٢٧).
(٢) في «مجاز القرآن» (١/ ٣٥٤).
(٣) انظر: «تهذيب اللغة» (١٣/ ١١٤ ـ ١١٥)، و«الصحاح» (٥/ ٢٠٥١).
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٩٠) بسند صحيح.
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٩٠) بسند صحيح.
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٩٢)، والبيهقي في «الدلائل» (٥/ ٤٨٨)، وأبو نعيم في «الدلائل» رقم (٢١) بسند حسن.
(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٩٣) بسند صحيح.

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة[١] قال: ما حلف الله بحياة أحد إلّا بحياة محمد قال: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ الآية.

وأخرج ابن جرير[٢] عن إبراهيم النخعي قال: كانوا يكرهون أن يقول الرجل: لَعَمْري يرونه كقوله: وحياتِي.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة[٣] ﴿إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي: في ضلالهم يلعبون.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن الأعمش[٤] في الآية: لفي غفلتهم يتردّدون.

وأخرج ابن المنذر[٥] عن ابن جريج ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ مثل الصاعقة، وكل شيء أُهلك به قومٌ فهو صاعقة وصيحة.

وأخرج ابن جرير[٦] عنه ﴿مُشْرِقِينَ﴾ قال: حين أشرقت الشمس.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم عن ابن عباس[٧] في قوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ قال: علامةً أما ترى الرجل يرسل خاتمه إلى أهله، فيقول: هاتوا كذا وكذا، فإذا رأوه عرفوا أنّه حق.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم[٨] عنه ﴿لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ قال: للناظرين.

وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في «العظمة» عن قتادة[٩] قال: للمعتبرين.

---

(١) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٩٠).
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٩٣) بسند حسن.
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٩٢)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٤٩) بسند صحيح.
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٩٢) من طريق سفيان الثوري، به.
(٥) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٩٠).
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٩٣).
(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٩٩)، والحاكم (٢/ ٣٥٤) بسند صحيح.
(٨) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٩٥) عن ابن عباس بسند صحيح.
(٩) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٩٥ ـ ٩٦)، وأبو الشيخ في «العظمة» رقم (٥٠) بسند صحيح.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد[١] قال: للمتفرّسين.

وأخرج البخاري في «التاريخ»، والترمذي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن السني، وأبو نعيم، وابن مردويه، والخطيب عن أبي سعيد[٢] الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا فِراسةَ المؤمن، فإنّه ينظر بنور الله، ثم قرأ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾».

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس[٣] ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ يقول: لبهلاك.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد[٤] قال: لبطريقٍ مقيم.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة[٥] قال: لبطريق واضح.

[قوم شعيب: أصحاب الأيكة. وقوم صالح: أصحاب الحجر وهلاكهم بظلمهم وتكذيبهم الرسل]

﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ﴾ «إن» هي المخففة[٦] من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن المحذوف؛ أي: وإن الشأن كان أصحاب الأيكة. والأيكة: الغَيْضة، وهي جماعُ الشّجَر، والجمع: الأَيْك. ويروى أَنّ شجرهم كان دَوْماً، وهو المُقْل.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٩٥) بسند صحيح.

(٢) أخرجه البخاري في «تاريخه» (٧/ ٣٥٤)، والترمذي رقم (٣١٢٧)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٩٦)، والخطيب في «تاريخه» (٣/ ١٩١) و(٧/ ٢٤٢). وهو حديث ضعيف. والله أعلم.

(٣) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٧٢٢٠).

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٩٨) بسند صحيح.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٩٨) بسند صحيح.

(٦) «الفريد» (٣/ ٢٠٨)، و«روح المعاني» (١٣/ ٥٣٣).

فالمعنى: وإنْ كان أصحاب الشجر المجتمع؛ وقيل: الأيكة اسم القرية التي كانوا فيها.

قال أبو عُبيدة(١): الأيكة ولَيْكة مدينتهم كمكة وبكة، وأصحابُ الأيكة هم قوم شُعيب، وقد تقدّم خبرُهم، واقتصر الله سبحانه [٣/١٣٥] هنا على وصفهم بالظلم، وقد فصّل ذلك الظلم فيما سبق، والضمير في ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ يرجع إلى مدينة قوم لوط، ومكان أصحاب الأيكة؛ أي: وإنّ المكانين لبطريق واضح، والإمام اسم لما يُؤتمّ به، ومِنْ جملة ذلك الطريق التي تُسْلَك.

قال الفراء(٢) والزجاج(٣): سُمّي الطريق إماماً؛ لأنّه يؤتمّ ويتّبع.

وقال ابنُ قتيبة(٤): لأنّ المسافر يأتمّ به حتّى يصل إلى الموضع الذي يريده، وقيل: الضمير للأيكة ومَدْين لأنّ شعيباً كان يُنسب إليهما.

ثم إن الله سبحانه ختم القصص بقصة ثمود فقال: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ الحِجْر اسمٌ لديار ثمود، قاله الأزهري(٥). وهي ما بين مكة وتبوك.

وقال ابن جرير(٦): هي أرض بين الحجاز والشام. وقال: ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، ولم يرسل إليهم إلّا صالح؛ لأنّ مَنْ كذب واحداً من الرسل فقد كذب الباقين لكونهم متفقين في الدعوة إلى الله.

وقيل: كذبوا صالحاً ومَنْ تقدّمه من الأنبياء، وقيل: كذبوا صالحاً ومن معه من المؤمنين.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا﴾؛ أي: الآيات المنزّلة على نبيهم، ومِنْ جملتها الناقة فإن فيها آياتٍ جمة كخروجها مِنْ الصخرة، ودنوّ نتاجها عند خروجها، وعظمها، وكثرة لبنها ﴿فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ أي: غير مُعْتبرين، ولهذا عقروا الناقة، وخالفوا ما أمرهم به نبيهم.

---

(١) انظر: «مجاز القرآن» (٢/ ٩٠).
(٢) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٩١).
(٣) في «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٣/ ١٨٥).
(٤) انظر: «زاد المسير» (٤/ ٤١٠).
(٥) في «تهذيب اللغة» (٤/ ١٣٠).
(٦) في «جامع البيان» (١٤/ ١٠٣ ـ ١٠٤).

﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ النّحتُ[١] في كلام العرب: البَرْيُّ والنَّجر، نَحتَه يَنْحِتُه بالكسر نحتاً؛ أي: بَراه، وفي التنزيل ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ [الصافات: ٩٥]؛ أي: تَنْجرون، وكانوا يتخذون لأنفسهم مِنْ الجبال بيوتاً؛ أي: يخرقونها في الجبال، وانتصاب ﴿ءَامِنِينَ﴾ على الحال.

قال الفرّاء[٢]: آمنين مِنْ أن يقع عليهم، وقيل: آمنين من الموت، وقيل: من العذاب ركوناً منهم على قوّتها ووثاقتها ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ أي: داخلين في وقت الصبح، وقد تقدم ذكر الصيحة في الأعراف وفي هود، وتقدم أيضاً قريباً ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ أي: لم يدفع عنهم شيئاً مِنْ عذاب الله ما كانوا يكسبون من الأموال والحصون في الجبال ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: متلبّسة بالحق، وهو ما فيهما مِنْ الفوائد والمصالح.

وقيل: المراد بالحق: مجازاة المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، كما في قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ [النجم: ٣١]. وقيل: المراد بالحق الزوال لأنها مخلوقة وكل مخلوق زائل ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ﴾ وعند إتيانها ينتقم الله ممّن يستحق العذاب، ويُحسن إلى مَنْ يستحق الإحسان، وفيه وعيد للعصاة وتهديد، ثم أمر الله سبحانه رسوله بأن يصفح عَنْ قومه، فقال: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ أي: تجاوز عنهم واعف عفواً حسناً.

وقيل: فأعرضْ عنهم إعراضاً جميلاً ولا تعجل عليهم، وعاملهم معاملة الصفوح الحليم، قيل: وهذا منسوخ[٣] بآية السيف ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: الخالق للخلق جميعاً العليم بأحوالهم وبالصالح والطالح منهم.

وقد أخرجَ ابن مُردويه، وابن عساكر عن ابن عمرو[٤] قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ مدين وأصحاب الأيكة أُمّتان[٥] بعث الله إليهما شعيباً».

---

(١) انظر: «تهذيب اللغة» (٤/ ٤٤١)، و«الصحاح» (١/ ٢٦٨).
(٢) في «معاني القرآن» (٢/ ٩١).
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ١٠٦) بسند صحيح عن قتادة.
(٤) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (١٠/ ٣٠٩ ـ مختصر ابن منظور).
(٥) قال ابن كثير في «تفسيره» (٦/ ١٦٨): والصحيح أنهم أمة واحدة، وصفوا في كل مقام =

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس[(١)] قال: أصحاب الأيكة هم قوم شعيب، والأيكة ذات آجامٍ وشجر كانوا فيها.

وأخرج ابنُ جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[(٢)] قال: الأيكة: الغَيْضة.

وأخرج ابن أبي حاتم[(٣)] عنه قال: أصحاب الأيكة: أهلُ مَدْين، والأيكة: الملتفّة مِنْ الشجر.

وأخرج ابن أبي حاتم[(٤)] عنه أيضاً قال: الأيكة مَجْمع الشيء.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه[(٥)] أيضاً قال في قوله: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾: طريق ظاهر.

وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة[(٦)] في أصحاب الحِجْر قال: أصحاب الوادي.

وأخرج ابن أبي حاتم[(٧)] عنه قال: كان أصحابُ الحِجْر ثمود وقوم صالح.

وأخرج البخاري، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عمر[(٨)] قال: قال رسول الله ﷺ لأصحاب الحجر: «لا تدخلوا على هؤلاء القوم إلّا أَنْ تكونوا باكين، فإنْ لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أَنْ يصيبكم مثل ما أصابهم».

= بشيء، ولهذا وعظ هؤلاء بوفاء الكيل والميزان كما في قصة مدين سواء بسواء، فدل ذلك على أنهم أمة واحدة.

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ١٠١) بسند ضعيف.
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٦٣٣) بسند صحيح.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨١٠) بسند ضعيف.
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٦٣٣) بسند ضعيف.
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ١٠٢) بسند ضعيف.
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ١٠٣)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٤٠) بسند صحيح.
(٧) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٧١).
(٨) أخرجه البخاري في «صحيحه» رقم (٣٣٨٠، ٣٣٨١، ٤٤١٩)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ١٠٣، ١٠٤).

وأخرجَ ابنُ مردويه[(١)] عنه قال: «نزل رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك بالحِجْر عند بيوت ثمود، فاستقى الناس مِنْ مياه الآبار التي كانت تشرب منها ثمود وعجنوا منها ونصبوا القدور باللحم، فأمرهم بإهراق القدور، وعلفوا العجين الإبل، ثُمْ ارتحل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عُذِّبوا، فقال: إنِّي أخشى أَنْ يصيبكم مثل الذي أصابهم فلا تدخلوا عليهم».

وأخرج ابنُ مردويه[(٢)] عَنْ سَبْرة بن مَعْبد أن النبي ﷺ قال بالحِجْر لأصحابه: «مَنْ عَمِل من هذا الماء شيئاً فليُلْقِه»، قال: ومنهم من عجَن العجين، ومِنْهم مَنْ حاس الحَيْسَ.

وأخرج ابن مردويه، وابنُ النجار عَنْ عليّ[(٣)] في قوله: ﴿فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾ قال: الرضا بغير عتاب.

وأخرج البيهقي في «الشعب»[(٤)] عن ابن عباس مثلَه.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد[(٥)] قال: هذه الآية قبل القتال.

وأخرج ابن أبي حاتم[(٦)] عن عكرمة مثلَه.

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلۡ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾.

---

(١) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٩٣).
(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٩٤).
(٣) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٩٤).
(٤) أخرجه البيهقي في «الشعب» رقم (٨٣٣٩).
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ١٠٦) بسند ضعيف.
(٦) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٨/ ٦٤٥).

اختلف أهل العلُم في السبع المثاني ماذا هي؟ فقال جمهور[١] المفسرين: إنها الفاتحة. قال الواحدي[٢] وأكثر المفسرين على أنها فاتحة الكتاب، وهو قول عُمر[٣]، وعليّ، وابن مسعود، والحسن، ومجاهد، وقتادة، والربيع، والكلبي.

وزاد القرطبي[٤]: أبا هريرة وأبا العالية، وزاد النيسابوري[٥]: الضحاك وسعيد بن جبير.

وقد روي ذلك مِنْ قول رسول الله ﷺ كما سيأتي بيانه فتعين المصير إليه.

وقيل: هي السبع[٦] الطوال: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والسابعة: الأنفال والتوبة؛ لأنّهما كسورة واحدة إذ ليس بينهما تسمية، روي هذا القول عن ابن عباس[٧].

وقيل: المراد بالمثاني[٨]: السبعة الأحزاب فإنّها سبع صحائف، والمثاني: جمع مثناة مِنْ التثنية أو جمع مثنية.

وقال الزجاج[٩]: تُثنّى بما يقرأ بعدها معها، فعلى القول الأوّل يكون وجه تسمية الفاتحة مثاني: أَنّها تُثنّى؛ أي: تكرّر في كل صلاة، وعلى القول بأنها السبع الطوال فوجه التسمية: إنّ العبر والأحكام والحدود كُرِّرتْ فيها، وعلى القول بأنّها السبعة الأحزاب يكون وجه التسمية: هو تكرير ما في القرآن من القصص ونحوها.

---

(١) «جامع البيان» (١٠٧/١٤)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٢٥٠ ـ ٢٥١)، و«المحرر الوجيز» (١٠/ ١٤٩ ـ ١٥٠).

(٢) في «الوسيط» (٣/ ٥١ ـ ٥٢).

(٣) أخرجه عنهم ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ١١٦).

(٤) في «تفسيره» (١٢/ ٢٥٠).

(٥) «الوسيط» (٣/ ٥١)، و«زاد المسير» (٤/ ٤١٣).

(٦) «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٢٥٠ ـ ٢٥١)، و«الوسيط» (٣/ ٥١)، و«المحرر الوجيز» (١٠/ ١٤٩ ـ ١٥٠).

(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ١٠٨)، والنسائي في «المجتبى»، وفي «السنن الكبرى» رقم (١١٢٧٦)، والحاكم (٢/ ٣٥٥)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٢٤١٧)، والطحاوي في «المشكل» (٣/ ٢٤٧) من طرق.

(٨) انظر: «روح المعاني» (٣/ ٥٤٢ ـ ٥٤٣)، و«المحرر الوجيز» (١٠/ ١٥٠).

(٩) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ١٨٥).

وقد ذهب[١] إلى أن المراد بالسبع المثاني: القرآن كلُّه، الضحّاك، وطاوس، وأبو مالك، وهو رواية عَنْ ابن عباس واستدلوا بقوله تعالى: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣].

وقيل: المراد بالسبع المثاني أقسام القرآن وهي: الأمر، والنهي، والتبشير، والإنذار، وضرب الأمثال، وتعريف النِّعم، وأنباء قرون ماضية. قاله زياد[٢] بن أبي مريم.

ولا يخفى عليك أَنَّ تسمية الفاتحة مثاني لا تستلزم نفي تسمية غيرها بهذا الاسم، وقد تقرّر أَنّها المرادة بهذه الآية، فلا يقدح في ذلك صدق وصف المثاني على غيرها ﴿وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ معطوف على ﴿سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾، ويكون من عطف العام على الخاص لأنَّ الفاتحة بعض من القرآن، وكذلك إنْ أريد بالسبع المثاني السبع الطوال لأنَّها بعضٌ مِنْ القرآن، وأما إذا أريد بها السبعة الأحزاب أو جميع القرآن أو أقسامه، فيكون من باب عطف أحد الوصفين على الآخر، كما قيل في قول الشاعر:

إلى الملكِ القَرْم وابنِ الهُمام[٣]

وممّا يقوي كون السبع المثاني هي الفاتحة: أنّ هذه السورة مكية[٤]، وأكثر السبع الطوال مدنية، وكذلك أكثر القرآن وأكثر أقسامه.

وظاهر قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ أنّه قد تقدّم إيتاء السبع على نزول هذه الآية، و «من» في ﴿مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ للتبعيض[٥] أو البيان على اختلاف الأقوال، ذكر معنى ذلك الزجاج[٦] فقال: هي للتبعيض إذا أردت بالسبع الفاتحة أو الطوال، وللبيان إذا أردت الإشباع.

---

(١) انظر هذه الأقوال في: «جامع البيان» (١٤/ ١٢٠ ـ ١٢١)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٢٥١)، وفي «روح المعاني» (١٣/ ٥٤٣).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ١١٩ ـ ١٢٠)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٢٤٢١) بسند ضعيف.

(٣) انظر: «خزانة الأدب» (١/ ٤٥١) (٥/ ١٠٧) (٦/ ٩١).

(٤) «روح المعاني» (٣/ ٥٤٣)، و«المحرر الوجيز» (١٠/ ١٥١)، و«معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٣/ ١٨٥ ـ ١٨٦).

(٥) «روح المعاني» (١٣/ ٥٤٢)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ٣١٠).

(٦) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ١٨٥).

ثم لمّا بيّن لرسوله الله ﷺ ما أنعم به عليه من هذه النعمة الدينية، نفّره عن اللذّات العاجلة الزائلة فقال: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ أي: لا تطمح ببصرك إلى زخارف الدنيا طموح رغبة فيها وتمنّ لها، والأزواج الأصناف، قاله ابن قتيبة.

وقال الجوهري[١]: الأزواج: القُرَناء.

قال الواحدي[٢]: إنما يكون مادّاً عينيه إلى الشيء إذا أدام النظر نحوه، وإدامة النظر إليه تدل على استحسانه وتمنيه.

وقال بعضُهم: [٣/١٣٦] معنى الآية: لا تحسدنّ أحداً على ما أوتي من الدنيا، ورُدّ بأنّ الحسد منهي عنه مطلقاً، وإنما قال في هذه السورة ﴿لَا تَمُدَّنَّ﴾ بغير واو؛ لأنّه لم يسبقه طلب بخلاف ما في سورة طه. ثم لما نهاه عن الالتفات إلى أموالهم وأمتعتهم نهاه عَنْ الالتفات إليهم فقال: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ حيثُ لم يؤمنوا، وصمّموا على الكفر والعناد.

وقيل: المعنى: لا تَحْزنْ على ما مُتّعوا به في الدنيا فلك الآخرة. والأول أولى، ثم لما نهاه عن أن يمد عينيه إلى أموال الكفار ولا يحزن عليهم. وكان ذلك يستلزم التهاون بهم وبما معهم أمره أنْ يتواضع للمؤمنين، فقال: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وخفض الجناح كناية عَنْ التواضع[٣] ولِين الجانب، ومنه قوله سبحانه: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ [الإسراء: ٢٤]، وقول الكُميت[٤]:

خفضْتُ لهم مني جَناحِي مودةً ... إلى كَنَفٍ عِطْفاهُ أهلٌ ومرحبُ

أصله: أنّ الطائر إذا ضمَّ فرخه إلى نفسِه بسط جناحه، ثم قبضه على الفرخ فجعل ذلك وصفاً لتواضع الإنسان لأتباعه؛ ويقال: فلان خافض الجناح؛ أي: وقور ساكن، والجناحان من ابن آدم جانباه، ومنه ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ [طه: ٢٢]، ومنه قول الشاعر:

---

(١) في «تهذيب اللغة» (١١/١٥١).

(٢) انظر: «الوسيط» (٣/٥١).

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/٢٥٤)، و«جامع البيان» (١٤/١٢٨)، و«روح المعاني» (١٣/٥٤٥).

(٤) انظر: «التذكرة الحمدونية» (٤/٣٩).

وحسبُك فتنةً لزعيمِ قومٍ يمدُّ على أخي سُقمٍ جَناحا[١]

﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: المنذر المُظْهر لقومه ما يصيبهم من عذاب الله ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾ قيل: المفعول[٢] محذوف؛ أي: مفعول ﴿أَنزَلْنَا﴾، والتقدير: كما أنزلنا على المقتسمين عذاباً، فيكون المعنى: إنّي أنا النذير المبين لكم من عذابٍ مثل عذاب المُقْتسمين الذي أنزلناه عليهم؛ كقوله تعالى: ﴿أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣]؛ وقيل: إنّ الكاف زائدة[٣].

والتقدير: إنِّي أنا النذير المبين أنذرتكم ما أنزلنا على المقتسمين مِنْ العذاب؛ وقيل: هو متعلق بقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ﴾ أي: أنزلنا عليك مثل ما أنزلنا على أهل الكتاب وهم المقتسمون، والأولى أنْ يتعلق بقوله: ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾؛ لأنه في قوّة الأمر بالإنذار.

وقد اختلف في المقتسمين مَنْ هم؟

فقال الفراء[٤]: هم ستة عشر رجلاً بعثهم الوليد بن المغيرة أيام الموسم، فاقتسموا أنقاب مكة وفجاجها يقولون لمن دخلها: لا تغتروا بهذا الخارج فينا فإنه مجنون، وربما قالوا: ساحر، وربما قالوا: شاعر، وربما قالوا: كاهن، فقيل لهم: مقتسمين لأنّهم اقتسموا هذه الطرق[٥].

وقيل: إنّهم قوم مِنْ قريش اقتسموا كتاب الله، فجعلوا بعضه شعراً، وبعضه سحراً، وبعضه كهانة، وبعضه أساطير الأوّلين، قاله قتادة[٦].

وقيل: هم أهل الكتاب، وسُمّوا مقتسمين لأنهم كانوا يقتسمون القرآن[٧] استهزاء، فيقول بعضُهم: هذه السورة لي وهذه لك، روي هذا عن ابن عباس[٨].

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٢/ ٢٥٥)، والماوردي في «النكت والعيون» (٣/ ١٧١).
(٢) «روح المعاني» (١٣/ ٥٤٥)، و«التبيان» (٢/ ٧٨٧)، و«الفريد» (٣/ ٢٠٩)، و«الدر المصون» (٧/ ١٧٩ ـ ١٨٠).
(٣) انظر: المصادر المتقدمة.
(٤) «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٩١ ـ ٩٢).
(٥) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٢٥٥ ـ ٢٥٦)، و«جامع البيان» (١٤/ ١٢٩).
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ١٣٥) بسند صحيح.
(٧) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٢/ ٢٥٦).
(٨) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ١٣١) بسند ضعيف.

وقيل[١]: إنَّهم قسموا كتابَهم وفرّقوه وبدّدوه وحرّفوه.

وقيل: المراد: قوم صالح تقاسموا على قتله، فسُمّوا مقتسمين كما قال تعالى: ﴿تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾ [النمل: ٤٩]؛ وقيل: تقاسموا أيماناً تحالفوا عليها، قاله الأخفش[٢].

وقيل: إنّهم العاص بن وائل، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو جهل ابن هشام والنضر بن الحارث، وأمية بن خلف، ومنبّه بن الحجاج ذكره الماوردي[٣] ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ جمع عِضَة[٤]، وأصلها: عِضْوة فِعْلة من عضى الشاة: إذا جعلها أجزاء، فيكون المعنى على هذا: الذين جعلوا القرآن أجزاءً متفرقة؛ بعضه شعر، وبعضه سحر، وبعضه كهانة ونحو ذلك.

وقيل: هو مأخوذ مِنْ عَضهتُه إذا بهتّه، فالمحذوف منه[٥] الهاء لا الواو، وجُمعتْ العضة على المعنيين جمع العقلاء لما لحقها مِنْ الحذف فجعلوا ذلك عوضاً عما لحقها من الحذف.

وقيل: معنى عِضين إيمانهم ببعض الكتاب وكفرهم ببعض، ومما يؤيد، أن معنى ﴿عِضِينَ﴾ التفريق[٦]، قول رؤبة[٧]:

وليسَ دينُ اللّه بالمُعَضَّى

أي: بالمفرَّق، وقيل: العضة والعضين في لغة قريش: السِّحْر، وهم يقولون للساحر: عاضه، وللساحرة: عاضهة، ومنه قول الشاعر[٨]:

أعوذُ بربي مِنْ النافثاتِ في عُقَد العاضِه والمُعْضِهِ

وفي الحديث[٩] «أَنَّ رسول الله ﷺ لعن العاضِهة والمُستَعْضِهة» وفُسّر بالساحرة

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ١٣١) عن مجاهد بسند ضعيف.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٢/ ٢٥٦). (٣) في «النكت والعيون» (٣/ ١٧٣).

(٤) «تهذيب اللغة» (١/ ١٣٠)، و«مفردات ألفاظ القرآن» (ص٥٧١).

(٥) انظر: التعليقة المتقدمة.

(٦) انظر: «تهذيب اللغة» (١/ ١٣٠)، و«مفردات ألفاظ القرآن» (ص٥٧١).

(٧) انظر: «ديوانه» (ص٨١).

(٨) انظره في: «تهذيب اللغة» (١/ ١٣٠)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٢٥٧).

(٩) أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٣/ ٣٣٩) بسند ضعيف، لضعف زمعة بن صالح، وسلمة بن وهرام. وهما ضعيفان.

والمستسحِرة، والمعنى: أَنَّهم أكثروا البُهت على القرآن، وسمّوه سحراً وكذباً وأساطير الأوّلين، ونظير عضه في النقصان شَفَه، والأصل شفَهَة، وكذلك سَنَة، والأصل سَنْهة.

قال الكسائي[١]: العِضَه: الكذبُ والبُهتان، وجمعها عِضُون.

وقال الفراء[٢]: إنّه مأخوذ مِنْ العِضاه، وهي شجرُ يؤذي ويجرح كالشوك، ويجوز أَنْ يراد بالقرآن التوراة والإنجيل لكونهما مما يقرأ، ويراد بالمقتسمين هم اليهود والنصارى؛ أي: جعلوهما أجزاء متفرّقة، وهو أحد الأقوال المتقدّمة ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: لنسألنّ هؤلاء الكفرة أجمعين يوم القيامة ﴿عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا من الأعمال التي يحاسبون عليها ويسألون عنها.

وقيل: إن المراد: سؤالهم عن كلمة التوحيد، والعموم في ﴿عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، يُفيد ما هو أوسع مِنْ ذلك؛ وقيل: إن المسؤولين ها هنا هم جميع[٣] المؤمنين والعصاة والكفار، ويدلّ عليه قوله: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨]، وقوله: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤]، وقوله: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٥ ـ ٢٦]. ويمكن أن يقال: إنّ قصر هذا السؤال على المذكورين في السياق، وصرف العموم إليهم لا ينافي سؤال غيرهم. ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾.

قال الزجاج[٤]: يقول: أَظْهِر ما تؤمر به، أُخذ مِنْ الصديع وهو الصبح انتهى. وأصل الصدع: الفَرْق والشَّقُّ، يقال: صدعته فانصدع؛ أي: انشق، وتصدّع القوم؛ أي: تفرّقوا، ومنه ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم: ٤٣]؛ أي: يتفرقون.

قال الفراء[٥]: أراد فاصدع بالأمر؛ أي: أظهر دينك فـ(ما) مع الفعل على هذا بمنزلة المصدر.

---

(١) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٠/ ١٥٢)، والقرطبي في «تفسيره» (١٢/ ٢٥٨).
(٢) في «معاني القرآن» للفراء (٩٢١٢).
(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٢/ ٢٥٩ ـ ٢٦٠).
(٤) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ١٨٦ ـ ١٨٧).
(٥) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٩٣).

وقال ابن الأعرابي[١]: معنى اصدع بما تؤمر؛ أي: اقصد؛ وقيل: فاصدع بما تُؤمر؛ أي: فَرّق جمعهم وكلمتهم بأنْ تدعوهم إلى التوحيد فإنهم يتفرّقون، والأولى أنّ الصدع الإظهار، كما قاله الزجاج[٢] والفراء[٣] وغيرهم.

قال النحْويون[٤]: المعنى: بما تُؤمر به مِنْ الشرائع، وجوّزوا أن تكون مصدرية؛ أي: بأمرك وشأنك.

قال الواحدي[٥]: قال المفسرون: أي: اجهرْ بالأمر؛ أي: بأمرك بعد إظهار الدعوة، وما زال النبي ﷺ مستخفياً حتى نزلت هذه الآية.

ثم أمره سبحانه بعد أمره بالصدع بالإعراض وعدم الالتفات إلى المشركين، فقال: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾؛ أي: لا تبال بهم، ولا تلتفت إليهم إذا لاموك على إظهار الدعوة، ثم أكد هذا الأمر وثبَّت قلب رسوله بقوله: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ مع كونهم كانوا مِنْ أكابر الكفار، وأهل الشوكة فيهم فإذا كفاه الله أمرهم بقمعهم، وتدميرهم كفاه أمر من هو دونهم بالأولى، وهؤلاء المستهزئون كانوا خمسة من رؤساء أهل مكة:

الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب بن أسد أبو زمعة، والأسود بن عبد يغوث، والحارث بن الطُّلاطلة.

كذا قال القرطبي[٦] ووافقه غيره مِنْ المفسرين[٧].

وقد أهلكهم الله جميعاً وكفاه أمرهم في يومٍ واحد.

ثم وصف هؤلاء المستهزئين بالشرك فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ فلم يكن ذنبهم مجرّد الاستهزاء؛ بل لهم ذنب آخر وهو الشرك بالله سبحانه، ثم توعدهم فقال: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ كيف عاقبتهم في الآخرة، وما يصيبهم من عقوبة الله سبحانه، ثم ذكر تسليةً أخرى لرسول الله ﷺ بعد التسلية الأولى بكفايته

(١) انظر: «تهذيب اللغة» (٢/ ٦).
(٢) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ١٨٧).
(٣) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٩٣).
(٤) «التبيان» (٢/ ٧٨٧)، و«الفريد» (٣/ ٢١١)، و«الدر المصون» (٧/ ١٨٤)، و«روح المعاني» (١٣/ ٥٥٤ ـ ٥٥٥).
(٥) في «الوسيط» (٣/ ٥٣).
(٦) في «تفسيره» (١٢/ ٢٦١ ـ ٢٦٢).
(٧) «جامع البيان» (١٤/ ١٤٦).

شرَّهم ودفعه لمكرهم فقال: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ مِنْ الأقوال الكفرية المتضمنة للطعن على رسول الله ﷺ بالسحر والجنون والكهانة والكذب.

وقد كان يحصل ذلك مع رسول الله ﷺ بمقتضى الجبلّة البشرية والمزاج الإنساني.

[من فوائد التسبيح والحمد والعبادة]

ثم أمره سبحانه بأن يَفْزع لكشف ما نابه مِنْ ضيق الصدر إلى تسبيح الله سبحانه وحمده فقال: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾؛ أي: متلبِّساً بِحمده؛ أي: افعل التسبيح المتلبس بالحمد ﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾؛ أي: المصلّين فإنكَ إذا فعلت ذلك كشف الله همك وأذهب غمك وشرح صدرك، ثم أمره بعبادة ربه؛ أي: بالدوام عليها إلى غاية هي قوله: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [٣/١٣٧]؛ أي: الموت.

قال الواحدي[١]: قال جماعة المفسرين: يعني: الموت؛ لأنّه موقن به.

قال الزجاج[٢]: المعنى: اعبد ربك أبداً؛ لأنّه لو قيل: اعبد ربك بغير توقيت لجاز إذا عبد الإنسان مرّة أن يكون مطيعاً، فإذا قال: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾، فقد أمره بالإقامة على العبادة أبداً ما دام حيّاً.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر عن عمر[٣] في قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ قال: السبع المثاني: فاتحة الكتاب.

وأخرجه سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والدارقطني وابن مردويه، والبيهقي من طرق عن عليّ[٤] بمثله.

وأخرجه ابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه عن ابن مسعود[٥] مثله وزاد: والقرآن العظيم سائر القرآن.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس[٦] في الآية قال: فاتحة الكتاب استثناها الله لأمة محمد،

---

(١) في «الوسيط» (٣/ ٥٣).
(٢) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ١٨٧).
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ١١٢، ١١٣) من طريق أبي نضرة، به.
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ١١٣)، وابن الضريس رقم (١٥٤)، والدارقطني (١/ ٣١٣)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٢٣٥٣) بسند حسن.
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ١١٤)، وابن الضريس رقم (١٥٣) بسند ضعيف.
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ١١٤)، والطبراني رقم (١١٧٠٠)، والحاكم (٢/ ٢٥٧)، =

فرفعها في أمّ الكتاب فادّخرها لهم حتى أخرجَها ولم يعطها أحد قبل؛ قيل: فأين الآية السابعة؟ قال: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾. وروي عَنْه نحو هذا من طرق.

وأخرج ابن الضريس، وأبو الشيخ، وابن مردويه عن أبي هريرة[١] قال: السبع المثاني: فاتحة الكتاب.

وأخرج ابن جرير عن أُبيّ بن كعب[٢] قال: السبع المثاني ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]. وروي نحو قول هؤلاء الصحابة عن جماعة من التابعين.

وقد ثبت في «صحيح البخاري»[٣] مِنْ حديث أبي سعيد بن المعلّى أنه قال له النبي ﷺ: «ألا أعلمك أفضل سورة قبل أن أخرج من المسجد؟ فذهب النبي ﷺ ليخرج فذكرت؛ فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] هي السبع المثاني والقرآن العظيم».

وأخرج البخاري[٤] أيضاً مِنْ حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أمّ القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم»، فوجب بهذا المصير إلى القول بأنها فاتحة الكتاب، ولكن تسميتها بذلك لا ينافي تسمية غيرها به كما قدّمنا.

وأخرج ابن مردويه[٥] عن عمر قال في الآية: هي السبع الطوال.

وأخرج ابن جرير[٦] عن ابن مسعود مثله.

وأخرج الفريابي، وأبو داود، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس[٧] قال في الآية: هي السبع الطوال.

= والبيهقي في «السنن الكبرى» (٢/ ٤٤، ٤٥)، وابن المنذر في «الأوسط» رقم (١٣٥١). وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ٣١٤): «رواه الطبراني وفيه أبو سعد البقال وهو مولس».

(١) أخرجه ابن الضريس رقم (١٤٧) بسند صحيح.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ١١٦) بسند صحيح.

(٣) أخرجه البخاري في «صحيحه» رقم (٤٤٧٤، ٤٦٤٧) ورقم (٥٠٠٦)، وأبو داود رقم (١٤٥٨)، والنسائي في «التفسير» رقم (٢٩٥).

(٤) أخرجه البخاري في «صحيحه» رقم (٤٧٠٤).

(٥) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٩٧).

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ١٠٧) من طريق ابن سيرين، به.

(٧) أخرجه أبو داود رقم (١٤٥٩)، والنسائي رقم (٩١٤، ٩١٥)، وابن جرير في «جامع البيان» =

وأخرج الدارمي، وابن مردويه عن أُبيّ بن كعب[١] مثله.

وروي نحو ذلك عن جماعة من التابعين.

وأخرج ابن مردويه[٢] من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: هي فاتحة الكتاب، والسبع الطوال.

وأخرج ابن جرير[٣] عنه في الآية قال: ما ثُنّي مِنْ القرآن، ألم تسمع لقول الله: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣]؟

وأخرج ابن جرير[٤] عن الضحاك قال: المثاني: القرآن يذكر الله القصة الواحدة مراراً.

وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن زياد بن أبي مريم[٥] في الآية قال: أعطيتُك سبعةَ أجزاء: مر، وانَه، وبشّر، وأنذر، واضرب الأمثال، واعدد النِّعم، واتل نبأ القرآن.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس[٦] في قوله: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ قال: نهى الرجل أن يتمنّى مال صاحبه.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد[٧] في قوله: ﴿أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ قال: الأغنياء الأمثال والأشباه.

وأخرج ابن المنذر عن سفيان بن عيينة[٨] قال: مَنْ أُعطي القرآن فمدّ عينه إلى شيء مما صغّر القرآن فقد خالف القرآن، ألم يسمع إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي﴾، وإلى قوله: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٣١]؟

= (١٠٨/١٤)، والطبراني رقم (١١٠٣٨)، والحاكم (٢/ ٣٥٤)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٢٣٥٧، ٢٤٢٣). وهو حديث صحيح.

(١) أخرجه الدارمي في «السنن» (٢/ ٤٤٦).

(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٩٦).

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ١٢٠ ـ ١٢١) بسند ضعيف.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ١٢١) بسند حسن.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ١١٩، ١٢٠)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٢٤٢١) بسند ضعيف.

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ١٢٨) بسند ضعيف.

(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ١٢٧ ـ ١٢٨) بسند صحيح.

(٨) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٩٧).

وقد فسر ابن عيينة أيضاً الحديث الصحيح[(١)]: «ليس منّا مِنْ لم يتغن بالقرآن»، فقال: إن المعنى: يَسْتغني به.

وأخرج ابنُ أبي حاتم[(٢)] عَنْ سعيد بن جبير في قوله: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾ قال: اخضع.

وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، والبخاري، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم، وابن مردويه من طرق عن ابن عباس[(٣)] في قوله: ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾ الآية قال: هم أهل الكتاب جزّءوه أجزاء، فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه.

وأخرج ابن جرير[(٤)] من طريق عليّ بن أبي طلحة عنه قال: عضين فرقاً.

وأخرج ابن إسحاق، وابن أبي حاتم، وأبو نعيم، والبيهقي عن ابن عباس[(٥)] أنها نزلت في نفر من قريش كانوا يصدّون الناس عن رسول الله ﷺ منهم: الوليد بن المغيرة.

وأخرج الترمذي، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أنس[(٦)] عَنْ النبي ﷺ في قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ قال: «عن قول: لا إله إلّا الله».

وأخرجه ابن أبي شيبة، والترمذي، وابن جرير، وابن المنذر من وجه آخر عن أنس[(٧)] موقوفاً.

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٧٥٢٦)، وأبو داود رقم (١٤٧٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٩٧).
(٣) أخرجه البخاري رقم (٣٩٤٥، ٤٧٠٥، ٤٧٠٦)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ١٢٩، ١٣٠، ١٣٤)، والحاكم (٢/ ٣٥٥).
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ١٣٤) بسند صحيح.
(٥) أخرجه الطبراني رقم (٦٢٠٤).
قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٤٦): فيه حبيب بن حسان، وهو ضعيف.
(٦) أخرجه الترمذي رقم (٣١٢٦)، وأبو يعلى رقم (٤٠٥٨)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ١٤٠) بسند ضعيف.
(٧) أخرجه البخاري في «تاريخه» (٢/ ٨٦)، وابن أبي شيبة (١٣/ ٣٦٥)، والترمذي بإثر الحديث رقم (٣١٢٦).

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عمر[1] مثله.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طريق عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس[2] ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾: فامْضِه، وفي عليّ بن أبي طلحة مقال معروف.

وأخرج ابن جرير عن أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود[3] قال: ما زال النبي ﷺ مستخفياً حتى نزل ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾ فخرج هو وأصحابه.

وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير عن ابن عباس[4] في الآية قال: هذا أمر من الله لنبيِّه بتبليغ رسالته قومَه، وجميع مَنْ أرسل إليه.

وأخرج ابن المنذر[5] عنه ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾ قال: أعلن بما تؤمر.

وأخرج أبو داود في «ناسخه»، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[6] ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ قال: نسخه قوله تعالى: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥].

وأخرج الطبراني في «الأوسط»، وابن مردويه، وأبو نعيم، والضياء في المختارة عن ابن عباس[7] في قوله: ﴿إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ﴾ قال: المستهزئون: الوليد بن المغيرة، والأسود بن يغوث، والأسود بن المطلب، والحارث بن عيطل السهمي، والعاص بن وائل، وذكر قصة هلاكهم.

وقد روي هذا عن جماعة من الصحابة مع زيادة في عددهم ونقص على طول في ذلك.

وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، والحاكم في «التاريخ»، وابن مردويه، والديلمي عن أبي مسلم[8] الخولاني قال: قال رسول الله : «ما أوحي إليّ أن أجمع

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ١٤١)، وابن أبي شيبة (١٣/ ٣٢٨) بسند ضعيف.
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ١٤٢) بسند صحيح.
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ١٤٣) بسند ضعيف.
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ١٤١، ١٤٢) بسند ضعيف.
(٥) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ١٠٠).
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٧٤) من طريق علي عن ابن عباس.
(٧) أخرجه الطبراني رقم (٤٩٨٦)، والبيهقي (٢/ ٣١٦ ـ ٣١٨)، والضياء في «المختارة» (١٠/ ٩٦).
وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٤٧): «فيه محمد بن عبد الحليم ولم أعرفه».
(٨) عزاه إليهم السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ١٠٥).

المال وأكن مِنْ التاجرين، ولكن أوحي إليّ أَنْ سبّح بحمد ربك وكن من الساجدين. ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾.

وأخرج ابن مردويه(١) عن ابن مسعود مرفوعاً مثله.

وأخرج ابن مردويه، والديلمي عن أبي الدرداء(٢) مرفوعاً نحوه.

وأخرج الخطيب في «المتفق والمفترق» من طريق عبيد الله بن أبان بن عثمان بن حذيفة(٣) بن أوس الطائفي قال: حدثني أبان بن عثمان عن أبيه، عن جدّه يرفعه مثل حديث أبي مسلم الخولاني.

وأخرج ابن أبي شيبة(٤) عن سالم بن عبد الله بن عمر ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ قال: الموت.

وأخرج ابن المبارك(٥) عن الحسن مثلَه.

وأخرج ابن جرير(٦) عن ابن زيد مثلَه.

---

(١) أخرجه ابن مردويه كما في «تخريج أحاديث الإحياء» (٢/ ١٠٢٣) (٤/ ١٩٤٣).
قال الحافظ العراقي: بسند فيه لين.
وأخرجه ابن عدي في «الكامل» (٥/ ١٨٩٧) في ترجمة عيسى بن سليمان أبي طيبة وقال: هذه الأحاديث... كلها غير محفوظة، وأبو طيبة هذا كان رجلاً صالحاً، ولا أظن أنه كان يتعمد الكذب، ولكنه لعله كان يشبه عليه فيغلط.

(٢) أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٣/ ٩٣٩) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه في ترجمة خصيب بن جحدر. وقال: أحاديثه لا يتابعه أحد عليها، وربما روى عنه ضعيف.. فلعل البلاء منهم لا فيه.
وأخرجه الديلمي رقم (٦٢٩٧) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الخطيب في «المتفق والمفترق» رقم (٢٥) بسند ضعيف.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ١٥٤ ـ ١٥٥)، وابن أبي شيبة (١٣/ ٥٢١) من طريق طارق بن عبد الرحمٰن، به.

(٥) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» رقم (١٩).

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ١٥٦) بسند صحيح.

سُورَةُ النَّحْلِ

آياتها مائة آية وثمان وعشرون آية.

وهي مكية كلها[(١)] في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر.

ورواه ابن مردويه[(٢)] عن ابن عباس وعن أبي الزبير.

وأخرج النحاس من طريق مجاهد عن ابن عباس[(٣)] قال: سورة النحل نزلت بمكة سوى ثلاث[(٤)] آيات مِنْ آخرها، فإنهنّ نزلن بين مكة والمدينة في منصرف رسول الله ﷺ من أُحد.

وقيل: وهي قوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ الآية [النحل: ١٢٦].

وقوله: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧] في شأن التمثيل بحمزة وقتلى أُحد.

[سورة النعم]:

وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ الآية [النحل: ١١٠].

وقيل: الثالثة ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ إلى قوله: ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٥، ٩٦]، وتُسمّى هذه السورة سورة النِّعم[(٥)] بسبب ما عَدّد الله فيها.

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٢٦٦)، و«روح المعاني» (١٤/ ٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٨٩).

(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ١٠٧).

(٣) أخرجه النحاس في «ناسخه» (ص٥٤١).

(٤) انظر: «الإتقان في علوم القرآن» (١/ ٤٩).

(٥) «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٢٦٦).
وقال السيوطي في «الإتقان» (٢/ ٣٥٩)، قال قتادة: «تسمَّى سورة النِّعَم» أخرجه ابن أبي حاتم. قال ابن الفرس: «إنما عدّد الله فيها من النِّعم على عباده».

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

[من دلائل وحدانية الله]:

﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٤ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩﴾.

قوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: عقابه للمشركين، وقال جماعة مِنْ المفسرين(١): القيامة.

قال الزجاج(٢): هو ما وعدهم به مِنْ المجازاة على كفرهم، وعبّر عن المستقبل بلفظ الماضي تنبيهاً على تحقق وقوعه؛ وقيل: إنّ المراد بأمر الله: حكمُه(٣) بذلك، وقد وقع وأتى، فأمّا المحكوم به فإنّه لم يقع؛ لأنّه سبحانه حكم بوقوعه في وقت معين، فقبل مجيء ذلك الوقت [٣/١٣٨] لا يخرج إلى الوجود.

وقيل: إنّ المراد بإتيانه: إتيان مباديه(٤) ومقدّماته ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ نهاهم عن استعجاله؛ أي: فلا تطلبوا حضورَه قبل ذلك الوقت، وقد كان المشركون يستعجلون عذابَ الله، كما قال النضر بن الحارث: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ الآية [الأنفال: ٣٢].

والمعنى: قَرُب أمرُ الله فلا تستعجلوه، وقد كانَ استعجالهم له على طريقة

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٢٦٧)، و«جامع البيان» (١٤/ ١٥٨).

(٢) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ١٨٩).

(٣) «جامع البيان» (١٤/ ١٥٨)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٢٦٧).

(٤) قال القرطبي في «تفسيره» (١٢/ ٢٦٧): الضحاك: «إنه ما جاء به القرآن من فرائضه وأحكامه». وفيه بعد؛ لأنه لم ينقل أنّ أحداً من الصحابة استعجل فرائض الله من قبل أن تفرض عليهم. أمّا مستعجلو العذاب والعقاب فذلك منقول عن كثير من الكفار، قريش وغيرهم.

الاستهزاء مِنْ دون استعجال على الحقيقة، وفي نهيهم عن الاستعجال تهكّم بهم ﴿سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ أي: تنزّه وترفع عن إشراكهم، أو عن أن يكون له شريك، وشركهم هٰهنا هو ما وقع مِنْهم من استعجال العذاب، أو قيام الساعة استهزاء وتكذيباً، فإنه يتضمن وصفهم له سبحانه بأنه لا يقدر على ذلك، وأنه عاجز عنه، والعجز وعدمُ القدرة مِنْ صفات المخلوق لا مِنْ صفات الخالق، فكان ذلك شركاً ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ قرأ المفضّل عَنْ عاصم «تَنزَّل الملائكة»، والأصل تتنزل، فالفعل مسند إلى الملائكة.

وقرأ الأعمش «تُنزَّل» على البناء[1] للمفعول، وقرأ الجُعفي عَنْ أبي بكر عن عاصم «نُنزِّل» بالنون[2]، والفاعل هو الله سبحانه.

وقرأ الباقون ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ بالياء[3] التحتية إلّا أنّ ابن كثير وأبا عمرو يُسكنان النون، والفاعل هو الله سبحانه؛ ووجه اتصال هذه الجملة بما قبلها أنه ﷺ لما أخبرهم عن الله أنه قد قرب أمره، ونهاهم عن الاستعجال تردّدوا في الطريق التي علم بها رسول الله ﷺ بذلك، فأخبر أنه علم بها بالوحي على ألسن رسل الله سبحانه من ملائكته.

والروح: الوحيُّ، ومثلُه ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [غافر: ١٥]. وسمّي الوحي روحاً؛ لأنه يحيي[4] قلوب المؤمنين، فإن من جملة الوحي: القرآن، وهو نازل مِنْ الدين منزلة الروح من الجسد.

وقيل: المراد: أرواح الخلائق؛ وقيل: الروح: الرحمة، وقيل: الهداية لأنها تحيا بها القلوب كما تحيا الأرواح بالأبدان.

قال الزجاج[5]: الروح ما كان فيه مِنْ الله حياة بالإرشاد إلى أمره.

---

(١) «النشر» (٢/ ٣٠٢)، و«البحر المحيط» (٦/ ٥٠٣)، و«جامع البيان» (١٤/ ١٦١)، و«التبيان» (٢/ ٧٨٨)، و«روح المعاني» (١٤/ ١٢).

(٢) انظر: المصادر المتقدمة. القراءات المتواترة في هذه الكلمة ثلاث قراءات وهي الأولى قرأ روح عن يعقوب (تَنزَّلُ) بتاء مفتوحة فنون مفتوحة فزايّ مشدّدة مفتوحة فلام مرفوعة، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ورويس عن يعقوب بياء مضمومة فنون ساكنة فزاي مكسورة فلام مرفوعة (يُنْزِلُ)، وقرأ باقي العشرة (يُنزِّل) بضم ففتحة فزاي مشددة مكسورة، وماعداها فشاذ.

(٣) «جامع البيان» (١٤/ ١٦١)، و«البحر المحيط» (٦/ ٥٠٣)، و«النشر» (٢/ ٣٠٢)، و«التيسير» (ص٧٥).

(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٢٦٩). (٥) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ١٩٠).

وقال أبو عُبيدة[١]: الروح هنا جبريل، وتكون الباء على هذا بمعنى مع، «ومن» في ﴿مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾ بيانية؛ أي[٢]: بأشياء أو مبتدئاً مِنْ أمره، أو صفة للروح، أو مُتعلّق بـ﴿يُنَزِّلُ﴾، ومعنى ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ﴾ على من اختصّه بذلك، وهم الأنبياء. ﴿أَنۡ أَنذِرُوٓاْ﴾.

قال الزجّاج[٣]: ﴿أَنۡ أَنذِرُوٓاْ﴾ بدل مِنْ الروح؛ أي: ينزل لهم بأن أنذروا، و«أنْ» إما مفسِّرة[٤] لأنّ تنزل الوحي فيه معنى القول، وإما مخففة من الثقيلة وضمير الشأن مقدّر؛ أي: بأنّ الشأن أقول لكم أَنذروا؛ أي: أعلموا الناس ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾؛ أي: مروهم بتوحيدي وأعلموهم ذلك مع تخويفهم؛ لأن في الإنذار تخويفاً[٥] وتهديداً، والضمير في أنه للشأن ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ الخطاب[٦] للمستعجلين على طريق الالتفات، وهو تحذيرٌ لهم من الشرك بالله، ثم إن الله سبحانه لما أرشدهم إلى توحيده ذكر دلائل التوحيد فقال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾؛ أي: أوجدهما على هذه الصفة التي هما عليهما بالحق؛ أي: للدلالة على قدرته ووحدانيته.

وقيل: المراد بالحق هنا: الفناء[٧] والزوال ﴿تَعَٰلَىٰ﴾ الله ﴿عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾؛ أي: ترفّع وتقدّس عَنْ إشراكهم أو عن شركة الذي يجعلونه شريكاً له، ثم لما كان نوع الإنسان أشرف أنواع المخلوقات السفلية قدّمه وخصّه بالذكر فقال: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ وهو اسمٌ لجنس هذا النوع ﴿مِن نُّطۡفَةٖ﴾ مِنْ جماد يخرج من حيوان، وهو المنيّ فنقله أطواراً إلى أن كملت صورته، ونفخ فيه الروح وأخرجه من بطن أمه إلى هذه الدار فعاش فيها ﴿فَإِذَا هُوَ﴾ بعد خلقه على هذه الصفة ﴿خَصِيمٞ﴾؛ أي: كثير الخصومة والمجادلة، والمعنى: أنّه كالمخاصم لله سبحانه في قدرته.

ومعنى ﴿مُّبِينٞ﴾ ظاهر[٨] الخصومة واضحها، وقيل: يُبين عَنْ نفسه ما يخاصم به مِنْ الباطل، والمُبين هو المُفْصح عما في ضميره بمنطقه، ومثله قوله تعالى:

---

(١) انظر: «الغريبين في القرآن والحديث» (٣/ ٧٨٦).
(٢) «روح المعاني» (١٤/ ١٣ ـ ١٤)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ٣٢١).
(٣) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ١٩٠).
(٤) «الفريد» (٣/ ٢١٤)، و«التبيان» (٢/ ٧٨٨)، و«البحر المحيط» (٦/ ٥٠٤).
(٥) «روح المعاني» (١٤/ ١٦).
(٦) ذكره أبو السعود في «تفسيره» (٤/ ٣٢٢).
(٧) «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٢٧٠).
(٨) «جامع البيان» (١٤/ ١٦٥)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٢٧٠).

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٧٧]. ثم عقّب ذكر خلق الإنسان بخلق الأنعام لما فيها من النفع لهذا النوع، فالامتنان بها أكمل مِنْ الامتنان بغيرها، فقال: ﴿وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ﴾ وهي: الإبل والبقر والغنم، وأكثر ما يقال: نَعَم وأنعام للإبل، ويقال للمجموع، ولا يقال للغنم مفردة، ومِنْه قول حسان:

وكانت لا يزالُ بها أنيسٌ خِلالَ مروجِها نَعَمٌ وشاءُ[(١)]

فعطف الشاء على النَّعم، وهي هنا الإبل خاصة.

قال الجوهري[(٢)]: والنَّعَم واحد الأنعام، وأكثر ما يقع هذا الاسم على الإبل.
ثم لما أخبر سبحانه بأنّه خلقها لبني آدم بيّن المنفعة التي فيها لهم فقال: ﴿فِيهَا دِفْءٌ﴾ الدفء: السَّخانة، وهو ما استُدْفئ به مِنْ أصوافها وأوبارها وأشعارها.

والجملة في محلّ[(٣)] النصب على الحال ﴿وَمَنَـٰفِعُ﴾ معطوف على دفء، وهي دَرّها وركوبُها ونتاجها، والحراثة بها ونحو ذلك.

وقد قيل: إنّ الدفء النتاج واللبن.

قال في الصحاح[(٤)]: الدفء نتاج الإبل وألبانها وما ينتفع به منها، ثم قال: والدفء أيضاً: السُّخونة، وعلى هذا فإن أريد بالدفء المعنى الأوّل فلا بدّ من حمل المنافع على ما عداه مما ينتفع به منها، وإنْ حمل على المعنى الثاني كان تفسير المنافع بما ذكرناه واضحاً.

وقيل: المراد بالمنافع: النِّتاجُ خاصة؛ وقيل: الركوب.

﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾؛ أي: مِنْ لحومها وشحومها؛ وخصّ هذه المنفعة[(٥)] بالذكر مع دخولها تحت المنافع لأنّها أعظمها؛ وقيل: خصها لأن الانتفاع بلحمها وشحمها تُعْدم عنده عينها بخلاف غيره مِنْ المنافع التي فيها، وتقديم الظرف[(٦)] المؤذن بالاختصاص للإشارة إلى أَنّ الأكل منها هو الأصل، وغيره نادر ﴿وَلَكُمْ فِيهَا

---

(١) انظر: «ديوان حسان بن ثابت» (ص٧). (٢) في «الصحاح» (٥/ ٢٠٤٣).
(٣) «التبيان» (٢/ ٧٨٩)، و«الفريد» (٣/ ٢١٥)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٣)، و«البحر المحيط» (٦/ ٥٠٦).
(٤) «الصحاح» (١/ ٥٠). (٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٢/ ٢٧٣).
(٦) «روح المعاني» (١٤/ ٢٦)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ٣٢٣).

جَمَالٌ﴾؛ أي: لكم فيها مع ما تقدّم ذكره جمال، والجمال: ما يُتجمّل به ويتزين، والجمال: الحُسْنُ.

والمعنى هنا: لكم فيها تجمّل وتزين عند الناظرين إليها ﴿حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾؛ أي: في هذين الوقتين، وهما وقت ردّها مِنْ مراعيها، ووقت تسريحها إليها، فالرواح: رجوعها بالعشيّ مِنْ المراعي؛ والسراح: مسيرها إلى مراعيها بالغداة، يقال: سرحتُ الإبل أسرحُها سَرْحاً وسُروحاً: إذا غدوتَ بها إلى المرْعى، وقدّم الإراحة[1] على التسريح لأنّ منظرها عند الإراحة أَجمل، وذواتها أحسن لكونها في تلك الحالة قد نالت حاجتها مِنْ الأكل والشرب، فعظمت بطونها وانتفخت ضروعها، وخصّ[2] هذين الوقتين لأنّهما وقت نظر الناظرين إليها لأنها عند استقرارها في الحظائر لا يراها أحد، وعند كونها في مراعيها هي متفرّقة غير مجتمعة، كل واحد منها يرعى في جانب. ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ الأثقال: جمع ثقل، وهو: متاع المسافر مِنْ طعام وغيره، وسُمّي ثقلاً؛ لأنه يثقل الإنسان حمله.

وقيل: المراد: أبدانهم. ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ﴾؛ أي: لم تكونوا واصلين إليه لو لم يكن معكم إبل تحمل أثقالكم إلّا بشق الأنفس لبعده عنكم، وعدم وجود ما يَحْمل ما لا بدّ لكم منه في السفر، وظاهره يتناول كل بلد بعيدة مِنْ غير تعيين.

وقيل: المراد بالبلد: مكة، وقيل: اليمن ومصر والشام لأنها متاجر العرب، وشق الأنفس: مشقتها.

قرأ الجمهور بكسر الشين[3]، وقرأ أبو جعفر[4] بفتحها.

قال الجوهري[5]: والشِّق: المشقة، ومِنْه قوله: ﴿لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ﴾.

---

(١) «روح المعاني» (١٤/ ٢٧)، و«البحر المحيط» (٦/ ٥٠٧)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ٣٢٣).

(٢) انظر: المصادر المتقدمة.

(٣) «البحر المحيط» (٦/ ٥٠٨)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٢٧٥)، و«جامع البيان» (١٤/ ١٧١)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٨). وهما قراءتان متواترتان.

(٤) «المحتسب» (٢/ ٧)، و«البحر المحيط» (٦/ ٥٠٨).

(٥) في «الصحاح» (٤/ ١٥٠٢).

وحكى أبو عبيدة[١] بفتح الشين، وهما بمعنى؛ ويجوز أن يكون المفتوح مصدراً مِنْ شَقَقتُ عليه أشُق شقّاً، والمكسور بمعنى: النِّصف، يقال: أخذت شِق الشاة وشقة الشاة، ويكون المعنى على هذا في الآية: لم تكونوا بالغيه إلّا بذهاب نصف الأنفس[٢] مِنْ التعب [٣/١٣٩] ، وقد امتنّ الله سبحانه على عباده بخلق الأنعام على العموم، ثم خصّ الإبل بالذكر لما فيها مِنْ نعمة حمل الأثقال دون البقر والغنم، والاستثناء مِنْ أعمّ العام؛ أي: لم تكونوا بالغيه بشيء من الأشياء إلّا بشقّ الأنفس ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ﴾ بالنصب عطفاً على الأنعام؛ أي: وخلق لكم هذه الثلاثة الأصناف.

وقرأ ابنُ أبي عبلة بالرفع[٣] فيها كلّها؛ وسُميتْ الخيل خيلاً لاختيالها في مشيها، وواحد الخيل: خائل كضائن واحد الضأن، وقيل: لا واحد له. ثم علّل سبحانه خلق هذه الثلاثة الأنواع بقوله: ﴿لِتَرۡكَبُوهَا﴾ وهذه العلة هي باعتبار مُعظم منافعها لأنّ الانتفاع بها في غير الركوب معلوم كالتحميل عليها ﴿وَ﴾ عطف ﴿زِينَةً﴾ على محل «لتركبوها»؛ لأنّه في محل نصب[٤] على أنه علة لخلقها، ولم يقل: لتتزينوا بها حتى يطابق ﴿لِتَرۡكَبُوهَا﴾؛ لأنّ الركوب فعل المخاطبين، والزينة فعل الزائن وهو الخالق، والتحقيق فيه أنّ الركوب هو المعتبر في المقصود، بخلاف الزينة فإنّه لا يلتفت إليه أهل الهمم العالية؛ لأنّه يُورث العجب، فكأنه سبحانه قال: خلقتها لتركبوها فتدفعوا عَنْ أنفسكم بواسطتها ضرر الإعياء والمشقة، وأما التزين بها فهو حاصل في نفس الأمر ولكنّه غير مقصود بالذات.

وقد استدلّ بهذه الآية القائلون بتحريم لحوم الخيل قائلين بأن التعليل[٥] بالركوب يدلّ على أنَّها مخلوقة لهذه المصلحة دون غيرها.

---

(١) في «مجاز القرآن» (١/٣٥٦). (٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/٢٧٦).

(٣) «البحر المحيط» (٦/٥٠٨ ـ ٥٠٩)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/٢٧٨). القراءة بالرفع شاذة.

(٤) «التبيان» (٢/٧٩٠)، و«الفريد» (٣/٢١٧)، و«روح المعاني» (١٤/٣١).

(٥) وأُجيب بأنا لو سلمنا أنَّ اللّام للعلَّة، لم نسلم إفادته الحصر في الركوب، والزينة، فإنه ينتفع بالخيل في غيرهما وفي غير الأكل اتفاقاً، ونظير ذلك حديث البقرة المذكورة في «الصحيحين» ـ [البخاري رقم (٣٤٧١)، ومسلم رقم (١١٣/٢٣٨٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه] ـ حين خاطبت راكبها فقالت: إنا لم نخلق لهذا إنّما خلقنا للحرث، فإنَّه مع كونه أصدح في الحصر لكونه بإنما مع اللام لا يستدل به على تحريم أكلها، وإنّما المراد =

قالوا: ويؤيد ذلك إفراد هذه الأنواع الثلاثة بالذكر وإخراجها عَنْ الأنعام فيفيد ذلك اتحاد حكمها[١] في تحريم الأكل. قالوا: ولو كان أكل الخيل جائزاً لكان ذكره، والامتنان[٢] به أولى مِنْ ذكر الركوب؛ لأنّه أعظم فائدة منه، وقد ذهب إلى هذا مالك[٣] وأبو حنيفة[٤]، وأصحابهما والأوزاعي، ومجاهد وأبو عبيدة وغيرهم.

وذهب الجمهور[٥] مِنْ الفقهاء والمحدّثين وغيرهم إلى حلّ لحوم الخيل، ولا حجة لأهل القول الأوّل في التعليل بقوله: ﴿لِتَرۡكَبُوهَا﴾ لأن ذكر ما هو الأغلب مِنْ منافعها لا ينافي غيره، ولا نُسلّم أن الأكل أكثر فائدة مِنْ الركوب حتى يذكر ويكون ذكره أقدم من ذكر الركوب.

وأيضاً لو كانت هذه الآية تدلّ على تحريم الخيل لدلت على تحريم الحُمُر الأهلية، وحينئذٍ لا يكون ثمَّ حاجة لتحديد التحريم لها عام خيبر، وقد قدّمنا أن هذه السورة مكية.

والحاصل: أنَّ الأدلة[٦] الصحيحة قد دلت على حلّ أكل لحوم الخيل، فلو

= الأغلب من المنافع، وهو الركوب في الخيل والتزين بها والحرث في البقر.
وأيضاً يلزم المستدل بالآية أنّه لا يجوز حمل الأثقال على الخيل والبغال والحمير ولا قائل به.
وأُجيب أيضاً بأن الآية مكية اتفاقاً، والإذن كان بعد الهجرة وأيضاً ليست نصّاً في منع الأكل والحديث صريح في الحل (سيأتي ذكره) «فتح الباري» (٩/ ٦٤٤).

(١) وأمّا الاستدلال بالعطف فغايته دلالة الاقتران، وهي من الضعف بمكان.
وأنكر: دلالة الاقتران الجمهور، فقالوا: إنَّ الاقتران في النظم لا يستلزم الاقتران في الحكم.
«إرشاد الفحول» (٨٠٠ ـ ٨١١)، ط. ابن كثير، و«البحر المحيط» للزركشي (٦/ ٩٩)، و«فتح الباري» (٩/ ٦٤٤).

(٢) وأمّا الاستدلال بالامتنان، فهو باعتبار غالب المنافع.

(٣) «مدونة الفقه المالكي وأدلته» (٢/ ١٥١ ـ ١٥٢)، و«عيون المجالس» (٢/ ٩٨٠ رقم المسألة ٦٨٦).

(٤) «بدائع الصنائع» (٥/ ٣٩)، و«المحيط البرهاني» (٦/ ٤٣١).

(٥) «المغني» (١٣/ ٣٢٥)، و«فتح الباري» (٩/ ٦٤٤).

(٦) (منها): عن جابر ﵁ قال: «أنَّ النبيَّ ﷺ نهى يوم خيبر عن لحوم الحمر الأهليّة، وأذن في لحوم الخيل»، [البخاري رقم (٤٥٣٠)، ومسلم رقم (٣٦/ ١٩٤١)، وأحمد (٣/ ٣٥٦)].
و(منها): ما أخرجه الترمذي رقم (١٧٩٣) عن جابر قال: «أطعمنا رسول الله ﷺ لحوم الخيل، ونهانا عن لحوم الحمر». وهو حديث صحيح. =

سلمنا أَنّ في هذه الآية متمسكاً للقائلين بالتحريم لكانت السُنَّة المطهرة الثابتة رافعة لهذا الاحتمال، ودافعة لهذا الاستدلال.

وقد أوضحنا هذه المسألة في مؤلفاتنا[1] بما لا يحتاج الناظر فيه إلى غيره ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: يخلق ما لا يحيط[2] علمُكم به من المخلوقات غير ما قد عدّده ها هنا؛ وقيل: المراد: مِنْ أنواع الحشرات والهوامّ في أسافل الأرض، وفي البحر مما لم يره البشر ولم يسمعوا به؛ وقيل: هو ما أعدّ الله لعباده في الجنة وفي النار مما لم تره عين، ولم تسمع به أذن، ولا خطر على قلب بشر.

وقيل: هو خلق السوس في النبات والدود في الفواكه؛ وقيل: عين تحت العرش؛ وقيل: نهر مِنْ النور؛ وقيل: أرض بيضاء، ولا وجه للاقتصار في تفسير هذه الآية على نوع مِنْ هذه الأنواع؛ بل المراد: أنه سبحانه يخلق ما لا يعلم به العباد، فيشمل كلَّ شيء لا يحيط علمهم به، والتعبير هنا بلفظ المستقبل لاستحضار الصورة؛ لأنه سبحانه قد خلق ما لا يعلم به العباد.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ القَصْدُ: مصدر بمعنى الفاعل. فالمعنى: وعلى الله قاصد السبيل؛ أي: هداية قاصد الطريق المستقيم، بموجب وعده المحتوم وتفضّله الواسع؛ وقيل: هو على حذف[3] مضاف، والتقدير: وعلى الله بيان قصد السبيل، والسبيل: الإسلام، وبيانه بإرسال الرسل وإقامة الحجج والبراهين، والقصد في السبيل هو كونه موصلاً إلى المطلوب، فالمعنى: وعلى الله بيان الطريق الموصل إلى المطلوب ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ الضمير في «منها» راجع[4] إلى السبيل بمعنى: الطريق؛ لأنّها تُذكّر وتؤنث.

وقيل: راجع[5] إليها بتقدير مضاف؛ أي: ومِنْ جنس السبيل جائر مائل عن

= و(منها): عن أسماء بنت أبي بكر قالت: ذبحنا على عهد رسول الله ﷺ فرساً ونحن بالمدينة فأكلناه.
[البخاري رقم (٥٥١١)، ومسلم رقم (٣٨/ ١٩٤٢)، وأحمد (٤/ ٣٩٤)].

(١) انظر: «نيل الأوطار» (١٥/ ٢٢ ـ ٢٨)، ط. ابن الجوزي.
(٢) «جامع البيان» (١٤/ ١٧٦ ـ ١٧٧)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٢٨٨)، و«معالم التنزيل» (٣/ ٦٣).
(٣) «الفريد» (٣/ ٢١٧)، و«التبيان» (٢/ ٧٩٠)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٦).
(٤) انظر: المصادر المتقدمة.
(٥) «روح المعاني» (١٤/ ٣٦)، و«البحر المحيط» (٦/ ٥٠٩ ـ ٥١٠)، و«التبيان» (٢/ ٧٩٠).

الحق عادل عنه، فلا يهتدي به، ومِنْه قول امرئ القيس[١]:

ومــن الــطــريــقــةِ جــائــرٌ وهُــدَى قــصــدُ الــسـبـيــل ومــنــه ذو دَخَــل

وقيل: إنَّ الطريق كناية عَنْ صاحبها، والمعنى: ومِنْهم جائر عَنْ سبيل الحق؛ أي: عادل عنه، فلا يهتدي إليه، قيل: وهم أهل الأهواء المختلفة، وقيل: أهل الملل الكفرية، وفي مصحف عبد الله «ومنكم جائر»[٢]، وكذا قرأ عليّ.

﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: ولو شاء أَنْ يهديكم جميعاً إلى الطريق الصحيح، والمنهج الحق لفعل ذلك، ولكنه لم يشأ؛ بل اقتضت مشيئته سبحانه إراءة الطريق والدلالة عليها ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]. وأمّا الإيصال إليها بالفعل فذلك يستلزم أن لا يوجد في العباد كافر، ولا مَنْ يستحق النار من المسلمين، وقد اقتضت المشيئة الربانية أنّه يكون البعض مؤمناً والبعض كافراً كما نطق بذلك القرآن في غير موضع.

وقد أخرج ابن مردويه[٣] عن ابن عباس قال: «لما نزل ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ ذُعِر أصحاب رسول الله ﷺ حتى نزلت ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ فسكنوا».

وأخرج عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد»، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن أبي بكر[٤] بن حفص قال: لما نزلت ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ قاموا، فنزلت ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾.

وأخرج ابن مردويه[٥] من طريق الضحاك عن ابن عباس ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ قال: خروج محمد ﷺ.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن جريج[٦] قال: «لما نزلت هذه الآية ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ قال رجال من المنافقين بعضُهم لبعض: إنّ هذا يزعم أن أمر الله أتى، فأمسكوا عن بعض ما كنتم تعملون حتى تنظروا ما هو كائن، فلما رأوا أنه لا ينزل شيء قالوا: ما نراه نزل شيء، فنزلت ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١] فقالوا:

---

(١) انظر: «امرئ القيس» (ص٢٣٨).

(٢) «القراءات الشاذة» (ص٧٢)، و«البحر المحيط» (٦/ ٥١٠)، و«جامع البيان» (١٤/ ١٧٩). وهي شاذة لمخالفة الرسم.

(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ١٠٨).

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ١٥٩) من طريق يحيى بن يمان، به.

(٥) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ١٠٨).

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ١٥٨ ـ ١٥٩) من طريق حجاج، به.

إن هذا يزعم مثلها أيضاً، فلما رأوا أنَّه لا ينزل شيء قالوا: ما نراه نزل شيء، فنزلت ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ الآية [هود: ٨].

وأخرج ابنُ جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الضحاك[١] في قوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ قال: الأحكام والحدود والفرائض.

وأخرج هؤلاء عن ابن عباس[٢] في قوله: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ﴾ قال: بالوحي.

وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في «العظمة»، وابن مردويه، والبيهقي عنه[٣] قال: الروح أمرٌ مِنْ أمر الله، وخَلْق من خلق الله، وصورُهم على صورة بني آدم، وما ينزل مِنْ السماء ملَكَ إلّا ومعه واحد مِنْ الروح، ثم تلا: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾ [النبأ: ٣٨].

وأخرج ابن أبي حاتم[٤] عَنْ الحسن ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ﴾ قال: القرآن.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[٥] في قوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ قال: الثياب ﴿وَمَنَٰفِعُ﴾ قال: ما تنتفعون به من الأطعمة والأشربة.

وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم[٦] عنه أيضاً قال: نسل كلِّ دابة.

وأخرج ابنُ جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه[٧] أيضاً في قوله: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ﴾ يعني: مكة ﴿لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾ قال: لو تكلَّفتموه لم تُطيقوه إلّا بجهدٍ شديد.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ١٥٨) بسند ضعيف.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ١٦٢) بسند صحيح.

(٣) أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» رقم (٤٠٦)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» رقم (٧٧٩) بسند ضعيف.

(٤) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٧٦) عن الحسن قال: «بالنبوة».

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ١٦٦) بسند صحيح، وذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٧٦).

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ١٦٧)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٥٣) بسند حسن.

(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٤/ ١٦٩) بسند حسن عن عكرمة.

وقد ورد في حلّ أكل لحوم الخيل أَحاديث مِنْها في «الصحيحين»[١] وغيرهما، مِنْ حديث أسماء قالت: نَحَرْنا فرساً على عهد رسول الله ﷺ فأكلناه.

وأخرج أبو عبيد، وابن أبي شيبة، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن جابر[٢] قال: أطعَمَنا رسولُ الله ﷺ لحومَ الخيل، ونهانا عن لحوم الحُمُر الأهلية.

وأخرج أبو داود[٣] نحوه من حديثه أيضاً، وهما على شرط مسلم. وثبت أيضاً في «الصحيحين»[٤] مِنْ حديث جابر قال: «نهى رسول الله ﷺ عن لحوم الحمر الأهلية وأَذِنَ في الخيل».

وأما ما أخرجه أبو عبيد، وأبو داود، والنسائي من حديث خالد بن الوليد[٥] قال: «نهى رسول الله ﷺ عَنْ أكل كلّ ذي ناب من السباع، وعَنْ لحوم الخيل والبغال والحمير»، ففي إسناده صالح بن يحيى بن أبي المقدام وفيه مقال.

ولو فرضنا أنَّ الحديث صحيح لم يقوَ على معارضة أحاديث الحلّ على أَنّه يُمكن أن هذا الحديث المصرّح بالتحريم متقدّم على يوم خيبر فيكون منسوخاً.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٥١١)، ومسلم رقم (٣٨/ ١٩٤٢)، وأحمد (٦/ ٣٤٥)، وقد تقدم نصه وتخريجه.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٨/ ٦٨) و(١٤/ ١٧٩)، والترمذي رقم (١٧٩٣)، والنسائي رقم (٤٣٤٠).
وأصله عند البخاري رقم (٤٢١٩، ٥٥٢٠، ٥٥٢٤)، ومسلم رقم (١٩٤١).

(٣) أخرجه أبو داود رقم (٣٧٨٩). وهو حديث صحيح.

(٤) أخرجه البخاري رقم (٥٥٢٠)، ومسلم رقم (٣٦/ ١٩٤١)، وأحمد (٢/ ٣٥٦).

(٥) أخرجه أبو داود رقم (٣٧٩٠)، وابن ماجه رقم (٣١٩٨)، والنسائي رقم (٤٣٣١).
قال أبو داود: هذا منسوخ، قد أكل لحوم الخيل جماعة من أصحاب النَّبي ﷺ قلت: وأخرجه أحمد في «المسند» (٤/ ٨٩)، والدارقطني (٤/ ٢٨٧ رقم ٦١) وإسناده ضعيف. لضعف صالح بن يحيى بن المقدام.
قال البخاري: فيه نظر، والراوي عنه، وهو أبوه لم يوثقه إلا ابن حبان، وهو حديث ضعيف، والله أعلم.
• ولو فرضنا ثبوت حديث خالد وسلامته عن العلل لم ينتهض لمعارضة حديث جابر، وأسماء المتفق عليهما، مع أنّه قد ضعَّف حديث خالد، أحمد والبخاري، وموسى بن هارون، والدارقطني، والخطابي، وابن عبد البر، وعبد الحق وآخرون.

وأخرج الخطيب[١] وابن عساكر قال: قال رسول الله ﷺ في قوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قال: «البَراذينُ».

وأخرج ابنُ مردويه[٢] عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مما خلق الله أرضاً مِنْ لؤلؤة بيضاء». ثم ساق من أوصافها ما يدلّ على أن الحديث موضوعٌ، ثم قال في آخره: «فذلك قوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾».

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[٣] ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ يقول: على الله أَنْ يبين الهدى والضلالة ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ قال: السبل المُتفرّقة.

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة[٤] في قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ قال: على الله بيان حلالِه وحرامِه، وطاعته ومعصيته ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ [٣/١٤٠] قال: مِنْ السبل ناكب عن الحق، قال: وفي قراءة ابن مسعود (ومنكم جائر)[٥].

وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن الأنباري في «المصاحف» عن عليّ[٦] أنه كان يقرأ هذه الآية و (مِنْكم جائر)[٥].

[من نعم الله علينا أيضاً]:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا

---

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٥٥/١٦٥).
(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/١١٣).
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/١٧٨ ـ ١٧٩) بسند ضعيف.
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/١٧٨، ١٧٩)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/٣٥٤) بسند صحيح.
(٥) «القراءات الشاذة» (ص٧٣)، و«البحر المحيط» (٦/٥١٠)، و«جامع البيان» (١٤/١٧٩). وهي قراءة شاذة لمخالفة الرسم.
(٦) عزاه إليهم السيوطي في «الدر المنثور» (٥/١١٤).

وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَـٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَـٰمَـٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾﴾.

لما استدل سبحانه على وجوده وكمال قدرته وبديع صنعته بعجائب أحوال الحيوانات، أراد أنْ يذكر الاستدلال على المطلوب بغرائب أحوال النبات فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: مِنْ جهة السماء، وهي السحاب ﴿مَآءً﴾ أي: نوعاً من أنواع الماء، وهو المطر ﴿لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ﴾ يجوز أن يتعلق ﴿لَكُم﴾ بأنزل أو هو خبر(١) مقدّم، وشراب مبتدأ مؤخر، والجملة صفة لما ﴿وَمِنْهُ﴾ في محل نصب(٢) على الحال، والشراب: اسم لما يُشْرب كالطعام لما يطعم.

والمعنى: أنّ الماء النازل مِنْ السماء قسمان: قسم يشربه الناس، ومن جملته ماء الآبار والعيون، فإنّه مِنْ المطر لقوله: ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٢١] وقسم يحصل منه شجر ترعاه المواشي.

قال الزجّاج(٣): كل ما ينبت مِنْ الأرض فهو شجر؛ لأن التركيب يدل على الاختلاط، ومنه تشاجر القوم إذا اختلط أصواتُ بعضِهم بالبعض، ومعنى الاختلاط حاصل في العُشْب والكلأ وفيما له ساق.

وقال ابن قتيبة(٤): المراد مِنْ الشجر في الآية: الكلأ.

وقيل: الشجر كل ما له ساق كقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمٰن: ٦]. والعطف يقتضي التغاير، فلما كان النجم ما لا ساق له وجب أن يكون الشجر ما له ساق، وأُجيب بأن عطف الجنس على النوع جائز. ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ أي: في الشجر تَرْعون مواشيكم، يقال: سامت(٥) السائمةُ تسومُ سَوماً رعتْ فهي سائمة،

---

(١) «الفريد» (٣/ ٢١٨)، و«روح المعاني» (١٤/ ٤٠)، و«البحر المحيط» (٦/ ٥١١).
(٢) انظر: المصادر المتقدمة.
(٣) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ١٩٢).
(٤) «غريب القرآن» (ص٢٤٢).
(٥) «جامع البيان» (١٤/ ١٨١)، و«معاني القرآن» للأخفش (١/ ٤٢٠).

وأسمتُها؛ أي: أخرجتها إلى الرَّعيْ فأنا مُسِيم وهي مُسامة وسائمة، وأصل السوم: الإبعاد في المرعى.

قال الزجّاج[١]: أُخذ مِنْ السومة وهي العلامة؛ لأنّها تؤثر في الأرض علامات برعيها ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ﴾ قرأ أبو بكر عَنْ عاصم «نُنبِت» بالنون[٢]، وقرأ الباقون[٣] بالياء التحتية؛ أي: يُنبت الله لكم بذلك الماء الذي أنزله من السماء، وقدّم الزرع[٤]؛ لأنّه أصل الأغذية التي يعيش بها النّاس، وأتبعه[٤] بالزيتون لكونه فاكهة مِنْ وجه، وإداماً مِنْ وجه لكثرة ما فيه مِنْ الدّهن، وهو جمع زيتونة، ويقال للشجرة نفسها: زيتونة؛ ثم ذكر النخيل لكونه غذاءً وفاكهةً وهو مع العنب أشرف الفواكه.

وجمع الأعناب[٥] لاشتمالها على الأصناف المختلفة، ثم أشار إلى سائر الثمرات فقال: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾ كما أجمل الحيوانات التي لم يذكرها فيما سبق بقوله: ﴿وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: ٨] وقرأ أُبيّ بن كعب «يُنْبِتُ لكم به الزرعُ» برفع[٦] الزرع وما بعده.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾؛ أي: الإنزال والإنبات ﴿لَأٓيَةٗ﴾ عظيمة دالة على كمال القدرة والتفرّد بالربوبية ﴿لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في مخلوقات الله ولا يُهْملون النظر في مصنوعاته.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ معنى تسخيرهما للناس: تصييرهما نافعين لهم بحسب ما تقتضيه مصالحهم، وتستدعيه حاجاتهم، يتعاقبان دائماً كالعبد الطائع لسيده لا يخالف ما يأمره به ولا يخرج عن إرادته ولا يُهْمل السعي في نفعه.

وكذا الكلام في تسخير الشمس والقمر والنجوم، فإنها تجري على نمط متحد يستدل بها العباد على مقادير الأوقات، ويهتدون بها ويعرفون أجزاء الزمان؛ ومعنى مسخرات: مذلّلات.

---

(١) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ١٩٢).

(٢) «التيسير» (ص١٣٧)، و«النشر» (٢/ ٣٠٢)، و«روح المعاني» (١٤/ ٤٢)، و«البحر المحيط» (٦/ ٥١٢).

(٣) انظر: المصادر المتقدمة.

(٤) «روح المعاني» (١٤/ ٤٢)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ٣٢٨).

(٥) «روح المعاني» (١٤/ ٤٢)، و«البحر المحيط» (٦/ ٥١٢ ـ ٥١٣).

(٦) «القراءات الشاذة» (ص٧٢)، و«البحر المحيط» (٦/ ٥١٢). وهي قراءة شاذة.

وقرأ ابن عامر وأهل الشام: «والشمسُ والقمرُ والنجومُ مسخراتٌ» بالرفع[١] على الابتداء والخبر.

وقرأ الباقون[٢] بالنصب عطفاً على الليل والنهار، وقرأ حَفْص عن عاصم برفع النجوم[٣] على أنّه مبتدأ وخبره ﴿مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓ﴾ وعلى قراءة النصب في مسخرات يكون حالاً[٤] مؤكِّدة؛ لأنّ التسخير قد فُهم من قوله: ﴿وَسَخَّرَ﴾.

وقرأ حفص في رواية برفع مسخرات[٥] مع نصب ما قبله على أنّه خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هي مسخراتٌ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ التسخير ﴿لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾؛ أي: يُعْملون عقولهم في هذه الآثار الدالة على وجود الصانع وتفرّده وعدم وجود شريك له، وذكر الآيات لأن الآثار العُلْوية أظهر دلالة على القدرة الباهرة، وأبين شهادة للكبرياء والعظمة، وجمعها ليطابق قوله: مسخرات.

وقيل: إن وجه الجمع هو أن كلّاً مِنْ تسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم آية في نفسها بخلاف ما تقدّم من الإنبات فإنه آية واحدة، ولا يخلو كل هذا عَنْ تكلف، والأولى أن يقال: إن هذه المواضع الثلاثة التي أفرد الآية في بعضها وجمعها في بعضها كل واحد منها يصلح للجمع باعتبار وللإفراد باعتبار، فلم يجرها على طريقة واحدة افتناناً وتنبيهاً على جواز الأمرين وحُسْن كل واحد منهما.

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: خلق يقال: ذرأ اللهُ الخلقَ، يذرؤهم ذَرْءاً: خلقهم، فهو ذارئ، ومنه الذُرّية، وهي نسل الثّقَلين.

وقد تقدّم تحقيق هذا، وهو معطوف على النجوم رفعاً ونصباً؛ أي: وسخر لكم ما ذرأ في الأرض، فالمعنى: أنّه سبحانه سخّر لهم تلك المخلوقات السماوية والمخلوقات الأرضية.

---

(١) «النشر» (٢/ ٣٠٢)، و«التيسير» (ص١٣٧)، و«التبيان» (٢/ ٧٩١)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ٣٥).

(٢) انظر: المصادر المتقدمة. كلها قراءات متواترة، إلَّا ما ذكره من قراءة حفص عن عاصم برفع (مسخراتٌ) مع نصب جميع ما قبله، فإنَّها رواية عنه شاذة.

(٣) «البحر المحيط» (٦/ ٥١٣)، و«النشر» (٢/ ٣٠٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٢٤)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ٣٥).

(٤) انظر: «التبيان» (٢/ ٧٩١)، و«الفريد» (٣/ ٢١٩)، و«روح المعاني» (١٤/ ٤٨ ـ ٤٩).

(٥) «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٢٩٣).

وانتصاب ﴿مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓ﴾ على الحال[١]، وألوانُه: هيئاته ومناظُره، فإن ذرء هذه الأشياء على اختلاف الألوان والأشكال مع تساوي الكلّ في الطبيعة الجسمية آية عظيمة دالة على وجود الصانع سبحانه وتفرّده ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ التسخير لهذه الأمور ﴿لَأٓيَةٗ﴾ واضحة ﴿لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ﴾ فإن مَنْ تذكر اعتبر، ومن اعتبر استدلّ على المطلوب.

قيل: وإنما خصّ المقام الأوّل بالتفكر لإمكان إيراد الشبهة المذكورة؛ وخصّ المقام الثاني بالعقل لذكره بعد إماطة الشُّبهة وإراحة العلة، فمن لم يعترف بعدها بالوحداينة فلا عَقل له؛ وخصّ المقام الثالث بالتذكر لمزيد الدلالة، فمن شك بعد ذلك فلا حسّ له، وفي هذا مِنْ التكلف ما لا يخفى.

والأولى أَنْ يقال هنا كما قلنا فيما تقدّم في إفراد الآية في البعض وجمعها في البعض الآخر وبيانه: أَنّ كلّاً مِنْ هذه المواضع الثلاثة يصلح لذكر التفكر[٢] ولذكر التعقل ولذكر التذكر لاعتبارات ظاهرة غير خفية، فكان في التعبير في كل موضع بواحد منها افتنان حسن لا يوجد في التعبير بواحد منها في جميع المواضع الثلاثة.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ﴾ امتنّ الله سبحانه بتسخير البحر بإمكان الركوب عليه، واستخراج ما فيه من صيد وجواهر، لكونه مِنْ جملة النعم التي أنعم الله بها على عباده مع ما فيه مِنْ الدلالة على وحدانية الربّ سبحانه وكمال قدرته.

وقد جمع الله سبحانه لعباده في هذا المقام بين التذكير لهم بآياته الأرضية والسماوية والبحرية، فأرشدهم إلى النظر والاستدلال بالآيات المتنوّعة المختلفة الأمكنة إتماماً للحجة، وتكميلاً للإنذار، وتوضيحاً لمنازع الاستدلال، ومناطات البرهان، ومواضع النظر والاعتبار، ثم ذكر العلة في تسخير البحر فقال: ﴿لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا﴾ المراد به: السمك، ووصفه بالطراوة[٣] للإشعار بلطافته، [٣/١٤١] والإرشاد إلى المسارعة بأكله لكونه مما يَفْسُد بسرعة.

﴿وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَا﴾؛ أي: لؤلؤاً ومرجاناً كما في قوله سبحانه:

---

(١) «الفريد» (٣/٢١٩).

(٢) «روح المعاني» (١٤/٥٣)، و«التبيان» (٢/٧٩١)، و«البحر المحيط» (٦/٥١٣).

(٣) «روح المعاني» (١٤/٥٣ ـ ٥٤)، و«تفسير أبي السعود» (٤/٣٣١).

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمٰن: ٢٢] وظاهر قوله: ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾ أنه يجوز للرجال أن يلبسوا اللؤلؤ والمرجان؛ أي: يجعلونه حليةً لهم كما يجوز للنساء[(١)]، ولا حاجة لما تكلّفه جماعة من المفسرين[(٢)] في تأويل قوله: ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾ بقولهم: تلبسه نساؤهم؛ لأنهنّ مِنْ جملتهم، أو لكونهنّ يلبسنها لأجلهم، وليس في الشريعة المطهرة ما يقتضي مَنْع الرجال من التحلّي باللؤلؤ والمرجان ما لم يستعمله على صفة لا يستعمله عليها إلّا النساء خاصة، فإن ذلك ممنوع مِنْ جهة كونه تشبهاً بهنّ.

وقد ورد الشرع بمنعه لا مِنْ جهة كونه حلية لؤلؤ أو مرجان.

﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾؛ أي: ترى السفن شواق للماء تدفعه بصدرها.

ومَخْر السفينة: شقّها الماء بصدرها. قال الجوهري[(٣)]: مَخْر السابح: إذا شقّ الماء بصدره، ومخر الأرض: شقها للزراعة، وقيل: مواخر: جواري، وقيل: معترضة، وقيل: تذهب وتجيء، وقيل: ملججة.

قال ابن جرير[(٤)]: المَخْر في اللغة: صوتُ هبوب الريح، ولم يقيد بكونه في ماء ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ معطوف على تستخرجوا، وما بينهما اعتراض، أو على علة محذوفة تقديره: لتنتفعوا بذلك ولتبتغوا، أو على تقدير فَعَل ذلك لتبتغوا؛ أي: لتتجروا فيه فيحصل لكم الربحُ مِنْ فضل الله سبحانه: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾؛ أي: إذا وجدتم فضله عليكم وإحسانه إليكم اعترفتم بنعمته عليكم، فشكرتم ذلك باللسان والأركان.

[ما وجه التعقيب بالشكر هنا]:

قيل: ولعلّ وجه تخصيص هذه النعمة بالتعقيب[(٥)] بالشكر مِنْ حيث أن فيها قطعاً لمسافة طويلة مع أحمال ثقيلة من غير مزاولة أسباب السفر؛ بل من غير حركة أصلاً مع أنّها في تضاعيف المهالك، ويمكن أن يضم إلى ما ذكر من قطع المسافة على الصفة المذكورة ما اشتمل عليه البحر مِنْ كون فيه أطيب مأكول وأنفس ملبوس وكثرة النعم مع نفاستها، وحسن موقعها من أعظم الأسباب المستدعية للشكر الموجبة له.

---

(١) «أحكام القرآن» لابن العربي (٣/ ١١٣٦)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٢٩٨).
(٢) انظر: «روح المعاني» (١٤/ ٥٧). (٣) في «الصحاح» (٢/ ٨١٢).
(٤) «جامع البيان» (١٤/ ١٨٨).
(٥) «روح المعاني» (١٤/ ٥٩)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ٣٣١).

ثم أردف هذه النعم الموجبة للتوحيد المفيدة للاستدلال على المطلوب بنعمة أخرى وآية كبرى فقال: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ﴾؛ أي: جبالاً ثابتة، يقال: رسا يَرْسو إذا ثبت وأقام، قال الشاعر[١]:

فصَبَرْتُ عارفةً لذلك حُرّةً ترسو إذا نفسُ الجبانِ تَطلَّعُ

﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾؛ أي: كراهةَ أَنْ تميد بكم على ما قاله البصريون[٢]، أو لئلّا تميد بكم على ما قاله الكوفيون، والمَيدُ: الاضطراب يميناً وشمالاً، ماد الشيء يميد[٣] ميداً تحرّك، ومادت الأغصان تمايلتْ، وماد الرجل تبختر ﴿وَأَنْهَٰرًا﴾؛ أي: وجعل فيها أنهاراً؛ لأن الإلقاء ها هنا بمعنى الجعل والخَلْق كقوله: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [طه: ٣٩]. ﴿وَسُبُلًا﴾؛ أي: وجَعل فيها سبلاً وأظهرها وبيّنها لأجل تهتدون بها في أسفاركم إلى مقاصدكم. والسُّبُل: الطرق ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ﴾؛ أي: وجعل فيها علامات وهي معالم الطرق[٤].

والمعنى: أنّه سبحانه جعل للطرق علاماتٍ يهتدون بها ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ المراد بالنجم الجِنْس؛ أي: يهتدون به في سفرهم ليلاً. وقرأ ابن وثاب: «وبالنُّجُم» بضم النون[٥] والجيم، ومراده: النجوم فقصره، أو هو جمع نُجُمٌ كسقُفُ وسَقْف.

وقيل: المراد بالنجم هنا: الجَدْي والفرقدان قاله الفرّاء[٦]؛ وقيل: الثُّريا، وقيل: العلامات الجبال، وقيل: هي النجوم؛ لأن من النجوم ما يهتدى به، ومنها ما يكون علامة لا يهتدى بها. وذهب الجمهور[٧] إلى أن المراد في الآية: الاهتداء في الأسفار؛ وقيل: هو الاهتداء إلى القبلة، ولا مانع مَنْ حمل ما في الآية على ما هو أعمّ من ذلك.

قال الأخفش[٨]: تمّ الكلام عند قوله: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ﴾، وقوله: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ كلام منفصل عن الأول.

---

(١) عنترة بن شداد. انظر: «ديوانه» (ص٤٩).
(٢) «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٣٩٣)، و«مشكل إعراب القرآن» (٢/ ١٢).
(٣) «الصحاح» (٢/ ٥٤١).
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ١٩٢) بسند ضعيف.
(٥) «المحتسب» (٢/ ٨)، و«القراءات الشاذة» (ص٧٢). وهي قراءة شاذة. والمتواتر بفتح النون وسكون الجيم.
(٦) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٩٨).
(٧) «روح المعاني» (١٤/ ٦٦)، و«جامع البيان» (١٤/ ١٩٢ ـ ١٩٣)، و«معالم التنزيل» (٢/ ٦٤).
(٨) انظر: «المحرر الوجيز» (١٠/ ١٧١)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (٣/ ١١٣٧).

ثم لما عدّد الآيات الدالة على الصانع ووحدانيته وكمال قدرته أراد أن يوبخ أهل الشرك والعناد فقال: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ﴾ هذه المصنوعات العظيمة ويفعل هذه الأفاعيل العجيبة ﴿كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ شيئاً منها، ولا يقدر على إيجاد واحد منها، وهو هذه الأصنام التي تعبدونها وتجعلونها شركاء لله سبحانه، وأطلق عليها لفظ «من» إجراء لها مجرى أولى العلم جَرْياً على زعمهم بأنّها آلهة، أو مشاكلة(١) لقوله: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ﴾ لوقوعها في صحبته، وفي هذا الاستفهام من التقريع والتوبيخ(٢) للكفار ما لا يخفى، وما أحقهم بذلك، فإنّهم جعلوا بعض المخلوقات(٣) شريكاً لخالقه: ﴿تَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٦٣].

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ مخلوقات الله الدالة على وجوده وتفرّده بالربوبية وبديع صنعته فتستدلون بها على ذلك، فإنّها لوضوحها يكفي في الاستدلال بها مجرّد التذكر لها؟ ثم لما فرغ من تعديد الآيات التي هي بالنسبة إلى المكلفين نعم قال: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾.

وقد مرّ تفسير هذا في سورة إبراهيم، قال العقلاء: إنّ كل جزء من أجزاء الإنسان لو ظهر فيه أدنى خلل وأيسر نقص لنغّص النِّعم على الإنسان، وتمنى أن ينفق الدنيا لو كانت في مُلْكه حتى يزول عنه ذلك الخلل، فهو سبحانه يُدبّر بدن هذا الإنسان على الوجه الملائم له، مع أنّ الإنسان لا علم له بوجود ذلك فكيف يطيق حصر بعض نعم الله عليه، أو يقدر على إحصائها، أو يتمكن مِنْ شكر أدناها؟.

يا ربنا هذه نواصينا بيدك، خاضعة لعظيم نعمك، معترفة بالعجز عَنْ بادية الشكر لشيء مِنْها، لا نُحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك، ولا نُطيق التعبير بالشكر لك، فتجاوز عنّا واغفرْ لنا وأَسْبل ذيولَ سترك على عوارتنا، فإنك إنْ لا تفعل ذلك نهلك بمجرّد التقصير في شُكر نعمك، فكيف بما قد فرط منا مِنْ التساهل في الائتمار بأوامرك والانتهاء عن مناهيك؟ وما أحسن ما قال من قال:

العفوُ يرجى من بني آدم ... فكيفَ لا يُرْجى من الربّ

(١) «روح المعاني» (١٤/ ٦٧)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ٣٣٢)، و«البحر المحيط» (٦/ ٥١٥ ـ ٥١٦).
(٢) انظر: المصادر المتقدمة.
(٣) «زاد المسير» (٤/ ٤٣٧ ـ ٤٣٨)، و«جامع البيان» (١٤/ ١٩٥ ـ ١٩٦).

فقلت مذيلاً لهذا البيت الذي هو قَصْر مَشِيدٌ:

فإنّه أرءفُ بي مِنْهُم حَسْبي به حَسْبي

وما أحسن ما ختم به هذا الامتنان الذي لا يلتبس على إنسان مشيراً إلى عظيم غفرانه وسعة رحمته فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ أي: كثير المغفرة والرحمة لا يؤاخذكم بالغفلة عَنْ شكر نعمه، والقصور عن إحصائها، والعجز عن القيام بأدناها، ومِنْ رحمته إدامتها عليكم، وإدرارها في كل لحظة وعند كل نَفَسٍ تتنفسونه وحركة تتحركون بها.

اللَّهُمَّ إنّي أشكرك عددَ ما شكرك الشاكرون بكلّ لسان في كل زمان وعدد ما سيشكرك الشاكرون بكل لسان في كل زمان، فقد خصصتني بنعم لم أرها على كثير مِنْ خلقك، وإن رأيتُ منها شيئاً على بعض خلقك لم أرَ عليه بقيتها، فأنّى أطيق شكرك وكيف أستطيع تأدية أدنى شكر أدناها فكيف أستطيع أعلاها؟ فكيف أستطيع شكر نوع مِنْ أنواعها؟

ثم بيّن لعباده بأنه عالم بجميع ما يصدر منهم لا تخفى عليه منه خافية فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ﴾؛ أي: تضمرونه من الأمور ﴿وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾؛ أي: تظهرونه مِنْها، وفيه وعيد وتعريض[١] وتَوبيخ، وتنبيه على أنّ الإلٰه يجب أن يكون عالماً بالسرّ والعلانية لا كالأصنام التي يعبدونها، فإنّها جمادات لا شعور لها بشيء من الظواهر فضلاً عَنْ السرائر فكيف يعبدونها؟

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة[٢] في قوله: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ قال: ما خلق لكم في الأرض مختلفاً مِنْ الدواب والشجر والثمار نعم مِنْ الله متظاهرة، فاشكروها لله.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه[٣] في قوله: ﴿لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا﴾ يعني: حيتان البحر ﴿وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَا﴾ قال: هذا اللؤلؤ.

وأخرج ابن أبي حاتم[٤] عن السدّي في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ

---

(١) «روح المعاني» (١٤/ ٦٩ ـ ٧٠)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ٣٣٣).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ١٨٤ ـ ١٨٥)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٥٣ ـ ٣٥٤) بسند صحيح.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ١٨٦) بسند صحيح.

(٤) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٧٨).

﴿لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمًا طَرِيًّا﴾ قال: هو السمك [٣/١٤٢] وما فيه مِنْ الدواب.

وأخرج ابن أبي شيبة[(١)] عن أبي جعفر قال: ليس في الحَلْي زكاة، ثم قرأ ﴿وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةً تَلۡبَسُونَهَا﴾.

أقول: وفي هذا الاستدلال نظر. والذي ينبغي التعويل عليه أَنَّ الأصل البراءة مِنْ الزكاة حتى يردَ الدليلُ بوجوبها في شيء مِنْ أنواع المال فتلزم، وقد ورد في الذهب والفضة ما هو معروف، ولم يرد في الجواهر على اختلاف أصنافها ما يدلّ على وجوب الزكاة فيها.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[(٢)] ﴿مَوَاخِرَ﴾ قال: جواري.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عكرمة[(٣)] ﴿مَوَاخِرَ﴾ قال: تشقّ الماء بصدرها.

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الضحاك[(٤)] ﴿مَوَاخِرَ﴾ قال: السفينتان تجريان بريح واحدة، مقبلةً ومدبرةً.

وأخرج ابن أبي حاتم[(٥)] عن السدّي في قوله: ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ قال: هي التجارة.

وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة[(٦)] في قوله: ﴿رَوَاسِيَ﴾ قال: الجبال ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾ قال: حتى لا تميد بكم، كانوا على الأرض تمور بهم لا تستقرّ، فأصبحوا صُبحاً وقد جعل الله الجبال، وهي الرواسي أوتاداً في الأرض.

وأخرج ابن أبي حاتم[(٧)] عن السدّي في قوله: ﴿وَسُبُلًا﴾ قال: السبل هي الطرق بين الجبال.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (القسم الأول من الجزء الرابع ص٥٣).
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٩/٣٤٦، ٣٤٧) بسند صحيح.
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/١٨٦ ـ ١٨٧) من طريق أبي مكين، به.
(٤) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٧٩).
(٥) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٧٩).
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ١٩٠)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٥٤) بسند صحيح.
(٧) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٧٩).

وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والخطيب عن قتادة[(١)] ﴿وَسُبُلًا﴾ قال: طُرقاً ﴿وَعَلَـٰمَـٰتٍ﴾ قال: هي النجوم.

وأخرج ابن أبي حاتم[(٢)] عن السدّي في الآية قال: علامات النهار الجبال.

وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر عن الكلبي[(٣)] ﴿وَعَلَـٰمَـٰتٍ﴾ قال: الجبال.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس[(٤)] ﴿وَعَلَـٰمَـٰتٍ﴾ يعني: معالم الطرق بالنهار ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ يعني: بالليل.

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة[(٥)] في قوله: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ قال: الله هو الخالق الرازق، وهذه الأوثان التي تُعبد مِنْ دون الله تُخلق ولا تَخْلق شيئاً ولا تَمْلُك لأهلها ضرّاً ولا نفعاً.

﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓا۟ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ﴾.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ١٩٢، ١٩٣)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٥٤)، والخطيب في كتاب «النجوم» (ص١٨٥) بسند صحيح.

(٢) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٧٩).

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ١٩٣)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٥٤) من طريق معمر عن الكلبي.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ١٩٢) بسند صحيح.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ١٩٥) بسند صحيح.

شرع سبحانه في تحقيق كون الأصنام[١] التي أشار إليها بقوله: ﴿كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧] عاجزة عن أن يصدر منها خلقُ شيءٍ فلا تستحق عبادة فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: الآلهة الذين يدعوهم الكفار من دون الله سبحانه صفتهم هذه الصفات المذكورة، وهي أنهم ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾ مِنْ المخلوقات أصلاً لا كبيراً ولا صغيراً ولا جليلاً ولا حقيراً ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾؛ أي: وصفتهم أنهم يُخْلقون، فكيف يتمكن المخلوق مِنْ أن يخلق غيره؟ ففي هذه الآية زيادة بيان؛ لأنه أثبت لهم صفة النقصان[٢] بعد أن سلب عنهم صفة الكمال، بخلاف قوله: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ فإنه اقتصر على مجرد سلب صفة الكمال.

وقراءة الجمهور «والذين تَدْعون» بالمثناة[٣] الفوقية على الخطاب مطابقة لما قبله.

وروى أبو بكر عَنْ عاصم، وروى هبيرة عَنْ حفص «يدعون» بالتحتية[٤]، وهي قراءة يعقوب.

ثم ذكر صفة أخرى مِنْ صفاتهم فقال: ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ يعني: أن هذه الأصنام أجسادها ميتة لا حياة بها أصلاً، فزيادة «غير أحياء» لبيان أنها ليست[٥] كبعض الأجساد التي تموت بعد ثبوت الحياة لها؛ بل لا حياة لهذه أصلاً، فكيف يعبدونها وهم أَفْضل منها؟! لأنهم أحياء ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ الضمير في ﴿يَشْعُرُونَ﴾ للآلهة، وفي ﴿يُبْعَثُونَ﴾ للكفار الذين يعبدون الأصنام.

والمعنى: ما تشعر هذه الجمادات مِنْ الأصنام أيّان يبعث عبدتهم من الكفار، ويكون هذا على طريقة التهكم بهم؛ لأن شعور الجماد مستحيل بما هو من الأمور الظاهرة فضلاً عَنْ الأمور التي لا يعلمها إلّا الله سبحانه، وقيل: يجوز أن يكون الضمير[٦] في ﴿يُبْعَثُونَ﴾ للآلهة؛ أي: وما تشعر هذه الأصنام أيان تبعث، ويؤيد

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٣٠٧ ـ ٣٠٨)، و«جامع البيان» (١٤/ ١٩٤ ـ ١٩٥).
(٢) «روح المعاني» (١٤/ ٧٠).
(٣) «روح المعاني» (١٤/ ٧١)، و«البحر المحيط» (٦/ ٥١٧)، و«النشر» (٢/ ٣٠٣)، و«التيسير» (ص١٣٧).
(٤) انظر: المصادر المتقدمة. قرأ (يَدْعون) بالتحتية من طريق حفص وأبي بكر وهي قراءة يعقوب، وقرأ باقي العشرة بالتاء الفوقية.
(٥) «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٣٠٩)، و«جامع البيان» (١٤/ ١٩٦).
(٦) «روح المعاني» (١٤/ ٧٢)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ٣٣٤).

ذلك ما روي أنّ الله يبعث الأصنام ويخلق لها أرواحاً معها شياطينها، فيؤمر بالكل إلى النار، ويدل على هذا قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

وقيل: قد تمّ الكلام عند قوله: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ ثم ابتدأ فوصف المشركين بأنهم أموات غير أحياء وما يشعرون أيّان يبعثون، فيكون الضميران[١] على هذا للكفار، وعلى القول بأنّ الضميرين أو أحدهما للأصنام يكون التعبير عنها مع كونها لا تعقل بما هو للعقلاء جَرْياً على اعتقاد مَنْ يعبدها بأنّها تعقل.

وقرأ السُّلَمي «إِيّان» بكسر الهمزة[٢]، وهما لغتان، وهو في محل نصب[٣] بالفعل الذي قبله. ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ لما زيّف سبحانه طريقةَ عبدة الأوثان صرح بما هو الحق في نفس الأمر، وهو وحدانيته سبحانه، ثم ذكر ما لأجله أصرّ الكفار على شركهم فقال: ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾ للوحدانية لا يؤثّر فيها وعظ ولا يَنْجع فيها تذكير ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ عَنْ قبول الحق، متعظمون عن الإذعان للصواب، مُسْتمرون على الجَحْد ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ قال الخليل[٤]: ﴿لَا جَرَمَ﴾ كلمة تحقيق ولا تكون إلّا جواباً؛ أي: حقّاً أن الله يعلم ما يسرّون من أقوالهم وأفعالهم وما يعلنون من ذلك.

وقد مرّ تحقيق الكلام في لا جرم. ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾؛ أي: لا يحبّ هؤلاء الذين يستكبرون عَنْ توحيد الله والاستجابة لأنبيائه، والجملة تعليل لما تضمنه الكلام المتقدّم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾؛ أي: وإذا قال لهؤلاء الكفار المنكرين المستكبرين قائل: ماذا أنزل ربكم؟؛ أي: أيّ شيء أَنْزل ربكم؟ أو ماذا الذي أنزل؟ قيل: القائل النضر بن الحارث[٥]، والآية نزلت فيه؛ فيكون هذا القول منه على طريق التهكم.

---

(١) «التبيان» (٢/ ٧٩٢)، و«روح المعاني» (١٤/ ٧٢)، و«الفريد» (٣/ ٢٢٢).

(٢) «القراءات الشاذة» (ص٧٢)، و«المحتسب» (٢/ ٩)، و«البحر المحيط» (٦/ ٥١٨). وهي قراءة شاذة.

(٣) «التبيان» (٢/ ٧٩٢)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٣٩٤)، و«الفريد» (٣/ ٢٢٢).

(٤) في «العين» (ص١٣٧).

(٥) «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٣١١)، و«روح المعاني» (١٤/ ٧٥).

وقيل: القائل هو مَنْ يفد عليه؛ وقيل: القائل: المسلمون، فأجاب المشركون المنكرون المستكبرون فـ﴿قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ بالرفع[(١)]؛ أي: ما تدّعون أيها المسلمون نزوله أساطير[(٢)] الأوّلين، أو أَنّ المشركين أرادوا السخرية بالمسلمين، فقالوا: المنزل عليكم أساطير الأوّلين.

وعلى هذا فلا يرد ما قيل من أن هذا لا يصلح أن يكون جواباً من المشركين، وإلّا لكان المعنى الذي أنزله ربنا أساطير الأوّلين، والكفار لا يقرّون بالإنزال، ووجه عدم وروده هو ما ذكرناه؛ وقيل: هو كلام مستأنف؛ أي: ليس ما تدّعون إنزاله أيها المسلمون منزلاً؛ بَلْ هو أساطير الأوّلين.

وقد جوّز على مقتضى علم النحو نصب[(٣)] «أساطيرَ» وإن لم تقع القراءة به، ولا بدّ في النصب مِنْ التأويل الذي ذكرنا؛ أي: أنزل على دعواكم أساطير الأوّلين، أو يقولون ذلك من أنفسهم على طريق السخرية.

والأساطير: الأباطيلُ[(٤)] والترّهات التي يتحدّث الناس بها عن القرون الأولى. وليس مِنْ كلام الله في شيء، ولا مما أنزله الله أصلاً في زعمهم ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ﴾؛ أي: قالوا هذه المقالة لكي يحملوا أوزارهم كاملةً. لم يُكفّر مِنْها شيء لعدم إسلامهم الذي هو سبب لتكفير الذنوب.

وقيل: إن اللّام[(٥)] هي لام [٣/١٤٣] العاقبة؛ لأنّهم لم يصفوا القرآن بكونه أساطير لأجل يحملون الأوزار، ولكن لما كان عاقبتهم ذلك حَسُنَ التعليل به كقوله: ﴿لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ﴾ [القصص: ٨].

وقيل: هي لام الأمر[(٦)]. ﴿وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾ أي: ويَحْملون بعض أوزار الذين أضلوهم لأنّ مَنْ سنَّ سُنَّة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها.

وقيل: مِنْ للجنس لا للتبعيض؛ أي: يحملون كلّ أوزار الذين يضلونهم،

---

(١) «الفريد» (٣/ ٢٢٢)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٣٩٤)، و«التبيان» (٢/ ٧٩٣).

(٢) «جامع البيان» (١٤/ ١٩٨ ـ ١٩٩).

(٣) «روح المعاني» (١٤/ ٧٦)، و«الكشاف» (٣/ ٤٣٢)، و«التبيان» (٢/ ٧٩٣).

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٢/ ٣١١)، وانظر: «جامع البيان» (١٤/ ١٩٩).

(٥) «التبيان» (٢/ ٧٩٣)، و«البحر المحيط» (٦/ ٥٢٠)، و«المحرر الوجيز» (١٠/ ١٧٥).

(٦) «الفريد» (٣/ ٢٢٣)، و«روح المعاني» (١٤/ ٧٧ ـ ٧٨)، و«المحرر الوجيز» (١٠/ ١٧٥).

ومحلّ ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ النصب[١] على الحال مِنْ فاعل «يُضلّونهم»؛ أي: يضلون الناس جاهلين غير عالمين بما يدعونهم إليه، ولا عارفين بما يلزمهم من الآثام؛ وقيل: إنه حال مِنْ المفعول؛ أي: يضلون مَنْ لا علم له، ومثل هذه الآية: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣].

وقد تقدّم في الأنعام الكلام على قوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤] ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ أي: بئس شيئاً يزرونه ذلك. ثم حكى سبحانه حال أضرابهم من المتقدّمين فقال: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ ذهب أكثرُ المفسرين[٢] إلى أنّ المراد به: نُمروذ بن كَنْعان حيثُ بنى بناءً عظيماً ببابل، ورام الصعود إلى السماء ليقاتل أهلها، فأهبّ الله الريح، فخرّ ذلك البناء عليه وعلى قومه فهلكوا، والأولى أَنّ الآية عامة في جميع المبطلين مِنْ المتقدّمين الذين يحاولون إلحاق الضُّرّ بالمحقين.

ومعنى المكر هنا: الكيد والتدبير الذي لا يُطابق الحق، وفي هذا وعيد للكفار المعاصرين له ﷺ بأنّ مكرهم سيعود عليهم كما عاد مكرُ مَنْ قبلهم على أنفسهم ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم﴾ أي: أتى أمرُ الله، وهو الريح التي أخربت بنيانهم. قال المفسرون[٣]: أرسل الله ريحاً فألقت رأس الصرح في البحر، وخرّ عليهم الباقي ﴿مِّنَ الْقَوَاعِدِ﴾.

قال الزجّاج[٤]: مِنْ الأساطين، والمعنى: أنه أتاها أمرُ الله مِنْ جهة قواعدها فزعْزَعها ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ قرأ ابن هُرْمز، وابن مُحيصن «السُّقُف» بضم السين[٥] والقاف جميعاً.

وقرأ مجاهد بضم السين[٦] وسكون القاف، وقرأ الباقون بفتح السين[٧]

---

(١) انظر: «الكشاف» (٢/ ٥٦٢).

(٢) «جامع البيان» (١٤/ ٢٠٢ ـ ٢٠٥)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٣١٢). وسيأتي بيان أنّه من الإسرائيليات.

(٣) سيأتي نصه وتخريجه، وأنّه من الإسرائيليات.

(٤) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ١٩٥).

(٥) «القراءات الشاذة» (ص٧٢)، و«البحر المحيط» (٦/ ٥٢١).

(٦) «المحتسب» (٢/ ٩)، و«روح المعاني» (١٤/ ٨٢ ـ ٨٧)، و«البحر المحيط» (٦/ ٥٢١). قراءة العشرة (السَّقْف) بفتح السين وسكون القاف وغير هذا شاذ.

(٧) «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٣١٣)، و«البحر المحيط» (٦/ ٥٢١)، و«روح المعاني» (١٤/ ٨٣).

وسكون القاف، والمعنى: أنّه سقط عليهم السقف؛ لأنّه بعد سقوط قواعد البناء يسقط جميع ما هو معتمد عليها.

قال ابنُ الأعرابي[١]: وإنما قال: ﴿مِن فَوۡقِهِمۡ﴾ ليعلمك أنّهم كانوا حالين تحته، والعرب تقول: خرّ علينا سقف، ووقع علينا حائط إذا كان يملكه وإن لم يكن وقع عليه، فجاء بقوله: ﴿مِن فَوۡقِهِمۡ﴾ ليخرج هذا الشك الذي في كلام العرب، فقال: ﴿مِن فَوۡقِهِمۡ﴾ أي: عليهم وقع، وكانوا تحته فهلكوا، وما أفلتوا.

وقيل: إنّ المراد بالسقف: السماء؛ أي: أتاهم العذاب مِنْ السماء التي فوقهم؛ وقيل: إنّ هذه الآية تمثيل لهلاكهم؛ والمعنى: أهلكهم فكانوا بمنزلة من سقط بنيانه عليه.

وقد اختلف في[٢] هؤلاء الذين خَرّ عليهم السقفُ، فقيل: هو نمروذ كما تقدّم، وقيل: إنه بخْتَنصّر[٣] وأصحابهُ، وقيل: هم المُقتسمون الذين تقدّم ذكرهم في سورة الحجر ﴿وَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ أي: الهلاك ﴿مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ به؛ بل من حيثُ إِنهم في أمان.

ثم بيّن سبحانه أَنّ عذابهم غير مقصور على عذاب الدنيا. فقال: ﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُخۡزِيهِمۡ﴾ بإدخالهم النار، ويفضحهم بذلك ويهينهم، وهو معطوف على مقدّر؛ أي: هذا عذابهم في الدنيا، ثم يوم القيامة يخزيهم ﴿وَيَقُولُ﴾ لهم مع ذلك توبيخاً[٤] وتقريعاً: ﴿أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ﴾ كما تزعمون وتدّعون.

قرأ ابنُ كثير مِنْ رواية البزي «شركاي» مِنْ دون همز[٥].

وقرأ الباقون[٦] بالهمز، ثم وصف هؤلاء الشركاء بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمۡۚ﴾ قرأ نافع بكسر النون[٧] على الإضافة، وقرأ الباقون[٨] بفتحها؛ أي:

---

(١) «زاد المسير» (٢/ ٤٤٠ ـ ٤٤١)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٣١٤)، و«المحرر الوجيز» (١٠/ ١٧٦).

(٢) انظر: المصادر في التعليقة المتقدمة.

(٣) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٣١٤).

(٤) «روح المعاني» (١٤/ ٨٣ ـ ٨٤)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ٣٣٨).

(٥) «النشر» (٢/ ٣٠٣)، و«روح المعاني» (١٤/ ٨٤)، و«التيسير» (ص١٣٧).

(٦) «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٣١٥)، و«روح المعاني» (١٤/ ٨٤)، و«البحر المحيط» (٦/ ٥٢٢).

(٧) انظر: المصادر المتقدمة.

(٨) «البحر المحيط» (٦/ ٥٢٢)، و«روح المعاني» (١٤/ ٨٤)، و«النشر» (٢/ ٣٠٣). وهما قراءتان متواترتان.

تخاصمون الأنبياء والمؤمنين فيهم، وعلى قراءة نافع تخاصمونني فيهم وتعادونني، ادْعوهم فليدفعوا عنكم هذا العذابَ النازل بكم.

وقد أخرجَ ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طريق عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس(١) في قوله: ﴿لَا جَرَمَ﴾ يقول: بلى.

وأخرج ابن أبي حاتم(٢) عن أبي مالك ﴿لَا جَرَمَ﴾ قال: يعني: بحقٍ.

وأخرج ابن أبي حاتم(٣) عن الضحاك قال: لا كِذبَ.

وأخرج مُسلم، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه وغيرهم عن ابن مسعود(٤) قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخلُ الجنةَ مَنْ كان في قلبه مثقال ذرّة مِنْ كِبْر، ولا يدخل النّارَ مَنْ كان في قلبه مثقال ذرّة مِنْ إيمان، فقال رجل: يا رسولَ الله، الرجلُ يُحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً؟، فقال: إن الله جميلٌ يحبّ الجمال، الكِبْرُ بَطَر الحقّ وغَمص النّاس». وفي ذمّ الكبر ومدح التواضع أحاديث كثيرة، وكذلك في إخراج محبة حُسن الثوب وحسن النّعل، ونحو ذلك مِنْ الكبر أحاديث كثيرة.

والحاصل: أنّ النبي ﷺ قد بيّن ماهية الكبر أنّه بطر الحق وغمص الناس، فهذا هو الكبر المذموم.

وقد ساق صاحب «الدرّ المنثور»(٥) عند تفسيره لهذه الآية؛ أعني: قوله سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ أحاديث كثيرة ليس هذا مقام إيرادها؛ بل المقام مقام ذكر ما له علاقة بتفسير الكتاب العزيز.

وأخرج ابنُ أبي حاتم(٦) عن قتادة في قوله: ﴿قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أن ناساً مِنْ مشركي العرب كانوا يقعدون بطريق مَنْ أتى نبيَّ الله ﷺ، فإذا مرّوا سألوهم فأخبروهم بما سمعوا من النبي ﷺ فقالوا: إنما هو أساطير الأوّلين.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢٦٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢١١٩) بسند صحيح.

(٢) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٨٠).

(٣) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٨٠).

(٤) أخرجه مسلم في «صحيحه» رقم (٩١)، وأبو داود رقم (٤٠٩١)، والترمذي رقم (١٩٩٨، ١٩٩٩)، وابن ماجه رقم (٥٩، ٤١٧٣)، والبيهقي رقم (٨١٥٢)، وابن أبي شيبة (٩/ ٨٩).

(٥) «الدر المنثور» (٥/ ١١٩ ـ ١٢٥).

(٦) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٨١).
وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ١٩٩) بسند صحيح.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[(١)] في قوله: ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ﴾ الآية يقول: يحملون مع ذنوبهم ذنوبَ الذين يُضلّونهم بغير علم، وذلك مثل قوله سبحانه: ﴿وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ﴾ [العنكبوت: ١٣].

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد[(٢)] نحوه، وزاد ولا يخفّف ذلك عمّن أطاعهم من العذاب شيئاً.

وأخرج ابنُ جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[(٣)] في قوله: ﴿قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ قال: نُمروذ بن كَنْعان حين بنى الصّرحَ.

وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير عن زيد[(٤)] بن أسلم أنه النمروذ أيضاً.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد[(٥)] نحوه.

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة[(٦)] في قوله: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ﴾ قال: أتاها أمر الله من أصلها ﴿فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ﴾ والسقف: أعالي البيوت فائتكفتْ بهم بيوتُهم، فأهلكم الله ودمَّرهم ﴿وَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم من طريق عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس[(٧)] ﴿تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمۡۚ﴾ قال: تُخالفوني.

[المستكبرين وجزاؤهم]

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ ٱلۡيَوۡمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ فَأَلۡقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ۞وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢٠١) بسند ضعيف.
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢٠٠) بسند صحيح.
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢٠٤) من طريق عطية العوفي بسند ضعيف.
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥) مرسلاً. قال ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ٥٧٣): وهو مرسل، زيد بن أسلم تابعي، وهذا أمر غيبي والأشبه أنّه من الإسرائيليات.
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢٠٦) بسند صحيح.
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢٠٥) بسند صحيح.
(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢٠٨) بسند صحيح.

رَبُّكُمْۚ قَالُواْ خَيْرًاۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۚ وَلَدَارُ ٱلْأٓخِرَةِ خَيْرٌۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

قولُه: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ [النحل: ٢٧] قيل: هم العلماء[1] قالوه لأممهم الذين كانوا يَعِظونهم ولا يلتفتون إلى وعظهم، وكان هذا القول منهم على طريق الشماتة؛ وقيل: هم الأنبياء، وقيل: الملائكة، والظاهر: الأوّل لأن ذكرهم بوصف العلم يفيد ذلك وإنْ كان الأنبياء والملائكة هم مِنْ أهل العلم؛ بل هم أَعرق فيه لكن لهم وصفٌ يذكرون به، هو أشرفُ مِنْ هذا الوصف، وهو كونهم أنبياء أو كونهم ملائكة، ولا يَقْدح في هذا جواز الإطلاق؛ لأنّ المراد الاستدلال على الظهور فقط.

﴿إِنَّ ٱلْخِزْيَ ٱلْيَوْمَ﴾ أي: الذلّ والهوان والفضيحة يوم القيامة ﴿وَٱلسُّوٓءَ﴾ أي: العذاب ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [النحل: ٢٧] مختصٌ بهم. ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْۖ﴾ قد تقدّم تفسيره، والموصول في محل الجر[2] على أنه نعت للكافرين، أو بدل منه، أو في محل نصب على الاختصاص، أو في محل رفع على تقدير مبتدأ؛ أي: هم الذين تتوفّاهم، وانتصاب[3] ﴿ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْۖ﴾ على الحال ﴿فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ﴾ معطوف على ﴿يَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ﴾ [النحل: ٢٧] وما بينهما اعتراض؛ أي: أقرّوا بالربوبية، وانقادوا عند الموت، ومعناه: الاستسلام قاله قُطْرب[4].

وقيل: معناه: المسالمة؛ أي: سالموا وتركوا المشاقة قاله الأخفش[5].

وقيل: معناه: الإسلام؛ أي: أقرّوا بالإسلام وتركوا ما كانوا فيه [٣/١٤٤] من

---

(١) «جامع البيان» (١٤/٢٠٨)، و«معالم التنزيل» (٣/٦٦)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/٣١٥).
(٢) «الفريد» (٣/٢٢٤)، و«التبيان» (٢/٧٩٤)، و«روح المعاني» (١٤/٨٨)، و«البحر المحيط» (٦/٥٢٣).
(٣) انظر: المصادر في التعليقة المتقدمة.
(٤) «المحرر الوجيز» (١٠/١٧٧)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/٣١٦).
(٥) أبو حيان في «البحر المحيط» (٦/٥٢٣).

الكفر، وجملة ﴿مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭۚ﴾ يجوز أَنْ تكون تفسيراً للسلم على أن يكون المراد بالسلم الكلام الدال عليه.

ويجوز أَنْ يكون المراد بالسوء هنا: الشّرْك، ويكون هذا القول منهم على وجه الجُحود والكذب، ومَنْ لم يجوّز الكذب على أهل القيامة حمله على أنهم أرادوا أنّهم لم يعملوا سوءاً في اعتقادهم، وعلى حسب ظنونهم، ومثله قولهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] فلما قالوا هذا أجاب عليهم أهل العلم بقولهم: ﴿بَلَىٰٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾؛ أي: بلى كنتم تعملون السوء، إن الله عليم بالذي كنتم تعملونه، فمجازيكم عليه ولا ينفعكم هذا الكذب شيئاً ﴿فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾؛ أي: يقال لهم ذلك عند الموت.

وقد تقدّم ذكر أبواب جهنم وأنّ جهنم درجات بعضها فوق بعض.

و﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ﴾ حال مقدرة[1] لأنّ خلودهم مُستقبل ﴿فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ المخصوص بالذم محذوف، والتقدير، لبئس مثوى المتكبرين جهنَّم، والمراد بتكبرهم هنا: هو تكبرهم عَنْ الإيمان والعبادة كما في قوله: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ [الصافات: ٣٥]. ثم أتبع أوصاف الأشقياء بأوصاف السعداء، فقال: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾ وهم المؤمنون: ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ﴾؛ أي: أنزل خيراً.

قال الثعلبي[2]: فإنْ قيل: لم ارتفع الجواب في قوله: «أساطيرُ الأوّلين» وانتصب[3] في قوله: «خيراً»؟ **فالجواب**: أَنّ المشركين لم يؤمنوا بالتنزيل، فكأنهم قالوا الذي يقوله محمد هو أساطير الأوّلين، والمؤمنون آمنوا بالنزول، فقال: أنزل خيراً ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ﴾ قيل: هذا من كلام الله ﷻ، وقيل: هو حكاية لكلام الذين اتقوا، فيكون على هذا بدلاً مِنْ ﴿خَيۡرٗاۗ﴾، وعلى الأوّل يكون كلاماً مُستأنفاً مَسُوقاً للمدح للمتقين.

والمعنى: للذين أحسنوا أعمالهم في الدنيا حسنة؛ أي: مثوبة حسنة ﴿وَلَدَارُ

(١) «روح المعاني» (١٤/ ٩٠)، و«الفريد» (٣/ ٢٢٤).

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٢/ ٢١٨).

(٣) «روح المعاني» (١٤/ ٩١ ـ ٩٢)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٣٩٤ ـ ٣٩٥)، و«الفريد» (٣/ ٢٢٥).

﴿ٱلْآخِرَةِ﴾؛ أي: مثوبتها ﴿خَيْرٌ﴾ مما أُوتوا في الدنيا ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ دار الآخرة، فحُذف المخصوص بالمدح لدلالة ما قبله عليه، وارتفاع ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ على أنّها مبتدأ[(١)] خبرها ما بعدها، أو خبر مبتدأ محذوف.

وقيل: يجوز أَنْ تكون هي المخصوص بالمدح ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ هو إما خبر المبتدأ، أو خبر بعد خبر، وعلى تقدير تنكير ﴿عَدْنٍ﴾ تكون صفة لجنات، وكذلك ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ وقيل: يجوز أَنْ تكون الجملتان في محل نصب[(٢)] على الحال على تقدير أَنّ لفظ ﴿عَدْنٍ﴾ عَلَمٌ.

وَقد تقدّم معنى جَرْي الأنهار مِنْ تحت الجنّات ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾؛ أي: لهم في الجنّات ما تقع عليه مشيئتهم صفواً عَفْواً، يحصل لهم بمجرّد ذلك ﴿كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: مِثْل ذلك الجزاء يجزيهم، والمراد بالمتقين: كلُّ مَنْ يتقي الشركَ وما يوجب النار مِنْ المعاصي.

والموصول في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ في محل نصب[(٣)] نعت للمتقين المذكور قبله.

قرأ الأعمش وحمزة «يتوفّاهم»[(٤)] في هذا الموضع، وفي الموضع الأوّل[(٥)] بالياء التحتية.

وقرأ الباقون[(٥)] بالمثناة الفوقية. واختار القراءة الأولى أبو عُبيد مستدلّاً بما روي عَنْ ابن مسعود[(٦)] أنه قال: إنّ قريشاً زعموا أن الملائكة إناثٌ فذكّروهم أنتم. و﴿طَيِّبِينَ﴾ فيه أقوال: طاهرين مِنْ الشرك، أو الصالحين، أو زاكية أفعالهم وأقوالهم، أو طيبي الأنفس ثقة بما يلقونه من ثواب الله، أو طيبة نفوسهم بالرجوع إلى الله، أو طيبين الوفاة؛ أي: هي عليهم سهلة لا صعوبة فيها.

---

(١) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٣/ ١٩٦)، و«روح المعاني» (١٤/ ٩٤)، و«الفريد» (٣/ ٢٢٥).

(٢) انظر: المصادر المتقدمة.

(٣) انظر: «النشر» (٢/ ٣٠٣)، و«التيسير» (ص١٣٧)، و«البحر المحيط» (٦/ ٥٢٧)، و«روح المعاني» (١٤/ ٨٧)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٣١٤، ٣١٥).

(٤) عند الآية (٢٨).

(٥) «النشر» (٢/ ٣٠٣)، و«البحر المحيط» (٦/ ٥٢٧)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٣١٤، ٣١٥). ومع الأعمش وحمزة خلف، وهما قراءتان متواترتان.

(٦) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٣١٩)، و«المحرر الوجيز» (١٠/ ١٨٠).

وجملة ﴿يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ﴾ في محل نصب[١] على الحال من الملائكة؛ أي: قائلين: سلامٌ عليكم؛ ومعناه يحتمل وجهين[٢]:

أحدهما: أَنْ يكون السلام إنذاراً لهم بالوفاة.

الثاني: أَنْ يكون تبشيراً لهم بالجنّة لأن السلام أمان.

وقيل: إن الملائكة يقولون: السلام[٣] عليك وليّ الله، إنّ الله يقرأ عليك السلام ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أي: بسبب عملكم.

قيل: يحتمل هذا وجهين:

الأوّل: أن يكون تبشيراً بدخول الجنّة عند الموت.

الثاني: أَنْ يقولوا ذلك لهم في الآخرة. ولا ينافي هذا دخول الجنة بالتفضل كما في الحديث الصحيح[٤]: «سدّدوا وقاربوا واعلموا أنه لن يدخل أحد الجنة بعمله. قيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلّا أن يتغمدني الله برحمته». وقد قدّمنا البحث عن هذا.

وقد أخرج عبد بن حُميد، وابنُ جرير، وابنُ المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة[٥] في قوله: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾ قال: هؤلاء المؤمنون، يقال لهم: ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ﴾ فيقولون: ﴿خَيۡرٗاۗ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ﴾ أي: آمنوا بالله وكتبه، وأمروا بطاعته وحثّوا عبادَ الله على الخير، ودعوهم إليه.

وأخرج ابنُ جرير، وابن المنذر، وابنُ أبي حاتم عَنْ مجاهد[٦] في قوله: و﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ قال: أحياءً وأمواتاً قدّر الله لهم ذلك.

---

(١) «التبيان» (٢/ ٧٩٥)، و«روح المعاني» (١٢/ ٩٧).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٣١٩ ـ ٣٢٠).

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢١٣)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٤٠٢)، وابن المبارك في «الزهد» (ص١٤٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢١٧) من طرق عن محمد بن كعب القرظي بسند منقطع.

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٢٥٦)، والبخاري رقم (٥٦٧٣) و(٦٤٦٣)، ومسلم رقم (٧٢ ـ ٧٦/ ٢٨١٦)، وابن ماجه رقم (٤٢٠).

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢١١) بسند صحيح.

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢١٢) بسند صحيح.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

[من أقوال المنكرين المستكبرين]

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾.

[وهم وخطأ في فهم معنى المشيئة الإلٰهية]

قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ الآية: هذا جواب شُبْهةٍ أُخْرى لمنكري النبوّة، فإنهم طلبوا مِنْ النبي ﷺ أن ينزّل عليهم مَلَكاً مِنْ السماء يشهد على صدقه في ادّعاء النبوّة فقال: هل ينظرون في تصديق نبوّتك ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ شاهدين بذلك، ويحتمل أنْ يقال: إنهم لما طعنوا في القرآن بأنه أساطير الأوّلين أوعدهم الله بقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ لقبض أرواحهم ﴿أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أي: عذابه في الدنيا المستأصل لهم، أو المراد بأمر الله القيامة.

وقرأ الأعمش، وابن وثّاب، وحَمْزة، والكسائي، وخَلَفٌ «إلا أنْ يأتيهم الملائكة» بالياء[1] التحتية.

---

(١) «التيسير» (ص١٠٨)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٣٢٠)، و«روح المعاني» (١٤/ ٩٨)، و«النشر» (٢/ ٣٠٣).

وقرأ الباقون[١] بالمثناة الفوقية؛ والمراد بكونهم ينظرون؛ أَي: ينتظرون إتيان الملائكة أو إتيان أمر الله على التفسير الآخر أَنّهم قد فعلوا فعل مَنْ وجب عليه العذاب، وصار منتظراً له، وليس المراد أَنّهم ينتظرون ذلك حقيقة، فإِنّهم لا يؤمنون بذلك ولا يصدّقونه.

﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ أي: مثل فعل هؤلاء مِنْ الإصرار على الكفر والتكذيب والاستهزاء فَعَل الذين خلوا مِنْ قبلهم مِنْ طوائف الكفار، فأتاهم أمر الله فهلكوا ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بتدميرهم بالعذاب، فإنّه أنزل بهم ما استحقوه بكفرهم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ بما ارتكبوه مِنْ القبائح، وفيه أن ظلمهم مقصور عليهم باعتبار ما إليه يؤول، وجملة ﴿فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ﴾ معطوفة على فعل الذين مِنْ قبلهم، وما بينهما اعتراض.

وقيل: في الكلام تقديم[٢] وتأخير، والتقدير: كذلك فَعل الذين مِنْ قبلهم فأصابهم سيئاتُ ما عملوا وما ظلمهم الله، والمعنى: فأصابهم جزاءُ سيئات أعمالهم، أو جزاء أعمالهم السيئة ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي: نَزل بهم على وجه الإحاطة ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ أي: العذاب الذي كانوا به يستهزئون، أو عقاب استهزائهم ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ﴾ هذا نوع آخر مِنْ كفرهم الذي حكاه الله عنهم.

والمراد بالذين أشركوا هنا أهل مكة ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ﴾ أي: لو شاء عدم عبادتنا لشيء غيره ما عبدنا ذلك ﴿نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ الذين كانوا على ما نحن عليه الآن مِنْ دين الكفر والشرك بالله.

قال الزجاج[٣]: إنهم قالوا هذا على جهة الاستهزاء، ولو قالوه عن اعتقاد لكانوا مؤمنين.

وقد مضى الكلام على مثل هذا في سورة الأنعام ﴿وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ﴾ من السوائب والبحائر ونحوهما، ومقصودهم بهذا القول المعلّق بالمشيئة: الطعن في الرسالة؛ أي: لو كان ما قاله الرسول حقّاً مِنْ المنع من عبادة غير الله، والمنع مِنْ تحريم ما لم يحرّمه الله حاكياً ذلك عن الله لم يقع منا ما يخالف ما أراده منا فإنه قد شاء ذلك، وما شاءه كان وما لم يشأه لم يكن.

---

(١) انظر: المصادر المتقدمة.

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٣٢١)، و«روح المعاني» (١٤/ ١٠٠ ـ ١٠١).

(٣) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ١٩٧).

فلمّا وقع منّا العبادة لغيره وتحريم ما لم يحرمه كان ذلك دليلاً على أن ذلك هو المطابق لمراده والموافق لمشيئته، مع أنّهم في الحقيقة لا يعترفون بذلك ولا يقرّون به لكنّهم قصدوا ما ذكرنا مِنْ الطعن على الرسل.

﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ مِنْ طوائف الكفر فإنّهم أشركوا بالله، وحرّموا ما لم يحرّمه، وجادلوا رسلَه بالباطل، واستهزؤوا بهم، ثم قال: ﴿فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ﴾ الذين يرسلهم الله إلى عباده بما شرعه لهم من شرائعه التي رأسها توحيده، وترك الشرك به ﴿إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ﴾ إلى مَنْ أُرْسلوا إليهم بما أُمروا بتبليغه بلاغاً واضحاً، يفهمه المرسَل إليهم، ولا يلتبس عليهم، ثم إنه سبحانه أكد هذا وزاده إيضاحاً فقال: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا﴾ كما بعثنا في هؤلاء لإقامة الحجة عليهم ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء: ١٥].

و«أن» في قوله: [٣/١٤٥] ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ إما مصدرية[(١)]؛ أي: بعثنا بأن اعبدوا الله، أو مفسرة لأنّ في البعث معنى القول: ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ أي: اتركوا كلَّ معبود دون الله كالشيطان والكاهن والصنم وكلَّ مَنْ دعا إلى الضلال ﴿فَمِنۡهُم﴾ أي: مِنْ هذه الأمم التي بعث الله إليها رسله ﴿مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ﴾ أي: أرشده إلى دينه وتوحيده وعبادته واجتناب الطاغوت ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾ أي: وجبت وثبتت لإصراره على الكفر والعناد.

قال الزجاج[(٢)]: أعلم اللهُ أنّه بعث الرسلَ بالأمر بالعبادة وهو مِنْ وراء الإضلال والهداية، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾ [الأعراف: ٣٠].

[أمر الله سبحانه لا يستلزم إرادته]:

وفي هذه الآية التصريح بأنّ الله أمر جميع عباده بعبادته، واجتناب الشيطان وكل ما يدعو إلى الضلال، وأنّهم بعد ذلك فريقان فمنهم مَنْ هدى ومنهم من حقت عليه الضلالة، فكان في ذلك دليل على أنّ أمر الله سبحانه لا يستلزم موافقة إرادته فإنّه يأمر الكل بالإيمان، ولا يريد الهداية إلّا للبعض، إذ لو أرادها للكل لم يكفر أحد، وهذا معنى ما حكيناه عَنْ الزجاج هنا.

---

(١) «التبيان» (٢/ ٧٩٥).

(٢) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ١٩٧).

﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ سير معتبرين ﴿فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ من الأمم السابقة عند مشاهدتكم لآثارهم كعاد وثمود؛ أي: كيف صار آخر أمرهم إلى خراب الديار بعد هلاك الأبدان بالعذاب، ثم خصّص الخطابَ برسوله ﷺ مؤكداً لما تقدّم فقال: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ﴾ أي: تطلب بجهدك ذلك ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾ قرأ ابن مسعود[١] وأهل الكوفة «لا يَهْدي» بفتح حرف المضارعة على أنه فعل مستقبل مسند إلى الله سبحانه أي: فإنّ الله لا يرشد مَنْ أضلّه، و «مَنْ» في موضع[٢] نصب على المفعولية.

وقرأ الباقون[٣] «لا يُهْدىٰ» بضم حرف المضارعة على أنه مبني للمجهول، واختار[٤] هذه القراءة أبو عُبيد، وأبو حاتم على معنى: أنه لا يهديه هادٍ كائناً من كان.

«ومَنْ» في موضع[٥] رفع على أنها نائب الفاعل المحذوف، فتكون هذه الآية على هذه القراءة كقوله في الآية الأخرى ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٨٦]. والعائد على القراءتين محذوف؛ أي: من يضله.

وروى أبو عبيد عَنْ الفرّاء[٦] على القراءة الأولى أن معنى ﴿لَا يَهْدِى﴾: لا يهتدي كقوله تعالى: ﴿أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ [يونس: ٣٥]، بمعنى: يهتدي.

قال أبو عبيد[٧]: ولا نعلم أحداً روى هذا غير الفرّاء وليس بمتهم فيما يحكيه.

قال النَّحاس[٨]: حُكي عَنْ محمد بن يزيد المبرِّد؛ كأن معنى ﴿لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾: من علم ذلك منه وسبق له عنده ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ ينصرونهم على

---

(١) «جامع البيان» (١٤/ ٢١٧ ـ ١٢٨)، و«التيسير» (ص١٣٧)، و«البحر المحيط» (٦/ ٥٢٩).
(٢) «التبيان» (٢/ ٧٩٥)، و«الفريد» (٣/ ٢٢٦)، و«روح المعاني» (١٤/ ١٠٨).
(٣) «جامع البيان» (١٤/ ٢١٧)، و«التيسير» (ص١٣٧)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٣٢٣)، و«البحر المحيط» (٦/ ٥٢٩). وهما قراءتان متواترتان.
(٤) «معاني القرآن» للنحاس (٤/ ٦٥ ـ ٦٦)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٣٢٣)، و«البحر المحيط» (٦/ ٥٢٩).
(٥) «الفريد» (٣/ ٢٢٧)، و«التبيان» (٢/ ٧٩٥)، و«روح المعاني» (١٤/ ١٠٨).
(٦) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٩٩).
(٧) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٢/ ٣٢٣).
(٨) في «معاني القرآن» للنحاس (٤/ ٦٥ ـ ٦٦).

الهداية لمن أضله الله أو ينصرونهم بدفع العذاب عنهم، ثم ذكر عناد قريش وإنكارهم للبعث فقال: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ﴾ مصدر[1] في موضع الحال؛ أي: جاهدين ﴿لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ مِنْ عباده، زعموا أن الله سبحانه عاجز عن بعث الأموات، فردّ الله عليهم ذلك بقوله: ﴿بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ هذا إثبات لما بعد النفي؛ أي: بلى يبعثهم.

و ﴿وَعْدًا﴾ مصدر[2] مؤكد لما دلّ عليه ﴿بَلَىٰ﴾ وهو يبعثهم لأن البعث وعد من الله وعَدَ عبادَه به.

والتقدير: وعد البعث وعداً عليه حقّاً لا خُلْف فيه، و﴿حَقًّا﴾ صفة لـ﴿وَعْدًا﴾، وكذا ﴿عَلَيْهِ﴾ فإنّه صفة لـ﴿وَعْدًا﴾؛ أي: كائناً عليه، أو نصب[3] حقّاً على المصدرية؛ أي: حق حقّاً ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن ذلك يسير عليه سبحانه غير عسير.

وقوله: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ﴾؛ أي: ليظهر لهم، وهو غاية لما دلّ عليه ﴿بَلَىٰ﴾ من البعث، والضمير في ﴿لَهُمُ﴾ راجع إلى مَنْ يموت، والموصول في قوله: ﴿ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ في محل[4] نصب على أنه مفعول ليبين؛ أي: الأمر الذي وقع الخلاف بينهم فيه، وبيانه إذ ذاك يكون بما جاءتهم به الرسل، ونزلت عليهم فيه كتب الله.

وقيل: إن ﴿لِيُبَيِّنَ﴾ متعلق بقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا﴾؛ أي: بعثنا في كل أمة رسولاً ليبين وهو بعيد ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ بالله سبحانه وأنكروا البعث ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰذِبِينَ﴾ في جدالهم وإنكارهم البعث بقولهم: ﴿لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾، وجملة ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ مستأنفة لبيان كيفية الإبداء والإعادة، بعد بيان سهولة البعث عليه سبحانه.

قال الزجّاج[5]: أعلمهم بسهولة خلق الأشياء عليه فأخبر أنه متى أراد الشيء كان، وهذا كقوله: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧]. وقرأ ابن

---

(١) «روح المعاني» (١٤/ ١١٠)، و«الفريد» (٣/ ٢٢٧).

(٢) «روح المعاني» (١٤/ ١١١)، و«الفريد» (٣/ ٢٢٧)، و«البحر المحيط» (٦/ ٥٢٩).

(٣) «روح المعاني» (١٤/ ١١١)، و«البحر المحيط» (٦/ ٥٢٩)، و«الفريد» (٣/ ٢٢٧).

(٤) «الفريد» (٣/ ٢٢٧)، و«روح المعاني» (١٤/ ١١٢).

(٥) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ١٩٨ ـ ١٩٩).

عامر، والكسائي «فيكونَ» بالنصب[١] عطفاً على ﴿أَن نَّقُولَ﴾.

قال الزجاج[٢]: يجوز أن يكون نصباً على جواب[٣] ﴿كُن﴾.

وقرأ الباقون بالرفع[٤] على معنى: فهو يكون.

قال ابن الأنباري[٥]: أوقع لفظ الشيء على المعلوم عند الله تعالى قبل الخَلْق؛ لأنه بمنزلة ما قد وُجد وشُوهد.

وقال الزجاج[٦]: إن معنى ﴿لِشَىْءٍ﴾ لأجل شيء فجعل اللام سببية؛ وقيل: هي لام التبليغ، كما في قولك: قلتُ له: قُمْ فقام، و﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا﴾ مبتدأ و﴿أَن نَّقُولَ لَهُ كُن﴾ خبره.

وهذا الكلام مِنْ باب التمثيل على معنى: أنه لا يمتنع عليه شيء، وأن وجوده عند إرادته كوجود المأمورية عند أمر الآمر المطاع إذا ورد على المأمور المطيع، وليس هناك قول ولا مقول له ولا أمر ولا مأمور حتى يقال: إنه يلزم منه أحد محالين إما خطاب المعدوم، أو تحصيل لحاصل. وقد مضى تفسير ذلك في سورة البقرة مُستوفى.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة[٧] في قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ قال: بالموت، وقال في آية أخرى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الأنفال: ٥٠]، وهو مَلَكُ الموت، وله رُسل ﴿أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ وذاكم يوم القيامة.

وأخرج ابن جرير عن مجاهد[٨] نحوه.

---

(١) «البحر المحيط» (١/ ٢٦٦)، و«النشر» (٢/ ٢٢٠)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٢٦٠ ـ ٢٦١). وهما قراءتان متواترتان.

(٢) في «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١٩٨ ـ ١٩٩).

(٣) قال النحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ٣٩٦): «فأما أن يكون جواباً فمحال؛ لأنّه إخبار لا يجوز فيه الجواب..».

(٤) «النشر» (٢/ ٢٢٠)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٣٢٥)، و«التيسير» (ص١٣٧)، و«روح المعاني» (١٤/ ١١٨).

(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٢/ ٣٢٥). (٦) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ١٩٩).

(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢١٥) بسند صحيح.

(٨) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢١٥) بسند صحيح.

وأخرج ابن أبي حاتم[(١)] عن عكرمة في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى مَن يُضِلُّ﴾ قال: مِنْ يُضلّه الله لا يَهْديه أحد.

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي العالية[(٢)] قال: كان لرجل مِنْ المسلمين على رجل من المشركين دَينٌ فأتاه يتقاضاه فكان فيما تكلّم به: والذي أرجوه بعد الموت إنّه لكذا وكذا، فقال له المشرك: إنّك لتزعم أَنّك تُبعث مِنْ بعد الموت، فأقسم بالله جهد يمينه: لا يَبْعثُ الله مَنْ يموت، فأنزل الله ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ﴾ الآية.

وأخرج العُقيلي، وابنُ مردويه عَنْ عليّ[(٣)] في قوله: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ﴾ قال: نزلت فيَّ.

وأخرج ابنُ جرير، وابن أبي حاتم، وابنُ المنذر عن أبي هريرة[(٤)] قال: «قال الله تعالى: سَبّني ابنُ آدم ولم يكن ينبغي له أنْ يسُبّني، وكذّبني ولم يكن ينبغي له أن يُكذّبني، أمّا تكذيبه إيايّ فقال: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ﴾، وقلتُ: ﴿بَلَىٰ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا﴾. وأمّا سَبّه إياي، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖ﴾ [المائدة: ٧٣]، وقلتُ: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ۝٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤]»، هكذا ذكره أبو هريرة موقوفاً وهو في «الصحيحين»[(٥)] مرفوعاً بلفظ آخر.

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة[(٦)] في قوله: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ﴾ يقول: للنّاس عامةً.

---

(١) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٨٣).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢٢٠ ـ ٢٢١) بسند حسن.

(٣) أخرجه العقيلي في «الضعفاء الكبير» (١/ ١٥٧)، وقال: «لا أصل له».

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢٢١) بسند ضعيف.

(٥) أخرجه البخاري رقم (٣١٩٣، ٤٩٧٤) من طريق أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً.
وأخرجه أحمد رقم (٨٢٢٠)، والبخاري رقم (٤٩٧٥) من طريق عبد الرزاق عن معمر عن همام بن منبه عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً.

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢٢٢) بسند صحيح.

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٤١ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٤٢﴾.

[وظيفة الرسل عليهم السلام]:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٤٣ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٤٤ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ٤٥ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ٤٦ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ ٤٧ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ ٤٨ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ٤٩ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٥٠﴾.

قد تقدّم تحقيق معنى الهجرة في سورة النساء، وهي تركُ الأهل والأوطان، ومعنى ﴿هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ﴾ في شأن الله سبحانه وفي رضاه؛ وقيل: ﴿فِي ٱللَّهِ﴾ في دين الله، وقيل: (في) بمعنى اللّام؛ أي: لله ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ﴾؛ أي: عُذّبوا وأُهينوا فإنّ أهل مكة عذبوا جماعةً من المسلمين حتى قالوا ما أرادوا منهم، فلما تركوهم هاجروا.

وقد اختُلف في سبب نزول الآية، فقيل: نزلت في صهيب[(١)] وبلال وخباب وعمار. واعتُرض بأنَّ السورة مكية، وذلك يخالف قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾. وأجيب بأنه يمكن أن تكون هذه الآية مِنْ جملة الآيات المدنية في هذه السورة كما قدّمنا في عنوانها، وقيل: نزلت في أبي جندل[(٢)] بن سُهيل، وقيل: نزلت في أصحاب محمد ﷺ لما ظلمهم المشركون بمكة وأخرجوهم حتى لحق طائفة منهم بالحبشة.

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٣٢٦)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٤٨)، و«جامع البيان» (١٤/ ٢٢٣ ـ ٢٢٥).

(٢) «جامع البيان» (١٤/ ٢٢٤ ـ ٢٢٥).

﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ اختلف في معنى هذا على أقوال؛ فقيل: المراد: نزولهم[١] المدينة قاله ابن عباس، والحسن، والشعبي، وقتادة.

وقيل: المراد: الرزق الحسن قاله مجاهد[٢]؛ وقيل: النصر على عدّوهم قاله الضحاك[٣].

وقيل: ما استولوا عليه مِنْ فتوح البلاد وصار لهم فيها من الولايات؛ وقيل: ما بقي لهم فيها مِنْ الثناء وصار لأولادهم من الشرف[٤].

ولا مانع مِنْ حمل الآية على جميع هذه الأمور.

ومعنى ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾: لنبوئنهم مباءة حسنةً أو تبوئة حسنة، فحسنة صفة مصدر محذوف ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾؛ أي: جزاء أعمالهم في الآخرة ﴿أَكْبَرُ﴾ من أَنْ يعلمه أحد مِنْ خلق الله قبل أن يشاهده، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ [الإنسان: ٢٠]. ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: لو كان هؤلاء [٣/١٤٦] الظلمة يعلمون ذلك، وقيل: إنّ الضمير في ﴿يَعْلَمُونَ﴾ راجع إلى المؤمنين؛ أي: لو رأوا ثواب الآخرة وعاينوه لعلموا أنه أكبر مِنْ حسنة الدنيا. ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ الموصول في محل[٥] نصب على المدح، أو الرفع على تقدير مبتدأ، أو هو بدل من الموصول الأوّل، أو مِنْ الضمير في ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾.

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾؛ أي: على رَبّهم خاصةً يتوكلون في جميع أمورهم مُعْرضين عما سواه، والجملة معطوفة على الصلة أو في محل نصب على الحال ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾.

قرأ حَفْص عَنْ عاصم «نوحي» بالنون[٦]، وقرأ الباقون «يُوحىٰ» بالياء[٧] التحتية، وهذه الآية ردّ على قريش حيثُ زعموا أن الله سبحانه أجلّ مِنْ أن يرسل رسولاً من

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٢/ ٣٢٧).
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢٢٤) بسند صحيح.
(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٢/ ٣٢٧).
(٤) «زاد المسير» (٤/ ٤٤٨)، و«النكت والعيون» (٣/ ١٨٨ ـ ١٨٩).
(٥) «التبيان» (٢/ ٧٩٦)، و«روح المعاني» (١٤/ ١١٩)، و«الفريد» (٣/ ٢٢٨).
(٦) «التيسير» (ص١٣٠)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٣٢٨)، و«النشر» (٢/ ٢٩٦)، و«روح المعاني» (١٤/ ١٢٧).
(٧) انظر: المصادر المتقدمة.

البشر، فردّ الله عليهم بأن هذه عادته وسُنَّته أن لا يرسل إلّا رجالاً من البشر يوحي إليهم.

وزعم أَبو عليّ الجبائي[١] أَنّ معنى الآية: أن الله سبحانه لم يرسل إلى الأنبياء بوحيه إلّا مَنْ هو على صورة الرجال مِنْ الملائكة.

ويردّ عليه بأن جبريل كان يأتي رسول الله ﷺ على صور مختلفة. ولما كان كفار مكة مقرّين بأن اليهود والنصارى هم أهل العلم بما أنزل الله في التوراة والإنجيل، صرف الخطاب إليهم، وأمرهم أن يرجعوا إلى أهل الكتاب، فقال: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: فاسألوا أيُّها المشركون مَنْ آمن مِنْ أهل الكتاب إنْ كنتم لا تعلمون، فإنهم سيخبرونكم أنّ جميع الأنبياء كانوا بشراً، أو اسألوا أهل الكتاب مِنْ غير تقييد بمؤمنيهم كما يفيده الظاهر فإنهم كانوا يعترفون بذلك ولا يكتمونه.

وقيل: المعنى: فاسألوا أهل القرآن، و﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾ يتعلق بـ﴿أَرْسَلْنَا﴾، فيكون داخلاً في حكم الاستثناء مع رجالاً، وأنكر الفراء[٢] ذلك، وقال: إن صفة ما قبل «إلّا» لا تتأخر إلى ما بعدها؛ لأن المستثنى عنه هو مجموع ما قبل إلّا مع صلته، كما لو قيل: ما أرسلنا إلّا رجالاً بالبينات، فلما لم يصر هذا المجموع مذكوراً بتمامه امتنع إدخال الاستثناء عليه؛ وقيل: في الكلام تقديم وتأخير.

والتقدير: وما أرسلنا مِنْ قبلك بالبينات والزبر إلّا رجالاً؛ وقيل: يتعلق بمحذوف دلّ عليه المذكور؛ أي: أرسلناهم بالبينات والزبر، ويكون جواباً عن سؤال[٣] مقدّر كأنه قيل: لماذا أرسلهم؟ فقال: أرسلناهم بالبينات والزبر؛ وقيل: متعلق بـ﴿تَعْلَمُونَ﴾ على أنه مفعوله والباء[٤] زائدة؛ أي: إن كنتم لا تعلمون بالبينات والزبر.

وقيل: متعلق برجالاً؛ أي: رجالاً متلبّسين بالبينات والزبر؛ وقيل: بنوحي؛ أي: نوحي إليهم بالبينات والزبر؛ وقيل: منصوب بتقدير أعني، والباء زائدة، وأهل الذكر هم أهل الكتاب كما تقدّم.

---

(١) ذكره الرازي في «تفسيره» (٢٠/ ٣٦).
(٢) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١٠٠ ـ ١٠١).
(٣) «الفريد» (٣/ ٢٢٨ ـ ٢٢٩)، و«التبيان» (٢/ ٧٩٦)، و«روح المعاني» (١٤/ ١٢٧).
(٤) «الفريد» (٣/ ٢٢٨)، و«التبيان» (٢/ ٧٩٦)، و«روح المعاني» (١٤/ ١٢٧).

وقال الزجّاج[١]: اسألوا كلَّ مَنْ يُذكر بعلمٍ، والبينات: الحجج والبراهين، والزبر: الكُتب.

وقد تقدّم الكلام على هذا في «آل عمران».

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ﴾؛ أي: القرآن، ثم بيَّن الغاية المطلوبة من الإنزال فقال: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ جميعاً ﴿مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ في هذا الذكر مِنْ الأحكام الشرعية والوعد والوعيد ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: إرادة أن يتأملوا ويُعْمِلوا أفكارهم فيتعظوا.

﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ يحتمل أن تكون (السيئات) صفة[٢] مصدر محذوف؛ أي: مكروا المكرات السيئات، وأن تكون مفعولة للفعل المذكور على تضمينه معنى العمل؛ أي: عملوا السيئات، أو صفة لمفعول مقدّر؛ أي: أفأمن الماكرون العقوبات السيئات، أو على حذف حرف الجرّ؛ أي: مكروا بالسيئات.

﴿أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾ هو مفعول[٣] «أمن»، أو بدل من مفعوله على القول بأن مفعوله محذوف، وأن السيئات صفة للمحذوف، والاستفهام للتقريع والتوبيخ، ومكر السيئات: سعيهم في إيذاء رسول الله وإيذاء أصحابه على وجه الخفية، واحتيالهم في إبطال الإسلام، وكيد أهله ﴿أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ﴾ كما خسف بقارون، يقال: خَسفَ المكان يَخسِفُ خُسوفاً: ذهب في الأرض، وخسف الله به الأرض خسوفاً؛ أي: غاب به فيها، ومنه قوله: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ [القصص: ٨١] وخُسِف هو في الأرض وخُسِف به ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ به في حال غفلتهم عنه كما فعل بقوم لوط وغيرهم، وقيل: يريد يوم بدر فإنهم أهلكوا ذلك اليوم ولم يكن في حسبانهم.

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ﴾ ذكر المفسرون فيه وجوهاً، فقيل: المراد: في أسفارهم[٤]

---

(١) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ٢٠٠ ـ ٢٠١).
(٢) «روح المعاني» (١٤/ ١٣٠)، و«الفريد» (٣/ ٢٢٩)، و«البحر المحيط» (٦/ ٥٣٤).
(٣) انظر: المصادر المتقدمة.
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢٣٤) عن قتادة، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٥٦) بسند صحيح.
=

ومتاجرهم، فإنّه سبحانه قادر على أَنْ يهلكهم في السفر كما يهلكهم في الحضر، وهم لا يفوتونه بسبب ضربهم في الأرض، وبُعدهم عن الأوطان.

وقيل: المراد: في حال تقلّبهم في قضاء أوطارهم بوجوه الحيل، فيحول الله بينهم وبين مقاصدهم وحيلهم؛ وقيل: في حال تقلبهم[1] في الليل على فرشهم، وقيل: في حال إقبالهم وإدبارهم، وذهابهم ومجيئهم بالليل[2] والنهار.

والقلب بالمعنى الأوّل مأخوذ من قوله: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾ [آل عمران: ١٩٦]. وبالمعنى الثاني مأخوذ من قوله: ﴿وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾ [التوبة: ٤٨]. ﴿فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾؛ أي: بفائتين ولا ممتنعين ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾؛ أي: حال تخوّف وتوقع للبلايا بأن يكونوا متوقعين للعذاب حذرين منه غير غافلين عنه، فهو خلاف ما تقدم من قوله: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾، وقيل: معنى ﴿عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾: على تنقّص.

قال ابن الأعرابي[3]: أي: على تنقص مِنْ الأموال والأنفس والثمرات حتى أهلكهم كلهم.

قال الواحدي[4]: قال عامة المفسرين: على تخوّف على: تنقّص إما بقتل أو بموت، يعني: بنقصٍ مِنْ أطرافهم ونواحيهم، يأخذهم الأول فالأوّل حتى يأتي الأخذ على جميعهم.

قال[5]: والتخوّف: التنقص، يقال: هو يتخوف المال؛ أي: يتنقصه، ويأخذ من أطرافه، انتهى. يقال: تخوّفه الدهر، وتخونه بالفاء والنون: تنقصه، قال ذو الرّمة[6]:

لا بَلْ هو الشوقُ من دارٍ تخوَّنها ... مَرّاً سحابٌ ومَرّاً بارحٌ تَرِبُ

وقال لبيد[7]:

تخوّفَها نزولي وارتحالي[8]

= وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢٣٤) عن ابن عباس بسند ضعيف.

(١) انظر: «الوسيط» للواحدي (٣/ ٦٤).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢٣٤) عن ابن جريج.

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٤/ ٣٣١).

(٤) في «الوسيط» (٣/ ٦٤).

(٥) أي: الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٦٤).

(٦) انظر: «ديوانه» (١/ ١٩).

(٧) انظر: «ديوان لبيد» (ص٧٦).

(٨) وصدره: عُذافرةٌ تقمَّص بالرُّدافى.

أي: تنقّص لحمَها وشحمَها.

قال الهيثم بن عديّ[١]: التخوّف بالفاء التنقّص لغةٌ لأزد شَنُوءة، وأنشد:

تـخـوّفَ [غَـدْرِهـم][٢] مـالـي وأُهـدي سـلاسـلَ فـي الـحُـلـوق لـهـا صـلـيـلُ

وقيل: على تخوّف: على عجل؛ قاله الليث بن سعد[٣]، وقيل: على تقريع بما قدّموه مِنْ ذنوبهم، روي ذلك عن ابن عباس[٤].

وقيل: على تخوّف أَنْ يعاقب ويتجاوز؛ قاله قتادة[٥]:

﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ لا يعاجل؛ بل يُمْهل رأفةً بكم ورحمةً لكم مع استحقاقهم للعقوبة ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ لما خوّف سبحانه الماكرين بما خوّف أَتْبعه ذكر ما يدل على كمال قدرته في تدبير أحوال العالم العُلْوي والسفلي ومكانهما، والاستفهام[٦] في ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ للإنكار، و«ما» مبهمة[٧] مفسرة بقوله: «من شيء».

قرأ حمزة، والكسائي، وخَلَفٌ، ويحيى بن وثّاب، والأعمش «تروا». بالمثناة[٨] الفوقية على أنه خطاب لجميع الناس.

وقرأ الباقون بالتحتية[٩] بإرجاع الضمير إلى الذين مكروا السيئات.

وقرأ أبو عمرو ويعقوب «تتفيؤا ظلاله» بالمثناة[١٠] الفوقية.

---

(١) ذكره ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢٣٥)، والقرطبي في «تفسيره» (١٢/ ٣٣١).
(٢) في المخطوط: عدوّهم وما أثبتناه من «جامع البيان» (١٤/ ٣٣١)، و«مجاز القرآن» لأبي عبيدة (١/ ٣٦٠).
(٣) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٣/ ١٩٠).
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢٣٧) من طريق عطاء الخراساني عن ابن عباس. قال: التنقُّص والتَّقْريع.
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢٣٨) بسند صحيح.
(٦) «البحر المحيط» (٦/ ٥٣٦)، و«روح المعاني» (١٤/ ١٣٥).
(٧) «الفريد» (٣/ ٢٢٩)، و«روح المعاني» (١٤/ ١٣٦).
(٨) «النشر» (٢/ ٣٠٤)، و«التيسير» (ص١٣٨)، و«روح المعاني» (١٤/ ١٣٦)، و«البحر المحيط» (٦/ ٥٣٧).
(٩) انظر: المصادر المتقدمة.
(١٠) «البحر المحيط» (٦/ ٥٣٧)، و«روح المعاني» (١٤/ ١٣٦)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٣٣٣)، و«النشر» (٢/ ٣٠٤).

وقرأ الباقون بالتحتية[١]، واختارها أبو عُبيد[٢]؛ أي: يميل من جانب إلى جانب، ويكون أوّل النهار على حال ويتقلّص، ثم يعود في آخر النهار على حالة أخرى.

قال الأَزْهري[٣]: تفيؤ الظِّلال رجوعُها بعد انتصاف النهار، فالتفيؤ لا يكون إلّا بالعشيّ وما انصرف عَنْه الشمس والقمر، والذي يكون بالغداة هو الظلّ.

وقال ثعلب: أُخبرت عَنْ أبي عُبيدة أَنَّ رؤبةَ قال: كل ما كانت عليه الشمس فزالت عنه فهو فيء، وما لم تكن عليه الشمس فهو ظلّ.

ومعنى ﴿مِن شَيْءٍ﴾: مِنْ شيء له ظلّ، وهي الأجسام، فهو عام أريد به الخاص، و﴿ظِلَٰلُهُۥ﴾ جمع ظلّ، وهو مضاف إلى مفرد؛ لأنه واحد يراد به الكثرة.

﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾؛ أي: عَنْ جهة أيمانها وشمائلها؛ أي: عن جانبي كل واحد منها. قال الفراء[٤]: وحّد اليمين؛ لأنه أراد واحداً من ذوات الأظلال، وجمع الشمائل؛ لأنه أراد كلّها؛ لأنّ ما خلق الله لفظه مفرد ومعناه جَمْعٌ.

وقال الواحدي[٥]: وحّد اليمين والمراد به الجميع إيجازاً في اللفظ كقوله: ﴿وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥]، ودلّت الشمائل على أن المراد به الجمع؛ وقيل: إن العرب إذا ذكرت صيغتي جمع عبرت عَنْ أحدهما بلفظ الواحد كقوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]، و﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ [البقرة: ٧].

وقيل: المراد باليمين: النقطة التي هي مشرق الشمس، وأنها واحدة. والشمائل: عبارة عَنْ الانحراف في فلك الإظلال بعد وقوعها على الأرض وهي كثيرة، وإنما عبّر عن المشرق باليمين لأنّ أقوى جانبي الإنسان يمينه، ومنه تظهر الحركة القوية ﴿سُجَّدًا لِّلَّهِ﴾ منتصب على الحال؛ أي: حال كون الظلال سجداً لله.

قال الزجاج[٦]: يعني: أن هذه الأشياء مجبولة على الطاعة، وقال أيضاً[٧]: سجود الجسم انقياده وما يرى مِنْ أثر الصنعة ﴿وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾ في محل نصب[٨] على

---

(١) انظر: المصادر المتقدمة.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٢/ ٣٣٣).

(٣) في «تهذيب اللغة» (١٥/ ٥٧٧).

(٤) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١٠٢).

(٥) في «الوسيط» (٣/ ٦٥).

(٦) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ٢٠٢).

(٧) أي: الزجاج في «معانيه» (٣/ ٢٠٢).

(٨) «البحر المحيط» (٦/ ٥٣٩)، و«روح المعاني» (١٤/ ١٣٨)، و«التبيان» (٢/ ٧٩٧).

الحال؛ أي: خاضعون صاغرون، والدخور: الصّغَار والذلّ، يقال: دخر الرجل فهو داخر وأدخره الله. قال الشاعر:

فـلـم يـبـقَ إلا داخِـرٌ فـي مُـخَـيّـس ومنحجرٍ في غيرِ أرضِك في حِجْرِ[١]

ومخيس: اسمُ سِجْنٍ كان بالعراق.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ﴾؛ أي: له وحده يخضع وينقاد لا لغيره ما في السمٰوات جميعاً، وما في الأرض مِنْ دابة تدبّ على الأرض، والمراد به كل دابة.

قال الأخفش[٢]: هو كقولك: ما أتاني مِنْ رجل مثله، وما أتاني من الرجال مثله.

وقد دخل في عموم ما في السمٰوات وما في الأرض جميع الأشياء الموجودة فيهما، وإنما خصّ الدابة بالذكر؛ لأنه قد علم من قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ انقياد الجمادات. وعطف الملائكة على ما قبلهم تشريفاً لهم، وتعظيماً لدخولهم في المعطوف عليه [٣/١٤٧] ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾؛ أي: والحال أنهم لا يستكبرون عَنْ عبادة ربهم، والمراد: الملائكة؛ ويحتمل أن تكون الجملة مستأنفة. وفي هذا رد على قريش حيثُ زعموا أنّ الملائكة بنات الله.

ويجوز أن تكون[٣] حالاً من فاعل ﴿يَسْجُدُ﴾، و«ما» عطف عليه؛ أي: يسجد لله ما في السمٰوات وما في الأرض والملائكة وهم جميعاً لا يستكبرون عن السجود ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ هذه الجملة في محل نصب على الحال؛ أي: حال كونهم يخافون ربهم مِنْ فوقهم، أو جملة مستأنفة لبيان نفي استكبارهم، ومن آثار الخوف عدم الاستكبار، و﴿مِّن فَوْقِهِمْ﴾ متعلّق بيخافون على حذف مضاف؛ أي: يخافون عذابَ ربِّهم مِنْ فوقهم، أو يكون حالاً مِنْ الربّ؛ أي: يخافون ربهم حال كونه مِنْ فوقهم.

وقيل: معنى ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾: يخافون الملائكة فيكون على حذف

---

(١) البيت لذي الرمة، انظر: «ديوانه» (٢/ ٩٧٩).
(٢) في «معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٦٠٦).
(٣) «روح المعاني» (١٢/ ١٤٦)، و«الفريد» (٣/ ٢٣١).

المضاف؛ أي: يخافون ملائكة ربِّهم كائنين مِنْ فوقهم وهو تكلّف لا حاجة إليه، وإنما اقتضى مثل هذه التأويلات البعيدة المحاماة على مذاهب قد رسخت في الأذهان، وتقرّرت في القلوب.

قيل: وهذه المخافة هي مخافة الإجلال، واختاره الزجاج[(١)] فقال: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم﴾ خوف مجلين، ويدلّ على صحة هذا المعنى قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ٦١]. وقوله إخباراً عن فرعون: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧]. ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾؛ أي: ما يؤمرون به مِنْ طاعة الله، يعني: الملائكة، أو جميع مَنْ تقدّم ذكره، وحمل هذه الجمل على الملائكة أولى؛ لأن في مخلوقات الله من يستكبر عَنْ عبادته ولا يخافه ولا يفعل ما يؤمر به؛ كالكفّار والعصاة الذين لا يتصفون بهذه الصفات وإبليس وجنوده.

وقدْ أخرجَ ابنُ جرير، وابنُ أبي حاتم، وابن مردويه عَنْ ابن عباس[(٢)] في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ قال: هم قوم مِنْ أهل مكة هاجَروا إلى رسول الله ﷺ بعد ظُلمهم.

وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن عساكر عن داود[(٣)] بن أَبي هندٍ[(٤)] قال: نزلت هذه الآية في أبي جَنْدل بن سُهيل.

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة[(٥)] في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ﴾ الآية قال: هؤلاء أصحاب محمد ظلمهم أهلُ مكة فأخرجوهم مِنْ ديارهم، حتى لحق طوائف منهم بأرض الحبشة، ثم بوّأهم اللهُ المدينةَ بعدَ ذلك، فجعلها لهم دار هجرة، وجعل لهم أنصاراً مِنْ المؤمنين ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْأَخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ قال: إي والله لما يثيبهم الله مِنْ جنته ونعمته أكبر ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن الشعبي[(٦)] في قوله: ﴿فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ قال: المدينة.

---

(١) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ٢٠٣).
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢٢٤) بسند ضعيف.
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢٢٤) من طريق جعفر بن سليمان، به.
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٣٢٣) بسند صحيح.
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢٢٣) بسند ضعيف.
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢٢٤) بسند صحيح.

وأخرج ابنُ أبي شيبة، وابنُ جريرٍ، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد[١] في الآية قال: لنرزقنهم في الدنيا رزقاً حسناً.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[٢] قال: «لما بعث الله محمداً رسولاً أنكرت العربُ ذلك، فأنزل الله ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ﴾».

وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه[٣] عنه في قوله: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ﴾ الآية، يعني: مشركي قريش أن محمداً رسولُ الله في التوراة والإنجيل.

وأخرج ابنُ أبي حاتم عن سعيد بن جبير[٤] قال: نزلت في عبد الله بن سَلَام ونفرٍ مِنْ أهل التوراة.

وأخرج ابنُ أبي شيبة، وابنُ جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مُجاهدٍ[٥] في قوله: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ قال: الآيات. ﴿وَٱلزُّبُرِۗ﴾ قال: الكتب.

وأخرج ابنُ أبي شيبة، وابنُ جرير، وابن المنذر عَنْ مجاهد[٦] في قوله: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ قال: نُمروذ بن كَنْعان وقومه.

وأخرج ابنُ جرير، وابنُ أبي حاتم عَنْ قتادة[٧] في الآية قال: أي: الشرك.

وأخرج ابن أبي حاتم[٨] عن الضحاك قال: تكذيبهم الرسلَ، وأعمالهم بالمعاصي.

وأخرج ابنُ جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[٩] في قوله: ﴿أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ﴾ قال: في اختلافهم.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢٢٨) بسند ضعيف.
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢٢٧ ـ ٢٢٨) بسند صحيح.
(٣) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٨٤).
(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ١٣٣).
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢٣١) بسند صحيح.
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢٣٢ ـ ٢٣٣) بسند صحيح.
(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢٣٣) بسند صحيح.
(٨) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ١٣٤).
(٩) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢٣٤) بسند صحيح.

وأخرج ابنُ جرير، وابنُ أبي حاتم عنه[١] ﴿فِي تَقَلُّبِهِمۡ﴾ قال: إنْ شئتُ أخذتُه في سفره ﴿أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ﴾ يقول: على أثَرِ موتِ صاحبه.

وأخرج ابنُ أبي حاتم[٢] عنه أيضاً ﴿عَلَىٰ تَخَوُّفٖ﴾ قال: تَنقّص مِنْ أعمالهم.

وأخرج ابن جرير[٣] عَنْ عمر أنه سألهم عن هذه الآية ﴿أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ﴾ فقالوا: ما نرى إلّا أنه عند تنقّص ما يُردّده مِنْ الآيات. فقال عمر: ما أرى إلا أنه على ما يَنقصون مِنْ معاصي الله، فخرج رجل ممّن كان عند عمر فلقي أعرابيّاً، فقال يا فلان: ما فعل ربُّك؟ قال: قد تخيّفته، يعني: انتقصته، فرجع إلى عمر فأخبره، فقال: قد رأيتُه ذلك.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد[٤] في قوله: ﴿أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ﴾ قال: يأخذهم بَنْقص بعضهم بعضاً.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[٥] في قوله: ﴿يَتَفَيَّؤُاْ﴾ قال: يتمّيل.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن قتادة[٦] في قوله: ﴿وَهُمۡ دَٰخِرُونَ﴾ قال: صاغرون.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد[٧] مثله.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة[٨] في قوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ﴾ الآية قال: لم يَدَعْ شيئاً مِنْ خلقه إلّا عبَّده له طائعاً أو كارهاً.

وأخرج ابن أبي حاتم[٩] عن الحسن في الآية قال: يسجد مَنْ في السمٰوات طوعاً، ومَنْ في الأرض طَوعاً وكَرْهاً.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢٣٤) بسند ضعيف.
(٢) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٨٥).
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢٣٦ ـ ٢٣٧) بسند ضعيف.
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢٣٨) بسند صحيح.
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢٤٠) بسند صحيح.
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢٤٣)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٥٦) بسند صحيح.
(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢٤٣) بسند صحيح.
(٨) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢٤٨) بسند صحيح.
(٩) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٨٥).

﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ٥١ وَلَهُۥ
مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ٥٢ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ
ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ٥٣ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم
بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ٥٤ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٥٥ وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا
يَعۡلَمُونَ نَصِيبٗا مِّمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡۗ تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ ٥٦ وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ
سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ ٥٧ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ
٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ أَلَا
سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ٥٩ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ
ٱلۡحَكِيمُ ٦٠ وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ
مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ٦١ وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ مَا
يَكۡرَهُونَۚ وَتَصِفُ أَلۡسِنَتُهُمُ ٱلۡكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم
مُّفۡرَطُونَ ٦٢﴾.

لمّا بيّن سبحانه أن مخلوقاته السماوية والأرضية منقادة له، خاضعة لجلاله، أتبع ذلك بالنهي عَنْ الشرك بقوله: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ فنهى سبحانه عَنْ اتخاذ إلٰهين، ثم أثبت أن الإلٰهية منحصرة في إلٰه واحد وهو الله سبحانه.

وقد قيل: إنّ التثنية في إلٰهين قد دلت على الاثنينية، والإفراد في إلٰه قد دلّ على الوحدة، فما وجه وصف إلٰهين باثنين، ووصف إلٰه واحد؟ فقيل في الجواب: إنّ في الكلام تقديماً وتأخيراً، والتقدير: لا تتخذوا اثنين[1] إلٰهين إنما هو واحد إلٰه، وقيل: إن التكرير لأجل المبالغة في التنفير عَنْ اتخاذ الشريك، وقيل: إن فائدة زيادة اثنين هي أَنْ يُعلم أن النهي راجع إلى التعدّد لا إلى الجنسية[2]، وفائدة زيادة واحد دفع توهم أن المراد إثبات الإلٰهية دون الواحدية، مع أن الإلٰهية له سبحانه مسلمة في نفسها، وإنما خلاف المشركين في الواحدية.

(١) «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٣٩٧)، و«المحرر الوجيز» (١٠/ ١٩٥).

(٢) «روح المعاني» (١٤/ ١٥٣)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ٣٥٣).

ثم نقل الكلام سبحانه مِنْ الغَيبة إلى التكلّم على طريقة الالتفات لزيادة الترهيب، فقال: ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾؛ أي: إنْ كنتم راهبين شيئاً فإياي فارهبون لا غيري[١]، وقد مرّ مثل هذا في أول البقرة. ثم لما قرّر سبحانه وحدانيته، وأنه الذي يجب أن يُخصّ بالرهبة منه والرغبة إليه، ذكر أن الكلّ في ملكه وتحت تصرّفه فقال: ﴿وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وهذه الجملة مقررة لمن تقدّم في قوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النحل: ٤٩] إلى آخره، وتقديم الخبر لإفادة الاختصاص ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا﴾؛ أي: ثابتاً واجباً دائماً لا يزول، والدين هو الطاعة والإخلاص.

قال الفراء[٢] ﴿وَاصِبًا﴾ معناه: دائماً، ومنه قول الدؤلي[٣]:

[لا أبتغي][٤] الحمدَ القليلَ بقاؤُه [بذمٍّ يكونُ الدهرَ أجمعَ واصباً][٥]

أي: دائماً.

وروي عن الفراء[٢] أيضاً أنه قال: الواصب: الخالص، والأوّل أولى، ومنه قوله سبحانه: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ [الصافات: ٩]؛ أي: دائم.

وقال الزجاج[٦]: أي: طاعته واجبة أبداً. ففسر الواصب بالواجب. وقال ابن قتيبة في تفسير الواصب: أي: ليس أحد يطاع إلّا انقطع ذلك بزوالٍ أو بهلكة غير الله تعالى فإنّ الطاعة تدوم له، ففسّر الواصب بالدائم، وإذا دام الشيء دواماً لا ينقطع فقد وجب وثبت، يقال: وصبَ الشيء يَصِبُ وصُوباً فهو واصب: إذا دام، ووَصَب الرجل على الأمر: إذا واظب عليه؛ وقيل: الوَصَب التعبُ والإِعْياء؛ أي: يجب طاعة الله سبحانه [٣/١٤٨]، وإنْ تعب العبد فيها وهو غير مناسب لما في الآية، والاستفهام في قوله: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ للتقريع والتوبيخ[٧]، وهو معطوف على مقدّر كما في نظائره.

---

(١) «البحر المحيط» (٦/ ٥٤٤)، و«روح المعاني» (١٤/ ١٥٣).
(٢) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١٠٤). (٣) انظر: «ديوانه» (ص٥٢).
(٤) كذا في المخطوط والذي في الديوان: لا أشتري.
(٥) كذا في المخطوط والذي في الديوان: يوماً يذمُّ الدهر أجمع واصباً.
(٦) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ٢٠٣).
(٧) «روح المعاني» (١٤/ ١٥٧)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ٣٥٣).

والمعنى: إذا كان الدين: أي: الطاعة واجباً له دائماً لا ينقطع كان المناسب لذلك تخصيص التقوى به وعدم إيقاعها لغيره.

ثم امتنّ سبحانه عليهم بأن جميع ما هم متقلّبون فيه مِنْ النعم هو منه لا من غيره فقال: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ﴾ أي: ما يلابسكم مِنْ النعم على اختلاف أنواعها فمن الله؛ أي: فهي منه، فتكون (ما)[١] شرطية، ويجوز أَنْ تكون موصولة متضمنة معنى[٢] الشرط، و﴿بِكُم﴾ صلتها، و﴿مِّن نِّعْمَةٍ﴾ حال مِنْ الضمير في الجار والمجرور، أو بيان لـ «ما».

وقولُه: ﴿فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ الخبر، وعلى كون ما شرطية يكون فعل الشرط محذوفاً؛ أي: ما يكن، والنعمة إما دينية وهي معرفة الحق لذاته، ومعرفة الخير لأجل العمل به، وإما دنيوية نفسانية، أَو بدنية أو خارجية كالسّعادات المالية وغيرها، وكل واحدة مِنْ هذه جنس تحته أنواع لا حصَر لها، والكلُّ مِنْ الله سبحانه فعلى العاقل أن لا يشكر إلّا إيّاه، ثم بين تلوّن الإنسان بعد استغراقه في بحر النعم فقال: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ أي: إذا مسكم الضرّ أيّ مسٍ فإلى الله سبحانه لا إلى غيره تتضرّعون في كشفه فلا كاشف له إلّا هو، يقال: جأر[٣] يجأر في لسان العرب جُؤاراً: إذا رفع صوتَه في تضرّعٍ. قال الأعشى يصف بقرة:

فـطـافَـتْ ثـلاثـاً بـيـنَ يـومٍ ولـيـلـةٍ وكـانَ الـنـكـيـرُ أن تَـطِـيـفَ وتـجـأرا[٤]

والضرّ: المرضُ، والبلاءُ، والحاجة والقَحْط وكلُّ ما يتضرر به الإنسان ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ أي: إذا رفع عنكم، ما نزل بكم من الضرّ ﴿إِذَا فَرِيقٌ﴾ أي: جماعة منكم بربِّهم الذي رفع الضر عنهم يشركون فيجعلون معه إلٰهاً آخر مِنْ صنمٍ أو نحوه، والآية مسوقة للتعجيب من فعل هؤلاء حيث يضعون الإشراك بالله الذي أنعم عليهم بكشف ما نزل بهم من الضرّ مكان الشكر له.

وهذا المعنى قد تقدّم في الأنعام ويونس، ويأتي في سبحان.

قال الزجاج[٥]: هذا خاص بمكر مَنْ كفر، وقابل كشف الضرّ عنه بالجحود

---

(١) «التبيان» (٢/ ٧٩٨)، و«الفريد» (٣/ ٢٣٢)، و«روح المعاني» (١٤/ ١٥٨).
(٢) «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١٠٤). (٣) «الصحاح» (٢/ ٦٠٧).
(٤) انظر: «ديوان النابغة الجعدي» (ص٤١)، ونسبه إليه البغدادي في «خزانة الأدب» (٣/ ٣١٧).
(٥) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ٢٠٤).

والكفر، وعلى هذا فتكون «مِنْ» في منكم للتبعيض[١] حيث كان الخطاب للناس جميعاً، والفريق هم الكفرة، وإنْ كان الخطاب موجهاً إلى الكفار فمِنْ للبيان، واللام في ﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ﴾ لام كي[٢]؛ أي: لكي يكفروا بما آتيناهم مِنْ نعمة كشف الضرّ، حتى كأنّ هذا الكفر منهم الواقع في موضع الشكر الواجب عليهم غرض لهم ومقصد مِنْ مقاصدهم، وهذا غاية في العتوّ والعناد ليس وراءها غاية؛ وقيل: اللام للعاقبة[٣]، يعني: ما كانت عاقبة تلك التضرعات إلّا هذا الكفر.

ثم قال سبحانه على سبيل التهديد والترهيب ملتفتاً[٤] مِنْ الغَيبة إلى الخطاب ﴿فَتَمَتَّعُواْۖ﴾ بما أنتم فيه من ذلك ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ عاقبة أمركم وما يحل بكم في هذه الدار، وما تصيرون إليه في الدار الآخرة.

ثم حكى سبحانه نوعاً آخر من قبائح أعمالهم فقال: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ نَصِيبٗا مِّمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡۗ﴾ أي: يقع منهم هذا الجَعْل بعد ما وقع مِنْهم الجؤار إلى الله سبحانه في كشف الضر عنهم وما يعقب كشفه عنهم من الكفر منهم بالله والإشراك به، ومع ذلك يجعلون لما لا يعلمون حقيقته مِنْ الجمادات والشياطين نصيباً مما رزقناهم من أموالهم يتقرّبون به إليه[٥].

وقيل: المعنى: أنهم؛ أي: الكفار يجعلون للأصنام وهم لا يعلمون شيئاً لكونهم جمادات، ففاعل ﴿تَعۡلَمُونَ﴾ على هذا هي الأصنام وأجراها مجرى العقلاء في جمعها بالواو والنون جرياً على اعتقاد الكفار فيها.

وحاصل المعنى: ويجعل هؤلاء الكفار للأصنام التي لا تعقل شيئاً نصيباً من أموالهم التي رزقهم الله إياها ﴿تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ﴾ هذا رجوع من الغيبة إلى الخطاب، وهذا السؤال سؤال تقريع[٦] وتوبيخ ﴿عَمَّا كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ﴾ تختلقونه من الكذب على الله سبحانه في الدنيا. ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ﴾ هذا نوع آخر من فضائحهم وقبائحهم.

---

(١) «روح المعاني» (١٤/ ١٦٠)، و«الفريد» (٣/ ٢٣٣).
(٢) «الفريد» (٣/ ٢٣٣)، و«روح المعاني» (١٤/ ١٦١).
(٣) «البحر المحيط» (٦/ ٥٤٦). (٤) «تفسير أبي السعود» (٤/ ٣٥٤).
(٥) «الوسيط» للواحدي (٣/ ٦٧)، و«معالم التنزيل» (٣/ ٧٣).
(٦) «روح المعاني» (١٤/ ١٦٣)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ٣٥٥).

وقد كانت خُزاعة وكِنانة تقول: الملائكة بناتُ الله ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ نزّه سبحانه نفسَه عما نسبه إليه هؤلاء الجفاة الذين لا عقول لهم صحيحة، ولا أفهام مستقيمة ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الفرقان: ٤٤] وفي هذا التنزيه تعجيب من حالهم ﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي: ويجعلون لأنفسهم ما يشتهوونه مِنْ البنين على أن «ما» في محل نصب[(١)] بالفعل المقدّر، ويجوز أن تكون في محل رفع على الابتداء.

وأنكر النصب الزجاج[(٢)] قال: لأن العرب لا يقولون: جعل له كذا وهو يعني نفسه، وإنما يقولون: جعل لنفسه كذا، فلو كان منصوباً لقال: ولأنفسهم ما يشتهون.

وقد أجاز النصب الفراء[(٣)].

ثم ذكر سبحانه كراهتهم للإناث التي جعلوها لله سبحانه فقال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ﴾ أي: إذا أُخْبر أحدهم بولادة بنتٍ له ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾ أي: متغيراً، وليس المراد السواد الذي هو ضدّ البياض؛ بل المراد الكناية بالسواد عَنْ الانكسار والتغير بما يحصل مِنْ الغمّ، والعرب تقول لكل مَنْ لقي مكروهاً قد اسود وجهه غماً وحُزْناً، قاله الزجاج[(٤)].

وقال الماوردي[(٥)]: بل المراد: سواد اللون حقيقة، قال: وهو قول الجمهور، والأوّل أولى، فإن المعلوم بالوجدان أنّ مَنْ غضب وحزن واغتمّ لا يحصل في لونه إلّا مجرد التغير وظهور الكآبة والانكسار لا السواد الحقيقي.

وجملة ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ في محل نصب[(٦)] على الحال؛ أي: مُمْتلئ مِنْ الغمّ غيظاً وحنقاً.

قال الأخفش[(٧)]: هو الذي يكظم غيظَه ولا يُظْهره، وقيل: إنَّه المغموم الذي يُطبق فاه مِنْ الغمّ، مأخوذ مِنْ الكظامة وهو سدّ فم البئر قاله عليّ بن عيسى[(٨)].

وقد تقدّم في سورة يوسف. ﴿يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾؛ أي: يتغيب ويختفي ﴿مِن سُوٓءِ

---

(١) «التبيان» (٢/ ٧٩٨)، و«الفريد» (٢٣٣ ـ ٢٣٤)، و«روح المعاني» (١٤/ ١٦٤).
(٢) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ٢٠٦). (٣) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١٠٥).
(٤) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ٢٠٦). (٥) في «النكت والعيون» (٣/ ١٩٤).
(٦) «روح المعاني» (١٤/ ١٦٦)، و«التبيان» (٢/ ٧٩٩)، و«الفريد» (٣/ ٢٣٤).
(٧) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٢/ ٣٤٠). (٨) انظر: «النكت والعيون» (٣/ ١٩٤).

﴿مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾؛ أي: مِنْ سوء الحزن والعار والحياء الذي يلحقه بسبب حدوث البنت له ﴿أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ﴾؛ أي: لا يزال متردّداً بين الأمرين: وهو إمساك البنت التي بُشّر بها، أو دفنها في التراب ﴿عَلَىٰ هُونٍ﴾؛ أي: هوانٍ[١]، وكذا قرأ عيسى الثقفي.

قال اليزيدي[٢]: والهون الهوان بلغة قريش، وكذا حكاه أبو عبيد عن الكسائي، وحكي عن الكسائي[٣] أنه البلاء والمشقة، قالت الخنساء[٤]:

نُهينُ النفوسَ وهونُ النفو ... سِ يومَ الكريهةِ أبقى لها

وقال الفراء[٥]: الهون: القليل بلغة تميم.

وحكى النحاس[٦] عن الأعمش أنّه قرأ «أيُمسكه على سُوءٍ أم يدسه في التراب»؛ أي: يُخفيه في التراب بالوأد كما كانت تفعله العرب، فلا يزال الذي بُشّر بحدوث الأنثى متردّداً بين هذين الأمرين، والتذكير في ﴿أَيُمۡسِكُهُۥ﴾ و﴿يَدُسُّهُۥ﴾ مع كونه عبارة عَنْ الأنثى لرعاية اللفظ.

وقرأ الجَحْدري «أم يدسها[٧] في التراب» ويلزمه أن يقرأ «أيمسكها»، وقيل: دسها إخفاؤها عن الناس حتى لا تُعرف كالمدسوس[٨] لإخفائه عن الأبصار.

﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ حيث أضافوا البنات التي يكرهونها إلى الله سبحانه، وأضافوا البنين المحبوبين عندهم إلى أنفسهم ومثل هذا قوله تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ۝٢١ تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ﴾ [النجم: ٢١ ـ ٢٢].

﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾؛ أي: لهؤلاء الذين وصفهم الله سبحانه بهذه القبائح الفظيعة مَثَل السوء؛ أي: صفة السوء مِنْ الجهل والكفر بالله؛ وقيل: هو وصفهم لله سبحانه بالصاحبة والولد؛ وقيل: هو حاجتهم إلى الولد ليقوم مقامهم، ووأد البنات لدفع العار وخشية الإملاق؛ وقيل: العذاب والنار.

---

(١) «القراءات الشاذة» (ص٧٣)، و«معاني القرآن» للنحاس (٤/ ٧٦)، و«روح المعاني» (١٤/ ١٦٨). وهي قراءة شاذة.
(٢) «جامع البيان» (١٤/ ٢٥٧).
(٣) ذكره النحاس في «معاني القرآن» (٤/ ٧٦).
(٤) انظر: «ديوان الخنساء» (ص١٢١).
(٥) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١٠٥).
(٦) في «معاني القرآن» للنحاس (٤/ ٧٦). وهي قراءة شاذة مخالفة للرسم.
(٧) «البحر المحيط» (٦/ ٥٤٩)، و«المحرر الوجيز» (١٠/ ١٩٩). وهي كذلك قراءة شاذة.
(٨) «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٣٤٢).

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ وهو أضداد صفة المخلوقين من الغنى الكامل والجود الشامل، والعلم الواسع، أو التوحيد[(١)] وإخلاص العبادة، أو أنه خالق رازق قادر مُجازي[(٢)].

وقيل: شهادة أن لا إلٰه إلّا الله[(٣)] وقيل: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ [النور: ٣٥].

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُغالَب فلا يضرّه نسبتهم إليه ما لا يليق به ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أفعاله وأقواله. ثم لما حكى سبحانه عَنْ القوم عظيم كفرهم بيّن سعة كرمه، وحِلْمه حيثُ لم يعاجلهم بالعقوبة، ولم يؤاخذهم بظلمهم، فقال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم﴾ والمراد بالناس هنا: الكفار أو جميع العصاة ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا﴾؛ أي: على الأرض وإن لم يذكر فقد دلّ عليها ذكر الناس وذكر الدابة، [٣/١٤٩] فإن الجميع مستقرّون على الأرض، والمراد بالدابة: الكافر[(٤)].

وقيل: كل ما دبّ؛ وقد قيل على هذا: كيف يعمّ بالهلاك مع أن فيهم من لا ذنب له؟ وأجيب: بإهلاك الظالم انتقاماً منه، وإهلاك غيره إن كان من أهل التكليف فلأجل توفير أجره، وإن كان من غيرهم فبشؤم ظلم الظالمين، ولله الحكمة البالغة ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، ومثل هذا قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥]. وفي معنى هذا أحاديث منها ما عند مسلم وغيره من حديث ابن عمر[(٥)] قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا أراد الله بقوم عذاباً أصاب العذاب مَنْ كان فيهم ثم بعثوا على نياتهم».

وكذلك حديث[(٦)] الجيش «الذين يُخسف بهم في البيداء، وفي آخره: أنهم يُبْعثون على نياتهم».

وقد قدّمنا عند تفسير قوله سبحانه: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً﴾ الآية [الأنفال: ٢٥] تحقيقاً حقيقاً بالمراجعة له.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/٢٥٨) عن قتادة بسند صحيح.
(٢) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٣/١٩٥).
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/٢٥٨)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/٣٥٧) بسند صحيح.
(٤) «زاد المسير» (٤/٤٥٩)، و«جامع البيان» (١٤/٢٥٩).
(٥) أخرجه أحمد (٢/ ٤٠)، والبخاري رقم (٧١٠٨)، ومسلم رقم (٨٤/ ٢٨٧٩).
(٦) أخرجه مسلم في «صحيحه» رقم (٢٨٨٢)، وأحمد رقم (٢٦٤٧٥) من حديث أُم سلمة ﵂.

﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۖ﴾ معلوم عنده، وهو مُنْتهى حياتهم، وانقضاء أعمارهم أو أَجَلُ عذابِهم، وفي هذا التأخير حكمة بالغة منها: الإعذارُ إليهم، وإرخاء العنان معهم، ومِنْها: حصولُ مَنْ سبق في علمه مِنْ أولادهم ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ الذي سمّاه لهم حقّت عليهم كلمةُ الله سبحانه في ذلك الوقت مِنْ دون تقدّم عليه ولا تأخر عنه، والساعة: المدة القليلة، وقد تقدّم تفسير هذا وتحقيقه.

ثم ذكر نوعاً آخر من جهلهم وحمقهم فقال: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَۚ﴾؛ أي: يَنْسبون إليه سبحانه ما يكرهون نسبته إلى أنفسهم مِنْ البنات، وهو تكرير لما قد تقدّم لقصد التأكيد والتقرير، ولزيادة التوبيخ والتقريع ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ﴾ هذا مِنْ النوع الآخر الذي ذكره سبحانه مِنْ قبائحهم وهو؛ أي: هذا الذي تصفه ألسنتهم من الكذب هو قولهم: ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰۚ﴾؛ أي: الخَصْلة الحسنى، أو العاقبة الحسنى.

قال الزجاج[(١)]: يصفون أنّ لهم مع قبح قولهم مِنْ الله الجزاء الحسن.

قال الزجاج[(٢)] أيضاً والفراء[(٣)]: أبدل من قوله: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ﴾.

قوله: ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰۚ﴾، و«الكذب» منصوب[(٤)] على أنه مفعول «تَصِفُ». وقرأ ابن عباس، وأبو العالية، ومجاهد، وابن محيصن «الكُذُبُ» برفع الكاف[(٥)] والذال والباء على أنه صفة للألسن وهو جمع كذب، فيكون المفعول على هذا هو ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰۚ﴾.

ثم ردّ الله سبحانه عليهم بقوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾؛ أي: حقّاً أن لهم مكان ما جعلوه لأنفسهم من الحسنى النار، وقد تقدّم تحقيق هذا ﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ قال ابن الأعرابي[(٦)] وأبو عبيدة: أي: متروكون منسيون في النار، وبه قال الكسائي[(٦)] والفراء[(٧)]، فيكون مشتقاً من أفرطت فلاناً خلفي: إذا خلفته ونسيته.

وقال قتادة والحسن[(٨)]: معجلون إليها مقدّمون في دخولها من أفرطته؛ أي:

---

(١) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ٢٠٧).
(٢) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ٢٠٧).
(٣) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١٠٧).
(٤) «التبيان» (٢/ ٧٩٩)، و«الفريد» (٣/ ٢٣٥).
(٥) «روح المعاني» (١٤/ ١٧٥)، و«المحتسب» (٢/ ١١)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٤٠٠).
القراءة بضم الكاف والذال والباء (كُذُبُ) شاذة والقراءة المتواترة بكاف مفتوحة وذال مكسورة وباء منصوبة (الكَذِبَ).
(٦) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٢/ ٣٤٧).
(٧) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١٠٧ ـ ١٠٨).
(٨) «جامع البيان» (١٤/ ٢٦٢، ٢٦٣).

قدّمته في طلب الماء، والفارط: هو الذي يتقدّم[(١)] إلى الماء، والفُرَّاط المتقدّمون في طلب الماء، والورّاد المتأخرون، ومِنْه قوله ﷺ: «أنا فَرَطُكم على الحوض»؛ أي: متقدّمكم، قال القطامي[(٢)]:

فاستعجلونا وكانوا مِنْ صحابتِنا كما تعجَّلَ فرّاطٌ لورّادِ

وقرأ نافع في رواية ورش «مُفْرِطون» بكسر الراء[(٣)] وتخفيفها، وهي قراءة ابن مسعود وابن عباس؛ ومعناه: مسرفون في الذنوب والمعاصي؛ يقال: أفرط فلان على فلان: إذا أَرْبى عليه وقال له أكثر مما قال من الشرّ.

وقرأ أبو جعفر القاري «مفرِّطون» بكسر الراء[(٤)] وتشديدها؛ أي: مضيعون أمر الله، فهو من التفريط في الواجب.

وقرأ الباقون «مُفْرَطون» بفتح الراء[(٥)] مخففاً، ومعناه: مقدمون إلى النار.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد[(٦)] في قوله: ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ﴾ قال: الدين الإخلاصُ، وواصباً: دائماً.

وأخرج ابنُ أبي حاتم[(٧)] عَنْ أبي صالح ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ﴾ قال: لا إله إلّا الله.

وأخرج ابنُ جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[(٨)] ﴿وَاصِبًاۚ﴾ قال: دائماً.

وأخرج الفريابي، وابنُ جرير عنه[(٩)]: قال واجباً.

وأخرج ابنُ أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد[(١٠)] ﴿تَجْـَٔرُونَ﴾ قال: تتضرّعون دعاء.

---

(١) انظر: «مفردات ألفاظ القرآن» (ص٦٣١ ـ ٦٣٢).

(٢) انظر: «ديوانه» (ص٩٠).

(٣) «التيسير» (ص١٣٨)، و«البحر المحيط» (٦/ ٥٥٢)، و«جامع البيان» (١٤/ ٢٦٧).

(٤) «النشر» (٢/ ٣٠٤)، و«البحر المحيط» (٦/ ٥٥٢)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ٣٨).

(٥) «البحر المحيط» (٦/ ٥٥٢)، و«المحرر الوجيز» (١٠/ ٢٠٣). هي ثلاث قراءات متواترة لكن الصواب أن قراءة نافع من رواية ورش وقالون بكسر الراء وتخفيفها (مُفرِطون).

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢٤٨، ٢٤٩) بسند صحيح.

(٧) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٨٦).

(٨) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢٤٧) بسند ضعيف.

(٩) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢٤٩) بسند حسن.

(١٠) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢٥١ ـ ٢٥٢) بسند صحيح.

وأخرج ابن أبي حاتم[1] عن السدّي قال: تصيحون بالدعاء.

وأخرج ابنُ أبي حاتم[2] عن الحسن في قوله: ﴿فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ قال: وعيد.

وأخرج ابنُ جرير عَنْ مجاهد[3] في قوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ الآية، قال: يعلمون أنّ الله خلقهم ويضرّهم وينفعهم، ثم يجعلون لما لا يعلمون أنّه يضرهم ولا ينفعهم ﴿نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾.

وأخرج عبد بن حُميد، وابنُ جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة[4] في الآية، قال: هم مشركو العرب جعلوا لأوثانهم وشياطينهم مما رزقهم الله، وجزأوا من أموالهم جزءاً فجعلوه لأوثانهم وشياطينهم.

وأخرج ابنُ أبي حاتم[5] عَنْ السدّي في الآية، قال: هو قولُهم هذا لله بزعمهم، وهذا لشركائنا.

وأخرج ابنُ جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس[6] في قوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ﴾ الآية، يقول: يجعلون لي البنات يرتضونهنّ لي ولا يرتضونهنّ لأنفسهم، وذلك أنّهم كانوا في الجاهلية إذا وُلد للرجل منهم جارية أمسكها على هوان، أو دسها في التراب وهي حية.

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الضحاك[7] ﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ قال: يعني به: البنين.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن جريج[8] ﴿أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾ قال: يئدُ ابنتَه.

---

(١) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٨٦).
(٢) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٨٦).
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢٥٣) بسند ضعيف.
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢٥/ ٢٥٣) بسند صحيح.
(٥) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ١٣٨).
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢٥٥ ـ ٢٥٦) بسند ضعيف.
(٧) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ١٣٩).
(٨) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢٥٧) بسند ضعيف.

وأخرج ابنُ أبي حاتم[(١)] عَنْ السدّي في قوله: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ قال: بئس ما حكموا، يقول: شيءٌ لا يرضونه لأنفسهم فكيفَ يرضونه لي؟

وأخرج عبدُ الرزاق، وابنُ جرير، وابنُ المنذر، وابنُ أبي حاتم عَنْ قتادة[(٢)] في قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ قال: شهادة أن لا إله إلّا الله.

وأخرج ابنُ جرير، وابنُ أبي حاتم، والبيهقي عن ابن عباس[(٣)] ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ قال: يقول ليس كمثله شيء.

وأخرج ابن أبي حاتم[(٤)] عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ قال: ما سقاهم المطرُ.

وأخرج[(٥)] أيضاً عن السدّي نحوه.

وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن قتادة[(٦)] في الآية، قال: قد فعل ذلك في زمن نوح، أهلك الله ما على ظهر الأرض من دابة إلّا ما حمل في سفينته.

وأخرج أحمد في «الزهد» عن ابن مسعود[(٧)] قال: ذنوب ابن آدم قتلت الجُعل في جُحْره، ثم قال: أي: والله زمنَ غَرِقَ قومُ نوحٍ.

وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «الشعب» عنه[(٨)] قال: كاد الجُعَلُ أن يُعذّب في جحره بذنب ابن آدم، ثم قرأ: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾.

---

(١) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ١٣٩).
(٢) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٥٨)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢٦٢) بسند صحيح.
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٤٨٨ ـ ٤٨٩)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» رقم (٦١٠) بسند صحيح.
(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ١٤٠).
(٥) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ١٤٠).
(٦) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ١٣٧)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ٣٩٧) بسند صحيح.
(٧) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ١٤١).
(٨) أخرجه ابن أبي شيبة (١٣/ ٣٠١)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢٥٩، ٢٦٠)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٧٤٧٨) بسند صحيح.

وأخرج عبدُ بن حميد وابنُ أبي الدنيا عن أنس[١] نحوه.

وأخرج عبدُ بن حُميد، وابن أبي الدنيا، وابن جرير، والبيهقي في «الشعب» عن أبي هريرة[٢] أنّه سمع رجلاً يقول: إنّ الظالم لا يضرّ إلّا نفسه، قال أبو هريرة: بلى والله إنّ الحُبارى لتموتُ هُزالاً في وكرها مِنْ ظلم الظالم.

وأخرج ابن أبي حاتم[٣] عن الضحاك ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ قال: يجعلون لي البنات، ويكرهون ذلك لأنفسهم.

وأخرج ابنُ أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد[٤] في قوله: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ﴾ قال: قول كفار قريش: لنا البنون وله البنات.

وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة[٥] نحوه.

وأخرج ابنُ أبي شيبة، وابنُ جرير، وابن المنذر عن مجاهد[٦] ﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ قال: مَنْسيّون.

وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير[٧] نحوه.

وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر عن قتادة[٨] قال: مُعجَّلون. وأخرج ابن أبي حاتم[٣] عن الحسن نحوه.

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب «العقوبات» رقم (٢٦٨).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢٦٠)، وابن أبي الدنيا رقم (٢٦٩)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٧٤٧٩) بسند ضعيف.

(٣) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٨٧).

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢٦٢) بسند صحيح.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢٦٢)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٥٧) بسند صحيح.

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢٦٤) بسند صحيح.

(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢٦٤) بسند صحيح.

(٨) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢٦٦)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٥٧) بسند صحيح.

[النحل تعمل بإلهام من الفطرة التي أودعها إياها الخالق]:

﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

بيّن سبحانه أن مثل صنيع قريش قد وقع مِنْ سائر الأمم، فقال: مسلياً لرسول الله ﷺ: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾؛ أي: رُسُلاً ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ الخبيثة ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ﴾ يحتمل أن يكون اليوم عبارة عن زمان الدنيا، فيكون المعنى: فهو قرينهم في الدنيا، ويحتمل أن يكون اليوم عبارة عن يوم القيامة وما بعده، فيكون للحال الآتية، ويكون الوليّ بمعنى الناصر(١).

والمراد: نفي الناصر عنهم على أبلغ الوجوه؛ لأن الشيطان لا يتصوّر منه النصرة أصلاً في الدار الآخرة، وإذا كان الناصر منحصراً فيه لزم أن لا نصرة من غيره، ويحتمل أَنْ يراد باليوم بعض زمان الدنيا، وهو [٣/١٥٠] على وجهين(٢):

الأوّل: أَنْ يراد البعض الذي قد مضى، وهو الذي وقع فيه التزيين من الشيطان للأمم الماضية فيكون على طريق الحكاية للحال الماضية.

الثاني: أَنْ يراد البعض الحاضر، وهو وقت نزول الآية.

والمراد: تَزْيين الشيطان لكفّار قريش فيكون الضمير(٣) في «وليهم» لكفار قريش؛ أي: فهو وليّ هؤلاء اليوم، أو على حذف مضاف؛ أي: فهو وليّ أمثال

---

(١) «جامع البيان» (١٤/٢٦٨)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/٣٤٨).
(٢) «روح المعاني» (١٤/١٧٦)، و«المحرر الوجيز» (١٠/٢٠٣).
(٣) «روح المعاني» (١٤/١٧٦)، و«البحر المحيط» (٦/٥٥٢).

أولئك الأُمم اليوم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: في الآخرة وهو عذابُ النار. ثم ذكر سبحانه أنّه ما هلك مَنْ هلك إلّا بعد إقامة الحجة عليهم، وإزاحة العلة منهم فقال: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ وهذا خطاب لرسول الله ﷺ.

والمراد بالكتاب: القرآن، والاستثناء[١] مفرّغ مِنْ أعمّ الأحوال؛ أي: ما أنزلناه عليك لحال من الأحوال ولا لعلّةٍ من العلل إلّا لعلة التبيين لهم؛ أي: للناس الذين اختلفوا فيه مِنْ التوحيد، وأحوال البعث وسائر الأحكام الشرعية، وانتصاب[٢] ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ على أنهما مفعول لهما معطوفان على محل لتبين، ولا حاجة إلى اللام؛ لأنّهما فعلا فاعل الفعل المعلّل، بخلاف التبيين فإنه فعل المخاطب لا فعل المنزل ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بالله سبحانه، ويصدّقون ما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب.

ثم عاد سبحانه إلى تقرير وجوده، وتفرّده بالإلٰهية بذكر آياته العظام فقال: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أي: مِنْ السحاب، أو مِنْ جهة العلو كما مرّ؛ أي: نوعاً من أنواع الماء ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ أي: أحياها بالنبات بعد أن كانت يابسة لا حياة بها ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الإنزال والإحياء ﴿لَءَايَةً﴾ أي: علامةً دالة على وحدانيته، وعلى بعثه للخلق ومجازاتهم ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ كلام الله ويفهمون ما يتضمنه من العبر، ويتفكرون في خلق السمٰوات والأرض ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً﴾ الأنعام هي: الإبل والبقر والغنم ويدخل في الغنم المعز، والعبرة أصلُها: تمثيل الشيء بالشيء ليعرف حقيقته بطريق المشاكلة، ومنه ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [الحشر: ٢].

وقال أبو بكر[٣] الورّاق: العبرةُ في الأنعام: تَسْخيرها لأربابها، وطاعتها لهم، والظاهر: أن العبرة هي قوله: ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ﴾ فتكون الجملة مستأنفة لبيان العبرة.

قرأ أهلُ المدينة، وابن عامر، وعاصم في رواية أبي بكر «نَسقيكم»[٤] بفتح النون مِنْ سَقى يَسْقي.

---

(١) «البحر المحيط» (٦/ ٥٥٢)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ٣٥٧).
(٢) «التبيان» (٢/ ٨٠٠)، و«الفريد» (٣/ ٢٣٦).
(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٣٥٠).
(٤) «جامع البيان» (١٤/ ٢٧٠)، و«النشر» (٢/ ٣٠٤)، و«التيسير» (ص١٣٨)، و«روح المعاني» (١٤/ ١٨٢).

وقرأ الباقون وحفص عَنْ عاصم بضم النون[١] مِنْ أسقى يُسقي، قيل: هما لغتان. قال لبيد[٢]:

سَقى قومي بني مجدٍ وأَسْقى نُميراً والقبائلَ من هلالِ

وقُرِئ بالتاء الفوقية[٣] على أنّ الضمير راجع إلى الأنعام، وقُرِئ بالتحتية[٤] على إرجاع الضمير إلى الله سبحانه، وهما ضعيفتان، وجميع القراء على القراءتين الأولتين، والفتح لغة قريش، والضم لغة حِمْيَر.

وقيل: إن بين سقى وأسقى فرقاً، فإذا كان الشراب من يد الساقي إلى فم المسقى فيقال: سقيته، وإن كان بمجرّد عرضه عليه وتهيئته له قيل: أسقاه. والضمير في قوله: ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾ راجع إلى الأنعام. قال سيبويه[٥]: العرب تُخْبر عن الأنعام بخبر الواحد.

وقال الزجاج[٦]: لما كان لفظ الجمع يذّكر ويؤنّث، فيقال: هو الأنعام، وهي الأنعام جاز عود الضمير بالتذكير. وقال الكسائي[٧]: معناه: مما في بطون ما ذكرنا فهو على هذا عائد إلى المذكور.

قال الفراء[٨]: وهو صواب.

وقال المبرِّد: هذا فاشٍ في القرآن كثير مثل قوله للشمس: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٨] يعني: هذا الشيء الطالع، وكذلك ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾ [النمل: ٣٥]، ثم قال: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ﴾ [النمل: ٣٦]، ولم يقل: جاءت لأن المعنى: جاء الشيء الذي ذكرنا انتهى، ومن ذلك قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ۝٥٤ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ [المدثر: ٥٤، ٥٥] ومثله قول الشاعر:

---

(١) «البحر المحيط» (٦/ ٥٥٣)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ٢٨)، و«جامع البيان» (١٤/ ٢٧١).

(٢) انظر: «ديوان لبيد بن ربيعة» (ص١١٠).

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٣٥٠).

(٤) وهي قراء شاذة. انظر: «البحر المحيط» (٦/ ٥٥٤)، و«روح المعاني» (١٤/ ١٨٢). هنا ثلاث قراءات متواترة الأولى (نَسقيكم) بفتح النون وهي لمن ذكرهم المؤلف ومعهم يعقوب الثانية. بضم النون للباقين عدا أبا جعفر فعنه (تَسْقيكم) بمثناة فوقية والرابعة (يسقيكم) شاذة.

(٥) في «الكتاب» (٣/ ٢٢٩ ـ ٢٣٠).

(٦) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ٢٠٩).

(٧) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٢/ ٣٥١).

(٨) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١٠٩).

مـثـلُ الـفِـراخ نـيـفَـتْ حـواصـلُـه[١]

ولم يقل: حواصلها وقول الآخر:

وطــابَ إلــقــاحُ الــلّــبــانِ وبَــرْد

ولم يقل: وبردت. وحكي عن الكسائي[٢] أن المعنى: مما في بُطون بعضه وهي الإناث؛ لأنّ الذكور لا ألبان لها، وبه قال أبو عُبيدة[٣].

وحُكي عَنْ الفراء[٤] أنّه قال: النعم والأنعام واحد يُذكّر ويؤنّث، ولهذا تقول العرب: هذه نَعَمٌ وارد، فرجع الضمير إلى لفظ النعم الذي هو بمعنى الأنعام، وهو كقول الزجّاج[٥] ورجّحه ابنُ العربي[٦] فقال: إنما يرجع التذكير إلى معنى الجمع، والتأنيث إلى معنى الجماعة، فذكره هنا بِاعتبار لفظ الجمع وأنثه في سورة المؤمنين باعتبار لفظ الجماعة ﴿مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ﴾ الفَرْثُ: الزِّبْل الذي ينزل إلى الكرش، فإذا خرج منه لم يُسم فرثاً يقال: أفرثْتَ الكرشَ إذا أخرجتَ ما فيها.

والمعنى: أنّ الشيء الذي تأكله يكون منه ما في الكرش، وهو الفَرْث ويكون منه الدم، فيكون أسفله فرثاً وأعلاه دماً وأوسطه ﴿لَّبَنًا﴾ فيجري الدم في العروق واللّبن في الضروع، ويبقى الفرث كما هو ﴿خَالِصٗا﴾ يعني: مِنْ حُمْرة الدم وقذارة الفرث بعد أَنْ جمعهما وعاء واحد ﴿سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ أي: لذيذاً هنيئاً لا يَغَصُّ به مَنْ شَرِبه: يقال: ساغ الشرابُ يسوغ سَوغاً؛ أي: سَهُل مدخلهُ في الحلق ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ﴾.

قال ابنُ جرير[٧]: التقدير، ومِنْ ثمرات النخيل والأعناب ما تتخذون، فحذف «ما» ودلّ على حذفه قوله: ﴿مِنۡهُ﴾.

وقيل: هو معطوف على الأنعام، والتقدير: وإنّ لكم من ثمرات النخيل والأعناب لعبرةً، ويجوز أن يكون معطوفاً[٨] على مما في بطونه؛ أي: نسقيكم مما

---

(١) انظره في: «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٣٥١)، و«المحتسب» (٢/ ١٥٣).
(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٢/ ٣٥١).
(٣) «البحر المحيط» (٦/ ٥٥٤)، و«الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٥٥٤).
(٤) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١٠٩). (٥) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ٢٠٩).
(٦) في «أحكام القرآن» (٣/ ١١٣٩). (٧) في «جامع البيان» (١٤/ ٢٧٥).
(٨) «التبيان» (٢/ ٨٠٠ ـ ٨٠١)، و«روح المعاني» (١٤/ ١٨٩)، و«الفريد» (٣/ ٢٣٧).

في بطونه ومن ثمرات النخيل، ويجوز أَنْ يتعلّق بمحذوفٍ دلّ عليه ما قبله، تقديره: ونسقيكم مِنْ ثمرات النخيل، ويكون على هذا ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ بياناً للإسقاء وكشفاً عَنْ حقيقته، ويجوز[١] أَنْ يتعلق بـ﴿تَتَّخِذُونَ﴾، تقديره: ومِنْ ثمرات النخيل والأعناب ثمرَ تتخذون مِنْه سَكَراً، ويكون تكرير الظرف، وهو قوله منه للتأكيد كقولك: زيد في الدار فيها، وإنما ذكر الضمير في ﴿مِنْهُ﴾؛ لأنّه يعود إلى المذكور، أو إلى المضاف المحذوف، وهو العصير، كأنّه قيل[٢]: ومِنْ عصير ثمرات النخيل والأعناب تتخذون مِنْه، والسكر ما يُسْكِر مِنْ الخمر، والرزق الحسن: جميعُ ما يؤكل مِنْ هاتين الشجرتين كالتمر والدبْس والزبيب والخَلّ، وكان نزول هذه الآية قبل تحريم الخمر.

وقيل: إنّ السَّكَر: الخلّ بلغة الحبشة[٣]، والرزق الحَسن: الطعام من الشجرتين؛ وقيل: السَّكَر العصيرُ الحُلو الحلال، وسُمّي سَكَراً؛ لأنّه قد يصير مُسْكراً إذا بقي، فإذا بلغَ الإسكارَ حَرُمَ.

والقول الأوّل أولى وعليه الجمهور، وَقد صرّح أهل اللغة بأن السكر اسم للخمر، ولم يخالف في ذلك إلّا أبو عبيدة[٤] فإنه قال: السَّكَر: الطُّعْم، ومما يدل على ما قاله جمهور أهل اللغة قول الشاعر[٥]:

بئسَ الصحابُ وبئسَ الشربُ شربُهم ... إذا جَرى فيهم الهَذّا والسَّكَرُ

ومما يدل على ما قاله أبو عبيدة[٦] ما أنشده:

جعلْتَ عيبَ الأكرمين سَكَرا[٧]

أي: جعلت ذمّهم طُعْماً، ورجح هذا ابن جرير[٨] فقال: إن السَّكَر ما يُطْعم مِنْ الطعام ويحل شربه مِنْ ثمار النخيل والأعناب وهو الرزق الحسن، فاللفظ مختلف والمعنى واحد مثل ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦].

---

(١) انظر: المصادر المتقدمة.
(٢) «روح المعاني» (١٤/ ١٨٩)، و«البحر المحيط» (٦/ ٥٥٦ ـ ٥٥٧).
(٣) «زاد المسير» (٤/ ٤٦٤ ـ ٤٦٥).
(٤) في «مجاز القرآن» (١/ ٣٦٣).
(٥) هو: الأخطل. انظر: «ديوانه» (ص١١٠).
(٦) في «مجاز القرآن» (١/ ٣٦٣).
(٧) نسبه أبو عبيدة في «مجاز القرآن» (١/ ٣٦٣) إلى جندل.
(٨) في «جامع البيان» (١٤/ ٢٨٤ ـ ٢٨٥).

قال الزجّاج[١]: قول أبي عبيدة هذا لا يُعرف، وأهل التفسير على خلافه ولا حجة في البيت الذي أنشده لأنّ معناه عند غيره: أَنّه يصف أنها تتخمر بعيوب الناس، وقد حمل السكر جماعة مِنْ الحنفية[٢] على ما لا يسكر من الأنبذة وعلى ما ذهب ثُلثاه بالطبخ، قالوا: وإنما يمتنّ الله على عباده بما أحلّه لهم لا بما[٣] حرّمه عليهم، وهذا مردود بالأحاديث الصحيحة المتواترة على فرض تأخره عن آية تحريم الخمر. ا هـ.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾؛ أي: لدلالة لمن يستعمل العقل، ويَعْمل بما يقتضيه عند النظر في الآيات التكوينية.

﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ﴾ قد تقدّم الكلام في الوحي وأنَّه يكون بمعنى: الإلهام، وهو ما يخلقه[٤] في القلب ابتداءً مِنْ غير سبب ظاهر، ومنه قوله سبحانه: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٧، ٨].

ومن ذلك إلهام البهائم لفعل ما ينفعها وترك ما يضرها، وقرأ يحيى بن وثّاب «إلى النَّحل» بفتح[٥] الحاء.

قال الزجّاج[٦]: وسُمي نحلاً لأنّ الله سبحانه نَحَله العسلَ الذي يخرج منه.

قال الجوهري[٧]: والنحل والنحلة: الدَّبْر يقع على الذكر والأنثى.

﴿أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا﴾ أي: بأن اتخذي على أَنّ «أَنْ» هي المصدرية، ويجوز أن تكون تفسيرية لأن في الإيحاء معنى القول، وأنّث الضمير في ﴿ٱتَّخِذِي﴾ لكونه أحد الجائزين كما تقدّم، [٣/١٥١] أو للحمل على المعنى أو لكون النحل جمعاً، وأهل الحجاز يؤنثون النحل «ومن» في مِنْ الجبال بيوتاً وكذا في ﴿وَمِنَ ٱلشَّجَرِ﴾ وكذا في ﴿وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ﴾ للتبعيض[٨]؛ أي: مساكن توافقها وتليق بها في كوى الجبال

---

(١) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/٢٠٩).

(٢) «الهداية» (٤/١٠٨)، و«مختصر اختلاف العلماء» (٤/ ٣٧٣ ـ ٣٧٤)، و«المبسوط» (٢٤/ ١٣)، و«تبيين الحقائق» (٦/ ٤٤).

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٣٦٠ ـ ٣٦١)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ١١٤٢ ـ ١١٤٣)، و«التمهيد» (١/ ٢٥٥).

(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٣٦٥).

(٥) «القراءات الشاذة» (ص٧٣)، و«روح المعاني» (١٤/ ١٩٥)، و«البحر المحيط» (٦/ ٥٥٩). هي قراءة شاذة.

(٦) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ٢١٠).

(٧) في «الصحاح» (٥/ ١٨٢٦).

(٨) «الفريد» (٣/ ٢٣٩)، و«التبيان» (٢/ ٨٠١)، و«روح المعاني» (١٤/ ١٩٦).

وتجويف الشجر، وفي العروش التي يعرشها بنو آدم مِنْ الأجباح والحيطان وغيرها، وأكثر ما يستعمل فيما يكون مِنْ الخشب، يقال: عَرشَ يَعرِش بكسر الراء وضمها.

وبالضم[(١)] قرأ ابنُ عامر وشعبة، وقرأ الباقون[(٢)] بالكسر. وقرئ أيضاً «بيوتاً» بكسر الباء[(٣)] وضمها.

﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ «من» للتبعيض[(٤)] لأنها تأكل النَّوْر مِنْ الأشجار فإذا أكلتها ﴿فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ﴾؛ أي: الطرق التي فهمّك اللهُ وعلّمك، وأضافها إلى الربّ؛ لأنه خالقها وملهم النحل أَنْ تسلكها؛ أي: ادخلي طرق ربك لطلب الرزق في الجبال، وخلال الشجر، أو اسلكي ما أكلت في سبل ربك؛ أي: في مسالكه التي يحيل فيها بقدرته النَّوْر عسلاً، أو إذا أكلت الثمار في الأمكنة البعيدة فاسلكي إلى بيوتك راجعة سبل ربك لا تضلين فيها، وانتصاب[(٥)] ﴿ذُلُلًا﴾ على الحال مِنْ السبل، وهي جمع ذَلول؛ أي: مُذلّلة غير متوعّرة، واختار هذا الزجاج[(٦)] وابن جرير[(٧)].

وقيل: حال مِنْ النحل، يعني: مُطيعة للتسخير وإخراج العسل من بطونها[(٨)]، واختار هذا ابن قتيبة.

وجملة ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا﴾ مستأنفة عُدل به عَنْ خطاب النحل، تعديداً للنعم، وتعجيباً لكل سامع، وتنبيهاً على الغير، وإرشاداً إلى الآيات العظيمة الحاصلة من هذا الحيوان الشبيه بالذباب، والمراد بالـ﴿شَرَابٌ﴾ في الآية هو العَسَلُ، ومعنى ﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ أَنّ بعضه أبيض، وبعضه أحمر، وبعضه أزرق، وبعضه أصفر باختلاف ذوات النحل وألوانها ومأكولاتها.

---

(١) «البحر المحيط» (٦/ ٥٥٩)، و«التيسير» (ص١١٣)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ٢٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٦٥).

(٢) انظر: المصادر المتقدمة.

(٣) «البحر المحيط» (٦/ ٥٥٩)، و«روح المعاني» (١٤/ ١٩٦)، و«التيسير» (ص١١٣).

(٤) «التبيان» (٢/ ٨٠١)، و«الفريد» (٣/ ٢٣٩)، و«روح المعاني» (١٤/ ١٩٦).

(٥) «البحر المحيط» (٦/ ٥٦٠)، و«التبيان» (٢/ ٨٠٢)، و«الفريد» (٣/ ٢٣٩).

(٦) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ٢١٠).

(٧) في «جامع البيان» (١٤/ ٢٨٩).

● انظر: «البحر المحيط» (٦/ ٥٦٠)، و«التبيان» (٢/ ٨٠٢)، و«الفريد» (٣/ ٢٣٩).

(٨) «أحكام القرآن» لابن العربي (٣/ ١١٤٥)، و«معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٣/ ٢١٠).

وجمهور[١] المفسرين على أن العسل يخرج مِنْ أفواه النحل؛ وقيل: من أسفلها؛ وقيل: لا يُدْرىٰ مِنْ أينَ يخرج منها، والضمير في قوله: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۚ﴾ راجع إلى الشراب الخارج مِنْ بطون النحل وهو العسل، وإلى هذا ذهب الجمهور.

وقال الفراء[٢] وابن كيسان[٣] وجماعة من السلف: إن الضمير راجع إلى القرآن، ويكون التقدير: فيما قصصنا عليكم مِنَ الآيات والبراهين شفاء للناس، ولا وجه للعدول عَنْ الظاهر ومخالفة المرجع الواضح والسياق البين.

وقد اختلف أهل العلم هل هذا الشفاء الذي جعله الله في العسل عام لكل داء أو خاص ببعض الأمراض؟ فقالت طائفة: هو على العموم، وقالت طائفة: إن ذلك خاص ببعض الأمراض، ويدل على هذا أنّ العسل نكرة في سياق الإثبات فلا يكون عاماً، وتنكيره إنْ أريد به التعظيم لا يدل إلّا على أن فيه شفاءً عظيماً لمرض أو أمراض، لا لكل مرض، فإن تنكير التعظيم لا يفيد العموم، والظاهر المستفاد من التجربة ومِنْ قوانين علم الطب، أنّه إذا استعمل منفرداً كان دواء لأمراض خاصة، وإنْ خلط مع غيره كالمعاجين ونحوها كان مع ما خلط به دواء لكثير من الأمراض.

وبالجملة فهو مِنْ أعظم الأغذية وأنفع الأدوية، وقليلاً ما يجتمع هذان الأمران في غيره. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور من أمر النحل ﴿لَأٓيَةً لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ أي: يُعْمِلون أفكارهم عند النظر في صنع الله سبحانه وعجائب مخلوقاته فإن أمر النحل من أعجبها وأغربها وأدقها وأحكمها[٤].

وقد أخرج عبدُ الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وأبو داود في «ناسخه»، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والنحاس، والحاكم وصححه، والبيهقي في «سننه»، وابن مردويه عن ابن عباس[٥] أنه سئل عن قوله:

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٣٦٧ ـ ٣٦٨)، و«جامع البيان» (١٤/ ٢٨٩)، و«البيان» لابن الأنباري (٢/ ٨٠).

(٢) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١٠٩).

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٢/ ٣٦٨)، والألوسي في «روح المعاني» (١٤/ ٢٠٤).

(٤) «الفريد» (٣/ ٢٣٩)، و«التبيان» (٢/ ٨٠٢)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٠٤).

(٥) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٥٧)، والنحاس في «ناسخه» (ص٤٥٢)، والحاكم (٢/ ٣٥٥)، والبيهقي في «سننه» (٢٩٧٨)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢٧٥ ـ ٢٧٦) بسند ضعيف.

﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ قال: السّكَر ما حَرُم من ثمرتهما، والرزق الحسن ما حلّ.

وأخرج الفريابي، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عنه(١) قال: السّكَر الحرام، والرزق الحسن: زبيبه وخَلّه وعنبه ومنافعه.

وأخرج أبو داود في «ناسخه»، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه(٢) أيضاً قال: السكر: النبيذ، والرزق الحسن: الزبيب. فنسختها هذه الآية ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ...﴾ [المائدة: ٤، ٥].

وأخرج ابنُ جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عنه(٣) أيضاً في الآية قال: فحرّم الله بعد ذلك السَّكَر مع تحريم الخمر؛ لأنه منه، ثم قال: ﴿وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ فهو الحلال مِنْ الخَلّ والزبيب والنبيذ وأشباه ذلك، فأقرّه الله وجعله حلالاً للمسلمين.

وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبة، وابن أبي حاتم عن ابن عمر(٤) أنه سئل عن السكر، فقال: الخمر بعينها.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر عن ابن مسعود(٥) قال: السكر: خَمْر.

وأخرج ابن أبي حاتم(٦) عن ابن عباس ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ قال: أَلْهمَها.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد(٧) في قوله: ﴿فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ قال: طُرُقاً لا يتوعَّر عليها مكانٌ سلكته.

---

(١) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٨٨).
(٢) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٨٨).
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢٨٢)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٨/ ٢٩٧) بسند صحيح.
(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ٤٨٨).
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢٨٢)، وابن أبي شيبة (٢/ ٤٨٧) بسند ضعيف.
(٦) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٨٩).
(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢٨٨) بسند صحيح.

وأخرج عبدُ الرازق، وابنُ جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة[١] ﴿ذُلُلًاۚ﴾ قال: مُطِيعة.

وأخرج ابن أبي حاتم[٢] عن السدّي قال: ذَليلة.

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس[٣] في قوله: ﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ﴾ قال: العسل.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن مجاهد[٤] في الآية قال: هو العسل فيه الشفاء، وفي القرآن.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير عن ابن مسعود[٥] قال: إنّ العسل شفاء من كل داء، والقرآن شفاء لما في الصدور.

وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه عن ابن مسعود[٦] قال: عليكم بالشفاءين: العسل والقرآن.

وأخرج ابن ماجه، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في «الشعب»، وابن السني، وأبو نعيم، والخطيب عَنْ ابن مسعود[٧] قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالشفاءين العسلِ والقرآن».

وقد وردْت أحاديث في كون العسل شفاء:

منها: ما أخرجه البخاري[٨] من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «الشفاء في ثلاثة: في شَرْطة محجم، أو شَرْبة عسل، أو كَيّة بنار، وأنا أنهي أمتي عن الكيّ».

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢٨٨)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٥٧) بسند صحيح.
(٢) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٩٠).
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢٩١) بسند ضعيف.
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢٩١)، وابن أبي شيبة (١٠/ ٤٨٦) بسند ضعيف.
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢٩٠)، وابن أبي شيبة (١٠/ ٤٨٥) بسند ضعيف.
(٦) أخرجه ابن أبي شيبة (١٠/ ٤٨٥)، والطبراني رقم (٨٩١٠) موقوفاً. بسند ضعيف.
(٧) أخرجه ابن ماجه رقم (٣٤٥٢)، والحاكم (٤/ ٤٠٣)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٢٥٨١)، والخطيب في «تاريخه» (١١/ ٣٨٥). وهو حديث ضعيف.
(٨) أخرجه البخاري رقم (٥٦٨٠، ٥٦٨١)، وابن ماجه رقم (٣٤٩١).

وأخرج البخاري، ومسلم وغيرهما من حديث أبي سعيد(١): «أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله، إنّ أخي استطْلقَ بطنه، فقال: «اسْقِه عسلاً» فسقاه عسلاً، ثم جاء فقال: سقيته عسلاً فما زاده إلّا استطلاقاً، قال: «إذهب فاسقه عسلاً» فذهب فسقاه، ثم جاء فقال: ما زاده إلّا استطلاقاً، فقال رسول الله: «صدق اللهُ وكذب بطنُ أخيك، اذهب فاسْقِه عسلاً»، فذهب فسقاه عسلاً فبرأ».

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِۚ أَفَبِٱلْبَـٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

لما ذكر سبحانه بعضَ أحوال الحيوان وما فيها من عجائب الصنعة الباهرة، وخصائص القدرة القاهرة، أتبعه بعجائب خلق الإنسان وما فيه من العبر فقال: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ﴾ ولم تكونوا شيئاً ﴿ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْۚ﴾ عند انقضاء آجالكم ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ يقال: رَذَل يرذَلُ رذالةً، والأرْذَل والرذالة: أردأُ الشيء وأوضعُه.

قال النيسابوري(٢): واعلم أنّ العقلاء ضبطوا مراتب عُمر الإنسان في أربع: **أولاها**: سنّ النشوّ، **وثانيها**: سنّ الوقوف، وهو سنّ الشباب، **وثالثها**: سنّ الانحطاط اليسير، وهو سنّ الكهولة، **ورابعها**: سنّ الانحطاط الظاهر، وهو سنّ الشيخوخة؛ قيل: وأرذل العمرِ(٣) هو عند أنْ يصير الإنسان إلى الخَرَف، وهو أن يصير بمنزلة الصبيّ الذي لا عقل له.

---

(١) أخرجه أحمد رقم (١١١٤٦)، والبخاري رقم (٥٦٨٤، ٥٧١٦)، ومسلم رقم (٢٢١٧).

(٢) في «غرائب القرآن ورغائب الفرقان» (١٤/ ٩٢).

(٣) «جامع البيان» (١٤/ ٢٩١)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٦٧).

وقيل: خمس وسبعون سنة، وقيل: تسعون سنة، ومثل هذه الآية قوله سبحانه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ﴾ [التين: ٤ ـ ٥].

ثم علّل سبحانه ردّ مَنْ يرده إلى أرذل العمر بقوله: ﴿لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ﴾ كان قد حصل له ﴿شَيْـًٔا﴾ مِنْ العلم[1] لا كثيراً ولا قليلاً، أو شيئاً مِنْ المعلومات إذا كان العلم هنا بمعنى المعلوم، وقيل: المراد بالعلم هنا: العقل، وقيل: المراد: لئلا[2] يعلم زيادةً على علمه الذي قد حصل له قبل ذلك [٣/١٥٢].

ثم لمّا بيّن سبحانه خلق الإنسان وتقلبه في أطوار العمر ذكر طرفاً من أحواله لعلّه يتذكر عند ذلك فقال: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ﴾ فجعلكم متفاوتين فيه فوسّع على بعض عباده حتى جعل له مِنْ الرزق ما يكفي ألوفاً مؤلّفة من بني آدم، وضيقه على بعض عباده حتى صار لا يجد القوت إلّا بسؤال الناس والتكفف لهم، وذلك لحكمةٍ بالغة تقصر عقول العباد عَنْ تعقلها، والاطلاع على حقيقة أسبابها، وكما جعل التفاوت بين عباده في المال جعله بينهم في العقل والعلم، والفهم وقوّة البدن وضعفه، والحُسْن والقبح والصحة والسقم وغير ذلك مِنْ الأحوال.

وقيل: معنى الآية: أنّ الله سبحانه أعطى الموالي أفضل مما أعطى مماليكهم بدليل قوله: ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ﴾؛ أي: فما الذين فضّلهم الله بسعة الرزق على غيرهم برادّي رزقهم الذي رزقهم الله إيّاه على ما ملكت أيمانهم مِنْ المماليك ﴿فَهُمْ﴾؛ أي: المالكون والمماليك ﴿فِيهِ﴾؛ أي: في الرزق ﴿سَوَآءٌ﴾؛ أي: لا يردّونه عليهم بحيث يساوونهم، فالفاء على هذا للدلالة على أن التساوي مترتب على الترادّ؛ أي: لا يردّونه عليهم ردّاً مستتبعاً للتساوي، وإنما يردّون عليهم منه شيئاً يسيراً، وهذا مَثَلٌ ضربه[3] الله سبحانه بعبدة الأصنام؛ أي: إذا

(١) «المحرر الوجيز» (١٠/٢٠٨ ـ ٢٠٩)، و«روح المعاني» (١٤/٢٠٧ ـ ٢٠٨)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/٣٧٥).

(٢) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (١٤/٢٠٧).

(٣) «جامع البيان» (١٤/٢٩٢ ـ ٢٩٣)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/٣٧٥ ـ ٣٧٦)، و«المحرر الوجيز» (١٠/٢٠٩ ـ ٢١٠).

لم يكونوا عبيدكم معكم سواء، ولا ترضون بذلك فكيفَ تجعلون عبيدي معي سواء! والحال أَنّ عبيدكم مساوون لكم في البشرية والمخلوقية، فلما لم تجعلوا عبيدكم مشاركين لكم في أموالكم؟ فكيفَ تجعلون بعضَ عباد الله سبحانه شركاء له فتعبدونهم معه؟ أو كيفَ تجعلون بعضَ مخلوقاته كالأصنام شركاء له في العبادة؟ ذكر معنى هذا ابنُ جرير[(١)].

ومثل هذه الآية قوله سبحانه: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [الروم: ٢٨] وقيل: إنّ الفاء في ﴿فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ بمعنى حتّى. ﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ حيثُ تفعلون ما تفعلون مِنْ الشرك، والنعمة هي كونه سبحانه جعل المالكين مُفضّلَين على المماليك. وقد قُرِئ «يجحدون» بالتحتية[(٢)] والفوقية.

قال أَبو عُبيدة، وأبو حاتم: وقراءة الغَيبة أولى لقرب المُخبَر عنه، ولأنه لو كان خطاباً لكان ظاهره للمسلمين، والاستفهام[(٣)] للإنكار، والفاء للعطف على مقدّر؛ أي: يُشْركون به فيجحدون نعمَته، ويكون المعنى على قراءة الخطاب: أَنّ المالكين ليسوا برادّي رزقهم على مماليكهم؛ بل أنا الذي أرزُقهم وإياهم فلا يظنوا أنهم يعطونهم شيئاً، وإنما هو رزقي أجريه على أيديهم وهم جميعاً في ذلك سواء، لا مزية لهم على مماليكهم، فيكون المعطوف عليه المقدّر فعلاً يناسب هذا المعنى، كأنْ يقال: لا يفهمون ذلك فيجحدون نعمةَ الله.

ثم ذكر سبحانه الحالة الأخرى من أحوال الإنسان فقال: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾.

قال المفسرون[(٤)]: يعني: النِّساء فإنه خلق حوّاء مِنْ ضِلَع آدم. أو المعنى: خلق لكم مِنْ جنسكم أزواجاً لتستأنسوا بها؛ لأنّ الجنس يأنس إلى جنسه ويستوحش من غير جنسه، وبسبب هذه الأنسة يقع بين الرجال والنساء ما هو سبب للنسل الذي

---

(١) في «جامع البيان» (١٤/ ٢٩٢ ـ ٢٩٧).

(٢) «النشر» (٢/ ٣٠٤)، و«التيسير» (ص١٣٨)، و«البحر المحيط» (٦/ ٥٦٤)، و«المحرر الوجيز» (١٠/ ٢١٠). الجمهور قرأ بالمثناة التحتية (يجحدون) وبالمثناة الفوقية عن أبي بكرٍ ورويس.

(٣) «روح المعاني» (١٤/ ٢٠٨)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ٣٦٢).

(٤) «جامع البيان» (١٤/ ٢٩٥)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٣٧٧).

هو المقصود بالزواج، ولهذا قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ الحفدة: جمع حافد، يقال: حفَد يحفد حفداً وحفوداً: إذا أَسرع، فكل مَنْ أسرع في الخدمة فهو حافِدٌ.

قال أبو عبيد(١): الحَفَد: العمل والخدمة. قال الخليل(٢) بن أحمد: الحَفَدَةُ عند العرب: الخَدَمُ، ومن ذلك قول الشاعر وهو الأعشى(٣):

كَلّفْتُ مجهولَنا نُوقا يمانيةً إذ الحُداةُ على أكتافِها حَفَدُوا

أي: الخدم والأعوان.

وقال الأزهري(٤): قيل: الحَفَدَةُ أولاد الأولاد، وروي عَنْ ابن عباس، وقيل: الأَخْتان، قاله ابن مسعود(٥)، وعلقمة، وأبو الضحى، وسعيد بن جبير، وإبراهيم النخعي؛ ومنه قول الشاعر:

فلو أنّ نفسي طاوَعَتْني لأصبحَتْ لها حَفَدٌ مما تعدّ كثيرُ
ولكنها نفسٌ عليَّ أبيَّةٌ عيوفٌ لأصهارِ اللِّئامِ قذورُ(٦)

وقيل: الحَفدةُ: الأصهار. قال الأصمعي(٧): الخَتنُ مَنْ كان مِنْ قِبل المرأة كابنها وأخيها وما أشبههما، والأصهار مِنْهما جميعاً، يقال: أصهر فلان إلى بني فلان وصاهر؛ وقيل: هم أولاد امرأة الرجل مِنْ غيره، وقيل: الأولاد الذين يخدمونه؛ وقيل: البنات الخادمات لأبيهنّ. ورجَّح كثير من العلماء(٨) أنهم أولاد الأولاد؛ لأنّه سبحانه امتنّ على عباده بأنْ جعل لهم مِنْ الأزواج بنين وحفدة، فالحفدة في الظاهر معطوفون على البنين.

وإنْ كان يجوز أَنْ يكون المعنى: جعل لكم مِنْ أزواجكم بنين وجعل لكم حفدةً، ولكن لا يمتنع على هذا المعنى الظاهر أنْ يراد بالبنين مَنْ لا يخدم،

---

(١) في «غريب الحديث» (٣/ ٣٧٤). (٢) في كتاب «العين» (ص١٩٨).
(٣) بل هو للراعي النميري. انظر: «ديوانه» (ص٥٨).
(٤) في «تهذيب اللغة» (٤/ ٢٨).
(٥) انظر: «جامع البيان» (١٤/ ٢٩٦ ـ ٢٩٨)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٣٧٨ ـ ٣٧٩).
(٦) هما للصحابي النعمان بن بشير الأنصاري. انظر: «ديوانه» (ص١٠٢).
(٧) انظر: «تهذيب اللغة» (٧/ ٣٠٠).
(٨) «جامع البيان» (١٤/ ٢٩٨)، و«أحكام القرآن» (٣/ ١١٥٠).

وبالحفدة مَنْ يخدم الأبَ مِنْهم، أو يراد بالحفدة البنات فقط، ولا يفيد أَنّهم أولاد الأولاد إلّا إذا كان تقدير الآية: وجعل لكم مِنْ أزواجكم بنين، ومِنْ البنين حفدة ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ التي تستطيبونها وتستلذونها و«من» للتعبيض[١] لأن الطيبات لا تكون مجتمعة إلّا في الجنة.

ثم ختم سبحانه الآية بقوله: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ والاستفهام للإنكار[٢] التوبيخي، والفاء للعطف على مُقدّر؛ أي: يكفرون بالله فيؤمنون بالباطل، وفي تقدّم ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ على الفعل دلالة على أنّه ليس لهم إيمان إلّا به، والباطل هو اعتقادهم في أصنامهم أنّها تضر وتنفع؛ وقيل: الباطل ما زيّن لهم الشيطان مِنْ تحريم البحيرة والسائبة ونحوهما.

قرأ الجمهور (يُؤمنون) بالتحتية[٣]، وقرأ أبو بكر بالفوقية[٤] على الخطاب ﴿وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾؛ أي: ما أنعم به عليهم مما لا يحيط به حصر، وفي تقديم[٥] النعمة وتوسيط ضمير الفصل دليل على أنّ كفرهم مختص بذلك لا يتجاوزه لقصد المبالغة والتأكيد. ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ هو معطوف على يكفرون داخل تحت الإنكار التوبيخي إنكاراً مِنْه سبحانه عليهم، حيث يعبدون الأصنام، وهي لا تنفع ولا تضرّ، ولهذا قال: ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا﴾ قال الأخفش[٦]: إن ﴿شَيْـًٔا﴾ بدل مِنْ الرزق.

وقال الفراء[٧]: هو منصوب بإيقاع الرزق عليه، فجعل ﴿رِزْقًا﴾ مصدراً عاملاً في شيئاً، والأخفش[٨] جعله اسماً للرزق؛ وقيل: يجوز أن يكون تأكيداً لقوله: ﴿لَا يَمْلِكُ﴾؛ أي: لا يملك شيئاً مِنْ الملك، والمعنى: أن هؤلاء الكفار يعبدون معبوداتٍ لا تملك لهم رزقاً أيّ رزق، و﴿مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ صفة لرزق؛ أي:

---

(١) «تفسير أبي السعود» (٤/ ٣٦٣)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٦٤).

(٢) «روح المعاني» (١٤/ ٢١٤)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ٣٦٣).

(٣) «روح المعاني» (١٤/ ٢١٦)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٣٨١)، و«النشر» (٢/ ١٢٩ ـ ١٣٠).

(٤) «روح المعاني» (١٤/ ٢١٦)، و«المحرر الوجيز» (١٠/ ٢١١). هي قراءة شاذة.

(٥) «تفسير أبي السعود» (٤/ ٣٦٣)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢١٦).

(٦) في «معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٦٠٧). (٧) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١١٠).

(٨) في «معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٦٠٧).

كائناً منهما، والضمير في ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ راجع إلى «ما»، وجُمِع جَمْع العقلاء بناءً على زعمهم الباطل، والفائدة في نفي الاستطاعة عنهم أن مَنْ لا يملك شيئاً قد يكون موصوفاً باستطاعة التملّك بطريق مِنْ الطرق، فبيّن سبحانه أنها لا تملك ولا تستطيع.

وقيل: يجوز أن يكون الضمير في ﴿يَسْتَطِيعُونَ﴾ للكفّار؛ أي: لا يستطيع هؤلاء الكفار مع كونهم أحياء متصرّفين، فكيف بالجمادات التي لا حياة لها ولا تستطيع التصرّف؟ ثم نهاهم سبحانه عَنْ أن يشبهوه بخلقه، فقال: ﴿فَلَا تَضْرِبُواْ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَۚ﴾ فإنّ ضارب المثل يُشبه حالاً بحال وقصة بقصة.

قال الزجاج[(١)]: لا تجعلوا لله مثلاً؛ لأنّه واحد لا مثل له، وكانوا يقولون: إن إلٰه العالم أجلّ مَنْ أن يعبده الواحد منّا، فكانوا يتوسلون إلى الأصنام والكواكب، كما أن أصاغر الناس يخدمون أكابر حضرة الملك، وأولئك الأكابر يخدمون الملك فنُهوا عن ذلك، وعلّل النهي بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ عليم ﴿يَعْلَمُ﴾ ما عليكم من العبادة ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ما في عبادتها مِنْ سوء العاقبة، والتعرّض لعذاب الله سبحانه، أو أنتم لا تعلمون بشيء من ذلك، وفعلكم هذا هو عَنْ توهم فاسد، وخاطر باطلٍ، وخيال مختلّ، ويجوز أَنْ يراد: فلا تضربوا لله الأمثال إن الله يعلم كيف تُضْرب الأمثال وأنتم لا تعلمون ذلك.

وقد أخرج ابن جرير[(٢)] عن عليّ في قوله: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ قال: خمس وسبعون سنة.

وأخرج ابنُ أبي حاتم[(٣)] عن السدّي قال: هو الخَرَف.

وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عكرمة[(٤)] قال: مَنْ قرأ القرآن لم يُردَّ إلى أَرْذل العُمرُ، ثم قرأ ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔاۚ﴾.

وأخرج ابنُ أبي شيبة[(٥)] عَنْ طاووس قال: العالم لا يَخْرَف.

(١) في «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٢١٣).
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢٩٢) بسند ضعيف جدّاً.
(٣) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٩٠).
(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (١٠/ ٤٦٨).
(٥) أخرجه ابن أبي شيبة (١٤/ ٥٤).

وقد ثبت عنه ﷺ في «الصحيح»[١] وغيره أنه كان يتعوّذ بالله أن يردّ إلى أرذل العمر.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[٢] في قوله: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ﴾ قال: لم يكونوا ليُشْركوا عبيدَهم في أموالهم ونسائهم فكيف يُشْركون عبيدي معي في سُلْطاني؟

وأخرج ابنُ جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد[٣] في الآية قال: هذا مَثَلٌ لآلهة الباطل مع الله.

وأخرج عبد بن حُميد، وابن جرير، وابن المنذر، [٣/١٥٣] وابن أبي حاتم عن قتادة[٤] في قوله: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ قال: خلقَ آدم، ثم خلق زوجَته مِنْه.

وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، والبخاري في تاريخه، وابنُ جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، والبيهقي في «سننه» عن ابن مسعود[٥] في قوله: ﴿بَنِينَ وَحَفَدَةٗ﴾ قال: الحفدة الأُخْتان.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس[٦] قال: الحفدة: الأَصْهار، وأخرجا[٧] عنه قال: الحفدة الولدُ وولد الولد.

وأخرج ابن أبي حاتم[٨] عنه أيضاً قال: الحفدة بنو البنين.

وأخرج ابن جرير، عن أبي جمرة[٨] قال: سُئل ابن عباس عن قوله: ﴿بَنِينَ وَحَفَدَةٗ﴾ قال: من أعانك فقد حفَدك، أما سمعتَ الشاعر يقول:

حفَدَ الولائدُ حولَهنّ وأسلَمَتْ ... بأكفهنَّ أزِمَّةَ الأَجْمالِ[٩]

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» رقم (٤٧٠٧) من حديث أنس.
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢٩٣) بسند ضعيف.
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢٩٤) بسند صحيح.
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢٩٥) بسند صحيح.
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢٩٧) بسند صحيح.
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٣٠١) بسند صحيح.
(٧) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٩١).
(٨) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢٩٨) من طريق وهب بن حبيب الأسدي، به.
(٩) انظر: «مجاز القرآن» (١/ ٣٦٤)، و«جامع البيان» (١٤/ ٢٩٨).

وأخرج ابنُ جرير، وابنُ أَبي حاتم[(١)] عنه أيضاً قال: الحفَدَةُ بنو امرأة الرجل ليسوا مِنْه.

وأخرج ابنُ أبي حاتم[(٢)] عَنْ قتادة ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ قال: الشرك.

وأخرج ابن المنذر[(٣)] عن ابن جريج قال: هو الشيطان ﴿وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ قال: محمد.

وأخرج عبدُ بن حُميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة[(٤)] في قوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآية [النحل: ٧٣] قال: هذه الأوثان التي تُعبد من دون الله لا تملك لمن يعبدها ﴿رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النحل: ٧٣] ولا خيراً ولا حياة ولا نشوراً ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤] فإنّه أحدٌ صَمدٌ لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[(٥)] في قوله سبحانه: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ يعني: اتخاذهم الأصنام، يقول: لا تجعلوا معي إلٰهاً غيري، فإنّه لا إلٰه غيري.

[ضرب الأمثال لتقريب الحقيقة الكبرى التي غفلوا عنها؛ أي: حقيقة أن ليس لله مثال]:

﴿۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٣٠٢ ـ ٣٠٣) بسند ضعيف.

(٢) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٩٢).

(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ١٤٩).

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ١٠٥ ـ ١٠٦) بسند صحيح.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٣٠٥) بسند ضعيف.

قوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ لمّا قال سبحانه إنّ الله يعلم؛ أي: بالمعلومات التي من جملتها كيف يضرب الأمثالَ وأنتم لا تعلمون، علّمهم سبحانه كيف تُضرب الأمثال فقال: (ضرب الله[1] مثلاً)؛ أي: ذكر شيئاً يُستدلّ به على تباين الحال بين جَناب الخالق سبحانه، وبين ما جعلوه شريكاً له مِنْ الأصنام، ثم ذكر ذلك فقال: ﴿عَبْدًا مَّمْلُوكًا﴾ والمَثَلُ في الحقيقة هي حالةٌ للعبد عارضة له، وهي المملوكية والعجز عن التصرف، فقوله: ﴿عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ تفسير للمَثَل وبدلٌ منه، ووصفه بكونه مملوكاً؛ لأنّ العبد والحرّ مشتركان في كون كل واحد منهما عبداً لله سبحانه، ووصفه بكونه لا يقدر على شيء؛ لأنّ المكاتَب والمأذون يقدران على بعض التصرفات.

فهذا الوصف لتمييزه عنهما ﴿وَمَن رَّزَقْنَٰهُ﴾ «مَنْ» هي[2] الموصولة، وهي معطوفة على (عبداً)؛ أي: والذي رزقناه ﴿مِنَّا﴾؛ أي: مِنْ جهتنا ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾ من الأحرار الذين يملكون الأموال ويتصرفون بها كيف شاؤوا.

والمراد بكون الرزق حسناً أنّه مما يَحْسُن في عيون الناس، لكونه رزقاً كثيراً مشتملاً على أشياء مُستحسنة نفيسة تروق الناظرين إليها.

والفاء في قوله: ﴿فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ﴾ لترتيب[3] الإنفاق على الرزق؛ أي: ينفق منه في وجوه الخير ويصرف منه إلى أنواع البرّ والمعروف، وانتصاب[4] ﴿سِرًّا وَجَهْرًا﴾ على الحال؛ أي: ينفق منه في حال السرّ وحال الجهر.

والمراد: بيان عموم الإنفاق للأوقات، وتقديم السرّ على الجهر مشعر بفضيلته عليه، وأنّ الثواب فيه أكثر؛ وقيل: إن «مَنْ» في ﴿وَمَن رَّزَقْنَٰهُ﴾ موصوفة كأنه قيل: وحرّاً رزقناه ليطابق عبداً ﴿هَلْ يَسْتَوُۥنَ﴾؛ أي: الحرّ والعبد الموصوفان بالصفات المتقدّمة، وجمع الضمير[5] لمكان «مَنْ»؛ لأنّه اسم مُبْهم يستوي فيه الواحد والاثنان

---

(١) «جامع البيان» (١٤/ ٣٠٧)، و«المحرر الوجيز» (١٠/ ٢١٥ ـ ٢١٦).
(٢) «الفريد» (٣/ ٢٤١)، و«التبيان» (٢/ ٨٠٣)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٢٢).
(٣) «روح المعاني» (١٤/ ٢٢٢)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ٣٦٥).
(٤) «التبيان» (٢/ ٨٠٣)، و«الفريد» (٣/ ٢٤١).
(٥) «الجامع لأحكام القرآن» (١٤/ ٣٨٥)، و«جامع البيان» (١٤/ ٣٠٧ ـ ٣٠٨)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٢٣).

والجمع والمذكر والمؤنث؛ وقيل: إنّه أُريد بالعبد والموصول الذي هو عبارة عن الحرّ الجنس؛ أي: مَنْ اتصف بتلك الأوصاف مِنْ الجنسين.

والاستفهام[(١)] للإنكار؛ أي: هَلْ يستوي العبيد والأحرار الموصوفون بتلك الصفات مع كون كِلا الفريقين مخلوقين لله سبحانه مِنْ جملة البشر؟

ومن المعلوم أَنّهم لا يستوون عندهم، فكيف يجعلون لله سبحانه شركاء لا يملكون لهم ضرّاً ولا نفعاً، ويجعلونهم مُستحقين للعبادة مع الله سبحانه؟

وحاصل المعنى: أَنّه كما لا يستوي عندكم عبد مملوك لا يقدر مِنْ أمره على شيء ورجل حرّ قد رزقه الله رزقاً حسناً فهو ينفق منه، كذلك لا يستوي الربّ الخالق الرازق والجمادات من الأصنام التي تعبدونها وهي لا تبصر ولا تسمع ولا تضرّ ولا تنفع.

وقيل: المراد بالعبد المملوك في الآية: هو الكافر[(٢)] المحروم مِنْ طاعة الله وعبوديته، والآخر: هو المؤمن؛ والغرض أَنّهما لا يستويان في الرتبة والشَّرف، وقيل: العبد هو الصنم، والثاني: عابد الصنم، والمراد: أَنّهما لا يستويان في القدرة والتصرّف، لأن الأوّل: جَماد، والثاني: إِنْسان ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ أي: الحمد كله لله؛ لأنّه المُنْعِم لا يستحق غيره مِنْ العباد شيئاً منه، فكيف تستحق الأصنام منه شيئاً ولا نعمة منها أصلاً لا بالأصالة ولا بالتوسط؟

وقيل: أراد الحمد لله على ما أنعم به على أوليائه مِنْ نعمة التوحيد؛ وقيل: أراد: قل الحمد لله، والخطاب إما لمحمد ﷺ أو لمن رزقه الله رزقاً حسناً، وقيل: إنه لما ذكر مثلاً مطابقاً للغرَض كاشفاً عَنْ المقصود قال: الحمد لله؛ أي: على قوّة هذه الحُجة.

[لماذا خصَّ الأكثر بنفي العلم]:

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك حتى يعبدوا مَنْ تحقّ له العبادة، ويعرفوا المنعم عليهم بالنعم الجليلة، ونفي العلم عنهم إمّا لكونهم مِنْ الجهل بمنزلة لا يفهمون بسببها ما يجب عليهم، أو هم يتركون الحق عناداً مع علمهم به فكانوا كمن لا علم له، وخصّ[(٣)] الأكثر بنفي العلم: إمّا لكونه يريد الخلق جميعاً،

(١) «تفسير أبي السعود» (٤/ ٣٦٥)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٢٣).
(٢) «جامع البيان» (١٤/ ٣٨٣).
(٣) «الوسيط» للواحدي (٣/ ٧٥)، و«جامع البيان» (١٤/ ٣٠٩)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٢٥).

وأكثرهم المشركون، أو ذكر الأكثر وهو يريد الكلّ، أو المراد أكثر المشركين؛ لأن فيهم مَنْ يعلم ولا يعمل بموجب العلم.

ثم ذكر سبحانه مثلاً ثانياً ضرَبه لنفسِه، ولِما يفيض على عباده مِنْ النعم الدينية والدنيوية، وللأصنام التي هي أمواتٌ لا تضرّ ولا تنفع فقال: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾؛ أي: مثلاً آخر أوضح ممّا قبله وأظهر منه، و﴿رَّجُلَيْنِ﴾ بدل مِنْ مثل وتفسير له، والأبكم العييّ المفحم.

وقيل: هو الأقطع اللِّسان الذي لا يحسن الكلام، وروى ثعلب عن ابن الأعرابي[1] أنّه الذي لا يسمع ولا يُبْصر، ثمّ وصف الأبكم فقال: ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ مِنْ الأشياء المتعلقة بنفسه أو بغيره لعدم فهمه وعدم قدرته على النطق.

ومعنى ﴿كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾: ثَقيل على وليّه وقرابته، وعيال على مَنْ يلي أمره ويَعوله، ووبال على إخوانه، وقد يُسمّى اليتيم كلّاً لثقله على مَنْ يكفله، ومنه قول الشاعر:

أَكـولٌ لـمـال الـكَـلِّ قـبـلَ شـبـابـهِ ... إذا كـان عـظـمُ الـكَـلِّ غـيـرَ شـديـد[2]

وفي هذا بيان لعدم قُدرته على إقامة مصالح نفسه بعد ذكر عدم قدرته على شيء مطلقاً، ثم وصفه بصفةٍ رابعة فقال: ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾؛ أي: إذا وجّهه إلى أيّ جهة لا يأت بخير قط؛ لأنّه لا يفهم ولا يعقل ما يقال له ولا يمكنه أن يقول.

وقرأ يحيى بن وثّاب (أينما يُوجَّه) على البناء[3] للمجهول.

وقرأ ابنُ مسعود (أينما تَوجّه) على صيغة[4] الماضي ﴿هَلْ يَسْتَوِى هُوَ﴾ في نفسه مع هذه الأوصاف التي اتصف بها ﴿وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾؛ أي: يأمر الناس بالعدل مع كونه في نفسه ينطق بما يريد النطق به ويفهم.

ويقدر على التصرّف في الأشياء ﴿وَهُوَ﴾ في نفسه ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ على

---

(١) انظر: «تهذيب اللغة» (١/ ١٨٧).
(٢) انظره في: «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٣٨٧)، و«تهذيب اللغة» (٩/ ٤٤٦).
(٣) «روح المعاني» (١٤/ ٢٢٦)، و«القراءات الشاذة» (ص٧٣)، و«المحتسب» (٢/ ١١).
(٤) «القراءات الشاذة» (ص٧٣)، و«المحتسب» (٢/ ١١)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٢٦)، و«البحر المحيط» (٦/ ٥٧١). وهما قراءتان شاذتان.

دين قويم، وسيرة صالحة ليس فيه ميل إلى أحد جانبي الإفْراط والتفريط، قابلَ أوصاف الأوّل بهذين الوصفين المذكورين للآخر؛ لأنّ حاصل أوصاف الأوّل عدم استحقاقه لشيء، وحاصل وصفي هذا أنّه مستحق أكمل استحقاق، والمقصود الاستدلال بعدم تساوي هذين المذكورين على امتناع التساوي بينه سبحانه وبين ما يجعلونه شريكاً له.

ولمّا فرغ سبحانه مِنْ ذكر المثلين مدح نفسه بقوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: يختصّ ذلك به لا يشاركه فيه غيره ولا يستقل به، والمراد: علم ما غاب عَنْ العباد فيهما، أو أراد بغيبهما يوم القيامة لأنّ علمه غائب عن العباد، ومعنى الإضافة إليهما التعلق بهما.

والمعنى: التوبيخ(١) للمشركين والتقريع لهم؛ أي: أنّ العبادة إنما يستحقها من كانت هذه صفته لا مَنْ كان جاهلاً عاجزاً لا يضرّ ولا ينفع ولا يعلم بشيء من أنواع العلم [٣/١٥٤].

﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ﴾ التي هي أعظم ما وقعت فيه المماراة مِنْ الغيوب المختصة به سبحانه ﴿إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ اللمح: النظر بسرعة، ولا بدّ فيه من زمان تتقلب فيه الحدقة نحو المرئي، وكلُّ زمان قابل للتجزئة، ولذا قال: ﴿أَوْ هُوَ﴾؛ أي: أمرهما ﴿أَقْرَبُ﴾ وليس هذا مِنْ قبيل المبالغة؛ بل هو كلام في غاية الصدق؛ لأن مدّة ما بين الخطاب وقيام الساعة متناهية، ومِنْها إلى الأبد غير متناه، ولا نسبة للمتناهي إلى غير المتناهي؛ أو يقال: إنّ الساعة لما كانت آتية ولا بدّ جُعلتْ مِنْ القرب كلمح البصر(٢).

وقال الزجّاج(٣): لم يرد أن الساعة تأتي في لمح البصر، وإنما وصف سرعة القدرة على الإتيان بها؛ لأنّه يقول للشيء كن فيكون، وقيل: المعنى: هي عند الله كذلك وإن لم تكن عند المخلوقين بهذه الصفة، ومثله قوله سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج: ٦، ٧]. ولفظ ﴿أَوْ﴾ في ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ ليس للشك؛ بل للتمثيل؛ وقيل: دخلت لشك المخاطب، وقيل: هي بمنزلة؛ بل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومجيء الساعة بسرعة من جملة مقدوراته.

---

(١) «تفسير أبي السعود» (٤/ ٣٦٧)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٢٨).
(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ٢١٤)، و«المحرر الوجيز» (١٠/ ٢١٤)، و«جامع البيان» (١٤/ ٣١٤).
(٣) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ٢١٤).

ثم إنه سبحانه ذكر حالة أُخرى للإنسان دالة على غاية قدرته ونهاية رأفته فقال: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ وهذا معطوف على قوله: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ [النحل: ٧٢] منتظم معه في سلك أدلة التوحيد؛ أي: أخرجكم مِنْ بطون أمهاتكم أطفالاً لا علم لكم بشيءٍ.

وجملة ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ في محلٍّ نصب[١] على الحال، وقيل[٢]: المراد لا تعلمون شيئاً ممّا أخذ عليكم مِنْ الميثاق، وقيل: لا تعلمون شيئاً مما قضي به عليكم من السعادة والشقاوة، وقيل: لا تعلمون شيئاً من منافعكم.

والأولى التعميم لتشمل الآية هذه الأمور وغيرها اعتباراً بعموم اللفظ، فإن (شيئاً) نكرة[٣] واقعة في سياق النفي.

وقرأ الأعمش، وابن وثّاب، وحمزة (إِمِهاتكم) بكسر الهمزة[٤] والميم هنا، وفي النور والزمر والنجم[٥]. وقرأ الكسائي بكسر الهمزة[٦] وفتح الميم.

وقرأ الباقون بضم الهمزة[٧] وفتح الميم. ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾؛ أي: ركّب فيكم هذه الأشياء، وهو معطوف على ﴿أَخْرَجَكُم﴾، وليس فيه دلالة على تأخير هذا الجَعْل عن الإخراج لما أن مدلول الواو هو مُطْلق الجمع.

والمعنى: جعل لكم هذه الأشياء لتحصّلوا بها العلمَ الذي كان مسلوباً عنكم عند إخراجكم مِنْ بطون أمهاتكم، وتعملوا بموجب ذلك العلم من شكر المنعم وعبادته والقيام بحقوقه، والأفئدة: جمع فؤاد، وهو وسط القلب مُنزّل منه بمنزلة القلب من الصدر، وقد قدّمنا الوجه في إفراد السمع وجمع الأبصار والأفئدة، وهو

---

(١) «الفريد» (٣/ ٢٤٢)، و«التبيان» (٢/ ٨٠٤)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٣٣).
(٢) ذكر هذه الأقوال: القرطبي في «تفسيره» (١٢/ ٣٨٩)، والألوسي في «روح المعاني» (١٤/ ٢٣٣).
(٣) «روح المعاني» (١٤/ ٢٣٤)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ٣٦٨).
(٤) «التيسير» (ص٩٤)، و«النشر» (٢/ ٢٤٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٧٥)، و«التبيان» (٢/ ٨٠٤).
(٥) سورة النور: الآية (٦١)، وسورة الزمر: الآية (٦)، وسورة النجم: الآية (٣٢).
(٦) «البحر المحيط» (٦/ ٥٧٤)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٣٩٠)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٣٢). هي ثلاث قراءات متواترة كما ذكرها الإمام الشوكاني لكن قراءة حمزة والكسائي حال الوصل فقط أما في حالة الابتداء فيقرآن كالجمهور بضم الهمزة وفتح الميم في كلمة (أُمَّهاتكم).
(٧) «البحر المحيط» (٦/ ٥٧٤)، و«النشر» (٢/ ٢٤٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٧٥)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٣٢).

أن إفراد[١] السمع لكونه مصدراً في الأصل يتناول القليل والكثير ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾؛ أي: لكي تصرفوا كلّ آلة فيما خُلقت له، فعند ذلك تَعرفون مقدار ما أنعم الله به عليكم فتشكرونه، أو أنّ هذا الصرف هو نفس الشكر.

[من دلائل كمال قدرته ﷻ]:

ثم ذكر سبحانه دليلاً آخر على كمال قدرته، فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ﴾؛ أي: ألم ينظروا إليها حال كونها مُسخرات؟؛ أي: مذلّلات للطيران بما خلق الله لها مِنْ الأجنحة وسائر الأسباب المواتية لذلك كرقة قوام الهواء، وإلهامها بسط الجناح وقبضه كما يفعل السابح في الماء ﴿فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: في الهواء المتباعد مِنْ الأرض في سمت العلو، وإضافته إلى السماء لكونه في جانبها ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ في الجوّ ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ سبحانه بقدرته الباهرة، فإنّ ثقل أجسامها، ورقة قوام الهواء يقتضيان سقوطها؛ لأنّها لم تتعلق بشيء مِنْ فوقها ولا اعتمدت على شيء تحتها.

وقرأ يحيى بن وثّاب، والأعمش، وابنُ عامر، وحمزة، ويعقوب (ألم تروا) بالفوقية[٢] على الخطاب، واختار هذه القراءة أبو عُبيد[٣].

وقرأ الباقون بالتحتية[٤].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾؛ أي: إنّ في ذلك التسخير على تلك الصفة لآيات ظاهراتٍ تدلّ على وحدانية الله سبحانه وقدرته الباهرة ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بالله سبحانه وبما جاءت به رسله من الشرائع التي شرعها الله.

وقد أخرج ابنُ جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[٥] في قوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا﴾ الآية قال: يعني: الكافر أنه لا يستطيع أن يُنْفق نفقة في سبيل الله ﴿وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا﴾ الآية قال: يعني: المؤمن وهذا المَثَلُ في النفقة.

---

(١) «روح المعاني» (١٤/ ٢٣٥ ـ ٢٣٦).
(٢) «النشر» (٢/ ٣٠٤)، و«التيسير» (ص١٣٨)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٣٨)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٣٩٠).
(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٢/ ٣٩٠).
(٤) «التيسير» (ص١٣٨)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٣٩٠).
«البحر المحيط» (٦/ ٥٧٥)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٣٨).
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٣٠٨) بسند ضعيف.

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم[١] نحوه بأطول منه.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد[٢] في الآية، وفي قوله: ﴿مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ﴾ قال: كل هذا مَثَلُ إِلٰه الحق وما تدعون مِنْ دونه الباطل.

وأخرج ابن المنذر من طريق ابن جريج عن ابن عباس[٣] قال: في المَثَل الأوّل يعني بذلك: الآلهة التي لا تَملك ضَرّاً ولا نفعاً، ولا تقدر على شيء ينفعها ﴿وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾ قال: علانيةً الذي ينفق سرّاً وجهراً لله.

وأخرج ابنُ جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وابن عساكر عنه[٤] قال: نزلت هذه الآية ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا﴾ في رجلٍ من قريش وعبدِه، في ابن هشام بن عمرو، وهو الذي ينفق سرّاً وجهراً، وفي عبده أَبي الجوزاء الذي كان ينهاه.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه[٥] أيضاً في قوله: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ﴾ الآية قال: يعني بالأبكم: الذي هو كَلٌّ على مولاه الكافر ﴿وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ المؤمن، وهذا المثل في الأَعمال.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وابن عساكر عنه[٦] أيضاً قال: نزلت هذه الآية ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ الآية في عثمان بن عفان ومولى له كافر، وهو أَسيد بن أَبي العيص كان يكره الإسلام، وكان عثمان ينفق عليه ويكفُله ويَكفيه المؤنة، وكان الآخر ينهاه عَنْ الصدقة والمعروف، فنزلت فيهما.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/٣٠٨) عن قتادة. بسند صحيح.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٣١) بسند صحيح.

(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ١٥١).

(٤) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٣٩/٢١٨، ٢١٩)، وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٣١٢) بسند حسن.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٣١١ ـ ٣١٢) بسند ضعيف.

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/٣١٢)، وابن عساكر في «تاريخه» (٣٩/٢١٨، ٢١٩) بسند حسن.

وأخرج ابنُ سعد، وابن أبي شيبة، والبخاري في «تاريخه»، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والضياء في «المختارة»(١) عَنْه أيضاً في قوله: ﴿وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ قال: عثمان بن عفان.

وأخرج ابنُ المنذر، وابنُ أَبي حاتم(٢) عَنْه أيضاً في قوله: ﴿كَلٌّ﴾ قال: الكَلّ العِيال، كانوا إذا ارتحلوا حَملوه على بعيرٍ ذَلول، وجعلوا معه نفراً يُمْسكونه خشية أن يسقط عليهم، فهو عَناء وعذاب وعِيال عليهم ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٍ﴾ يعني: نفسه.

وأخرج عبدُ الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة(٣) في قوله: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ﴾ هو أن يقول: كُنْ. فهو كلمح البصر ﴿أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُ﴾ فالساعة كلمح البصر أو هي أقرب.

وأخرج ابن أبي حاتم(٤) عن السدّي في قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾ قال: مِنْ الرحم.

وأخرج ابنُ جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة(٥) في قوله: ﴿فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: في كبد السماء.

[من أسرار الخلق وآثار القدرة ومظاهر النعمة]:

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ (٨٠) وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ (٨١) فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ (٨٢) يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ (٨٣)﴾.

---

(١) أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٣/ ٦٠)، وابن أبي شيبة (١٢/ ٤٥، ٤٦)، والبخاري في «تاريخه» (١/ ٣٠٦، ٣٠٧)، والضياء في «المختارة» (٩/ ٤٨٥ رقم ٤٦٧) بسند حسن.

(٢) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٩٤).

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٣٠٤)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٥٩) بسند صحيح.

(٤) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٩٤).

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٣١٦ ـ ٣١٧) بسند صحيح.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم﴾ معطوف على ما قبله وهذا المذكور من جملة أحوال الإنسان، ومِنْ تعديد نعم الله عليه، والسَّكَنُ مصدر يوصف به الواحد والجمع، وهو بمعنى: مسكون؛ أي: تَسْكنون فيها وتهدأ جوارحُكم مِنْ الحركة. وهذه نعمة، فإن الله سبحانه لو شاء لخلق[1] العبد مضطرباً دائماً كالأفلاك، ولو شاء لخلقه ساكناً أبداً كالأرض ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا﴾ لما ذكر سبحانه بيوت المدن، وهي التي للإقامة الطويلة عقّبها بذكر بيوت البادية والرحلة؛ أي: جعل لكم من جلود الأنعام، وهي الأنطاع[2] والأدم بيوتاً كالخيام والقباب ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا﴾؛ أي: يخفّ عليكم حملُها في الأسفار وغيرها، ولهذا قال: ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ والظعن[3] بفتح العين وسكونها، وقُرئ بهما: سير أهل البادية للانتجاع والتحوّل مِنْ موضع إلى موضع، ومنه قول عنترة[4]:

ظَعَنَ الذين فراقَهم أتوقعُ　　وجرى ببينهم الغُرابُ الأبْقعُ

والظَعْن: الهودج أيضاً ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا﴾ معطوف على ﴿جَعَلَ﴾؛ أي: وجعَل لكم مِنْ أصواف الأنعام وأوبارها وأشعارها، والأنعام: تَعمُّ الإبلَ والبقرَ والغنم كما تقدّم.

والأصواف: للغنم، والأوبار: للإبل، والأشعار: للمعز، وهي مِنْ جملة الغنم، فيكون ذكر هذه الثلاثة على وجه التنويع كل واحد منها لواحد من الثلاثة، أعني: الإبل، ونوعي الغنم، والأثاث متاع البيت، وأصله الكثرة والاجتماع، ومنه شعر أثيث؛ أي: كثير مجتمع، قال الشاعر[5]:

وفرعٍ يزينُ المتنَ أسودُ فاحمٌ　　أثيثٌ كقنوِ النخلةِ المتعثكلِ[6]

قال الخليل[7]: أثاثاً؛ أي: مُنضماً بعضُه إلى بعض، من أَثَّ إذا كثر، قال

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٣٩١)، و«المحرر الوجيز» (١٠/ ٢١٧)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٤٠).

(٢) الأنطاع: جمع نطع، وهو بساط من أدرع، والأُدم: جمع أديم، وهو الجلد. «تهذيب اللغة» (٢/ ١٧٨) و(١٤/ ٢١٤).

(٣) انظر: «تهذيب اللغة» (٢/ ٣٠٠)، و«الصحاح» (٦/ ٢١٥٩). وهما قراءتان متواترتان فإسكان العين عن ابن عامر، والكوفيين وأمّا الباقون فبالفتح في كلمة (ظَعَنكم).

(٤) انظر: «ديوان عنترة» (ص٤٨).　　(٥) انظر: «ديوان امرئ القيس» (ص١٦).

(٦) تعثكل العِذْقُ، إذا كثرت شماريخه. «الصحاح» (٥/ ١٧٥٨).

(٧) في كتاب «العين» (ص١٧).

الفراء[(١)]: لا واحد له، والمتاعُ: ما يُتمتّع به بأنواع التمتع، وعلى قول أبي زيد[(٢)] الأنصاري: إن الأثاث: المال [٣/١٥٥] أجمع: الإبل والغنم والعبيد والمتاع، يكون عطف المتاع على الأثاث مِنْ عطف الخاص على العام.

وقيل: إنّ الأثاث: ما يكتسي به الإنسان ويستعمله مِنْ الغطاء والوطاء، والمتاع: ما يُفرش في المنازل ويتزين به، ومعنى ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾: إلى أن تقضوا أوطاركم منه، أو إلى أنْ يبلى ويفنى، أو إلى الموت، أو إلى القيامة، ثم لما كان الإنسان قد لا يكون له خيام، أو أبنية يستظل بها لفقرٍ، أو لعارض آخر فيحتاج إلى أن يستظلّ بشجر أو جدار أو غَمام أو نحو ذلك نبّه سبحانه على ذلك فقال: و﴿جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا﴾؛ أي: أشياء تستظلون بها كالأشياء المذكورة، والحاصل: أنّ الظِّلال تعم الأشياء التي تظلّ.

ثم لما كان المسافر قد يحتاج إلى ركن يأوي إليه في نزوله، وإلى ما يدفع به عَنْ نفسه آفات الحرّ والبرد، نبّه سبحانه على ذلك فقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنًا﴾ وهي جمع كِنّ: وهو ما يستكنّ به من المطر، وهي هنا الغيران[(٣)] في الجبال، جعلها الله سبحانه عدّةً للخلق يأوون إليها ويتحصنون بها ويعتزلون عن الخلق فيها ﴿وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ﴾ جَمْعُ سربال[(٤)]، وهي: القُمْصان والثياب من الصوف والقطن والكتّان وغيرها.

قال الزجّاج[(٥)]: كلُّ ما لبسته فهو سربال. ومعنى ﴿تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾: تدفع عنكم ضرر الحرّ، وخصّ الحرّ ولم يذكر البرد اكتفاء بذكر أحد الضدين عن ذكر الآخر؛ لأنّ ما وقى مِنْ الحرّ وقى من البرد.

ووجه تخصيص[(٦)] الحرّ بالذكر أنّ الوقاية منه كانت أهمّ عندهم من الوقاية من

---

(١) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١١٢).

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٢/ ٤٠٢)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٠/ ٢١٧).

(٣) «جامع البيان» (١٤/ ٣٢١).
- الغيران: جمع غار. «الصحاح» (٢/ ٧٧٦).

(٤) «الوسيط» للواحدي (٣/ ٧٦)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٤٠٤).

(٥) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ٢١٥).

(٦) «روح المعاني» (١٤/ ٢٤٣)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٤٠٥)، و«المحرر الوجيز» (١٠/ ٢١٣).

البرد لغلبة الحرّ في بلادهم ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ وهي الدروع والجواشن يتقون بها الطعنَ والضَّرْبَ والرمي.

والمعنى: أنها تقيهم البأس الذي يصل مِنْ بعضهم إلى بعض في الحرب ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: مثل ذلك الإتمام البالغ يتمّ نعمته عليكم، فإنه سبحانه قد منّ على عباده بصنوف النعم المذكورة ها هنا وبغيرها، وهو بفضله وإحسانه سيتمّ لهم نعمة الدين والدنيا ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ إرادةً أن تسلموا، فإن من أمعن النظر في هذه النعم لم يسعه إلّا الإسلام والانقياد للحق.

وقرأ ابن مُحيصن، وحميد (تَتم نعمتُه) بتاءين[1] فوقيتين على أن فاعله نعمته.

وقرأ الباقون[2] بالتحتية على أنّ الفاعلَ هو الله سبحانه.

وقرأ ابن عباس، وعكرمة (تَسْلَمون) بفتح التاء[3] واللام من السلامة من الجراح، وقرأ الباقون بضم[4] التاء وكسر اللام من الإسلام.

قال أبو عبيد[5]: والاختيار قراءة العامة؛ لأنّ ما أنعم الله به علينا من الإسلام أفضل مما أنعم به مِنْ السلامة من الجراح، وقيل: الخطاب لأهل مكة؛ أي: لعلكم يا أهل مكة تخلصون لله الربوبية، والأولى الحمل على العموم، وإفراد[6] النعمة هنا لأن المراد بها المصدر. ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾؛ أي: إنْ تولوا عنك ولم يقبلوا ما جئتَ به فقد تمهد عذُرك، فإنما عليك البلاغ لما أرسلت به إليهم المبين؛ أي: الواضح، وليس عليك غير ذلك، وصرف الخطاب إلى رسول الله ﷺ تسلية له.

وجملة ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ استئناف لبيان توليهم[7]؛ أي: هم

---

(١) «البحر المحيط» (٦/ ٥٧٨)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٤٤)، و«المحرر الوجيز» (١٠/ ٢١٤). وهي قراءة شاذة.

(٢) انظر: المصادر المتقدمة.

(٣) «القراءات الشاذة» (ص٧٤)، و«جامع البيان» (١٤/ ٣٢٢)، و«البحر المحيط» (٦/ ٥٧٨). وهي قراءة شاذة.

(٤) «جامع البيان» (١٤/ ٣٥٢)، و«البحر المحيط» (٦/ ٥٧٨)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٤٠٦).

(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٢/ ٤٠٦).

(٦) «روح المعاني» (١٤/ ٢٤٤)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ٣٧١).

(٧) «جامع البيان» (١٤/ ٣٢٢)، و«معالم التنزيل» (٣/ ٨٠).

يعرفون نعمة الله التي عدّدها، ويعترفون بأنها مِنْ عند الله سبحانه ثم ينكرونها بما يقع مِنْ أفعالهم القبيحة من عبادة غير الله، وبأقوالهم الباطلة، حيث يقولون: هي من الله ولكنها بشفاعة الأصنام، وحيثُ يقولون: إنّهم ورثوا تلك النعم من آبائهم، وأيضاً كونهم لا يستعملون هذه النعم في مرضاة الربّ سبحانه، وفي وجوه الخير التي أمرهم الله بصرفها فيها.

وقيل: نعمة الله: نبوّة[1] محمد ﷺ كانوا يعرفونه ثم ينكرون نبوّته ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾؛ أي: الجاحدون لنعم الله أو: الكافرون بالله، وعبّر هنا بالأكثر عن الكلّ، أو أراد بالأكثر العقلاء دون الأطفال ونحوهم، أو أراد كفر الجحود ولم يكن كفَر كلُّهم كذلك؛ بل كان كفر بعضهم كفر جهل، وكفر بعضهم بسبب تكذيب الرسول ﷺ مع اعترافهم بالله وعدم الجحد لربوبيته، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد[2] ﴿سَكَنًا﴾ قال: تَسْكُنون فيها.

وأخرج ابنُ أبي حاتم[3] عَنْ السدّي نحوه قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا﴾ وهي خِيام العرب ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا﴾ يقول: في الحمل ﴿وَمَتَٰعًا﴾ يقول: بلاغاً ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ قال: إلى الموت.

وأخرج ابن أبي حاتم[4] عن ابن عباس ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ قال: بعض بُيوت السيارة بُنيانه في ساعة، وفي قوله: ﴿وَأَوْبَارِهَا﴾ قال: الإبل ﴿وَأَشْعَارِهَآ﴾ قال: الغنم.

وأخرج ابن أبي حاتم[5] عنه في قوله: ﴿أَثَٰثًا﴾ قال: الأثاث المتاعُ.

وأخرج ابن جرير[6] عنه أيضاً قال: الأثاث المال ﴿وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ يقول: تنتفعون به إلى حين.

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٤٠٦)، و«جامع البيان» (١٤/ ٣٢٥).
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٣١٧) بسند صحيح.
(٣) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٩٤ ـ ٢٢٩٥).
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٩٥).
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٩٥).
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٣١٩) بسند ضعيف.

وأخرج عبدُ بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة[١] في قوله: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا﴾ قال: مِنْ الشجر ومن غيرها ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا﴾ قال: غاراتٍ يُسْكن فيها ﴿وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾ قال: مِنْ القطن والكتّان والصوف ﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ﴾ مِنْ الحديد ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ﴾ ولذلك هذه السورة تُسمّى سورة النعم[٢].

وأخرج أبو عبيد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس[٣] في قوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾ قال: يعني: الثياب، ﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ﴾ قال: يعني: الدروع والسلاح ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ﴾ يعني: مِنْ الجراحات، وكان ابن عباس[٤] يقرؤها «تَسْلَمون» كما قدّمنا، وإسناده ضعيف.

﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا ثُمَّ لَا يُؤۡذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ٨٤ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلۡعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ٨٥ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ شُرَكَآءَهُمۡ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَۖ فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ ٨٦ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوۡمَئِذٍ ٱلسَّلَمَۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٨٧ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفۡسِدُونَ ٨٨ وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدًا عَلَيۡهِم مِّنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَجِئۡنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ٨٩﴾.

[أجمع آية في كتاب الله لخير يُمتثل وشر يجتنب]:

﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠﴾.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٣٢١) بسند صحيح.
(٢) تقدم ذكره عن بداية تفسير السورة.
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٣٢٢) بسند ضعيف.
(٤) وهي قراءة شاذة. انظر: «القراءات الشاذة» (ص٧٤)، و«البحر المحيط» (٦/ ٥٧٨).

لمّا بيّن سبحانه من حال هؤلاء أنّهم عرفوا نعمة الله ثم أنكروها، وأن أكثرهم كافرون أتبعه بأصناف وعيد يوم القيامة، فقال: ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا﴾؛ أي: واذكرْ يومَ نبعث، أو يوم نبعث وقعوا فيما وقعوا فيه، وشهيدُ كلِّ أمة نبيُها يشهد لهم بالإيمان والتصديق، وعليهم بالكفر والجحود والتكذيب ﴿ثُمَّ لَا يُؤۡذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ أي: في الاعتذار، إذْ لا حُجة لهم ولا عذر كقوله سبحانه: ﴿وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٦] أو في كثرة الكلام، أو في الرجوع إلى دار الدنيا، وإيراد «ثُم» ها هنا للدلالة على أنّ ابتلاءهم بالمنع عن الاعتذار المُنْبىء عن الإقناط[١] الكلِّي أشد مِنْ ابتلائهم بشهادة الأنبياء ﴿وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾؛ لأنّ العتاب إنما يُطْلب لأجل العود إلى الرضا، فإذا كان على عزم السخط فلا فائدة في العتاب.

والمعنى: أَنّهم لا يسترضون[٢]؛ أي: لا يُكلّفون أَنْ يرضوا ربهم؛ لأن الآخرة ليست بدار تكليف، ولا يُتْركون إلى رجوع الدنيا فيتوبون.

وأصل الكلمة مِنْ العَتْب وهو المَوْجِدة، يقال: عَتَب عليه يَعتُب: إذا وجَدَ عليه، فإذا أفاض عليه ما عتب فيه عليه قيل: عاتبَه، فإذا رجع إلى مسرّته قيل: أعتبَه، والاسم العُتْبى، وهو رجوع المعتوب عليه إلى ما يُرضي العاتب قاله الهروي، ومنه قول النابغة[٣]:

[فإنْ كنتُ مظلوماً فعبداً ظلمتَهُ][٤] وإنْ تكُ ذا عُتبى فمثلُك يُعتِبُ

﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾؛ أي: وإذا رأى الذين أشركوا العذابَ الذي يستحقّونه بشركهم، وهو عذابُ جهنم ﴿فَلَا يُخَفَّفُ﴾ ذلك العذاب ﴿عَنۡهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾؛ أي: ولا هم يُمْهلون ليتوبوا إذْ لا توبة هنالك ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ شُرَكَآءَهُمۡ﴾؛ أي: أصنامهم وأوثانهم التي عبدوها، لما تقرّر من أنهم يبعثون مع المشركين ليقال لهم: مَنْ كان يعبد شيئاً فليتبعه، كما ثبت في «الصحيح»[٥] من

---

(١) «تفسير أبي السعود» (٤/ ٣٧٢)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٤٧).
(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٤٠٧ ـ ٤٠٨)، و«جامع البيان» (١٤/ ٣٢٨).
(٣) انظر: «ديوان النابغة الذبياني» (ص١٨).
(٤) كذا في المخطوط والذي في الديوان: (فإن أك مظلوماً فعبد ظلمته).
(٥) أخرجه البخاري رقم (٨٠٦) و(٧٤٣٦)، ومسلم رقم (١٨٢/ ٢٩٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قوله ﷺ. ﴿قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَۖ﴾؛ أي: الذين كنا نعبدهم من دونك.

قال أبو مُسْلم الأصفهاني[1]: مقصود المشركين بهذا القول إحالة الذنب على تلك الأصنام تعللاً بذلك واسترواحاً، مع كونهم يعلمون أَنّ العذاب واقع بهم لا محالة، ولكن الغريق يتعلّق بكلِّ ما تقع يده عليه ﴿فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ﴾؛ أي: ألقى أولئك الأصنام والأوثان والشياطين ونحوهم إلى المشركين القول [٣/١٥٦] ﴿إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾؛ أي: قالوا لهم: إنّكم أيها المشركون لكاذبون فيما تزعمون من إحالة الذنب علينا الذي هو مقصودكم من هذا القول.

فإنْ قيل: إنَّ المشركين أشاروا إلى الأصنام ونحوها أنّ هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك، وقد كانوا صادقين في ذلك، فكيف كذبتهم الأصنامُ ونحوها؟ فالجواب[2]: بأنّ مرادهم مِنْ قولهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا﴾، هؤلاء شركاء الله في المعبودية، فكذبتهم الأصنامُ في دعوى هذه الشركة؛ والأصنام والأوثان وإنْ كانت لا تقدر على النطق فإنّ الله سبحانه يُنْطقها في تلك الحال لتخجيل المشركين وتوبيخهم، وهذا كما قالت الملائكة: ﴿بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ﴾ [سبأ: ٤١]. يعنون: أن الجنّ هم الذين كانوا راضين بعبادتهم ثم ﴿وَأَلۡقَوۡاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوۡمَئِذٍ ٱلسَّلَمَۖ﴾؛ أي: ألقى المشركون يوم القيامة الاستسلام والانقياد لعذابه والخضوع لعزته.

وقيل: استسلم العابد والمعبود وانقادوا لحكمه فيهم ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾؛ أي: ضاعَ وبَطَل ما كانوا يفترونه مِن أَنّ لله سبحانه شركاء وما كانوا يزعمون مِنْ شفاعتهم لهم، وأن عبادتهم لهم تقرّبهم إلى الله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ في أنفسهم ﴿وَصَدُّواْ﴾ غيرَهم ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: عَنْ طريق الحق، وهي طريقُ الإسلام والإيمان بأنْ منعوهم مِنْ سلوكها وحملوهم على الكفر.

وقيل: المراد بالصدّ عن سبيل الله: الصدّ عَنْ المسجد الحرام، والأولى العموم.

ثم أخبر عن هؤلاء الذين صنعوا هذا الصنع بقوله: ﴿زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا فَوۡقَ

---

(١) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (١٤/٢٤٩ ـ ٢٥٠).

(٢) «تفسير الرازي» (٢٠/٩٧ ـ ٩٨)، و«روح المعاني» (١٤/٢٤٩ ـ ٢٥٢)، و«جامع البيان» (١٤/٣٢٨).

﴿ٱلْعَذَابِ﴾؛ أي: زادهم الله عذاباً لأجل الإضلال لغيرهم فوق العذاب الذي استحقوه لأجل ضلالهم؛ وقيل: المعنى زدنا[1] القادة عذاباً فوق عذاب أتباعهم؛ أي: أشد منه؛ وقيل: إن هذه الزيادة هي إخراجهم مِنْ النار إلى الزمهرير[2]، وقيل غير ذلك ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم﴾؛ أي: نبيّاً يشهد عليهم ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ من جنسهم، إتماماً للحُجّة وقطعاً للمعذرة، وهذا تكرير لما سبق لقصد التأكيد[3] والتهديد ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يا محمد ﴿شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾؛ أي: تشهد على هذه الأمم وتشهد لهم.

وقيل: على أمتك، وقد تقدّم مثل هذا في البقرة والنساء ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: القرآن.

والجملة مستأنفة أو في محلِّ نصبٍ[4] على الحال بتقدير قد ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾؛ أي: بياناً له، والتاء: للمبالغة، ونظيره من المصادر التَلْقاء، ولم يأت غيرهما. ومثل هذه الآية قوله سبحانه: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

ومعنى كونه ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾: أنّ فيه البيانَ لكثير من الأحكام، والإحالة فيما بقي منها على السُّنَّة، وأمرهم باتباع رسوله ﷺ فيما يأتي به من الأحكام، وطاعته كما في الآيات القرآنية الدالة على ذلك، وقد صحّ عنه ﷺ أنه قال: «إني أوتيتُ القرآن ومثلَه معه»[5] ﴿وَهُدًى﴾ للعباد ﴿وَرَحْمَةً﴾ لهم ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ خاصةً دون غيرهم، أو يكون الهدى والرحمة والبشرى خاصةً بهم؛ لأنهم المنتفعون بذلك.

ثم لما ذكر سبحانه أنَّ في القرآن تبيان كل شيء ذكر عقبه آية جامعة لأصول التكليف كلها تصديقاً لذلك فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾.

---

(١) «جامع البيان» (١٤/ ٣٣٠ ـ ٣٣١)، و«معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٣/ ٢١٦)، و«الوسيط» للواحدي (٢/ ٢٤٦).

(٢) «روح المعاني» (١٤/ ٢٥٨).

(٣) «مجمع البيان» (١٤/ ١١٣)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ٣٧٢).

(٤) «روح المعاني» (١٤/ ٢٦٢)، و«البحر المحيط» (٦/ ٥٨٢).

(٥) أخرجه أبو داود في «السنن» رقم (٤٦٠٤) من حديث المقدام بن معدي كرب. وهو حديث حسن.

وقد اختلف(١) أهل العلم في تفسير العدل والإحسان؛ فقيل: العدل: لا إلٰه إلّا الله، والإحسان: أداءُ الفرائض، وقيل: العدل: الفرض، والإحسان: النافلة، وقيل: العدل: استواء العلانية والسريرة، والإحسان: أن تكون السريرة أفضل من العلانية.

وقيل: العدل(٢): الإنصاف، والإحسان: التفضل.

والأولى تفسير العدل بالمعنى اللُّغوي وهو التوسط بين طرفي الإفراط والتفريط؛ فمعنى أمره سبحانه بالعدل: أَنْ يكون عباده في الدين على حالة متوسطة؛ ليست بمائلةٍ إلى جانب الإفراط وهو الغلوّ المذموم في الدين، ولا إلى جانب التفريط وهو الإخلال بشيء مما هو مِنْ الدين.

وأما الإحسان فمعناه اللُّغوي يرشد إلى أنه التفضّل بما لم يجب كصدقة التطوّع، ومِنْ الإحسان فعل ما يثاب عليه العبد مما لم يوجبه الله عليه في العبادات وغيرها، وقد صحّ عَنْ النبيّ ﷺ أنه فسر الإحسان بأن يعبد الله العبد حتى كأنه يراه، فقال في حديث ابن عمر(٣) الثابت في «الصحيحين»(٤): «والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، وهذا هو معنى الإحسان شرعاً.

﴿وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾؛ أي: إعطاء القرابة ما تدعو إليه حاجتهم، وفي الآية إرشادُ إلى صلة الأقارب، وترغيب في التصدق عليهم، وهو مِنْ باب عطف الخاص على العام إنْ كان إعطاء الأقارب قد دخل تحت العدل والإحسان.

وقيل: مِنْ باب عطف المندوب(٥) على الواجب، ومثل هذه الآية قوله: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ [الإسراء: ٢٦]. وإنما خصّ ذوي القربى لأنّ حقهم(٦) آكد، فإنّ الرحم قد اشتق الله اسمها مِنْ اسمه، وجعل صلتها من صلته وقطيعتها من

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٤١٢)، و«جامع البيان» (١٤/ ٣٣٥ ـ ٣٣٧).

(٢) «جامع البيان» (١٤/ ٣٣٦)، و«المحرر الوجيز» (١٠/ ٢٢٣ ـ ٢٢٤)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (٣/ ١١٦٠).

(٣) بل هو عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كما في مصادر التخريج.

(٤) أخرجه البخاري رقم (٥٠، ٤٧٧٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
وأخرجه مسلم في «صحيحه» رقم (١/ ٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٥) «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٤١٤)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٦٩ ـ ٢٧٠).

(٦) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٢/ ٤١٤).

قطيعته ﴿وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ هي الخَصْلة المتزايدة في القُبح مِنْ قول أو فعل.

وقيل: هي الزنا[(١)]؛ وقيل: البُخْل ﴿وَٱلۡمُنكَرِ﴾ ما أنكره الشرع بالنهي عنه، وهو يعمّ جميع المعاصي على اختلاف أنواعها، وقيل: هو الشرك ﴿و﴾ أما ﴿البَغْيُ﴾ فقيل: هو الكِبْر، وقيل: الظلم، وقيل: الحقد، وقيل: التعدّي، وحقيقته تجاوز الحدّ فيشمل هذه المذكورة ويندرج بجميع أقسامه تحت المنكر، وإنما خصّ بالذكر اهتماماً به لشدّة ضرره[(٢)] ووبال عاقبته، وهو مِنْ الذنوب التي ترجع على فاعلها لقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ﴾ [يونس: ٢٣]، وهذه الآية هي من الآيات الدالة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم ختم سبحانه هذه الآية بقوله: ﴿يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾؛ أي: يعظكم بما ذكره في هذه الآية مما أمركم به ونهاكم عنه، فإنّها كافية في باب الوعظ والتذكير، ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ إرادةَ أَنْ تتذكروا ما ينبغي تذكّره فتتعظوا بما وعظكم الله به.

وقد أخرَج عبدُ بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة[(٣)] في قوله: ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا﴾ قال: شهيدُها نبيّها على أنّه قد بلّغ رسالاتِ ربّه، قال الله: ﴿وَجِئۡنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾ قال: ذكر لنا أن نبيّ الله ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية فاضتْ عيناه.

وأخرج ابنُ جرير، وابنُ المنذر، وابنُ أبي حاتم عَنْ مجاهد[(٤)] في قوله: ﴿فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ﴾ قال: حدّثوهم.

وأخرج ابن المنذر[(٥)] عن ابن جريج ﴿وَأَلۡقَوۡاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوۡمَئِذٍ ٱلسَّلَمَۖ﴾ قال: اسْتَسلموا.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة[(٦)] نحوه.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٣٣٦) عن ابن عباس. بسند صحيح.

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٤١٤)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٧١)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (٣/ ١١٦١).

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٣٢٥ ـ ٣٢٨) بسند صحيح.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٣٢٩) بسند صحيح.

(٥) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ١٥٧).

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٣٣٠) بسند صحيح.

وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وهناد بن السرّي، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، والبيهقي في «البعث والنشور» عن ابن مسعود[1] في قوله: ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ قال: زِيدوا عقاربَ لها أنياب كالنخل الطِّوال.

وأخرج ابنُ مردويه والخطيب عن البراء[2]: «أَنَّ النبي ﷺ سئل عن قول الله تعالى: ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾، فقال: عقارب أمثال النخل الطوال، ينهشونهم في جهنم».

وأخرج أبو يعلى، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[3] في قوله: ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ قال: خمسة أنهار من نار صبها الله عليهم يعذبون ببعضها بالليل، وببعضها بالنهار.

وقد روى ابن مردويه من حديث جابر[4] عن النبيّ ﷺ قال: «الزيادة خمسةُ أَنْهار تجري مِنْ تحت العرش على رؤوس أهل النار: ثلاثة أنهار على مقدار الليل، ونهرانِ على مقدارِ النّهار» فذلك قوله: ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾.

وأخرج ابنُ جرير، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود[5] قال: إنّ الله أنزل في هذا الكتاب تبياناً لكل شيء، ولكنَّ علمَنا يقصر عمّا بيَّن لنا في القرآن، ثم قرأ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾.

وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد الله بن أحمد في «زوائد

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٦٢)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٣٣١)، والطبراني رقم (٩١٠٥)، والحاكم (٢/ ٣٥٥، ٣٥٦) ، وهنَّاد في «الزهد» رقم (٢٦٠)، وأبو يعلى في «مسنده» رقم (٢٦٥٩)، والبيهقي في «البعث والنشور» رقم (٦١٥) بسند صحيح.
وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٥١): «رواه الطبراني بأسانيد، رجال بعضها رجال الصحيح».

(٢) أخرجه الخطيب في «تاريخه» (٢/ ٥٢٣) بسند ضعيف جدّاً.

(٣) أخرجه أبو يعلى في «مسنده» رقم (٢٦٦٠) بسند صحيح ولكنه منقطع، فيه الحسن البصري وقد عنعن وفي سماعه من ابن عباس كلام.
قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٣٩٢): «ورجاله رجال الصحيح».

(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ١٥٨).

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٣٣٤) بسند ضعيف.

الزهد»، وابنُ الضريس في «فضائل القرآن»، ومحمد بن نصر في «كتاب الصلاة»، والطبراني والبيهقي في «الشعب» عن ابن مسعود[١] قال: مَنْ أراد العلم فليثّور القرآن، فإنّ فيه علمَ الأوّلين والآخرين.

وأخرج أحمد[٢] عَنْ عثمان بن أبي العاص قال: «كنتُ عند رسول الله ﷺ جالساً إذ شخَص بصرُه فقال: أتاني جبريل فأمرني أنْ أضع هذه الآية بهذا الموضع مِنْ السورة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ الآية». وفي إسناده شهر بن حوشب.

وقال ابن كثير[٣] في «تفسيره»: إسناده لا بأس به.

وقد أخرجه مطوّلاً أحمد، والبخاري في «الأدب»، وابنُ أبي حاتم، والطبراني، وابنُ مردويه مِنْ حديث ابن عباس[٤].

وحسّن ابن كثير[٥] إسنادَه.

وأخرج الباوردي، وابنُ السكن، وابن مَنْده، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» عَنْ عبد الملك بن عُمير[٦] أنّ هذه الآية لما بلغت أكثم بن صَيْفي حكيم العرب قال: إني أراه يأمر بمكارم الأخلاق، وينهى عَنْ ملائمها، ثُمّ قال لقومه: كونوا في هذا الأمر رؤوساً ولا تكونوا فيه أذناباً، وكونوا فيه أوّلاً ولا تكونوا فيه آخراً.

وأخرجَ ابنُ جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «الأسماء

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (١٠/ ٤٨٥) و(١٤/ ٩٤)، وعبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» (ص١٥٧)، والطبراني رقم (٨٦٦٤، ٨٦٦٥، ٨٦٦٦)، والبيهقي في «الشعب» رقم (١٩٦٠) بسند ليس بالقوي.
وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٦٧): «رواه الطبراني بأسانيد ورجال أحدها رجال الصحيح».

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» رقم (١٧٩١٨) بسند ضعيف؛ لضعف ليث بن أبي سليم، وشهر بن حوشب.

(٣) في «تفسيره» (٨/ ٣٤٦).

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» رقم (٢٩١٩)، والبخاري في «الأدب» رقم (٨٩٣)، والطبراني رقم (٨٣٢٢، ١٠٦٤٦) بسند ضعيف.

(٥) في «تفسيره» (٨/ ٣٤٦) حيث قال: إسناده لا بأس به، ولعله عند شهر بن حوشب من الوجهين.

(٦) أخرجه أبو نعيم في «معرفة الصحابة» (١/ ٣٠٩ رقم ١٠٦٣) بسند ضعيف.

والصفات» عَنْ ابن عباس[(١)] في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ [٣/١٥٧] قال: شهادةُ أن لا إلٰه إلّا الله، ﴿وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ أداءِ الفرائض ﴿وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ قال: إعطاء ذوي الأرحام الحق الذي أوجبه الله عليك بسبب القرابة والرحم ﴿وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ قال: الزنا ﴿وَٱلۡمُنكَرِ﴾ قال: الشرك ﴿وَٱلۡبَغۡيِۚ﴾ قال: الكِبْر والظلم ﴿يَعِظُكُمۡ﴾ قال: يُوصيكم ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾.

وأخرج سعيد بنُ منصور، والبخاري في «الأدب»، ومُحمّد بن نصر في «الصلاة»، وابنُ جرير، وابنُ المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصحّحه، والبيهقي في «الشعب» قال[(٢)]: أعظم آية في كتاب الله ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وأجمعَ آية في كتاب الله للخير والشر الآية التي في النحل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾. وأكثر آية في كتاب الله تفويضاً ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣]. وأشدّ آية في كتاب الله رجاءً ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ [الزمر: ٥٣] الآية.

وأخرج البيهقي في «الشعب» عَنْ الحسن[(٣)] أنه قرأ هذه الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ إلى آخرها ثم قال: إنَّ الله ﷻ جمع لكم الخير كلَّه والشرّ كله في آية واحدة، فوالله ما ترك العدلُ والإحسانُ مِنْ طاعة الله شيئاً إلّا جمعه، ولا ترك الفحشاءُ والمنكر والبغيُّ مِنْ معصية الله شيئاً إلّا جمعه.

وأخرج البخاريُّ في «تاريخه» مِنْ طريق الكلبي عَنْ أبيه[(٤)] قال: مرّ عليّ بن أبي طالب بقومٍ يتحدثون فقال: فيم أنتم؟ قالوا: نتذاكر المروءة، فقال: أو ما كفاكم الله ﷻ ذلك في كتابه إذ يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ فالعدل: الإنصاف، والإحسان: التفضُّل، فما بقي بعد هذا؟.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٣٣٥، ٣٣٦)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» رقم (٢٠٦) بسند صحيح.

(٢) أخرجه البخاري في «الأدب» رقم (٤٨٩)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٣٣٧)، والطبراني رقم (٨٦٥٨)، والحاكم (٢/ ٣٥٦)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٢٤٤٠). وهو أثر حسن. من قول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البيهقي في «الشعب» رقم (١٤٠).

(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ١٦٠).

[الوفاء بالعهود هي قاعدة الثقة التي ينفرط بدونها عقد الجماعة وينهدم]:

﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًاۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

خصّ سبحانه مِنْ جملة المأمورات التي تضمنها قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النحل: ٩٠] الوفاء[١] بالعهد فقال: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾ وظاهرُه العموم في كلِّ عهد يقع مِنْ الإنسان مِنْ غير فرق بين عهد البيعة وغيره، وخصّ هذا العهد المذكور في هذه الآية بعض المفسرين بالعهد الكائن في بيعة النبيّ ﷺ على الإسلام وهو خلاف ما يفيده العهد المضاف إلى اسم الله سبحانه مِنْ العموم الشامل[٢] لجميع عهود الله، ولو فُرض أنّ السبب خاص بعهد من العهود لم يكن ذلك موجباً لقصره على السبب، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وفسّره بعضهم باليمين، وهو مدفوع بذكر الوفاء بالأيمان بعده حيثُ قال سبحانه: ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾؛ أي: بعد تشديدها وتغليظها وتوثيقها، وليس المراد اختصاص النهي عن النقض بالأيمان المؤكدة، لا بغيرها مما لا تأكيد فيه، فإن تحريم النقض يتناول الجميع، ولكن في نقض اليمين المؤكدة مِنْ الإثم فوق الإثم الذي في نقض ما لم يوكد مِنْها، يقال: وكد[٣] وأكد توكيداً وتأكيداً، وهما لغتان.

---

(١) «جامع البيان» (١٤/ ٣٣٨)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٧٤).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٤١٦)، و«النكت والعيون» (٣/ ٢١٠).

(٣) «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ٢١٧)، و«الصحاح» (٢/ ٤٤٢)، و«مفردات ألفاظ القرآن» (ص٨٨٢).

وقال الزجاج[١]: الأصل الواو والهمزة بدل منها، وهذا العموم مخصوص بما ثبت في الأحاديث الصحيحة مِنْ قوله ﷺ فقال: «مَنْ حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليأت الذي هو خير وليكفّر عن يمينه»[٢]، حتى بالغ ﷺ في ذلك فقال: «والله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلّا أتيت الذي هو خير، وكفرّتُ عن يميني»[٣].

وهذه الألفاظ ثابتة في «الصحيحين» وغيرهما، ويخصّ أيضاً من هذا العموم يمين اللّغو لقوله سبحانه: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥، المائدة: ٨٩] ويمكن أنْ يكون التقييد بالتوكيد هنا لإخراج أيمان اللّغو، وقد تقدّم بسط الكلام على الأيمان في البقرة ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾؛ أي: شهيداً؛ وقيل: حافظاً؛ وقيل: ضامناً، وقيل: رقيباً لأنّ الكفيل يراعي حال المكفول به، وقيل: إن توكيد اليمين هو حلف الإنسان على الشيء الواحد مراراً.

وحكى القرطبي[٤] عن ابن عمر: أن التوكيد هو أن يحلف مرتين، فإنْ حلف واحدة فلا كفارة عليه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ فيجازيكم بحسب ذلك، إنْ خيراً فخير، وإنْ شرّاً فشرّ، وفيه ترغيب وترهيب. ثم أكد وجوب الوفاء وتحريم النقض فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾؛ أي: لا تكونوا فيما تصنعون من النقض بعد التوكيد كالتي نقضت غزلها؛ أي: ما غزلته ﴿مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾؛ أي: من بعد إبرام الغزل وإحْكامه، وهو متعلق بـ﴿نَقَضَتْ﴾، ﴿أَنكَٰثًا﴾ جمع نِكث ـ بكسر النون ـ ما ينكث فتله.

قال الزجاج[٥]: انتصب أنكاثاً على المصدر؛ لأنّ معنى نقضت: نكثت؛ وُردّ بأن أنكاثاً ليس بمصدر، وإنما هو جمع كما ذكرنا.

وقال الواحدي[٦]: هو منصوب على أنّه مفعول ثانٍ كما تقول: كسرته أقطاعاً

---

(١) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ٢١٧).
(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٦١)، والبخاري رقم (٦٦٢٢)، ومسلم رقم (١٩/ ١٦٥٢) من حديث عبد الرحمٰن بن سمرة رضي الله عنه.
(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٤٠١)، والبخاري رقم (٣١٣٣)، ومسلم رقم (٩/ ١٦٤٩) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.
(٤) في «تفسيره» (١٢/ ٤١٩).
(٥) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ٢٦٧).
(٦) في «الوسيط» (٣/ ٨٠).

وأجزاء؛ أي: جعلته أقطاعاً وأجزاء، ويحتمل أن يكون(١) حالاً.

قال ابنُ قتيبة: هذه الآية متعلقة بما قبلها، والتقدير: وأوفوا بعهد الله ولا تنقضوا الأيمان، فإنكم إن فعلتم ذلك كنتم مثل امرأة غزلت غزلاً وأحكمته ثم جعلته أنكاثاً.

وجملة ﴿تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ﴾ في محل(٢) نصب على الحال.

قال الجوهري(٣): والدَخَل: المَكْرُ والخديعة.

وقال أُبو عبيدة(٤): كلّ أمرٍ لم يكن صحيحاً فهو دَخَل، وقيل: الدَخَل: ما أُدخل في الشيء على فساده.

وقال الزجاج(٥): غشّاً وغلّاً.

﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍۚ﴾؛ أي: بأَنْ تكون جماعة هي أربى من جماعة؛ أي: أكثر عدداً مِنْها وأوفر مالاً. يقال: رَبا الشيء يَرْبو إذا كَثُر.

قال الفرّاء(٦): المعنى: لا تغدروا بقوم لقلّتهم وكثرتكم، أو لقلتكم وكثرتهم وقد عزرتموهم بالأيمان. قيل: وقد كانت قريش إذا رأوا شوكة في أعادي حلفائهم نقضوا عهدَهم وحالفوا أعداءهم.

وقيل: هو تحذير للمؤمنين أن يغترّوا بكثرة قريش وسعة أموالهم فَينْقِضوا بيعة النبيّ ﷺ. ﴿إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ﴾؛ أي: يختبركم بكونكم أكثر وأوفر، لينظر هل تتمسكون بحبل الوفاء أم تنقضون اغتراراً بالكثرة؟

فالضمير في «به» راجع إلى مضمون جملة: ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍۚ﴾؛ أي: إنما يبلوكم الله بتلك الكثرة ليعلم ما تصنعون، أو إنما يبلوكم الله بما يأمركم وينهاكم. ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ فيوضّح الحق والمحقين ويرفع درجاتهم، ويُبيّن الباطلُ والمبطلين فينزل بهم من العذاب ما يستحقونه، وفي هذا

---

(١) «التبيان» (٢/ ٨٠٥)، و«الفريد» (٣/ ٢٤٤).

(٢) «التبيان» (٢/ ٨٠٥)، و«الفريد» (٣/ ٢٤٥)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٧٩).

(٣) في «الصحاح» (٤/ ١٦٩٦).

(٤) في «مجاز القرآن» (١/ ٣٦٧) حيث قال: كل شيء وأمر لم يصح فهو دخلٌ.

(٥) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ٢١٧).

(٦) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١١٣).

إنذار وتحذير مِنْ مخالفة الحق والركون إلى الباطل، أو يبين لكم ما كنتم تختلفون فيه مِنْ البعث والجنّة والنار.

ثم بيّن سبحانه أَنّه قادر على أَنْ يجمع المؤمنين والكافرين على الوفاء أو على الإيمان فقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ متفقة على الحق ﴿وَلَٰكِن﴾ بحكم الإلٰهية ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ بخذلانه إيّاهم عدلاً منه فيهم ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ بتوفيقه إياهم فَضْلاً منه عليهم ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]. ولهذا قال: ﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ مِنْ الأعمال في الدنيا، واللام في ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ﴾، وفي ﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ﴾ هما الموطئتان[1] للقَسَم. ثم لمّا نهاهم سبحانه عن نقض مطلق الأَيمان نهاهم عَنْ نقض أيمان مخصوصة فقال: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ﴾ وهي أَيمان البيعة.

قال الواحدي[2]: قال المفسّرون: وهذا في نهي الذين بايعوا رسول الله ﷺ عَنْ نقض العهد على الإسلام ونصرة الدين، واستدلوا على هذا التخصيص بما في قوله: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ مِنْ المبالغة، وبما في قوله: ﴿وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ﴾ لأنهم إذا نقضوا العهد مع رسول الله ﷺ صدّوا غيرهم عن الدخول في الإسلام. وعلى تسليم أنّ هذه الأيمان مع رسول الله ﷺ هي سبب نزول هذه الآية، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

وقال جماعة من المفسرين[3]: إنّ هذا تكرير لما قبله لقصد التأكيد والتقرير.

ومعنى ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾: فتزلّ قدمُ مَنْ اتخذ يمينَه دَخَلاً عَنْ محجة الحق بعد ثبوتها عليها ورسوخها فيها، قيل: وأفرد القَدَم للإيذان بأنّ زلل قدم واحد أيّ قدمٍ كانت عزّت أو هانت محذور عظيم، فكيف بأقدام كثيرة؟! وهذا استعارة للمستقيم الحال يقع في شرّ عظيم، ويسقط فيه لأنّ القدم إذا زلت نقلت الإنسان من حال خير إلى حال شرّ، ويقال لمن أخطأ في شيء: زلّت به قدمُه، ومنه قول الشاعر:

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٤٢١)، و«البحر المحيط» (٦/ ٥٨٨).

(٢) في «الوسيط» (٣/ ٨١).

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٤٢١)، و«جامع البيان» (١٤/ ٣٤٤)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٨٤).

تداركتُما عَبْساً وقد ثلّ عرشُها   وذُبْيانَ قد زلّت بأقدامِها النعلُ

﴿وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ﴾؛ أي: تذوقوا العذابَ السيىء في الدنيا أو في الآخرة، أو فيهما بما صددتم ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾؛ أي: بسبب صدودكم أنتم عن سبيل الله وهو الإسلام، أو بسبب صدّكم لغيركم عَنْ الإسلام، فإنّ مَنْ نقض البيعة وارتدّ اقتدى به غيرُه في ذلك فكان فعله سُنَّة سيئةً عليه وزرُها ووزر مَنْ عمل بها ولهذا قال: ﴿وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾؛ أي: متبالغ في العِظَم، وهو عذاب الآخرة إن كان المراد بما قبله عذاب الدنيا.

ثم نهاهم سبحانه عن الميل إلى عَرَضِ[1] الدنيا، والرجوع عن العهد لأجله فقال: ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ﴾؛ أي: لا تأخذوا في مقابلة عهدكم عوضاً يسيراً حقيراً، وكلُّ عَرَضٍ دنيوي وإن كان في الصورة كثيراً فهو لكونه ذاهباً زائلاً [٣/١٥٨] يسير، ولهذا ذكر سبحانه بعد تقليل عَرَض الدنيا خيرية ما عند الله فقال: ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾؛ أي: ما عنده مِنْ النصر في الدنيا والغنائم والرزق الواسع، وما عنده في الآخرة من نعيم الجنة الذي لا يزول ولا ينقطع هو خير لهم. ثم علّل النهي عَنْ أن يشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً وأن ما عند الله هو خير لهم بقوله: ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾؛ أي: إنْ كنتم مِنْ أهل العلم والتمييز بين الأشياء.

ثم ذكر دليلاً قاطعاً على حقارة عَرَض الدنيا وخيرية ما عند الله فقال: ﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ﴾ ومعلوم لكل عاقل أنّ ما ينفد ويزول وإنْ بلغ في الكثرة إلى أي مبلغ فهو حقير يسير، وما كان يبقى ولا يزول فهو كثير جليل، أما نعيم الآخرة فظاهر، وأما نعيم الدنيا الذي أنعم الله به على المؤمنين فهو وإنْ كان زائلاً لكنّه لما كان متصلاً بنعيم الآخرة كان مِنْ هذه الحيثية في حكم الباقي الذي لا يَنْقطع.

ثم قال: ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ اللام هي الموطئة؛ أي: لنجزينهم[2] بسبب صبرهم على ما نالهم من مشاقّ التكليف وجهاد

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٤٢٢)، و«المحرر الوجيز» (١٠/ ٢٢٩)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٨٤).

(٢) «روح المعاني» (١٤/ ٢٨٥)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ٣٧٨).

الكافرين والصبر على ما ينالهم منهم مِنْ الإيذاء بأحسن ما كانوا يعملون من الطاعات.

قيل: وإنما خصّ[١] أحسنَ أعمالهم؛ لأنّ ما عداه وهو الحسن مباح، والجزاء إنما يكون على الطاعة.

وقيل: المعنى: ولنجزينّهم بجزاء أشرفَ وأوفرَ مِنْ عملهم كقوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾ [الأنعام: ١٦٠]، أو لنجزينهم بحسب أحسن أفراد أعمالهم على معنى لنعطينّهم بمقابلة الفرد الأعلى مِنْ أعمالهم المذكورة ما نعطيهم بمقابلة الفرد الأعلى منها مِنْ الجزاء الجزيل، لا أنا نعطي الأجر بحسب أفرادها المتفاوتة في مراتب الحسن بأن نجزي الحسن منها بالأجر الحسن، والأحسن بالأحسن، كذا قيل.

قرأ عاصم وابن كثير (لنجزين) بالنون[٢]. وقرأ الباقون بالياء[٣] التحتية.

وقد أخرج ابنُ جرير، وابن أبي حاتم عَنْ مَزِيدَة بن جابر[٤] في قوله: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ﴾ قال: أُنزلت هذه الآية في بيعة رسول الله ﷺ، كان من أسلم بايع على الإسلام، فقال: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾ الآية، فلا يحملنكم قلة محمد وأصحابه وكثرة المشركين أَنْ تنقضوا البيعة التي بايعتم على الإسلام.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد[٥] في قوله: ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا﴾ يقول: بعد تغليظها.

وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن قتادة[٦] نحوه.

---

(١) «روح المعاني» (١٤/ ٢٨٥)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ٣٧٨).

(٢) «النشر» (٢/ ٣٠٥)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٨٥)، و«البحر المحيط» (٦/ ٥٩١)، و«التيسير» (ص١٣٨). هما قراءتان متواترتان، وممّن قرأ بالنون ابن عامر في وجه عنه وأبو جعفر. انظر: «البدور الزاهرة» (٢/ ٢٦).

(٣) انظر: المصادر المتقدمة.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٣٣٨ ـ ٣٣٩) بسند ضعيف؛ لإرساله.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٣٣٩) بسند صحيح.

(٦) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ١٦١) وزاد نسبته إلى ابن جرير.

● أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٣٤٠) بسند صحيح.

وأخرج ابن أبي حاتم[١] عن سعيد بن جبير نحوه.

وأخرج ابن مردويه[٢] مِنْ طريق عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس: أن سعيدة الأسدية كانت تجمع الشّعَر واللِّيف، فنزلت فيها هذه الآية ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم[٣] عن أبي بكر بن حفص مثله، وفي الروايتين جميعاً أنَّها كانت مجنونة.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن السدّي[٤] في سبب نزول الآية قال: كانت امرأة بمكة تُسمّى خَرْقاء مكة كانت تغزل فإذا أبرمت غزلها نقضته.

وأخرج ابن جرير[٥] عن عبد الله بن كثير معناه.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[٦] في قوله: ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ قال: ناس أكثر مِنْ ناس.

وأخرجوا عن مجاهد[٧] في الآية قال: كانوا يحالفون الحلفاء فيجدون أكثر منهم وأعزّ، فينقضون حلف هؤلاء ويحالفون هؤلاء الذين هم أعزّ، فنُهوا عن ذلك.

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ

---

(١) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٩٩).
(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ١٦٢).
(٣) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٠٠).
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٣٤٢) بسند صحيح.
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٣٤٢) بسند ضعيف.
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٣٤٥) بسند صحيح.
(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٣٤٥) بسند صحيح.

بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

هذا شروع في ترغيب كل مؤمن في كلِّ عمل صالح، وتعميم للوعد؛ ومعنى ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾: مَنْ عمل عملاً صالحاً أي عملٍ كان، وزيادة التمييز بذَكَرٍ أو أُنْثى مع كون لفظ «مَنْ» شاملاً لهما لقصد التأكيد والمبالغة في تقرير الوعد؛ وقيل: إن لفظ «مَنْ» ظاهر في الذكور، فكان في التنصيص على الذكر والأنثى بيان لشموله للنوعين.

وجملة ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ في محل نصب[1] على الحال، جعل سبحانه الإيمان قيداً في الجزاء المذكور لأنّ عمل الكافر لا اعتداد به لقوله سبحانه: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

[الحياة الطيبة في الدنيا لا تنقص من الأجر الحسن في الأخرة]:

ثم ذكر سبحانه الجزاء لمن عمل ذلك العمل الصالح فقال: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ وقد وقع الخلاف في الحياة الطيبة بماذا تكون؟ فقيل: بالرزق الحلال. روي[2] ذلك عَنْ ابن عباس، وسعيد بن جبير، وعطاء، والضحاك.

وقيل: بالقناعة، قاله الحسن البصري، وزيد بن وهب، ووهب بن منبه.

وروي أيضاً[2] عَنْ عليّ وابن عباس.

وقيل: بالتوفيق إلى الطاعة، قاله الضحاك.

وقيل: الحياة الطيبة هي حياة الجنّة، روي عن مجاهد وقتادة وعبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم. وحكي عن الحسن[3] أنه قال: لا تطيب الحياة لأحد إلّا في الجنة.

---

(١) «التبيان» (٢/ ٨٠٦)، و«الدر المصون» (٧/ ٢٨٤)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٨٧).

(٢) انظر هذه الأقوال في: «جامع البيان» (١٤/ ٣٥٠ ـ ٣٥١)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٤٢٣ ـ ٤٢٤)، و«الوسيط» (٣/ ٨٢).

(٣) انظر: «الوسيط» للواحدي (٣/ ٨٢).

وقيل: الحياة الطيبة: هي السعادة، روي ذلك عن ابن عباس.

وقيل: هي المعرفة بالله، حكي ذلك عن جعفر الصادق(١).

وقال أبو بكر الوراق(٢): هي حلاوةُ الطاعة.

وقال سهل بن عبد الله التستري(٣): هي أَنْ ينزع عن العبد تدبير نفسه ويردّ تدبيره إلى الحق؛ وقيل: هي الاستغناء عَنْ الخلق والافتقار إلى الحق.

وأكثر المفسرين(٤) على أنّ هذه الحياة الطيبة هي في الدنيا لا في الآخرة؛ لأن حياة الآخرة قد ذكرت بقوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وقد قدّمنا قريباً تفسير الجزاء بالأحسن.

ووحّد الضمير في ﴿لنُحْيينَّه﴾ وجمعه في ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ حملاً على لفظ مَنْ وعلى معناه.

ثم لما ذكر سبحانه العمل الصالح والجزاء عليه أتبعه بذكر الاستعاذة التي تُخلّص بها الأعمال الصالحة عَنْ الوساوس الشيطانية فقال: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ والفاء لترتيب الاستعاذة على العمل الصالح، وقيل: هذه الآية متصلة بقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

والتقدير: فإذا أخذت في قراءته فاستعذْ. قال الزجاج(٥) وغيره من أئمة اللغة: معناه: إذا أردتَ أَنْ تقرأ القرآن فاستعذْ وليس معناه أستعذ بعد أن تقرأ القرآن، ومثله: إذا أكلت فقل: بسم الله.

قال الواحدي(٦): وهذا إجماع الفقهاء أَنَّ الاستعاذة قبل القراءة، إلّا ما روي عَنْ أبي هريرة، وابن سيرين، وداود، ومالك، وحمزة من القراء فإنهم قالوا: الاستعاذة(٧) بعد القراءة، ذهبوا إلى ظاهر الآية، ومعنى فاستعذ بالله: اسأله سبحانه أَنْ يعيذك مِنْ الشيطان الرجيم؛ أي: من وساوسه.

---

(١) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٣/ ٢١٢).

(٢) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٤٢٤)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٨٩).

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٢/ ٤٢٤).

(٤) «جامع البيان» (١٤/ ٣٥٤ ـ ٣٥٥)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٤٢٣)، و«الوسيط» (٣/ ٨٢).

(٥) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ٢١٨). (٦) في «الوسيط» (٣/ ٨٢ ـ ٨٣).

(٧) «أحكام القرآن» للكيا الطبري (٤/ ٢٤٥ ـ ٢٤٦). والمعروف عن حمزة هو الاستعاذة قبل القراءة انظر: «النشر» (١/ ٢٥٤).

وتَخْصيص قراءة القرآن مِنْ بين الأعمال الصالحة بالاستعاذة عند إرادتها للتنبيه على أَنّها لسائر الأعمال الصالحة عند إرادتها أهمّ؛ لأنّه إذا وقع الأمر بها عند قراءة القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه كانت عند إرادة غيره أولى، كذا قيل.

وتوجيه الخطاب إلى رسول الله ﷺ للإشعار بأنّ غيره أولى مِنْه بفعل الاستعاذة؛ لأنّه إذا أمر بها لدفع وساوس الشيطان مع عصمته، فكيف بسائر أمته؟ وقد ذهب الجمهور إلى أنّ الأمر في الآية للندب. وروي عَنْ عطاء الوجوب أخذاً بظاهر الأمر.

وقد تقدّم الكلام في الاستعاذة مُسْتوفى في أوّل هذا التفسير، والضمير في ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَـٰنٌ﴾ للشأن أو للشيطان؛ أي: ليس له تسلط ﴿عَلَى﴾ إغواء ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

وحكى الواحدي[1] عَنْ جميع المفسرين أنهم فسروا السلطان بالحُجة، وقالوا: المعنى ليس له حجة على المؤمنين في إغوائهم ودعائهم إلى الضلالة.

ومعنى ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يفوّضون أمورَهم إليه في كل قول وفعل، فإن الإيمان بالله والتوكل عليه يَمْنعان الشيطان مِنْ وسوسته لهم، وإنْ وسوس لأحدٍ منهم لا تؤثّر فيه وسوستُه، وهذه الجملة تعليل للأمر بالاستعاذة، وهؤلاء الجامعون بين الإيمان والتوكل هم الذين قال فيهم إبليس: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠] وقال الله فيهم: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢] ثم حصر سبحانه سلطان الشيطان، فقال: ﴿إِنَّمَا سُلْطَـٰنُهُۥ﴾؛ أي: تسلّطه على الإغواء ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾؛ أي: يتخذونه وليّاً ويُطيعونه في وساوسه ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ الضمير في «به» يرجع إلى الله تعالى؛ أي: الذين هم بالله مشركون؛ وقيل: يرجع إلى الشيطان؛ والمعنى: والذين هم مِنْ أجله [٣/١٥٩] وبسبب وسوسته مشركون بالله.

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾ هذا شروع منه سبحانه في حكاية شُبَه كفرية ودفعها.

---

(١) في «الوسيط» (٣/ ٨٤).

ومعنى التبديل[١]: رفعُ الشيء مع وضع غيره مكانَه، وتبديل الآية رفعها بأخرى غيرها، وهو نَسْخُها بآية سواها، وقد تقدّم الكلام في النسخ في «البقرة» ﴿قَالُوٓاْ﴾؛ أي: كفار قريش الجاهلون للحكمة في النسخ ﴿إِنَّمَآ أَنتَ﴾ يا محمد ﴿مُفۡتَرِۭ﴾؛ أي: كاذب[٢] مختلق على الله، متقوّل عليه بما لم يقل، حيثُ تزعم أنه أمرَك بشيء. ثم تزعم أنّه أمرك بخلافه، فردّ الله سبحانه عليهم بما يفيد جهلهم فقال: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ شيئاً مِنْ العلم أصلاً، أو لا يعلمون بالحكمة في النسخ، فإنه مبنيّ على المصالح التي يعلمها الله سبحانه، فقد يكون في شرع هذا الشيء مصلحة مؤقتة بوقت، ثم تكون المصلحة بعد ذلك الوقت في شرع غيره، ولو انكشف الغطاء لهؤلاء الكفرة لعرفوا أن ذلك وجه الصواب، ومنهج العدل والرفق واللطف.

ثم بيّن سبحانه لهؤلاء المعترضين على حكمة النسخ الزاعمين أن ذلك لم يكن من عند الله، وأن رسوله ﷺ افتراه فقال: ﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ﴾؛ أي: القرآن المدلول عليه بذكر الآية. ﴿رُوحُ ٱلۡقُدُسِ﴾؛ أي: جبريل، والقُدُس: التطهير.

والمعنى: نزّله الروحُ المُطَهر مِنْ أدناس البشرية، فهو من إضافة الصفة إلى الموصوف ﴿مِن رَّبِّكَ﴾؛ أي: ابتداء تنزيله مِنْ عنده سبحانه، و﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ في محل نصب على الحال؛ أي: مُتلبِّساً بكونه حقّاً ثابتاً لحكمة بالغة ﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ على الإيمان، فيقولون: كلٌّ مِنْ الناسخ والمنسوخ من عند ربنا، ولأنهم أيضاً إذا عرفوا ما في النسخ من المصالح ثبتت أقدامهم على الإيمان ورسخت عقائدهم.

وقُرئ (ليثْبُت)[٣] مِنْ الإثبات ﴿وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾ وهما معطوفان على محل ليثبت؛ أي: تثبيتاً لهم وهداية وبشارة، وفيه تعريض[٤] بحصول أضداد هذه الخصال لغيرهم.

ثم ذكر سبحانه شُبهةً أُخرى مِنْ شبههم فقال: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا

(١) «مفردات ألفاظ القرآن» (ص١١١).
(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٤٢٧)، و«جامع البيان» (١٤/ ٣٦٢).
(٣) «القراءات الشاذة» (ص٧٤)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٩٩)، و«البحر المحيط» (٦/ ٥٩٤). وهي قراءة شاذة.
(٤) «روح المعاني» (١٤/ ٢٩٩ ـ ٣٠٠).

﴿يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌۗ﴾ اللّام هي الموطئة؛ أي: ولقد نعلم أنّ هؤلاء الكفار يقولون: إنما يُعلّم محمداً القرآنَ بشرٌ مِنْ بني آدم غير مَلَكٍ.

وقد اختلف[١] أهل العلم في تعيين هذا البشر الذي زعموا عليه ما زعموا، فقيل: هو غلامُ الفاكه بن المغيرة، واسمه جَبْر، وكان نصرانيّاً فأسلم، وكان كفار قريش إذا سمعوا مِنْ النبي ﷺ أخبار القرون الأولى مع كونه أميّاً، قالوا: إنما يعلمه جَبْر، وقيل: اسمه يعيش، عبد لبني الحضرميّ، وكان يقرأ الكتب الأعجمية.

وقيل: غلام لبني عامر بن لؤيّ[٢]، وقيل: هما غلامان: اسم أحدهما يسار، واسم الآخر جَبْر، وكانا صيقليين يعملان السيوف، وكانا يقرآن كتاباً لهم؛ وقيل: كانا يقرآن التوراة والإنجيل، وقيل: عَنوا سلمان الفارسي؛ وقيل: عَنوا نصرانيّاً[٣] بمكة اسمه بَلْعام، وكان يقرأ التوراة؛ وقيل: عنوا رجلاً نصرانيّاً كان اسمه أبا ميسرة يتكلم بالرومية، وفي رواية اسمه عدّاس.

قال النحاس[٤]: وهذه الأقوال غير متناقضة؛ لأنّه يجوز أنهم زعموا أنهم جميعاً يعلمونه، ولكن لا يمكن الجمع باعتبار قول مَنْ قال: إنه سلمان؛ لأن هذه الآية مكية، وهو إنما أتى إلى النبي ﷺ بالمدينة. ثم أجاب سبحانه عن قولهم هذا فقال: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ﴾ الإلحاد: الميل، يقال: لحد وألحد؛ أي: مال عَنْ القصد. وقد تقدّم في الأعراف.

وقرأ حمزة والكسائي (يَلْحَدون) بفتح الياء[٥] والحاء.

وقرأ مَنْ عداهما بضم الياء[٦] وكسر الحاء؛ أي: لسان الذين يُميلون إليه ويزعمون أنّه يعلمك أعجميّ، يقال: رجل أعجم وامرأة عجماء؛ أي: لا يُفْصحان، والعُجْمة: الإخفاء، وهي ضدّ البيان، والعرب تسمي كلَّ مَنْ لا يعرف لغتهم ولا يتكلم بها أعجميّاً.

---

(١) «البحر المحيط» (٦/ ٥٩٥)، و«جامع البيان» (١٤/ ٣٦٦)، و«السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٣٩٣).
(٢) «جامع البيان» (١٤/ ٣٦٦)، و«تفسير الرازي» (٢٠/ ١١٧).
(٣) «النكت والعيون» (٣/ ٢١٥). (٤) في «معاني القرآن» (٤/ ١٠٧).
(٥) «التيسير» (ص١٣٨)، و«النشر» (٢/ ٢٧٣)، و«جامع البيان» (١٤/ ٣٦٩ ـ ٣٧٠)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٤٣٠). ومع حمزة والكسائي خلف.
(٦) انظر: المصادر المتقدمة.

قال الفرّاء[١]: الأعجم الذي في لسانه عُجْمة وإنْ كان من العرب، والأعجميّ: هو العجمي الذي أصله مِنْ العجم.

وقال أبو علي الفارسي[٢]: العَجَمي المنسوب إلى العَجَم الذي لا يفصح سواء كان مِنْ العرب أو من العجم، وكذلك الأعجم، والأعجمي المنسوب إلى العجم وإنْ كان فصيحاً ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ الإشارة إلى القرآن، وسمّاه لساناً لأن العرب تقول للقصيدة والبيت: لساناً، ومنه قول الشاعر:

لسانُ الشرِّ تهديها إلينا   وخُنْتَ وما حسِبتُك أنْ تخونا[٣]

أو أراد باللسان: البلاغة فكأنه قال: وهذا القرآن ذو بلاغة عربيةٍ وبيان واضح، فكيف تزعمون أن بشراً يُعلِّمه مِنْ العَجَم؟ وقد عجزتم أنتم عن معارضة سورة منه، وأنتم أهل اللسان العربي، ورجال الفصاحة وقادة البلاغة، وهاتان الجملتان مستأنفتان سيقتا لإبطال طعنِهم، ودفع كذبهم.

ولما ذكر سبحانه جوابهم وبّخهم وهدّدهم فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا يُصدّقون بها ﴿لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾ إلى الحق الذي هو سبيل النجاة هداية موصلة إلى المطلوب لما علم مِنْ شقاوتهم ﴿وَلَهُمْ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٤] بسبب ما هم عليه مِنْ الكفر والتكذيب بآيات الله. ثم لما وقع منهم نسبة الافتراء إلى رسول الله ﷺ ردّ عليهم بقوله: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ فكيف يقع الافتراء مِنْ رسول الله ﷺ، وهو رأسُ المؤمنين بها، والداعين إلى الإيمان بها؟ وهؤلاء الكفار هم الذين لا يؤمنون بها، فهم المفترون للكذب.

قال الزجاج[٤]: المعنى: إنما يفتري الكذبَ الذين إذا رأوا الآيات التي لا يقدر عليها إلّا الله كذّبوا بها، هؤلاءِ أكذبُ الكذبة، ثم سمّاهم الكاذبين. فقال: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: المتصفون بذلك ﴿هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ أي: إن الكذب نعتٌ لازم لهم وعادة مِنْ عادتهم فهم الكاملون في الكذب، إذ لا كذب أعظم من تكذيبهم بآيات الله.

وقد أخرَج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن

---

(١) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١١٣).
(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٢/ ٤٣٠).
(٣) «جامع البيان» (١٤/ ٣٧٠).
(٤) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ٢١٩).

المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[١] أنه سئل عن الحياة الطيبة المذكورة في الآية فقال: الحياة الطيبة: الرزقُ الحلال في هذه الحياة الدنيا، وإذا صار إلى ربه جازاه بأحسنَ ما كانَ يعمل.

وأخرج ابن أبي حاتم[٢] عنه قال: الكسْبُ الطيب، والعمل الصالح.

وأخرج العسكري في الأمثال[٣] عن عليّ في الآية قال: القناعة.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في «الشعب» مِنْ طُرُقٍ عن ابن عبّاس[٤] قال: القنوع، قال: «وكان رسول الله ﷺ يدعو اللَّهُمَّ قنعني بما رزقتني، وبارك لي فيه، واخلف عليّ كل غائبة لي بخير».

وأخرج أحمد، ومسلم، والترمذي، وابن ماجه عن ابن عمرو[٥] أن رسول الله ﷺ قال: «قد أفلح مَنْ أسلم، ورُزِق كفافاً، وقنّعه الله بما آتاه».

وأخرج الترمذي، والنسائي من حديث فضالة بن عُبيد[٦] أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «قد أفلح مَنْ هُدي إلى الإسلام، وكان عيشه كفافاً وقنع به».

وأخرج عبد الرزاق في «المصنف» وابن المنذر عن عطاء[٧] قال: الاستعاذة واجبة لكلِّ قراءة في الصلاة وغيرها مِنْ أجل قوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾.

وقد ورد في مشروعية الاستعاذة عند التلاوة ما لعلنا قد قدّمنا ذكره.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[٨] في قوله: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٣٥٠)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٦٠) بسند حسن.

(٢) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٠١).

(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٩/ ١١١).

(٤) أخرجه الحاكم (١/ ٥١٠) و(٦/ ٣٥٦)، والبيهقي في «الشعب» رقم (١٠٣٤٧) بسند ضعيف.

(٥) أخرجه أحمد رقم (٦٥٧٢)، ومسلم رقم (١٠٥٤)، والترمذي رقم (٢٣٤٨)، وابن ماجه رقم (٤١٣٥).

(٦) أخرجه الترمذي رقم (٢٣٤٩) والنسائي كما في «تحفة الأشراف» (٨/ ٢٦١ رقم ١١٠٣٣). وهو حديث صحيح.

(٧) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» رقم (٢٥٧٤).

(٨) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٣٥٩) بسند ضعيف.

﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ يقول: سلطان الشيطان على مَنْ تولى الشيطان، وعمل بمعصية الله.

وأخرج أبو داود في «ناسخه»، وابن مردويه، والحاكم وصححه عن ابن عباس[1] في قوله: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾ وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟﴾ [النحل: ١١٠] قال: عبد الله بن سعد بن أبي سرح كان يكتب لرسول الله ﷺ فأزلّه الشيطان فلحق بالكفار، فأمر به رسولُ الله أن يقتل يوم الفتح، فاستجار له عثمان رسول الله ﷺ فأجاره.

وأخرج ابنُ أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد[2] في قوله: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾ قال: هو كقوله: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦].

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه قال السيوطي[3] بسندٍ ضعيف عن ابن عباس[4] قال: كان رسول الله ﷺ يُعلِّم بمكة قَيناً اسمه بَلْعام، وكان أعجميّاً، فكان المشركون يرون رسول الله ﷺ يدخل عليه ويخرج مِنْ عنده، فقالوا: إنما يعلمه بَلْعام، فأنزل الله ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ﴾ الآية.

وأخرج الحاكم وصححه، والبيهقي في «شعب الإيمان»[5] عنه في الآية، قال: قالوا: إنما يُعلّم محمداً عبدُ بن الحضرمي وهو صاحب الكُتب، فأنزل الله هذه الآية.

وأخرج آدم بن أبي إياس، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن عبد الله بن مسلم[6] الحضرمي قال: كان لنا عبدان من أهل عين التّمْر، يقال لأحدهما: يسار والآخر: جَبْر، وكان يصنعان السيوف بمكة، وكانا

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣٥٦، ٣٥٧) وصحَّحه ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٣٦٣) عن قتادة. بسند صحيح.

(٣) في «الدر المنثور» (٥/ ١٦٧).

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٣٦٥) بسند ضعيف.

(٥) أخرجه الحاكم (٢/ ٣٥٧)، والبيهقي في «الشعب» رقم (١٣٧) بسند ضعيف.

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٣٦٧)، والبيهقي في «الشعب» رقم (١٣٦) بسند ضعيف.

يقرآن الإنجيل، فربما مرّ بهما النبي ﷺ وهما يقرآن فيقف ويَسْتَمع، فقال المشركون: إنّما يتعلم منهما، فنزلت هذه الآية.

[الحكم الدافع لمن أُكره وقلبه مطمئن بالإيمان]:

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾.

قوله: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ [٣/١٦٠] مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾ قد اختلف أهلُ العلم في إعرابه، فذهب الأكثرون على أنه بدل[1] إما ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٠٤] وما بينهما اعتراض، والمعنى: إنما يفتري الكذب من كفر، واستثنى منهم المُكْرَه فلا يدخل تحت حكم الافتراء. ثم قال: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾ أي: اعتقده وطابتْ به نفسُه واطمأن إليه ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾. وإمّا مِنْ المبتدأ الذي هو ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ [النحل: ١٠٥] أو من الخبر الذي هو ﴿ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [النحل: ١٠٥].

وذهب الزجاج[2] إلى الأوّل. وقال الأخفش[3]: إن «مَنْ» مبتدأ وخبره محذوف اكتفي منه بخبر «مَنْ» الثانية كقولك: مَنْ يأتنا منكنّ نكرمه.

وقيل: هو؛ أي: «مَنْ» في ﴿مَن كَفَرَ﴾ منصوب[4] على الذمّ؛ وقيل: إن «مَنْ» شرطية والجواب محذوف لأنّ جواب ﴿مَّن شَرَحَ﴾ دالّ عليه، وهو كقول

---

(١) «الدر المصون» (٧/ ٢٨٨)، و«الفريد» (٣/ ٢٤٧)، و«التبيان» (٢/ ٨٠٧)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٠٩).

(٢) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ٢١٩). (٣) في «معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٦٠٨).

(٤) «التبيان» (٢/ ٨٠٧)، و«الفريد» (٣/ ٢٤٧)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٠٩).

الأخفش، وإنما خالفَه في إطلاق لفظ الشرط على مَنْ والجواب على خبرها، فكأنه قيل على هذا: مَنْ كفر بالله فعليهم غضبٌ إلّا مَنْ أُكره، ولكنْ مَنْ شرح بالكفر صدراً فعليهم غضبٌ، وإنما صح استثناء المُكْرَه مِنْ الكافر مع أنه ليس بكافر؛ لأنه ظهر منه بعد الإيمان ما لا يظهر إلّا مِنْ الكافر لولا الإكراه.

[ما حكم مَنْ أكره على الكفر؟]:

قال القرطبي[(١)]: أجمع أهل العلم على أَنَّ مَنْ أكره على الكفر حتى خشي على نفسه القتل أنّه لا إثمَ عليه إنْ كفر وقلبه مطمئن بالإيمان، ولا تبين منه زوجتُه، ولا يحكم عليه بحكم الكفر.

وحُكي عَنْ محمد بن الحسن[(٢)] أنه إذا أظهر الكفر كان مرتدّاً في الظاهر، وفيما بينه وبين الله على الإسلام، وتبين منه امرأتُه، ولا يُصلّى عليه إنْ مات، ولا يرث أباه إنْ مات مسلماً، وهذا القول مَردود[(٣)] على قائله، مدفوع بالكتاب والسُنَّة.

وذهب الحسن البصري[(٤)]، والأوزاعي، والشافعي، وسحنون إلى أن هذه الرخصة المذكورة في هذه الآية إنما جاءت في القول، وأما في الفعل فلا رخصة، مثل أَنْ يكره على السجود لغير الله ويدفعه ظاهر الآية، فإنها عامة فيمن أكره من غير فرق بين القول والفعل، ولا دليل لهؤلاء القاصرين للآية على القول، وخصوص[(٥)] السبب لا اعتبار به مع عموم اللفظ كما تقرر في علم الأصول.

وجملةُ ﴿وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ في محلٍّ نصبٍ[(٦)] على الحال من المستثنى؛ أي: إلّا مَنْ كَفر بإكراه، والحال أنّ قلبه مطمئن بالإيمان لم تتغير عقيدته، وليس بعد هذا الوعيد العظيم وهو الجمعُ للمرتدين بين غضب الله وعظيم عذابه.

والإشارةُ بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى الكفر بعد الإيمان، أو إلى الوعيد بالغضب والعذاب.

---

(١) في «تفسيره» (١٢/ ٤٣٥).

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٢/ ٤٣٥).

(٣) انظر: «جامع البيان» (١٤/ ٢٧٢ ـ ٢٧٣)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (٣/ ١١٦٨ ـ ١١٦٩)، و«الإشراف» (٢/ ٢٤٥).

(٤) «فتح الباري» (١٢/ ٣١٤)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (٣/ ١١٦٩).

(٥) تقدم ذكره.

(٦) «الدر المصون» (٧/ ٢٩٠)، و«الفريد» (٣/ ٢٤٨)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٠٩).

والباء في ﴿بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ للسببية[١]؛ أي: ذلك بسبب تأثيرهم للحياة الدنيا ﴿عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ معطوف على ﴿أنهُمُ استَحَبُّوا﴾ أي: ذلك بأنهم استحبّوا، وبأن الله لا يهدي القوم الكافرين إلى الإيمان به، ثم وصفهم بقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أي: الموصوفون بما ذكر مِنْ الأوصاف القبيحة ﴿ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾ فلم يفهموا المواعظ ولا سمعوها، ولا أبصروا الآيات التي يستدل بها على الحق.

وقد سبق تحقيق الطبع في أوّل البقرة، ثم أثبت لهم صفةَ نقصٍ غير الصفة المتقدّمة فقال: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ عمّا يراد بهم، وضمير الفصل يفيد أنهم متناهون في الغفلة، إذ لا غفلة أعظم من غفلتهم هذه ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي: الكاملون في الخُسْران البالغون إلى غاية منه ليس فوقها غاية.

وقد تقدّم تحقيق الكلام في معنى ﴿لَا جَرَمَ﴾ في مواضع منها ما هو في هذه السورة ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟﴾ مِنْ دار الكفر إلى دار الإسلام، وخبر «إنّ» محذوف[٢]، والتقدير لغفور رحيم، وإنما حذف لدلالة خبر (إنّ ربك) المتأخرة عليه.

وقيل: الخبر هو ﴿لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟﴾ أي: إنّ ربك لهم بالولاية والنصرة لا عليهم، وفيه بُعدٌ؛ وقيل: إنّ خبرها هو قوله: ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، و﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الثانية تأكيد للأولى.

قال في «الكشّاف»[٣]: «ثُم» ها هنا للدلالة على تباعد حال هؤلاء، يعني: الذين نزلت الآية فيهم عَنْ حال أولئك، وهم عَمّار وأصحابه.

ويدل على ذلك ما روي أَنّها نزلت في عبد الله بن أبي سَرْح، وسيأتي بيان ذلك.

﴿مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟﴾ أي: فتنهم الكفار بتعذيبهم لهم ليرجعوا في الكفر، وقرئ[٤] «فَتَنوا» على البناء للفاعل؛ أي: الذين فَتَنوا المؤمنين وعذّبوهم على الإسلام

---

(١) «روح المعاني» (١٤/ ٣١٣)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ٣٨٤).
(٢) «الفريد» (٣/ ٢٤٨)، و«التبيان» (٢/ ٨٠٨).
(٣) (٣/ ٤٧٧).
(٤) وهي قراءة متواترة عن ابن عامر، وباقي العشرة قرأوا (فُتِنوا) على البناء للمفعول.

﴿ثُمَّ جَاهَدُوا﴾ في سبيل الله ﴿وَصَبَرُوا﴾ على ما أصابهم من الكفار، وعلى ما يلقونه من مشاق التكليف ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: كثير الغفران والرحمة لهم.

ومعنى الآية على قراءة مَنْ قرأ (فَتَنوا) على البناء[1] للفاعل واضح ظاهر أي: إنّ ربَّك لهؤلاء الكفار الذين فَتنوا مَنْ أسلمَ وعذّبوهم ثم جاهدوا وصبروا لغفور رحيم.

وأمَّا على قراءة البناء للمفعول وهي قراءة الجمهور[2]، فالمعنى: أن هؤلاء المفتونين الذين تَكلّموا بكلمة الكفر مُكْرهَين، وصدورهم غير منشرحة للكفر إذا صلحت أعمالُهم، وجاهدوا في الله، وصبروا على المكاره لغفور لهم، رحيم بهم.

وأما إذا كان سبب الآية هذه هو عبد الله بن أبي سَرْح الذي ارتدّ عن الإسلام ثم رجع بعد ذلك إلى الإسلام، فالمعنى: أَنَّ هذا المفتون في دينه بالردّة إذا أسلم وجاهد وصبر فالله غفور له رحيم به.

والضمير في ﴿بَعْدِهَا﴾ يرجع إلى الفتنة أو إلى المهاجرة والجهاد والصبر، أو إلى الجميع. ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾.

قال الزجّاج[3]: ﴿يَوْمَ تَأْتِي﴾ منتصب بقوله: ﴿رَّحِيمٌ﴾، أو بإضمار اذكر، أو ذكّرهم، أو أنذرهم، وقد استشكل إضافة ضمير النفس إلى النفس، ولا بدّ من التغاير بين المضاف والمضاف إليه.

وأجيب بأنَّ المراد بالنفس الأولى جملة بدن الإنسان، وبالنفس الثانية الذات؛ فكأنه قيل: يوم يأتي كل إنسان يجادل عَنْ ذاته لا يهمه غيرها، ومعنى المجادلة عنها: الاعتذار عَنْها، فهو مجادل ومخاصم عَنْ نفسه لا يتفرّغ لغيرها يوم القيامة.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس[4] قال: لمّا أراد رسول الله ﷺ أَنْ يُهاجر إلى المدينة قال لأصحابه: «تفرّقوا عني فمن كانت به قوّة فليتأخر إلى آخر الليل، ومَنْ لم تكن به قوّة فليذهب في أوّل الليل، فإذا

---

(١) «الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ٤١)، و«النشر» (٢/ ٣٠٥)، و«التيسير» (ص١٣٨)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣١٥).

(٢) انظر: المصادر المتقدمة.

(٣) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ٢٢٠ ـ ٢٢١).

(٤) عزاه إليهم السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ١٦٥).

سمعتم بي قد استقرّتْ بي الأرض فألحقوا بي، فأصبح بلالٌ المؤذن، وخَبّاب، وعمّار، وجارية مِنْ قريش كانت أسلمتْ، فأخذهم المشركون وأبو جهل، فعرضوا على بلال أَنْ يكفر فأبى، فجعلوا يضعون دِرْعاً من حديد في الشمس ثم يلبسونها إياه، فإذا ألبسوها إيّاه قال: أَحْد أَحْد، وأما خَبّاب فجعلوا يجرّونه في الشوك، وأما عمّار فقال لهم كلمة أعجبتهم تَقيّةً، وأما الجارية فوتد لها أبو جهل أربع أوتاد، ثم مدّها فأدخل الحربة في قُبلها حتّى قتلها، ثم خَلّوا عَنْ بلال وخَبّاب وعَمّار فلحقوا برسول الله ﷺ فأخبروه بالذي كان مِنْ أمرهم، واشتدّ على عمّار الذي كان تكلم به. فقال له رسول الله ﷺ: كيفَ كان قلبُك حينَ قلت الذي قلت؟ أكان منشرحاً بالذي قلتَ أم لا؟ قال: لا، فأنزل الله ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾».

وأخرج عبد الرزاق، وابن سعد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصحّحه، وابن مردويه، والبيهقي، وابنُ عساكر مِنْ طريق أبي عُبيدة بن محمد بن عمّار(١) عَنْ أبيه، قال: أخذ المشركون عمّار بن ياسر فلم يتركوه حتى سبَّ النبيّ ﷺ وذكر آلهتهم بخير فتركوه، فلما أتى النبيّ ﷺ قال: «ما وراءك؟» قال: شَرٌّ، ما تُركتُ حتى نلتُ مِنك وذكرتُ آلهتهم بخير، قال: «كيفَ تجد قلبَك؟» قال: مطمئناً بالإيمان. قال: «إنْ عادوا فعُدْ». فنزلت ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ قال: ذاك عمار بن ياسر ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾ عبد الله بن أبي سَرْح.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن عساكر عن أبي مالك(٢) في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ قال: نزلت في عمار بن ياسر، وفي الباب روايات مصرّحة بأنها نزلت في عمار بن ياسر.

وأخرج ابن أبي حاتم(٣) عن محمد بن سيرين قال: نزلت هذه الآية ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ في عيّاش بن أبي ربيعة.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٦٠)، وابن سعد في «الطبقات» (٣/ ٢٤٩)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٣٧٤، ٣٧٥)، والحاكم (٢/ ٣٥٧)، والبيهقي في «الدلائل» (٨/ ٢٠٨، ٢٠٩)، وابن عساكر في «تاريخه» (٤٣/ ٣٧٣، ٣٧٤) مرسلاً.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (١٢/ ١٢١)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٣٧٥)، وابن عساكر (٤٣/ ٣٧٥) مرسلاً. بسند صحيح.

(٣) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٠٤).

وأخرج ابنُ مردويه من طريق عكرمة عن ابن عباس[١] قال: في سورة النحل ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ثم نُسخ واستثنى مِنْ ذلك فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ﴾ الآية قال: وهو عبد الله بن أبي سَرْح الذي كان يكتب لرسول الله ﷺ، فأزلّه الشيطان فلحق بالكفار. فأمر به النبيّ ﷺ أن يُقتلَ يوم فتح مكة، فاستجار له عثمان بن عفان فأجاره النبيّ ﷺ.

وأخرج ابن جرير[٢] عن عكرمة والحسن مثله.

وأخرج ابن مردويه، والبيهقي في «سننه» عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ﴾ فيمن كان يُفْتن من أصحاب النبيّ ﷺ.

[٣/١٦١] وأخرج ابن مردويه[٣] عنه قال: كان قوم مِنْ أهل مكة قد أسلموا وكانوا يستخفّون بالإسلام فنزلت فيهم ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ الآية، فكتبوا إليهم بذلك: إنّ الله قد جعل لكم مخرجاً فأخرجوا، فأدركهم المشركون فقاتلوهم فنجا مَنْ نجا، وقُتل مَنْ قُتل.

وأخرج ابن أبي شيبة[٤] عن الحسن: أن عيوناً لمسيلمة أخذوا رَجُلين من المسلمين فأتوه بهما، فقال لأحدهما: أَتشهد أَنّ محمداً رسول الله؟ قال: نعم. قال: أتشهد أني رسول الله؟ فأهوى إلى أذنيه فقال: إنّي أَصمّ، فأمر به فقُتل؛ وقال للآخر: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم، قال: أتشهد أني رسول الله؟ قال: نعم، فأرسله فأتى النبيّ ﷺ فقال له: «أَمّا صاحبُك فمضى على إيمانه، وأَمّا أنتَ فأخذت بالرخصة»، وهو مرسل.

---

(١) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ١٧٢).
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٣٨٠، ٣٨١) بسند ضعيف.
(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ١٧٢).
(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٢/ ٣٥٧) مرسلاً.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ
فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ
جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ
حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ
وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ
ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى
ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ
إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا
لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾.

قوله: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً﴾ قد قدّمنا أن (ضرب) مُضمّن[(١)] معنى جَعَل حتى تكون ﴿قَرْيَةً﴾ المفعول الأوّل و﴿مَثَلًا﴾ المفعول الثاني، وإنما تأخرت ﴿قَرْيَةً﴾ لئلا يقع الفصل بينها وبين صفاتها.

وقدّمنا أيضاً أنه يجوز أن يكون ﴿ضَرَبَ﴾ على بابه غير مُضمّن ويكون ﴿مَثَلًا﴾ مفعوله الأوّل و﴿قَرْيَةً﴾ بدلاً منه.

[الأكثرون على تعيين القرية بمكة]:

وقد اختلف المفسرون: هل المراد بهذه القرية قرية معينة، أو المراد قرية غير معينة؟ بل كل قوم أنعم الله عليهم فأبطرتهم النعمة؟ فذهب الأكثر إلى الأول وصرّحوا بأنّها مكة[(٢)]، وذلك لما دعا عليهم رسول الله ﷺ وقال: «اللَّهُمَّ اشدد وطأتك على مُضَر، واجْعلها عليهم سنينَ كسني يوسف»[(٣)]، فابتُلوا بالقَحْط حتى أكلوا العِظام.

---

(١) «التبيان» (٢/ ٨٠٣)، و«الفريد» (٣/ ٢٤١).

(٢) «جامع البيان» (١٤/ ٣٨٢)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٤٥٣)، و«معالم التنزيل» (٣/ ٨٨)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٢٠)، و«المحرر الوجيز» (١٠/ ٢٤١).

(٣) أخرجه البخاري في «صحيحه» رقم (١٠٠٧)، ومسلم رقم (٢٧٩٨) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

وأخرجه البخاري رقم (٦٢٠٠)، ومسلم رقم (٦٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والثاني أَرجح لأنَّ تنكير[١] قرية يفيد ذلك، ومكة تدخل في هذا العموم البدليّ دخولاً أوّليّاً، وأيضاً يكون الوعيد أبلغ، والمثل أكمل، وغير مكة مثلها.

وعلى فرض إرادتها ففي المثل إنذارٌ لغيرها مِنْ مثل عاقبتها.

ثم وصف القرية بأنّها ﴿كَانَتۡ ءَامِنَةً﴾ غير خائفة ﴿مُّطۡمَئِنَّةً﴾ غير منزعجة؛ أي: لا يخاف أهلُها ولا ينزعجون ﴿يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا﴾ أي: ما يرتزق به أهلها ﴿رَغَدًا﴾ واسعاً ﴿مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ من الأمكنة التي يجلب ما فيها إليها ﴿فَكَفَرَتۡ﴾ أي: كفر أهلُها ﴿بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ﴾ التي أنعم بها عليهم، والأنعم: جمع نِعْمة كالأشدّ جمع شِدّة، وقيل: جمع نُعْمى مثل بؤسى وأبؤس.

وهذا الكفر منهم هو كفرهم بالله سبحانه وتكذيب رسله ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ﴾ أي: أذاق أهلها ﴿لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ﴾ سُمّي ذلك لباساً؛ لأنه يظهر به عليهم من الهزال وشحوبة اللون وسوء الحال ما هو كاللباس، فاستعير[٢] له اسمّه وأوقع عليه الإذاقة، وأصلها الذوق بالفم، ثم استعيرت لمطلق الاتصال مع إنبائها بشدّة الإصابة لما فيها من اجتماع الإدراكين: إدراك اللمس، والذوق.

رُوي أَنَّ ابن الراوندي الزنديق قال لابن الأعرابي ـ إمام اللُّغة والأدب ـ: هل يُذاق اللباس؟ فقال له ابن الأعرابي: لا بأس أيها النسناس، هبّ أن محمداً ما كان نبيّاً أَمَا كان عربيّاً؟ كأنّه طعن في الآية بأنّ المناسب أن يقال: فكساها الله لباس الجوع، أو فأذاقها الله طعم الجوع، فرد عليه ابن الأعرابي.

وقد أجاب علماءُ البيان[٣] أن هذا مِنْ تجريد الاستعارة، وذلك أنه استعار[٤] اللّباس لما غشي الإنسان مِنْ بعض الحوادث كالجوع والخوف لاشتماله عليه اشتمال اللباس على اللابس، ثم ذكر الوصف ملائماً للمستعار له وهو الجوع والخوف؛ لأن إطلاق الذوق على إدراك الجوع والخوف جرى عندهم مجرى الحقيقة، فيقولون: ذاق فلان البؤس والضر وأذاقه غيره، فكانت الاستعارة مجرّدة. ولو قال فكساها كانت مرشحة.

---

(١) «البحر المحيط» (٦/ ٦٠٢، ٦٠٣)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٢٠).
(٢) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (١٤/ ٣٢١)، والنحاس في «معاني القرآن» (٤/ ١٠٩).
(٣) «المطوّل» (ص٥٧٩ ـ ٥٨١).
(٤) انظر: «الكشاف» (٣/ ٤٧٨ ـ ٤٨٠).

قيل: وترشيح[١] الاستعارة وإنْ كان مستحسناً من جهة المبالغة إلّا أن للتجريد ترجيحاً من حيث إنّه رُوعي جانب المستعار له فازداد الكلام وضوحاً؛ وقيل: إن أصل الذوق بالفم، ثم قد يستعار فيوضع موضع التعرف والاختبار، ومن ذلك قول الشاعر:

ومَنْ يذُق الدنيا فإني طَعِمْتُها وسيق إلينا عذبُها وعَذابُها

وقرأ حفص بن غياث ونصر بن عاصم وابن أبي إسحاق وأبو عَمْرو[٢] فيما روى عنه عبد الوارث بنصب[٣] (الخوف) عطفاً على لباس، وقرأ الباقون بالضم[٤] عطفاً على الجوع.

قال الفرّاء[٥]: كل الصفات أجريت على القرية إلّا قوله: ﴿يَصْنَعُونَ﴾ تنبيهاً على أن المراد في الحقيقة أهلها ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ﴾ يعني: أهل مكة ﴿رَسُولٌ مِّنْهُمْ﴾ من جنسهم يعرفونه ويعرفون نسَبه، فأمرهم بما فيه نفعهم ونهاهم عما فيه ضرهم ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فيما جاء به ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ النازل[٦] بهم من الله سبحانه، والحال أنهم في حال أخذ العذاب لهم ﴿ظَٰلِمُونَ﴾ لأنفسهم بإيقاعها في العذاب الأبديّ ولغيرهم بالإضرار بهم، وصدّهم عن سبيل الله، وهذا الكلام من تمام المثل المضروب، وقيل: إن المراد بالعذاب هنا هو الجوع الذي أصابهم.

وقيل: القتل يوم بدر، ثم لما وعظهم الله سبحانه بما ذكروه من حال أهل القرية المذكورة أمرهم أنْ يأكلوا مما رزقهم الله من الغنائم ونحوها، وجاء بالفاء للإشعار بأنّ ذلك متسبب عن ترك الكفر.

---

(١) انظر: «المطوّل» (ص٥٨٠)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٢١ ـ ٣٢٤).
(٢) وذلك بخلاف عنه.
(٣) «البحر المحيط» (٦/ ٦٠٤)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٢٣)، و«المحرر الوجيز» (١٠/ ٢٤٢)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٤٥٣).
(٤) انظر: المصادر المتقدمة. هذه الكلمة كانت مكتوبة بالضم، ثم صححها المؤلف فتقرأ «بالكسر» وهو الموافق لقراءة القراء وقراءة العشرة بالخفض: أي بكسر كلمة الخوف وأما النصب فشاذ. وهي رواية شاذة عن أبي عمرو.
(٥) في «معاني القرآن» له (٢/ ١١٤).
(٦) «جامع البيان» (١٤/ ٢٨٦ ـ ٢٨٧)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٢٥).

والمعنى: أنّكم لما آمنتم وتركتم الكفر فكلوا الحلال الطيب وهو: الغنيمةُ واتركوا الخبائث: وهو الميتةُ والدم ﴿وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ التي أنعم بها عليكم واعرفوا حقها ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ ولا تعبدون غيره، أو إن صحّ زعمكم أنكم تقصدون بعبادة الآلهة التي زعمتم عبادة الله تعالى.

وقيل: إنّ الفاء في ﴿فَكُلُوا﴾ داخلة[1] على الأمر بالشكر، وإنما أدخلت على الأمر بالأكل لأنّ الأكل ذريعة إلى الشكر ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ كرّر سبحانه ذكر هذه المحرمات في البقرة والمائدة والأنعام وفي هذه السورة قطعاً للأعذار، وإزالة للشُبْهة، ثم ذكر الرخصة في تناول شيء مما ذكر فقال: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وقد تقدّم الكلام على جميع ما هو مذكور هنا مستوفى.

ثم زيّف طريقةَ الكفار في الزيادة على هذه المحرمات كالبحيرة والسائبة وفي النقصان عنها كتحليل الميتة والدّم فقال: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ﴾.

قال الكسائي[2]، والزجاج[3]: ما هنا مصدرية[4] وانتصاب الكذبَ بلا تقولوا؛ أي: لا تقولوا الكذبَ لأجل وصف ألسنتكم.

ومعناه: لا تُحرّموا ولا تحلّلوا لأجل قولٍ تنطق به ألسنتُكم من غير حجة، ويجوز أن تكون «ما» موصولة[5] والكذب منتصب بتصف؛ أي: لا تقولوا للذي تصف ألسنتكم الكذبَ فيه ﴿هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ فحذف لفظة «فيه» لكونه معلوماً، فيكون قوله: ﴿هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ بدلاً مِنْ ﴿الْكَذِبَ﴾، ويجوز أَنْ يكون في الكلام حذف بتقدير القول؛ أي: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ﴾ فتقول: ﴿هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾، أو قائلة: هذا حلالٌ وهذا حرام، ويجوز أَنْ ينتصب ﴿الْكَذِبَ﴾ أيضاً

---

(١) «روح المعاني» (١٤/ ٣٢٦)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ٣٩٠).

(٢) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (١٤/ ٣٢٩).

(٣) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ٢٢٢).

(٤) «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٤١٠)، و«التبيان» (٢/ ٨٠٩)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٢٩)، و«الفريد» (٣/ ٢٥٠).

(٥) انظر: المصادر المتقدمة.

بتصف، وتكون «ما» مصدرية؛ أي: لا تقولوا هذا حلال وهذا حرام لوصف ألسنتكم الكذبَ.

وقُرئ (الكُذُبُ) بضم الكاف[١] والذال والباء على أنّه نَعْتٌ للألسنة، وقرأ الحسَنُ بفَتح الكاف[٢] وكسر الذال والباء نعتاً لـ «ما».

وقيل: على البدل مِنْ «ما»؛ أي: ولا تقولوا الكذبَ الذي تصفه ألسنتُكم هذا حلال وهذا حرام، واللَّام في ﴿لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ﴾ هي لام العاقبة لا لام العرض؛ أي: فيتعقب ذلك افتراؤكم على الله الكذب بالتحليل والتحريم وإسناد ذلك إليه مِنْ غير أن يكون منه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾؛ أي افتراءٍ كان ﴿لَا يُفۡلِحُونَ﴾ بنوع مِنْ أنواع الفلاح، وهو الفوزُ بالمطلوب، وارتفاع ﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ﴾ على أنه خبر مبتدأ[٣] محذوف.

قال الزجّاج[٤]: أي: متاعهم متاع قليل، أو هو مبتدأ خبره محذوف؛ أي: لهم متاعٌ قليل ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ يردّون إليه في الآخرة. ثُمّ خصّ محرمات اليهود بالذكر فقال: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا﴾ أي: حرّمنا عليهم خاصةً دون غيرهم ﴿مَا قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ﴾ بقولنا: ﴿حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ﴾ الآية [الأنعام: ١٤٦]، ﴿مِن قَبۡلُۖ﴾ متعلق بـ ﴿قَصَصۡنَا﴾ أو بـ ﴿حَرَّمۡنَا﴾، ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ﴾ بذلك التحريم؛ بل جزيناهم ببغيهم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ حيث فعلوا [٣/١٦٢] أسباب ذلك فحرّمنا عليهم تلك الأشياء عقوبة لهم.

ثم بيّن سبحانه أن الافتراء على الله سبحانه ومخالفة أمره لا يمنعهم من التوبة وحصول المغفرة فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ﴾ أي: متلبسين[٥] بجهالة، وقد تقدّم تفسير هذه الآية في سورة النساء

﴿ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: من بعد عملهم للسوء، وفيه تأكيدٌ فإنّ «ثم» قد

---

(١) «المحتسب» (٢/ ١٢)، و«البحر المحيط» (٦/ ٦٠٧)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٣١). قراءةُ العشرة بنصب كلمة «الكذبَ» على أنَّها مفعول به، أما القراءتان المذكورتان فشاذتان.

(٢) «البحر المحيط» (٦/ ٦٠٧)، و«المحتسب» (٢/ ١٢)، و«التبيان» (٢/ ٨٠٩).

(٣) «الفريد» (٣/ ٢٥٠)، و«البحر المحيط» (٦/ ٦٠٨)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٣٢).

(٤) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ٢٢٢).

(٥) «روح المعاني» (١٤/ ٣٣٤)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ٣٩٢).

دلت على البَعدية فأكدها بزيادة ذكر البَعْدية ﴿وَأَصْلَحُوٓاْ﴾ أعمالهم التي كان فيها فساد بالسوء الذي عملوه، ثم كرّر ذلك تأكيداً وتقريراً فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا﴾ أي: مِنْ بعد التوبة ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ كثير الغفران واسع الرحمة.

وقد أخرج ابنُ جرير[1] عن ابن عباس في قوله: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً﴾ قال: يعني مكة.

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن عطية[2] في الآية مثله وزاد فقال: ألا ترى أنّه قال: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ﴾.

وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر نحوه[3].

وأخرج ابن أبي حاتم[4] عن ابن شهاب قال: القرية التي قال الله: ﴿كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً﴾ هي: يَثْرب.

[الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ ينفي ان تكون القرية هي يثرب]:

قلتُ: ولا أدري أَيُّ دليل دلَّه على هذا التعيين، ولا أيّ قرينة قامت له على ذلك؟ ومتى كفرت دار الهجرة ومسكن الأنصار بأنعم الله، وأيّ وقت أذاقها الله لباس الجوع والخوف، وهي التي تنفي خبثَها كما ينفي الكير خبث الحديد كما صحّ ذلك عن الصادق المصدوق. وصحّ عنه أيضاً أنه قال: «والمدينة خيرٌ لهم لو كانوا يعلمون».

وأخرج ابنُ أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد[5] في قوله: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ﴾ الآية، قال: في البحيرة والسائبة.

وأخرج ابن أبي حاتم[6] عن أَبي نَضْرة قال: قرأت هذه الآية في سورة النحل ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ إلى آخر الآية، فلم أزل أخاف الفتيا إلى يومي هذا.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٣٨٣) بسند ضعيف.
(٢) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ١٧٤).
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٣٨٣) بسند صحيح.
(٤) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٠٥).
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٣٩١) بسند صحيح.
(٦) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٠٦).

قلتُ: صدق رَحِمَهُ اللَّهُ، فإنَّ هذه الآية تتناول بعموم لفظها فتيا مَنْ أفتى بخلاف ما في كتاب الله أو في سُنَّة رسوله ﷺ، كما يقع كثيراً مِنْ المؤثرين للرأي المقدّمين له على الرواية، أو الجاهلين لعلم الكتاب والسُّنَّة كالمقلّدة، وإنهم لحقيقون بأن يحال بينهم وبين فتاويهم ويُمْنعوا مِنْ جهالاتهم، فإنّهم أفتوا بغير علمٍ مِنْ الله ولا هدى ولا كتاب منير فضلوا وأضلوا، فهم ومَنْ يستفتيهم كما قال القائل:

كبهيمةٍ عمياءَ قادَ زمامَها ... أعمى على عِوَجِ الطريقِ الجائرِ

وأخرج الطبراني عن ابن مسعود قال: عسى رجل يقول: إن الله أمر بكذا أو نهى عن كذا، فيقول الله ﷻ له: كذبتَ؛ أو يقول: إن الله حرّم كذا أو أحلّ كذا، فيقول الله له: كذبت.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن الحسن(١) في قوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ قال: في سورة الأنعام.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة(٢) مثله، وقال حيث يقول: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ إلى قوله: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾.

[أساليب الدعوة إلى الله]:

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾.

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٣٩١ ـ ٣٩٢) بسند حسن.
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٣٩٢) بسند صحيح.

لما فرغ سبحانه مِنْ دفع شُبَه المشركين وإبطال مطاعنهم، وكان إبراهيم عليه السلام مِنْ الموحدين وهو قدوةُ كثيرٍ من النبيين، ذكره الله في آخر هذه السورة فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ قال ابن الأعرابيّ[١]: يقال للرجل العالم: أمّة، والأمّة: الرجل الجامع[٢] للخير.

قال الواحدي[٣]: قال أكثر أهل التفسير: أي: معلماً للخير، وعلى هذا فمعنى كون إبراهيم كان أمّة: أنَّه كان معلماً للخير، أو جامعاً لخصال الخير أو عالماً بما علمه الله مِنْ الشرائع.

وقيل: أمّة بمعنى: مأموم؛ أَي: يؤمه النَّاسُ ليأخذوا مِنه الخير كما قال سبحانه: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤] والقانت: المطيع.

وقد تقدّم بيان معاني القنوت في البقرة، والحنيف المائل عن الأديان الباطلة إلى دين الحق، وقد تقدّم بيانه في الأنعام.

﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بالله كما تزعمه كفار قريش أنه كان على دينهم الباطل ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ التي أنعم الله بها عليه وإن كانت قليلةً كما يدلّ عليه جمع القلة فهو شاكر لما كَثُر منها بالأولى ﴿ٱجْتَبَٰهُ﴾ أي: اختاره للنبوّة واختصّه بها ﴿وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو ملة الإسلام ودين الحق ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي: خَصْلة حسنة أو حالة حسنة؛ قيل: هي الولد الصالح.

وقيل: الثناء الحسن؛ وقيل: النبوّة؛ وقيل: الصلاة منّا عليه في التشهد؛ وقيل: هي أنّه يتولاه جميع أهل الأديان، ولا مانع أَنْ يكون ما آتاه الله[٤] شاملاً لذلك كلِّه ولما عداه من خصال الخير.

﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ حسبما وقع منه السؤال لربه حيث قال: ﴿وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [الشعراء: ٨٣ ـ ٨٥]. ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ يا محمد مع علوّ درجتك، وسموّ منزلتك

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» (١٢/ ٤٥٧)، و«جامع البيان» (١٤/ ٣٩٤).

(٢) انظر: «تهذيب اللغة» (١٥/ ٦٣٤). (٣) في «الوسيط» (٣/ ٨٩).

(٤) «زاد المسير» (٤/ ٥٠٤)، و«جامع البيان» (١٤/ ٣٩٧ ـ ٣٩٨).

وكونك سيد ولد آدم ﴿أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ وأصل الملة[١]: اسمٌ لما شرعه الله لعباده على لسان نبيّ مِنْ أنبيائه.

وقيل: والمراد هنا: اتباع النبيّ ﷺ لملة إبراهيم في التوحيد والدعوة إليه. وقال ابنُ جرير[٢]: في التبرّي مِنْ الأوثان والتدّين بدين الإسلام؛ وقيل: في مناسك الحج، وقيل: في الأصول دون الفروع، وقيل: في جميع شريعته إلّا ما نسخ منها، وهذا هو الظاهر، وقد أمر النبيّ ﷺ بالاقتداء بالأنبياء مع كونه سيدهم، فقال تعالى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وانتصاب[٣] ﴿حَنِيفٗاۖ﴾ على الحال من إبراهيم، وجاز مجيء الحال منه؛ لأنّ الملة كالجزء منه.

وقد تقرّر في علم النحو أَنّ الحال مِنْ المضاف إليه جائز إذا كان يقتضي المضافُ العملَ في المضاف إليه أَو كان جزءاً مِنْه أو كالجزء.

﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ وهو تكرير لما سبق للنكتة التي ذكرناها. ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبۡتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ﴾ أي: إنما جُعل وبال السبت وهو المسْخُ على الذين اختلفوا فيه، أو إنما جُعل فرض تعظيم السبت وترك الصيد فيه على الذين اختلفوا فيه لا على غيرهم من الأمم.

وقد اختلف[٤] العلماء في كيفية الاختلاف الكائن بينهم في السبت، فقالت طائفة: إنّ موسى أمرهم بيوم الجمعة وعيّنه لهم وأخبرهم بفضيلته على غيره، فخالفوه وقالوا: إن السبت أفضل، فقال الله له: دعهم وما اختاروا لأنفسهم. وقيل: إنّ الله سبحانه أمرهم بتعظيم يوم في الأسبوع، فاختلف اجتهادهم فيه، فعينت اليهود السبت لأنّ الله سبحانه فرغ فيه مِنْ الخَلْق، وعينت النصارى يوم الأحد لأن الله بدأ فيه الخَلْق، فألزم الله كلاًّ منهم ما أدّى إليه اجتهاده، وعيّن لهذه الأمة الجمعة من غير أَنْ يكلهم إلى اجتهادهم فضلاً منه ونعمة.

ووجه اتصال هذه الآية بما قبلها: أن اليهود كانوا يزعمون أن السبت من

---

(١) انظر: «مفردات ألفاظ القرآن» (ص١٧٣ ـ ١٧٤).

(٢) في «جامع البيان» (١٤/٣٩٨).

(٣) «الفريد» (٣/٢٥١)، و«البحر المحيط» (٦/٦١١).

(٤) «جامع البيان» (١٤/٣٩٨ ـ ٣٩٩)، و«روح المعاني» (١٤/٣٤١)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/٤٥٩).

شرائع إبراهيم، فأخبر الله سبحانه أنّه إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه ولم يجعله على إبراهيم ولا على غيره ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين المختلفين فيه ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيجازي كلاً فيه بما يستحقه ثواباً وعقاباً، كما وقع منه سبحانه مِنْ المسخ لطائفة مِنْهم والتنجية لأخرى، ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يدعو أمته إلى الإسلام فقال: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ وحذف المفعول[(١)] للتعميم لكونه بعُث إلى الناس كافة، وسبيل الله هو الإسلام ﴿بِٱلْحِكْمَةِ﴾ أي: بالمقالة المحكمة الصحيحة، قيل: وهي الحُجج القطعية المفيدة لليقين ﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ وهي المقالة المشتملة على الموعظة الحسنة التي يستحسنها السامع وتكون في نفسها حسنة باعتبار انتفاع السامع بها.

قيل: وهي الحُجج الظنيّة الإقناعية الموجبة للتصديق بمقدّمات مقبولة؛ قيل: وليس للدعوة إلّا هاتان الطريقتان، ولكن الداعي قد يحتاج مع الخصْم الألدّ إلى استعمال المعارضة والمناقضة ونحو ذلك مِنْ الجدل، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي: بالطريق التي هي أحسن طرق المجادلة، وإنما أمر سبحانه بالمجادلة الحسنة لكون الداعي مُحقاً وغَرضُه صحيحاً، وكان خصمه مبطلاً وغرضه فاسداً.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ لما حثّ سبحانه على الدعوة بالطرق المذكورة، بيّن أن الرشد والهداية ليس إلى النبي ﷺ وإنما ذلك إليه تعالى فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ﴾ أي: هو العالم بمن يضلّ ومن يهتدّي ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ [٣/١٦٣] بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ أي: بمن يُبْصر الحقّ فيقصده غير متعنت.

وإنما شرع لك الدعوة وأمرك بها قطعاً للمعذرة، وتتميماً للحجة وإزاحة للشبهة، وليس عليك غير ذلك، ثم لما كانت الدعوة تتضمن تكليف المدعوّين بالرجوع إلى الحق فإن أبوا قوتلوا، أمر الداعي بأنْ يعدل في العقوبة فقال: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ أي: أردتم المعاقبة ﴿فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ أي: بمثل ما فُعل بكم لا تجاوزوا ذلك.

قال ابن جَرير[(٢)]: أنزلت هذه الآية فيمن أُصيب بظُلامةٍ أَنْ لا ينال من ظالمه

---

(١) «روح المعاني» (٣٤٤/٤)، و«تفسير أبي السعود» (٣٩٤/٤).
(٢) في «جامع البيان» (٤٠٢/١٤).

إذا تمكن إلّا مثل ظُلامته لا يتعدّاها إلى غيرها، وهذا صواب؛ لأن الآية وإن قيل: إنّ لها سبباً خاصاً كما سيأتي، فالاعتبار بعموم اللفظ، وعمومه يؤدّي هذا المعنى الذي ذكره، وسَمّى سبحانه الفعل الأوّل الذي هو فعل البادئ بالشرّ عقوبة، مع أن العقوبة ليست إلّا فعل الثاني وهو المجازي للمشاكلة.

وهي بابٌ معروف وقع في كثير مِنْ الكتاب العزيز. ثم حثّ سبحانه على العفو فقال: ﴿وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ أي: لئن صبرتم عَنْ المعاقبة بالمثل فالصبر خير لكم مِنْ الانتصاف، ووضع الصابرين موضع الضمير، ثناء من الله عليهم بأنهم صابرون على الشدائد.

وقد ذهب الجمهور[1] إلى أَنّ هذه الآية محكمة لأَنَّها واردة في الصبر عن المعاقبة، والثناء على الصابرين على العموم.

وقيل: هي منسوخة[2] بآيات القتال، ولا وجَه لذلك.

ثم أمر الله سبحانه رسوله بالصبر فقال: ﴿وَٱصۡبِرۡ﴾ على ما أصابك من صنوف الأذى ﴿وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ أي: بتوفيقه وتثبيته، والاستثناء[3] مفرغ من أعمّ الأشياء؛ أي: وما صبرك مصحوباً بشيء مِنْ الأشياء إلّا بتوفيقه لك، وفيه تسلية للنبيّ ﷺ. ثم نهاه عَنْ الحزن فقال: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: على الكافرين في إعراضهم عنك، أو لا تحزن على قتلى أُحد، فإنّهم قد أفضوا إلى رحمة الله.

﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾ قرأ الجمهور بفتح الضاد[4]، وقرأ ابن كثير بكسرها[5]. قال ابن السكيت[6]: هما سواء، يعني: المفتوح والمكسور.

وقال الفرّاء[7]: الضَّيق بالفتح ما ضاق عنه صدرُك، والضيق بالكسر ما يكون

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٤٦١)، و«المحرر الوجيز» (١٠/ ٢٥٥)، و«جامع البيان» (١٤/ ٤٠٢ ـ ٤٠٣).

(٢) انظر: «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (٢/ ٤٨٤)، و«النكت والعيون» (٣/ ٢٢١).

(٣) «التبيان» (٢/ ٨١٠)، و«الفريد» (٣/ ٢٥٢)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٥٢).

(٤) «البحر المحيط» (٦/ ٦١٤)، و«النشر» (٢/ ٣٠٥)، و«زاد المسير» (٤/ ٥٠٩)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ٤١)، و«جامع البيان» (١٤/ ٤٠٨).

(٥) انظر: المصادر المتقدمة. وهما قراءتان متواترتان.

(٦) انظر: «تهذيب اللغة» (٩/ ٢١٧).

(٧) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١٢٥).

في الذي يتسع مثل الدار والثوب، وكذا قال الأخفش[١].

وهو مِنْ الكلام المقلوب؛ لأنّ الضيق وصف للإنسان يكون فيه ولا يكون الإنسان فيه، وكأنّه أراد وصف الضيق بالعِظَم حتّى صار كالشيء المحيط بالإنسان مِنْ جميع جوانبه.

ومعنى ﴿مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾: مِنْ مكرهم لك فيما يستقبل من الزمان. ثم ختم هذه السورة بآية جامعة لجميع المأمورات والمنهيات فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ أي: اتقوا المعاصي على اختلاف أنواعها ﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ بتأدية الطاعات والقيام بما أمروا بها منها.

وقيل: المعنى: إنّ الله مع الذين اتقوا الزيادةَ في العقوبة، والذين هم محسنون في أصل الانتقام فيكون الأوّل إشارة إلى قوله: ﴿فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ والثاني إشارة إلى قوله: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾، وقيل: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ إشارة إلى التعظيم لأمر الله ﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾: إشارة إلى الشفقة على عباد الله تعالى.

وقد أخرج عبدُ الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن ابن مسعود[٢]: أنه سئل عن الأُمّة ما هي؟ فقال: الذي يعلّم الناسَ الخير، قالوا: فما القانت؟ قال: الذي يطيع اللهَ ورسولَه.

وأخرج ابن أبي حاتم[٣] عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ قال: كان على الإسلام ولم يكن في زمانه مِنْ قومه أحد على الإسلام غيره، فلذلك قال الله: ﴿كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ﴾.

---

(١) انظر: «الوسيط» للواحدي (٣/ ٩١)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٤٦٤).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٦٠، ٣٦١)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٣٩٣)، والطبراني رقم (٩٩٤٣، ٩٩٤٤، ٩٩٤٧)، والحاكم (٢/ ٣٥٨) (٣/ ٢٧١، ٢٧٢) بسند صحيح.
قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٤٩): «رواه الطبراني بأسانيد ورجال بعضها رجال الصحيح».

(٣) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٠٦).

وأخرج ابن المنذر(١) عنه في قوله: ﴿كَانَ أُمَّةً﴾ قال: إماماً في الخير ﴿قَانِتًا﴾ قال: مُطيعاً.

وأخرج ابنُ مردويه(٢) عَنْ أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «ما مِنْ عبدٍ تشهد له أُمّة إلّا قَبِل الله شهادتهم. والأمة: الرجل فما فوقه، إن الله يقول: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ والأمة الرجل فما فوقه».

وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عَمْرو(٣) وقال: صلّى جبريل بإبراهيم الظهر والعصر بعرفات، ثم وقف حتى إذا غابت الشمس دفع به، ثم صلّى المغرب والعشاء بجَمْعٍ ثم صلى الفجر به كأسرع ما يُصلي أحدُكم مِنْ المسلمين ثم وقف به حتى إذا كانَ كأبطإ ما يصلي أحد من المسلمين دفع به. ثم رمى الجمرة ثم ذبح ثم حلق ثم أفاض به إلى البيت فطاف به، فقال الله لنبيِّه: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾.

وأخرجَ عبدُ الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد(٤) في قوله: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ قال: أراد الجمعة فأخذوا السبت مكانها.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طريق السدّي عن أبي مالك وسعيد بن جبير(٥) في الآية، قال: باستحلالهم إيّاه، رأى موسى رجلاً يحمل حَطَباً يوم السبت فضرب عُنقه.

وفي «الصحيحين»(٦) وغيرهما مِنْ حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «نحنُ الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أَنّهم أوتوا الكتاب مِنْ قبلنا وأوتيناه من

---

(١) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ١٧٦).
(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ١٧٦).
(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (القسم الأول من الجزء الرابع (ص٣٧٤))، والبيهقي في «الشعب» رقم (٤٠٧٥، ٤٠٧٦).
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٣٩٩)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٦٢) بسند صحيح.
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٣٩٩) مختصراً.
وذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٠٧) بلفظ المصنف.
(٦) أخرجه البخاري رقم (٨٧٦، ٨٩٦)، ومسلم رقم (٨٥٥).

بعدهم. ثُم هذا يومهم الذي فرض عليهم ـ يعني: الجمعة ـ فاختلفوا فيه فهدانا الله له فالنّاس فيه لنا تَبعٌ، اليهود غداً والنصارى بعد غد».

وأخرج مسلم[١] وغيره من حديث حذيفة نحوه.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد[٢] في قوله: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ قال: أعرض عَنْ أذاهم إياك.

وأخرج الترمذي وحسنه، وعبد الله بن أحمد في «زوائد المسند»، والنسائي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن خزيمة في «الفوائد»، وابن حبان، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل»، والضياء في «المختارة» عن أُبيّ بن كعب[٣] قال: لما كان يوم أُحد أُصيب مِنْ الأنصار أربعة وستون رجلاً، ومِنْ المهاجرين ستة مِنْهم حمزة فمثّلوا بهم، فقالت الأنصار: لئن أصبنا منهم يوماً مثل هذا لنربينّ عليهم، فلما كان يوم فتح مكة أنزل الله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «نصبر ولا نعاقب، كفّوا عَنْ القوم إلّا أربعة».

وأخرج ابنُ سعد، والبزار، وابن المنذر، والطبراني، والحاكم وصححه، وأبو نعيم في «المعرفة»، وابنُ مردويه، والبيهقي في «الدلائل» عن أبي هريرة[٤]: «أن النبي ﷺ وقف على حمزة حيثُ استشهد، فنظر إلى منظرٍ لم ينظر إلى شيء قط كان أوجعَ لقلبه مِنْه، ونظر إليه قد مُثّل به، فقال: رحمة الله عليك، فإنّك كنت ما علمت وصولاً للرحم، فعولاً للخير، ولولا حُزْن مَنْ بعدك عليك لسّرني أَنْ أتركك حتى

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» رقم (٨٥٦)، وأحمد رقم (٧٢١٤، ٧٣١٠).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/٤٠١) بسند صحيح.

(٣) أخرجه الترمذي رقم (٣١٢٩)، وعبد الله بن أحمد رقم (٢١٢٣٠ ـ زوائد المسند)، والنسائي في «السنن الكبرى» رقم (١١٢٦٩)، وابن حبان رقم (٤٨٧)، والطبراني رقم (٢٩٣٧)، والحاكم (٢/٣٥٨، ٣٥٩)، والبيهقي في «الدلائل» (٣/٢٨٩)، والضياء في «المختارة» رقم (١١٤٣، ١١٤٤). وهو حديث صحيح.

(٤) أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٣/١٣، ١٤)، والبزار في «مسنده» رقم (١٧٩٥ ـ كشف)، والطبراني رقم (٢٩٣٦)، والحاكم (٣/١٩٧)، وأبو نعيم في «المعرفة» رقم (١٨٤١)، والبيهقي في «الدلائل» (٣/٢٨٨، ٢٨٩) بسند ضعيف.
قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/١١٩): «وفيه صالح بن بشير المري، وهو ضعيف».

يحشرك الله مِنْ أرواح شتى، أما والله لأمثلنّ بسبعين مِنْهم مكانَك، فنزل جبريل والنبي ﷺ واقف بخواتيم سورة النحل ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ﴾ الآية، فكفّر النبي ﷺ عن يمينه وأمسك عَنْ الذي أراد وصبر».

وأخرج ابن المنذر، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل» عن ابن عباس[1] مرفوعاً نحوه.

وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس[2] في قوله: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ﴾ الآية، قال: هذا حين أمر الله نبيّه أَنْ يقاتل مَنْ قاتله، ثم نزلت براءة وانسلاخ الأشهر الحرم فهذا منسوخ.

وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الحسن[3] في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ قال: اتقوا فيما حرّم عليهم، وأحسنوا فيما افترض عليهم.

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه الطبراني رقم (١١٠٥١)، والبيهقي في «الدلائل» (٣/ ٢٨٨).
قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ١٢٠): «وفيه أحمد بن أيوب بن راشد، وهو ضعيف».
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٤٠٤) بسند ضعيف.
(٣) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٦٤)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٤٠٩) بسند ضعيف.

سُورَةُ الإِسْرَاءِ

آياتها مائة وإحدى عشرة آية وهي مكية[١] إلا ثلاث آيات.

قوله ﷻ: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ [الإسراء: ٧٦] نزلت حين جاء رسول الله ﷺ وفْد ثَقيف، وحين قالت اليهود: ليست هذه بأرض الأنبياء، وقوله: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ [الإسراء: ٨٠] وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠]، وزاد مقاتل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ﴾ [الإسراء: ١٠٧].

وأخرج النَّحاس، وابن مردويه عن ابن عباس[٢] قال: نزلت سورة «بني إسرائيل» بمكة.

وأخرج ابن مردويه[٣] عن ابن الزبير مثله.

وأخرج البخاري، وابن الضريس، وابن مردويه عن ابن مسعود[٤] قال في بني إسرائيل والكهف ومريم: إنهنّ مِنْ العتاق الأول وهنّ مِنْ تلادي.

وأخرج أحمد، والترمذي، وحسنه، والنسائي، والحاكم، وابن مردويه، عن عائشة[٥] قالت: كان رسول الله ﷺ يقرأ كلّ ليلة بني إسرائيل والزمر.

وأخرج ابنُ أبي شيبة عَنْ أبي عمرو[٦] الشيباني قال: صلّى بنا عبدُ الله الفجرَ فقرأ السورتين الآخرة منهما بنو إسرائيل [٣/١٦٤].

---

(١) «الإتقان» (١/ ٩٢ ـ ٩٣)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٣/ ٥).

(٢) أخرجه النحاس في «ناسخه» (ص٥٤٥).

(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٩/ ١٣٨).

(٤) أخرجه البخاري رقم (٤٧٠٨، ٤٧٣٩)، وابن الضريس رقم (٢١٠).

(٥) أخرجه أحمد رقم (٢٤٣٨٨، ٢٤٩٠٨، ٣٥٥٥٦)، والترمذي رقم (٢٩٢٠، ٣٤٠٥)، والنسائي في «الكبرى» رقم (١١٤٤٤)، والحاكم (٢/ ٤٣٤). وهو حديث صحيح.

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة (١/ ٣٥٤).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

[الإسراء ونزول التوراة على موسى]:

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾.

قوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ هو مَصْدر[١] سبّح، يقال: سَبّح يُسبّحُ تَسْبيحاً وسُبْحاناً، مثل: كفّر اليمينُ تكفيراً وكُفراناً، ومعناه: التنزيه والبراءة لله مِنْ كل نقص.

وقال سيبويه[٢]: العامل فيه فعل لا مِنْ لفظه، والتقدير: أنزه الله تنزيهاً، فوقع سبحان مكان تنزيهاً، فهو على هذا مثل قَعدَ القُرفُصاء واشتمل الصمّاء.

وقيل: هو عَلَمٌ للتسبيح كعثمان للرجل، وانتصابه بفعل مضمر متروك إظهاره تقديره: أسبُّح الله سبحان، ثم نُزِّل منزلة الفعل وسَدّ مسدّه، وقد قدّمنا في قوله: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ [البقرة: ٣٢]. طرفاً مِنْ الكلام المتعلق بسبحان.

والإسراء قيل: هو سَيرُ الليل، يقال: سَرى وأَسْرى، كسقى وأَسْقى لغتان، وقد جمع بينهما الشاعر في قوله:

حيِّ النَّضِيرَ وربةَ الخِدْرِ أَسْرتْ إليّ ولم تكُنْ تَسْري[٣]

وقيل: هو سير أوّل الليل خاصةً، وإذا كان الإسراء لا يكون إلّا في الليل فلا بدّ للتصريح[٤] بذكر الليل بعده مِنْ فائدة، فقيل: أراد بقوله: ﴿لَيْلًا﴾ تقليل مدّة الإسراء وأنه أُسرى به في بعض الليل مِنْ مكة إلى الشام مسافة أربعين ليلة.

[فائدة تنكير ﴿لَيْلًا﴾ التقليل والبعضية]:

ووجه دلالة ليلاً على تقليل المدّة: ما فيه مِنْ التنكير الدالّ على البعضية، بخلاف ما إذا قلت: سريت الليل فإنه يفيد استيعاب السير له جميعاً.

---

(١) «الفريد» (٣/ ٢٥٥)، و«مشكل إعراب القرآن» (١/ ٤٢٧).

(٢) في «الكتاب» (١/ ١٦٢).

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٣/ ٦).

(٤) «روح المعاني» (١٤/ ٣٦٧)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ٤٠٠).

وقد استدلّ صاحب «الكشاف»[(١)] على إفادة ليلاً للبعضية بقراءة عبد الله[(٢)] وحذيفة (من الليل).

وقال الزجّاج[(٣)]: معنى ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾: سيّر عبدَه يعني: محمداً ليلاً، وعلى هذا فيكون معنى أسرى: معنى سيّر فيكون للتقيد بالليل فائدة، وقال: ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾ ولم يقل: بنبيه أو رسوله أو بمحمد تشريفاً له ﷺ.

[الآية دليلٌ على أنَّ العبدية لله أشرف المقامات]:

قال أهل العلم: لو كان غير هذا الاسم أشرف منه لسمّاه الله سبحانه به في هذا المقام العظيم والحالة العلية:

لا تدعُني إلا بيا عبدَها ... فإنّه أشرفُ أسمائي
أُدعىٰ بأسماءَ نَبْزاً في قبائلِها ... كأنّ أسماءَ أضحَتْ بعضَ أسمائي[(٤)]

﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ قال الحسن وقتادة: يعني: المسجد نفسه، وهو ظاهر، القرآن.

وقال عامّةُ المفسرين[(٥)]: أُسري برسول الله ﷺ مِنْ دار أم هانئ، فحملوا المسجد الحرام على مكة أو الحرَم لإحاطة كل واحد منهما بالمسجد الحرام، أو لأنّ الحرم كلّه مسجد.

ثم ذكر سبحانه الغاية التي أسرى برسوله ﷺ إليها فقال: ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ وهو بيتُ المقدس، وسُمّي الأقصى لبعد المسافة بينه وبين المسجد الحرام ولم يكن حينئذٍ وراءه مسجد، ثم وصف المسجد الأقصى بقوله: ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ بالثمار والأنهار والأنبياء والصالحين، فقد بارك الله سبحانه حول المسجد الأقصى ببركات الدنيا والآخرة، وفي ﴿بَٰرَكْنَا﴾ بعد قوله: ﴿أَسْرَىٰ﴾ التفات مِنْ الغَيبة إلى التكلم.

ثم ذكر العلّة التي أسرى به لأجلها فقال: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ أي: ما أراه الله سبحانه في تلك الليلة من العجائب التي من جملتها قطع هذه المسافة الطويلة في

---

(١) في «الكشاف» (٣/ ٤٩٢ ـ ٤٩٣).
(٢) «البحر المحيط» (٧/ ٩)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٦٧)، و«جامع البيان» (١٤/ ٤١٣). وهي قراءة شاذة مخالفة للرسم.
(٣) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ٢٢٥).
(٤) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١٣/ ٧).
(٥) «جامع البيان» (١٤/ ٤٢٠)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٣/ ٧)، و«المحرر الوجيز» (١٠/ ٢٥٥ ـ ٢٥٦).

جزء من الليل ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ بكل مسموع، ومن جملة ذلك قول رسوله ﷺ، ﴿ٱلۡبَصِيرُ﴾ بكلِّ مبصر، ومن جملة ذلك: ذاتُ رسولِه وأفعاله.

[اختلاف أهل العلم: هل كان الإسراء بجسده ﷺ مع روحه أو بروحه فقط؟]:

وقد اختلف أهل العلم: هل كان الإسراء بجسده ﷺ مع روحه أو بروحه فقط؟ فذهب مُعظم[1] السلف والخلف إلى الأوّل، وذهب إلى الثاني طائفة من أهل العلم[2] منهم: عائشة، ومعاوية، والحسن، وابن إسحاق، وحكاه ابن جرير[3] عن حذيفة بن اليمان.

[رجح الشوكاني أن الإسراء بجسده وروحه يقظة إلى بيت المقدس ثم إلى السمٰوات]:

وذهبت طائفة إلى التفصيل فقالوا: كانَ الإسراء بجسده يقظة إلى بيت المقدس وإلى السماء بالروح، واستدلوا على هذا التفصيل بقوله: ﴿إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾، فجعله غاية للإسراء بذاته ﷺ، فلو كان الإسراء مِنْ بيت المقدس إلى السماء وقع بذاته لذكره، والذي دلّت عليه الأحاديثُ الصحيحة الكثيرة هو ما ذهب إليه معظمُ السّلفِ والخلف مِن أنّ الإسراء بجسده وروحه، يقظةً إلى بيت المقدس، ثم إلى السمٰوات، ولا حاجةَ إلى التأويل وصَرْف هذا النظم القرآني وما يماثله من ألفاظ الأحاديث إلى ما يخالف الحقيقة، ولا مُقْتضى لذلك إلّا مجرد الاستبعاد وتحكيم محض العقول القاصرة عَنْ فهم ما هو معلوم مِنْ أنّه لا يستحيل عليه سبحانه شيء، ولو كان ذلك مُجرد رؤيا كما يقوله مَنْ زعم أن الإسراء كان بالروح فقط، وأن رؤيا الأنبياء حقٌّ لم يقع التكذيب مِنْ الكفرة للنبي ﷺ عند إخباره لهم بذلك حتى ارتدّ مَنْ ارتدّ ممّن لم يشرح بالإيمان صدراً، فإنّ الإنسان قد يرى في نومه ما هو مُسْتبعد؛ بل ما هو محال ولا يَنْكر ذلك أحد.

وأما التمسّك لمن قال بأنّ هذا الإسراء إنما كان بالروح على سبيل الرؤيا بقوله: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلرُّءۡيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠] فعلى تسليم أن المراد بهذه الرؤيا: هو هذا الإسراء فالتصريح الواقع هنا بقوله: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٣/ ١١ ـ ١٢)، و«المحرر الوجيز» (١٠/ ٢٥٧)، و«جامع البيان» (١٤/ ٤٢٠ ـ ٤٢١).

(٢) ذكره عنهم القرطبي في «تفسيره» (١٣/ ١١).

(٣) في «جامع البيان» (١٤/ ٤٤٤).

بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ والتصريح في الأحاديث الصحيحة الكثيرة بأنّه أُسري به لا تقصر عن الاستدلال بها على تأويل هذه الرؤيا الواقعة في الآية برؤية العين، فإنه قد يقال لرؤية العين: رؤْيا، وكيفَ يصح حمل هذا الإِسراء على الرؤيا مع تصريح الأحاديث الصحيحة بأن النبي ﷺ رِكِبَ البُراق؟ وكيف يصح وصف الروح بالركوب؟ وهكذا كيفَ يصح حمل هذا الإِسراء على الرؤيا مع تصريحه ﷺ بأنه كان عند أن أسري به بينَ النائم واليقْظان.

[الاختلاف في تاريخ الإسراء]:

وقد اختُلف أيضاً في تاريخ الإِسراء، فروي أَنَّ ذلك كان قبل الهجرة إلى المدينة بسنة.

وروي أَنّ الإِسراء كان قبل الهجرة بأعوام. ووجه ذلك: أَنّ خديجة صلَّت مع النبي ﷺ وقد ماتت قبل الهجرة بخَمْس سنين، وقيل: بثلاث؛ وقيل: بأربع، ولم تُفْرض الصلاة إلّا ليلة الإِسراء. وقد استدلّ بهذا ابنُ عبد البرّ على ذلك.

وقد اختلفتْ الرواية عن الزهري[(١)]. وممّن قال بأن الإِسراء كان قبل الهجرة بسنة الزهري في روايةٍ عنه، وكذلك الحَرْبي فإنه قال: أسري بالنبي ﷺ ليلة سبع وعشرين مِنْ ربيع الأوّل قبل الهجرة بسنة.

وقال ابن القاسم[(٢)] في «تاريخه»: كانَ الإِسراء بعد مبعثه بثمانية عشر شهراً.

قال ابنُ عبد البرّ[(٣)]: لا أعلم أحداً مِنْ أهل السِّيَر قال بمثل هذا.

وروي[(٤)] عَنْ الزهري أنه أسري به بعد مبعثه بسبعة أعوام، وروي عنه أنه قال: كان بعد مبعثه بخمس سنين. وروى يونس عَنْ عروة عن عائشة أنها قالت: توفيت خديجة قبل أَنْ تفرض الصلاة.

﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: التوراة، قيل: والمعنى: كرّمنا محمداً بالمعراج وأكرمنا[(٥)] موسى بالكتاب ﴿وَجَعَلْنَٰهُ﴾ أي: ذلك الكتاب؛ وقيل: موسى ﴿هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ يهتدون به.

---

(١) انظر: «التمهيد» (٨/ ٥٠ ـ ٥٢).
(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٣/ ١٣).
(٣) في «التمهيد» (٨/ ٤٨).
(٤) انظر: «التمهيد» (٨/ ٥٢ ـ ٥٣).
(٥) «الوسيط» للواحدي (٣/ ٩٦)، و«زاد المسير» (٥/ ٦).

﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا﴾ قرأ أبو عَمْرو بالياء التحتية[١]، وقرأ الباقون بالفوقية[٢] أي: لئلا يتخذوا. والمعنى: آتيناه الكتاب لهداية بني إسرائيل لئلا يتخذوا ﴿مِن دُونِي وَكِيلًا﴾ قال الفراء[٣]: أي: كفيلاً بأمورهم، وروي عَنْه أنه قال: كافياً؛ وقيل: أي: متوكلون عليه في أمورهم، وقيل: شَرِيْكاً، ومعنى الوكيل في اللغة: مَنْ تُوكَل إليه الأمور. ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ نُصب[٤] على الاختصاص أو النداء، ذكّرهم سبحانه إنعامَه عليهم في ضمن إنجاء آبائهم مِنْ الغرق، ويجوز أن يكون المفعول الأوّل لقوله: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا﴾ أي: لا تتخذوا ذرية مَنْ حملنا مع نوح من دوني وكيلاً كقوله: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾ [آل عمران: ٨٠].

وقُرِئ بالرفع[٥] على أنّه خبر مبتدأ محذوف أو بدل مِنْ فاعل ﴿تَتَّخِذُوا﴾، وقرأ مجاهد بفتح[٦] الذال، وقرأ زيد بن ثابت بكسرها[٧]، والمراد بالذرية هنا: جميع من في الأرض؛ لأنّهم مِنْ ذرية مَنْ كان في السفينة؛ وقيل: موسى وقومه من بني إسرائيل وهذا هو المناسب لقراءة النصب على النداء والنصب على الاختصاص، والرفع على البدل وعلى الخبر فإنّها كلها راجعة إلى بني إسرائيل المذكورين.

وأما على جعل النصب على أن ﴿ذُرِّيَّةَ﴾ هي المفعول الأوّل لقوله: ﴿لا تَتَّخِذُوا﴾ [آل عمران: ١١٨]، فالأولى تفسير الذرية بجميع مَنْ في الأرض مِنْ بني آدم ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ أي: نوحاً، وصفه الله بكثرة الشكر وجعله كالعلّة لما قبله إيذاناً بكون الشكر مِنْ أعظم أسباب الخير، ومن أفضل الطاعات حثّاً لذريته على شكر الله سبحانه.

وقد أخرج ابن مردويه[٨] عَنْ عمرو بن شعيب، عَنْ أبيه، عن جدّه، قال: أُسْري بالنبيّ ﷺ ليلة سبع عشرة مِنْ شهر ربيع الأول قبل الهجرة بسنة.

---

(١) «التيسير» (ص١٣٩)، و«جامع البيان» (١٤/ ٤٤٩)، و«البحر المحيط» (٧/ ١٢)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٨٧).

(٢) انظر: المصادر المتقدمة.

(٣) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١١٦).

(٤) «البحر المحيط» (٧/ ١١)، و«الفريد» (٣/ ٢٥٧)، و«التبيان» (٢/ ٨١٢).

(٥) «البحر المحيط» (٧/ ١٢)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٨٨)، و«مشكل إعراب القرآن» (٢/ ٢٦).

(٦) انظر: المصادر المتقدمة. قراءة كلمة (ذُرِّية) بالرفع وكذلك فتح الذّال وكسرها مِنْ كلمة (ذِرية) كلها قراءات شاذة.

(٧) «البحر المحيط» (٧/ ١٢)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٤١٤)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٣/ ١٩).

(٨) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٢١٠).

وأخرج البيهقي في «الدلائل»[١] عن ابن شهاب قال: أُسري برسول الله ﷺ إلى بيت المقدس قبل خروجه إلى المدينة بسنة.

وأخرج البيهقي[٢] عَنْ عروة مثله.

وأخرج البيهقي[٣] أيضاً عن السدّي قال: أُسري برسول الله ﷺ قبل مهاجره بستة عشر شهراً.

وأخرج ابن أبي حاتم[٤] عن السدّي في قوله: ﴿ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾ قال: أنبتنا حوله الشجر [٣/١٦٥].

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة[٥] في قوله: ﴿وَءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ قال: جعله الله هُدى يخرجهم من الظلمات إلى النور وجعله رحمةً لهم.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد[٦] في قوله: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلٗا﴾ قال: شريكاً.

وأخرج ابن أبي حاتم[٧] عنه في قوله: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٍۚ﴾ قال: هو على النّداء: يا ذُريّةَ مَنْ حملنا مع نوح.

وأخرج ابنُ مردويه[٨] عَنْ عبد الله بن زيد الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: «ذرية مَنْ حملنا مع نوح، ما كان مع نوح إلّا أربعة أولاد: حام، وسام، ويافث، وكوش، فذلك أربعة أولاد انتسلوا هذا الخلق».

[تقييد المصنف لمباحث التفسير]:

واعلم أنّه قد أطال كثير من المفسرين؛ كابن كثير[٩] والسيوطي[١٠] وغيرهما

---

(١) أخرجه البيهقي في «الدلائل» (٢/ ٣٥٤). (٢) أخرجه البيهقي في «الدلائل» (٢/ ٣٥٥).
(٣) أخرجه البيهقي في «الدلائل» (٢/ ٣٥٥).
(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٢٢٧).
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٤٥٠) بسند صحيح.
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٤٥٠) بسند صحيح.
(٧) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٢٣٦).
(٨) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٢٣٦).
(٩) في «تفسيره» (٨/ ٣٧٤ ـ ٤٣٤). (١٠) في «الدر المنثور» (٥/ ١٨٢ ـ ٢٣٤).

في هذا الموضع بذكر الأحاديث الواردة في الإسراء على اختلاف ألفاظها، وليس في ذلك كثير فائدة، فهي معروفة في موضعها من كتب الحديث، وهكذا أطالوا بذكر فضائل المسجد الحرام والمسجد الأقصى، وهو مبحث آخر، والمقصود في كتب التفسير ما يتعلّق بتفسير ألفاظ الكتاب العزيز، وذكر أسباب النزول، وبيان ما يؤخذ مِنْه من المسائل الشرعية، وما عدا ذلك فهو فَضْلة لا تدعو إليه حاجة.

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾
فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا
مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا
﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ
وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ
وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا
لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾.

قوله: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: أعلمْنا وأخبرْنا، أو: حكمنا وأتممنا، وأصلُ القضاء: الإِحْكام للشيء والفراغ[١] منه؛ وقيل: أوحينا، ويدل عليه قوله: ﴿إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، ولو كان بمعنى الإعلام والإخبار[٢] لقال: قضينا ببني إسرائيل، ولو كان بمعنى حكمنا لقال: على بني إسرائيل، ولو كان بمعنى أتممنا لقال: لبني إسرائيل، والمراد بالكتاب: التوراة، ويكون إنزالها على نبيهم موسى كإنزالها عليهم لكونهم قومه؛ وقيل: المراد بالكتاب اللوح المحفوظ.

وقرأ أبو العالية وسعيد بن جبير (في الكُتب[٣]).

وقرأ عيسى الثقفي (لَتفْسدنّ[٤] في الأرض) بفتح المثناة، ومعنى هذه القراءة

(١) «جامع البيان» (١٤/ ٤٥٤ ـ ٤٥٥)، و«تهذيب اللغة» (٩/ ٢١٣).
(٢) «زاد المسير» (٥/ ٧)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٣/ ١٩ ـ ٢٠).
(٣) «القراءات الشاذة» (ص٧٤ ـ ٧٥)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٩١). وهي قراءة شاذة.
(٤) «القراءات الشاذة» (ص٧٥)، و«المحتسب» (٢/ ١٤)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٩١). وهي قراءة شاذة.

قريب مِنْ معنى قراءة الجمهور[١]؛ لأنّهم إذا أفسدوا فسدوا في نفوسهم، والمراد بالفساد: مخالفة ما شرعه الله لهم في التوراة، والمراد بالأرض: أرض الشام وبيت المقدس؛ وقيل: أرض مصر، واللّام في ﴿لَتُفْسِدُنَّ﴾ جواب قسم محذوف.

قال النيسابوري[٢]: أو أُجْري القضاء المبتوت مجرى القسَم كأنه قيل: وأقسمنا لتفسدنّ. وانتصاب ﴿مَرَّتَيْنِ﴾ على أنه صفة[٣] مصدر محذوف، أو على أنه في نفسه مصدر عمل فيه ما هو مِنْ غير جنسه، والمرة الأولى قتل شعياء[٤] أو حبْس أرمياء أو مخالفة أحكام التوراة، والثانية قتل يحيى[٥] بن زكريا والعزْم على قتل عيسى ﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ هذه اللام كاللّام التي قبلها؛ أي: لتستكبرنّ عَنْ طاعة الله، ولتستعلنّ على الناس بالظلم والبغي مجاوزين للحد في ذلك ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا﴾ أي: أولى المرّتين المذكورتين ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي: قوّة في الحروب، وبطش عند اللقاء.

قيل: هو بَخْتَنصّر وجنودُه؛ وقيل: جالوت؛ وقيل: جند مِنْ فارس؛ وقيل: جند مِنْ بابل ﴿فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ﴾ أي: عاثوا وتردّدوا، يقال: جاسوا وهاسوا وداسوا بمعنى، ذكره ابن عزير والقتيبي[٦].

قال الزجاج[٧]: معناه: طافوا خلال الديار هل بقي أحد لم يقتلوه؟ قال: والجوس: طلبُ الشيء باستقصاء.

قال الجوهري[٨]: الجَوسُ مصدر قولك: جاسوا خلال الديار؛ أي: تخلّلوها كما يجوس الرجل للأخبار؛ أي: يطلبها، وكذا قال أبو عبيدة[٩].

وقال ابن جرير[١٠]: معنى جاسوا: طافوا بين الديار، يطلبونهم ويقتلونهم ذاهبين وجائين.

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٣/ ٢٠)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٩١)، و«جامع البيان» (١٤/ ٤٥٦).
(٢) في «غرائب القرآن» (١٥/ ٩).
(٣) «الفريد» (٣/ ٢٥٨)، و«التبيان» (٢/ ٨١٢)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٩٢).
(٤) «جامع البيان» (١٤/ ٤٧٢ ـ ٤٧٣).
(٥) «الجامع لأحكام القرآن» (١٣/ ٢٠ ـ ٢٢).
(٦) في «غريب القرآن» (ص٢٥١).
(٧) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ٢٢٧).
(٨) في «الصحاح» (٣/ ٩١٥).
(٩) انظر في: «مجاز القرآن» (١/ ٣٧٠).
(١٠) في «جامع البيان» (١٤/ ٤٧٠ ـ ٤٧١).

وقال الفراء[(١)]: معناه: قتلوهم بين بيوتهم وأنشد لحسان[(٢)]:

ومنّا الذي لاقي بسيفِ مُحمدٍ فجاس به الأعداءَ عرضَ العساكر

وقال قُطْرب[(٣)]: معناه نزلوا. وأنشد قول الشاعر:

فجسنا ديارَهم عنوةً وأُبْنَا بساداتهم موثقينا[(٤)]

وقرأ ابن عباس (فحاسوا) بالحاء المهملة[(٥)].

قال أبو زيد: الحوس والجوس والعوس والهوس: الطوف بالليل، وقيل: الطوف بالليل هو الجَوسَان محركاً، كذا قال أبو عبيدة[(٦)].

وقرئ (خَلَل[(٧)] الديار) ومعناه معنى خلال وهو: وسَط الديار. ﴿وَكَانَ﴾ ذلك ﴿وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾؛ أي: كائناً لا محالة ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: الدولة والغَلَبة والرّجعة وذلك عند توبتهم. قيل: وذلك حينَ قتل داودُ جالوت، وقيل: حين قتل بُخْتَنصّر ﴿وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ بَعْد نهب أموالكم، وسبي أبنائكم حتى عاد أمركم كما كان ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ قال أبو عبيدة: النَّفير العدد مِنْ الرجال.

فالمعنى: أكثر رجالاً مِنْ عدوكم، والنفير: مَنْ ينفر مع الرجل مِنْ عشيرته، يقال: نفير ونافر مثل قَدير وقادر، ويجوز أَنْ يكون النفير جمع: نَفْر.

﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ﴾؛ أي: أفعالكم وأقوالكم على الوجه المطلوب منكم ﴿أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ لأن ثواب ذلك عائد إليكم ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ﴾ أفعالكم وأقوالكم فأوقعتموها لا على الوجه المطلوب منكم ﴿فَلَهَا﴾؛ أي: فعليها. ومثله قول الشاعر:

فخرَّ صريعاً لليدينِ وللفمِ[(٨)]

أي: على اليدين وعلى الفم.

---

(١) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١١٦). (٢) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١٣/ ٢٣).

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٣/ ٢٣).

(٤) «المحتسب» (٢/ ١٥)، و«القراءات الشاذة» (ص٧٥)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٩٤).

(٥) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (١٤/ ٣٩٤)، والقرطبي في «تفسيره» (١٣/ ٢٢). وهي قراءة شاذة.

(٦) انظر: «الصحاح» (٣/ ٩١٥)، و«النكت والعيون» (٣/ ٢٢٩).

(٧) «القراءات الشاذة» (ص٧٥)، و«البحر المحيط» (٧/ ١٤). وهي قراءة شاذة

(٨) وهو عجز لبيت، صدره: وهتكت بالرمح الطويل إهابه. انظر: «أدب الكاتب» لابن قتيبة (ص٥٦١)، و«زهر الأكم» (١/ ١٠٤).

قال ابن جرير[(١)]: اللام بمعنى إلى؛ أي: فإليها ترجع الإساءة كقوله تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٥]؛ أي: إليها؛ وقيل: المعنى: فلها الجزاء[(٢)] أو العقاب.

وقال الحسين بن الفضل[(٣)]: فلها ربٌّ يغفر الإساءة، وهذا الخطاب قيل: هو لبني إسرائيل الملابسين لما ذكر في هذه الآيات.

وقيل: لبني إسرائيل[(٤)] الكائنين في زمن محمد ﷺ، ومعناه: إعلامهم ما حل بسلفهم فليرتقبوا مثل ذلك، وقيل: هو خطاب لمشركي قريش ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ﴾؛ أي: حضَر وقتُ ما وُعدوا مِنْ عقوبة المرة الآخرة، والمرة الآخرة: هي قتلهم يحيى بن زكريا كما سبق، وقصة قتله مستوفاة في الإنجيل واسمه فيه: يوحنّا، قتله ملك مِنْ ملوكهم بسبب امرأة حملته على قتله، واسم الملك: لاخت، قاله ابنُ قتيبة.

وقال ابن جرير[(٥)]: هيردوس، وجواب إذا محذوف تقديره: بعثناهم لدلالة جواب إذا الأولى عليه، و﴿لِيَسُـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ متعلّق بهذا الجواب المحذوف؛ أي: ليفعلوا بكم ما يسوء وجوهكم، حتى تظهر عليكم آثار المساءة، وتتبين في وجوهكم الكآبة، وقيل: المراد بالوجوه: السادة منهم.

وقرأ الكسائي «لنسوء» بالنون[(٦)] على أن الضمير لله سبحانه. وقرأ أُبيّ «لنسوءنّ» بنون التأكيد. وقرأ أبو بكر، والأعمش، وابن وثاب، وحمزة، وابن عامر «ليسوء» بالتحتية[(٧)] والإفراد.

قال الزجاج[(٨)]: كلُّ شيء كسرته وفتّته فقد تَبْرته، والضمير لله أو الوعد ﴿وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ﴾ معطوف على ﴿لِيَسُـُٔوا۟﴾؛ أي: يُدمّروا ويهلكوا، وقال قطرب:

---

(١) في «جامع البيان» (١٤/ ٤٧٨).
(٢) «معالم السنن» (٣/ ١٠٦).
(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٣/ ٢٤).
(٤) انظر: «معالم التنزيل» (٣/ ١٠٦).
(٥) في «جامع البيان» (١٤/ ٤٧٨ ـ ٤٧٩).
(٦) «النشر» (٢/ ٣٠٦)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٤١٦)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٩٩).
(٧) «البحر المحيط» (٧/ ١٦)، و«التيسير» (ص١٣٩)، و«النشر» (٢/ ٣٠٦)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٩٨). وهذه القراءات متواترة سوىٰ قراءة أبيٍّ فهي شاذة. ومع حمزة أيضاً خلف.
(٨) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ٢٢٨).

يهدموا، ومِنْه قول الشاعر(١):

فـمـا الـنـاسُ إلّا عـامـلان فـعـامـلٌ   يـتـبِّـرُ مـا يـبـنـي وآخـرُ رافـعُ

وقرأ الباقون(٢) بالتحتية وضم الهمزة وإثبات واو بعدها على أن الفاعل عباد لنا ﴿مَا عَلَوۡاْ﴾؛ أي: ما غلبوا عليه مِنْ بلادكم أو مدة علوهم ﴿تَتۡبِيرًا﴾؛ أي: تَدْميراً، ذكر المصدر إزالةً للشك وتحقيقاً للخبر ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يَرۡحَمَكُمۡۚ﴾ يا بني إسرائيل بعد انتقامه منكم في المرة الثانية ﴿وَإِنۡ عُدتُّمۡ﴾ للثالثة ﴿عُدۡنَاۘ﴾ إلى عقوبتكم.

قال أهل السير: ثم إنّهم عادوا(٣) إلى ما لا ينبغي وهو تكذيبُ محمد ﷺ وكتمان ما ورد مِنْ بعثه في التوراة والإنجيل فعاد الله إلى عقوبتهم على أيدي العرب، فجرى على بني قريظة والنضير وبني قينقاع وخيبر ما جرى مِنْ القتل والسبي والإجلاء، وضرب الجزية على مَنْ بقي منهم، وضرب الذلّة والمسكنة ﴿وَجَعَلۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ وهو المَحْبِس فهو فعيل بمعنى فاعل أو مفعول.

والمعنى: أنهم محبوسون في جهنّم لا يتخلصون عنها أبداً.

قال الجوهري(٤): حَصره يَحصرُه حَصْراً: ضيّق عليه وأحاط به؛ وقيل: فراشاً ومهاداً، وأراد ـ على هذا ـ بالحصير [٣/١٦٦] الحصير الذي يفرشه النّاس. ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ يعني: القرآن يهدي الناسَ الطريقةَ التي هي أقوم من غيرها مِنْ الطرق وهي: ملةُ الإسلام، فالتي هي أقوم صفة لموصوف محذوف وهي الطريق.

وقال الزجّاج(٥): للحال التي هي أقوم الحالات، وهي توحيد الله والإيمان برسله، وكذا قال الفراء(٦). ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ قرأ حمزة والكسائي(٧): «يَبْشُر» بفتح الياء وضم الشين.

وقرأ الباقون بضم الياء(٨) وكسر الشين مِنْ التبشير؛ أي: يُبشر بما اشتمل عليه

---

(١) هو: لبيد بن ربيعة. انظر: «ديوانه» (ص٨٩).

(٢) «البحر المحيط» (١٦/٧)، و«التيسير» (ص١٣٩)، و«روح المعاني» (٣٩٩/١٤).

(٣) «جامع البيان» (١٤/ ٥٠٥ ـ ٥٠٦)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٣/ ٣٢ ـ ٣٣).

(٤) في «الصحاح» (٢/ ٦٣٠ ـ ٦٣١).

(٥) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ٢٢٩).

(٦) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١١٧).

(٧) «النشر» (٢/ ٢٣٩)، و«البحر المحيط» (٧/ ١٨)، و«التيسير» (ص٨٧).

(٨) انظر: المصادر المتقدمة. هما قراءتان متواترتان.

من الوعد بالخير آجلاً وعاجلاً للمؤمنين ﴿ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ التي أرشد إلى عملها القرآن ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾؛ أي: بأنّ لهم ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ وأحكامَها المُبيّنة في القرآن ﴿أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وهو عذاب النار، وهذه الجملة معطوفة على جملة يُبشّر بتقدير: يُخْبر؛ أي: ويخبر بأنّ الذين لا يؤمنون بالآخرة؛ وقيل: معطوفة على قوله: ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾، ويراد بالتبشير: مطلق الإخبار، أو يكون المراد منه معناه الحقيقي، ويكون الكلام مشتملاً على تبشير المؤمنين ببشارتين:

الأولى: ما لهم مِنْ الثواب.

والثانية: ما لأعدائهم من العقاب.

﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ﴾ المراد[1] بالإنسان هنا: الجِنْس لوقوع هذا الدعاء من بعض أفراده، وهو دعاء الرجل على نفسه وولده عند الضجر بما لا يحب أن يُستجاب له ﴿دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ﴾؛ أي: مثل دعائه لربِّه بالخير لنفسه ولأهله كطلب العافية والرزق ونحوهما، فلو استجاب الله دعاءَه على نفسه بالشرّ هلك، لكنه لم يستجب تفضلاً مِنْه ورحمة، ومثل ذلك ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾ [يونس: ١١]، وقد تقدّم.

وقيل: المراد بالإنسان هنا القائل هذه المقالة هو: الكافر يدعو لنفسه بالشرّ، وهو استعجال العذاب دعاه بالخير كقول القائل: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

وقيل: هو أنْ يدعو في طلب المحظور كدعائه في طلب المباح، وحذفت الواو مِنْ ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ في رسم المصحف لعدم التلفظ بها لوقوع اللّام الساكنة بعدها كقوله: ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٨]. ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾ [الشورى: ٢٤] ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤٦] ونحو ذلك. ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾؛ أي: مطبوعاً على العجلة، ومِنْ عجلته أنّه يسأل الشر كما يسأل الخير.

وقيل: إشارته إلى آدم ﷺ حين نهض قبل أن تكمل فيه الروح، والمناسب للسياق هو الأوّل.

---

(١) «جامع البيان» (١٤/ ٥٦٢ ـ ٥٦٣)، و«الوسيط» للواحدي (٣/ ٩٩).

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[(١)] في قوله: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ قال: أعلمناهم.

وأخرج ابن أبي حاتم[(٢)] عنه قال: أخبرناهم.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم[(٣)] عنه أيضاً ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: قضينا عليهم.

وأخرج ابن عساكر[(٤)] في «تاريخه» عن عليّ في قوله: ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ قال: الأولى: قتلُ زكريا، والآخِرة: قتل يحيى.

وأخرج ابن جرير[(٥)] عن ابن مسعود في الآية قال: كان أوّل الفساد قتل زكريا، فبعث الله عليهم ملك النبط، ثم إنّ بني إسرائيل تجهزوا فغزوا النبط فأصابوا منهم، فذلك قوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[(٦)] قال: بعث الله عليهم في الأولى جالوت، وبعث عليهم في المرة الأخرى بخْتَنصّر، فعادوا فسلّط الله عليهم المؤمنين.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم[(٧)] عنه ﴿فَجَاسُوا۟﴾ قال: فمشوا.

وأخرج ابن جرير[(٨)] عنه أيضاً قال: ﴿تَتْبِيرًا﴾ تدميراً.

وأخرج ابن أبي حاتم[(٩)] عن الضحاك في قوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ قال: كانت الرحمةُ التي وعدهم بعثَ محمد ﷺ.

وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة[(١٠)] في قوله: ﴿وَإِنْ

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٤٥٥) بسند صحيح.
(٢) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣١٧).
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٤٥٦) بسند صحيح.
(٤) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٦٤/ ٢١١).
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٤٥٦ ـ ٤٥٧) من طريق السدي، به.
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٤٧١ ـ ٤٧٢) بسند ضعيف.
(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٤٧٠) بسند صحيح.
(٨) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٥٠٥) بسند ضعيف.
(٩) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣١٩).
(١٠) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٥٠٦)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٧٣)، وفي «المصنف» رقم (٩٨٨٢) بسند صحيح.

عُدتُّمْ عُدْنَاۚ﴾ قال: فعادوا فبعثَ الله سبحانه عليهم محمداً ﷺ، فهم يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون.

واعلم أنّها قد اختلفت الروايات في تعيين الواقع منهم في المرّتين، وفي تعيين مَنْ سلطه الله عليهم، وفي كيفية الانتقام منهم، ولا يتعلّق بذلك كثير فائدة.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[١] في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ قال: سِجْناً.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه[٢]، قال: معنى ﴿حَصِيرًا﴾: جعل الله مأواهم فيها.

وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الحسن[٣] في قوله: ﴿حَصِيرًا﴾ قال: فِراشاً ومِهاداً.

وأخرج ابن جرير[٤] عن ابن زيد في قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ قال: للتي هي أصوب.

وأخرج الحاكم[٥] عن ابن مسعود أنه كان يتلو كثيراً ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ يُبْشِرُ﴾ بالتخفيف[٦].

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس[٧] في قوله: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ﴾ يعني: قول الإنسان: اللَّهُمَّ العنه واغضبْ عليه.

وأخرج ابن جرير[٨] عنه في قوله: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ قال: ضَجِراً لا صبر له على سرّاء ولا ضرّاء.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن عساكر

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٥٠٨) بسند صحيح.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٥٠٧) بسند ضعيف.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٥٠٨)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٧٤) بسند صحيح.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٥١١) بسند صحيح.

(٥) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٣/ ٣٦٠).

(٦) «البحر المحيط» (٧/ ١٨)، و«التيسير» (ص٨٧)، و«النشر» (٢/ ٢٣٩). وهي قراءة حمزة والكسائي، وقرأ باقي العشرة: «يُبشِّر» بالتشديد. كما تقدم قريباً.

(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٥١٣) بسند صحيح.

(٨) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٥١٤) بسند ضعيف. الضحاك لم يلق ابن عباس.

عن سلمان[١] الفارسي قال: أوّل ما خلق الله مِنْ آدم رأسه، فجعل ينظر وهو يُخْلق وبقيت رجلاه، فلما كان بعد العصر قال: يا ربّ أعجل قبل الليل، فذلك قوله: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾.

[الناموس الكوني الذي يحكم الليل والنهار، يرتبط به سعي الإنسان وكسبه، وعلم السنين والحساب]:

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا (١٢) وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا (١٣) ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا (١٥) وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا (١٦) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا (١٧)﴾.

لما ذكر سبحانه دلائل النبوة والتوحيد أكّدها بدليل آخر مِنْ عجائب صنعه وبدائع خلقه فقال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ وذلك لما فيهما مِنْ الإظلام والإنارة مع تعاقبهما وسائر ما اشتملا عليه مِنْ العجائب التي تحار في وصفها الأفهام، ومعنى كونهما آيتين: أنّهما يدلان على وجود الصانع وقدرته.

وقدّم الليل على النهار لكونه[٢] الأصل ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾؛ أي: طَمَسْنا نورَها، وقد كان القمر كالشمس في الإنارة والضوء. قيل: ومن آثار المحو السواد الذي يُرى في القمر، وقيل: المراد بمحوها: أنّه سبحانه خلقها ممحوة الضوء

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٥١٤)، وابن عساكر في «تاريخه» (٧/ ٣٨٤)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٤/ ١١٠، ١١١) بسند رجاله ثقات ولكنه منقطع. إبراهيم النخعي لم يسمع من سلمان الفارسي.

(٢) وتقديم الليل لمراعاة الترتيب الوجوديّ، إذ منه ينسلخُ النَّهار، وفيه تظهر غرر الشهور العربية، ولترتيب غايةُ النهار بلا واسطة، ومما يزيد تقديم الليل حُسناً افتتاح السورة بقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١].

مطموسة، وليس المراد: أنّه محاها بعد أن لم تكن كذلك ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾؛ أي: جعل سبحانه شمسه مُضيئة تُبْصَر فيها الأشياء.

قال أبو عمرو بن العلاء والكسائي: هو مِنْ قول العرب: أبصر النهار إذا صار بحالة يُبْصَر بها؛ وقيل: مبصرة للناس مِنْ قوله: أبصره فبصر.

فالأوّل: وصف لها بحال أهلها، **والثاني**: وصف لها بحال نفسها، وإضافة آية إلى الليل والنهار بيانية؛ أي: فمحونا الآية التي هي الليل والآية التي هي النهار؛ كقولهم نفس الشيء وذاته ﴿لِتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾؛ أي: لتتوصلوا ببياض النهار إلى التصرّف في وجوه المعاش، واللام متعلق بقوله: ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾؛ أي: جعلناها لتبتغوا فضلاً مِنْ ربكم؛ أي: رزقاً؛ إذ غالب تحصيل الأرزاق وقضاء الحوائج يكون بالنهار، ولم يذكر هنا السكون في الليل اكتفاء بما قاله في موضع آخر: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾(١) [يونس: ٦٧].

ثم ذكر مصلحة أخرى في ذلك الجَعْل فقال: ﴿وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ وهذا متعلق بالفعلين جميعاً؛ أعني: محونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لا بأحدهما فقط كالأوّل. إذ لا يكون علم عدد السنين والحساب، إلّا باختلاف الجديدين، ومعرفة الأيام والشهور والسنين(٢).

والفرق بين العدد والحساب: أَنّ العدد: إحصاء ما له كمية بتكرير أمثاله من غير أَنْ يتحصل مِنْه شيء، والحساب: إحصاء ما له كمية بتكرير أمثاله من حيث يتحصل بطائفة معينة منها حدّ معين منه له اسم خاص؛ فالسنة مثلاً [٣/١٦٧] إن وقع النظر إليها مِنْ حيث عدد أيامها فذلك هو العدد، وإن وقع النظر إليها من حيث تحققها وتحصلها مِنْ عدّة أشهر. قد يحصل كل شهر من عدّة أيام، قَدْ يحصل كل يوم مِنْ عدّة ساعات، قد تحصلت كلّ ساعة من عدّة دقائق، فذلك هو الحساب ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾؛ أي: كل ما تفتقرون إليه في أمر دينكم ودنياكم بيّناه تبييناً واضحاً لا يلتبس.

---

(١) انظر: «جامع البيان» (١٤/ ٥١٥)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٣/ ٣٨).

(٢) «روح المعاني» (١٤/ ٤١٩)، و«الوسيط» للواحدي (٣/ ٩٩)، و«زاد المسير» (٥/ ١٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٤١).

وعند ذلك تنزاح العلل، وتزول الأعذار ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢]. ولهذا قال: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ قال أبُو عبيدة[١]: الطائر عند العرب الحَظُّ. ويقال له: البَخْت؛ فالطائر: ما وقع للشخص في الأزل بما هو نصيبه مِنْ العقل والعمل والعمر والرزق والسعادة والشقاوة؛ كأنّ طائراً يطير إليه من وكْر الأزل، وظلمات عالم الغيب طيراناً لا نهاية له ولا غاية إلى أن انتهى إلى ذلك الشخص في وقته المقدّر مِنْ غير خلاص ولا مناص.

وقال الأزهري[٢]: الأصلُ في هذا أن الله سبحانه لما خلق آدم علم المطيع من ذريته والعاصي، فكتب ما علمه منهم أجمعين، وقضى سعادَة مَنْ علمه مطيعاً وشقاوة مَنْ علمه عاصياً فطار لكلٍّ منهم ما هو صائر إليه عند خلقه وإنشائه؛ وذلك قوله: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾؛ أي: ما طار له في علم الله، وفي عنقه عبارة عَنْ اللزوم كلزوم القلادة العنق مِنْ بين ما يُلْبس.

قال الزجاج[٣]: ذكر العنق عبارة عن اللزوم كلزوم القلادة العنق ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾.

قرأ ابنُ عباس، والحسن، ومجاهد، وابن محيصن، وأبو جعفر، ويعقوب (ويَخرُج) بالمثناة[٤] التحتية المفتوحة وبالراء المضمومة على معنى: ويخرج له الطائر. «وكتاباً» منصوب على الحال[٥]، ويجوز أن يكون المعنى: يخرج لها الطائر فيصير كتاباً.

وقرأ يحيى بن وثّاب (يُخرِج) بضم الياء[٦] وكسر الراء؛ أي: يخرج الله.

وقرأ شيبة ومحمد بن السميفع ورُوي أيضاً عن أبي جعفر (يُخْرَج) بضم الياء[٧] وفتح الراء على البناء للمفعول؛ أي: ويخرج له الطائر كتاباً.

---

(١) في «مجاز القرآن» (١/ ٣٧٢). (٢) في «تهذيب اللغة» (١٤/ ١١ ـ ١٢).

(٣) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ٢٣٠).

(٤) «البحر المحيط» (٧/ ٢٢)، و«النشر» (٢/ ٣٠٦). قرأ أبو جعفر (يُخْرَج) بضم الياء وسكون الخاء وفتح الراء، وقرأ يعقوب (يَخْرُج) بفتح الياء وسكون الخاء وضم الراء، وقرأ باقي العشرة (نُخْرِج) بضم النون وسكون الحاء وكسر الراء، وأما قراءة (يُخْرِج) بضم ثم سكون ثم كسر فشاذة.

(٥) «الفريد» (٣/ ٢٦٣)، و«التبيان» (٢/ ٨١٥).

(٦) «جامع البيان» (١٤/ ٥٢٢)، و«البحر المحيط» (٧/ ٢٢).

(٧) «النشر» (٢/ ٣٠٦)، و«البحر المحيط» (٧/ ٢٢ ـ ٢٣)، و«زاد المسير» (٥/ ١٦).

وقرأ الباقون (ونُخْرِج) بالنون[١] على أن المُخْرِج هو الله سبحانه و﴿كِتَٰبًا﴾ مفعول به، واحتج أبو عَمْرو لهذه القراءة بقوله تعالى: ﴿أَلْزَمْنَٰهُ﴾.

وقرأ أبو جعفر، والحسن، وابن عامر «يُلَقّاه» بضم الياء[٢] وفتح اللام وتشديد القاف.

وقرأ الباقون[٣] بفتح الياء وسكون اللام وتخفيف القاف. وإنما قال سبحانه: ﴿يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ تعجيلاً للبُشْرى[٤] بالحسنة وللتوبيخ على السيئة ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾؛ أي: نقول له: إقرأ كتابَك، أَوْ قائلين له، قيل: يُقْرأ ذلك الكتاب مَنْ كان قارئاً، ومَنْ لم يكن قارئاً ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ الباء في ﴿بِنَفْسِكَ﴾ زائدة و﴿حَسِيبًا﴾ تمييز؛ أي: حاسباً.

قال سيبويه: ضَريب[٥] القادح بمعنى: ضَاربها، وصريم بمعنى: صارم، ويجوز أَنْ يكون الحسيب بمعنى: الكافي، ثم وُضِع موضع الشهيد فعدّي بعلى، والنفس بمعنى: الشخص، ويجوز أَنْ يكون الحسيب بمعنى: المحاسِب كالشريك والجليس ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ بيَّن سبحانه أَنّ ثواب العمل الصالح وعقاب ضدّه يختصان بفاعلهما لا يتعدان منه إلى غيره، فمن اهتدى بفعل ما أمره الله به وترك ما نهاه الله عنه، فإنّما تعود منفعة ذلك إلى نفسه.

﴿وَمَن ضَلَّ﴾ عَنْ طريق الحق فلم يفعل ما أُمر به، ولم يترك ما نُهي عنه ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي: فإنّ وبالَ ضلالِه واقع على نفسه لا يجاوزها، فكل أحد محاسب عَنْ نفسه، مجزيّ بطاعته، معاقب بمعصيته، ثم أكد هذا الكلام بأبلغ تأكيد فقال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ والوزر: الإثْمُ، يقال: وزَر[٦] يزِر وِزْراً ووِزْرةً؛ أي: إثماً، والجمع أوزار، والوِزْر: الثِّقْل. ومنه ﴿يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنعام: ٣١]؛ أي: أثقال ذنوبهم ومعنى الآية: لا تحمل نفس حاملةً للوزر وزرَ نفسٍ أخرى حتى تخلص الأخرى عَنْ وزرها وتؤخذ به الأولى، وقد تقدّم مثل هذا في الأنعام.

---

(١) «جامع البيان» (١٤/ ٥٢٢)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٣/ ٤١)، و«النشر» (٢/ ٣٠٦)، و«البحر المحيط» (٧/ ٢٢ ـ ٢٣).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٣/ ٤١)، و«النشر» (٢/ ٣٠٦)، و«روح المعاني» (١٤/ ٤٢٤). وهما قراؤتان متواترتان.

(٣) انظر: المصادر المتقدمة. (٤) «الجامع لأحكام القرآن» (١٣/ ٤١).

(٥) ذكره أبو حيان في «البحر المحيط» (٧/ ٢٢ ـ ٢٣).

(٦) «مفردات ألفاظ القرآن» (ص٨٦٧)، و«الصحاح» (٢/ ٨٤٥).

قال الزجاج[١] في تفسير هذه الآية: إنّ الآثم والمذنب لا يؤاخذ بذنب غيره ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ لما ذكر سبحانه اختصاص المهتدي بهدايته والضالّ بضلاله، وعدم مؤاخذة الإنسان بجناية غيره، ذكر أنّه لا يعذب عباده إلّا بعد الإعذار إليهم بإرسال رسله، وإنزال كتبه، فبيَّن سبحانه أنّه لم يتركهم سدًى، ولا يؤاخذهم قبل إقامة الحجة عليهم، والظاهر: أنّه لا يعذبهم لا في الدنيا ولا في الآخرة إلّا بعد الإعذار إليهم بإرسال الرسل، وبه قالت طائفة من أهل العلم.

وذهب الجمهور إلى أنّ المنفي هنا هو عذاب الدنيا لا عذاب الآخرة.

﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا﴾ اختلف المفسرون في معنى ﴿أَمَرْنَا﴾ على قولين:

الأوّل: أنّ المراد به الأمر الذي هو نقيض النهي، وعلى هذا اختلفوا في المأمور به، فالأكثر على أنّه الطاعة والخير.

وقال في «الكشّاف»[٢]: معناه أمرناهم بالفسق[٣] ففسقوا، وأطال الكلام في تقرير هذا وتبعه المقتدون به في التَفْسير.

وما ذكره هو ومَنْ تابعه مُعارَض بمثل قول القائل: أمرته فعصاني، فإنّ كل من يعرف اللغة العربية يفهم مِنْ هذا أن المأمور به شيء غير المعصية؛ لأن المعصية منافية للأمر مناقضة له، فكذلك أمرته ففسق يدل على أنّ المأمور به شيء غير الفسق؛ لأنّ الفسق عبارة عن الإتيان بضد المأمور به، فكونه فسقاً ينافي كونه مأموراً به ويناقضه.

القول الثاني: أن معنى ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾: أكثرنا فُسّاقها.

قال الواحدي[٤]: تقول العرب: أمر القومُ إذا كثروا، وأمرهم الله إذا أكثرهم. وقد قرأ أبو عثمان النهدي، وأبو رجاء، وأبو العالية، والربيع، ومجاهد، والحسن «أمَّرنا» بتشديد الميم[٥]؛ أي: جعلناهم أُمراء مُسَلّطين.

---

(١) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ٢٣١). (٢) (٣/ ٥٠٠).

(٣) وإليك نص كلامه: أي: أمرناهم بالفسق ففعلوا، والأمر مجاز؛ لأن حقيقة أمرهم بالفسق أن يقول لهم: افسقوا، وهذا لا يكون فبقي أن يكون مجازاً.
قال ابن المنير في «الانتصاف»: «نص حسن».

(٤) في «الوسيط» (٣/ ٣/ ١٠١).

(٥) «الجامع لأحكام القرآن» (١٣/ ٤٥)، و«البحر المحيط» (٧/ ٢٦).

وقرأ الحسن أيضاً، وقتادة، وأبو حيوة الشامي، ويعقوب، وخارجة عن نافع وحمّاد بن سلمة عن ابن كثير وعليّ وابن عباس «آمَرنا» بالمد[١] والتخفيف؛ أي: أكثرنا جبابرتها وأمراءها. قاله الكسائي[٢].

وقال أبو عُبيدة[٣]: آمرته بالمدّ وأمرته لغتان بمعنى: كثّرته، ومنه الحديث: «خير المال مُهْرة مأمُورة»[٤]؛ أي: كثيرة النِّتاج والنّسل، وكذا قال ابن عزيز[٥]. وقرأ الحسن أيضاً، ويحيى بن يعمر (أمَرنا) بالقصر[٦] وكسر الميم على معنى فعلنا، ورويت هذه القراءة عن ابن عباس.

قال قتادة والحسن: المعنى: أكثرنا. وحكي نحوه[٧] أبو زيد وأبو عبيد وأنكره الكسائي وقال: لا يُقال مِنْ الكثرة إلّا آمرنا بالمدّ.

قال في الصّحاح[٨]: وقال أبو الحسن: أمر ماله بالكسر؛ أي: كثر، وأمر القوم أي: كثروا، ومنه قول لبيد[٩]:

إن يُغْبطوا يهبِطوا وإن أَمِروا يوماً يكُنْ للهَلاك والفَنَد

وقرأ الجمهور[١٠] (أَمَرْنا) مِنْ الأمر، ومعناه: ما قدّمنا في القول الأوّل.

ومعنى ﴿مُتْرَفِيهَا﴾: المُنعَّمون الذين قد أبطرتهم النعمةُ وسعةُ العيش،

---

(١) «النشر» (٢/ ٣٠٦)، و«زاد المسير» (٥/ ١٩)، و«البحر المحيط» (٧/ ٢٦).

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٣/ ٤٥). (٣) في «مجاز القرآن» (١/ ٣٧٣).

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/ ١٦٨)، والطبراني رقم (٦٤٠٧، ٦٤٧١)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (١/ ٤٣٨، ٤٣٩)، والبيهقي (١٠/ ٦٤)، والبغوي في «شرح السُّنَّة» رقم (٢٦٤٧)، وابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٧/ ٥٥) بسند ضعيف؛ لإرساله. سويد بن هبيرة، تابعي.

(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٣/ ٤٥).

(٦) «القراءات الشاذة» (ص٧٥)، و«المحتسب» (٢/ ١٦). قرأ يعقوب (آمرنا) بالمد وفتح الميم مخفّفة وقرأ باقي العشرة (أمرنا) بالقصر وفتح الميم مخففة وهما متواترتان أما قراءة (أمّرنا) بالقصر وفتح الميم المشددة وكذلك قراءة (أمِرنا) بالقصر وكسر الميم والرواية عن نافع وابن كثير كقراءة يعقوب انظر: «تخريج القراءات في فتح القدير» (ص١٩٩).

(٧) «روح المعاني» (١٤/ ٤٤٧)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٣/ ٤٧)، و«البحر المحيط» (٧/ ٢٦ - ٢٧).

(٨) «الصحاح» (٢/ ٥٨١). (٩) انظر: «ديوان لبيد بن ربيعة» (ص٥٠).

(١٠) «جامع البيان» (١٤/ ٥٢٩)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٣/ ٤٥)، و«روح المعاني» (١٤/ ٤٤٦)، و«البحر المحيط» (٧/ ٢٦).

والمفسرون يقولون في تفسير المُتْرفين: إنّهم الجبارون المتسلِّطون والملوك الجائرون، قالوا: وإنما خُصّوا بالذكر لأن مَنْ عداهم أتباع لهم.

ومعنى ﴿فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾: خرجوا عَنْ الطاعة وتمرّدوا في كُفْرهم لأن الفسوق الخروج إلى ما هو أفحش ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ﴾؛ أي: ثبت وتحقق عليهم العذاب بعد ظهور فسقهم ﴿فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا﴾ أي: تدميراً عظيماً لا يوقف على كُنْهه لشدته وعظم موقعه.

وقد قيل في تأويل ﴿أَمَرْنَا﴾: بأنّه مجاز عَنْ الأمر الحامل لهم على الفسق، وهو إدرار النِّعم عليهم، وقيل أيضاً: إن المراد بـ﴿أَرَدْنَآ﴾ أن نهلك قرية: أنه قرب إهلاك قرية، وهو عَدولٌ عن الظاهر بدون ملجئ إليه.

ثم ذكر سبحانه أن هذه عادته الجارية مع القرون الخالية فقال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ أي: كثيراً ما أهلكنا منهم، فـ«كم» مفعول[1] ﴿أَهْلَكْنَا﴾، و﴿مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ بيان لـ﴿كَمْ﴾ وتمييز[2] له؛ أي: كم مِنْ قوم كفروا من بعد نوح كعاد وثمود، فحلّ بهم البوار ونزل بهم سوط العذاب؟ وفيه تخويف لكفار مكة. ثم خاطب رسولَه بما هو ردع للناس كافة فقال: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾.

قال الفراء[3]: إنما يجوز إدخال الباء في المرفوع إذا كان يمدح به صاحبه أو يُذم به؛ كقولك: كفاك، وأكرم به رجلاً، وطاب بطعامك طعاماً، ولا يقال: قام بأخيك وأنت تريد: قام أخوك.

وفي الآية بشارة عظيمة لأهل الطاعة [٣/١٦٨] وتخويف شديد لأهل المعصية؛ لأنّ العلم التام والخبرة الكاملة والبصيرة النافذة تقتضي إيصال الجزاء إلى مستحقه بحسب استحقاقه، ولا ينافيه مَزيد التفضل على مَنْ هو أهل لذلك، والمراد بكونه سبحانه ﴿خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾: أنّه محيط بحقائق الأشياء ظاهراً وباطناً لا تخفى عليه منها خافية.

وقَدْ أخرج البيهقي في «دلائل النبوّة»، وابنُ عساكر عَنْ سعيد المقبري[4]: «أن عبد الله بن سَلام سأل النبي ﷺ عن السواد الذي في القمر، فقال: كانا شَمْسينِ، قال الله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ فالسواد الذي رأيتَ هو المحو».

---

(١) «الفريد» (٣/ ٢٦٥)، و«التبيان» (٢/ ٨١٦)، و«روح المعاني» (١٤/ ٤٤٩).
(٢) انظر: المصادر المتقدمة. (٣) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١١٩).
(٤) أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» (٦/ ٢٦١، ٢٦٢)، وابن عساكر في «تاريخه» (٢٩/ ١١٠ ـ ١١٢).

وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس(١)، عن النبي ﷺ معنى هذا بأطول منه.

قال السيوطي(٢): وإسناده واهٍ.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري في «المصاحف» عن عليّ(٣) في قوله: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ قال: هو السواد الذي في القمر.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس(٤) نحوه.

وأخرج ابنُ جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة(٥) في قوله: ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ قال: منيرة ﴿لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ قال: جعل لكم سبحاً طويلاً.

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس(٦) في قوله: ﴿فَصَّلْنَٰهُ﴾ قال: بيّنّاه.

وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، وابن جرير بسندٍ حسن عن جابر(٧): سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «طائرُ كلِّ إنسان في عُنقه».

وأخرج ابنُ جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس(٨) في قوله: ﴿أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ قال: سعادتَه وشقاوتَه وما قدّر الله له وعليه فهو لازِمُه أين كان.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر عن أنس(٩) في قوله: ﴿طَٰٓئِرَهُۥ﴾ قال: كتابه.

---

(١) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٢٤٧).
(٢) في «الدر المنثور» (٥/ ٢٤٧).
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٥١٥، ٥١٦) بسند جيد.
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٥١٦ ـ ٥١٧) بسند ضعيف.
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٥١٧، ٥١٨) بسند صحيح.
(٦) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٢٤٨).
وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٥١٨) عن قتادة. بسند صحيح.
(٧) أخرجه أحمد رقم (٤٦٩١، ١٤٧٦٥، ١٤٨٧٨)، وعبد بن حميد في «المنتخب» رقم (١٠٥٣)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٥١٩) بسند ضعيف.
(٨) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٥١٩) بسند ضعيف.
(٩) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٣/ ٣٦٧).

وأخرج ابنُ جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس(١) قال: عمله.

﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ قال: هو عملُه الذي أُحْصي عليه، فأُخْرج له يوم القيامة ما كُتب له مِنْ العمل فقرأه منشوراً.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة(٢) في قوله: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾ قال: سيقرأ يومئذٍ مَنْ لم يكن قارئاً في الدنيا.

وأخرج ابن عبد البرّ في «التمهيد»(٣) عن عائشة في قوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ قال: سألتْ خديجةُ عَنْ أولاد المشركين فقال: «هم مِنْ آبائهم»، ثم سألته بعد ذلك فقال: «الله أعلمُ بما كانوا عاملين»، ثم سألته بعد ما استحكم الإسلام فنزلتْ ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ فقال: «هم على الفطرة». أو قال: «في الجنّة».

قال السيوطي(٤): وسندُه ضعيف.

وقد ثبت في «الصحيحين»(٥) وغيرهما: أَنَّ النبي ﷺ سئل فقيل له: «يا رسول الله إنّا نصيب في البيات مِنْ ذراري المشركين، قال: هم منهم».

وفي ذلك أحاديث كثيرة وبحثٌ طويل.

وقد ذكر ابنُ كثير(٦) في تفسير هذه الآية غالب الأحاديث الواردة في أطفال المشركين، ثم نقل كلام أهل العلم في المسألة، فَلْيُرجع إليه.

وأخرج إسحاق بن راهويه، وأحمد، وابنُ حبّان، وأبو نعيم في «المعرفة»، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي في كتاب «الاعتقاد» عن الأسود بن سريع(٧) أن

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٥٢٣) بسند ضعيف.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٥٢٥) بسند صحيح.

(٣) أخرجه عبد البر في «التمهيد» (١٨/ ١١٧) بسند ضعيف.

(٤) في «الدر المنثور» (٥/ ٢٥١).

(٥) أخرجه البخاري رقم (٣٠١٢، ٣٠١٣)، ومسلم رقم (٢٦، ٢٧/ ١٧٤٥)، وأبو داود رقم (٢٦٧٢)، والترمذي رقم (١٥٧٠) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي في «الكبرى» رقم (٨٦٢٢، ٨٦٢٤)، وابن ماجه رقم (٢٨٣٩) كلهم عن الصعب بن جثامة.

(٦) في «تفسيره» (٨/ ٤٤٧ ـ ٤٦٠).

(٧) أخرجه إسحاق بن راهويه رقم (٤١)، وأحمد رقم (١٦٣٠١)، وابن حبان رقم (٧٣٥٧)، وأبو نعيم في «المعرفة» (١/ ٢٥٦ رقم ٩١١)، والطبراني رقم (٨٤١)، والبيهقي في كتاب «الاعتقاد» (ص٢٠٢) بسند حسن.

النبي ﷺ قال: «أربعة يَحتجّون يوم القيامة: رجل أَصمّ لا يسمع شيئاً، ورجل أحمق، ورجل هَرِمٌ، ورجل مات في الفَتْرة، ثم قال: فيأخذ الله مواثيقهم ليطيعنه ويرسل إليهم رسولاً أنْ أدخلوا النّار، قال: فوالذي نفس محمد بيده لو دخلوها لكانت عليهم بَرْداً وسلاماً، ومَنْ لم يدخلها يُسْحب إليها».

وإسناده عند أحمد، هكذا حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا مُعاذ بن هشام، حدثني أبي عَنْ قتادة، عَنْ الأحنف بن قيس، عَنْ الأسود بن سريع.

وأخرج نحوه إسحاق بن راهويه، وأحمد، وابن مردويه عن أبي هريرة[(١)].

وهو عند أحمد بالإسناد المذكور عَنْ قتادة، عن الحسن، عن أبي رافع، عن أبي هريرة.

وأخرج قاسم بن أَصْبَغ، والبزار، وأبو يعلى، وابن عبد البرّ في «التمهيد» عن أنس[(٢)] قال: قال رسول الله ﷺ فذكر نحوه. وجعل مكان الأحمق: المعتوه.

وأخرج الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول»، والطبراني، وأبو نعيم عن مُعاذ بن جبل[(٣)] عن رسول الله ﷺ قال: «يُؤتى يوم القيامة بالممسوح عقلاً وبالهالك في الفترة، وبالهالك صغيراً» فذكر معناه مطولاً.

---

(١) أخرجه إسحاق بن راهويه رقم (٤٢)، وأحمد في «مسنده» رقم (١٦٣٠٢)، والبيهقي في كتاب «الاعتقاد» (ص٢٠٣) بسند حسن.

(٢) أخرجه البزار في «مسنده» رقم (٢١٧٧ ـ كشف)، وأبو يعلى رقم (٤٢٢٤)، وابن عبد البر في «التمهيد» (١٨/ ١٢٨) بسند ضعيف.
قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢١٩): «رواه أبو يعلى والبزار بنحوه، وفيه ليث بن أبي سليم وهو مدلس، وبقية رجال أبي يعلى رجال الصحيح».
وتعقب الهيثمي بأن عبد الوارث ليس من رجال الصحيح، وهو مولى أنس. قال الذهبي في «المغني» (٢/ ٤١٢ رقم ٣٨٨٥): «ضعفه الدارقطني»، وقال البخاري: «منكر الحديث».

(٣) أخرجه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (١/ ٣١٢، ٣١٣)، والطبراني في «الكبير» (ج٢٠ رقم ١٥٨)، وفي «الأوسط» رقم (٧٩٥٥)، وأبو نعيم (٥/ ١٢٧) (٧/ ٢١٧).
وقال ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٢/ ٤٤١): «هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، وفي إسناده: عمرو بن واقد، قال ابن مسهر: ليس بشي، وقال الدارقطني: متروك، وقال ابن حبان: يروي المناكير عن المشاهير، فاستحق الترك».
وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢١٩ ـ ٢٢٠): «فيه عمرو بن واقد، وهو متروك عند البخاري وغيره، ورمي بالكذب».

وأخرج ابنُ جرير مِنْ طريق ابن جريج عن ابن عباس[(١)] في قوله: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ قال: بطاعة الله فعصوا.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير[(٢)] مثله.

وأخرج ابن أبي حاتم عن شهر بن حوشب[(٣)] قال: سمعتُ ابن عباس يقول في الآية: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ بحقٍ فخالفوه، فحق عليهم بذلك التدمير.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «الأسماء والصفات» عنه[(٤)] في الآية قال: سلّطنا شرارَها فعصوا، فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم بالعذاب، وهو كقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا﴾ [الأنعام: ١٢٣].

وأخرج البخاري، وابن مردويه عن ابن مسعود[(٥)] قال: كنا نقول للحي إذا كثروا في الجاهلية: قد أَمِر بنو فلان.

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٥٢٧) بسند ضعيف.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٥٢٨) بسند ضعيف.

(٣) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٢١).

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٥٢٩)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» رقم (٣٢٣) بسند صحيح.

(٥) أخرجه البخاري في «صحيحه» رقم (٤٧١١).

قولُه: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ﴾ هذا تأكيد لما سلف من جملة ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ﴾ [الإسراء: ١٣]، ومِنْ جملة ﴿مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ [الإسراء: ١٥]، والمراد بالعاجلة: المنفعة العاجلة، أو الدار العاجلة. والمعنى: مَنْ كان يريد بأعمال البِرّ أو بأعمال الآخرة ذلك، فيدخل تحته[١]: الكفرةُ والفسقة والمراؤون والمنافقون ﴿عَجَّلۡنَا لَهُۥ﴾ أي: عجّلنا لذلك المُريد ﴿فِيهَا﴾: أي: في تلك العاجلة، ثُم قيد المُعجَّل[٢] بقيدين:

الأوّل: قوله: ﴿مَا نَشَآءُ﴾ أي: ما يشاء الله سبحانه تعجيله له منها، لا ما يشاؤه ذلك المُريد، ولهذا ترى كثيراً مِنْ هؤلاء المُريدين للعاجلة يُريدون مِنْ الدنيا ما لا ينالون، ويتمنّون ما لا يصلون إليه.

والقيد الثاني: قوله: ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾ أي: لمن نريد التعجيل له منهم ما اقتضته مشيئتنا.

وجملة ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾ بدل مِنْ الضمير[٣] في «له» بإعادة الجار بدل البعض من الكل؛ لأنَّ الضمير يرجع إلى «مَنْ» وهو للعموم.

وهذه الآية تُقيّد الآيات المطلقة؛ كقوله سبحانه: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا﴾ [الشورى: ٢٠]، وقوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ﴾ [هود: ١٥].

وقد قيل: إنّه قُرئ (ما يشاء) بالياء[٤] التحتية، ولا نَدْري مَنْ قرأ[٥] بذلك من أهل الشواذ، وعلى هذه القراءة فقيل: الضمير لله سبحانه؛ أي: ما يشاؤه الله فيكون معناها معنى القراءة بالنُّون، وفيه بُعد لمخالفته لما قبله، وهو (عجّلنا) وما بعده وهو (لمن نُريد)؛ وقيل: الضمير[٦] راجعٌ إلى «مَنْ» في قوله: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ﴾ فيكون ذلك

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٣/ ٤٨ ـ ٤٩)، و«جامع البيان» (١٤/ ٥٣٥ ـ ٥٣٦).
(٢) «روح المعاني» (١٤/ ٤٥٠ ـ ٤٥١)، و«البحر المحيط» (٧/ ٢٨).
(٣) «التبيان» (٢/ ٨١٦)، و«الفريد» (٣/ ٢٦٥)، و«روح المعاني» (١٤/ ٤٥١).
(٤) «البحر المحيط» (٧/ ٢٨)، و«روح المعاني» (١٤/ ٤٥١).
(٥) نسبها أبو حيان في «البحر المحيط» (٧/ ٢٨) إلى نافع. وهي قراءة شاذة، ورواية شاذة عن نافع.
(٦) «التبيان» (٢/ ٨١٦)، و«الفريد» (٣/ ٢٦٥)، و«البحر المحيط» (٧/ ٢٨)، و«روح المعاني» (١٤/ ٤٥١).

مُقيداً بقوله: ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾؛ أي: عجّلنا له ما يشاؤه، لكنْ بحسب إرادتنا، فلا يحصل لمن أراد العاجلة ما يشاؤه إلّا إذا أراد الله له ذلك، ثُمّ بعد هذا كله فمن وراء هذه الطُّلْبة الفارغة التي لا تأثير لها إلّا بالقيدين المذكورين عذاب الآخرة الدائم، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ﴾ أي: جعلّنا له بسبب تركه لما أمر به مِنْ العمل للآخرة وإخلاصه عَنْ الشوائب عذاب جهنّم على اختلاف أنواعه ﴿يَصْلَىٰهَا﴾ في محل نصب[1] على الحال؛ أي: يدخلها ﴿مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ أي: مطروداً مِنْ رحمة الله مُبْعداً عَنْها، فهذه عقوبته في الآخرة مع أَنَّه لا ينال مِنْ الدنيا إلّا ما قدره الله سبحانه له، فأينَ حال هذا الشقيّ مِنْ حال المؤمن التقيّ؟ فإنّه ينال مِنْ الدنيا ما قدّره الله له وأرادَه بلا هَلَعٍ مِنْه ولا جزعٍ، مع سكون نفسه، واطمئنان قلبه وثقته بربه، وهو مع ذلك عامل للآخرة منتظر للجزاء مِنْ الله سبحانه، وهو الجنّة، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ أي: أراد بأعماله الدار الآخرة ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ أي: السعي الحقيق بها اللّائق بطالبها، وهو الإتيان بما أُمر به، وترك ما نُهي عَنْه خالصاً لله غير مشوب، وكان الإتيان به على القانون الشرعي مِنْ دون ابتداع ولا هوى ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بالله إيماناً صحيحاً؛ لأنّ العمل الصالح لا يستحق صاحبه الجزاء عليه [٣/١٦٩] إلّا إذا كان مِنْ المؤمنين: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

والجملة في محل نصب[2] على الحال، والإشارة بقوله: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾ إلى المُريدين للآخرة، الساعين لها سعيها، وخَبرُه ﴿كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ عند الله؛ أي: مقبولاً غير مردود، وقيل: مُضَاعفاً إلى أضعافٍ كثيرة، فقد اعتبر سبحانه في كون السعي مشكوراً أموراً ثلاثة:

الأول: إرادة الآخرة.

الثاني: أن يسعى لها السعي الذي يحق لها.

والثالث: أنْ يكون مؤمناً.

ثم بيَّن سبحانه كمال رأفته، وشمول رحمته فقال: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ

(١) «الفريد» (٣/٢٦٦)، و«روح المعاني» (١٤/٤٥٢)، و«التبيان» (٢/٨١٦).

(٢) «التبيان» (٢/٨١٦)، و«الفريد» (٣/٢٦٦)، و«روح المعاني» (١٤/٤٥٤).

عَطَآءِ رَبِّكَۚ﴾ التنوين في «كلّاً» عوض[١] عَنْ المضاف إليه، والتقدير كل واحد من الفريقين نُمدّ؛ أي: نزيده مِنْ عطائنا على تلاحقٍ مِنْ غير انقطاع، نرزق المؤمنين والكفار وأهل الطاعة وأهل المعصية، لا تؤثّر معصيةُ العاصي في قطع رزقه وما به الإمداد هو ما عجّله لمن يريد الدنيا، وما أنعم به في الأولى والأخرى على من يريد الآخرة.

وفي قوله: ﴿مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ﴾ إشارة إلى أنّ ذلك بمحض التفضل وهو متعلق بـ﴿نُّمِدُّ﴾ ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا﴾ أي: ممنوعاً، يقال: حظَرَه يَحْظُره حَظْراً: منَعَه، وكل ما حال بينك وبين شيء فقد حظَرَه عليك، ومِنْ «هؤلاء» بدل[٢] من «كلّاً» و«هؤلاء» معطوف على البدل.

قال الزّجاج[٣]: أعلم الله سبحانه أَنَّه يُعطي المسلمَ والكافر، وأنّه يرزقهما جميعاً الفريقين فقال: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ﴾. ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ﴾ الخطاب لمحمد ﷺ، ويحتمل أن يكون لكل مَنْ له أهْليّة النظر والاعتبار، وهذه الجملة مقرّرة لما مرّ مِنْ الإمداد وموضحة له.

والمعنى: انظر كيف فضلنا في العطايا العاجلة بعضَ العباد على بعض، فمن غني وفقير، وقوي وضعيف، وصحيح ومريض، وعاقل وأحمق؛ وذلك لحكمة بالغة تقصر العقول عن إدراكها ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا﴾ وذلك لأن نسبة التفاضل في درجات الآخرة إلى التفاضل في درجات الدنيا كنسبة الآخرة إلى الدنيا، وليس للدنيا بالنسبة إلى الآخرة مقدار، فلهذا كانت الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً.

وقيل: المراد: أنّ المؤمنين يدخلون الجنة والكافرين يدخلون النار فتظهر فضيلة المؤمنين على الكافرين.

وحاصل المعنى: أنّ التفاضل في الآخرة ودرجاتها فوق التفاضل في الدنيا ومراتب أهلها فيها مِنْ بَسْط وقبض ونحوهما.

ثم لما أجمل سبحانه أعمال البِرّ في قوله: ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ أخذ

---

(١) «الفريد» (٣/ ٢٦٦)، و«التبيان» (٢/ ٨١٦)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٤٢٠).

(٢) انظر: المصادر المتقدمة.

(٣) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ٢٣٣).

في تفصيل ذلك مبتدئاً بأشرفها الذي هو التوحيد فقال: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ والخطاب للنبي ﷺ والمراد به أمته تهييجاً وإلهاباً، أو لكل متأهل له صالح لتوجيهه إليه، وقيل: هو على إضمار القول، والتقدير: قل لكل مُكلّفٍ: لا تجعل، وانتصاب[١] (تقعد) على جواب النهي.

والتقدير: لا يكون مِنْك جَعْلٌ فقعود؛ ومعنى (تقعد) تصير، مِنْ قولهم: شحذ الشّفْرة حتى قَعَدتْ كأنها خربة، وليس المراد حقيقة القَعود المقابل للقيام؛ وقيل: هو كناية عَنْ عدم القدرة على تحصيل الخيرات، فإنّ السعي فيه إنما يتأتى بالقيام، والعجز عنه يلزمه أَنْ يكون قاعداً عَنْ الطلب؛ وقيل: إن من شأن المذموم المخذول أَنْ يقعد نادماً مفكراً على ما فرط منه، فالقعود على هذا حقيقة.

وانتصاب[٢] ﴿مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ على خبرية تقعد أو على الحال؛ أي: فتصير جامعاً بين الأمرين: الذم لك مِنْ الله ومن ملائكته، ومِنْ صالحي عباده، والخذلان لك منه سبحانه، أو حال كونك جامعاً بين الأمرين.

ثم لمّا ذكر ما هو الركن الأعظم وهو التوحيد أتبعه سائر الشعائر والشرائع فقال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ أي: أمر أمراً جَزْماً، وحُكْماً قطعاً، وحتماً مبرماً ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ﴾ أي: بأنْ لا تعبدوا، فتكون «أن» ناصبة[٣]، ويجوز أن تكون مفسّرة و«لا» نهي.

وقُرِئَ[٤] (ووصّى ربُّك) أي: وصّى عبادَه بعبادته وحدَه، ثم أردفه بالأمر ببرّ الوالدين فقال: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ أي: وقضى بأنْ تُحسنوا بالوالدين إحسانا، أو: وأحسنوا بهما إحْساناً، ولا يجوز أَنْ يتعلق بـ (الوالدين) بـ﴿إحسانا﴾؛ لأن المصدر[٥] لا يتقدّم عليه ما هو متعلق به.

قيل: ووجه ذكر[٦] الإحسان إلى الوالدين بعد عبادة الله سبحانه: أنهما السبب

---

(١) «روح المعاني» (١٤/ ٤٦٥)، و«البحر المحيط» (٧/ ٣٠)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٤٢٠).
(٢) «الفريد» (٣/ ٢٦٦)، و«روح المعاني» (١٤/ ٤٦٦).
(٣) «الفريد» (٣/ ٢٦٦ ـ ٢٦٧)، و«البحر المحيط» (٧/ ٣١ ـ ٣٢)، و«التبيان» (٢/ ٨١٧).
(٤) وهي قراءة شاذة.
(٥) «الكشاف» (٣/ ٥٠٦ ـ ٥٠٧)، و«روح المعاني» (١٤/ ٤٦٨).
(٦) «جامع البيان» (١٤/ ٥٤٣)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (٣/ ١١٨٤).

الظاهر في وجود المتولد بينهما، وفي جعل الإحسان إلى الأبوين قريناً لتوحيد الله وعبادته مِنْ الإعلان بتأكّد حقهما، والعناية بشأنهما ما لا يَخْفى، وهكذا جعل سبحانه في آية أخرى شكرهما مقترناً بشكره فقال: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾ [لقمان: ١٤].

ثم خصّ سبحانه حالة الكِبَر بالذكر لكونها إلى البِّر من الولد أحوج من غيرها فقال: ﴿إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا﴾ «إمّا» مركبة[١] من «إِنْ» الشرطية و«ما» الإبهامية لتأكيد معنى الشرط ثم أُدخلت نون التوكيد في الفعل لزيادة التقرير كأنه قيل: إن هذا الشرط مما سيقع ألبتة عادة.

قال النحويون: إنّ الشرط[٢] يُشْبه النهي مِنْ حيث الجزم وعدم الثبوت، فلهذا صح دخول النون المؤكدة عليه.

وقرأ حَمْزة[٣] والكسائي (يَبْلغانِّ).

قال الفراء[٤]: ثَنّى لأن الوالدين قد ذُكرا قبله فصار الفعل على عددهما، ثم قال: ﴿أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا﴾ على الاستئناف، وأمّا على قراءة (يَبْلغنَّ)[٥] فـ(أحدهما) فاعل بالاستقلال وقوله: ﴿أَوۡ كِلَاهُمَا﴾ فاعل أيضاً لكن لا بالاستقلال؛ بل بتبعية العطف، والأولى أَنْ يكون (أحدهما) على قراءة (يبلغان) بدل[٦] من الضمير الراجع إلى الوالدين في الفعل ويكون «كلاهما» عطفاً على البدل.

ولا يصحّ جعل (كلاهما) تأكيداً للضمير لاستلزام العطف المشاركة، ومعنى ﴿عِندَكَ﴾: في كنفك وكفالتك، وتوحيد الضمير في ﴿عِندَكَ﴾ و (لا تقل) وما بعدهما للإشعار بأنّ كل فرد مِنْ الأفراد منهيّ بما فيه النهي، ومأمور بما فيه الأمر.

ومعنى ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ﴾: لا تقل لواحدٍ منهما في حالتي الاجتماع

---

(١) «الفريد» (٣/ ٢٦٧)، و«التبيان» (٢/ ٨١٧)، و«البحر المحيط» (٧/ ٣٥).
(٢) «الكشاف» (٣/ ٥٠٧)، و«الدر المصون» (٧/ ٣٣٥).
(٣) «التيسير» (ص١٣٩)، و«النشر» (٢/ ٣٠٦)، و«البحر المحيط» (٧/ ٣٥). قراءةُ حمزة والكسائي متواترة، ومعهما خلف والبزار، وهي بألف بعد الغين وبعدها نون مشدّدة مكسورة (يَبْلغانِّ) وقرأ بقية العشرة بحذف الألف (يبلغنَّ).
(٤) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١٢٠).
(٥) «جامع البيان» (١٤/ ٥٤٤)، و«روح المعاني» (١٤/ ٤٦٩)، و«النشر» (٢/ ٣٠٦)، و«البحر المحيط» (٧/ ٣٥).
(٦) «التبيان» (٢/ ٨١٧)، و«الفريد» (٣/ ٢٦٧)، و«الدر المصون» (٧/ ٣٣٥ ـ ٣٣٦).

والانفراد، وليس المراد: حالة الاجتماع فقط، وفي أُفٍّ لغات: ضم الهمزة مع الحركات[١] الثلاث في الفاء، وبالتنوين وعدمه، وبكسر الهمز والفاء بلا تنوين، وأفي ممالاً، وأفه بالهاء.

قال الفراء[٢]: تقول العرب: فلانٌ يتأفّف مِنْ ريح وجدها؛ أي: يقول: أُفْ أُفْ.

وقال الأصمعي[٣]: الأفُ وسخ الأذن، والتفُّ وسخ الأظفار، يقال ذلك عند استقذار الشيء، ثم كَثُر حتى استعملوه في كلِّ ما يتأذون به.

وروى ثعلب عَنْ ابن الأعرابيّ أن الأفف الضجر.

وقال القتيبي[٤]: أصله أَنَّه إذا سقط عليه تراب ونحوه نفخ فيه ليزيله، فالصوت الحاصل عند تلك النفخة هو قول القائل: أفّ، ثم توسّعوا فذكروه عند كل مكروه يصل إليهم.

وقال الزجاج[٥]: معناه النَّتْنُ.

وقال أبو عمرو بن العلاء[٦]: الأُفْ: وسخٌ بين الأظفار، والتفّ: قلامتُها.

والحاصل: أنّه اسمُ فعلٍ ينبئ عَنْ التضجّر والاستثقال، أو صوت ينبئ عن ذلك، فنهى الولد عَنْ أن يظهر منه ما يدل على التضجّر مِنْ أبويه أو الاستثقال لهما، وبهذا النهي يفهم النهي عَنْ سائر ما يؤذيهما بفحوى الخطاب أو بلحْنه كما هو متقرر في الأصول[٧] ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ النهر: الزجْر والغِلْظة، يقال: نهره وانتهره: إذا استقبله بكلام يزجره.

قال الزجّاج[٨]: معناه: لا تكلمهما ضَجِراً صائحاً في وجوههما ﴿وَقُل لَّهُمَا﴾ بدل التأفيف والنهر ﴿قَوْلًا كَرِيمًا﴾ أي: ليناً لطيفاً أحسنَ ما يُمكن التعبير عَنْه من

---

(١) «تهذيب اللغة» (١٤/ ٢٥٥) و(١٥/ ٥٨٩).
(٢) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١٢١).
(٣) ذكره الأزهري في «تهذيب اللغة» (١٥/ ٥٨٩).
(٤) في «تأويل مشكل القرآن» (ص١١١).
(٥) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ٢٣٤).
(٦) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٣/ ٥٨).
(٧) انظر: «البحر المحيط» (٤/ ١٢)، و«المستصفى» (٣/ ٤١١، ٤١٢)، و«إرشاد الفحول» (ص٥٨٩) ط. ابن كثير.
(٨) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ٢٣٤).

لطف القول وكرامته مع التأدّب والحياء والاحتشام ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ ذكر القفّال في معنى[١] خفض الجناح وجهين:

الأول: أنّ الطائر إذا أراد ضم فراخَه إليه للتربية خفض لها جناحه، فلهذا صار خفض الجناح كنايةً عن حسن التدبير، فكأنّه قال للولد: أكفل والديك بأن تضمهما إلى نفسك كما فعلا ذلك بك في حال صغرك.

والثاني: أنّ الطائر إذا أراد الطيران والارتفاع نشر جناحه، وإذا أراد النزول خفض جناحه، فصار خفض الجناح كنايةً عَنْ التواضع، وترك الارتفاع.

وفي إضافة الجناح[٢] إلى الذلّ وجهان:

الأوّل: أنها كإضافة حاتم إلى الجود في قولك حاتمُ الجود، فالأصل فيه الجناح الذليل.

والثاني: سلوك سبيل الاستعارة كأنّه تخيل للذلّ جناحاً ثم أثبت لذلك الجناح خفضاً.

وقرأ الجمهور (الذُّلّ) بضم الذال[٣] مِنْ ذلّ يَذِل ذُلّاً وذِلةً ومَذَلّةً فهو ذليل.

وقرأ [٣/١٧٠] سعيد بن جبير، وعروة بن الزبير بكسر الذال[٤]، وروي ذلك عن ابن عباس وعاصم، مِنْ قولهم: دابة ذَلول بيّنة الذِّل؛ أي: منقادة سهلة لا صعوبة فيها، ومِنْ الرحمة فيه معنى التعليل؛ أي: مِنْ أجل فرط الشفقة والعطف عليهما لكبرهما وافتقارهما اليوم لمن كان أفقر خلق الله إليهما بالأمس، ثُمّ كأنه قال له سبحانه: ولا تكتف برحمتك التي لا دوام لها ﴿وَ﴾ لكن ﴿قُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ والكاف في محل نصب[٥] على أنّه صفة لمصدر محذوف؛ أي: رحمة مثل تربيتهما لي أو مثل رحمتهما لي.

وقيل: ليس المراد رحمة مثل الرحمة؛ بل الكاف لاقترانهما في الوجود فلتقع هذه كما وقعت تلك.

---

(١) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (١٤/ ٤٧٢)، والزمخشري في «الكشاف» (٣/ ٥٠٧ ـ ٥٠٨).
(٢) «تفسير أبي السعود» (٤/ ٤١٩)، و«روح المعاني» (١٤/ ٤٧٣)، و«الكشاف» (٣/ ٥٠٨).
(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١٣/ ٥)، و«جامع البيان» (١٤/ ٥٥١)، و«روح المعاني» (١٤/ ٤٧٣)، و«البحر المحيط» (٧/ ٣٨).
(٤) «القراءات الشاذة» (ص٧٦)، و«المحتسب» (٢/ ١٨). وقراءة الجمهور بالضم هي القراءة المتواترة، أما القراءة بالكسر فشاذة، والرواية عن عاصم بالكسر شاذة عنْه.
(٥) «التبيان» (٢/ ٨١٨)، و«الفريد» (٣/ ٢٦٩)، و«روح المعاني» (١٤/ ٤٧٤).

والتربية: التَنْمية، ويجوز أَنْ يكون الكاف للتعليل؛ أي: لأجل تربيتهما لي كقوله: ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨]. ولقد بالغ سبحانه في التوصية بالوالدين مبالغة تقشعرّ لها جلودُ أهل العقوق، وتقف عندها شعورهم.

وقد أخرج ابنُ أبي حاتم[(١)] عن الضحاك في قوله: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ قال: مَنْ كان يريد بعمله الدنيا ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ ذاك به.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو نعيم في «الحلية» عن الحسن[(٢)] في قوله: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ﴾ الآية قال: كل يرزق الله في الدنيا البرِّ والفاجر.

وأخرج ابنُ جرير، وابن المنذر عن ابن عباس[(٣)] في الآية قال: يرزق الله من أراد الدنيا، ويرزق مَنْ أراد الآخرة.

وأخرج ابن أبي حاتم[(٤)] عن الضحاك قال: ﴿مَحْظُورًا﴾ ممنوعاً.

وأخرج ابنُ جرير، وابن أبي حاتم عن ابن زيد[(٥)] مثله.

وأخرج الطبراني، وابنُ مردويه، وأبو نعيم في «الحلية» عن سلمان[(٦)] عن النبي ﷺ قال: «ما مِنْ عبدٍ يريد أَنْ يرتفع في الدنيا درجةً فارتفع بها إلّا وضعه الله في الآخرة درجةً أكبر مِنْها وأطول، ثم قرأ ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾»، وهو مِنْ رواية زاذان عَنْ سلمان.

وثبت في «الصحيحين»[(٧)]: «أنّ أهل الدرجات العلى ليرون أهل عليين كما يرون الكوكب الغابر في أُفق السماء».

---

(١) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٢٢).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٥٣٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٣٢) بسند حسن.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٥٣٩) بسند ضعيف.

(٤) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٢٣).

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٥٣٩) بسند صحيح.

(٦) أخرجه الطبراني رقم (٦١٠١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢٠٣، ٢٠٤). وهو حديث ضعيف.

(٧) أخرجه البخاري رقم (٣٢٥٦) و(٦٥٥٦)، ومسلم رقم (٢١/ ٢٨٣١)، والترمذي رقم (٣٦٥٨) وقال: «حديث حسن»، وابن ماجه رقم (٩٦) كلهم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[١] في قوله: ﴿مَذْمُومًا﴾ يقول: ملوماً.

وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن الأنباري في «المصاحف» مِنْ طريق سعيد بن جبير عَنْ ابن عباس[٢] أنه قرأ: (ووصى[٣] ربُّك)، مكان ﴿وَقَضَىٰ﴾، وقال: التزقت الواو والصاد وأنتم تقرؤونها ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم[٤] من طريق الضحاك عنه مثله.

وأخرج أبو عبيد، وابن منيع، وابن المنذر، وابن مردويه من طريق ميمون بن مهران[٥] عنه أيضاً مثله وزاد: «ولو نزلت على القضاء ما أشرك به أحد».

وأقول: إنّما يلزم هذا لو كان القضاء بمعنى الفراغ مِنْ الأمر، وهو وإن كان أحد معاني مُطلق القضاء، كما في قوله: ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف: ٤١]. وقوله: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٠٠]. ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [النساء: ١٠٣]. ولكنه ها هنا بمعنى الأمر، وهو أحد معاني القضاء والأمر لا يستلزم ذلك، فإنّه سبحانه قد أمر عباده بجميع ما أوجبه، ومِنْ جملة ذلك إفراده بالعبادة وتوحيده وذلك لا يستلزم أَنْ لا يقع الشرك مِنْ المشركين، ومن معاني مطلق القضاء معانٍ أخر غير هذين المعنيين كالقضاء بمعنى: الخلق، ومنه ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ [فصلت: ١٢]. وبمعنى الإرادة؛ كقوله: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧، مريم: ٣٥]. وبمعنى: العهد؛ كقوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ [القصص: ٤٤].

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر من طريق عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس[٦] في قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ قال: أمر.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٥٣٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٤٤٧ رقم ٨٢٦٩) بسند صحيح.

(٢) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٢٥٧).

(٣) وهي قراءة شاذة. قال ابن الجوزي في «زاد المسير» (٥/ ٣٢): «وهذا خلاف ما انعقد عليه الإجماع فلا يلتفت إليه».
وانظر: «جامع البيان» (١٤/ ٥٤٣)، و«روح المعاني» (١٤/ ٤٦٧)، و«البحر المحيط» (٧/ ٣٣).

(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٢٥٧).

(٥) أخرجه ابن منيع كما في «المطالب العالية» رقم (٤٠٣١).

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٥٤٢) بسند صحيح.

وأخرج ابن المنذر عن مجاهد[1] في الآية قال: عهد ربك.

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن[2] في قوله: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ يقول: بِرّاً.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد[3] في قوله: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ لمّا تُميط عنهما مِنْ الأذى: الخلاء والبول كما كانا لا يقولانه فيما كانا يُميطان عنك مِنْ الخلاء والبول.

وأخرج الديلمي عَنْ الحسين بن عليّ[4] مرفوعاً: «لو علم الله شيئاً مِنْ العقوق أدنى مِنْ أف لحرّمه».

وأخرج ابن أبي حاتم[5] عن زهير بن محمد في قوله: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ قال: إذا دعواك فقل: لبيّكما وسعديكما.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة[6] في الآية قال: قولاً ليناً سهلاً.

وأخرج البخاري في «الأدب»، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عروة[7] في قوله: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ قال: يلين لهما حتى لا يمتنع مِنْ شيء أحبّاه.

وأخرج ابن أبي حاتم[8] عن سعيد بن جبير في الآية قال: اخضع لوالديك كما يخضع العبد للسيد الفظ الغليظ.

وأخرج ابنُ جرير، وابنُ أبي حاتم مِنْ طريق عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس[9] في قوله: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا﴾ ثم أنزل الله بعد هذا: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ﴾ [التوبة: ١١٣].

---

(١) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٢٥٨).
(٢) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٢٣).
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٥٤٥)، وابن أبي شيبة (٨/ ٥٤٣) بسند ضعيف.
(٤) أخرجه الديلمي في «مسنده» رقم (٥٠٦٣).
(٥) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٢٥٩).
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٥٤٩) بسند صحيح.
(٧) أخرجه البخاري في «الأدب» رقم (٩١)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٥٥٠) بسند صحيح.
(٨) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٢٤).
(٩) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٥٥٤) بسند صحيح.

وأخرج البخاريُّ في «الأدب المفرد»، وأبو داود، وابن جرير، وابن المنذر من طرق عنه نحوه[١].

وقد ورد في برّ الوالدين أحاديث كثيرة ثابتة في «الصحيحين» وغيرهما، وهي معروفة في كتب الحديث.

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ
ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ
وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا
مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾
إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ
خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ
فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ
جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾.

قوله: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ﴾؛ أي: بما في ضمائركم[٢] من الإخلاص وعدمه في كل الطاعات، ومِنْ التوبة من الذنب الذي فَرَط منكم أو الإصرار عليه، ويندرج تحت هذا العموم ما في النفس مِنْ البرّ والعقوق اندراجاً أوّليّاً.

وقيل: إن الآية خاصة بما يجب للأبوين مِنْ البرّ، ويحرم على الأولاد من العقوق، والأوّل أولى اعتباراً بعموم اللفظ، فلا تخصّصه دلالة السياق ولا تقيده ﴿إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ﴾ قاصدين الصلاح، والتوبة من الذنب والإخلاص للطاعة فلا يضركم ما وقع من الذنب الذي تبتم عنه ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾؛ أي: الرجّاعين عَنْ الذنوب إلى التوبة، وعَنْ عدم الإخلاص إلى مَحْض الإخلاص.

﴿غَفُورًا﴾ لما فَرَط مِنْهم مِنْ قول أو فعل أو اعتقاد، فمن تاب تاب الله عليه، ومَنْ رجع إلى الله رجع الله إليه.

---

(١) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» رقم (٢٣)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٥٥٤) بسند حسن.

(٢) «جامع البيان» (١٤/ ٥٥٥)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٣/ ٦٣).

ثم ذكر سبحانه التوصية بغير الوالدين مِنْ الأقارب بعد التوصية بهما فقال: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ والخطاب إما لرسول الله ﷺ تهييجاً وإلهاباً لغيره من الأمة، أو لكل مَنْ هو صالح لذلك من المكلفين كما في قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ [الإسراء: ٢٣].

والمراد بذي القربى: ذو القرابة، وحقهم هو: صلةُ الرحم التي أمر الله بها، كرّر التوصية فيها.

[أوجب الشوكاني صلة القرابة بما تبلغ إليه القدرة]:

والخلاف بين أهل العلم في وجوب النفقة للقرابة، أو لبعضهم كالوالدين على الأولاد. والأولاد على الوالدين معروف، والذي ينبغي الاعتماد عليه وجوب صلتهم بما تبلغ إليه القدرة وحسبما يقتضيه الحال. ﴿وَٱلْمِسْكِينَ﴾ معطوف على ﴿ذَا ٱلْقُرْبَىٰ﴾، وفي هذا العطف دليل على أنّ المراد بالحق الحق المالي ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ معطوف على ﴿وَٱلْمِسْكِينَ﴾.

والمعنى: وآت مَنْ اتصف بالمسكنة، أو بكونه مِنْ أبناء السبيل حقَّه. وقد تقدّم بيان حقيقة المسكين وابن السبيل في البقرة، وفي التوبة.

والمراد في هذه الآية: التصدّق عليهما بما بلغت إليه القدرة مِنْ صدقة النفل، أو مما فرضه الله لهما مِنْ صدقة الفرض، فإنّهما مِنْ الأصناف الثمانية التي هي مصرف الزكاة.

ثم لما أمر سبحانه بما أمر به ها هنا نهى عن التبذير، فقال: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ التبذير: تفريقُ المال كما يُفرّق البذْر كيفما كان مِنْ غير تعمد لمواقعه، وهو الإسراف المذموم لمجاوزته للحدّ المستحسن شرعاً في الإنفاق، أو هو الإنفاق في غير الحق، وإنْ كان يسيراً.

قال الشافعي: التبذير إنفاقُ المال في غير حَقّه، ولا تبذير في عمل الخير.

قال القرطبيّ[1] بعد حكايته لقول الشافعي هذا: وهذا قولُ الجمهور.

قال أشهب[2] عَنْ مالك: التبذير: هو أخذُ المال مِنْ حقه، ووضعه في غير

---

(١) في «تفسيره» (١٣/ ٦٤).

(٢) «أحكام القرآن» لابن العربي (٣/ ١١٩١).

حقه، وهو الإسراف، وهو حرام لقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ﴾ فإن هذه الجملة تعليل للنّهي عَنْ التبذير.

والمراد بالأخوة: المُماثلة التامّة، وتجنّب مماثلة الشيطان[١] ولو في خصلة واحدة مِنْ خصاله واجب، فكيفَ فيما هو أعمّ مِنْ ذلك كما يدلّ عليه إطلاق المماثلة، والإسراف في الإنفاق مِنْ عمل الشيطان، فإذا فعله أحد من بني آدم فقد أطاع الشيطان واقتدى به ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾؛ أي: كثير الكُفْران، عظيم التمرّد عَنْ الحق؛ لأنّه مع كفره لا يعمل إلّا شرّاً، ولا يأمر إلّا بعمل الشرّ، ولا يوسوس إلّا بما لا خير فيه.

وفي هذه الآية تسجيل على المبذرين بمماثلة الشياطين، ثم التسجيل على جِنْس الشيطان بأنه كفور، [٣/١٧١] فاقتضى ذلك أنّ المبذر مماثل للشيطان، وكل مماثل للشيطان له حكم الشيطان، وكل شيطان كفور، فالمبذر كفور.

﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ﴾ قد تقدّم قريباً أن أصل «إما» هذه مركب[٢] من إن الشرطية وما الإبهامية، وأن دخول نون التأكيد على الشرط لمشابهته للنهي؛ أي: إنْ أعرضت عَنْ ذي القربى والمسكين وابن السبيل لأمرٍ اضطرك إلى ذلك الإعراض ﴿ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾؛ أي: لفقد رزق مِنْ ربك، ولكنه أقام المسبب الذي هو ابتغاء رحمة الله مقام السبب الذي هو فقد الرزق لأنّ فاقد الرزق مبتغٍ له، والمعنى: وإن أعرضت عنهم لفقد رزق مِنْ ربك ترجو أَنْ يفتح الله به عليك ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾؛ أي: قولاً سهلاً ليناً، كالوعد الجميل أو الاعتذار المقبول.

قال الكسائي: يَسرت له القول؛ أي: ليّنته[٣].

قال الفراء[٤]: معنى الآية: تعرض عن السائل إضاقة وإعساراً فقل لهم: قولاً ميسوراً عدهم عدةً حسنةً، ويجوز أن يكون المعنى: وإنْ تعرض عنهم ولم تنفعهم لعدم استطاعتك فقل لهم قولاً ميسوراً، وليس المراد هنا الإعراض بالوجه. وفي

---

(١) «جامع البيان» (١٤/ ٥٦٨ ـ ٥٦٩)، و«المحرر الوجيز» (١٠/ ٢٨٢).

(٢) «التبيان» (٢/ ٨١٧)، و«الفريد» (٣/ ٢٦٧)، و«البحر المحيط» (٧/ ٣٥)، و«الدر المصون» (٧/ ٣٣٥)، و«الكشاف» (٣/ ٥٠٧).

(٣) انظر: «روح المعاني» (١٤/ ٤٨٩)، و«جامع البيان» (١٤/ ٥٦٩).

(٤) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١٢٢).

هذه الآية تأديب مِنْ الله سبحانه لعباده إذا سألهم سائل ما ليس عندهم كيف يقولون؟ وبما يردّون، ولقد أحسن مَنْ قال:

إنْ لا يكنْ وَرِقٌ يوماً أجودُ بها ... للسائلين فإنّي ليّنُ العودِ
لا يعدَمُ السائلونَ الخيرَ من خُلُقي ... إما نوالٌ وإما حسنُ مردودِ[1]

لما ذكر سبحانه أدب المنع بعد النهي عَنْ التبذير بيّن أدب الإنفاق فقال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ وهذا النهي يتناول كلَّ مكلفٍ سواء كان الخطاب للنبي ﷺ تعريضاً لأمته وتعليماً لهم، أو الخطاب لكل مَنْ يصلح له من المكلفين.

والمراد: النهي للإنسان بأنْ يمسك إمساكاً يصير به مُضيّقاً على نفسه وعلى أهله، ولا يوسع في الإنفاق توسيعاً لا حاجة إليه بحيث يكون به مُسْرفاً، فهو نهى عن جانبي الإفراط والتفريط. ويتحصل مِنْ ذلك مشروعية التوسط، وهو العدل الذي ندب الله إليه:

ولا تكُ فيها مُفرِطاً أو مُفرّطا ... كلا طَرَفَيْ قصدِ الأمورِ ذميمُ

وقد مثّل الله سبحانه في هذه الآية حال الشحيح بحال مَنْ كانت يده مغلولة إلى عنقه، بحيث لا يستطيع التصرّف بها، ومثّل حال مَنْ يجاوز الحدّ في التصرف بحال مَنْ يبسط يده بسطاً لا يتعلق بسببه فيها شيء مما تقبض الأيدي عليه، وفي هذا التصوير مبالغة بليغة.

ثم بيّن سبحانه غائلة الطرفين المنهيّ عنهما فقال: ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا﴾ عند الناس بسبب ما أنت عليه مِنْ الشُّح ﴿مَّحْسُورًا﴾ بسبب ما فعلته مِنْ الإسراف؛ أي: منقطعاً عَنْ المقاصد بسبب الفقر، والمحسور[2] في الأصل: المنقطع عَنْ السير، مِنْ حسرَه السفرُ: إذا بلغ مِنْه، والبعير الحسير: هو الذي ذهبت قوّته فلا انبعاث به، ومنه قوله تعالى: ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٤]؛ أي: كليل منقطع.

وقيل: معناه: نادماً على ما سلف، فجعله هذا القائل مِنْ الحسرة[3] التي هي

---

(١) انظرهما في: «الجامع لأحكام القرآن» (١٣/ ٦٧).
(٢) «مفردات ألفاظ القرآن» (ص٢٣٥)، و«الصحاح» (٢/ ٦٢٩ ـ ٦٣٠).
(٣) «جامع البيان» (١٤/ ٥٧٣).

الندامة، وفيه نظر لأنّ الفاعل مِنْ الحسرة: حَسْران. ولا يقال: محسور إلّا للملوم.

ثم سلّى رسولَه والمؤمنين بأن الذين يرهقهم مِنْ الإضافة ليس لهوانهم على الله سبحانه، ولكن لمشيئة الخالق الرازق فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾[١]؛ أي: يُوسعه على بعض ويُضيّقه على بعضٍ لحكمة بالغة لا لكون من وسّع له رزقه مُكْرَماً عنده، ومَنْ ضيقه عليه هائناً لديه. قيل: ويجوز أَنْ يراد أن البسط والقبض إنما هما مِنْ أمر الله الذي لا تفنى خزائنُه. فأمّا عباده فعليهم أن يقتصدوا.

ثم علّل ما ذكره مِنْ البسط للبعض[٢] والتضييق على البعض بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾؛ أي: يعلم ما يُسرُّون وما يُعلنون، لا يخفى عليه من ذلك خافية، فهو الخبير بأحوالهم، البصير بكيفية تدبيرهم في أرزاقهم، وفي هذه الآية دليل على أنه المتكفل بأرزاق عباده، فلذلك قال بعدها: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ﴾ أملق الرجلُ: لم يبق له إلّا المَلقَات: وهي الحجارةُ العظام الملس، قال الهذلي يصف صائداً:

أُتيحَ لها أُقَيدرٌ ذو خَشيفٍ إذا سامَت على المَلَقاتِ ساما[٣]

الأقيدر تصغير الأقدر: وهو الرجل القصير، والحشيف مِنْ الثياب الخَلقِ، وسامت: مرّت، ويقال: أملق إذا افتقَر، وسلب الدهر ما بيده.

قال أوس[٤]:

وأملَق ما عندي خطوبُ تنبَّلُ[٥]

نهاهم الله سبحانه عَنْ أنْ يقتلوا أولادهم خشية الفقر، وقد كانوا يفعلون ذلك، ثم بيّن لهم أن خوفهم مِنْ الفقر حتى يبلغوا بسبب ذلك إلى قتل الأولاد لا وجه له، فإن الله سبحانه هو الرازق لعباده يرزق الأبناء كما يرزق الآباء فقال: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ﴾ ولستم لهم برازقين حتى تصنعوا بهم هذا الصنع.

وقد مرّ مثل هذه الآية في الأنْعام، ثم علّل سبحانه النهي عَنْ قتل الأولاد

---

(١) «روح المعاني» (١٤/ ٤٩٢). (٢) «جامع البيان» (١٤/ ٥٧٦).
(٣) انظره في: «ديوان الهذليين» (٢/ ٦٣).
(٤) انظر: «ديوان أوس بن حجر» (ص٩٤).
(٥) وصدر هذا البيت: ولما رأيتُ العُدْمَ قيَّدَ نائلي.

لذلك بقوله: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾. قرأ الجمهور بكسر[(١)] الخاء وسكون الطاء وبالهمز المقصور.

وقرأ ابنُ عامر (خَطَأً) بفتح الخاء[(٢)] والطاء والقصر في الهمز، يقال: خَطِئ في دينه خَطَئاً: إذا أثم، وأخطأ: إذا سلك سبيلَ خَطَإٍ عامداً أو غيرَ عامد.

قال الأزهري[(٣)]، خَطِئَ يخطأ خِطْئاً مثل أَثِم يأثَم إِثْماً: إذا تعمّد الخطأ، وأَخطأ: إذا لم يتعمّد، إخطاءً وخطاء، قال الشاعر:

دعيني إنما خَطْئي وصَوْبي ... عليّ وإنما أهلكْتُ مالي[(٤)]

والخطأ الاسمُ يقوم مقام الإِخطاء، وفيه لغتان القصر، وهو الجيد، والمدّ وهو قليل. وقرأ ابنُ كثير بكسر الخاء[(٥)] وفتح الطاء ومد الهمز.

قال النّحاس[(٦)]: ولا أعرف لهذه القراءة وجهاً، وكذلك جعلها أبو حاتم[(٧)] غلطاً. وقرأ الحسن (خَطاً) بفتح الخاء[(٨)] والطاء منوّنة مِنْ غير همز.

ولما نهى سبحانه عَنْ قتل الأولاد المستدعي لإفناء النسل، ذكر النهي عن الزِّنا المفضي إلى ذلك لما فيه مِنْ اختلاط الأنساب فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ﴾ وفي النهي

---

(١) «النشر» (٢/ ٣٠٧)، و«البحر المحيط» (٧/ ٤٣)، و«التيسير» (ص١٣٩)، و«جامع البيان» (١٤/ ٥٧٩).

(٢) انظر: المصادر المتقدمة.

(٣) في «تهذيب اللغة» (٧/ ٤٩٦ ـ ٤٩٧).

(٤) انظر: «خزانة الأدب» (٨/ ٣١٣).

(٥) «التيسير» (ص١٣٩)، و«البحر المحيط» (٧/ ٥٧٩)، و«النشر» (٢/ ٣٠٧). قال في «تخريج القراءات في فتح القدير» (ص٢٠٠)، قرأ ابن عامر من روايته ابن ذكوان، وكذلك في وجه لهشام عنه وأبو جعفر (خَطَأً) بفتح الخاء والطاء ونصب الهمز منوناً وقرأ ابن كثير بكسر الخاء وفتح الطاء بعدها ألف ثم همزة منصوبة منونة، وقرأ باقي العشرة بكسر الخاء وسكون الطاء فهمزة منونة، وهي ثلاث قراءات متواترة، وما عزاه الإمام (الشوكاني) للحسن فشاذ أ. هـ المراد منه.

(٦) في «معاني القرآن» للنحاس (٤/ ١٤٧).

(٧) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٠/ ٢٨٥).

(٨) «البحر المحيط» (٧/ ٤٣)، و«المحرر الوجيز» (١٠/ ٢٨٥)، و«روح المعاني» (١٤/ ٤٩٥)، و«المحتسب» (٢/ ١٩).

• قال ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٥٨٠): «وأولى القراءات في ذلك عندنا بالصواب القراءةُ التي عليها قرَأة أهل العراق وعامةُ أهل الحجاز؛ لإجماع الحجة من القرَأة عليها، وشذوذ ما عداها، وإن معنى ذلك: كان إثماً وخطيئة، لا خطأً من الفعل؛ لأنَّهم إنَّما كانوا يقتلونهم عمداً لا خطأً، وعلى عمدهم ذلك عاتبهم ربُّهم، وتقدم إليهم بالنهي عنه.

عَنْ قربانه بمباشرة مقدماته نهي عَنْه بالأولى، فإن الوسيلة إلى الشيء إذا كانت حراماً كان المتوسل إليه حراماً بفحوى الخطاب، والزنى فيه لغتان: المد، والقصر. قال الشاعر(١):

كانت فريضةَ ما تقولُ كما ... كان الزناءُ فريضةَ الرَّجْمِ

ثم علل النهي عن الزنا بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾؛ أي: قبيحاً متبالغاً في القبح، مجاوزاً للحدّ ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾؛ أي: بئس طريقاً طريقُه، وذلك؛ لأنه يؤدي إلى النار، ولا خلاف في كونه مِنْ كبائر الذنوب.

وقد ورد في تقبيحه والتنفير عنه مِنْ الأدلة ما هو معلوم.

ولما فرغ مِنْ ذكر النهي عن القتل لخصوص الأولاد وعن النهي عن الزنا الذي يفضي إلى ما يفضي إليه قتل الأولاد مِنْ اختلاط الأنساب، وعدم استقرارها، نهى عن قتل الأنفس المعصومة على العموم فقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾. والمراد بالتي حرّم الله: التي جعلها معصومةً بعصمة الدين، أو عصمة العهد.

والمراد بالحق الذي استثناه: هو ما يُباح به قتل الأنفس المعصومة في الأصل، وذلك كالردّة والزنا مِنْ المحصن، وكالقصاص مِنْ القاتل عمداً عدواناً وما يلتحق بذلك والاستثناء(٢) مفرّغ؛ أي: لا تقتلوها بسبب مِنْ الأسباب إلّا بسبب مُتلبّس بالحق أو إلّا متلبسين بالحق.

وقد تقدّم الكلام في هذا في الأَنْعام.

ثم بيَّن حكم بعض المقتولين بغير حق فقال: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا﴾؛ أي: لا بسبب مِنْ الأسباب المسوّغة لقتله شرعاً ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾؛ أي: لمن يلي أمره من ورثته إنْ كانوا موجودين، أو ممّن له سلطان إن لم يكونوا موجودين، والسلطان التسلّط على القاتل إنْ شاء قتل وإن شاء(٣) عفا، وإن شاء أخذ الدية، ثم لما بيّن إباحة القصاص لمن هو مستحق لدم المقتول، أو ما هو عوض عن القصاص نهاه عَنْ مجاوزة الحدّ فقال: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ﴾؛ أي: لا يجاوز ما أباحه الله له فيقتل بالواحد اثنين أو جماعة، أو يمثّل بالقاتل أو يعذبه.

---

(١) هو: النابغة الجعدي. انظر: «ديوانه» (ص٢٣٥).

(٢) «روح المعاني» (١٤/ ٤٩٩)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ٤٢٤ ـ ٤٢٥).

(٣) انظر: «المغني» (١١/ ٥٨١)، و«البيان» للعمراني (١١/ ٣٩١)، و«بدائع الصنائع» (٧/ ٢٤٢)، و«عيون المجالس» (٥/ ١٩٩٢).

قرأ الجمهور (لا يُسْرف) بالياء[١] التحتية؛ أي: الولي، وقرأ حمزة والكسائي (تَسْرِف) بالتاء[٢] الفوقية، وهو خطاب للقاتل الأوّل، ونهي له عن القتل؛ أي: فلا تسرف أيها القاتل بالقتل فإنّ عليك القصاص مع ما عليك من عقوبة الله وسخطه ولعنته.

وقال ابن جرير[٣]: الخطاب للنبي ﷺ وللأئمة مِنْ بعده؛ أي: لا تقتل يا محمد غير القاتل ولا يفعل ذلك الأئمة بعدك.

وفي قراءة أُبيٍّ[٤] (لا تُسرفوا) ثم علّل النهي عن السرف فقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾؛ أي: مؤيداً معاناً؛ يعني: الولي، فإنّ الله سبحانه قد نصره بإثبات القصَاص له بما أبرزه مِنْ الحجج، وأوضحه مِنْ الأدلة، وأمر أهل الولايات بمعونته والقيام بحقه حتى يستوفيه، ويجوز أَنْ يكون الضمير راجعاً إلى المقتول؛ أي: إن الله نصَره بوليّه، قيل: وهذه الآية من أوّل [٣/١٧٢] ما نزل من القرآن في شأن القتل لأنّها مكية.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير[٥] في قوله: ﴿إِن تَكُونُوا۟ صَـٰلِحِينَ﴾ قال: تكون البادرةُ مِنْ الولد إلى الوالد، فقال الله: ﴿إِن تَكُونُوا۟ صَـٰلِحِينَ﴾ إنْ تكن النيةُ صادقة ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ للبادرة التي بَدَرَتْ منه.

وأخرج ابن أبي الدنيا، والبيهقي في «الشعب» عنه[٦] في قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ قال، الرجّاعين إلى الخير.

وأخرج سعيد بن منصور، وهناد، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن الضحاك[٧] في الآية قال: الرجاعين مِنْ الذنب إلى التوبة، ومِنْ السيئات إلى الحسنات.

---

(١) «جامع البيان» (١٤/ ٥٨٤ ـ ٥٨٥)، و«البحر المحيط» (٧/ ٤٥)، و«النشر» (٢/ ٣٠٧)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ٤٦)، و«التبيان» (٢/ ٨١٩).

(٢) انظر: المصادر المتقدمة.

(٣) في «جامع البيان» (١٤/ ٥٨٤).

(٤) «البحر المحيط» (٧/ ٤٥)، و«النشر» (٢/ ٣٠٧)، و«روح المعاني» (١٤/ ٥٠٠ ـ ٥٠١). قراءةُ أُبيٍّ شاذة.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٥٥٦) بسند صحيح.

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب «التوبة» رقم (٢٠٢)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٧١٩٠) بسند رجاله ثقات.

(٧) أخرجه هنّاد في «الزهد» رقم (٩٠٧)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٧١٩١). بسند ضعيف.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[١] في قوله: ﴿لِلْأَوَّٰبِينَ﴾ قال: للمُطيعين المحسنين.

وأخرج ابنُ المنذر، وابنُ أبي حاتم، والبيهقي في «الشعب» عنه[٢] قال: للتوابين.

وأخرج البُخاري في «تاريخه»، وابن المنذر، وابن أبي حاتم[٣] عنه أيضاً في قوله: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ قال: أمره بأحقّ الحقوق، وعلّمه كيف يصنعُ إذا كان عنده، وكيف يصنع إذا لم يكُن عنده؟ فقال: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ قال: إذا سألوك وليس عندك شيءٌ انتظرتَ رزقاً من الله ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ يكون إنْ شاء الله، يكون شِبهُ العِدَة. قال سفيان: والعِدةُ مِنْ النبي ﷺ دَينٌ.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم[٤] عنه أيضاً في الآية قال: هو أن تصل ذا القرابة، وتطعم المسكين، وتُحسن إلى ابن السبيل.

وأخرج ابن جرير عن علي بن الحسين[٥] أنه قال لرجل من أهل الشام: أقرأت القرآن؟ قال: نعم، قال: فما قرأت في بني إسرائيل ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾؟ قال: وإنّكم للقرابة التي أمر الله أنْ يؤتي حقّهم؟ قال: نعم.

وأخرج ابن أبي حاتم[٦] عن السدّي في الآية، قال: والقربى: قربى بني عبد المطلب.

وأقول: ليس في السياق ما يفيد هذا التخصيص، ولا دلّ على ذلك دليل، ومعنى النظم القرآني واضحٌ إنْ كان الخطاب مع كل مَنْ يصلح له من الأمة؛ لأن معناه: أمر كل مكلف متمكن مِنْ صلة قرابته بأن يعطيهم حقّهم، وهو الصلة التي أمر الله بها. وإنْ كان الخطاب للنبي ﷺ، فإنْ كان على وجه التعريض لأمته فالأمر فيه كالأوّل، وإنْ كان خطاباً له مِنْ دون تعريض، فأمته أسوته، فالأمر له ﷺ بإيتاء ذي القربى حقه أمر لكل فرد مِنْ أفراد أمته.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٥٥٧) بسند صحيح.
(٢) أخرجه البيهقي في «الشعب» رقم (٧١٩٤) بسند ضعيف.
(٣) أخرجه البخاري في «تاريخه» (١/ ٢٣٦).
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٥٦٣) بسند ضعيف.
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٥٦٣) من طريق السدي، عن أبي الديلم، به.
(٦) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٢٥).

والظاهر: أن هذا الخطاب ليس خاصّاً بالنبي ﷺ بدليل ما قبل هذه الآية، وهي قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ وما بعدها، وهي قوله: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝٢٦ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾.

وفي معنى هذه الآية الدالة على وجوب صلة الرحم أحاديث كثيرة.

وأخرج أحمد، والحاكم وصححه عن أنس[١]: «أن رجلاً قال: يا رسول الله إني ذو مالٍ كثير، وذو أهل وولد وحاضرة، فأخبرني كيفَ أُنْفق وكيفَ أصنع؟ قال: تُخْرج الزكاة المفروضة، فإنّها طُهرة تُطهّرك، وتصل أقاربك، وتعرف حقّ السائل والجار والمسكين، فقال: يا رسول الله أقلل لي؟ قال: فآتِ ذَا القربى حقّه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً. قال: حسبي يا رسول الله».

وأخرج البزار، وأبو يعلى، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن أبي سعيد[٢] الخدري قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ دعا رسول الله ﷺ فاطمة فأعطاها فَدَك.

وأخرج ابنُ مردويه[٣] عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ أقطع رسول الله ﷺ فاطمة فدك.

قال ابن كثير[٤] بعد أن ساق حديث أبي سعيد هذا ما لفظه: وهذا الحديث مُشْكل لو صح إسناده؛ لأنّ الآية مكية، وفَدَك إنما فُتحت مع خيبر سنة سبع من الهجرة، فكيف يلتئم هذا مع هذا؟ انتهى.

وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، والبخاري في «الأدب»،

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» رقم (١٢٣٩٤)، والحاكم (٢/ ٣٦٠، ٣٦١) بسند رجاله ثقات رجال الشيخين، ولكن قيل في رواية سعيد بن أبي هلال عن أنس أنّها مرسلة.

(٢) أخرجه البزار في «مسنده» رقم (٢٢٢٣ ـ كشف)، وأبو يعلى رقم (١٠٧٥، ١٤٠٩).
قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٤٩): «فيه عطية العوفي وهو ضعيف متروك».
وفيه أيضاً: «عباد بن يعقوب رافضي يستحق الترك».
وقال ابن كثير في «تفسيره» (٨/ ٤٧٤): «وهذا الحديث مشكل لو صح إسناده؛ لأن الآية مكية، و«فدَك» إنما فتحت مع خيبر سنة سبع من الهجرة، فكيف يلتئم هذا مع هذا؟».
ثم قال: «فهو إذاً حديث منكر، والأشبه أنه مِنْ وضع الرافضة، والله أعلم».

(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٢٧٤).

(٤) في «تفسيره» (٨/ ٤٧٤) وقد تقدم نصه.

وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم، وصححه، والبيهقي في «الشعب» عن ابن مسعود[١] في قوله: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ قال: التبذير: إنفاقُ المال في غير حقّه.

وأخرج ابن جرير[٢] عنه قال: كنّا أصحاب محمد نتحدّث أن التبذير: النفقة في غير حقّه.

وأخرج سعيد بن منصور، والبخاري في «الأدب»، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في «الشعب» عن ابن عباس[٣] في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ﴾ قال: هم الذين ينفقون المال في غير حقه.

وأخرج البيهقي في «الشعب»[٤] عن عليّ قال: ما أنفقت على نفسك وأهل بيتك في غير سَرَفٍ ولا تبذير وما تصدّقت فلك، وما أنفقت رياءً وسمعة فذلك حظُ الشيطان.

وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس[٥] في قوله: ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ قال: العِدَة.

وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر عن يسار أبي الحكم[٦] قال: أتى رسول الله ﷺ بَزٌّ مِنْ العراق، وكان مِعْطاءً كريماً، فقسمه بين الناس، فبلغ ذلك قوماً مِنْ العرب، فقالوا: إنا نأتي النبي ﷺ نسأله، فوجدوه وقد فرغ منه، فأنزل الله ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ قال: محبوسة ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا﴾ يلومك الناس ﴿مَّحْسُورًا﴾ ليس بيدك شيء. أقول: ولا أدري كيفَ هذا؟ فالآية مكية، ولم يكن إذْ ذاك عرب يقصدون رسولَ الله ﷺ ولا يُحمل إليه شيء مِنْ العراق ولا مما هو أقرب منه، على أن فتح العراق لم يكن إلّا بعد موته ﷺ.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٩/ ٩٥)، والبخاري في «الأدب» رقم (٤٤٤)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٥٦٦)، والطبراني رقم (٩٠٠٦ ـ ٩٠٠٩)، والحاكم (٢/ ٣٦١)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٦٥٤٦) بسند صحيح.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٥٦٧) بسند صحيح.

(٣) أخرجه البخاري في «الأدب» رقم (٤٤٥)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٥٦٧)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٦٥٤٧) بسند حسن.

(٤) أخرجه البيهقي في «الشعب» رقم (٦٥٤٨).

(٥) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٢٧٥ ـ ٢٧٦).

(٦) عزاه إليهم السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٢٧٦).

وأخرج ابن جرير[١] عن المنهال بن عمرو[٢]: «بعثتْ امرأةٌ إلى النبيّ ﷺ بابنها فقالت: قل له: اكسُني ثوباً، فقال: ما عندي شيءٌ، فقالت: ارجع إليه فقل له: اكْسُني قميصك، فرجع إليه فنزع قميصه فأعطاها إياه، فنزلت ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً﴾ الآية».

وأخرج ابن مردويه[٣] عن ابن مسعود[٤] نحوه.

وأخرج ابن مردويه[٥] عن أبي أُمامة أَنّ النبي ﷺ قال لعائشة وضرب بيده: «أنفقي ما على ظهر كفي، قالت: إذن لا يبقى شيء. قال ذلك ثلاث مرات، فأنزل الله ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً﴾ الآية»، ويقدح في ذلك أنه ﷺ لم يتزوّج بعائشة إلّا بَعد الهجرة.

وأخرج ابنُ جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[٦] في قوله: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً﴾ قال: يعني بذلك: البخل.

وأخرجا عنه[٧] في الآية قال: هذا في النفقة يقول: لا تجعلها مغلولة لا تبسطها بخير، ولا تبسطها كلَّ البسط، يعني: التبذير ﴿فَتَقۡعُدَ مَلُومًا﴾، يلوم نفسه على ما فاته مِنْ ماله ﴿مَّحۡسُورًا﴾ ذهب مالُه كلُّه.

وأخرج ابن أبي حاتم[٨] عن الحسن في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾ قال: يَنْظر له، فإنْ كان الغِنى خيراً له أغْناه، وإن كان الفقرُ خيراً له أفقره.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[٩] في قوله: ﴿خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ﴾ قال: مخافة الفقر والفاقة.

---

(١) بل ابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٥/ ٢٧٦).
(٢) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٢٧).
(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٢٧٦).
(٤) بل هو عن أبي أمامة ﵁. وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٢٧٦) عن ابن مسعود إلى ابن جرير.
(٥) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٢٧٦).
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٥٧٥) بسند صحيح.
(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٥٧٤) بسند حسن.
(٨) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٢٧).
(٩) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٥٧٨) عن مجاهد. بسند ضعيف.
• وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٥٧٨) عن ابن عباس. بسند صحيح. بلفظ: «الفقر».

وأخرج ابنُ جرير، وابن المنذر[١] عنه في قوله: ﴿خِطْـًٔا﴾ قال: خطيئة.

وأخرج ابنُ أبي حاتم[٢] عن السدّي في قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ قال: يوم نزلت هذه الآية لم يكن حدود، فجاءت بعد ذلك الحدود في سورة النور.

وأخرج أبو يعلى، وابن مردويه عن أُبيّ بن كعب[٣] أنه قرأ: (ولا تقربوا الزنا إنّه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا) (إلا من تاب فإن الله كان غفورا رحيما) فذكر لعمر فأتاه فسأله، فقال: أخذتها مِنْ فيّ رسول الله وليس لك عمل إلّا الصفق النقيع.

وقد ورد في الترهيب عن فاحشة الزنا أحاديث كثيرة.

[الإسلام دين الحياة ودين السلام، لذا نهى عَنْ قتل النفس إلا بالحق]:

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن الضحاك[٤] في قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ﴾ الآية قال: هذا بمكة ونبي الله ﷺ بها، وهو أوّل شيءٍ نزل من القرآن في شأن القتل، كان المشركون مِنْ أهل مكة يغتالون أصحاب رسول الله ﷺ فقال الله: من قتلكم مِنْ المشركين، فلا يحملنكم قتله إيّاكم على أن تقتلوا له أباً أو أخاً أو واحداً مِنْ عشيرته وإن كانوا مشركين، فلا تقتلوا إلّا قاتلكم، وهذا قبل أن تنزل براءة، وقبل أَنْ يُؤمر بقتال المشركين فذلك قوله: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ يقول: لا تقتل غير قاتلك، وهي اليوم على ذلك الموضع مِنْ المسلمين لا يحل لهم أن يقتلوا إلّا قاتلهم.

وأخرج البيهقي في «سُننه» عن زيد بن أسلم[٥] أنّ الناس في الجاهلية كانوا إذا قتل الرجل مِنْ القوم رجلاً لم يرضوا حتى يقتلوا به رجلاً شريفاً إذا كان قاتلهم غير شريف لم يقتلوا قاتلهم وقتلوا غيرَه، فوُعظوا في ذلك بقول الله سبحانه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ﴾ إلى قوله: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ﴾.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٥٧٨) عَنْ مجاهد. بسند ضعيف.
(٢) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٢٨).
(٣) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٢٨٠). والقراءة إن صحّ الحديث شاذة مخالفة للرسم.
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٥٨٦) بسند حسن.
(٥) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (٨/ ٢٥) بسند ضعيف.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس[١] في قوله: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ قال: بيّنة مِنْ الله أنزلها، يطلبها وليّ المقتول: القَوَدَ أو العقْل، وذلك السلطان.

وأخرج ابنُ أبي حاتم[٢] مِنْ طريق مجاهد عنه ﴿فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ﴾ قال: لا يكثر في القتل.

وأخرج ابن المنذر[٣] من طريق أبي صالح عنه أيضاً: لا يقتل إلّا قاتل رَحِمِه.

[إيفاء الكيل والاستقامة في الوزن أمانة في التعامل ونظافة في القلب يستقيم بهما التعامل في الجماعة]:

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ [٣/١٧٣] مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾﴾.

لما ذكر سبحانه النهي عَنْ إتلاف النفوس أتبعه بالنّهي عَنْ إتلاف الأموال، وكان أهمها بالحفظ والرعاية مال اليتيم فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ﴾. والنهي عن قربانه مبالغة في النّهي عَنْ المباشرة له وإتلافه، ثم بيّن سبحانه أن النهي عن قربانه، ليس المراد منه النهي عَنْ مباشرته فيما يصلحه ويفسده؛ بل يجوز لوليّ اليتيم أن يفعل في مال اليتيم ما يصلحه، وذلك يستلزم مباشرته، فقال: ﴿إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾؛ أي: إلّا بالخصْلة التي هي أحسن الخصال، وهي حفظهُ وطلبُ الربح فيه، والسعيُّ فيما يريد به.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٥٨٣) بسند ضعيف.

(٢) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٢٩).

(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٢٨٣).

ثم ذكر الغاية التي للنهي عن قربان مال اليتيم فقال: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾؛ أي: لا تقربوه إلّا بالتي هي أحسن حتى يبلغ اليتيم أشُدّه، فإذا بلغ أشدّه كان لكم أن تدفعوه إليه، أو تتصرفوا فيه بإذنه، وقد تقدّم الكلام على هذا مستوفى في الأنعام ﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ﴾ قد مضى الكلام فيه في غير موضع.

قال الزجّاج[١]: كل ما أمر الله به ونهى عنه فهو مِنْ العهد، فيدخل في ذلك ما بين العبد وربه، وما بين العباد بعضهم البعض.

والوفاء بالعهد هو القيامُ بحفظه على الوجه الشرعي، والقانون المرضي، إلّا إذا دلّ دليل خاص على جواز النقض ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾؛ أي: مسؤولاً عنه، فالمسؤول هنا هو صاحبُه، وقيل: إنّ العهد يسأل تبكيتاً لناقضه.

﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾؛ أي: أتموا الكيلَ ولا تُخْسروه وقت كيلكم للناس ﴿وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾.

قال الزجاج[٢]: هو ميزان العَدْل؛ أيّ ميزانٍ كان مِنْ موازين الدراهم وغيرها، وفيه لغتان[٣]: ضم القاف، وكسرها، وقيل: هو القَبّان المسمى بالقرسطون؛ وقيل: هو العدل نفسه[٤]، وهي لغة الروم، وقيل: لغة سريانية.

وقرأ ابنُ كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم في رواية أبي بكر (القُسطاس) بضم القاف[٥]، وقرأ حمزة والكسائي وحفص عَنْ عاصم بكسر[٦] القاف، والإشارة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى إيفاء الكيل والوزن، وهو مبتدأ وخبره[٧] ﴿خَيْرٌ﴾؛ أي: خير لكم عند الله وعند الناس يتأثر عَنْه حُسْنِ الذكر، وترغيب الناس في معاملة مَنْ كان كذلك ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾؛ أي: أحسن عاقبة، من آل إذا رجع. ثم أمر سبحانه بإصلاح اللسان والقلب فقال: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾؛ أي:

---

(١) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ٢٣٨). (٢) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ٢٣٨).
(٣) «جامع البيان» (١٤/ ٥٩٢)، و«الوسيط» للواحدي (٣/ ٦٠٧).
(٤) «الصحاح» (٣/ ٩٦٤).
(٥) «التيسير» (ص١٤٠)، و«جامع البيان» (١٤/ ٥٩٢)، و«روح المعاني» (١٤/ ٥٠٥)، و«البحر المحيط» (٧/ ٤٦).
(٦) انظر: المصادر المتقدمة. هما قراءتان متواترتان، ومع مَنْ يقرأ بالضم أبو جعفر ويعقوب.
(٧) «الفريد» (٣/ ٢٧٤ ـ ٢٧٥)، و«روح المعاني» (١٤/ ٥٠٦)، و«البحر المحيط» (٧/ ٤٨).

لا تتبّع ما لا تعلم، مِنْ قولك: قفوتُ فلاناً: إذا اتّبعتُ أثرَه، ومِنْه: قافية الشعر لأنها تقفو كلَّ بيت، ومنه: القبيلة المشهورة بالقافة لأنّهم يتبعون آثار أقدام الناس.

وحكى ابنُ جرير[(١)] عَنْ فرقة أنها قالت: قَفَا وقَاْف مثل عَثا وعاث.

قال مُنذر بن سعيد[(٢)] البلوطي: قِفا وقاف، مثل جَذَب وجَبَذ.

وحكى الكسائي عَنْ بعض القراء أنّه قرأ (تَقُفْ) بضم القاف[(٣)] وسكون الفاء.

وقرأ الفرّاء[(٤)] بفتح القاف وهي لغة لبعض العرب، وأنكرها أبو حاتم[(٥)] وغيره.

ومعنى الآية: النهي عَنْ أن يقول الإنسان ما لا يعلم، أو يعمل بما لا علم له به، وهذه قضية كُلِّية، وقد جعلها جماعة مِنْ المفسرين خاصة بأمور؛ فقيل: لا تذم أحداً بما ليس لك به علم؛ وقيل: هي في شهادة الزور؛ وقيل: هي في القذف.

وقال القتيبي[(٦)]: معنى الآية: لا تتّبع الحدس والظنون، وهذا صواب، فإن ما عدا ذلك هو العلم؛ وقيل: المراد بالعلم هنا: هو الاعتقاد الراجح المستفاد من مستندٍ قطعيّاً كان أو ظنيّاً.

قال أبو السعود في «تفسيره»[(٧)]: واستعماله بهذا المعنى مما لا يُنكر شيوعُه.

وأقول: إنّ هذه الآية قد دلّت على عدم جواز العمل بما ليس بعلم، ولكنها عامةٌ مخصَّصة بالأدلة الواردة بجواز العمل بالظنّ كالعمل بالعامّ، وبخبر الواحد والعمل بالشهادة والاجتهاد في القبلة، وفي جزاء الصيد ونحو ذلك، فلا تخرج من عمومها ومِنْ عموم ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [يونس: ٣٦]. إلّا ما قام دليل جواز العمل به، فالعمل بالرأي في مسائل الشرع إنْ كان لعدم وجود الدليل في الكتاب والسُّنَّة، فقد رخّص فيه النبي ﷺ كما في قوله ﷺ لمعاذ لما بعثه قاضياً: «بم تَقضي؟ قال: بكتابِ الله، قال: فإنْ لم تجد؟ قال: فبسُنَّة رسول الله، قال: فإن

---

(١) في «جامع البيان» (١٤/ ٥٩٥).

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٣/ ٧٨).

(٣) «التيسير» (ص١٤٠)، و«البحر المحيط» (٧/ ٤٦)، و«روح المعاني» (١٤/ ٥٠٥). وهي قراءة شاذة.

(٤) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١٢٣).

(٥) وهي قراءة شاذة. «جامع البيان» (١٤/ ٥٩٦)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٣/ ٧٨).

(٦) في «غريب القرآن» (ص٢٥٤).

(٧) في «إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم» (٤/ ٤٢٦) ط. دار الفكر.

لم تجد؟ قال: أجتهد رأيي»[(١)]. وهو حديث[(٢)] صالحٌ للاحتجاج به كما أوضحنا ذلك في بحثٍ مُفْردٍ.

وأما التوثّب على الرأي مع وجود الدليل في الكتاب أو السُّنَّة، ولكنّه قصر صاحب الرأي عَنْ البحث فجاء برأيه فهو داخل تحت هذا النهي دخولاً أوّليّاً؛ لأنه محض رأي في شرع الله، وبالناس عنه غنىً بكتاب الله سبحانه وبسنّة رسوله ﷺ ولم تدعُ إليه حاجة، على أنّ الترخيص في الرأي عند عدم وجود الدليل إنما هو رخصة للمجتهد يجوز له أنْ يعمل به، ولم يدل دليل على أنّه يجوز لغيره العمل به وينزله منزلة مسائل الشرع، وبهذا يتضح لك أتمّ اتضاح، ويظهر لك أكمل ظهور أن هذه الآراء المدوّنة في الكتب الفروعية ليست مِنْ الشرع في شيء، والعامل بها على شفا جُرْف هارٍ، فالمجتهد المستكثر مِنْ الرأي قد قفا ما ليس له به علم، والمقلد المسكين العامل برأي ذلك المجتهد قد عمل بما ليس له به علم ولا لمن قلّده ﴿ظُلُمَٰتٌۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ﴾ [النور: ٤٠].

---

(١) أخرجه أبو داود رقم (٣٥٩٢)، والترمذي رقم (١٣٢٧)، والدارمي (١/ ٦٠)، وأحمد (٥/ ٢٣٠، ٢٤٢)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٠/ ١١٤)، والطيالسي (١/ ٢٨٦ ـ منحة المعبود)، وابن حزم في «الأحكام» (٦/ ٢٦) من طريق شعبة، عن أبي العون، عن الحارث بن عمرو أخي المغيرة بن شعبة، عن أصحاب معاذ، عن معاذ.
قال البخاري في «التاريخ الكبير» (٢/ ٢٧٧): «الحارث بن عمرو، عن أصحاب معاذ، عن معاذ، روى عنه أبو عون، ولا يصح ولا يُعرف إلا بهذا مرسل».
وقال ابن حزم في «الأحكام» (٦/ ٣٥): «وأمَّا خبر معاذ فإنه لا يحل الاحتجاج به لسقوطه، وذلك أنّه لم يرو قط إلا من طريق الحارث بن عمرو وهو مجهول لا يدري أحد من هو».
وقال ابن الجوزي في «العلل» (٢/ ٧٥٨ رقم ١٢٦٤): «هذا حديث لا يصح، وإن كان الفقهاء كلهم يذكرون في كتبهم ويعتمدون عليه، ولعمري وإن كان معناه صحيحاً، إنَّما ثبوته لا يُعرف...».
وقال الألباني في «الضعيفة» (٢/ ٢٨٦): «هو صحيح المعنى فيما يتعلق بالاجتهاد عند فقدان النص، وهذا مما لا خلاف فيه، ولكنه ليس صحيح المعنى عندي فيما يتعلق بتصنيف السُّنَّة مع القرآن وإنزاله إياه معه منزلة الاجتهاد منهما فكما أنه لا يجوز الاجتهاد مع وجود النص في الكتاب والسُّنَّة فكذلك لا يأخذ بالسُّنَّة إلا إذا لم يجد في الكتاب، وهذا التفريق بينهما مما لا يقول به مسلم، بل الواجب النظر في الكتاب والسُّنَّة معاً وعدم التفريق بينهما، لما علم من أن السُّنَّة تبين مجمل القرآن وتقيّد مطلقه، وتخصيص عمومه كما هو معلوم».

(٢) بل هو حديث ضعيف أعلل بعلل ثلاث: جهالة أصحاب معاذ وجهالة الحارث بن عمرو والإرسال.

وقد قيل: إن هذه الآية خاصة بالعقائد ولا دليل على ذلك أصلاً.

ثم علّل سبحانه النهي عَنْ العمل بما ليس بعلم بقوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ إشارة إلى الأعضاء الثلاثة، وأُجْريت مجرى العقلاء لمّا كانت مسؤولة عَنْ أحوالها، شاهدة[1] على أصحابها.

وقال الزجاج[2]: إن العرب تُعبّر عما يعقل وعما لا يعقل بأولئك، وأنشد ابن جرير[3] مستدلّاً على جواز هذا قول الشاعر:

ذُمَّ المنازلَ بعد منزلةِ اللِّوى ... والعيشَ بعدَ أولئك الأيام[4]

واعتُرض بأنّ الرواية بعد أولئك الأقوام، وتبعه غيره على هذا الخطأ كصاحب «الكشّاف»[5].

والضمير في «كان» من قوله: ﴿كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ يرجع إلى «كل»، وكذا الضمير في «عنه»، وقيل: الضمير في «كان» يعود إلى القافي المدلول عليه بقوله: ﴿وَلَا تَقْفُ﴾.

وقوله: ﴿عَنْهُ﴾ في محل[6] رفعٍ لإسناد ﴿مَسْـُٔولًا﴾ إليه، ورُدّ بما حكاه النحاس[7] مِنْ الإجماع على عدم جواز تقديم القائم مقام الفاعل إذا كان جاراً أو مجروراً.

قيل: والأولى أَنْ يقال: إنه فاعل ﴿مَسْـُٔولًا﴾ المحذوف، والمذكور مفسر له.

ومعنى سؤال هذه الجوارح: أَنّه يُسأل صاحبُها عما استعملها فيه لأنها آلات، والمستعمل لها: هو الروح الإنساني، فإن استعملها في الخير استحق الثواب، وإن استعملها في الشرّ استحق العقاب؛ وقيل: إن الله سبحانه ينطق الأعضاء هذه عند سؤالها فتخبر عمّا فعله صاحبها.

---

(١) «جامع البيان» (١٤/ ٥٩٦).
(٢) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ٢٣٩).
(٣) في «جامع البيان» (١٤/ ٥٩٦).
(٤) قائله جرير. انظر: «شرح ديوانه» (٢/ ٩٩٠).
(٥) أي: الزمخشري في «الكشاف» (٣/ ٥١٩ ـ ٥٢٠).
(٦) «الدر المصور» (٧/ ٣٥٤)، و«الفريد» (٣/ ٢٧٥)، و«التبيان» (٢/ ٨٢١).
(٧) قال ابن حيان في «البحر المحيط» (٧/ ٤٩): ذكر ذلك أبو جعفر النحاس في «المقنع» من تأليفه.

﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ المَرَحُ قيل: هو شدّة الفرح.

وقيل: التكبّر في المشي؛ وقيل: تجاوز الإنسان قدْرَه؛ وقيل: الخيلاء في المشي؛ وقيل: البَطرَ والأشَر، وقيل: النشاط.

والظاهر أنّ المراد به هنا: الخيلاء والفَخْر.

قال الزجاج[1] في تفسير الآية: لا تمشِ في الأرض مختالاً فخوراً، وذكر الأرض مع أنّ المشي لا يكون إلّا عليها أو على ما هو معتمد عليها تأكيداً وتقريراً، ولقد أحسن مَنْ قال:

ولا تمشِ فوقَ الأرض إلّا تواضُعاً ... فكَمْ تحتها قومٌ هم منك أرفعُ
وإن كنتَ في عزٍّ وحِرْزٍ ومَنْعةٍ ... فكم ماتَ مِنْ قومٍ هم منك أمنعُ[2]

والمرح مصدر[3] وقع حالاً؛ أي: ذا مرحٍ. وفي وضع المصدر موضع الصفة نوع تأكيد.

وقرأ الجمهور (مَرحاً) بفتح الراء[4] على المصدر.

وحكى يعقوب عَنْ جماعة كسرها[5] على أنّه اسم فاعل. ثم علّل سبحانه هذا النهي فقال: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾ يقال: خَرقَ الثوبَ؛ أي: شقّه، وخَرَقَ الأرض قطعها، والخَرْق: الواسعُ من الأرض.

والمعنى: إنّك لنْ تخرق الأرض بمشيك عليها تكبراً، وفيه تهكم بالمختال المتكبر ﴿وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾؛ أي: ولن تبلغ قدرتك إلى أن تطاول الجبال حتى يكون عِظَم جثتك حاملاً لك على الكبر والاختيال، فلا قوّة لك حتى تخرق الأرض بالمشي عليها، ولا عظم في بدنك حتى تُطاول الجبال، فما الحامل لك على ما أنت فيه؟ و﴿طُولًا﴾ مصدر[6] في موضع الحال أو تمييز أو مفعول له؛ وقيل: المراد بخرق الأرض: نَقْبُها لا قطعها بالمسافة.

---

(١) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ٣٤٠).
(٢) انظرهما في: «روضة العقلاء ونزهة الفضلاء» (ص٦١).
(٣) «التبيان» (٢/ ٨٢٢)، و«روح المعاني» (١٤/ ٥١٢)، و«الفريد» (٣/ ٢٧٦).
(٤) «البحر المحيط» (٧/ ٤٩)، و«إعراب النحاس» (٢/ ٢٤١)، و«التبيان» (٢/ ٨٢٢)، و«زاد المسير» (٥/ ٣٦).
(٥) «القراءات الشاذة» (ص٧٦)، و«روح المعاني» (١٤/ ٥١٢). وما حكاه يعقوب فقراءة شاذة.
(٦) «الفريد» (٣/ ٢٧٦)، و«التبيان» (٢/ ٨٢٢)، و«الدر المصون» (٧/ ٣٥٥).

وقال الأزهري[١]: خرقها: قطعَها، قال النَّحاس[٢]: وهذا أبين كأنه مأخوذ مِنْ الخرق، وهو الفتحة الواسعة، ويقال: فلان أخرقُ مِنْ فلان؛ أي: أكثر سفراً، والإشارة بقوله: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ﴾ إلى جميع ما تقدّم ذكره مِنْ الأوامر والنواهي، أو إلى ما نهى عَنْه فقط مِنْ قوله: ﴿وَلَا تَقْفُ﴾، ﴿وَلَا تَمْشِ﴾.

قرأ عاصم، وابنُ عامر، وحَمْزة، والكسائي، ومسروق (سيئه)[٣] على إضافة سيئ إلى الضمير، ويؤيد هذه القراءة قوله: ﴿مَكْرُوهًا﴾ فإن السيئ هو المكروه.

ويؤيدها أيضاً قراءة أُبيّ: (كان سيئاته)[٤]، واختار هذه القراءة أبو عُبيد. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو (سيئةً)[٥] على أنها واحدة السيئات، وانتصابها على خبرية كان، ويكون ﴿مَكْرُوهًا﴾ صفة «السيئة» على المعنى، فإنها بمعنى سيئاً، أو هو بدل[٦] مِنْ «سيئة»؛ وقيل: هو خبر ثانٍ لكان حملاً على لفظ كل، ورجح أبو علي الفارسي البدل، وقد قيل في توجيهه بغير هذا مما فيه تعسّف لا يخفى.

قال الزجاج[٧]: والإضافة أحسن؛ لأن ما تقدّم [٣/١٧٤] من الآيات فيها سيئ وحسن، فسيئه المكروه ويقوّي ذلك التذكير في المكروه، قال: ومن قرأ بالتنوين جعل «كل ذلك» إحاطة بالمنهيّ عنه دون الحسن. المعنى: كل ما نهى الله عنه كان سيئةً، وكان مكروهاً.

قال: والمكروه على هذه القراءة بدل مِنْ السيئة وليس بنعت، والمراد بالمكروه عند الله: هو الذي يُبْغضه ولا يرضاه، لا أنّه غير مراد مطلقاً، لقيام الأدلة القاطعة

---

(١) في «تهذيب اللغة» (٧/ ٢١).
(٢) في «معاني القرآن» للنحاس (٤/ ١٥٧).
(٣) «التيسير» (ص١٤٠)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٣/ ٨٤)، و«جامع البيان» (١٤/ ٥٩٩)، و«البحر المحيط» (٧/ ٥١).
(٤) «القراءات الشاذة» (ص٧٦ ـ ٧٧)، و«روح المعاني» (١٤/ ٥١٥). وهي قراءة شاذة مخالفة للرسم.
(٥) «التيسير» (ص١٤٠)، و«معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٢٤٠ ـ ٢٤١)، و«جامع البيان» (١٤/ ٦٠٠). وهي قراءة متواترة.
(٦) «روح المعاني» (١٤/ ٥١٥)، و«التبيان» (٢/ ٨٢٢)، و«الفريد» (٣/ ٢٧٧)، و«الدر المصون» (٧/ ٣٥٥).
(٧) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ٢٤٠ ـ ٢٤١).

على أَنّ الأشياء واقعة بإرادته سبحانه، وذكر مطلق الكراهة مع أَنّ في الأشياء المتقدّمة ما هو مِنْ الكبائر[1] إشعاراً بأن مجرّد الكراهة عنده تعالى يوجب انزجار السامع واجتنابه لذلك.

والحاصل: أنّ في الخصال المتقدّمة ما هو حسن وهو المأمور به، وما هو مكروه وهو المنهيّ عنه، فعلى قراءة الإضافة تكون الإشارة بقوله: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ﴾ إلى جميع الخصال حسنها ومكروهها، ثم الإخبار بأن ما هو سيئ من هذه الأشياء[2] وهو المنهي عنه مكروه عند الله، وعلى قراءة الإفراد من دون إضافة تكون الإشارة إلى المنهيات، ثم الإخبار عَنْ هذه المنهيات بأنّها سيئة مكروهة عند الله.

﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ﴾ الإشارة إلى ما تقدّم ذكره من قوله: ﴿لا تَجۡعَلۡ﴾ إلى هذه الغاية وترتقي إلى خمسة وعشرين تكليفاً، ﴿مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ﴾؛ أي: مِنْ جنسه أو بعض منه، وسمّي حكمة؛ لأنّه كلام مُحْكم، وهو ما علمه من الشرائع[3] أو من الأحكام المحكمة التي لا يتطرق إليها الفساد، وعند الحكماء أنّ الحكمة عبارة عَنْ معرفة الحق لذاته.

و﴿مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ﴾ متعلق بمحذوف وقع[4] حالاً؛ أي: كائناً من الحكمة، أو بدل من الموصول بإعادة الجار، أو متعلق بـ﴿أَوۡحَىٰٓ﴾.

﴿وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ كرّر سبحانه النهي عَنْ الشرك تأكيداً وتقريراً وتنبيهاً على أنه رأْسُ خصال الدين وعمدته.

قيل: وقد راعى سبحانه في هذا التأكيد دقيقةً فرتب على الأوّل كونه مذموماً مخذولاً، وذلك إشارة إلى حال الشرك في الدنيا، ورتب على الثاني أنه يلقى ﴿فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدۡحُورًا﴾ وذلك إشارة إلى حاله في الآخرة، وفي القعود هناك، والإلقاء هنا إشارة إلى أن للإنسان في الدنيا صورة اختيارٍ بخلاف الآخرة، وقد تقدّم تفسير الملوم والمدحور.

---

(١) «روح المعاني» (١٤/ ٥١٤).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٣/ ٨٦)، و«روح المعاني» (١٤/ ٥١٦).

(٣) «تفسير أبي السعود» (٤/ ٤٢٩)، و«روح المعاني» (١٤/ ٥١٦)، و«جامع البيان» (١٤/ ٦٠١).

(٤) «الفريد» (٣/ ٢٧٧)، و«التبيان» (٢/ ٨٢٢)، و«الدر المصون» (٧/ ٣٥٧ ـ ٣٥٨).

[استفهام للاستنكار والتهكم]:

﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا﴾ قال أبو عُبيدة[١]: أصفاكم: خصّكم، وقال الفضل: أخلصكم، وهو خطاب للكفار القائلين بأن الملائكة بناتُ الله، وفيه توبيخ[٢] شديد، وتقريع بالغ لما كان يقوله هؤلاء الذين هم كالأنعام؛ بل هم أضل، والفاء للعطف على مقدّر كنظائره مما قد كررناه.

﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ﴾ يعني: القائلين بأن لهم الذكر ولله الإناث ﴿قَوْلًا عَظِيمًا﴾ بالغاً في العِظَم والجراءة على الله إلى مكان لا يُقَادر قَدْرُه ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾؛ أي: بيّنا ضروب القول فيه مِنْ الأمثال وغيرها، أو كررنا فيه؛ وقيل: «في» زائدة[٥].

والتقدير: ولقد صرفنا هذا القرآن.

والتصريف[٣] في الأصل: صرفُ الشيء مِنْ جهة إلى جهة؛ وقيل: معنى التصريف: المغايرة؛ أي: غايرنا بين المواعظ ليتذكروا ويعتبروا.

وقراءة الجمهور ﴿صَرَّفْنَا﴾ بالتشديد[٤]، وقرأ الحسن بالتخفيف[٥]، ثم علل تعالى ذلك فقال: ﴿لِيَذَّكَّرُوا﴾؛ أي: ليتعظوا ويتدبروا بعقولهم، ويتفكروا فيه حتى يقفوا على بطلان ما يقولونه.

قرأ يحيى بن وثّاب، والأعمش، وحمزة، والكسائي (ليذْكروا) مخففاً[٦]، والباقون[٧] بالتشديد، واختارها أبو عُبيد[٨] لما تفيده مِنْ معنى التكثير.

وجملة ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ في محل نصب على الحال؛ أي: والحال أن هذا التصريف والتذكير ما يزيدهم[٩] إلّا تباعداً عن الحق، وغفلة عن النظر في الصواب

---

(١) في «مجاز القرآن» (١/ ٣٨٠) وفيه: اختصكم.
(٢) «الدر المصون» (٧/ ٣٥٨)، و«البحر المحيط» (٧/ ٥٣).
(٣) «مفردات ألفاظ القرآن» (ص٤٨٢ ـ ٤٨٣)، و«الصحاح» (٤/ ١٣٨٥).
(٤) «البحر المحيط» (٧/ ٥٢)، و«النشر» (٢/ ٤٠٣)، و«روح المعاني» (١٤/ ٥٢٥)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٣/ ٨٧).
(٥) «القراءات الشاذة» (ص٧٧)، و«المحتسب» (٢/ ٢١). قراءة الحسن شاذة، والمتواتر التشديد.
(٦) «البحر المحيط» (٧/ ٥٢ ـ ٥٣)، و«النشر» (٢/ ٤٠٣)، و«روح المعاني» (١٤/ ٥٢٥)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٣/ ٨٧). وهما قراءتان متواترتان، ومع حمزة خلف.
(٧) انظر: المصادر المتقدمة.
(٨) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٣/ ٨٧).
(٩) «جامع البيان» (١٤/ ٦٠٣)، و«روح المعاني» (١٤/ ٥٢٥).

لأنهم قد اعتقدوا في القرآن أنه حيلةٌ، وسحر، وكهانة، وشعر، وهم لا ينزعون عن هذه الغواية ولا وازع لهم يزعهم إلى الهداية.

وقد أخرج ابن جرير[(١)] عن قتادة في قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ﴾ قال: كانوا لا يُخالطونهم في مال ولا مأكل ولا مركبٍ حتى نزلت ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ قال: يسأل الله ناقض العهد عن نقضه.

وأخرج ابن المنذر[(٢)] عن ابن جريج في الآية قال: يَسأُل عهده مَنْ أعطاه إياه.

وأخرج ابن أبي حاتم[(٣)] عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ يعني: لغيركم ﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ﴾ يعني: الميزان، وبلغة الروم الميزان: القسطاس ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ يعني: وفاء الكيل والميزان خير مِنْ النقصان ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ عاقبة.

وأخرج ابن أبي شيبة، والفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد[(٤)] قال: القسطاس: العدل بالرومية.

وأخرج ابن المنذر[(٥)] عن الضحاك قال: القسطاس القبّان.

وأخرج ابن أبي حاتم[(٦)] عن الحسن قال: الحديد.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[(٧)] في قوله: ﴿وَلَا تَقْفُ﴾ قال: لا تقل.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٥٩٠) بسند صحيح.
(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٢٨٥).
(٣) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٣٠).
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٥٩٢)، وابن أبي شيبة (١٠/ ٤٧١، ٤٧٢) بسند ضعيف.
(٥) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٢٨٥).
(٦) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٣١).
(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٥٩٣) بسند صحيح.

وأخرج ابن جرير[١] عنه قال: لا تَرْمِ أحداً بما ليس لك به علم.

وأخرج ابن جرير[٢]، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن الحنفية في الآية قال: شهادة الزور.

وأخرج ابن أبي حاتم[٣] عن عكرمة في قوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ يقول: سمعه وبصره وفؤاده تَشْهد عليه.

وأخرج الفريابي[٤] عن ابن عباس في قوله: ﴿كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ قال: يوم القيامة أكذلك كانَ أَمْ لا.

وأخرج ابنُ جرير، وابن أبي حاتم عَنْ قتادة[٥] في قوله: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ قال: لا تمش فَخْراً وكبراً، فإن ذلك لا يبلغ بك الجبال، ولا أن تخرق الأرض بفخرك وكبرك.

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس[٦] قال: إنّ التوراة في خمس عشرة آية من بني إسرائيل ثم تلا: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طريق عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس[٧] في قوله: ﴿مَّدْحُورًا﴾ قال: مطروداً.

﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٥٩٤) بسند ضعيف.
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٥٩٤)، وابن أبي شيبة (٧/ ٢٥٨) من طريق إسماعيل الأزرق، به.
(٣) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٣١).
(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٢٨٦).
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٥٩٨)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٧٨) بسند صحيح.
(٦) أخرجه ابن جرير في «جمع البيان» (١٥/ ١٣٨، ١٣٩).
(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٦٠١) بسند صحيح.

وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًاۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾.

قوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾. قرأ ابنُ كثير، وحَفْص ﴿يَقُولُونَ﴾ بالياء التحتية[1].

وقرأ الباقون بالفوقية[2] على الخطاب للقائلين بأنّ مع الله آلهةً أخرى، و﴿إِذًا﴾: جواب عَنْ مقالتهم الباطلة وجزاء للو ﴿لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ وهو الله سبحانه ﴿سَبِيلًا﴾ طريقاً للمغالبة والممانعة كما تفعل الملوك مع بعضهم البعض من المقاتلة والمصاولة؛ وقيل: معناه: إذنْ لابتغت الآلهة إلى الله القربة والزلفة عنده؛ لأنّهم دونه، والمشركون إنما اعتقدوا أنّها تقرّبهم إلى الله.

والظاهر المعنى الأول، ومثل معناه قوله سبحانه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [الأنبياء: ٢٢]. ثم نزّه تعالى نفسَه، فقال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ والتسبيح: التنزيه، وقد تقدّم، ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾ متباعد ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾ مِنْ الأقوال الشنيعة، والفرية العظيمة ﴿عُلُوًّا﴾؛ أي: تعالياً، ولكنه وضع العلوّ موضع التعالي كقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: ١٧].

ثم وصف العلوّ بالكبر مبالغة في النزاهة، وتنبيهاً على أن بين الواجب لذاته والممكن لذاته، وبين الغني المطلق، والفقير المطلق مباينة لا تعقل الزيادة عليها.

ثم بيَّن سبحانه جلالة ملكه، وعظمة سلطانه فقال: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ

---

(١) «التيسير» (ص١٤٠)، و«البحر المحيط» (٧/ ٥٣)، و«روح المعاني» (١٤/ ٥٢٦)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٣/ ٨٨).

(٢) انظر: المصادر المتقدمة.

﴿وَمَن فِيهِنَّۚ﴾ قرئ بالمثناة التحتية[(١)] في (يسبح)، وبالفوقية[(٢)]، وقال: ﴿فِيهِنَّۚ﴾ بضمير العقلاء لإسناده إليها التسبيح الذي هو فعل العقلاء.

وقد أخبر سبحانه عن السمٰوات والأرض بأنها تُسبِّحه، وكذلك مَنْ فيها من مخلوقاته الذين لهم عقول وهم الملائكة والإنس والجن وغيرهم من الأشياء التي لا تعقل، ثم زاد ذلك تعميماً وتأكيداً فقال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ فشمل كل ما يسمى شيئاً كائناً ما كان، وقيل: إنه يحمل قوله: ﴿وَمَن فِيهِنَّۚ﴾ على الملائكة والثقلين، ويحمل ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ على ما عدا ذلك من المخلوقات.

وقد اختلف أهل العلم في هذا العموم هل هو مخصوص أم لا؟ فقالت طائفة: ليس بمخصوص، وحملوا التسبيح على تسبيح[(٣)] الدلالة لأن كل مخلوق يشهد على نفسه ويدلّ غيره بأن الله خالق قادر.

وقالت طائفة: هذا التسبيح[(٤)] على حقيقته والعموم على ظاهره. والمراد: أن كل المخلوقات تُسبح لله سبحانه هذا التسبيح الذي معناه: التنزيه وإن كان البشر لا يسمعون ذلك ولا يفهمونه، ويؤيد هذا قوله سبحانه: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْۗ﴾ فإنّه لو كان المراد تسبيح الدلالة لكان أمراً مفهوماً لكل أحد، وأجيب: بأن المراد بقوله: ﴿لَّا تَفْقَهُونَ﴾ الكفار الذين يُعرضون عَنْ الاعتبار[(٥)].

وقالت طائفة: إن هذا العموم مخصوص بالملائكة والثقلين دون الجمادات، وقيل: خاص بالأجسام النامية فيدخل النباتات، كما روي هذا القول عن عكرمة[(٦)] والحسن[(٧)] وخصَّا تسبيح النباتات بوقت نموها لا بعد قطعها.

وقد استدلّ لذلك بحديث: «أن النبي ﷺ مرّ على قبرين» وفيه: «ثم دعا

---

(١) «النشر» (٢/ ٣٠٧)، و«روح المعاني» (١٤/ ٥٢٧ ـ ٥٢٨)، و«البحر المحيط» (٧/ ٥٤).

(٢) انظر: المصادر المتقدمة. هما قراءتان متواترتان، فالفوقية عن أهل العراق عدا أبي بكر ووجه لرويس عن يعقوف، والباقون، والباقون بالياء التحتية.

(٣) «الوسيط» للواحدي (٣/ ١٠٩).

(٤) «المحرر الوجيز» (١٠/ ٣٠٠)، و«جامع البيان» (١٤/ ٦٠٤ ـ ٦٠٥).

(٥) «الجامع لأحكام القرآن» (١٣/ ٨٩)، و«روح المعاني» (١٤/ ٥٢٩).

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٦٠٥)، وابن أبي الدنيا في «الهواتف» رقم (٦٤٥) من طريق يحيى بن واضح، به.

(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٦٠٤) بسند ضعيف.

بعسيب رَطْبٍ فشقه اثنين، وقال: إنه يخفف عنهما ما لم ييبسا»[١]. ويؤيد حمل الآية على العموم قوله: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ [ص: ١٨].

وقوله: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤]. وقوله: ﴿وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾ [مريم: ٩٠]، ونحو ذلك من الآيات. وثبت في «الصحيح»[٢] أنهم كانوا يسمعون [٣/١٧٥] تسبيحَ الطعام، وهم يأكلون مع رسول الله ﷺ، وهكذا حديث[٣]: حَنين الجِذْع، وحديث[٤]: إنّ حجراً بمكة كان يُسلّم على النبيّ ﷺ، وكلها في «الصحيح» ومِنْ ذلك تسبيح الحصى في كفه ﷺ، ومدافعة عموم هذه الآية بمجرّد الاستبعادات ليس دأب مَنْ يؤمن بالله سبحانه ويؤمن بما جاء مِنْ عنده.

ومعنى ﴿إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾: إلّا يُسبّح متلبِّساً بحمده ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾. قرأ الحسن، وأبو عَمْرو، ويعقوب، وحفص، وحمزة، والكسائي، وخلف (تسبح) بالمثناة الفوقية[٥] على الخطاب.

وقرأ الباقون بالتحتية[٦]، واختار هذه القراءة أبو عبيدة[٧].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ فمن حِلْمه الإمهال لكم، وعدم إنزال عقوبته عليكم، ومن مغفرته لكم أنّه لا يؤاخذ مَنْ تاب منكم.

ولما فرغ سبحانه مِنْ الإلٰهيات شرع في ذكر بعض مزايا[٨] القرآن وما يقع

---

(١) أخرجه أحمد (١/٢٢٥)، والبخاري في «صحيحه» رقم (٢١٦ ـ ٢١٨)، وأبو داود رقم (٢٠)، والترمذي رقم (٧٠)، وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه رقم (٣٤٧) كلهم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري رقم (٣٥٧٩) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في «صحيحه» رقم (٣٥٨٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
وأخرجه البخاري رقم (٣٥٨٤ و٣٥٨٥) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه مسلم في «صحيحه» رقم (٢/٢٢٧٧) من حديث جابر بن سمرة.

(٥) «البحر المحيط» (٧/٥٤)، و«النشر» (٢/٣٠٧)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٢/٤٨)، و«زاد المسير» (٥/٣٩)، و«روح المعاني» (١٤/٥٢٧ ـ ٥٢٨).

(٦) انظر: المصادر المتقدمة. قال في «تخريج القراءتان في فتح القدير» (ص٢٠١): لعلّ العزو الذي ذكره الإمام (الشوكاني) للقراءة السابقة في ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الحشر: ٢٤] أمّا قوله تعالى: ﴿إِلَّا يُسَبِّحُ﴾ فبالياء اتفاقاً.

(٧) لم نقف عليه في «مجاز القرآن» (١/٣٨).

(٨) جميع طبعات هذا الكتاب تتابعت على هذا الخطأ، والصواب ما تم تصحيحه (مزايا) بدلاً من (من آيات) والحمد لله.

من سامعيه فقال: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ جعلنا[١] بينك يا محمد وبين المشركين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً؛ أي: إنّهم لإعراضهم عَنْ قراءتك وتغافلهم عنك كمن بينك وبينه حجاب يمرّون بك ولا يرونك، ذكر معناه الزجاج وغيره، ومعنى ﴿مَّسْتُورًا﴾: ساتر.

قال الأخفش[٢]: أراد ساتراً، والفاعل قد يكون في لفظ المفعول كما تقول: إنّك لمشئوم[٣] ومَيْمون، وإنما هو شائم ويامن؛ وقيل: معنى ﴿مَّسْتُورًا﴾: ذا ستر؛ كقولهم: سيل مُفْعَم؛ أي: ذو إفعام، وقيل: هو حجاب لا تراه الأعين فهو مستور عنها، وقيل: حجاب مِنْ دونه حجاب فهو مستور بغيره، وقيل: المراد بالحجاب المستور: الطَّبْع والخَتْم ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ الأكنة: جمع كِنان.

وقد تقدّم تفسيره في الأنعام.

وقيل: هو حكاية لما كانوا يقولونه من قولهم: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ [البقرة: ٨٨، النساء: ٥٥] ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥]. و﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ مفعول[٤] لأجله؛ أي: كراهةَ أَنْ يفقهوه، أو لئلّا يفقهوه؛ أي: يفهموا ما فيه من الأوامر والنّواهي والحِكَم والمعاني ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾؛ أي: صَمَماً وثِقْلاً، وفي الكلام حذف، والتقدير: إنْ يسمعوه.

ومِنْ قبائح المشركين أنّهم كانوا يحبون أَنْ يذكر آلهتهم كما يذكر الله سبحانه فإذا سمعوا ذكر الله دون ذكر آلهتهم نفروا عَنْ المجلس، ولهذا قال الله: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ﴾؛ أي: واحداً غير مشفوع بذكر آلهتهم، فهو مصدر[٥] وقع موقع الحال ﴿وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ هو مصدر[٦]، والتقدير: هَربوا نفوراً، أو نفروا نفوراً؛ وقيل: جمع نافر كقاعد وقعود، والأوّل أوْلى.

ويكون المصدر في موضع الحال؛ أي: ولّوا نافرين ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾؛ أي: يستمعون إليك متلبّسين به مِنْ الاستخفاف بك وبالقرآن واللغو في ذكرك

---

(١) «جامع البيان» (١٤/ ٦٠٧ ـ ٦٠٨).
(٢) في «معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٦١٣).
(٣) «الدر المصون» (٧/ ٣٦٢ ـ ٣٦٣)، و«التبيان» (٢/ ٨٢٣)، و«الفريد» (٣/ ٢٧٩ ـ ٢٨٠).
(٤) «الفريد» (٣/ ٢٨٠)، و«التبيان» (٢/ ٨٢٣)، و«روح المعاني» (١٤/ ٥٣٧).
(٥) «الفريد» (٣/ ٢٨٠)، و«الدر المصون» (٧/ ٣٦٣).
(٦) «التبيان» (٢/ ٨٢٣)، و«روح المعاني» (١٤/ ٥٤١)، و«الفريد» (٣/ ٢٨٠).

لربك وحده، وقيل: الباء[١] زائدة.

والظرف في ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ متعلّق بأعلم؛ أي: نحن أعلمُ وقتَ يستمعون إليك بما يستمعون به، وفيه تأكيد للوعيد.

وقوله: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ متعلق بأعلم أيضاً؛ أي: ونحن أعلم بما يتناجون به فيما بينهم وقت تناجيهم، وقد كانوا يتناجون بينهم بالتكذيب والاستهزاء، ﴿يَقُولُ﴾ بدل مِنْ ﴿إِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾.

﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾؛ أي: يقول كلٌّ منهم للآخرين عند تناجيهم: ما تتبعون إلّا رجلاً سُحِر فاختلط عقلُه، وزال عَنْ حدّ الاعتدال.

قال ابن الأعرابيّ: المسحور: الذاهب العقل الذي أُفْسِد؛ من قولهم: طعام مسحور إذا أفسد عمله، وأرض مسحورة أصابها مِنْ المطر أكثر مما ينبغي فأفسدها.

وقيل: المسحور: المخدوع؛ لأنّ السحر حيلة وخديعة، وذلك لأنهم زعموا أنّ محمداً ﷺ كان يتعلم مِنْ بعض الناس، وكانوا يخدعونه بذلك التعليم.

وقال أبو عبيدة[٢]: معنى ﴿مَّسْحُورًا﴾: أنّ له سحراً؛ أي: رِئة، فهو لا يستغني عَنْ الطعام والشراب فهو مثلكم، وتقول العرب للجبان: قد انتفخ سَحْرُه، وكل من كان يأكل من آدمي أو غيره مسحور، ومِنْه قول امرئ القيس[٣]:

أرانا موضَعَيْنِ لأمرِ غيب ... ونُسْحرُ بالطعام وبالشراب

أي: نُغْذَى ونُعلَّل[٤].

قال ابن قتيبة[٥]: لا أدري ما حمله على هذا التفسير المستكره مع أن السلف فسّروه بالوجوه الواضحة.

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾؛ أي: قالوا تارة: إنك كاهن وتارة: ساحر، وتارة: شاعر، وتارة: مجنون ﴿فَضَلُّوا۟﴾ عن طريق الصواب في جميع ذلك ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ إلى الهدى أو إلى الطعن الذي تقبله العقول ويقع التصديق له لا أصل الطعن، فقد فعلوا منه ما قدروا عليه؛ وقيل: لا يستطيعون مخرجاً لتناقض كلامهم كقولهم: ساحر مجنون.

---

(١) «الدر المصون» (٧/ ٣٦٤ ـ ٣٦٥)، و«الفريد» (٣/ ٢٨٠).

(٢) في «مجاز القرآن» (١/ ٣٨١).

(٣) انظر: «ديوان امرئ القيس» (ص٩٧).

(٤) انظر: «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (١/ ٣٨١ ـ ٣٨٢).

(٥) في «غريب القرآن» له (ص٢٥٦).

وقد أخرج ابنُ أَبي حاتم[١] عَنْ سعيد بن جبير في قوله: ﴿إِذًا لَّابْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ قال: على أنْ يُزِيلوا مُلْكَه.

وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو نعيم في «الحلية»، والبيهقي في «الأسماء والصفات» عَنْ عبد الرحمٰن[٢] بن قُرظٍ: «أن رسول الله ﷺ ليلة أسري به إلى المسجد الأقصى كان جبريل عَنْ يمينه وميكائيل عن يساره، فطارا به حتى بلغ السمٰوات العلى، فلما رجع قال: سمعتُ تسبيحاً مِنْ السمٰوات العلى مع تسبيحٍ كثيرٍ سبّحت السمٰواتُ العلى مِنْ ذي المهابة مشفقات لذي العُلوّ بما علا، سبحان العلي الأعلى سبحانه وتعالى».

وأخرج ابن مردويه[٣] عن أنس: «أن رسول الله ﷺ قال وهو جالس مع أصحابه إذْ سمع هدّة فقال: أطّت السماء ويحقها أَنْ تئطّ، والذي نفس محمد بيده ما فيها موضع شبر إلّا فيه جبهة مَلَكٍ ساجد يسبح بحمده».

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في «العظمة» عن جابر[٤] قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بشيء أمر به نوحٌ ابنَه؟ إن نوحاً قال لابنه: يا بني آمرك أنْ تقول: سبحان الله، فإنّها صلاة الخلائق، وتسبيح الخلق، وبها يرزق الخلق قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾».

وأخرج أحمد، وابن مردويه من حديث ابن عمرو[٥] نحوه.

وأخرج ابن أبي حاتم[٦] عن أبي أُمامة قال: ما مِنْ عبد سبّح تسبيحة إلّا سبّح ما خلق الله مِنْ شيء، قال الله: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ قال ابن كثير: إسناده فيه ضعف.

---

(١) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٣٢).

(٢) أخرجه البيهقي في «الأسماء والصفات» رقم (٢٤)، والطبراني في «الأوسط» رقم (٣٧٤٢)، وهو حديث منكر.
قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٧٨): فيه مسكين بن ميمون، ذكر له الذهبي هذا الحديث، وقال: إنه منكر.

(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٢٨٩).

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٦٠٥)، وأبو الشيخ في «العظمة» رقم (١٢٤٤) بسند ضعيف. موسى بن عبيدة وهو الربذي، ومحمد بن يعلى وهو السلمي. ضعيفان.

(٥) أخرجه أحمد في «مسند» رقم (٦٥٨٣، ٧١٠١) بسند صحيح.

(٦) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٢٩٠).

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهم عن أبي هريرة(١) قال: قال رسول الله ﷺ: «قَرصتْ نملة نبيّاً مِنْ الأنبياء فأمر بقرية النمل فأُحرقت فأوحى الله إليه: مِنْ أجل نملة واحدة أحرقت أمةً من الأمم تسبّح».

وأخرج النسائي، وأبو الشيخ، وابن مردويه عن ابن عمرو(٢) قال: «نهى رسول الله ﷺ عَنْ قتل الضفدع وقال: نَقيقُها تسبيح».

وأخرج أبو الشيخ في «العظمة»، وابنُ مردويه عَنْ ابن عباس(٣) في قوله: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ قال: الزرع يُسبّح وأجره لصاحبه، والثوب يسبح ويقول الوسخ: إنْ كنت مؤمناً فاغسلني إذنْ.

وأخرج أبو الشيخ(٤) عنه قال: كل شيء يسبح إلّا الكلب والحمار.

وأخرج ابن راهويه في «مسنده» من طريق الزهري(٥) قال: أُتى أبو بكر بغراب وافر الجناحين، فجعل ينشر جناحَهُ ويقول: ما صِيْد من صَيْدٍ ولا عُضِدَتْ من شجرة إلّا بما ضيعتْ مِنْ التسبيح.

وأخرجه أحمد في «الزهد»، وأبو الشيخ عن ميمون بن مهران(٦) قال: أتى أبو بكر الصديق فذكره من قوله غير مرفوع.

وأخرجه أبو نعيم في «الحلية»، وابن مردويه من حديث أبي هريرة(٧) بنحوه.

وأخرج ابن مردويه من حديث ابن مسعود(٨) بمعنى بعضه.

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٣٠١٩)، ومسلم رقم (٢٢٤١)، وأبو داود رقم (٥٢٦٦)، والنسائي رقم (٤٣٦٩، ٤٣٧١، ٤٣٧٢)، وأبو الشيخ في «العظمة» رقم (١٢٠٣، ١٢٠٤).

(٢) أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» رقم (١٢٤١) وهو حديث ضعيف.

(٣) أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» رقم (١٢١٨) بسند ضعيف.

(٤) أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» رقم (١٢٦٢) بسند ضعيف.

(٥) أخرجه إسحاق بن راهويه كما في «المطالب العالية» رقم (٣٧٦٤) قال الحافظ: هذا معضل أو مرسل، والحكم ضعيف بمرة.

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة (١٣/ ٢٦٢)، وأحمد في «الزهد» (ص١١٠)، وأبو الشيخ في «العظمة» رقم (١٢٣٢) مرسلاً.

(٧) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٢٤٠).
قال الألباني: موضوع «السلسلة الضعيفة» رقم (١٨٧٧).

(٨) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٢٩٤).

وأخرج أبو الشيخ من حديث أبي الدرداء[(١)] بمعناه.

وأخرج ابن عساكر من حديث أبي رُهم[(٢)] نحوه.

وأخرج ابن المنذر[(٣)] عن الحسن قال: هذه الآية في التوراة كقدر ألفِ آيةٍ ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ قال في التوراة: تُسبّح له الجبال ويسبح له الشجر، ويسبح له كذا ويسبح له كذا.

وأخرج أحمد، وأبو الشيخ عَنْ ابن عباس[(٤)] قال: صلّى داود ليلة حتى أصبح، فلما أصبح وجد في نفسه سروراً فنادته ضفدعة: يا داود كنتُ أدأب منك، قد أغفيتَ إغفاء.

وأخرج البيهقي في «الشعب» عَنْ صدقة بن يسار[(٥)] قال: كان داود في محرابه فأبصر دودةً صغيرةً ففكر في خلقها وقال: ما يَعْبأُ الله بخلق هذه؟ فأنطقها الله فقالت: يا داود أتعجبك نفسُك؟ لأنا على قَدْر ما آتاني الله أذكر لله وأشكرُ له منك على ما آتاك الله، قال الله: ﴿وَإِنْ مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾.

وفي الباب أحاديث وروايات عَنْ السلف فيها التصريح بتسبيح جميع المخلوقات.

وأخرج أبو يعلى، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي عن أسماء بنت[(٦)] أبي بكر قال: «لما نزلت ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ [المسد: ١] أقبلت العوراء أمُّ جميل ولها ولْولة، وفي يدها فِهْر وهي تقول:

مَـذَمـمـاً أبـيـنـا ودينَـه قـلـيـنـا

وأمـرَه عـصـيـنـا

ورسول الله جالس وأبو بكر إلى جنبه، فقال أبو بكر: لقد أقبلت هذه وأنا أخاف أَنْ تراك، فقال: إنِّها لن تراني، وقرأ قرآناً اعتصم به كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ فجاءت حتى قامت على أبي بكر فلم ترَ النبي ﷺ فقالت: يا أبا بكر بلغني أَنّ صاحبك هجاني، فقال

---

(١) أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» رقم (١٢٣١) وهو ضعيف جدّاً.

(٢) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٦٣/ ٤٤).

(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٢٩٣).

(٤) أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» رقم (١٢٥٦) بسند حسن والرواية لعلها من الإسرائيليات.

(٥) أخرجه البيهقي في «الشعب» رقم (٤٥٨٠).

(٦) أخرجه أبو يعلى في «مسنده» رقم (٥٣)، والحاكم (٢/ ٣٦١) وصححه ووافقه الذهبي، والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ١٩٥، ١٩٦) بسند حسن.

أبو بكر: لا وربِّ هذا البيت ما هجاك، فانصرفتْ وهي تقول: قد علمتْ قريش أنّي بنتُ سيدها».

وقد رويت هذه القصة بألفاظ مختلفة.

وأخرج ابنُ جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة(١) في قوله: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ [٣/١٧٦] حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ قال: الحجاب المستور: أكنّة على قلوبهم أَنْ يفقهوه وأن ينتفعوا به، أطاعوا الشيطان فاستحوذ عليهم.

وأخرج ابن أبي حاتم(٢) عن زهير بن محمد في الآية قال: ذاك رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن على المشركين بمكة سمعوا قراءته ولا يرونه.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه عن ابن عباس(٣) في قوله: ﴿وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ قال: الشياطين.

وأخرج ابن مردويه(٤) عنه في قوله: ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ قال: عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل.

[التحدي في ظل التوبيخ والتقريع]:

﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/٦٠٨) بسند صحيح.

(٢) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٣٢).

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٦١٠)، والطبراني رقم (١٢٨٠٢) بسند ضعيف جداً. فيه روح بن المسيب أبو رجاء الكلبي متهم بالوضع.

(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٢٩٨).

لما فرغ سبحانه مِنْ حكاية شُبَه القوم في النبوّات حكى شُبْهتهم في أَمْرِ المعاد فقال: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا﴾ والاستفهام للاستنكار(١) والاستبعاد. وتقرير الشُبْهة: أنّ الإنسان إذا مات جفّت عظامهُ، وتناثرت وتفرقت في جوانب العالم، واختلطت بسائطها بأمثالها مِنْ العناصر، فكيف يُعْقَل بعد ذلك اجتماعها بأعيانها، ثم عود الحياة إلى ذلك المجموع؟ فأجاب سبحانه عنهم بأن إعادة بدن الميت إلى حال الحياة أمرٌ ممكن، ولو فرضتم أَنّ بدنه قد صار أبعد شيء من الحياة ومن رطوبة الحي كالحجارة والحديد، فهو كقول القائل: أتطمع فيّ وأنا ابن فلان؟ فيقول: كن ابن السلطان أو ابن مَنْ شئتَ فسأطلب منك حقي.

والرفات(٢): ما تكسّر وبلي من كلّ شيء كالفتات والحطام والرضاض، قاله أبو عبيدة(٣)، والكسائي(٤)، والفراء(٥)، والأخفش(٦). تقول: منه رفت الشيء رفتاً؛ أي: حطم فهو مرفوت.

وقيل: الرُّفات الغُبار، وقيل: التراب ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ كرّر الاستفهام الدالّ على الاستنكار والاستبعاد تأكيداً وتقريراً، والعامل في إذا هو ما دلّ عليه ﴿لَمَبْعُوثُونَ﴾، لا هو نفسه؛ لأن ما بعد إنّ والهمزة واللام لا يعمل فيما قبلها.

والتقدير: ءإذا كنّا عظاماً ورفاتاً نبعث ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾، وانتصاب ﴿خَلْقًا﴾ على المصدرية(٧) مِنْ غير لفظه، أو على الحال؛ أي: مخلوقين، و﴿جَدِيدًا﴾ صفة له.

[هذا إيماءٌ إلى ما في تصورهم من جمود وتحجر]:

﴿۞ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا﴾ آخر ﴿مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ﴾.

قال ابن جرير(٨): معناه: إنْ عجبتم من إنشاء الله لكم عظاماً ولحماً فكونوا أنتم حجارة أو حديداً إنْ قدرتم على ذلك.

وقال علي بن عيسى(٩): معناه: إنّكم لو كنتم حجارة أو حديداً لم تفوتوا الله ﷻ إذا أرادكم.

(١) «روح المعاني» (١٤/ ٥٤٤)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ٤٣٥).
(٢) «مفردات ألفاظ القرآن» (ص٣٥٩).
(٣) في «مجاز القرآن» (١/ ٣٨٢).
(٤) ذكره الزجاج في «معاني القرآن» (٤/ ١٦٢ ـ ١٦٣).
(٥) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١٢٥).
(٦) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٣/ ٩٨).
(٧) «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٤٢٧)، و«الفريد» (٣/ ٢٨١)، و«التبيان» (٢/ ٨٢٤).
(٨) في «جامع البيان» (١٤/ ٦١٥، ٦١٨).
(٩) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٣/ ٩٩).

إلّا أنه خرج مخرج الأمر؛ لأنّه أبلغ في الإلزام؛ وقيل[١]: معناه: لو كنتم حجارةً أو حديداً لأعادكم كما بدأكم ولأماتكم ثم أحياكم.

قال النّحاس[٢]: وهذا قول حَسَنٌ؛ لأنهم لا يستطيعون أن يكونوا حجارة أو حديداً، وإنما المعنى: أنهم قد أقرّوا بخالقهم وأنكروا البعث، فقيل لهم: استشعروا أَنْ تكونوا ما شئتم، فلو كنتم حجارةً أو حديداً لبعُثتم كما خُلقتم أوّل مرة.

قلتُ: وعلى هذا الوجه قررنا جوابَ الشبهة قبل هذا ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ﴾ أي: يعظم عندكم مما هو أكبر من الحجارة والحديد مباينة للحياة، فإنكم مبعوثون لا محالة، وقيل: المراد به: السمٰوات والأرض والجبال لعظمها في النفوس.

وقال جماعة[٣] مِنْ الصحابة والتابعين: المراد به: الموت؛ لأنه ليس شيء أكبر في نفس ابن آدم منه.

والمعنى: لو كنتم الموت لأماتكم الله ثم بَعثَكم. ولا يخفى ما في هذا من البعد، فإن معنى الآية: الترقي مِنْ الحجارة إلى الحديد، ثم من الحديد إلى ما هو أكبر في صدور القوم منه، والموت نفسه ليس بشيء يُعْقَل ويُحسّ حتى يقع الترقي مِنْ الحديد إليه ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا﴾ إذا كنا عظاماً ورفاتاً، أو حجارة أو حديداً مع ما بين الحالتين من التفاوت ﴿قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: يعيدكم الذي خلقكم واخترعكم عند ابتداء خلقكم من غير مثال سابق ولا صورة متقدّمة ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ أي: يحركونها استهزاء، يقال: نَغَض[٤] رأسُه ينغُضُ وينغَض وينغِض نَغْضاً ونُغوضاً؛ أي: تحّرك، وأنغض رأسَه: حرّكه كالمتعجب، ومِنْه قول الراجز:

أنـغـضَ نـحـوي رأسَـه وأقـنـعـا[٥]

وقول الراجز الآخر:

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٣/ ٩٩). (٢) في «معاني القرآن» (٤/ ١٦٣).

(٣) «جامع البيان» (١٤/ ٦١٦ ـ ٦١٧).

(٤) «الصحاح» (٣/ ١١٠٨)، و«تهذيب اللغة» (٨/ ١١).

(٥) وعجزه:

كـأنـه يـطـلُـبُ شـيـئـاً أطـمـعـا

وانظر: «الدر المصون» (٧/ ٣٦٨)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٣/ ١٠٠).

ونَـغْـضَـت مِـنْ هـرمٍ أسـنـانُـهـا[١]

وقال آخر:

لـمـا رأتـنـي أنـغـضَـتْ لـي رأسَـهـا[٢]

[عسى في كلام الله واجب الوقوع]:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ﴾ أي: البعث والإعادة استهزاءً منهم وسخريةً ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ أي: هو قريب؛ لأنّ عسى في كلام الله واجبُ الوقوع، ومثله ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]، وكلّ ما هو آتٍ قريبٌ ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ الظرف[٣] منتصب بفعل مضمر؛ أي: اذْكر، أو بدل مِنْ قريباً، أو التقدير: يوم يدعوكم كان ما كان، الدعاء: النداء إلى المحشر بكلام يسمعه الخلائق، وقيل: هو الصيحة[٤] التي تسمعونها، فتكون داعية لهم إلى الاجتماع في أرض المحشر ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ أي: مُنقادين له حامدين لما فعله بكم، فهو في محل نصب على الحال. وقيل: المعنى: فتستجيبون والحمد لله كما قال الشاعر:

وإنـي بـحـمـد الـلّـه لا ثـوبَ فـاجـرٍ لَـبِـسْـتُ ولا مِـنْ غـدرةٍ أتـقـنَّـعُ[٥]

وقد روي أَنْ الكفار عند خروجهم[٦] مِنْ قبورهم يقولون[٧]: سبحانك وبحمدك؛ وقيل: المراد بالدعاء هنا: البعث، وبالاستجابة: أنّهم يبعثون، فالمعنى: يوم يبعثكم فتُبعثون منقادين ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: تظنّون عند البعث أنكم ما لبثتم في قبوركم إلّا زمناً قليلاً، وقيل: بين النفختين[٨]، وذلك أن العذاب يُكَفّ عن المعذبين بين النفختين، وذلك أَربعون عاماً ينامون فيها، فلذلك ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ

---

(١) انظر في: «جامع البيان» (١٤/ ٦٢٠)، و«مجاز القرآن» (١/ ٣٨٢).

(٢) «مجاز القرآن» (١/ ٣٨٢)، و«جامع البيان» (١٤/ ٦٢٠).

(٣) «التبيان» (٢/ ٨٢٤)، و«الفريد» (٣/ ٢٨٢)، و«الدر المصون» (٧/ ٣٦٩).

(٤) «النكت والعيون» (٣/ ٢٤٨).

(٥) قائله: غيلان بن سلمة الثقفي.
«معالم التنزيل» (٤/ ٤١٣)، و«زاد المسير» (٨/ ٤٠٠).

(٦) «جامع البيان» (١٤/ ٦٢٢ ـ ٦٢٣).

(٧) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ٤٢٧)، والقرطبي في «تفسيره» (١٣/ ١٠٢)، عن سعيد بن جبير.

(٨) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٣/ ١٠٢).

بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ [يس: ٥٢]، وقيل: إنّ الدنيا تَحقّرت في أعينهم وقلّت حين رأوا يوم القيامة، فقالوا هذه المقالة.

﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾؛ أي: قُلْ: يا محمد لعبادي المؤمنين: أنْ يقولون عند محاورتهم للمشركين الكلمةَ التي هي أحسنُ مِنْ غيرها من الكلام الحسن؛ كقوله سبحانه: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦]. وقوله: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [طه: ٤٤]؛ لأن المخاشنة لهم ربما تنفرهم عن الإجابة أو تؤدي إلى ما قال سبحانه: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨]. وهذا كان قبل نزول آية السيف.

وقيل: المعنى: قلْ لهم يأمروا بما أمر الله وينهوا عما نهى عنه، وقيل: هذه الآية للمؤمنين فيما بينهم خاصةً، والأوّل أولى كما يشهد به السبب الذي سنذكره إن شاء الله ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بالفساد وإلقاء العداوة والإغراء.

قال اليزيدي[١]: يقال: نزغ بيننا؛ أي: أفسَد. وقال غيرُه: النزغ[٢]: الإغراء ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾؛ أي: متظاهراً بالعداوة، مكاشفاً بها، وهو تعليل لما قبله، وقد تقدّم مثل هذا في البقرة. ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ قيل: هذا خطاب للمشركين.

والمعنى: إنْ يشأ يوفقكم للإسلام فيرحمكم أو يميتكم عن الشرك فيعذبكم، وقيل: هو خطاب للمؤمنين؛ أي: ﴿إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ﴾ بأن يحفظكم من الكفار ﴿أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ بتسليطهم عليكم.

وقيل: إنّ هذا تفسير للكلمة التي هي أحسن ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾؛ أي: ما وكلّناك في منعهم مِنْ الكفر، وقسرهم على الإيمان؛ وقيل: ما جعلناك كفيلاً لهم تؤخذ بهم، ومنه قول الشاعر:

ذكرْتُ أبا أروى فبتُّ كأنني   بردِّ الأمورِ الماضياتِ وكيلُ[٣]

أي: كَفِيل. ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أعلم بهم ذاتاً وحالاً

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٣/ ١٠٤).
(٢) «مفردات ألفاظ القرآن» (ص٤٥١)، و«الصحاح» (٤/ ١٣٢٧)، و«تهذيب اللغة» (٨/ ٥١).
(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١٣/ ١٠٥).

واستحقاقاً، وهو أعمّ مِنْ قوله: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾؛ لأنّ هذا يشمل كل ما في السمٰوات والأرض مِنْ مخلوقاته، وذاك خاص ببني آدم أو ببعضهم، وهذا كالتوطئة لقوله: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾؛ أي: أنّ هذا التفضيل عَنْ علم منه بمن هو أعلى رتبة وبمن دونه، وبمن يستحق مزيد الخصوصية بتكثير فضائله وفواضله.

وقد تقدّم هذا في البقرة.

وقد اتخذ الله إبراهيم خليلاً، وموسى كليماً، وجعل عيسى كلمتَه وروحه، وجعل لسليمان مُلْكاً عظيماً، وغفر لمحمد ما تقدّم من ذنبه وما تأخر، وجعله سيد ولد آدم. وفي هذه الآية دفع لما كان ينكره الكفار مما يحكيه رسول الله ﷺ من ارتفاع درجته عند ربه ﷻ، ثم ذكر ما فضل به داود، فقال: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾؛ أي: كتاباً مزبوراً.

قال الزجاج(١): أي: فلا تنكروا تفضيل محمد وإعطاءه القرآن فقد أعطى الله داود زبوراً.

وقد أخرجَ ابنُ جرير، وابنُ المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس(٢) في قوله: ﴿وَرُفَٰتًا﴾ قال: غباراً.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد(٣) في قوله: ﴿وَرُفَٰتًا﴾ قال: تراباً، وفي(٤) قوله: ﴿۞ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ قال: ما شئتُم فكونوا، فسيُعيدكم الله كما كنتم.

وأخرج ابنُ أبي شيبة، وعبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد»، [٣/١٧٧] وابنُ جرير، وابنُ المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عمر(٥) في قوله: ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ﴾ قال: الموت، لو كنتم موتاً لأحييتكم.

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد «الزهد»، وابن جرير، والحاكم عن ابن عباس(٦) مثله.

---

(١) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ٢٤٥).
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٦١٤) بسند صحيح.
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٦١٤) بسند صحيح.
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/٦١٨) بسند صحيح.
(٥) أخرجه ابن أبي شيبة (١٣/٣٢٦)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٤/٦١٦) بسند ضعيف.
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/٦٠٦)، و«الحاكم» (٢/ ٣٦٢) بسند ضعيف.

وأخرج أبو الشيخ في «العظمة»[١] عن الحسن مثله أيضاً.

وأخرج عبد الله بن أحمد، وابن جرير، وابن المنذر عن سعيد بن جبير[٢] نحوه، وزاد قال: فكونوا الموت إنْ استطعتم فإن الموت سيموت.

وأخرج ابنُ جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[٣] في قوله: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ قال: سيُحركونها استهزاءاً.

وأخرج ابنُ المنذر[٤] عن مجاهد في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾ قال: الإعادة.

وأخرج ابنُ جرير، وابن أبي حاتم من طريق عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس[٥] في قوله: ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ قال: بأمره.

وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير[٦] في الآية قال: يَخْرجون مِنْ قبورهم وهم يقولون: سبحانك اللَّهُمَّ وبحمدك.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة[٧] ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ قال: بمعرفته وطاعته ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ أي: في الدنيا تحاقرت الدنيا في أنفسهم، وقلّت حين عاينوا يوم القيامة.

وأخرج ابن أبي حاتم[٨] عن ابن سيرين في قوله: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ قال: لا إله إلّا الله.

وأخرج ابنُ المنذر[٩] عن ابن جريج في الآية قال: يعفو عَنْ السيئة.

وأخرج ابنُ جرير[١٠] عن الحسن قال: يقول له: يرحمك الله، يغفر الله لك.

---

(١) أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» رقم (٤٦١)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٦١٦) بسند صحيح.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٦١٦ ـ ٦١٧) بسندين يقوي أحدهما الآخر.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٦٢١) بسند ضعيف.

(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٣٠٠).

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٦٢٢) بسند صحيح.

(٦) عزاه إليهم السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٣٠١).

(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٦٢٣) بسند صحيح.

(٨) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٣).

(٩) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٣٠١).

(١٠) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٦٢٣ ـ ٦٢٤) من طريق المبارك عن الحسن.

وأخرج ابن أبي حاتم[١] عن قتادة قال: نزغ الشيطان: تَحْريشه.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة[٢] في قوله: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ قال: كنا نُحدّث أنه دعاء عُلِّمه داود وتحميد وتمجيد لله ﷻ ليس فيه حلال ولا حرام ولا فرائض ولا حدود.

وأخرج ابن أبي حاتم[٣] عَنْ الربيع بن أنس قال: الزبور: ثناء على الله ودعاء[٤] وتسبيح.

[الزبور خُطباً يخطبها داود ﵇ ويخاطب بها ربه]:

قلت: الأمر كما قاله قتادة والربيع، فإنّا وقفنا على الزبور فوجدناه خطباً يخطبها داود ﵇ ويُخاطب بها ربَّه سبحانه عند دخوله الكنيسة.

وجملته مائة وخمسون خُطبة، كل خُطبة تسمى مزموراً بفتح الميم الأولى وسكون الزاي وضم الميم الثانية وآخره راء، ففي بعض هذه الخطب يشكو داود على ربِّه من أعدائه ويستنصره عليهم، وفي بعضها يحمد الله ويمجّده ويثني عليه بسبب ما وقع من النصر عليهم والغلبة لهم، وكان عند الخُطبة يضرب بالقيثارة، وهي آلة مِنْ آلات الملاهي.

وقد ذكر السيوطي في «الدرّ المنثور»[٥] ها هنا روايات عن جماعة من السلف يذكرون ألفاظاً وقفوا عليها في الزبور ليس لها كثير فائدة، فقد أغنى عنها وعن غيرها ما اشتمل عليه القرآن مِنْ المواعظ والزواجر.

﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾

---

(١) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٣٠٢).
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٦٢٥ ـ ٦٢٦) بسند صحيح.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١١٨ رقم ٦٢٨١) بسند حسن.
(٤) انظر: «الوسيط للواحدي» (٣/ ١١٢). (٥) في «الدر المنثور» (٥/ ٣٠٢ ـ ٣٠٥).

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْءَانِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾.

قولُه: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ﴾ هذا ردٌّ على طائفة[1] من المشركين كانوا يعبدون تماثيل على أنّها صور الملائكة، وعلى طائفة من أهل الكتاب كانوا يقولون بإلٰهية عيسى ومريم وعُزير، فأمر الله سبحانه رسوله ﷺ بأنْ يقول لهم: ادعوا الذين زعمتم أَنّهم آلهة مِنْ دون الله.

وقيل: أراد بالذين زعمتم نَفَراً مِنْ الجن عندهم ناس مِنْ العرب، وإنما خصصت الآية بمن ذكرنا لقوله: ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾، فإن هذا لا يليق بالجمادات ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ﴾؛ أي: لا يستطيعون ذلك، والمعبودُ الحق هو الذي يقدر على كشف الضرّ، وعلى تحويله من حال إلى حال، ومن مكان إلى مكان، فوجب القطع بأنّ هذه التي تزعمونها آلهة ليست بآلهة، ثم إنه سبحانه أكّد عدم اقتدارهم ببيان غاية افتقارهم إلى الله في جَلْب المنافع ودفع المضارّ، فقال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ فـ﴿أُولَٰئِكَ﴾ مبتدأ[2] و﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ صفته، وضمير[3] الصلة محذوف؛ أي: يدعونهم، وخبر المبتدأ ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾، ويجوز أن يكون ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ خبر[4] المبتدأ؛ أي: الذين يدعون عباده إلى عبادتهم، ويكون ﴿يَبْتَغُونَ﴾ في محل[4] نصب على الحال.

وقرأ ابن مسعود (تَدْعون) بالفوقية[5] على الخطاب. وقرأ الباقون بالتحتية[6] على الخبر؛ ولا خلاف في ﴿يَبْتَغُونَ﴾ أنّه بالتحتية.

---

(١) «جامع البيان» (١٤/ ٦٢٦ ـ ٦٢٧)، و«الوسيط» للواحدي (٣/ ١١٣).
(٢) «الفريد» (٣/ ٢٨٣)، و«الدر المصون» (٧/ ٣٧٢)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٤٢٨).
(٣) «التبيان» (٢/ ٨٢٥)، و«الفريد» (٣/ ٢٨٣)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٤٢٨).
(٤) «الدر المصون» (٧/ ٣٧٢ ـ ٣٧٣)، و«الفريد» (٣/ ٢٨٣ ـ ٢٨٤)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٤٢٨).
(٥) وهي قراءة شاذة.
«روح المعاني» (١٤/ ٥٦٠)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٤٢٨)، و«زاد المسير» (٥/ ٥٠)، و«القراءات الشاذة» (ص٧٧).
(٦) «الجامع لأحكام القرآن» (١٣/ ١٠٦)، و«روح المعاني» (٤/ ٥٦٠)، و«البحر المحيط» (٧/ ٧٠).

و﴿ٱلْوَسِيلَةَ﴾ القُرْبة بالطاعة والعبادة؛ أي: يَتضرّعون إلى الله في طلب ما يُقرّبهم إلى ربِّهم، والضمير في ربِّهم يعود إلى العابدين أو المعبودين ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ مبتدأ وخبر.

قال الزجّاج(١): المعنى: أيهم أقربُ بالوسيلة إلى الله؛ أي: يتقرّب إليه بالعمل الصالح، ويجوز أنْ يكون بدلاً مِنْ الضمير في يبتغون؛ أي: يبتغي مَنْ هو أقرب إليه تعالى الوسيلة، فكيف بمن دونه؟

وقيل: إنّ يبتغون مُضَّمن معنى يَحْرصون؛ أي: يحرصون أيهم أقرب إليه سبحانه بالطاعة والعبادة ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ﴾ كما يرجوها غيرهم ﴿وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ كما يخافه غيرهم ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ تعليل لقوله: ﴿وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾؛ أي: إن عذابه سبحانه حقيق بأنْ يحذره العبادُ مِنْ الملائكة والأنبياء وغيرهم.

ثم بيّن سبحانه مآل الدنيا وأهلها فقال: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ «إنْ» نافية، و«مِنْ» للاستغراق(٢)؛ أي: ما مِنْ قريةٍ، أيّ قريةٍ كانت من قرى الكفار.

قال الزجاج(٣): أي: ما مِنْ أهل قرية إلّا سيُهلكون إما بموت وإما بعذاب يستأصلهم، فالمراد بالقرية: أهلها، وإنما قيل: قبل يوم القيامة لأن الإهلاك يوم القيامة غير مُختص بالقرى الكافرة؛ بل يعم كلَّ قرية لانقضاء عمر الدنيا؛ وقيل: الإهلاك للصالحة والتعذيب للطالحة، والأوّل أولى لقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَـٰلِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩]. ﴿كَانَ ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الإهلاك، والتعذيب.

﴿فِى ٱلْكِتَـٰبِ﴾؛ أي: اللوح المحفوظ ﴿مَسْطُورًا﴾؛ أي: مكتوباً، والسطر: الخط وهو في الأصل مصدر، والسّطَرَ بالتحريك مثله. قال جرير(٤):

مَنْ شاءَ بايعتُه مالي وخُلْفتُه ... ما تُكمل التَّيم في ديوانها سَطَرا

---

(١) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ٢٤٦).

(٢) «الدر المصون» (٧/ ٣٧٥ ـ ٣٧٦)، و«روح المعاني» (١٤/ ٥٦٣).

(٣) في «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٢٤٦ ـ ٢٤٧).

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٣/ ١٠٨).

والخُلْفة بضم الخاء[١] خيار المال، والسَطَر جمع أسطار، وجمع السَطْر بالسكون أسْطُر.

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْآيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَۚ﴾ قال المفسِّرون[٢]: إن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أنْ يجعل لهم الصفا ذهباً، وأن يُنحِّي عنهم جبال مكة، فأتاه جبريل فقال: إنْ شئتَ كان ما سأل قومُك، ولكنّهم إنْ لم يؤمنوا لم يُمْهَلوا وإن شئتَ استأنيت بهم، فأنزل الله هذه الآية. والمعنى: وما منَعنا مِنْ إرسال الآيات التي سألوها إلّا تكذيب الأوّلين، فإنْ أرسلناها وكذَّب بها هؤلاء عوجلوا ولم يمهلوا كما هو سُنَّة الله سبحانه في عباده، فالمنعُ مستعار بترك، والاستثناء[٣] مفرّغ من أعمّ الأشياء؛ أي: ما تركنا إرسالها لشيء مِنْ الأشياء إلّا تكذيب الأوّلين، فإن كذب بها هؤلاء كما كذب بها أولئك لاشتراكهم في الكفر والعناد حلّ بهم ما حلّ بهم، و«أنْ»[٤] الأولى في محل نصب بإيقاع المنع عليها، و«أنْ» الثانية[٥] في محل رفع، والباء في (بالآيات) زائدة.

والحاصل: أنّ المانع مِنْ إرسال الآيات التي اقترحوها هو أن الاقتراح مع التكذيب موجب للهلاك الكُلّي وهو الاستئصال.

وقد عزمنا على أَن نؤخر أمر مَنْ بُعث إليهم مُحمدٌ إلى يوم القيامة.

وقيل: معنى الآية: إنّ هؤلاء الكفار مِنْ قريش ونحوهم مقلدون لآبائهم فلا يؤمنون البتّة كما لم يؤمن أولئك، فيكون إرسال الآيات ضائعاً، ثم إنه سبحانه استشهد على ما ذكر بقصة صالح وناقته، فإنّهم لما اقترحوا عليه ما اقترحوا من الناقة وصفتها التي قد بُينت في محل آخر، وأعطاهم الله ما اقترحوا فلم يؤمنوا استؤصلوا بالعذاب.

---

(١) «الصحاح» (٤/ ١٣٥٧).
(٢) «جامع البيان» (١٤/ ٦٣٧)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٣/ ١٠٨)، و«تفسير ابن كثير» (٩/ ٣٣ ـ ٣٤).
(٣) «روح المعاني» (١٤/ ٥٦٩)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ٤٤٠).
(٤) «الدر المصون» (٧/ ٣٧٦ ـ ٣٧٧)، و«الفريد» (٣/ ٣٨٤)، و«التبيان» (٢/ ٨٢٤).
(٥) انظر: المصادر في التعليقة المتقدمة.

[لماذا خصَّ قوم صالح بالاستشهاد]:

وإنما خصّ قوم صالح بالاستشهاد؛ لأن آثار إهلاكهم في بلاد العرب قريبة من قريش وأمثالهم، يبصرها صادرُهم ووارِدُهم فقال: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾؛ أي: ذات إبصار يدركها النّاس بأبصارهم كقوله: ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢] أو أسند[١] إليها حال مَنْ يشاهدها مجازاً، أو أنها جعلتهم ذوي إبصار، من أبصره جعله بصيراً.

وقُرئ على صيغة[٢] المفعول. وقرئ[٣] بفتح الميم والصاد وانتصابها على الحال.

وقرئ برفعها[٤] على أنّها خبر مبتدأ محذوف.

والجملة معطوفة على محذوف يقتضيه سياق الكلام؛ أي: فكذبوها وآتينا ثمود الناقة، ومعنى ﴿فَظَلَمُواْ بِهَاۚ﴾: فظلموا بتكذيبها، أو على تضمين ظلموا معنى جحدوا أو كفروا؛ أي: فجحدوا بها أو كفروا بها ظالمين ولم يكتفوا بمجرد الكفر أو الجحد ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ اختلف[٥] في تفسير (الآيات) على وجوه:

الأوّل: أن المراد[٦] بها العِبَر والمعجزات التي جعلها الله على أيدي الرسل مِنْ دلائل [٣/١٧٨] الإنذار تخويفاً للمكذبين.

الثاني: أنها آيات الانتقام تخويفاً من المعاصي[٧].

الثالث: تقلب[٨] الأحوال مِنْ صِغَرٍ إلى شباب ثم إلى تكهل ثم إلى شيب ليعتبر الإنسان بتقلب أحواله فيخاف عاقبة أمره.

الرابع: آيات[٨] القرآن.

---

(١) «التبيان» (٢/ ٨٢٦)، و«روح المعاني» (١٤/ ٥٧١).

(٢) «البحر المحيط» (٧/ ٧٢)، و«روح المعاني» (١٤/ ٥٧١).

(٣) قرأ بها قتادة.
«القراءات الشاذة» (ص٧٧)، و«البحر المحيط» (٧/ ٧٢).

(٤) قرأ بها علي رضي الله عنه.
«البحر المحيط» (٧/ ٧٢)، و«روح المعاني» (١٤/ ٥٧١). وهي قراءة شاذة، والمتواتر (مُبْصِرةً) على صيغة اسم الفاعل منصوبة.

(٥) «جامع البيان» (١٤/ ٦٣٨ ـ ٦٣٩)، و«روح المعاني» (١٤/ ٥٧٢ ـ ٥٧٣)، و«زاد المسير» (٥/ ٥٢).

(٦) «الجامع لأحكام القرآن» (١٣/ ١٠٩)، و«زاد المسير» (٥/ ٥٢)، و«النكت والعيون» (٣/ ٢٥٢).

(٧) انظر: المصادر المتقدمة.

(٨) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٣/ ١٠٩).

الخامس: الموت الذريع[(١)] والمناسب للمقام أَنْ تفسر الآيات المذكورة بالآيات المقترحة؛ أي: لا نرسل الآيات المقترحة إلا تخويفاً مِنْ نزول العذاب، فإنْ لم يخافوا وقع عليهم.

والجملة مستأنفة لا محل لها، ويجوز أن تكون في محل نصب[(٢)] على الحال مِنْ ضمير ظلموا بها؛ أي: فظلموا بها ولم يخافوا، والحال أنّ ما نرسل بالآيات التي هي مِنْ جملتها إلّا تخويفاً.

قال ابن قتيبة[(٣)]: وما نرسل بالآيات المقترحة إلّا تخويفاً مِنْ نزول العذاب العاجل. ولما ذكر سبحانه الامتناع مِنْ إرسال الآيات المقترحة على رسوله للصارف المذكور قوي قلبهُ بوعد النصر والغلبة فقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ﴾ الظرف متعلق[(٤)] بمحذوف؛ أي: اذكرْ إذْ قُلْنا لك؛ أي: أنّهم في قبضته وتحت قُدرته، فلا سبيل لهم إلى الخروج ممّا يريده بهم لإحاطته لهم بعلمه وقدرته.

وقيل: المراد بالنّاس: أهل مكة، وإحاطته بهم: إهلاكه إياهم؛ أي: إن الله سيهلكهم، وعبّر بالماضي تنبيهاً على تحقق وقوعه، وذلك كما وقع يوم بدر ويوم الفتح.

وقيل: المراد أنّه سبحانه عصمه[(٥)] مِنْ الناس أن يقتلوه حتى يبلّغ رسالة ربه ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ لما بين سبحانه أن إنزال الآيات يتضمن التخويف ضمّ إليه ذكر آية الإسراء، وهي المذكورة في صدر السورة، وسمّاها رؤيا لأنّها وقعت بالليل، أو لأن الكفرة قالوا: لعلّها رؤيا.

وقد قدّمنا في صدر السورة وجهاً آخر في تفسير هذه الرؤيا، وكانت الفتنة ارتداد قومٍ كانوا أسلموا حين أخبرهم النبي ﷺ أنّه أسري به.

وقيل: كانت رؤيا نوم، وأن النبي ﷺ رأى أنه يدخل مكة فافتتن المسلمون لذلك، فلما فتح الله مكة نزل قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّۖ﴾ [الفتح: ٢٧].

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٦٣٩)، وأحمد في «الزهد» (ص٢٦٧ ـ ٢٦٨) من طريق نوح بن قيس، به.
(٢) «التبيان» (٢/ ٨٢٦)، و«روح المعاني» (١٤/ ٥٧٣).
(٣) في «تأويل مشكل القرآن» (ص٣٥٩).
(٤) «التبيان» (٢/ ٨٢٦).
(٥) «جامع البيان» (١٤/ ٦٣٩).

وقد تُعقّب هذا بأنّ هذه الآية مكية، والرؤيا المذكورة كانت بالمدينة، وقيل: إنّ هذه الرؤيا المذكورة في هذه الآية هي أنّه رأى بني مروان يَنْزون على مَنْبره نزو القردة فساءه ذلك، فقيل: إنما هي الدنيا أعطوها فسرّي عنه، وفيه ضعف(١)، فإنه لا فتنة للناس في هذه الرؤيا إلّا أَنْ يراد بالناس رسول الله ﷺ وحده، ويراد بالفتنة: ما حصل مِنْ المساءة لرسول الله ﷺ، أو يُحمل على أنّه قد كان أخبر الناس بها فافتتنوا، وقيل: إنّ الله سبحانه أراه في المنام مصارع قريش حتى قال: «واللهِ لكأنّي أنظر إلى مصارع القوم» وهو يُومئ إلى الأرض ويقول: «هذا مَصْرع فلان، هذا مصرع فلان»، فلما سمع قريش ذلك جعلوا رؤياه سُخْريةً.

﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ عطف على الرؤيا، قيل: وفي الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: وما جعلنا الرؤيا التي أريناك والشجرة الملعونة في القرآن إلّا فتنةً للناس.

قال جمهورُ المفسرين(٢): وهي شجرة الزقوم، والمراد بلعنها: لعن آكلها كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾ [الدخان: ٤٣، ٤٤].

وقال الزجاج(٣): إنّ العرب تقول: لكل طعام مكروه ملعون، ومعنى الفتنة فيها: أَنّ أبا جهل وغيرَه قالوا: زعم صاحبُكم أَنّ نار جهنم تحرق الحجر، ثم يقول: ينبت فيها الشجر، فأنزل الله هذه الآية. وروي أَنّ أبا جهل أمر جارية فأحضرت تمراً وزبداً وقال لأصحابه: تزقّموا.

وقال ابن الزِّبْعرى(٤): كثَّر الله مِنْ الزقوم في داركم فإنّه التمر بالزُّبد بلغة اليمن، وقيل: إنّ الشجرة الملعونة: هي الشجرة التي تلتوي على الشجر فتقتلها، وهي شجرة(٥) الكشوث؛ وقيل: هي الشيطان.

وقيل: اليهود؛ وقيل: بنو أُمية. ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾؛ أي: نخوّفهم بالآيات فما يزيدهم التخويف إلّا طُغياناً متجاوزاً للحد متمادياً غاية التمادي فما يفيدهم إرسال الآيات إلّا الزيادة في الكفر، فعند ذلك نفعل بهم ما فعلناه بمن قبلهم من الكفار، وهو عذاب الاستئصال ولكنا قد قضينا بتأخير العقوبة.

---

(١) انظر: «المحرر الوجيز» (١٠/ ٣١٤ ـ ٣١٥)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٣/ ١١٤ ـ ١١٥).
(٢) «جامع البيان» (١٤/ ٦٥٢)، و«تفسير ابن كثير» (٩/ ٣٦ ـ ٣٧).
(٣) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ٢٤٨). (٤) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٣/ ١١٤).
(٥) «جامع البيان» (١٤/ ٦٥١ ـ ٦٥٢).

وقَدْ أخرَج عبدُ الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، والبخاري، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم، وابن مردويه، وأبو نعيم في «الدلائل» عن ابن مسعود[١] في قوله: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ قال: كان نَفَرٌ من الإنس يعبدون نفراً مِنْ الجن، فأسلم النفر مِنْ الجنّ وتمسك الإنسيون بعبادتهم، فأنزل الله ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ كلاهما، يعني: الفعلين بالياء التحتية.

وروي نحو هذا عن ابن مسعود من طرق أخرى.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس[٢] في الآية قال: كان أهل الشرك يعبدون الملائكةَ والمسيحَ وعُزيراً.

وروي عنه[٣] مِنْ وجه آخر بلفظ عيسى وأمه وعُزير.

وروي عنه[٤] أيضاً من وجه آخر بلفظ هم: عيسى وعزير، والشمس والقمر.

وأخرج الترمذِي، وابن مردويه عن أبي هريرة[٥] قال: قال رسول الله ﷺ: «سلوا الله لي الوسيلة، قالوا: وما الوسيلة؟ قال: القُربْ مِنْ الله، ثم قرأ ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾».

وأخرج ابنُ أبي حاتم[٥] عن إبراهيم التيمي في قوله: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ قال: في اللّوح المحفوظ.

وأخرج أحمد، والنسائي، والبزار، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل»، والضياء في «المختارة» عن ابن عباس[٦] قال: «سأل أهلُ مكة النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً، وأن

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٤٧١٤، ٤٧١٥)، وعبد الرزاق (١/ ٣٧٩)، والنسائي في «السنن الكبرى» رقم (١١٢٨٧، ١١٢٨٩)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٦٢٧ ـ ٦٢٩)، والطبراني رقم (٩٠٧٧)، والحاكم (٢/ ٣٦٢)، وأبو نعيم في «الدلائل» رقم (٢٥٠، ٢٥١).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٦٢٧) بسند ضعيف.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٦٣١) بسند ضعيف.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٦٣١) بسند ضعيف.

(٥) أخرجه الترمذي في «السنن» رقم (٢٨٥٧) وهو حديث صحيح.

(٦) أخرجه أحمد رقم (٢٣٣٣)، والبزار في «مسنده» رقم (٢٢٢٤ ـ ٢٢٢٦ ـ كشف)، والنسائي =

يُنحّي عنهم الجبال فَيزرعوا، فقيل له: إنْ شئت أن تستأني بهم وإن شئتَ أن نؤتيهم الذي سألوا، فإنْ كفروا أُهْلكوا كما أَهْلكت مَنْ قبلهم مِنْ الأمم، قال: لا، بل أستأني بهم، فأنزل الله ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ﴾» الآية.

وأخرج أحمد، والبيهقي من طريق أخرى عنه[١] نحوه.

وأخرج البيهقي في «الدلائل» عن الربيع بن أنس[٢] قال: قال الناس لرسول الله ﷺ لو جئتنا بآية كما جاء بها صالح والنبيّون؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنْ شئتم دعوتُ الله فأنزلها عليكم، فإنْ عصيتم هلكتم، فقالوا: لا نريدها».

وأخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ في «العظمة» عن ابن عباس[٣] ﴿وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا﴾ قال: الموت.

وأخرج سعيد بن منصور، وأحمد في «الزهد»، وابن جرير، وابن المنذر عن الحسن[٤] قال: هو الموتُ الذريع.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الحسن[٥] في قوله: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ﴾ قال: عصَمك مِنْ الناس.

وأخرج ابنُ جرير، وابنُ أبي حاتم عَنْ مجاهد[٦] في الآية قال: فهم في قبضته.

وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وأحمد، والبخاري، والترمذي، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل» عن ابن عباس[٧] في قوله: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلرُّءۡيَا﴾

= في «السنن الكبرى» رقم (١١٢٩٠)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٦٣٥)، والطبراني رقم (١٢٧٣٦)، والحاكم (٢/ ٣٦٢)، والبيهقي (٢/ ٢٧١ ـ ٢٧٢)، والضياء (١٠/ ٧٨، ٧٩، ٨٠) رقم (٧١، ٧٢) بسند صحيح على شرط الشيخين.

(١) أخرج أحمد رقم (٢١٦٦)، والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٢٧٢) بسند صحيح.

(٢) أخرجه البيهقي في «الدلائل» (٢/ ٢٧٣).

(٣) أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» رقم (٤٦٢) بسند ضعيف.

(٤) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٢٦٧ ـ ٢٦٨)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٦٣٨، ٦٣٩) من طريق نوح بن قيس، به.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٦٣٩) بسند صحيح.

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٦٤٠) بسند صحيح.

(٧) أخرجه عبد الرزق في «تفسيره» (١/ ٣٨٠)، وأحمد رقم (١٩١٦، ٣٥٠٠)، والبخاري رقم =

الآية قال: هي رُؤْيا عين أُرِيها رسولُ الله ﷺ ليلة أسري به إلى بيت المقدس، وليست برؤيا منام ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ قال: هي شجرة الزقوم.

وأخرج أبو سعيد، وأبو يعلى، وابن عساكر عَنْ أم هانئ[1]: أن رسول الله ﷺ لما أُسري به أصبح يُحدّث نفراً من قريش وهم يستهزئون به، فطلبوا منه آية فوصف لهم بيت المقدس، وذكر لهم قصة العِير، فقال الوليد بن المغيرة: هذا ساحر، فأنزل الله ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا﴾ الآية.

وأخرج ابنُ جرير عَنْ سهل بن سعد[2] قال: رأى رسول الله ﷺ بني فلان ينزُون على منبره نزو القِردة، فساءه ذلك فما استجمع ضاحكاً حتى مات. فأنزل الله ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾.

قال ابنُ كثير[3] بعد أن ساق إسناده: وهذا السند ضعيف جدّاً. وذكر من جملة رجال السند محمد بن الحسن بن زَباله[4] وهو متروك وشيخه عبد المهيمن[5] بن عباس بن سهل بن سعد ضعيف جدّاً.

وأخرجِ ابنُ أبي حاتم[6] عن ابن عمرو أنّ النبي ﷺ قال: «رأيت ولد الحكم بن أبي العاص على المنابر كأنّهم القردة، فأنزل الله ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ﴾» يعني: الحكم وولده.

وأخرج ابنُ أبي حاتم[7] عن يعلى بن مرّة قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت بني أمية على منابر الأرض، وسيملكونكم فتجدونهم أرباب سوء، واهتمّ رسول الله ﷺ لذلك، فأنزل الله الآية».

وأخرج ابن مردويه[8] عن الحسين بن عليّ نحوه مرفوعاً وهو مرسل.

= (٣٨٨٨، ٤٧١٦، ٦٦١٣)، والترمذي رقم (٣١٣٤)، والنسائي في «الكبرى» رقم (١١٢٩٢)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٦٤١)، والطبراني رقم (١١٦٤١)، والحاكم (٢/ ٣٦٢)، والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٣٦٥).

(١) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ٢١٣ ـ ٢١٥).
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٦٤) بسند ضعيف جدًا.
(٣) في «تفسيره» (٩/ ٣٨).
(٤) «تقريب التهذيب» رقم (٥٨٥٢).
(٥) «تقريب التهذيب» رقم (٤٢٦٣).
(٦) وعزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٣٠٩).
(٧) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٣٤).
(٨) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٣١٠).

وأخرج ابنُ أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي، وابن عساكر عن سعيد[١] بن المسيب نحوه وهو مرسل.

وأخرج ابنُ مردويه[٢] عَنْ عائشة أنها قالت لمروان بن الحكم: سمعت رسول الله ﷺ يقول لأبيك وجدّك: «إنّكم الشجرة الملعونة في القرآن» وفي هذا نكارة لقولها: يقول لأبيك وجدّك ولعل جدّ مروان لم يُدرك زمنَ النبوّة.

وأخرج ابنُ جرير، وابن مردويه عن ابن عباس[٣] في الآية قال: إن رسول الله ﷺ أُرِي أنّه دخل مكة هو وأصحابه، وهو يومئذٍ بالمدينة فسار إلى مكة قبل الأجل فردّه المشركون، فقال ناس: قد رُدّ، وقد كان حدّثنا أَنّه سيدخلها، فكانت رجعته فتنتهم [٣/١٧٩].

[الشوكاني يرجح الرؤيا أنها ما رآه ليلة الإسراء]:

وقد تعارضت هذه الأسباب، ولم يمكن الجمع بينها فالواجب المصير إلى الترجيح والراجح كثرة وصحة هو كون سبب نزول هذه الآية قصة الإسراء فيتعين ذلك.

وقد حكى ابنُ كثير[٤] إجماع الحُجة مِنْ أهل التأويل على ذلك في الرؤيا، وفي تفسير الشجرة وأنها شجرة الزقوم، فلا اعتبار بغيرهم معهم.

وأخرج ابنُ إسحاق، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «البعث» عن ابن عباس[٥] قال: قال أبو جهل لما ذكر رسول الله شجرة الزقوم تخويفاً لهم: يا معشر قريش هل تَدْرون ما شجرة الزقوم التي يخوفكم بها محمد؟ قالوا: لا، قال: عجوة يثرب بالزُّبدْ. والله لئن استمكنا منها لنتزقمنّها تزقُّماً، قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾ [الدخان: ٤٣، ٤٤]، وأنزل ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ الآية.

---

(١) أخرجه البيهقي في «الدلائل» (٦/٥٠٩)، وابن عساكر في «تاريخه» (٥٧/٣٤١) مرسلاً.

(٢) عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/٣١٠).

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/٦٤٥، ٦٤٦) بسند ضعيف.

(٤) في «تفسيره» (٩/٣٨).

(٥) أخرجه ابن إسحاق (١١، ٣٦ ـ السيرة النبوية).
والبيهقي في «البعث والنشور» رقم (٥٩٨).

وأخرج ابنُ المنذر[١] عنه في قوله: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ﴾ قال: ملعونة؛ لأنّه قال: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الصافات: ٦٥]. والشياطين مَلْعونون.

[حسد إبليس لآدم]:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾.

لمّا ذكر سبحانه أَنَّ الرسول ﷺ كان في بلية عظيمة من قومه ومحنة شديدة، أراد أَنْ يُبين أَنَّ جميع الأنبياء كانوا كذلك، حتّى إِنّ هذه عادة قديمة سنَّها إبليس اللّعين.

وأيضاً لما ذكر أن الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه، ذكر ها هنا ما يحقق ذلك فقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ هذه القصّة قد ذكرها الله سبحانه في سبعة مواضع: في البقرة، والأعراف، والحِجْر، وهذه السورة، والكهف، وطه، وصَ.

وقد تقدّم تفسيرها مبسوطاً فلنقتصر ها هنا على تفسير ما لم يتقدّم ذكره من الألفاظ، فقوله: ﴿طِينًا﴾ منتصب[٢] بنزع الخافض؛ أي: مِنْ طينٍ، أو على الحال.

قال الزجّاج[٣]: المعنى: لمن خلقته طيناً، وهو منصوب على الحال. ﴿أَرَءَيْتَكَ﴾؛ أي: أخبْرني عَنْ هذا الذي فضلته عليّ لِمَ فضّلته؟ وقد ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢] فَحُذف هذا للعلم به.

---

(١) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٣١١).
(٢) «الدر المصون» (٧/ ٣٧٨)، و«التبيان» (٢/ ٨٢٦)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٤٣١ ـ ٤٣٢).
(٣) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ٢٤٩).

﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾؛ أي: لأستولينّ عليهم بالإغواء والإضلال.

قال الواحدي[(١)]: أصله مِنْ احتناك الجراد الزرع، وهو أَنْ تستأصله بأحناكها وتفسده، هذا هو الأصل، ثم سُميّ الاستيلاء على الشيء وأخذه كله احتناكاً.

وقيل: معناه: لأسوقنّهم حيثُ شئتُ، وأقودنّهم حيثُ أردتُ، من قولهم: حَنَكْتُ الفرسَ أحنِكه[(٢)] حنكاً: إذا جعلتَ في فيه الرَّسن، والمعنى الأوّل أنسب بمعنى هذه الآية، ومنه قول الشاعر:

أشكو إليك سَنَةً قد أجحفَتْ جَهْداً إلى جَهدٍ بنا وأضعفَتْ
واحتنكَتْ أموالَنا واجتلفَتْ[(٣)]

أي: استأصلت أموالنا، واللّام في ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ﴾ هي الموطئة، وإنما أقسم اللّعين هذا القسَم على أنّه سيفعل بذرية آدم ما ذكره لعلمٍ قد سبق إليه مِنْ سمعٍ استرقَه، أو قاله لمّا ظنه مِنْ قوة نفوذ كيده في بني آدم، وأنه يجري منهم في مجاري الدم، وأنهم بحيث يروج عندهم كيده، وتَنْفُق لديهم وسوسته إلّا مَنْ عصم الله، وهم المرادون بقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ وفي معنى هذا الاستثناء[(٤)] قوله سبحانه: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ ويُؤيد ما ذكرناه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ [سبأ: ٢٠].

فإنّه يفيد أنّه قال ما قاله هنا اعتماداً على الظنِّ، وقيل: إنه استنبط ذلك من قول الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠]، وقيل: علم ذلك من طبع البشر لِما رُكّب فيهم مِنْ الشهوات، أو ظنّ ذلك؛ لأنه وسوس لآدم، فقبل منه ذلك ولم يجد له عزماً، كما روي عَنْ الحسن[(٥)] ﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾؛ أي: أطاعك ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ﴾؛ أي: إبليس ومن أطاعه.

﴿جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾؛ أي: وافراً مُكمّلاً، يقال: وفَرتُه أَفِرُه وَفْراً، ووَفَر المالُ بنفسه يَفِر وفُوراً، فهو وافِر، فهو مصدر[(٦)]، ومِنْه قول زهير[(٧)]:

---

(١) في «الوسيط» (٣/ ١١٥). (٢) «الصحاح» (٤/ ١٥٨١).
(٣) انظره في: «الجامع لأحكام القرآن» (١٣/ ١١٧)، وفي «جامع البيان» (١٤/ ٦٥٤).
(٤) «روح المعاني» (١٤/ ٥٨٤)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ٤٤٤).
(٥) انظر: «معالم التنزيل» (٣/ ١٢٢)، و«الوسيط» للواحدي (٣/ ١١٥).
(٦) «الدر المصون» (٧/ ٣٨١). (٧) انظر: «ديوان زهير» (ص٣٠).

ومن يجعلْ المعروفَ مِنْ دون عرضِه يفْره ومَنْ لا يتّقي الشتمَ يُشْتَمِ

ثم كرّر سبحانه الإمهال لإبليس اللّعين فقال: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾؛ أي: استزعج واستخف مَنْ استطعت مِنْ بني آدم، يقال: أفزه واستفزه[١]؛ أي: أزعجه واستخفّه، والمعنى: أستخفّهم بصوتك داعياً لهم إلى معصية الله، وقيل: هو الغُناء واللّهو واللّعب والمزامير ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ قال الفراء[٢] وأبو عبيدة[٣]: أجلب مِنْ الجَلبَة والصياح؛ أي: صحْ عليهم.

وقال الزجّاج[٤]: أي: أَجْمع عليهم كلَّ ما تقدر عليه من مكايدك. فالإجلاب: الجمع. والباء في «بخيلك» زائدة.

وقال ابن السكّيت[٥]: الإجلاب: الإعانة، والخيل تقع على الفرسان كقوله ﷺ: «يا خيلَ الله اركبي»[٦]، وتقع على الأفراس، والرجْل بسكون الجيم: جمع رجْل كتاجر وتَجْر، وصاحب وصَحْب. وقرأ حَفْص بكسر[٧] الجيم على أنّه صفة.

قال أبو زيد[٨]: يقال رَجْل ورَجِل، بمعنى: راجل، فالخيلُ والرجل كناية عن جميع مكايد الشيطان، أو المراد: كلُّ راكب وراجل في معصية الله ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ أما المشاركة[٩] في الأموال، فهي كلُّ تصرفٍ فيها يخالف وجه الشرع سواء كان أخذاً مِنْ غير حق، أو وضعاً في غير حق كالغصْب والسرقة والربا، ومن ذلك تبتيك آذان الأنعام وجعلها بحيرةً وسائبة، والمشاركة في الأولاد دعوى الولد بغير سببٍ شرعي، وتحصيله بالزنا وتَسميتهم بعبد اللّات وعبد العزى، والإساءة في تربيتهم على وجهٍ يألفون فيه خصال الشر، وأفعال السوء ويدخل فيه ما قتلوا مِنْ أولادهم خشيةَ إملاقٍ، ووأد البنات وتصيير أولادهم على الملة الكفرية التي

---

(١) «الصحاح» (٣/ ٨٩٠).
(٢) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١٢٨ ـ ١٢٩).
(٣) في «مجاز القرآن» (١/ ٣٨٤).
(٤) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ٢٥٠).
(٥) انظر: «تهذيب الألفاظ» (٢/ ٥٧٠).
(٦) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣٩٦) من قول علي رضي الله عنه.
(٧) «التيسير» (ص١٤٠)، و«البحر المحيط» (٧/ ٨٠)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٣/ ١١٩). وقراءةُ حفص بكسر الجيم متواترة، وقرأ باقي القرّاء بإسكان الجيم.
(٨) انظر: «تهذيب اللغة» (١١/ ٢٩).
(٩) «الجامع لأحكام القرآن» (١٣/ ١١٩ ـ ١٢٠)، و«جامع البيان» (١٤/ ٦٥٨).

هم عليها، ومِنْ ذلك مشاركة الشيطان للمُجامع إذا لم يُسمِّ، ثم قال: ﴿وَعِدْهُمْۚ﴾ قال الفراء[(١)]: قل لهم: لا جنّة ولا نَار.

وقال الزجاج[(٢)]: وعدهم بأنّهم لا يُبْعثون ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾؛ أي: باطلاً، وأصل الغرور تزيين الخطأ بما يوهم الصواب؛ وقيل: معناه: وعدهم النصرة على مَنْ خالفهم، وهذه الأوامر للشيطان من باب التهديد والوعيد الشديد.

وقيل: هي على طريقة الاستخفاف[(٣)] به وبمَن تبعه ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٞۚ﴾ يعني: عباده المؤمنين كما في غير هذا الموضع من الكتاب العزيز من أن إضافة العباد إليه يراد بها: المؤمنون لما في الإضافة من التشريف.

وقيل: المراد: جميع العباد بدليل الاستثناء بقوله في غير هذا الموضع: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢] والمراد بالسلطان: التسلّط ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلٗا﴾ يتوكّلون عليه، فهو الذي يدفع عنهم كيدَ الشيطان ويعصمهم مِنْ إغوائه.

وقد أخرج ابن أبي حاتم[(٤)] عن ابن عباس قال: قال إبليس: إن آدم خُلق من تراب مِنْ طين، خُلق ضعيفاً وإنِّي خُلقت مِنْ نار، والنار تحرق كل شيء ﴿لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ فصدّق ظنّه عليهم.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم[(٥)] عنه ﴿لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ قال: لأستولينّ.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد[(٦)] ﴿لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ قال: لأحتوينّهم.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن زيد[(٧)] قال: لأضلنّهم.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد[(٨)] ﴿مَّوۡفُورٗا﴾ قال: وافراً.

---

(١) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١٢٧). (٢) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ٢٥٠).
(٣) «روح المعاني» (١٤/ ٥٨٩)، و«جامع البيان» (١٤/ ٦٦٦).
(٤) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٣٦).
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٦٥٥) بسند صحيح.
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٦٥٥) بسند صحيح.
(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٦٥٥) بسند صحيح.
(٨) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٦٥٥) بسند صحيح.

وأخرج ابنُ جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[١] في قوله: ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ﴾ قال: صوتُه كلُّ داعٍ دعا إلى معصية الله ﴿وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ﴾[٢] قال: كلُّ راكب في معصية الله ﴿وَرَجِلِكَ﴾ قال: كل راجل في معصية الله ﴿وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ﴾ قال: كلُّ مال في معصية الله ﴿وَٱلۡأَوۡلَٰدِ﴾ قال: كل ما قتلوا مِنْ أولادهم وأتوا فيهم الحرام.

وأخرج الفريابي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عنه[٣] في الآية قال: كلُّ خيل تسير في معصية الله، وكلُّ مال أُخذ بغير حقه، وكل ولد زنا.

وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس[٤] في الآية قال: ﴿ٱلۡأَمۡوَٰلِ﴾ ما كانوا يحرّمون مِنْ أنعامهم ﴿وَٱلۡأَوۡلَٰدِ﴾ أولاد الزنا.

وأخرج ابن جرير[٥] عنه أيضاً قال: ﴿ٱلۡأَمۡوَٰلِ﴾ البحيرة والسائبة والوصيلة لغير الله ﴿وَٱلۡأَوۡلَٰدِ﴾ سمَّوا عبد الحارث وعبد شمس.

[من نعم الله علينا]:

﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزۡجِي لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِي ٱلۡبَحۡرِ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا
٦٦ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ
كَفُورًا ٦٧ أَفَأَمِنتُمۡ أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ أَوۡ يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ
وَكِيلًا ٦٨ أَمۡ أَمِنتُمۡ أَن يُعِيدَكُمۡ فِيهِ تَارَةً أُخۡرَىٰ فَيُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ قَاصِفٗا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغۡرِقَكُم
بِمَا كَفَرۡتُمۡ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ عَلَيۡنَا بِهِۦ تَبِيعٗا ٦٩ ۞ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ
وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ٧٠﴾.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٦٥٧) بسند صحيح.
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٦٥٩) بسند صحيح.
(٣) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٣٧).
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٦٦٢، ٦٦٣) بسند ضعيف.
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٦٦٢) بسند ضعيف.

[من مظاهر تكريم بني آدم]:

قوله: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ الإزْجاء: السَّوق[١] والإجراء والتسيير، ومِنْه قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا﴾ [النور: ٤٣]. وقول الشاعر[٢]:

يا أيها الراكبُ المُزجي مطيّتَه ... سائلْ بني أسدٍ ما هذه الصُّوَرُ

وقول الآخر:

عُوْذا تُزْجي خلفَها أطفالَها

والمعنى: أنّ الله سبحانه يسيّر الفُلْك[٣] في البحر بالريح، والفلك ها هنا جمع، وقد تقدّم، والبحر هو الماء [٣/١٨٠] الكثير عذباً كان أو مالحاً، وقد غلب هذا الاسم على المشهور.

﴿لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِۦٓ﴾؛ أي: مِنْ رزقه الذي تفضّل به على عباده أو من الربح بالتجارة، و«من» زائدة[٤] أو للتبعيض، وفي هذه الآية تذكير لهم بنعم الله سبحانه عليهم حتى لا يعبدوا غيرَه ولا يشركوا به أحداً.

وجملة ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ تعليل لما تقدّم؛ أي: كان بكم رحيماً فهداكم إلى مصالح دنياكم ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ﴾ يعني: خوف الغرق ﴿فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ﴾ مِنْ الآلهة وذهب عَنْ خواطركم، ولم يوجد لإغاثتكم ما كنتم تدعون من دونه من صنم، أو جنّ، أو ملَك، أو بشر ﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ وحده فإنكم تعقدون رجاءكم برحمته وإغاثته، والاستثناء[٥] منقطع.

ومعنى الآية: أنّ الكفار إنما يعتقدون في أصنامهم وسائر معبوداتهم أنها نافعة لهم في غير هذه الحالة، فأمّا في هذه الحالة فإن كل واحد منهم يعلم بالفطرة علماً لا يقدر على مدافعته أنّ الأصنام ونحوها لا فعلَ لها ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ عن

---

(١) ذكره النحاس في «معانيه» (٤/ ١٧٤).
(٢) هو: رويشد بن كثير الطائي.
«الجامع لأحكام القرآن» (١٣/ ١٢٢).
(٣) «جامع البيان» (١٤/ ٦٦٧).
(٤) «روح المعاني» (١٥/ ٥)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ٤٤٥).
(٥) «البحر المحيط» (٧/ ٨٢)، و«روح المعاني» (١٥/ ٨)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ٤٤٥).

الإخلاص لله وتوحيده ورجعتم إلى دعاء أصنامكم والاستغاثة بها ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾؛ أي: كثير الكُفْران لنعمة الله، وهو تعليل لما تقدّمه، والمعنى: أنهم عند الشدائد يتمسكون برحمة الله، وفي الرخاء يعرضون عنه.

ثم أنكر سبحانه عليهم سوء معاملتهم قائلاً: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾ الهمزة[١] للإنكار والفاء للعطف على محذوف تقديره: أَنجوتم فأمنتم فحملكم ذلك على الإعراض؟ فبيّن لهم أنّه قادر على هلاكهم في البَرّ وإنْ سلموا مِنَ البحر. والخَسْفُ[٢]: أن تنهار الأرض بالشيء، يقال: بِئر خَسِيف إذا انهدم أصلُها، وعين خاسِفٌ؛ أي: غائرة حَدقتُها في الرأس، وخَسَفت عينُ الماء: إذا غار ماؤها، وخَسَفتِ الشمسُ: إذا غابت عَنْ الأرض و﴿جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾ ناحية الأرض، وسماه جانباً؛ لأنه يصير بعد الخسف جانباً، وأيضاً فإنّ البحر جانب من الأرض والبرّ جانب.

وقيل: إنَّهم كانوا على ساحل البحر، وساحله جانب البرّ فكانوا فيه آمنين من مخاوف البحر، فحذّرهم ما أمنوه مِنْ البرّ كما حذّرهم ما خافوه مِنْ البحر ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ قال أبو عُبيدة[٣] والقتيبي[٤]: الحَصْبُ الرمي؛ أي: ريحاً شديدة حاصبة، وهي التي تَرمي بالحصَى الصغار.

وقال الزجاج[٥]: الحاصبُ: التراب الذي فيه حَصْباء، فالحاصب: ذو الحصباء كاللّابن، والتامِر؛ وقيل: الحاصب حجارة مِنْ السماء تحصبهم كما فُعل بقوم لوط، ويقال للسحابة التي ترمي بالبرَد: حاصب، ومنه قول الفرزدق[٦]:

مستقبلين جبال الشام تضرِبُنا ... بحاصبٍ كنديفِ القُطن منثورِ

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلًا﴾؛ أي: حافظاً ونصيراً يمنعكم مِنْ بأس الله ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾؛ أي: في البحر مرةً أخرى بأنْ يُقويَّ دواعيكم ويوفر حوائجكم إلى ركوبه، وجاء بفي ولم يقل: إلى البحر؛ للدلالة على استقرارهم فيه ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ﴾ القاصف: الريح الشديدة التي تكسر بشدّة، من

---

(١) انظر: المصادر المتقدمة.
(٢) «تهذيب اللغة» (٧/ ١٨٣)، و«الصحاح» (٤/ ١٣٤٩).
(٣) في «مجاز القرآن» (١/ ٣٨٥).
(٤) في «غريب القرآن» (ص٢٥٩).
(٥) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ٢٥١).
(٦) انظر: «ديوان الفرزدق» (١/ ٢١٣).

قصف[1] الشيء يَقْصُفه؛ أي: كسَرَه بشدّة، والقَصْفُ: الكَسْر، أو هو الريح التي لها قصيف؛ أي: صوت شديد مِنْ قولهم: رعدٌ قاصف؛ أي: شديد الصوت ﴿فَيُغْرِقَكُم﴾ قرأ أبو جعفر، وشيبة، ورويس، ومجاهد (فتغرقكم) بالتاء[2] الفوقية على أنّ فاعله الريح.

وقرأ الحسن وقتادة، وابن وردان (فيغرِّقكم) بالتحتية[3] والتشديد في الراء.

وقرأ أبو جعفر[4] أيضاً (الرياح).

وقرأ ابنُ كثير وأبو عَمْرو بالنون[5] في جميع هذه الأفعال.

وقرأ الباقون بالياء[6] التحتية في جميعها أيضاً، والباء في ﴿بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ للسببية؛ أي: بسببِ كفركم ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا﴾؛ أي: ثائراً يطالبنا بما فعلنا.

قال الزجّاج[7]: لا تجدوا مَنْ يتبعنا بإنكار ما نزل بكم.

قال النحاس[8]: وهو مِنْ الثأر، وكذا يقال لكل مِنْ طلب بثأرٍ أو غيره: تبيع وتابع.

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ هذا إجمال لذكر النِّعمة التي أنعم الله بها على بني آدم؛ أي: كرّمناهم جميعاً، وهذه الكرامة يدخل تحتها خلقهم على هذه الهيئة الحسنة وتخصيصهم بما خصهم به مِنْ المطاعم والمشارب والملابس على وجه لا يوجد لسائر أنواع الحيوان مثله.

وحكى ابنُ جرير[9] عَنْ جماعة أَنَّ هذا التكريم هو أنهم يأكلون بأيديهم،

---

(١) «مفردات ألفاظ القرآن» (ص٦٧٣).

(٢) «النشر» (٢/ ٣٠٨)، و«البحر المحيط» (٧/ ٨٣)، و«روح المعاني» (١٥/ ١٢). وهي قراءة متواترة.

(٣) وهي قراءة شاذة.
«البحر المحيط» (٧/ ٨٣)، و«المحرر الوجيز» (١٠/ ٣٢٢).

(٤) «روح المعاني» (١٥/ ١٢)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٣/ ١٢٥)، و«جامع البيان» (١٤/ ٦٧٣).
قراءة أبي جعفر «الرياح» متواترة، وباقي القراء «الريح».

(٥) «المحرر الوجيز» (١٠/ ٣٢٢)، و«روح المعاني» (١٥/ ١٢)، و«النشر» (٢/ ٣٠٨)، و«التيسير» (ص١٤٠). وهي قراءة متواترة.

(٦) انظر: المصادر المتقدمة.

(٧) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ٢٥٢).

(٨) في «معاني القرآن» للنحاس (٤/ ١٧٥ ـ ١٧٦).

(٩) في «جامع البيان» (١٤/ ٦٧٣).

وسائر الحيوانات تأكل بالفم، وكذا حكاه النحاس[١].

وقيل: ميزهم بالنطق والعقل والتمييز.

وقيل: أكرم الرجال باللِّحى والنساء بالذوائب.

وقال ابن جرير[٢]: أكرمهم بتسليطهم على سائر الخلق، وتسخير سائر الخلق لهم.

وقيل: بالكلام والخط والفهم، ولا مانع مِنْ حمل التكريم المذكور في الآية على جميع هذه الأشياء.

وأعظم خصال التكريم العقل، فإنْ به تسلّطوا على سائر الحيوانات، وميزوا بين الحسن والقبيح، وتوسّعوا في المطاعم والمشارب، وكسبوا الأموال التي تسببوا بها إلى تحصيل أمور لا يقدر عليها الحيوان، وبه قدروا على تحصيل الأبنية التي تمنعهم ممّا يخافون، وعلى تحصيل الأكسية التي تقيهم الحرّ والبرد.

وقيل: تكريمهم: هو أن جعل محمداً ﷺ منهم ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ هذا تخصيص لبعض أنواع التكريم، حملهم[٣] سبحانه في البرّ على الدواب، وفي البحر على السفن، وقيل: حملنّاهم فيهما حيثُ لم نَخْسف بهم ولم نُغْرقهم ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾؛ أي: لذيذ المطاعم والمشارب وسائر ما يستلذونه وينتفعون به.

﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ أجمل سبحانه هذا الكثير ولم يبين أنواعه فأفاد ذلك أنّ بني آدم فضّلهم سبحانه على كثير من مخلوقاته. وقد جعل بعض أهل العلم الكثير هنا بمعنى الجميع وهو تعسّف لا حاجة إليه.

وقد شُغل كثير مِنْ أهل العلم بما لم تكن إليه حاجة ولا تتعلق به فائدة، وهو مسألة تفضيل الملائكة على الأنبياء أو الأنبياء على الملائكة، ومِنْ جملة ما تمسك به مفضلو الأنبياء على الملائكة هذه الآية، ولا دلالة لها على المطلوب لما عرفت مِنْ إجمال الكثير وعدم تبيينه، والتعصّب في هذه المسألة هو الذي حمل بعض الأشاعرة على تفسير الكثير هنا بالجميع حتى يتم له التفضيل على الملائكة، وتمسك بعضُ المعتزلة بهذه الآية على تفضيل الملائكة على الأنبياء. ولا دلالة بها على

---

(١) النحاس في «معاني القرآن» (٤/ ١٧٣). (٢) في «جامع البيان» (٤/ ١٧٢ ـ ١٧٣).

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١٣/ ١٢٦).

ذلك، فإنه لم يقم دليل على أَنَّ الملائكة[١] مِنْ القليل الخارج عن هذا الكثير، ولو سلمنا ذلك فليس فيما خرج عَنْ هذا الكثير ما يفيد أنه أفضل مِنْ بني آدم؛ بل غاية ما فيه أنّه لم يكن الإِنسان مفضلاً عليه.

فيحتمل أَنْ يكون مساوياً للإنسان، ويحتمل أَنْ يكون أفضل منه، ومع الاحتمال لا يتم الاستدلال، والتأكيد بقوله: ﴿تَفْضِيلًا﴾ يدل على عظم هذا التفضيل وأنّه بمكانٍ مكين، فعلى بني آدم أن يتلّقوه بالشكر ويحذروا من كفرانه.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[٢] في قوله: ﴿يُزْجِى﴾ قال: يُجْري.

وأخرجوا عن قتادة[٣] قال: يُسيّرها في البحر.

وأخرج ابن المنذر[٤] عن ابن عباس في قوله: ﴿حَاصِبًا﴾ قال: مطر الحجارة.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة[٥] قال: حجارة من السماء.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس[٦] ﴿قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ﴾ قال: التي تُغْرِق.

وأخرج أبو عبيد، وابن المنذر، عن عبد الله بن عمرو[٧] قال: القاصف والعاصف في البحر.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[٨] في قوله: ﴿قَاصِفًا﴾ قال: عاصفاً، وفي قوله[٩]: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا﴾ قال: نصيراً.

وأخرج الطبراني، والبيهقي في «الشعب»، والخطيب في «تاريخه» عن عبد الله بن

---

(١) «المحرر الوجيز» (١٠/ ٣٢٤ ـ ٣٢٥).
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٦٧٢) بسند صحيح.
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٦٦٧) بسند صحيح.
(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٣١٤).
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٦٦٩) بسند صحيح.
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٦٧١) بسند ضعيف.
(٧) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٣١٤).
(٨) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٦٧١) بسند صحيح.
(٩) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٦٧٢) بسند صحيح.

عمرو[1] قال: قال رسول الله ﷺ: «ما مِنْ شيء أكرم على الله يوم القيامة من ابن آدم قيل: يا رسول الله ولا الملائكة؟ قال: ولا الملائكة، الملائكة مجبورون بمنزلة الشمس والقمر».

وأخرجه البيهقي من وجه آخر عن ابن عمرو[2] موقوفاً قال: وهو الصحيح.

وأخرج البيهقي في «الشعب» عن أبي هريرة[3] قال: المؤمن أكرم على الله من ملائكته.

وأخرج الطبراني[4] عن ابن عمرو، عن النبي ﷺ قال: «إنّ الملائكة قالت: يا رب أعطيتَ بني آدم الدنيا يأكلون فيها ويشربون ويلبسون ونحن نسبح بحمدك ولا نأكل ولا نشرب ولا نلهو، فكما جعلت لهم الدنيا فاجعل لنا الآخرة، قال: لا أجعل صالح ذرّية مَنْ خلقتُ بيدي كمن قلت له كنْ فكان».

وأخرجه عبد الرزاق، وابن جرير عن زيد بن أسلم[5] قال: قالت الملائكة. وإسناد الطبراني[6] هكذا: حدثنا أحمد بن محمد بن صدقة البغدادي، حدّثنا إبراهيم بن عبد الله بن خالد المصيصي، حدّثنا حجاج بن محمد، حدثنا أبو غسان محمد بن مطرف، عن صفوان بن سليم، عن عطاء بن يسار، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ فذكره.

---

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» رقم (١٥١)، والخطيب في «تاريخه» (٤/ ٤٥) بسند ضعيف جدًّا.
وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٨٧) إلى الطبراني في «الكبير» وقال: «وفيه عبيد الله بن تمام وهو ضعيف».
وقال البيهقي: «تفرد به عبيد الله بن تمام، قال البخاري: عنده عجائب، ورواه غيره، عن خالد الحذاء موقوفاً على عبد الله بن عمرو وهو الصحيح».
وقال ابن كثير في «تفسيره» (٩/ ٤٦): وهذا حديث غريب جدًّا.

(٢) أخرجه البيهقي في «الشعب» رقم (١٥٢) بسند رجاله ثقات.

(٣) أخرجه البيهقي في «الشعب» رقم (١٥٠) بسند ضعيف.

(٤) أخرجه الطبراني في «الأوسط» رقم (٦١٧٣).
وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٨٢): رواه الطبراني في «الكبير والأوسط» وفيه إبراهيم بن عبد الله بن خالد المصيصي وهو كذاب متروك وفي مسند «الأوسط» طلحة بن زيد وهو كذاب أيضاً.

(٥) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٨٢)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٥/ ٥، ٦) بسند ضعيف لإرسال زيد بن أسلم.

(٦) تقدم ذكره.

وأخرج ابن عساكر[١] من طريق عروة بن رُويم قال: حدثني أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ، فذكر نحو حديث ابن عمرو الأول مع زيادة.

وأخرج نحوه البيهقي[٢] أيضاً في «الأسماء والصفات» من وجه آخر عن عروة بن رُويم عَنْ جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ فذكره.

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «الشعب» من طرق عَنْ ابن عباس[٣] في قوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ قال: جعلناهم يأكلون بأيديهم، وسائر الخلق يأكلون بأفواههم.

وأخرج الحاكم في «التاريخ»، والديلمي عَنْ جابر بن عبد الله[٤] قال: قال رسول الله : «الكرامة الأكلُ بالأصابع».

[موقف القوم من الرسول ﷺ وموقفهم من القرآن وخصائص هذا القرآن]:

﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَـٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَـٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَـٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾.

قوله: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ ۖ﴾ قال الزجاج[٥]: يعني: يوم القيامة، وهو منصوب على معنى اذكر يوم ندعوا.

---

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٥٢/١٣٩).
(٢) أخرجه البيهقي في «الأسماء والصفات» رقم (٦٨٨) بسند ضعيف.
وأخرجه البيهقي في «الشعب» رقم (١٤٩) وقال: وفي ثبوته نظر.
(٣) أخرجه البيهقي في «الشعب» رقم (٥٨٤١).
(٤) أخرجه الديلمي رقم (٧٢٢٣).
(٥) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ٢٥٢ ـ ٢٥٣).

وقُرِئ (يدعو) بالياء التحتية[١] على البناء للفاعل و(يُدْعى) على البناء للمفعول[٢]، والباء في ﴿بِإِمَٰمِهِمْ﴾ للإِلصاق[٣] كما تقول: أدعوك باسمك، ويجوز أن تكون متعلّقةً بمحذوف هو حال.

والتقدير: ندعو كلَّ أناس متلّبسين بإمامهم؛ أي: يدعون وإمامهم فيهم نحو ركب بجنوده، والأوّل أولى. والإِمام في اللغة[٤]: كلُّ ما يؤتمّ به مِنْ نبيّ أو مقدّم في الدين أو كتاب [٣/١٨١].

وقد اختلف المفسرون في تعيين الإمام الذي تُدعى كلُّ أناس به، فقال ابن عباس[٥]، والحسن[٦]، وقتادة[٧]، والضحاك[٨]: إنّه كتاب كلّ إنسان الذي فيه عمله؛ أي: يدعى كل إنسان بكتابِ عمله، ويؤيد هذا قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ﴾ الآية [الحاقة: ١٩].

وقال ابنُ زيد[٩]: الإمام: هو الكتاب المُنزّل عليهم فيدعى أهل التوراة بالتوراة، وأهل الإِنجيل بالإِنجيل، وأهل القرآن بالقرآن، فيقال: يا أهل التوراة يا أهل الإِنجيل يا أهل القرآن.

وقال مجاهد[١٠] وقتادة[١١]: إمامهم: نبيهم فيقال: هاتوا متبعي إبراهيم، هاتوا متبعي موسى، هاتوا متبعي عيسى، هاتوا متبعي محمد، وبه قال الزجاج[١٢].

وقال عليّ بن أبي طالب[١٣] رضي الله عنه؛ المراد بالإِمام: إمام عصرهم، فيدعى أهل كل عصر بإمامهم الذي كانوا يأتمرون بأمره وينتهون بنهيه.

---

(١) «القراءات الشاذة» (ص٧٧)، و«البحر المحيط» (٧/ ٨٦). وهي قراءة شاذة، وكذا قراءة (يُدْعى).
(٢) «القراءات الشاذة» (ص٧٧)، و«البحر المحيط» (٧/ ٨٦).
(٣) «روح المعاني» (١٥/ ٢١)، و«الدر المصون» (٧/ ٣٩٠).
(٤) انظر: «تهذيب اللغة» (١٥/ ٦٣٠)، و«الصحاح» (٥/ ١٨٦٥).
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٥/ ٧) بسند ضعيف.
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٥/ ٧) بسند صحيح.
(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٥/ ٧) بسند صحيح.
(٨) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٥/ ٧) بسند ضعيف.
(٩) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٥/ ٨) بسند صحيح.
(١٠) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٥/ ٦) بسند صحيح.
(١١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٥/ ٦) بسند صحيح.
(١٢) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ٢٥٣). (١٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٣/ ١٣٠).

وقال الحسن(١) وأبو العالية(٢): المراد ﴿بِإِمَٰمِهِمۡۖ﴾: أعمالهم، فيقال مثلاً: أين المجاهدون، أين الصابرون، أين الصائمون، أين المصلون؟ ونحو ذلك.

وروي عن ابن عباس(٣) وأبي هريرة(٤).

وقال أبو عُبيدة(٥)، المراد ﴿بِإِمَٰمِهِمۡۖ﴾: صاحب مذهبهم، فيقال مثلاً: أين التابعون للعالِم فلان بن فلان، وهذا مِنْ البعد بمكان.

وقال مُحمد بن كعب(٦): ﴿بِإِمَٰمِهِمۡۖ﴾: بأمهّاتِهم، على أَن إِمام جمع أمّ كخف وخفاف، وهذا بعيد جدّاً.

وقيل: الإِمام: هو كلُّ خُلقٍ يظهر مِنْ الإِنسان حسن كالعلم والكرم والشجاعة، أو قبيح كأضدادها، فالداعي إلى تلك الأفعال خُلق باطن هو كالإِمام ذكر معناه الرازي(٧) في «تفسيره».

﴿فَمَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ مِنْ أولئك المدعوّين، وتخصيص اليمين بالذكر للتشريف والتبشير.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الإِشارة إلى مَنْ باعتبار معناه. قيل: ووجه الجمع الإِشارة إلى أنّهم مجتمعون على شأن جليل، أو الإِشعار بأنّ قراءتهم لكتبهم تكون على وجه الاجتماع لا على وجه الانفراد ﴿يَقۡرَءُونَ كِتَٰبَهُمۡ﴾ الذي أوتوه ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلٗا﴾؛ أي: لا يُنقصون مِنْ أجورهم قَدْر فتيل، وهو القشْرة التي في شق النّواة، أو هو عبارة عَنْ أقلّ شيء، ولم يذكر أصحاب الشمال تصريحاً، ولكنّه ذكر سبحانه ما يدلّ على حالهم القبيح فقال: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ﴾؛ أي: مَنْ كان من المدعوّين في هذه الدنيا أعمى؛ أي: فاقد البصيرة.

قال النيسابوري(٨): لا خلاف أنّ المراد بهذا العمى: عَمى القلب، وأما قوله:

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٥/٦) بسند صحيح.
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٥/٦ ـ ٧) بسند صحيح.
(٣) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١٣/١٣٠).
(٤) أخرجه أحمد رقم (٧٦٣٣)، والبخاري رقم (١٨٩٧)، ومسلم رقم (١٠٢٧).
(٥) في «مجاز القرآن» (١/٣٨٦).
(٦) «معالم التنزيل» (٣/١٢٦).
(٧) «التفسير الكبير» (٢١/١٧).
(٨) في «غرائب القرآن» له (١٥/٦١). و«البدور الزاهرة» (٢/٣٧)، و«إتحاف الفضلاء» ص(٢٨٥).

﴿فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ فيحتمل أنْ يراد به: عمى البصر كقوله: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ [طه: ١٢٤، ١٢٥] وفي هذا زيادة العقوبة، ويحتمل أن يراد عمى القلب.

وقيل: المراد بالآخرة: عمل الآخرة؛ أي: فهو في عمل، أو في أمر الآخرة أعمى؛ وقيل: المراد: مَنْ عمي عن النعم التي أنعم الله بها عليه في الدنيا فهو عن نعم الآخرة أعمى.

وقيل: مَنْ كان في الدنيا التي تُقْبل فيها التوبة أعمى فهو في الآخرة التي لا توبة فيها أعمى.

وقيل: مَنْ كان في الدنيا أعمى عن حجج الله فهو في الآخرة أعمى.

وقد قيل: إنّ قوله: ﴿فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ أفعل تفضيل؛ أي: أشدّ عمًى وهذا مبنيّ على أنه مِنْ عمى القلب إذ لا يقال ذلك في عمى العين.

قال الخليل[(١)] وسيبويه[(٢)]: لأنه خلقه بمنزلة اليد والرجل، فلا يقال: ما أعماه، كما لا يقال: ما أيداه. وقال الأخفش[(٣)]: لا يقال فيه ذلك؛ لأنّه أكثر مِنْ ثلاثة أحرف.

وقد حكى الفراء[(٤)] عَنْ بعض العرب أنّه سمعه يقول: ما أسود شعره، ومن ذلك قول الشاعر:

أمّا الملوكُ فأنت اليوم ألأمُهم   لؤما وأَبيضُهم سربالَ طبَّاخِ[(٥)]

والبحثُ مستوفى في النحو.

وقرأ أبو بكر، وحمزة، والكسائي، وخلف (أعمى) بالإمالة[(٦)] في الموضعين.

وقرأهما أبو عمرو ويعقوب والباقون بغير إمالة[(٧)]، وأمال أبو عبيد[(٨)] الأوّل دون الثاني.

---

(١) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ٤٣٤).
(٢) في «الكتاب» (٤/ ٩٧ ـ ٩٨).
(٣) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ٤٣٥).
(٤) في «معاني القرآن» (٢/ ١٢٨).
(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٣/ ١٣٣).
(٦) «التيسير» (ص١٣٤)، و«البحر المحيط» (٧/ ٨٨)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٤)، و«النشر» (٢/ ٣٥)، و«جامع البيان» (١٥/ ١٢).
(٧) انظر: المصادر المتقدمة.
(٨) انظر: «البحر المحيط» (٧/ ٨٨).

﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ يعني: أَنَّ هذا أضلّ سبيلاً مِنْ الأعمى لكونه لا يجد طريقاً إلى الهداية، بخلاف الأعمى فقد يهتدي في بعض الأحوال.

ثم لما عدّد سبحانه في الآيات المتقدّمة أقسام النِّعم على بني آدم، أردفه بما يجري مجرى التحذير مِنْ الاغترار بوساوس الأشقياء، فقال: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ «إنْ» هي المخففة[1] مِنْ الثقيلة، واسمها ضمير شأن محذوف، واللام هي الفارقة بينها وبين النافية.

والمعنى: وإنْ الشأن قاربوا أَنْ يخدعوك[2] فاتنين، وأصل الفتنة: الاختبار، ومِنْه فتنَ الصائغُ الذهبَ، ثم استُعمل في كل مَنْ أزال الشيء عن حدّه وجهته، وذلك لأن في إعطائهم ما سألوه مخالفة لحكم القرآن وافتراء على الله سبحانه من تبديل الوعد بالوعيد وغير ذلك ﴿عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ من الأوامر والنواهي والوعد والوعيد ﴿لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ﴾ لتتقوّل علينا غيرَ الذي أوحينا إليك مما اقترحه عليك كفار قريش ﴿وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾؛ أي: لو اتبعت أهواءهم لاتخذوك خليلاً لهم؛ أي: والوك وصافوكَ، مأخوذ مِن الخَلّة بفتح الخاء ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ﴾ على الحق وعصمناك عن موافقتهم ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ﴾ لقاربت أن تميل إليهم أدنى ميل، والركون: هو الميلُ اليسير، ولهذا قال: ﴿شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ لكن أدركته ﷺ العصمة فمنعته مِنْ أن يقرب من أدنى مراتب الركون إليهم، فضلاً عن نفس الركون، وهذا دليل على أنه ﷺ ما همّ بإجابتهم، ذكر معناه القشيري[3] وغيره.

وقيل: المعنى: وإنْ كادوا ليخبرون عنك بأنك ملت إلى قولهم، فنسب فعلهم إليه مجازاً واتساعاً كما تقول للرجل: كدت تقتل نفسك؛ أي: كاد الناس يقتلونك بسبب ما فعلت، ذكر معناه المهدوي[3].

ثم توعده سبحانه في ذلك أشدّ الوعيد فقال: ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾؛ أي: لو قاربت أَنْ تركن إليهم؛ أي: مثلي ما يُعذّب به غيرك ممن يفعل هذا الفعل في الدارين، والمعنى: عذاباً ضعفاً في الحياة وعذاباً ضعفاً في الممات؛ أي: مضاعفاً، ثم حذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه وأضيفت، وذلك

---

(١) «التبيان» (٢/ ٩٢٩)، و«الفريد» (٣/ ٢٩٢).

(٢) «جامع البيان» (١٥/ ١٥).

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٣/ ١٣٥).

لأن خطأ العظيم عظيم كما قال سبحانه: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠].

وضعف الشيء: مِثْلاه، وقد يكون الضعف النصيب كقوله: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ [الأعراف: ٣٨]؛ أي: نصيب.

قال الرازي(١): حاصل الكلام: أنّك لو مكنت خواطر الشيطان من قلبك وعقدت على الركون [همك](٢) لاستحققت تضعيف العذاب عليك في الدنيا والآخرة، ولصار عذابك مِثْلَي عذاب المشرك في الدنيا ومثلي عذابه في الآخرة ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ ينصرك فيدفع عنك هذا العذاب.

قال النيسابوري(٣): اعلم أنّ القرب من الفتنة لا يدل على الوقوع فيها، والتهديد على المعصية لا يدلّ على الإقدام عليها، فلا يلزم من الآية طعن في العصمة.

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ الكلام في هذا كالكلام في ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ﴾؛ أي: وإن الشأن أنّهم قاربوا أن يزعجوك مِنْ أرض مكة لتخرج عنها، ولكنه لم يقع ذلك منهم؛ بل منعهم الله مِنْه حتى هاجر بأمر ربِّه بعد أن هموا به.

وقيل(٤): إنّه أطلق الإخراج على إرادة الإخراج تجويزاً ﴿وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ معطوف على ﴿لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾؛ أي: لا يبقون بعد إخراجك إلّا زمناً قليلاً، ثم عُوقبوا عقوبةً تستأصلهم جميعاً. وقرأ عطاء بن أبي رباح (لا يلبّثوا) بتشديد الباء(٥) الموحدة.

وقُرئ (لا يلبثوا) بالنصب(٦) على إعمال «إذن» على أن الجملة معطوف على جملة ﴿وَإِن كَادُواْ﴾ لا على الخبر فقط.

---

(١) في «تفسيره» (٢١/٢١).

(٢) كذا في المخطوط. والذي في تفسير الرازي: (إليه همتك).

(٣) في «غرائب القرآن» (١٥/٦٦).

(٤) «التبيان» (٢/٢٨٩)، و«الفريد» (٣/٢٩٣).

(٥) «القراءات الشاذة» (ص٧٧)، و«البحر المحيط» (٧/٩٢). وهي قراءة شاذة.

(٦) «البحر المحيط» (٧/٩٢)، و«التبيان» (٢/٨٢٩)، و«القراءات الشاذة» (ص٧٧). وهي قراءة شاذة.

وقرأ نافع، وابنُ كثير، وأبو بكر، وأبو عمرو (خَلْفَك)[١] ومعناه: بعدك.

وقرأ ابن عامر، وحفص، وحمزة، والكسائي (خِلافك)[٢] ومعناه أيضاً: بعدك.

وقال ابن الأنباري[٣]: خلافك بمعنى: مُخالفتك، واختار أبو حاتم[٤] القراءة الثانية لقوله: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٨١] ومما يدلّ على أن خلاف بمعنى بَعْد قول الشاعر:

عفَت الديارُ خلافِهَا فكأنّما ... بسطَ الشواطبُ بينهنّ حصيرا[٥]

يقال: شطبت المرأةُ الجريدَ: إذا شقّقته لتعمل مِنْه الحصيرَ.

قال أبو عبيدة: ثم تُلقيه الشاطِبة إلى المُثقبِّة.

﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ سُنَّة منتصبة على المصدرية؛ أي: سنّ الله ﴿سُنَّةَ﴾.

وقال الفراء[٦]: أي: يُعذَّبون كسُنَّة مَنْ قد أرسلنا فلما سقط الخافض عمل الفعل. وقيل: المعنى: سُنَّتنا سُنَّة من قد أرسلنا.

قال الزجاج[٧]: يقول: إنّ سُنَّتنا هذه السُّنَّة فيمن أرسلنا قبلك إليهم أنهم إذا أَخْرَجوا نبيَّهم مِنْ بين أظهرهم، أو قتلوه أنْ ينزل العذاب بهم ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾؛ أي: ما أجرى الله به العادة لم يتمكن أحد مِنْ تحويله ولا يقدر على تغييره.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس[٨] في قوله: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ قال: إمام هُدى، وإمام ضلالة.

---

(١) «البحر المحيط» (٧/ ٩٢)، و«النشر» (٢/ ٣٠٨)، و«التيسير» (ص٤١)، و«التبيان» (٢/ ٨٢٩)، و«فتح الباري» (٨/ ٢٩٨). ومع هؤلاء القراء قرأ أبو جعفر وشعبة، وروح بخلافٍ عنه.

(٢) «جامع البيان» (١٥/ ٩٠)، و«البحر المحيط» (٧/ ٩٢)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٧)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٣/ ١٣٧).

(٣) انظر: «روح المعاني» (١٥/ ٤٠)، و«البحر المحيط» (٧/ ٩٢ ـ ٩٣).

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٣/ ١٣٧).

(٥) قائله: الحارث بن خالد المخزومي كما في «اللسان» (٩/ ٨٦).

(٦) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١٢٩).

(٧) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ٢٥٥).

(٨) عزاه إليهم السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٣١٦).

وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه، والخطيب في «تاريخه» عن أنس[١] في الآية، قال: نبيّهم.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد[٢] مثله.

وأخرج ابن جرير[٣] عن ابن عباس في الآية قال: بكتاب أعمالهم.

وأخرج ابن مردويه[٤] عن عليّ في الآية قال: يُدْعى كل قوم بإمام زمانهم، وكتاب ربِّهم وسُنَّة نبيهم.

وأخرج الترمذي وحسنه، والبزار، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن أبي هريرة[٥]، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ قال: «يُدعى أحدهم فيُعطى كتابه بيمينه، ويُمدّ له في جسمه ستين ذراعاً ويُبيض وجهه، ويجعل على رأسه تاج مِنْ لؤلؤ يتلألأ، فينطلق إلى أصحابه فيرونه من بعيد فيقولون: اللَّهُمَّ ائتنا بهذا وبارك لنا في هذا، حتى يأتيهم فيقول: أبشروا لكل رجل منكم مثل هذا، وأما الكافر فيُسوّد وجهه، ويمدّ له في جسمه ستين ذراعاً على صورة آدم، ويُلبس [٢/١٨٢] تاجاً فيراه أصحابه فيقولون: نعوذ بالله من شر هذا، اللَّهُمَّ لا تأتنا بهذا، قال: فيأتيهم فيقولون: اللَّهُمَّ اخزه، فيقول: أبعدكم الله، فإن لكل رجل منكم مثل هذا».

قال البزار بعد إخراجه: لا يروى إلَّا مِنْ هذا الوجه.

وأخرج ابنُ أبي حاتم، وأبو الشيخ في «العظمة» عن ابن عباس[٦] في قوله: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ﴾ يقول: مَنْ كان في الدنيا أعمى عما يرى مِنْ قدرتي من خلق السماء والأرض والجبال والبحار والناس والدواب وأشباه هذا ﴿فَهُوَ﴾ عما وصفت له ﴿فِي ٱلْأَخِرَةِ﴾ ولم يره ﴿أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ يقول: أبعد حُجةً.

---

(١) أخرجه الخطيب في «تاريخه» (١/٣١٧).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٥/٦) بسند صحيح.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٥/٧) بسند ضعيف.

(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/٣١٧).

(٥) أخرجه الترمذي رقم (٣١٣٦)، وابن حيان رقم (٧٣٤٩)، والحاكم (٢/٢٤٢ ـ ٢٤٣) وهو حديث ضعيف.

(٦) أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» رقم (٢٦، ٧٠) بسند ضعيف.

وأخرج الفريابي، وابن أبي حاتم من طريق عكرمة[١] عنه نحو هذا.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر[٢] عنه أيضاً يقول: مَنْ عمي عن قدرة الله في الدنيا فهو في الآخرة أعمى.

وأخرج ابن إسحاق، وابن أبي حاتم، وابن مردويه[٣] عنه أيضاً قال: «إن أمية بن خلف وأبا جهل بن هشام ورجالاً مِنْ قريش أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: تعال فتمسّح آلهتنا وندخل معك في دينك، وكان رسول الله ﷺ يشتدّ عليه فراق قومه ويحب إسلامهم فرقّ لهم، فأنزل الله ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ﴾ إلى قوله: ﴿نَصِيرًا﴾».

وأخرج ابن مردويه[٤] من طريق الكلبي عَنْ باذان، عن جابر بن عبد الله مثله.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير[٥] قال: «كان رسول الله ﷺ يستلم الحجر، فقالوا: لا ندعك تستلمه حتى تستلم بآلهتنا، فقال رسول الله : وما عليّ لو فعلتُ والله يعلم مِنّي خلافه؟ فأنزل الله ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ﴾ الآية».

وأخرج ابن أبي حاتم[٦] عن ابن شهاب نحوه.

وأخرج ابن أبي حاتم[٧] عَنْ جبير بن نفير: «أن قريشاً أتوا النبي ﷺ فقالوا له: إنْ كنت أُرسلت إلينا فاطرد الذين اتبعوك مِنْ سُقّاط الناس، ومواليهم لنكون نحن أصحابك، فركن إليهم، فأوحى الله إليه ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ﴾ الآية».

وأخرج ابن أبي حاتم[٨] عن محمد بن كعب القرظي، قال: أنزل الله ﴿وَٱلنَّجْمِ

---

(١) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٥/٣١٨).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٥/ ١٠)، عن ابن عباس بسند صحيح.

(٣) عزاه إليهم السيوطي في «الدر المنثور» (٥/٣١٨).

• قال ابن الجوزي في «زاد المسير» (٥/ ٦٧ ـ ٦٨): وهذا باطل لا يجوز أن يظن رسول الله ﷺ، ولا ما ذكرنا عن عطية من أنّه همَّ أن ينظرهم سنة، وكل ذلك محال في حقه وفي حق الصحابة أنهم رووا عنه ذلك.

(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/٣١٨).

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٥/ ١٣) من طريق القُمّي، به.
وانظر: كلام ابن الجوزي في «زاد المسير» (٥/ ٦٧ ـ ٦٨) وقد تقدم نصه.

(٦) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٤٠).

(٧) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٤٠).

(٨) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٤٠).

إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم: ١]. فقرأ عليهم رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ [النجم: ١٩]. فألقى عليه الشيطان: تلك الغرانيق العُلى. وإنَّ شفاعتهن لترتجى، فقرأ النبيّ ﷺ ما بقي مِنْ السورة وسجد، فأنزل الله ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ الآية، فما زال مهموماً مغموماً حتى أنزل الله ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ الآية [الحج: ٥٢].

وأخرج ابنُ جرير، وابن مردويه عن ابن عباس[١]: «أن ثقيفاً قالوا للنبيّ ﷺ: أجّلْنا سنة حتى يُهدى لآلهتنا، فإذا قبضنا الذي يُهدى للآلهة أحرزناه ثم أسلمنا وكسرنا الآلهة فهمّ أن يؤجّلهم، فنزلت ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ﴾ الآية».

وأخرج ابنُ جرير[٢] عنه في قوله: ﴿ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ يعني: ضعف عذاب الدنيا والآخرة.

وأخرج البيهقي عن الحسن[٣] في الآية قال: هو عذاب القبر.

وأخرج أيضاً[٤] عَنْ عطاء مثلَه.

وأخرج ابنُ أبي حاتم[٥] عَنْ سعيد بن جبير قال: قال المشركون للنبي ﷺ: كانت الأنبياء تسكن الشام، فما لك والمدينة؟ فهمّ أن يَشخَص، فأنزل الله ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ الآية.

وأخرج ابن جرير عن حضرمي[٦] أَنَّه بلغه أَنَّ بعض اليهود فذكر نحوه.

وأخرج ابن أبي حاتم، والبيهقي في «الدلائل»، وابن عساكر عن عبد الرحمٰن بن غَنْم[٧] أن اليهود أتوا النبيّ ﷺ فقالوا: إن كنت نبيّاً فالحق بالشام

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٥/ ١٤ ـ ١٥) بسند ضعيف.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٥/ ١٦) بسند ضعيف.

(٣) أخرجه البيهقي في كتاب «عذاب القبر» (ص١٠٣).

(٤) أخرجه البيهقي في كتاب «عذاب القبر» (ص١١٣).

(٥) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٤١).

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٥/ ١٨ ـ ١٩) بسند ضعيف.

(٧) أخرجه البيهقي في «الدلائل» (٥/ ٢٥٤ ـ ٢٥٥)، وابن عساكر في «تاريخه» (١/ ١٧٨) بسند ضعيف.

● شهر بن حوشب فيه مقال، وعبد الرحمٰن بن غَنْم مختلف في صحبته. =

فإن الشام أرضُ المحشر، وأرض الأنبياء فصدّق النبي ﷺ ما قالوا فتحرّى غزوة تبوك لا يريد إلّا الشام، فلما بلغ تبوك أنزل الله عليه آيات من سورة بني إسرائيل بعدما خُتمت السورة ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ إلى قوله: ﴿تَحْوِيلًا﴾ فأمره بالرجوع إلى المدينة، وقال: فيها محيّاك، وفيها مماتك ومنها تُبعث، وقال له جبريل: سل ربَّك فإنّ لكل نبي مسألة فقال: ما تأمرني أن أسأل؟ قال: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٠] فهؤلاء نزلن عليه في رجعته من تبوك.

قال ابن كثير[١]: وفي هذا الإسناد نظر، والظاهر[٢]: أنّه ليس بصحيح فإن النبيّ ﷺ لم يغز تبوك عَنْ قول اليهود، وإنما غزاها امتثالاً لقوله: ﴿قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ [التوبة: ١٢٣]. وغزاها ليقتصّ وينتقم ممّن قتل أهل مؤتة من أصحابه.

وأخرج عبدُ الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة[٣] في قوله: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ قال: همّ أهلُ مكة بإخراج النبي ﷺ من مكة وقد فعلوا بعد ذلك، فأهلكهم الله يوم بدر ولم يلبثوا بعده إلّا قليلاً حتى أهلكهم الله يوم بدر، وكذلك كانت سُنَّة الله في الرسل إذا فعل بهم قومهم مثل ذلك.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[٤] في قوله: ﴿وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَـٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قال: يعني بالقليل يوم أخذهم ببدر، فكان ذلك هو القليل الذين لبثوا بعده.

= وقال ابن كثير في «تفسيره» (٩/ ٥٠): وفي هذا الإسناد نظر.

(١) في «تفسيره» (٩/ ٥٠).

(٢) كذا في المخطوط والذي في «تفسير ابن كثير»: (والأظهر).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٨٣، ٣٨٤)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٥/ ١٩) بسند صحيح.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٥/ ٢٠) بسند ضعيف.

[أوقات الصلاة المكتوبة ثابتة بالسُّنَّة القولية والعملية]:

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾.

لمّا ذكر سبحانه الإِلٰهيات والمعاد والجزاء أردفعها بذكر أشرف الطاعات، وهي الصلاة، فقال: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾. وقد أجمع المفسرون[(١)] على أن هذه الآية المراد بها: الصلوات المفروضة.

[حكاية مواقيت الصلوات الخمس]:

وقد اختلف العلماء في الدلوك المذكور في هذه الآية على قولين:

أحدهما: أنَّه زوال الشمس عَنْ كبد السماء، قاله عمر[(٢)] وابنه، وأبو هريرة، وأبو برزة، وابن عباس، والحسن، والشعبي، وعطاء، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، وأبو جعفر الباقر، واختاره ابن جرير[(٣)].

والقول الثاني[(٤)]: أنَّه غروب الشمس، قاله علي، وابن مسعود، وأُبيّ بن كعب، وروي عن ابن عباس.

قال الفراء[(٥)]: دلوك الشمس: من لدن زوالها إلى غروبها.

(١) «جامع البيان» (١٥/٢٧ ـ ٢٩)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٣/١٣٨)، و«المحرر الوجيز» (١٠/٣٣٢).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٣/١٣٨).

(٣) في «جامع البيان» (١٥/٢٧ ـ ٢٨).

(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (١٣/١٣٨)، و«المحرر الوجيز» (١٠/٣٣٢).

(٥) في «معاني القرآن» للفراء (٢/١٢٩).

قال الأزهري[١]: معنى الدلوك في كلام العرب: الزوال، ولذلك قيل للشمس إذا زالت نصف النهار: دالكة، وقيل لها إذا أَفَلَتْ: دالكة؛ لأنها في الحالتين زائلة.

قال[١]: والقول عندي أنّه زوالها نصف النهار لتكون الآية جامعة للصلوات الخمس، والمعنى: أقم الصلاة مِنْ وقت دلوك الشمس ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ﴾ فيدخل فيها الظهر والعصر وصلاتا غسق الليل، وهما العشاءان، ثم قال: ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾ هذه خمس صلوات.

وقال أبو عُبيد[٢]: دلوكها: غروبها، ودلكت براح يعني: الشمس؛ أي: غابت، وأنشد قُطْرب على هذا قول الشاعر:

هــذا مــقــامُ قــدَمَــيْ ربــاحِ   دبَّــت حــتــى دلــكَــت بــراحِ

اسم من أسماء الشمس على وزن حَذَامِ وقَطَامِ، ومن ذلك قول ذي الرُّمة[٣]:

مصابيحُ ليست باللّواتي تقودُها   نــجــومٌ ولا بــالآفـلاتِ الـدوالـكِ

أي: الغوارب، وغَسَق الليل: اجتماع الظلمة.

قال الفراء[٤] والزجاج[٥]: يقال: غسقَ الليل وأغْسَق: إذا أقبل بظلامه.

قال أبو عبيدة[٦]: الغسق سواد الليل.

قال قيس بن الرقيّات[٧]:

إنّ هــذا الــلــيــل قــد غــســقــا   واشــتــكــيــتُ الــهــمّ والأرقــا

وقيل: غسق الليل: مغيب الشفق، ومنه قول زهير:

ظـلّـتْ تـجـودُ يـداهـا وهـي لاهـيـةٌ   حتى إذا جعجعَ الإظلامُ والغسقُ[٨]

وأصل الكلمة من السيلان يقال: غَسقَتْ العينُ إذا سالت.

وحكى الفراء[٩] غسق الليل وأغسق، وَظِلم وأَظْلَم، ودجى وأدجى وغَبش وأَغبشَ.

---

(١) في «تهذيب اللغة» (١٠/ ١١٦).
(٢) في «غريب الحديث» لأبي عبيد (٤/ ٣٧٠ ـ ٣٧١).
(٣) انظر: «ديوانه» (٤/ ١٧٣٤).
(٤) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١٢٩).
(٥) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ٢٥٥).
(٦) في «مجاز القرآن» (١/ ٣٨٨).
(٧) انظر: «ديوانه» (ص١٨١).
(٨) انظره في: «الجامع لأحكام القرآن» (١٣/ ١٤٠)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٣).
(٩) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٣/ ١٤٠).

وقد استدل بهذه الغاية أعني قوله: ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ﴾ مَنْ قال: إن صلاة الظهر يتمادى وقتها مِنْ الزوال إلى الغروب، روي[١] ذلك عن الأوزاعي، وأبي حنيفة وجوّزه مالك والشافعي في حال الضرورة.

وقد وردت الأحاديث الصحيحة المتواترة عن رسول الله ﷺ في تعيين أوقات الصلوات، فيجب حمل مجمل هذه الآية على ما بيّنته السُّنَّة فلا نطيل بذكر ذلك.

قوله: ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾ انتصاب قرآن لكونه معطوفاً على الصلاة؛ أي: وأقم قرآن الفجر، قاله الفراء[٢].

وقال الزجاج[٣] والبصريون[٤]: انتصابه على الإغراء؛ أي: فعليك قرآن الفجر.

قال المفسرون[٢]: المراد بقرآن الفجر صلاة الصبح.

قال الزجاج[٥]: وفي هذه فائدة عظيمة تدل على أنّ الصلاة لا تكون إلا بقراءة حتى سُميت الصلاة قرآناً.

وقد دلت الأحاديث الصحيحة على أنَّه «لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب»[٦]، وفي بعض الأحاديث الخارجة مِنْ مخرج حسن «وقرآن[٧] معها»، وورد ما يدل على وجوب الفاتحة في كلّ ركعة.

وقد حررته في مؤلفاتي[٨] تحريراً مجوّداً.

---

(١) انظر: «التمهيد» (١/ ٩٦)، و«البناية في شرح الهداية» (٢/ ٤٥)، و«شرح صحيح مسلم» (٥/ ١٢٠ ـ لنووي).

(٢) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١٢٩ ـ ١٣٠).

(٣) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ٥٥).

(٤) «معالم التنزيل» (٣/ ١٢٨)، و«التبيان» (٢/ ٨٣٠).

(٥) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ٢٥٥ ـ ٢٥٦).

(٦) أخرجه أحمد (٥/ ٣١٤)، والبخاري رقم (٧٥٦)، ومسلم رقم (٣٩٤)، وأبو داود رقم (٨٢٣)، والترمذي رقم (٢٤٧)، والنسائي (٢/ ١٣٧)، وابن ماجه رقم (٨٣٧) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

(٧) أخرجه أبو داود رقم (٨١٨)، والترمذي رقم (٢٣٨) وقال: «حديث حسن، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه».

(٨) انظر: «نيل الأوطار» للشوكاني (٤/ ١٥٢ ـ ١٦٨)، ط. ابن الجوزي.

ثم علّل سبحانه ذلك بقوله: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾؛ أي: تشهده ملائكةُ الليل وملائكة النهار كما ورد ذلك في الحديث الصحيح، وبذلك قال جمهور المفسرين ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ مِنْ للتبعيض[١]، وانتصابه على الظرفية بمضمر؛ أي: قم بعضَ الليل فتهجد به، والضمير المجرور راجع إلى القرآن وما قيل مِنْ أنّه منتصب على الإغراء، والتقدير عليك بعض الليل [٣/١٨٣] فبعيد جدّاً، والتهجد مأخوذ مِنْ الهجود.

قال أبو عبيدة[٢] وابن الأعرابي[٣]: هو مِنْ الأضداد؛ لأنه يقال: هجد الرجل: إذا نام، وهجَد: إذا سَهِر فمِنْ استعماله في السهر قول الشاعر:

ألا زارَتْ وأهلُ مِنًى هجودُ فليت خيالَها بمنى يعودُ[٤]

يعني: منتبهين، ومِنْ استعماله في النوم قول الآخر:

ألا طرقتنا والرفاقُ هجودُ فباتت بعلات النوال تجودُ[٥]

يعني: نياماً. وقال الأزهري[٦]: الهجود في الأصل هو النّوم بالليل، ولكن جاء التفعل فيه لأجل التجنّب ومنه تأثّم وتحرّج؛ أي: تجنب الإثم والحرج، فالمتهجد مَنْ تجنب الهجود، فقام بالليل.

وروي عَنْ الأزهري[٧] أيضاً أنه قال: المتهجد: القائم إلى الصلاة من النوم هكذا حكى عنه الواحدي[٨]، فقيد التهجد بالقيام مِنْ النوم، وهكذا قال مجاهد، وعلقمة، والأسود فقالوا: التهجد: بعد النوم.

قال الليث[٩]: تهجد إذا استيقظ للصلاة.

﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ معنى النافلة في اللغة[١٠]: الزيادة على الأصل، فالمعنى: أنها للنبي ﷺ نافلة زائدة[١١] على الفرائض، والأمر بالتهجد وإن كان ظاهره الوجوب

---

(١) «الفريد» (٣/ ٢٩٤ ـ ٢٩٥)، و«روح المعاني» (١٥/ ٥٤)، و«البحر المحيط» (٧/ ٩٩).
(٢) في «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (١/ ٣٨٩).
(٣) انظر: «تهذيب اللغة» (٦/ ٣٦).
(٤) قائله جرير. انظر: «ديوانه» (١/ ٣١٨).
(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٣/ ١٤٥).
(٦) في «تهذيب اللغة» (٦/ ٣٦).
(٧) في «تهذيب اللغة» (٦/ ٣٧).
(٨) في «الوسيط» (٣/ ١٢١ ـ ١٢٢).
(٩) انظر: «تهذيب اللغة» (٦/ ٣٧).
(١٠) «الصحاح» (٢/ ٥٥٥)، و«تهذيب اللغة» (٦/ ٣٧).
(١١) جامع البيان (١٥/ ٤١ ـ ٤٢).

لكن التصريح بكونه نافلةً قرينة صارفة للأمر، وقيل: المراد بالنافلة هنا: أنها فريضة زائدة على الفرائض الخمس في حقه ﷺ، ويدفع ذلك التصريح بلفظ النافلة، وقيل: كانت صلاة الليل فريضة في حقه ﷺ، ثم نُسخ الوجوب فصار قيام الليل تطوعاً، وعلى هذا يحمل ما ورد في الحديث أنها عليه فريضة، ولأمته تطوع.

قال الواحدي[1]: إن صلاة الليل كانت زيادة للنبيّ ﷺ خاصة لرفع الدرجات، لا للكفارات؛ لأنه غفر له مِنْ ذنبه ما تقدّم وما تأخر، وليس لنا بنافلة: لكثرة ذنوبنا إنما نعمل لكفارتها، قال: وهو قول جميع المفسرين.

والحاصل: أنّ الخطاب في هذه الآية وإنْ كان خاصّاً بالنبي ﷺ في قوله ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، فالأمر له أمر لأمته، فهو شرع عام، ومن ذلك الترغيب في صلاة الليل، فإنه يعمّ جميع الأمة، والتصريح بكونه نافلة يدل على عدم الوجوب، فالتهجد من الليل مندوب إليه ومشروع لكلّ مُكلّفٍ.

ثم وعده سبحانه على إقامة الفرائض والنوافل فقال: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ قد ذكرنا في مواضع أن ﴿عَسَىٰٓ﴾ مِنْ الكريم إطماع واجب الوقوع، وانتصاب[2] «مقاماً» على الظرفية بإضمار فعل، أو بتضمين البعث معنى الإقامة، ويجوز أن يكون انتصابه على الحال؛ أي: يبعثك ذا مقام محمود؛ ومعنى كون المقام محموداً: أنّه يحَمْده كلُّ مَنْ علم به.

وقد اختلف في تعيين هذا المقام على أقوال:

الأول: أنه المقام الذي يقومه النبي ﷺ للشفاعة يوم القيامة للناس ليريحهم ربُّهم سبحانه مما هو فيه، وهذا القول هو الذي دلّت عليه الأدلة الصحيحة في تفسير الآية، وحكاه ابن جرير[3] عن أكثر أهل التأويل.

قال الواحدي[4]: وإجماع المفسرين على أن المقام المحمود هو مقام الشفاعة.

القول الثاني: أن المقام المحمود: إعطاءُ النبي ﷺ لواء الحَمْد يوم القيامة.

---

(١) في «الوسيط» (٣/ ١٢٢).
(٢) «التبيان» (٢/ ٨٣٠)، و«الفريد» (٣/ ٢٩٥)، و«روح المعاني» (١٥/ ٥٩).
(٣) في «جامع البيان» (١٥/ ٤٧). (٤) في «الوسيط» (٣/ ١٢٢)

ويمكن أن يقال: إنّ هذا لا ينافي القول الأوّل؛ إذ لا منافاة بين كونه قائماً مقام الشفاعة وبيده لواء الحمد.

القول الثالث: أنّ المقام المحمود هو أن الله سبحانه يُجْلس محمداً ﷺ معه على كرسيه، حكاه ابن جرير[(١)] عَنْ فرقة مِنْهم مجاهد[(٢)]، وقد ورد في ذلك حديث.

وحكى النقاش[(٣)] عن أبي داود السجستاني أنه قال: مَنْ أنكر[(٤)] هذا الحديث فهو عندنا مُتّهم ما زال أهل العلم يتحدّثون بهذا الحديث.

قال ابن عبد البرّ[(٥)]: مجاهد وإنْ كان أحد الأئمة بالتأويل، فإن له قولين مهجورين عند أهل العلم: أَحدهما: هذا، والثاني: في تأويل ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]. قال: معناه: تنتظر الثواب، وليس من النظر. انتهى.

وعلى كلِّ حالٍ فهذا القول غير منافٍ للقول الأوّل لإِمكان أن يقعده الله سبحانه هذا المقعد ويشفع تلك الشفاعة.

---

(١) في «جامع البيان» (١٥/ ٤٧).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٥/ ٤٧)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (١١/ ٤٣٦) بسند ضعيف.

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٣/ ١٥٠).

(٤) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٠/ ٤٤٦): يعني: من أنكر جوازه على تأويله.

وقال أبو حيان في «البحر المحيط» (٧/ ١٠١ ـ ١٠٢): وقال الواحدي: هذا القول مروي عن ابن عباس وهو قول رذل موحش فظيع لا يصح مثله عن ابن عباس ونص الكتاب ينادي بفساده من وجوه:

الأول: أن البعث ضد الإجلاس، بعثت التارك وبعث الله الميت أقامه من قبره، فتفسيره البعث بالإجلاس تفسير الضد بالضد.

الثاني: لو كان جالساً تعالى على العرش لكان محدوداً متناهياً فكان يكون محدثاً.

الثالث: أنه قال: ﴿مَقَامًا﴾، ولم يقل: مقعداً ﴿مَّحْمُودًا﴾ والمقام موضع القيام لا موضع العقود.

الرابع: أنَّ الحمقى والجُهّال يقولون: إن أهل الجنة يجلسون كلهم معه تعالى ويسألهم عن أحوالهم الدنيوية فلا فرية له بإجلاسه معه.

الخامس: أنّه إذا قيل: بعث السلطان فلاناً لا يفهم منه أجلسه مع نفسه.

وانظر: «جامع البيان» (١٥/ ٥١ ـ ٥٢).

(٥) في «التمهيد» (٧/ ١٥٧).

القول الرابع: أنه مطلق في كل مقام يجلب الحمدَ مِنْ أنواع الكرامات، ذكره صاحب «الكشاف»[(١)] والمقتدون به في التفسير، ويُجاب عنه بأن الأحاديث الصحيحة الواردة في تعيين هذا المقام المحمود متواترة، فالمصير إليها متعين، وليس في الآية عموم في اللفظ حتّى يقال: الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

ومعنى قوله: «وهو مطلق في كلّ ما يَجْلب الحمَد» أنه عام في كل ما هو كذلك، ولكنّه يعبر عن العام بلفظ المطلق، كما ذكره في ذَبْح البقرة، ولهذا قال هنا.

وقيل: المراد: الشفاعة، وهي نوع واحد مما يتناوله، يعني: لفظ المقام، والفرق بين العموم البدليّ والعموم الشموليّ معروف، فلا نطيل بذكره.

﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾. قرأ الجمهور (مُدْخَل صدقٍ) و(مُخْرج صدق) بضم الميمين[(٢)]. وقرأ الحسن، وأبو العالية، ونصر بن عاصم بفتحهما[(٣)]، وهما مصدران بمعنى: الإدخال والإخراج، والإضافة إلى الصدق لأجل المبالغة نحو: حاتمُ الجود؛ أي: إدخالاً يستأهل أن يسمى إدخالاً، ولا يرى فيه ما يكره.

قال الواحدي[(٤)]: وإضافتهما إلى الصدق مدح لهما، وكلُّ شيءٍ أضفته إلى الصدق فهو مَدْح.

وقد اختلف المفسرون[(٥)] في معنى الآية، فقيل: نزلت حينَ أُمر بالهجرة، يريد إدخال المدينة والإخراج من مكة واختاره ابن جرير.

وقيل: المعنى: أمتني إماتة صدقٍ، وابعثني يوم القيامة مبعث صدق.

---

(١) أي: الزمخشري في «الكشاف» (٣/ ٥٤٢).

(٢) «البحر المحيط» (٧/ ١٠٣)، و«زاد المسير» (٥/ ٧٦ ـ ٧٧)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٣٦٠).

(٣) وهي قراءة شاذة. «البحر المحيط» (٧/ ١٠٣)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٣/ ١٥٣)، و«القراءات الشاذة» (ص٧٧).

(٤) في «الوسيط» (٣/ ١٢٢).

(٥) «جامع البيان» (١٥/ ٥٩ ـ ٦٠)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٣/ ١٥٢).

وقيل: المعنى: أَدخلني فيما أمرتني به، وأَخرْجني مما نهيتني عنه، وقيل: إدخاله موضع الأمن وإخراجه مِنْ بين المشركين، وهو كالقول الأوّل، وقيل: المراد: إدخال عزّ وإخراج نصر، وقيل: المعنى: أدخلني في الأمر الذي أكرمتني به من النبوّة مدخل صدق، وأخرجني منه إذا أمتني مخرج صدق، وقيل: أدخلني القبر عند الموت مدخل صدق، وأخرجني مِنْه عند البعث مخرج صدق، وقيل: أدخلني حيثما أدخلتني بالصدق، وأخرجني بالصدق.

وقيل: الآية عامة في كل ما تتناوله مِنْ الأمور فهي دعاء، ومعناها: ربّ أصلح لي وردي في كلِّ الأمور وصَدَري عنها.

[صاحب الدعوة لا يمكن أن يستمد السلطان إلا من الله]:

﴿وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا﴾؛ أي: حجة ظاهرة قاهرة تنصرني بها على جميع مَنْ خالفني، وقيل: اجعل لي مِنْ لدنك مُلْكاً وعزّاً قوّيّاً، وكأنه ﷺ علم أنه لا طاقة له بهذا الأمر إلّا بسلطان فسأل سلطاناً نصيراً. وبه قال الحسن وقتادة واختاره ابن جرير(١).

قال ابن كثير(٢): وهو الأرجحُ؛ لأنَّه لا بدّ مع الحق مِنْ قهر لمن عاداه وناوأه، ولهذا يقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ﴾ [الحديد: ٢٥] وفي الحديث: «إن الله ليزعَ بالسلطان ما لا يزع بالقرآن»؛ أي: ليمنعَ بالسلطان عَنْ ارتكاب الفواحش والآثام ما لا يمنع كثيراً من الناس بالقرآن، وما فيه من الوعيد الأكيد والتهديد الشديد، وهذا هو الواقع. انتهى.

[من طبيعة الصدق أن يحيا ويثبت]:

﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ﴾ المراد بالحق: الإسلام، وقيل: القرآن، وقيل: الجهاد ولا مانع مِنْ حمل الآية على جميع(٣) ذلك وعلى ما هو حق كائناً ما كان، والمراد بالباطل: الشرك، وقيل: الشيطان ولا يبعد أن يحمل على كل ما يقابل الحق من غير فرق بين باطل وباطل.

---

(١) في «جامع البيان» (١٥/ ٥٩ ـ ٦٠). (٢) في «تفسيره» (٩/ ٦٨).

(٣) «المحرر الوجيز» (١٠/ ٣٣٧)، و«جامع البيان» (١٥/ ٦٢).

[ومن طبيعة الباطل أن يتوارى ويزهق]:

ومعنى زهق: بَطَل واضْمَحل، ومنه: زهوق النفس وهو بطلانها ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ أي: إنّ هذا شأنه فهو يبطل ولا يثبت، والحق ثابت دائماً ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ قرأ الجمهور (ننزّل) بالنون(١).

وقرأ أبو عَمْرو بالتخفيف(٢)، وقرأ مجاهد بالياء التحتية(٣) والتخفيف، ورواها المروزي عَنْ حفص(٣).

و«مِن» لابتداء الغاية(٤)، ويصح أَنْ تكون لبيان الجنس. وقيل: للتبعيض(٥) وأنكره بعضُ المفسرين لاستلزامه أنّ بعضه لا شفاء فيه، وردّه ابن عطية بأن المبّعض هو إنزاله.

واختلف أهل العلم في معنى كونه شفاء على القولين:

الأوّل: أنّه شفاء للقلوب بزوال الجهل عنها، وذهاب الريب وكشف الغطاء(٦) عن الأمور الدالة على الله سبحانه.

القول الثاني: أنّه شفاء مِنْ الأمراض(٧) الظاهرة بالرقىٰ والتعوّذ ونحو ذلك، ولا مانع مِنْ حمل الشفاء على المعنيين من باب عموم المجاز، أو من باب حمل المشترك على معنييه.

ثم ذكر سبحانه أَنَّه رحمة للمؤمنين لما فيه مِنْ العلوم النافعة المشتملة على ما فيه صلاح الدين والدنيا، ولما في تلاوته وتدبّره مِنْ الأجر العظيم الذي يكون سبباً لرحمة الله سبحانه ومغفرته ورضوانه، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤].

ثم لما ذكر سبحانه ما في القرآن مِنْ المنفعة لعباده المؤمنين ذكر ما فيه لمن

---

(١) «النشر» (٢/٣٠٨)، و«البحر المحيط» (٧/١٠٣)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (١/٢٥٣، ٢٥٤)، و«التيسير» (ص٧٥).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٣/١٥٦)، و«البحر المحيط» (٧/١٠٣). هما قراءتان متواترتان، ومع أبي عَمرو يعقوب.

(٣) وهي قراءة شاذة، والمشهور عن حفص بمثل قراءة الجمهور.

(٤) «البحر المحيط» (٧/١٠٣)، و«روح المعاني» (١٥/٦٩).

(٥) «روح المعاني» (١٥/٦٩)، و«تفسير أبي السعود» (٤/٤٥٦ ـ ٤٥٧).

(٦) «المحرر الوجيز» (١٠/٣٣٦)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٣/١٥٦)، و«جامع البيان» (١٥/ ٦٢ ـ ٦٣).

(٧) انظر: المصادر المتقدمة.

عداهم مِنْ المضرّة عليهم فقال: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ أي: ولا يزيد القرآن كلُّه أو كلُّ بعضٍ مِنْه الظالمين الذين وضعوا التكذيب موضع التصديق، والشك والارتياب موضع اليقين والاطمئنان ﴿إِلَّا خَسَارًا﴾ أي: هلاكاً؛ لأن سماع القرآن يغيظهم ويحنقهم ويدعوهم إلى زيادة ارتكاب القبائح تمرّداً وعناداً، فعند ذلك يهلكون؛ وقيل: الخسار النقص كقوله: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥].

ثم نبّه سبحانه على فَتح بعض ما جُبل عليه الإنسان مِنْ الطبائع المذمومة فقال: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ أي: على هذا الجِنْس بالنِّعم التي توجب الشكر كالصحة والغنى ﴿أَعْرَضَ﴾ عَنْ الشكر لله والذكر له ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ النأي: البعدُ، والباء للتعدية أو للمصاحبة، وهو تأكيدٌ للإعراض؛ لأنّ الإعراض عَنْ الشيء هو أن يوليه عرض وجهه؛ أي: ناحيته، والنأي بالجانب: أَنْ يلوي عنه عِطْفه ويوليه ظهرَه، ولا يبعد أَنْ يراد بالإعراض هنا: الإعراض عَنْ الدعاء والابتهال الذي كان يفعله عند نزول البلوى والمحنة به، ويراد بالنأي بجانبه: التكبّر والبعد بنفسه عن القيام بحقوق النِّعم.

وقرأ ابنُ عامر(١) في رواية ابن ذكوان وأبو جعفر (ناء) مثل [٣/١٨٤] باع بتأخير الهمزة على القلب، وقرأ حمزة (ناءى)(٢) بإمالة الفتحتين ووافقه الكسائي، وأمال شعبة والسُوسي الهمزة فقط.

وقرأ الباقون بالفتح(٣) فيهما.

﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ مِنْ مرضٍ أو فقر ﴿كَانَ يَـُٔوسًا﴾ شديد اليأس مِنْ رحمة الله، والمعنى: أنّه إنْ فاز بالمطلوب الدنيوي، وظفر بالمقصود نسي المعبود، وإن فاته شيء مِنْ ذلك استولى عليه الأسف، وغلب عليه القنوط، وكلتا الخصلتين قبيحة مذمومة ولا ينافي ما في هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾

---

(١) «التيسير» (ص١٤١)، و«البحر المحيط» (٧/ ١٠٥)، و«جامع البيان» (١٥/ ٦٤)، و«النشر» (٢/ ٢٣١).

(٢) «البحر المحيط» (٧/ ١٠٥)، و«روح المعاني» (١٥/ ٧٣)، و«جامع البيان» (١٥/ ٦٤ ـ ٦٥).

(٣) «جامع البيان» (١٥/ ٦٤)، و«البحر المحيط» (٧/ ١٠٥)، و«النشر» (٢/ ٢٣١). قال في «تخريج القراءات في فتح القدير» ص(٢٠٣) الصواب في العزو هو: قرأ خلف عن حمزة وكذلك في اختياره والكسائي بإمالة النون والهمزة وهو وجه لشعبة، وقرأ خلّاد عن حمزة بإمالة الهمزة فقط، وهو الوجه الثاني لشعبة، وعزاه كذلك في الشاطبية للسوسي، ولم يعول عليها في الطيبة، وقرأ الأزرق بالإمالة الصغرى في الهمزة فقط، وقرأ الباقون بالفتح فيهما. اهـ.

[فصلت: ٥١]. ونظائره، فإنّ ذلك شأن بعض آخر منهم غير البعض المذكور في هذه الآية، ولا يبعد أن يقال: لا منافاة بين الآيتين فقد يكون مع شدة يأسه وكثرة قنوطه كثير الدعاء بلسانه. ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ الشاكلة قال الفراء(١): الطريقة، وقيل: الناحية، وقيل: الطبيعة، وقيل: الدين، وقيل: النية، وقيل: الجِبلّة، وهي مأخوذة مِنْ الشّكْل(٢)، يقال: لست على شكلي ولا على شاكلتي، والشكل: هو المِثْل والنظير.

والمعنى: أنَّ كل إنسان يعمل على ما يُشاكل أخلاقه التي أَلفها، وهذا ذمّ للكافر ومدح للمؤمن ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾؛ لأنّه الخالق لكم، العالم بما جُبلتم عليه مِنْ الطبائع، وما تباينتم فيه مِنْ الطرائق، فهو الذي يميز بين المؤمن الذي لا يعرض عند النعمة ولا ييأس عند المحنة، وبين الكافر الذي شأنه البَطَر للنعم والقنوط عند النقم.

ثم لما انجرّ الكلام إلى ذكر الإنسان وما جُبل عليه، ذكر سبحانه سؤال السائلين لرسول الله ﷺ عَنْ الروح فقال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾.

قد اختلف الناس في الروح المسؤول عنه، فقيل: هو الروح المدبِّر للبدن الذي تكون به حياتُه، وبهذا قال أكثر المفسرين.

قال الفرّاء(٣): الروح الذي يعيش به الإنسان لم يخبر الله سبحانه به أحداً من خلقه، ولم يعط علمَه أحداً مِنْ عباده فقال: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ أي: إنكم لا تعلمونه، وقيل(٤): الروح المسؤول عنه: جبريل، وقيل: عيسى، وقيل: القرآن، وقيل: مَلَك مِنْ الملائكة عظيم الخلق، وقيل: خلق كخلق بني آدم.

وقيل غير ذلك مما لا طائل تحته ولا فائدة في إيراده، والظاهر: القول الأول، وسيأتي ذكر سبب نزول هذه الآية، وبيان السائلين لرسول الله ﷺ عن الروح، ثم الظاهر أنّ السؤال عَنْ حقيقة الروح؛ لأن معرفة حقيقة الشيء أهم وأقدم مِنْ معرفة حال من أحواله، ثم أمره سبحانه أن يجيب على السائلين له عن الروح

---

(١) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١٣٠).
(٢) «الصحاح» (٥/ ١٧٣٦)، و«تهذيب اللغة» (١٠/ ٢٠).
(٣) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١٣٠ ـ ١٣١).
(٤) «المحرر الوجيز» (١٠/ ٣٤٠)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٣/ ١٦٦).

فقال: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾: «مِنْ» بيانية[(١)]، والأمر: الشأنُ والإضافة للاختصاص؛ أي: هو مِنْ جنس ما استأثر الله بعلمه مِنْ الأشياء التي لم يُعْلم بها عباده، وقيل: معنى ﴿مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ مِنْ وحيه وكلامه لا من كلام البشر، وفي هذه الآية ما يزجر الخائضين في شأن الروح المتكلفين لبيان ماهيته وإيضاح حقيقته أبلغ زجر، ويردعهم أعظم ردع، وقد أطالوا المقال في هذا البحث بما لا يتم له المقام، وغالبه؛ بل كلّه مِنْ الفضول الذي لا يأتي بنفع في دين ولا دنيا.

[المصنف يشنع على المختلفين في ماهية الروح]:

وقد حكى بعضُ المحققين أنّ أقوال المختلفين في الروح[(٢)] بلغت إلى ثمانية عشر مائة قولٍ، فانظر إلى هذا الفضول الفارغ، والتعب العاطل عَنْ النفع، بعد أن علموا أن الله سبحانه قد استأثر بعلمه، ولم يطلع عليه أنبياءه ولا أذن لهم بالسؤال عنه ولا البحث عن حقيقته فضلاً عَنْ أممهم المقتدين بهم، فيالله العجب حيث تبلغ أقوال أهل الفضول إلى هذا الحدّ الذي لم تبلغه ولا بعضه في غير هذه المسألة مما أذن الله بالكلام فيه، ولم يستأثر بعلمه.

ثم ختم سبحانه هذه الآية بقوله سبحانه: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ أي: أنّ علمكم الذي علّمكم الله، ليس إلّا المقدار القليل بالنسبة إلى علم الخالق سبحانه، وإنْ أوتي حظّاً مِنْ العلم وافراً؛ بل علم الأنبياء ﷺ ليس هو بالنسبة إلى علم الله سبحانه إلّا كما يأخذ الطائر في منقاره مِنْ البحر، كما في حديث موسى والخضر ﷺ.

وقد أخرجَ عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن ابن مسعود[(٣)] قال: (دلوك الشمس) غروبُها، تقول العرب إذا غربت الشمس: دَلَكتِ الشمسُ.

---

(١) «روح المعاني» (١٥/ ٨٤).

(٢) «معاني القرآن» للنحاس (٤/ ١٨٩)، و«روح المعاني» (١٥/ ٨١ ـ ٨٤).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٨٤)، وفي «المصنف» رقم (٢٠٩٦)، وابن أبي شيبة (٢/ ٢٣٥، ٢٣٦)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٥/ ٢٢)، وابن المنذر في «الأوسط» (٢/ ٣٢٣)، والطبراني رقم (٩١٢٧، ٩١٣٨)، والحاكم (٢/ ٣٦٣) بسند حسن.
قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٣١١): «إسناده حسن».

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن علي[(١)] قال: دلوكها: غروبها.

وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس[(٢)]، قال: ﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ﴾: لزوال الشمس.

وأخرج البزار، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والديلمي عن ابن عمر[(٣)] قال: قال رسول الله ﷺ: «دلوك الشمس زوالُها». وضعف السيوطي إسناده.

وأخرجه مالك في «الموطأ»، وعبد الرزاق، والفريابي، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عمر[(٤)] من قوله.

وأخرج عبد الرزاق[(٥)] عنه قال: «دلوك الشمس: زَياغها بعد نصف النهار».

وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير عن ابن عباس[(٦)] قال: دلوكها: زوالها.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر[(٧)] عنه في قوله: ﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ﴾ قال: إذا فاء الفيء.

وأخرج ابن جرير عن أبي مسعود عقبة بن عمرو[(٨)] قال: قال رسول الله ﷺ: «أتاني جبريل لدلوك الشمس حينَ زالت فصلَّى بي الظهر».

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٢/ ٢٣٦).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٨٤ ـ ٣٨٥)، وابن أبي شيبة (٢/ ٢٣٥)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٥/ ٢٧)، وابن المنذر في «الأوسط» (٢/ ٣٢٢، ٢٢٣) من طريق الزهري، به بسند صحيح.

(٣) أخرجه البزار في «مسنده» رقم (٢٢٢٧ ـ كشف)، والديلمي رقم (٣٠٧٠) من حديث عمر. بسند ضعيف جدّاً، وأدرك الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٥١) وقال: وفيه عمر بن قيس المعروف بسندل، وهو متروك.

(٤) أخرجه مالك في «الموطأ» (١/ ١١ رقم ١٩)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٨٤)، وابن أبي شيبة (٢/ ٢٣٦)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٥/ ٢٥)، وابن المنذر في «الأوسط» (٢/ ٣٢٢) بسند صحيح.

(٥) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٨٤).

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٥/ ٢٥)، وابن المنذر في «الأوسط» (٢/ ٣٢٢ ـ ٣٢٣)، والطبراني في «الأوسط» رقم (١٣٧١) من طريق هشيم عن مغيرة عن الشعبي، به.

(٧) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٢/ ٢٣٥).

(٨) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٥/ ٢٩)، وأخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (١/ ٣٦١ ـ ٣٦٢) وقال: أبو بكر بن محمد لم يسمع من أبي مسعود الأنصاري وإنَّما هو بلاغ بلغه.

وأخرج ابن جرير عن أبي برزة الأسلمي[(١)] قال: كان رسول الله ﷺ يصلي الظهر إذا زالت الشمس، ثم تلا: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ﴾.

وأخرج ابن مردويه[(٢)] من حديث أنس نحوه.

ومما يُستشهد به على أنّ الدلوك الزوال وسط النهار ما أخرجه ابن جرير[(٣)] عَنْ جابر قال: «دعوتُ رسول الله ﷺ ومَنْ شاء من أصحابه يطعمون عندي، ثم خرجوا حين زالت الشمس، فخرج النبي ﷺ، فقال: اخرج يا أبا بكر فهذا حين دلكت الشمس»، وفي إسناده رجل مجهول ولكنّه أخرجه[(٤)] عنه من طريق أخرى عن سهل بن بكار، عَنْ أبي عوانة، عَنْ الأسود بن قيس، عن نُبيح العنزي، عن جابر فذكر نحوه مرفوعاً.

وأخرج الطبراني[(٥)] عن ابن مسعود في قوله: ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ﴾ قال: إلى العشاء الآخرة.

وأخرج ابنُ المنذر[(٦)] عن ابن عباس قال: ﴿غَسَقِ ٱلَّيۡلِ﴾: اجتماع الليل وظلمته.

وأخرج ابن جرير[(٧)] عنه قال: ﴿غَسَقِ ٱلَّيۡلِ﴾: بدّو الليل.

وأخرج عبد الرزاق عن أبي هريرة[(٨)] قال: دلوك الشمس: إذا زالت الشمس عن بطن السماء، وغسق الليل: غروب الشمس.

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس[(٩)] في قوله: ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾ قال: صلاة الصبح.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٥/ ٢٩ ـ ٣٠). وأصله في البخاري في رقم (٥٤١، ٥٤٧، ٥٩٩، ٧٧١)، ومسلم رقم (٦٤٧).

(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٣٢١).

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٥/ ٣٠) بسند ضعيف.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٥/ ٣٠).

(٥) أخرجه الطبراني رقم (٩١٤١ ـ ٩١٤٢) بسند ضعيف.
وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٥٦): رواه الطبراني من طريقين وفيهما يحيى الحماني وجابر الجعفي وكلاهما ضعيف.

(٦) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٣٢٢).

(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٥/ ٣١) بسند ضعيف.

(٨) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٨٥).

(٩) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٥/ ٣٦) بسند ضعيف.

وأخرج أحمد، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في «الشعب» عن أبي هريرة[١]، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ قال: «تشهدُه ملائكة الليل وملائكة النهار تجتمع فيها»، وهو في «الصحيحين»[٢] عَنْه مرفوعاً بلفظ «تجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر»، ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾.

وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني عن ابن مسعود[٣] موقوفاً نحوه.

وأخرج الحكيم الترمذي، وابن جرير، والطبراني، وابن مردويه عن أبي الدرداء[٤] قال: «قرأ رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ قال: تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار».

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس[٥] في قوله: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ يعني: خاصةً للنبيّ ﷺ، أُمر بقيام الليل وكُتبَ عليه.

وأخرج الطبراني في «الأوسط»، والبيهقي في «سُننه» عَنْ عائشة[٦] أن النبي ﷺ قال: «ثلاث هنّ عليّ فرائض وهنّ لكم سُنَّة: الوتر والسواك، وقيام الليل».

---

(١) أخرجه أحمد رقم (١٠١٣٣)، والترمذي رقم (٣١٣٥)، والنسائي في «الكبرى» رقم (١١٢٩٣)، وابن ماجه رقم (٦٧٠)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٥/ ٣٣)، والحاكم (١/ ٢١٠ ـ ٢١١)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٢٨٣٥) وهو حديث صحيح.

(٢) أخرجه البخاري رقم (٦٤٨، ٤٧١٧)، ومسلم رقم (٢٤٦/ ٦٤٩)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٥/ ٣٧).

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٥/ ٣٤ ـ ٣٥)، والطبراني رقم (٩١٣٩) من طريق أبي عبيدة عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(٤) أخرجه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (٢/ ٨٤، ٣١٧)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٥/ ٣٤)، والطبراني في «الأوسط» رقم (٨٦٣٥)، وفي «الدعاء» رقم (١٣٥) بسند ضعيف.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٥/ ٤٠) بسند ضعيف.

(٦) أخرجه الطبراني رقم (٣٢٦٦)، والبيهقي (٧/ ٣٩)، وقال: موسى بن عبد الرحمٰن هذا ضعيف جداً.

وأخرج أحمد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن أبي أُمامة[١] في قوله: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ قال: كانت للنبي ﷺ نافلةٌ ولكم فضيلة، وفي لفظ: إنما كانت النافلة خاصة لرسول الله ﷺ.

وأخرج أحمد، والترمذي وحسنه، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي عن أبي هريرة[٢]، عَنْ النبي ﷺ في قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا﴾ وسئل عنه، قال: «هو المقام المحمود الذي أشفعُ فيه لأمتي».

وأخرج أحمد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن كعب بن مالك[٣]؛ أنّ رسول الله ﷺ قال: «يبعُثُ الناس يوم القيامة فأكون أنا وأمتي على تَلٍّ، ويكسوني ربي حُلَّة خضراءَ، ثم يؤذن لي فأقول ما شاء الله أن أقول، فذلك المقام المحمود».

وأخرج البخاري[٤] وغيره عن ابن عمر قال: إنّ كل أمة يوم القيامة تتبع نبيها، يقولون: يا فلان اشفع، يا فلان اشفع حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي ﷺ، فذلك يوم يبعثه الله مقاماً محموداً.

وأخرج عنه نحوه مرفوعاً.

والأحاديث في هذا الباب كثيرة جدّاً ثابتة في «الصحيحين» وغيرهما فلا نطيل بذكرها، ومَنْ رام الاستيفاء نظر في أحاديث الشفاعة [٣/١٨٥] في الأمهات وغيرها.

وأخرج الطبراني[٥] في قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا﴾ قال: يجلسه فيما بينه وبين جبريل ويشفع لأمته، فذلك المقام المحمود.

---

(١) أخرجه أحمد رقم (٢٢٢١٠)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٥/ ٤٢)، والطبراني رقم (٧٥٦١) بسند ضعيف.

(٢) أخرجه أحمد رقم (٩٦٨٤، ١٠٨٣٩)، والترمذي رقم (٣١٣٧)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٥/ ٤٧ ـ ٤٨)، والبيهقي في «الدلائل» (٥/ ٤٨٤) وهو حديث صحيح.

(٣) أخرجه أحمد رقم (١٥٧٨٣)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٥/ ٤٨، ٥١)، وابن حبان رقم (٦٤٧٩)، والحاكم (٢/ ٣٦٣) بسند صحيح على شرط مسلم.

(٤) أخرجه البخاري رقم (٤٧١٨)، والنسائي في «التفسير» رقم (٣١٥).

(٥) أخرجه الطبراني رقم (١٢٤٧٤) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٥٤١): «وفيه ابن لهيعة وهو ضعيف إذا لم يتابع، وعطاء بن دينار لم يسمع من سعيد بن المسيب»

وأخرج الديلمي(١) عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾، قال: يُجْلسني معه على السرير».

ويَنبْغي الكشف عَنْ إسناد هذين الحديثين.

وأخرج أحمد، والترمذي، وصححه، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي، والضياء في «المختارة» عن ابن عباس(٢) قال: كان النبيّ ﷺ بمكة ثم أُمِر بالهجرة، فأنزل الله: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا﴾.

وأخرج الحاكم وصححه، والبيهقي في «الدلائل» عن قتادة(٣) في قوله: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي﴾ الآية قال: أخرجه الله مِنْ مكة مُخْرَج صدق، وأدخله المدينة مُدْخل صدق. قال: وَعِلم نبيُّ الله أنّه لا طاقة له بهذا الأمر إلّا بسلطان فسأل سلطاناً نصيراً لكتاب الله وحدوده وفرائضه ولإقامة كتاب الله، فإنّ السلطان عزةٌ مِنْ الله جعلها بين أظهر عباده، ولولا ذلك لأغار بعضُهم على بعض، وأكل شديدُهم ضعيفهم.

وأخرج الخطيب(٤) عن عمر بن الخطاب قال: والله لما يَزَعُ الله بالسلطان أعظم مما يَزَعُ بالقرآن.

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود(٥) قال: «دخل النبيّ ﷺ مكة وحول البيت ستون وثلاثمائة نُصُب، فجعل يطعنُها بعودٍ في يده ويقول: ﴿جَآءَ ٱلۡحَقُّ

---

(١) أخرجه الديلمي رقم (٣٩٧٨).
قال الذهبي في «العلو» (ص١٢٤): «أمّا قضية قعود نبينا على العرش، فلم يثبت في ذلك نص؛ بل في الباب حديث واه».

(٢) أخرجه أحمد رقم (١٩٤٨)، والترمذي رقم (٣١٣٩)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٥/ ٥٤)، والطبراني رقم (١٢٦١٨)، والحاكم (٣/٣)، والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٥١٦ ـ ٥١٧)، والضياء (٩/ ٥٣٥) وهو حديث ضعيف. والله أعلم

(٣) أخرجه الحاكم (٣/٣)، والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٥١٧)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٥/ ٥٥) بسند صحيح.

(٤) أخرجه الخطيب في «تاريخه» (٤/ ١٠٨).

(٥) أخرجه البخاري في «صحيحه» رقم (٢٤٧٨، ٤٢٨٧، ٤٧٢٠)، ومسلم رقم (١٧٨١)، والترمذي رقم (٣١٣٨)، والنسائي في «الكبرى» رقم (١١٢٩٧، ١١٤٢٨)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٥/ ٦١).

وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٩]». وفي الباب أحاديث.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد[١] في قوله: ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ قال: تباعد.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[٢] في قوله: ﴿كَانَ يَـُٔوسًا﴾ قال[٣]: قنوطاً، وفي قوله: ﴿كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ قال: على ناحيته.

وأخرج هناد، وابن المنذر عن الحسن[٤] قال: ﴿عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾: على نيته.
وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود[٥] قال: «كنت أمشي مع النبيّ ﷺ في خرب المدينة وهو متكئ على عسيب، فمرّ بقوم من اليهود فقال بعضُهم لبعض: اسألوه عن الروح، فقال بعضُهم: لا تسألوه، فقالوا: يا محمد ما الروح؟ فما زال متكئاً على العسيب فظننت أنه يُوحى إليه، فقال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾».

وأخرج أحمد، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن المنذر، وابن حبان، وأبو الشيخ في «العظمة»، والحاكم وصححه، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي عن ابن عباس[٦] قال: قالت قريش لليهود: أعطونا شيئاً نسأل هذا الرجل، قالوا: سلوه عَنْ الروح، فنزلت ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٥/ ٦٤) بسند صحيح.
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٥/ ٦٥) بسند صحيح.
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٥/ ٦٦)، عن ابن عباس بسند صحيح.
(٤) أخرجه هنّاد في «الزهد» رقم (٨٧٠).
(٥) أخرجه البخاري رقم (١٢٥، ٤٧٢١، ٧٢٩٧، ٧٤٥٦، ٧٤٦٢)، ومسلم رقم (٢٧٩٤)، والترمذي رقم (٣١٤١)، والنسائي في «الكبرى» رقم (١١٢٩٩)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٥/ ٦٧ ـ ٦٨)، وابن حبان في «صحيحه» رقم (٩٨)، وأبو نعيم في «الدلائل» رقم (٢٤٨)، والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٢٧١) تعليقاً، وأحمد رقم (٣٦٨٨).
(٦) أخرجه أحمد رقم (٢٣٠٩)، والترمذي رقم (٣١٤٠)، والنسائي في «الكبرى» رقم (١٣١٤)، وابن حبان في «صحيحه» رقم (٩٩)، وأبو الشيخ في «العظمة» رقم (٤٠٥)، والحاكم (٢/ ٥٣١)، والبيهقي في «الدلائل» (٣/ ٢٦٩) وهو حديث صحيح.

قَلِيلًا﴾ قالوا: أوتينا علماً كثيراً، أوتينا التوراة، ومَنْ أُوتي التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً فأنزل الله ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩].

وفي الباب أحاديث وآثار.

[القرآن معجزة لا يملك أحد محاكاته أو الإتيان بمثله]:

﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾.

لمّا بيّن سبحانه أنه ما آتاهم من العلم إلّا قليلاً بيّن أنه لو شاء أن يأخذ منهم هذا القليل لفعل، فقال: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ واللام هي الموطِّئة، و﴿لَنَذْهَبَنَّ﴾ جواب[1] القسَم سادّ مسد جواب الشرط.

قال الزجّاج[2]: معناه: لو شئنا لمحوناه مِنْ القلوب ومِنْ الكتب حتى لا يوجد له أثر. انتهى.

وعبّر عن القرآن بالموصول تفخيماً[3] لشأنه ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ﴾ أي: بالقرآن ﴿عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ أي: لا تجد مَنْ يتوكل علينا في ردّ شيء منه بعد أن ذهبنا به.

والاستثناء بقوله: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ إنْ كان متصلاً[4]، فمعناه: إلّا أن

---

(١) «الفريد» (٣/ ٢٩٧)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ٤٥٩)، و«روح المعاني» (٥/ ١٠٨).
(٢) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ٢٥٨).
(٣) «تفسير أبي السعود» (٤/ ٤٥٩)، و«روح المعاني» (١٥/ ١٠٨).
(٤) «روح المعاني» (١٥/ ١٠٨)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٤٣٩).

يرحمك ربُّك فلا نذهب به، وإنْ كان منقطعاً[1] فمعناه: لكن لا يشأ ذلك رحمة من ربُّك، أو لكن رحمة من ربك تركته غير مذهوب به.

﴿إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ حيث جعلك[2] رسولاً، وأنزل عليك الكتاب وصيَّرك سيد ولد آدم، وأعطاك المقام المحمود وغير ذلك مما أنعم به عليه.

ثم احتج سبحانه على المشركين بإعجاز القرآن فقال: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ المنزل مِنْ عند الله الموصوف بالصفات الجليلة مِنْ كمال البلاغة، وحسن النظم، وجزالة اللفظ ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ أظهر في مقام الإضمار، ولم يكتف بأن يقول: لا يأتون به على أنّ الضمير راجع إلى المثل المذكور، لدفع توهم أَنْ يكون له مِثْل معين، وللإشعار بأن المراد نفي المثل على أي صفة كان، وهو جواب قسم محذوف كما تدل عليه اللام الموطئة، وسادّ مسدّ جواب[3] الشرط، ثم أوضح سبحانه عجزهم عَنْ المعارضة سواء كان المتصدي لها كل واحد منهم على الانفراد، أو كان المتصدر لها المجموع بالمظاهرة فقال: ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ أي: عَوناً ونَصيراً، وجواب «لو» محذوف.

والتقدير: ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً لا يأتون بمثله، فثبت أنهم لا يأتون بمثله على كلّ حالٍ.

وقد تقدّم وجه إعجاز القرآن في أوائل سورة البقرة في هذه الآية ردّ لما قاله الكفار ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾ [الأنفال: ٣١] وإكذابٌ لهم.

[القرآن منهج حياة متكامل]:

ثم بيّن سبحانه أَنَّ الكفار مع عجزهم عَنْ المعارضة استمروا على كفرهم وعدم إيمانهم فقال: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: رددنا القول فيه بكلّ مَثَل[4] يوجب الاعتبار مِنْ الآيات والعِبَر، والترغيب والترهيب، والأوامر والنواهي وأقاصيص الأوّلين، والجنة والنار والقيامة ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾

---

(١) «الفريد» (٣/ ٢٩٨)، و«البحر المحيط» (٧/ ١٠٨)، و«المحرر الوجيز» (١٠/ ٣٤١).

(٢) «جامع البيان» (١٥/ ٧٥)، و«الوسيط» للواحدي (٣/ ١٢٦)، و«معالم التنزيل» (٣/ ١٣٥).

(٣) «الفريد» (٣/ ٢٩٧)، و«التبيان» (٢/ ٨٣١).

(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (١٣/ ١٧١ ـ ١٧٢).

يعني: من أهل مكة، فإنّهم جحدوا وأنكروا كون القرآن كلام الله بعد قيام الحجة عليهم، واقترحوا مِنْ الآيات ما ليس لهم، وأظهر في مقام الإضمار حيث قال: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ﴾ توكيداً أو توضيحاً، ولما كان «أبى» مؤولاً بالنفي؛ أي: ما قبل أو لم يرض صح الاستثناء منه قوله: ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾.

﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾؛ أي: قال رؤساء مكة كعتبة وشيبة ابني ربيعة وأبي سفيان والنضر بن الحارث، ثم علّقوا نفي إيمانهم بغايةٍ طلبوها فقالوا: ﴿حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾.

قرأ حمزة، والكسائي ، وعاصم (حتى تَفْجرَ) مخففاً[1] مثل: تَقْتل.

وقرأ الباقون[2] بالتشديد، ولم يختلفوا في (فتفجّر الأنهار) أنها مشدّدة[3]، ووجّه ذلك أبو حاتم بأن الأولى بعدها ينبوع وهو واحد، والثانية بعدها الأنهار وهي جمع.

وأجيب عنه: بأن الينبوع وإنْ كان واحداً في اللفظ فالمراد به الجمع، فإن الينبوع العيون التي لا تنضب.

ويردّ بأن الينبوع: عَينُ الماء، والجمع: الينابيع[4]، وإنما يقال للعين: ينبوع إذا كانت غزيرةً مِنْ شأنها النبوع مِنْ غير انقطاع والياء زائدة كيعبوب من عبّ الماء.

﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ﴾ أي: بستان تستر أشجارُه أرضَه، والمعنى: هب أنك لا تفجر الأنهار لأجلنا ففجّرها مِنْ أجلك بأن تكون لك جنة ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ أي: تجريها بقوة ﴿خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا﴾ أي: وسَطَها تفجيراً كثيراً ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ قرأ مجاهد[5] (أو تَسْقُط) مسنداً إلى السماء.

---

(١) «البحر المحيط» (٧/ ١١١)، و«روح المعاني» (١٥/ ١١٥)، و«النشر» (٢/ ٣٠٨)، و«التيسير» (ص١٤١).

(٢) انظر: المصادر المتقدمة. وهما قراءتان ومع مَنْ قرأ بالتخفيف يعقوب وخلف.

(٣) «البحر المحيط» (٧/ ١١٢)، و«التبيان» (٢/ ٨٣٢).

(٤) «تهذيب اللغة» (٣/ ٨)، و«الصحاح» (٣/ ١٢٨٧ ـ ١٢٨٨).

(٥) «القراءات الشاذة» (ص٧٧)، و«البحر المحيط» (٧/ ١١٢)، و«روح المعاني» (١٥/ ١١٦). قراءة مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ شاذة، والمتواترة بضم التاء وسكون السين وكسر القاف (تُسْقِط).

وقرأ مَنْ عداه[(١)] (أو تُسْقِط) على الخطاب؛ أي: أو تُسْقِط أنت يا محمد السماءَ.

والكِسَفْ بفتح[(٢)] السين جمع كِسْفة. وهي قراءة نافع وابن عامر، وعاصم، والكسفة: القطعة.

وقرأ الباقون[(٣)] «كِسْفاً» بإسكان السين.

قال الأخفش[(٤)]: مَنْ قرأ بإسكان السين جعله واحداً، ومَنْ قرأ بفتحها جعله جمعاً.

قال المهدوي[(٥)]: ويجوز أَنْ يكون على قراءة السكون جمع كِسْفة، ويجوز أن يكون مصدراً.

قال الجوهري[(٦)]: الكِسْفة: القِطْعة مِنْ الشيء، يقال: أعطني كِسْفةً مِنْ ثوبك، والجمع: كِسْف وكِسَفْ، ويقال: الكِسْف والكِسْفة واحد، وانتصاب كسفاً على الحال[(٧)]، والكاف في (كما زعمتَ) في محل نصب[(٨)] على أنه صفة مصدر محذوف؛ أي: إسقاطاً مُماثلاً لما زعمت، يعنون بذلك: قول الله سبحانه: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [سبأ: ٩].

قال أبو علي[(٩)]: الكسْف بالسكون، الشيء المقطوع كالطحن للمطحون واشتقاقه على ما قال أبو زيد[(١٠)]: مِنْ كسفت الثوب كسفاً: إذا قطعته.

وقال الزجاج[(١١)]: من كسفتُ الشيء إذا غطيّته كأنّه قيل: أو تسقطها طبقاً علينا.

---

(١) «البحر المحيط» (٧/ ١١٢)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٣/ ١٧٥)، و«روح المعاني» (١٥/ ١١٦).

(٢) «التيسير» (ص١٤١)، و«جامع البيان» (١٥/ ٨٠)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٣/ ١٧٥)، و«البحر المحيط» (٧/ ١١٢).

(٣) انظر: المصادر المتقدمة. وهما قراءتان متواترتان ومع نافع أبو جعفر كذلك.

(٤) ذكره الجوهري في «الصحاح» (٤/ ١٤٢١)، والطبراني في «تفسيره» (١٣/ ١٧٥).

(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٣/ ١٧٥).

(٦) في «الصحاح» (٤/ ١٤٢١).

(٧) «التبيان» (٢/ ٨٣٢)، و«الفريد» (٣/ ٢٩٨)، و«البحر المحيط» (٧/ ١١٢).

(٨) «التبيان» (٢/ ٨٣٢)، و«الفريد» (٣/ ٢٩٨).

(٩) في «الحجة» (٥/ ١١٩).

(١٠) انظر: «تهذيب اللغة» (١٠/ ٧٥).

(١١) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ٢٥٩).

﴿أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾.

اختلف المفسرون في معنى ﴿قَبِيلًا﴾ فقيل: معناه: مُعاينةً، قاله قتادة [٣/١٨٦] وابن جُريج(١)، واختاره أبو علي الفارسي(٢) فقال: إذا حملته على المعاينة كان القبيل مصدراً كالنكير والنذير. وقيل: معناه: كَفْيلاً قاله الضحاك(٣)، وقيل: شهيداً قاله مقاتل(٤).

وقيل: هو جمع القبيلة؛ أي: تأتي بأصناف الملائكة قبيلةً قبيلة قاله مجاهد(٥) وعطاء، وقيل: ضمناً، وقيل: مقابلاً كالعشير والمعاشر.

﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾؛ أي: مِنْ ذهب، وبه قرأ ابن مسعود(٦)، وأصله الزينة، والمُزَخْرف: المُزين، وزخارف الماء: طرائقه.

وقال الزجّاج(٧): هو الزينة فرجع إلى الأصل معنى الزخرف، وهو بعيد؛ لأنه يصير المعنى: أو يكون لك بيت مِنْ زينة ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: تصعد في معارجها يقال: رقيتُ في السلّم: إذا صعدت وارتقيت مثله ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾؛ أي: لأجل رقيك، وهو مصدر(٨) نحو: مضى يَمْضي مُضِياً وهوى يهوي هُوياً ﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾؛ أي: حتّى تنزل علينا مِنْ السماء كتاباً يصدقك، ويدل على نبوّتك نقرؤه جميعاً، أو يقرؤه كلٌّ واحد منا، وقيل: معناه: كتاباً من الله إلى كل واحد منا كما في قوله: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ [المدثر: ٥٢] فأمر سبحانه رسوله ﷺ أن يأتي بما يفيد التعجب مِنْ قولهم، والتنزيه للربّ سبحانه عن اقتراحاتهم القبيحة فقال: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى﴾؛ أي: تنزيهاً لله عن أن يعجز عن شيء.

---

(١) «زاد المسير» (٥/ ٨٧)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٣/ ١٧٦).
(٢) ذكره أبو حيان في «البحر المحيط» (٧/ ١١٢).
(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٣/ ١٧٦).
(٤) ذكره البغوي في «تفسيره» (٣/ ١٣٧)، والقرطبي في «تفسيره» (١٣/ ١٧٦).
(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٣/ ١٧٦).
(٦) وهي قراءة شاذة.
«روح المعاني» (١٥/ ١١٨)، و«البحر المحيط» (٧/ ١١٢).
(٧) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ٢٦٠).
(٨) «الجامع لأحكام القرآن» (١٣/ ١٧٦)، و«روح المعاني» (١٥/ ١١٨).

وقرأ أهل مكة والشام (قال سُبحان ربي)[(١)] يعني: النبي ﷺ ﴿هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا﴾ مِنْ البشر لا مَلَكاً حتى أصعد السماء ﴿رَّسُولًا﴾ مأموراً من الله سبحانه بإبلاغكم، فهل سمعتم أيها المقترحون لهذه الأمور أنّ بشراً قدَر على شيء منها؟

وإنْ أردتم أنّي أطلب ذلك مِنْ الله سبحانه حتى يُظْهرها على يدي، فالرسول إذا أتى بمعجزة واحدة كفاه ذلك؛ لأنّها بها يتبين صدقه، ولا ضرورة إلى طلب الزيادة، وأنا عبد مأمور ليس لي أن أتحكم على ربي بما ليس بضروري، ولا دعت إليه حاجة، ولو لزمتني الإجابة لكلّ متعنت لاقترح كل معاند في كل وقت اقتراحات، وطلب لنفسه إظهار آيات، فتعالى الله عما يقول الظالمون علوّاً كبيراً، وتنزّه عَنْ تعنتاتهم، وتقدّس عن اقتراحاتهم.

وقد أخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في «الشعب» عن ابن مسعود[(٢)] قال: إن هذا القرآن سيُرفعُ، قيل: كيفَ يُرفع وقد أثبته الله في قلوبنا وأثبتناه في «المصاحف»؟ قال: يُسْريَ عليه في ليلة واحدة فلا يُترك مِنْه آية في قلبٍ ولا مصحفٍ إلّا رُفعت، فتُصبحون وليس فيكم مِنه شيء، ثم قرأ ﴿وَلَئِن شِئۡنَا لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾.

وقد روي عنه هذا مِنْ طرق.

وأخرج ابن عدّي عن أبي هريرة[(٣)] مرفوعاً نحوه.

وأخرج محمد بن نصر[(٤)] عن عبد الله بن عمرو نحوه موقوفاً.

وأخرج الديلمي في «مسند الفردوس»[(٥)] عن معاذ بن جبل مرفوعاً نحوه أيضاً.

---

(١) «النشر» (٢/٣٠٩)، و«البحر المحيط» (٧/١١٣)، و«روح المعاني» (١٥/١١٨). وهي قراءة متواترة.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (١٠/٥٣٤) (١٥/١٧٥، ١٧٦)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٥/٧٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/٢٩٢٢)، والطبراني رقم (٨٦٩٨، ٨٧٠٠)، والحاكم (٤/٥٠٤)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٢٠٢٧) بسند صحيح.
قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/٥٢، ٣٣٠): رجاله رجال الصحيح غير شداد بن معقل وهو ثقة.

(٣) أخرجه ابن عدي في «الكامل» (١/١٨٩).

(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/٣٣٥).

(٥) أخرجه الديلمي في «مسنده» رقم (٣٢٦٦).

وأخرج ابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن أبي هريرة[١] موقوفاً نحوه أيضاً.

وأخرج أبو الشيخ، وابن مردويه، والديلمي عن حذيفة بن اليمان[٢] مرفوعاً نحوه أيضاً.

وأخرج ابن مردويه[٣] عن جابر مرفوعاً نحوه أيضاً.

وأخرج ابن مردويه[٤] عن ابن عباس وابن عمر مرفوعاً نحوه.

وأخرج ابنُ إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[٥] قال: «أَتى رسولَ الله ﷺ محمودُ بن شيخان ونعيمانُ بن آصي وبَحْري بن عمرو، وسلَّام بن مِشْكم، فقالوا: أخبرنا يا محمد بهذا الذي جئت به أحق مِنْ عند الله، فإنّا لا نراه متناسقاً كما تناسق التوراة؟ فقال لهم: والله إنّكم لتعرفونه أنه مِنْ عند الله، قالوا: إنا نجيئك بمثل ما تأتي به، فأنزل الله ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ﴾ الآية».

وأخرج ابنُ إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم[٦]، عنه أن عتبةَ وشيبة ابني ربيعة وأبا سفيان بن حرب، ورجلاً مِنْ بني عبد الدار، وأبا البَخْتري أخا بني أسيد والأسود بن عبد المطلب وربيعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبا جهل بن هشام، وعبد الله بن أبي أُمية، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل، ونُبيهاً ومنبّهاً ابني الحجاج السهميّين اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، فقال بعضُهم لبعضٍ: ابعثوا إلى محمد وكلّموه وخاصموه، وذكر حديثاً طويلاً يشتمل على

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤/٥٠٦).

(٢) أخرجه الديلمي في «مسنده» رقم (٨٤١٤).

(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/٣٣٦).

(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/٣٣٦).

(٥) أخرجه ابن إسحاق (١/٥٧٠)، و«السيرة النبوية» لابن هشام، وابن جرير في «جامع البيان» (١٥/٧٦) بسند ضعيف.
وقال ابن كثير في «تفسيره» (٩/٧٧): وفي هذا نظر؛ لأنَّ هذه السورة مكية، وسياقها كله مع قريش، واليهود إنَّما اجتمعوا به في المدينة فالله أعلم.

(٦) أخرجه ابن إسحاق (١/٢٩٥ ـ ٢٩٨)، و«سيرة ابن هشام»، وابن جرير في «جامع البيان» (١٥/٨٧ ـ ٩٠) بسند ضعيف.

ما سألوه عنه وتعنتوه به، وأن ذلك كان سبب نزول قوله: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ إلى قوله: ﴿بَشَرًا رَّسُولًا﴾.

وإسناده عند ابن جرير هكذا: حدّثنا أبو كُريب، حدّثنا يونس بن بكير، حدّثنا محمد بن إسحاق، حدّثني شيخ مِنْ أهل مصر، قدم منذ بضع وأربعين سنة عن عكرمة، عن ابن عباس فذكره، ففيه هذا الرجل المجهول.

وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير(١) في قوله: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ قال: نزلت في أخي أمّ سلمة عبد الله بن أبي أُمية.

وأخرج ابنُ أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد(٢) في قوله: ﴿يَنۢبُوعًا﴾ قال: عيوناً.

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدّي(٣) قال: الينبوع: هوَ النْهر الذي يجري من العين.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس(٤) في قوله: ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ﴾ يقول: ضَيعة.

وأخرج ابن جرير(٥) عنه ﴿كِسَفًا﴾ قال: قِطَعاً.

وأخرج ابن أبي حاتم(٦) عنه أيضاً ﴿قَبِيلًا﴾ قال: عياناً.

وأخرج ابن جرير(٧) عنه أيضاً ﴿مِّن زُخْرُفٍ﴾ قال: من ذهب.

وأخرج أبو عبيد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري، وأبو نعيم عن مجاهد(٨) قال: لم أكن أُحْسِنُ ما الزخرف؟ حتى

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٥/ ٩٠ ـ ٩١) من طريق هشيم، به.
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٥/ ٧٨) بسند صحيح.
(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٣٤٠).
(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٣٤٠).
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٥/ ٨١، ٨٢) بسند صحيح.
(٦) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٣٤٠).
(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٥/ ٨٤) بسند ضعيف.
(٨) أخرجه أبو عبيد في «فضائله» (ص١٧٥)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٥/ ٨٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٨٤) من طريق شعبة، به.

سمعتها في قراءة عبد الله (أو يكون لك بيت مِنْ ذهب)(١).

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه(٢) في قوله: ﴿كِتَٰبًا نَّقۡرَؤُهُۥۗ﴾ قال: مِنْ ربّ العالمين إلى فلان ابن فلان. يصبح عند كل رجل صحيفة عند رأسه موضوعة يقرؤها.

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا ﴿٩٥﴾ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُمۡ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِهِۦۖ وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۡ وَجَعَلَ لَهُمۡ أَجَلٗا لَّا رَيۡبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورٗا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا ﴿١٠٠﴾﴾.

حكى سبحانه عنهم شُبهةً أخرى قد تكرر في الكتاب العزيز التعرّض لإيرادها وردّها في غير موضع فقال: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ﴾ المراد: الناس على العموم، وقيل: المراد: أهل مكة على الخصوص؛ أي: ما منعهم الإيمان بالقرآن وبنبوّة محمد ﷺ وهو المفعول الثاني(٣) لمنع، ومعنى ﴿إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾: أنه جاءهم الوحي مِنْ الله سبحانه على رسوله، وبيّن ذلك لهم وأرشدهم إليه، وهو ظرف(٤) لـ﴿مَنَعَ﴾ أو ﴿يُؤۡمِنُوٓاْ﴾؛ أي: ما منعهم وقت مجيء الهدى أن يؤمنوا بالقرآن والنبوّة

(١) وهي قراءة شاذة.
«روح المعاني» (١٥/ ١١٨)، و«البحر المحيط» (٧/ ١١٢).
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٥/ ٨٦) بسند صحيح.
(٣) «التبيان» (٢/ ٨٣٢)، و«الفريد» (٣/ ٣٠٠)، و«البحر المحيط» (٧/ ١١٤).
(٤) انظر: المصادر المتقدمة.

﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ﴾؛ أي: ما منعهم إلّا قولهم، فهو في محل[١] رفع على أنه فاعل منع، والهمزة[٢] في ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ للإنكار منهم أن يكون الرسول بشراً.

[في الآية إعلام أن الرسل من جنس المرسل إليهم]

والمعنى: أنّ هذا الاعتقاد الشامل لهم، وهو إنكار أَنْ يكون الرسول من جنس البشر، هو الذي منعهم عَنْ الإيمان بالكتاب وبالرسول، وعبّر عنه بالقول للإشعار بأنه ليس إلّا مجرد قول قالوه بأفواههم، ثم أمر رسوله ﷺ أن يجيب عن شبهتهم هذه فقال: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾؛ أي: لو وُجد وثبت أنّ في الأرض بدل مَنْ فيها من البشر ملائكة يمشون على الأقدام كما يمشي الإنس ﴿مُطْمَئِنِّينَ﴾ مستقرين فيها ساكنين بها.

قال الزجّاج[٣]: مطمئنين مستوطنين في الأرض، ومعنى الطمأنينة السكون.

فالمراد ها هنا: المقام والاستيطان، فإنّه يقال: سكن البلد فلان: إذا أقام فيها وإنْ كان ماشياً متقلباً في حاجاته ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ حتى يكون مِنْ جنسهم وفيه إعلامٌ من الله سبحانه بأنّ الرسل ينبغي أَنْ تكون من جنس المرسل إليهم، فكأنه سبحانه اعتبر في تنزيل الرسول مِنْ جنس الملائكة أمرين:

الأوّل: كون سكان الأرض ملائكة.

والثاني: كونهم ماشين على الأقدام غير قادرين على الطيران بأجنحتهم إلى السماء، إذ لو كانوا قادرين على ذلك لطاروا إليها، وسمعوا مِنْ أهلها ما يجب معرفته وسماعه فلا يكون في بعثة الملائكة إليهم فائدة.

وانتصاب ﴿بَشَرًا﴾ و﴿مَلَكًا﴾ على أنّهما مفعولان[٤] للفعلين، و﴿رَّسُولًا﴾ في الموضعين[٥] وصف لهما.

وجوّز صاحب «الكشّاف»[٦] أَنْ يكونا حالين في الموضعين من ﴿رَّسُولًا﴾ فيهما

---

(١) «التبيان» (٢/ ٨٣٢)، و«البحر المحيط» (٧/ ١١٤)، و«الفريد» (٣/ ٣٠٠)، و«روح المعاني» (١٥/ ١٢٢).

(٢) «روح المعاني» (١٥/ ١٢٢)، و«تفسير أبي السعود» (٤/ ٤٦٣).

(٣) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ٢٦١).

(٤) «البحر المحيط» (٧/ ١١٤)، و«الفريد» (٣/ ٣٠١)، و«روح المعاني» (١٥/ ١٢٤).

(٥) انظر: المصادر المتقدمة.

(٦) أي: الزمخشري في «الكشاف» (٣/ ٥٥٣).

وقوّاه صاحب «الكشّاف»، ولعلّ وجه ذلك: أنّ الإنكار يتوجه إلى الرسول المتصف بالبشرية في الموضع الأوّل، فيلزم بحكم التقابل أَنْ يكون الآخر كذلك.

ثم ختم الكلام بما يجري مَجْرى التهديد، فقال: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾؛ أي: قُلْ لهم: يا مُحمد مِنْ جهتك كفى بالله وحده شهيداً على إبلاغي إليكم ما أمرني به مِنْ أمور الرسالة، وقال: ﴿بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ ولم يقل: بيننا تحقيقاً للمفارقة الكلية.

وقيل: إن إظهار المعجزة على وفق دعوى النبيّ شهادة مِنْ الله له على الصدق، ثم علّل كونه سبحانه شهيداً كافياً بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾؛ أي: عالماً بجميع أحوالهم، محيطاً بظواهرها وبواطنها، بصيراً بما كان منها وما يكون.

ثم بيّن سبحانه أنَّ الإقرار والإنكار مستندان إلى مشيئته فقال: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾؛ أي: مَنْ يرد الله هدايته فهو المهتدي إلى الحق، أو إلى كل مطلوب ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾؛ أي: يرد إضلاله ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ ينصرونهم ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ يعني: الله سبحانه، ويهدونهم إلى الحق الذي أضلهم الله عنه أو إلى طريق النجاة.

وقوله: ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ حملاً على لفظ «مَنْ»، وقوله: ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمْ﴾ حملاً على المعنى.

والخطاب في قوله: ﴿فَلَن تَجِدَ﴾ إما للنبيّ ﷺ، أو لكل من يصلح له ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ هذا الحشر على الوجوه فيه وجهان[1] للمفسرين:

الأوّل: أنّه عبارة عن الإسراع بهم إلى جهنّم، من قول العرب: قد مرّ القوم على وجوههم: إذا أسرعوا.

الثاني: أنهم يُسحبون يوم القيامة على وجوههم حقيقةً كما يفعل في الدنيا بمن يبالغ في إهانته [٣/١٨٧] وتعذيبه، وهذا هو الصحيح، لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ [القمر: ٤٨]، ولما صح في السُّنَّة كما سيأتي.

ومحل ﴿عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ النصب[2] على الحال من ضمير المفعول و﴿عُمْيًا﴾

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٣/١٧٨ ـ ١٧٩)، و«روح المعاني» (١٥/١٣٠).
(٢) «التبيان» (٢/٨٣٣)، و«الفريد» (٣/٣٠١)، و«روح المعاني» (١٥/١٣٠ ـ ١٣١).

منتصب(١) على الحال ﴿وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ معطوفان عليه، والأبْكُم: الذي لا ينطق، والأصمّ: الذي لا يَسْمع، وهذه هيئة يُبعثون عليها في أقبح صورة، وأشنع منظر، قد جمع الله لهم بين عَمى البصر وعَدم النطق وعدم السمع، مع كونهم مسحوبين على وجوههم، ثم مِنْ وراء ذلك ﴿مَّأْوَنَهُمْ جَهَنَّمُ﴾؛ أي: المكان الذي يأوون إليه، والجملة في محل نصب(٢) على الحال أو هي مستأنفة لا محل لها ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَهُمْ سَعِيرًا﴾؛ أي: كلما سكن لهبها، يقال: خَبتِ النارُ تخبو خبواً: إذا خمدت وسكن لهبها.

قال ابن قتيبة(٣): ومعنى ﴿زِدْنَهُمْ سَعِيرًا﴾ تَسعُّراً، وهو التلّهب.

وقد قيل: إن في خبوّ النار تخفيفاً لعذاب أهلها، فكيف يجمع بينه وبين قوله: ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ [البقرة: ١٦٢، آل عمران: ٨٨]؟

وأجيب: بأنّ المراد بعدم التخفيف أنّه لا يتخلل زمان محسوس(٤) بين الخبوّ والتسعر، وقيل: إنّها تخبو مِنْ غير تخفيف عنهم من عذابها ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: العذاب ﴿جَزَآؤُهُم﴾ الذي أوجبه الله لهم واستحقّوه عنده.

والباء في قوله: ﴿بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ للسببية؛ أي: بسبب كفرهم بها فلم يصدّقوا بالآيات التنزيلية ولا تفكّروا في الآيات التكوينية، واسم الإشارة مبتدأ وخبره جزاؤهم.

و﴿بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ﴾ خبر آخر، ويجوز أن يكون ﴿جَزَآؤُهُم﴾(٥) مبتدأً ثانياً، وخبره ما بعده، والجملة خبر المبتدأ الأوّل.

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا﴾ الهمزة للإنكار، وقد تقدم تفسير الآية في هذه السورة، وخَلْقاً في قوله: ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ مصدر من غير لفظه أو حال؛ أي: مخلوقين، فجاء سبحانه بحُجة تدفعهم عَنْ الإنكار وتردّهم عن الجحود. فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾؛ أي: مَنْ هو قادر على خلق هذا، فهو على إعادة ما هو أدون منه أقدر.!!

(١) انظر: المصادر المتقدمة.
(٢) «روح المعاني» (١٥/ ١٣١)، و«الفريد» (٣/ ٣٠٢)، و«التبيان» (٢/ ٨٣٣).
(٣) في «تفسير غريب القرآن» (ص٢٦١).
(٤) «روح المعاني» (١٥/ ١٣٣ ـ ١٣٤)، و«التفسير الكبير» للرازي (٢١/ ٦١).
(٥) «روح المعاني» (١٥/ ١٣٢)، و«التبيان» (٢/ ٨٣٣).

وقيل: المراد: أنه قادر على إفنائهم وإيجاد غيرهم، وعلى القول الأوّل يكون الخلق بمعنى: الإعادة، وعلى هذا القول: هو على حقيقته.

وجملة ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ عطف على ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾، والمعنى: قد علموا بدليل العقل أنّ من قدر على خلق السمٰوات والأرض فهو قادر على خلق أمثالهم؛ لأنهم ليسوا بأشدّ خلقاً منهنّ كما قال: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾ [النازعات: ٢٧] ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ وهو الموتُ أو القيامة، ويحتمل أن تكون الواو للاستئناف.

وقيل: في الكلام تقديم وتأخير؛ أي: أولم يروا أن الله الذي خلق السمٰوات والأرض وجعل لهم أجلاً لا ريبَ فيه قادر على أن يخلق مثلهم؟ ﴿فَأَبَى ٱلظَّـٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾؛ أي: أبى المشركون إلّا جحوداً، وفيه: وضعُ الظاهر موضع المُضْمرَ للحكم عليهم بالظلم ومجاوزة الحدّ، ثم لما وقع مِنْ هؤلاء الكفار طلب إجراء الأنهار والعيون في أراضيهم لتتسع معايشهم، بيّن الله سبحانه أنّهم لا يقنعون؛ بل يبقون على بخلهم وشحهم فقال: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ﴾ «أنتم» مرتفع على أنّه فاعل[(١)] فعل محذوف يفسره ما بعده؛ أي: لو تملكون أنتم تملكون على أن الضمير المنفصل مبدل مِنْ الضمير المتصل وهو الواو، وخزائن رحمته سبحانه: هي خزائن الأرزاق.

قال الزجاج[(٢)]: أعلمهم الله أَنّهم لو ملكوا خزائن الأرزاق لأمسكوا شحاً وبُخلاً، وهو خشية الإنفاق؛ أي: خشية أَنْ ينفقوا فيفتقروا، وفي حذف الفعل الذي ارتفع به أنتم، وإيراد الكلام في صورة المبتدأ والخبر دلالة على أنهم هم المختصون بالشحّ.

قال أهل اللغة[(٣)]: أنفق وأصرم وأعدم وأقتر بمعنى: قلّ مالُه، فيكون المعنى: لأمسكتم خشية قلّ المال ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ قَتُورًا﴾؛ أي: بَخيلاً مُضّيقاً عليه. يقال: قَتَر على عياله يَقْتِر ويَقتُر قَتْراً وقُتوراً: ضَيّق عليهم في النفقة، ويجوز أَنْ يراد: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ قَتُورًا﴾؛ أي: قليل المال، والظاهر: أنّ المراد: المبالغة في وصفه بالشح؛

---

(١) «الفريد» (٣/ ٣٠٢ ـ ٣٠٣)، و«التبيان» (٢/ ٨٣٣)، و«روح المعاني» (١٥/ ١٣٩)، و«المحرر الوجيز» (١٠/ ٣٥١).

(٢) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ٢٦١). (٣) انظر: «تهذيب اللغة» (٩/ ١٩٢).

لأن الإنسان ليس بقليل المال على العموم؛ بل بعضُهم كثير المال، إلّا أن يراد: أن جميع النوع الإنساني قليل المال بالنسبة إلى خزائن الله وما عنده.

وقد اختلف في هذه الآية على قولين:

أحدهما: أنّها نزلت في المشركين خاصةً، وبه قال الحسن[١].

والثاني: أنها عامة وهو قول الجمهور حكاه الماوردي[٢].

وقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس[٣] قال: «قيل: يا رسول الله كيف يُحشُر الناسُ على وجوههم؟ قال: الذي أمشاهم على أرجلهم قادر أن يُمشِيهَم على وجوههم».

وأخرج أبو داود، والترمذي وحسنه، وابن جرير، وابن مردويه، والبيهقي عن أبي هريرة[٤]، قال: قال رسول الله ﷺ: «يُحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أصناف: صنف مشاة، وصنف رُكباناً، وصنف على وجوههم»، ثم ذكر نحو حديث أنس. وفي الباب أحاديث.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[٥]، في قوله: ﴿مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ قال: يعني: أنّهم وقودُها.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طريق عليّ بن أبي طلحة[٦] عنه في قوله: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ﴾ قال: سَكَنَتْ.

وأخرج هؤلاء عنه[٧] أيضاً في الآية قال: كلما أحرقهم سعّرتهم حطباً، فإذا أحرقتهم فلم يبق منهم شيء صارت جمراً تتوهّج فذلك خبوها، فإذا بُدّلوا خلقاً جديداً عاودتهم.

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٣/ ١٨١).

(٢) في «النكت والعيون» (٣/ ٢٧٦).

(٣) أخرجه البخاري رقم (٤٧٦٠) و (٦٥٢٣)، ومسلم رقم (٢٨٠٦)، والنسائي في «السنن الكبرى» رقم (١١٣٩٧)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٤٤٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٩٢)، والحاكم (٢/ ٤٠٢)، وأبو نعيم في «المعرفة» رقم (٨٢١)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» رقم (١٠٦٨).

(٤) أخرجه أبو داود الطيالسي في «مسنده» رقم (٢٦٨٩)، والترمذي رقم (٣١٤٢)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٤٥٠) وهو حديث ضعيف. والله أعلم.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٥/ ٩٤) بسند ضعيف.

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٥/ ٩٥) بسند صحيح.

(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٥/ ٩٥) بسند ضعيف.

وأخرج ابن أبي حاتم(١) عن عطاء في قوله: ﴿خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ﴾ قال: الرزق.

وأخرج أيضاً(٢) عن عكرمة في قوله: ﴿إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾ قال: إذا ما أطعمتم أحداً شيئاً.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس(٣) في قوله: ﴿خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾ قال: الفقر ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ قال: بَخيْلاً.

وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة(٤) ﴿خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾ قال: خشية الفاقة ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ قال: بخيلاً مُمْسِكاً.

[آيات بينات كذب بها فرعون وملؤه فحل بهم الهلاك جميعاً]:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا۩ ﴿١٠٩﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ﴾؛ أي: علامات دالة على نبوّته، قيل: ووجه اتصال هذه الآية بما قبلها أن المعجزات المذكورة كأنها مساوية لتلك الأمور التي اقترحها كفار قريش؛ بَلْ أقوى مِنْها، فليس عدم الاستجابة لما طلبوه

---

(١) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/).

(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/).

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٥/ ٩٨ ـ ٩٩) بسند صحيح.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٥/ ٩٩)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٩٠) بسند صحيح.

من الآيات إلّا لعدم المصلحة في استئصالهم إنْ لم يؤمنوا بها.

قال أكثر المفسرين[١]: الآيات التسع: هي الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والعصا، واليد، والسنين، ونقص الثمرات.

وجعل الحسن[٢] مكان السنين ونقص الثمرات: البحر والجبل.

وقال محمد بن كعب القرظي[٣]: هي الخمس التي في الأعراف، والبحر، والعصا، والحجر، والطمس على أموالهم.

وقد تقدم الكلام على هذه الآيات مستوفى، وسيأتي حديث صفوان بن عسال في تعداد هذه الآيات التسع.

﴿فَسْئَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ قرأ ابن عباس وابن نهيك (فَسَأَل) على الخبر[٤]؛ أي: سأل موسى فرعونَ أَنْ يخلّي بني إسرائيل ويُطلق سبيلَهم ويرسلهم معه.

وقرأ الآخرون (فاسْأل) على الأمر[٥]؛ أي: سَلْهم يا محمد حين ﴿جَآءَهُمْ﴾ موسى، والسؤال سؤال استشهاد لمزيد الطمأنينية والإيقان؛ لأنّ الأدلة إذا تضافرت كان ذلك أقوى والمسؤولون مؤمنو بني إسرائيل كعبد الله بن سلام وأصحابه ﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ الفاء هي الفصيحة؛ أي: فأظهر موسى عند فرعون ما آتيناه من الآيات البينات وبلّغه ما أُرسل به فقال له فرعون، والمسحور: الذي سُحر فخُولط عقلُه.

وقال أبو عبيدة[٦] والفراء[٧]: هو بمعنى الساحر، فوضع المفعول موضع الفاعل، فـ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني: الآيات التي أظهرها، وأنزل بمعنى أوجد ﴿إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾؛ أي: دلالات يستدل بها على قدرته ووحدانيته، وانتصاب ﴿بَصَآئِرَ﴾ على الحال[٨].

---

(١) «جامع البيان» (١٥/ ٩٩)، و«معالم التنزيل» (٣/ ١٣٩ ـ ١٤٠)، و«زاد المسير» (٥/ ٩٢).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٣/ ١٨٢).

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٥/ ١٠٠) بسند ضعيف.

(٤) «القراءات الشاذة» (ص٧٧)، و«زاد المسير» (٥/ ٩٤)، و«جامع البيان» (١٥/ ١٠٥). وهي قراءة شاذة.

(٥) «البحر المحيط» (٧/ ١٢٠)، و«جامع البيان» (١٥/ ١٠٥)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٣/ ١٨٣)، و«زاد المسير» (٥/ ٩٤).

(٦) في «مجاز القرآن» (١/ ٤٤٣).

(٧) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١٣٢).

(٨) ذكره النحاس في «معاني القرآن» (٤/ ٢٠١ ـ ٢٠٢).

قرأ الكسائي بضمّ[1] التاء مِنْ (علمتُ) على أنها لموسى، وروي ذلك عن عليّ، وقرأ الباقون[2] بفتحها على الخطاب لفرعون. ووجه القراءة الأولى أن فرعون لم يعلم ذلك، وإنما علمه موسى.

ووجه قراءة الجمهور أنّ فرعون كان عالماً بذلك كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ﴾ [النمل: ١٤].

قال أبو عبيد[3]: المأخوذ به عندنا فتح التاء، وهو الأصح للمعنى؛ لأن موسى لا يقول: علمتُ أنا وهو الداعي، وروي نحو هذا عن الزجاج[4].

﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ الظنّ هنا بمعنى: اليقين، والثبور: الهلاك والخسران. قال الكميت:

ورأت قضاعةُ في الأيا ... من رأى مثبورٍ وثابرِ[5]

أي: مخسور وخاسر، وقيل: المثبور الملعون، ومنه قول الشاعر[6]:

يا قومَنا لا تروموا حربنا سَفَها ... إنّ السِّفاهَ وإن البغيَ مثبورُ

أي: ملعون، وقيل: المثبور: ناقص العقل، وقيل: هو الممنوع من الخير، يقال: ما ثبرك عَنْ كذا: ما منعك منه، حكاه أهل اللغة، وقيل: المسحور. ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: أراد فرعون أَنْ يخرج بني إسرائيل وموسى ويزعجهم مِنْ الأرض، يعني: أَرض مصر بإبعادهم عَنْها، وقيل: أراد أن يقتلهم وعلى هذا يُراد بالأرض مُطْلق الأرض، وقد تقدم قريباً معنى الاستفزاز.

﴿فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا﴾ فوقع عليه وعليهم الهلاك بالغَرَق، ولم يُبْقِ منهم أحداً ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾؛ أي: مِنْ بعد إغراقه ومن معه،

---

(١) «البحر المحيط» (٦/٨٦)، و«التيسير» ص(١٤١)، و«النشر» (٢/٣٠٩). وهي قراءة متواترة.
(٢) «التيسير» (ص١٤١)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٢/٥٢)، و«روح المعاني» (١٥/١٥٠)، و«جامع البيان» (١٥/١١٦).
(٣) ذكره النحاس في «معاني القرآن» (٤/٢٠١ ـ ٢٠٢).
(٤) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/٢٦٣).
(٥) «الجامع لأحكام القرآن» (١٣/١٨٤).
(٦) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٣/١٨٤).

والمراد بالأرض هنا: أرض مصر التي أراد أن يستفزّهم منها ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾؛ أي: الدار الآخرة وهو القيامة، أو الكرّة الآخرة، أو الساعة الآخرة ﴿جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفٗا﴾ [٣/١٨٨] قال الجوهري(١): اللّفيف: ما اجتمع مِنْ الناس من قبائل شتى، يقال: جاء القوم بلفهم ولفيفهم؛ أي: بأخلاطهم، فالمراد هُنا: جئنا بِكم من قبوركم مختلطين مِن كل موضع، قد اختلط المؤمن بالكافر.

قال الأصمعي(٢): اللّفيف: جمعٌ وليس له واحد، وهو مَثْل الجمع.

﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ﴾ الضمير يرجع إلى القرآن، ومعنى ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ﴾. أوحيناه متلّبساً بالحق، ومعنى ﴿وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ﴾: أنّه نزل وفيه الحق، وقيل: الباقي، وبالحق الأول بمعنى مع؛ أي: مع الحق أنزلناه كقولهم: ركب الأمير بسيفه؛ أي: مع سيفه، ﴿وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ﴾؛ أي: بمحمد كما تقول: نزلت بزيد.

وقال أبو علي(٣) الفارسي: الباء في الموضعين بمعنى مع، وقيل: يجوز أن يكون المعنى: وبالحق قدّرنا أن ينزل وكذلك نزل، أو ما أنزلناه من السماء إلّا محفوظاً، وما نزل على الرسول إلّا محفوظاً مِنْ تخليط الشياطين، والتقديم في الموضعين للتخصص. ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ أي: مبشراً لمن أطاع بالجنة ونذيراً مخوّفاً لمن عصى بالنار.

﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ﴾ انتصاب(٤) ﴿وَقُرۡءَانٗا﴾ بفعل مُضْمَر يفسّره ما بعده، قرأ عليّ، وابن عباس، وابن مسعود، وأُبيّ بن كعب، وقتادة، وأبو رجاء، والشعبي (فَرّقناه) بالتشديد(٥)؛ أي: أنزلناه شيئاً بعد شيء لا جملة واحدة.

وقرأ الجمهور ﴿فَرَقۡنَٰهُ﴾ بالتخفيف(٦)؛ أي: بينّاه وأوضحناه، وفرّقنا فيه بين الحق والباطل.

---

(١) في «الصحاح» (٤/١٤٢٧).
(٢) ذكره النحاس في «معاني القرآن» (٤/٢٠٤).
(٣) انظر: «البحر المحيط» (٧/١٢٢)، و«روح المعاني» (١٥/١٥٣ ـ ١٥٤).
(٤) «التبيان» (٢/٨٣٥)، و«الفريد» (٣/٣٠٥ ـ ٣٠٦)، و«البحر المحيط» (٧/١٢٣).
(٥) وهي قراءة شاذة.
«القراءات الشاذة» (ص٧٧)، و«روح المعاني» (١٥/١٥٧).
(٦) «جامع البيان» (١٥/١١٦)، و«روح المعاني» (١٥/١٥٨)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٣/١٨٦).

وقال الزجاج[(١)]: فرّقه الله في التنزيل ليفهمه الناس.

قال أبو عبيد[(٢)]: التخفيف أعجب إليّ؛ لأنّ تفسيره: بينّاه، وليس للتشديد معنى إلّا أنه نزل متفرقاً.

ويؤيده ما رواه ثعلب عَنْ ابن الأعرابي أنه قال: فَرقَتُ مخففاً بين الكلام، وفرّقتُ مشدداً بين الأجسام، ثم ذكر سبحانه العلة لقوله: ﴿فَرَقْنَٰهُ﴾، فقال: ﴿لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ أي: على تطاول في المدّة شيئاً بعد شيء على القراءة الأولى، أو أنزلناه آية آية، وسورة سورة.

ومعناه على القراءة الثانية ﴿عَلَىٰ مُكْثٍ﴾؛ أَي: على ترسّلٍ وتمهل في التلاوة، فإنّ ذلك أقرب إلى الفهم وأسهل للحفظ.

وقد اتفق القُرّاء على ضم[(٣)] الميم في (مُكْث) إلّا ابن محيصن فإنه قرأ بفتح[(٤)] الميم ﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ التأكيد بالمصدر للمبالغة.

والمعنى: أنزلناه مُنجّماً مُفرّقاً لما في ذلك من المصلحة، ولو أخذوا بجميع الفرائض في وقت واحدٍ لنفروا ولم يطيقوا ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟﴾ أمر الله سبحانه نبيّه ﷺ أن يقول للكافرين المقترحين للآيات: آمنوا به أو لا تؤمنوا، فسواء إيمانكم به وامتناعكم عنه لا يزيده ذلك ولا ينقصه.

وفي هذا وعيد شديد لأمره ﷺ بالإعراض عنهم واحتقارهم، ثم علّل ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ أي: أنّ العلماء الذين قرؤوا الكتب السابقة قبل إنزال القرآن، وعرفوا حقيقة الوحي وأمارات النبوّة كزيد بن عمرو بن نفيل، وورقة بن نوفل، وعبد الله بن سلَام ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ أي: القرآن ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ أي: يسقطون على وجوههم ساجدين لله سبحانه، وإنما قيد الخرور، وهو السقوط بكونه للأذقان؛ أي: عليها؛ لأن الذقَن، وهو مجتمع اللّحيين أوّل ما يحاذي الأرض.

---

(١) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ٢٦٣ ـ ٢٦٤).

(٢) في «الغريبين» (٥/ ١٤٤١).

(٣) «البحر المحيط» (٧/ ١٢٤)، و«التبيان» (٢/ ٨٣٥)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٣/ ١٨٧).

(٤) وهي قراءة شاذة.
«القراءات الشاذة» (ص٧٧)، و«روح المعاني» (١٥/ ١٥٨).

قال الزجاج[١]: لأن الذَّقن مجتمع اللحيين، وكما يبتدئ الإنسان بالخرور للسجود، فأوّل ما يحاذي الأرض به من وجهه الذقن.

وقيل: المراد: تعفير[٢] اللّحية في التراب، فإن ذلك غاية الخضوع، وإيثار اللام في الأذقان على (على) للدلالة على الاختصاص[٣]، فكأنهم خصوا أذقانهم بالخرور، أو خصوا الخرور بأذقانهم.

وقيل: الضمير في قوله: ﴿مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ راجع إلى النبي ﷺ، والأولى ما ذكرناه مِنْ رجوعه إلى القرآن لدلالة السياق على ذلك، وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ.

وحاصلها: أنّه إنْ لم يؤمن به هؤلاء الجهال الذين لا علم عندهم ولا معرفة بكتب الله ولا بأنبيائه، فلا تبال بذلك، فقد آمن به أهل العلم وخشعوا له وخضعوا عند تلاوته عليهم خضوعاً ظهر أثره البالغ[٤] بكونهم يخرّون على أذقانهم سجداً لله ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ﴾ أي: يقولون في سجودهم تنزيهاً لربنا عما يقوله الجاهلون من التكذيب أو تنزيهاً له عن خلف وعده.

﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ «إن» هذه هي المخففة[٥] من الثقيلة، واللام هي الفارقة. ثم ذكر أنهم خروا لأذقانهم باكين فقال: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ وكرّر ذكر الخرور للأذقان لاختلاف السبب، فإن الأول: لتعظيم الله سبحانه وتنزيهه، والثاني: للبكاء بتأثير مواعظ القرآن في قلوبهم ومزيد خشوعهم، ولهذا قال: ﴿وَيَزِيدُهُمْ﴾ أي: سماع القرآن، أو القرآن بسماعهم له ﴿خُشُوعًا﴾ أي: لين قلب ورطوبة عين.

وقد أخرج عبدُ الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[٦] في قوله: ﴿تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ﴾ فذكر ما ذكرناه عن أكثر المفسرين.

---

(١) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ٢٦٤).
(٢) «روح المعاني» (١٥/ ١٥٩).
(٣) انظر: «روح المعاني» (١٥/ ١٥٩).
(٤) «تفسير أبي السعود» (٤/ ٤٦٨).
(٥) «الفريد» (٣/ ٣٠٧)، و«روح المعاني» (١٥/ ١٦١).
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٥/ ١٠١ ـ ١٠٢)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٩٠) بسند صحيح.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم[(١)] عنه قال: يدَه، وعصاه ولسانه، والبحر، والطوفان، والجراد، والقمّل، والضفادع، والدم.

وأخرج الطيالسي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وأحمد، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن ماجه، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن قانع، والحاكم وصححه، وأبو نعيم، والبيهقي، وابن مردويه عن صفوان بن عَسَّال[(٢)]: «أن يهوديّين قال أحدُهما لصاحبه: انطلق بنا إلى هذا النبيّ نسأله، فأتياه فسألاه عَنْ قول الله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ فقال: لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تزنوا، ولا تسرفوا، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلّا بالحق، ولا تَسْرقوا، ولا تَسْحروا، ولا تمشوا ببريء إلى سلطان فيقتله، ولا تأكلوا الربا، ولا تقذفوا مُحْصنةً، أو قال: لا تفرّوا من الزحف ـ شكّ شعبة ـ وعليكم يا يهود خاصة أَنْ لا تعتدوا في السبت، فقبّلا يديه ورجليه وقالا: نشهد أنك نبيّ الله، قال: فما يمنعكما أَنْ تسلما؟ قالا: إنّ داود دعا الله أن لا يزال في ذريته نبيّ، وإنا نخاف إنْ أسلمنا أَنْ يقتلنا اليهود».

وأخرج ابن أبي الدنيا في «ذمّ الغضب» عن أنس بن مالك[(٣)] أنه سئل عن قوله: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ قال: مخالفاً، وقال: الأنبياء أكرم من أَنْ تَلْعن أو تسبّ.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس[(٤)] ﴿مَثْبُورًا﴾ قال: ملعوناً.

وأخرج الشيرازي في الألقاب، وابن مردويه[(٥)] عنه قال: قليل العقل.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٥/ ١٠٢) بسند صحيح.

(٢) أخرجه الطيالسي في «مسنده» رقم (١٢٦٠)، وابن أبي شيبة (١٤/ ٢٨٩)، وأحمد رقم (١٨٠٩٢، ١٨٠٩٦)، والترمذي رقم (٢٧٣٣، ٣١٤٤)، والنسائي رقم (٤٠٨٩)، وابن ماجه رقم (٣٧٠٥)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٥/ ١٠٣، ١٠٤)، والطبراني رقم (٧٣٩٦)، والحاكم (١/ ٩)، والبيهقي في «الدلائل» (٦/ ٢٨٦)، وابن قانع (٢/ ١١) وهو حديث ضعيف. والله أعلم.

(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٣٤٤).

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٥/ ١٠٨ ـ ١٠٩) بسند صحيح.

(٥) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٣٤٥).

وأخرج ابنُ جرير[١] عَنْه أيضاً ﴿لَفِيفًا﴾ قال: جميعاً.

وأخرج النّسائي، وابنُ جرير، وابنُ أَبي حاتم، والحاكم وصحّحه، وابن مردويه، والبيهقي عَنْ ابن عباس[٢] أنّه قرأ: (وقرآناً فرّقناه) مثقلاً[٣] قال: نزل القرآن إلى السماء الدنيا في ليلة القدر من رمضان جملةً واحدة، فكان المشركون إذا أحدثوا شيئاً أحدث الله لهم جواباً، ففرّقه الله في عشرين سنة. وقد روي نحو هذا عنه من طرق.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر[٤] عنه أيضاً ﴿فَرَقْنَٰهُ﴾ قال: فَصّلناه على مُكْث بأمد ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ يقول: للوجوه.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد[٥] ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ قال: كتابهم.

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾.

[كيفية الدعاء والخشوع]:

أراد سبحانه أَنْ يُعلّم عباده كيفية الدعاء والخشوع فقال: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ ومعناه: أنهما مستويان في جواز الإطلاق وحسن الدعاء بهما، ولهذا قال: ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ التنوين في «أيّاً»[٦] عوض عن المضاف إليه، و«ما» مزيدة لتوكيد الإبهام في «أيّاً»، والضمير في «له» راجع إلى المُسمّى، وكان أصل الكلام: أيّاً ما تدعوا فهو حسن، فوضع موضعه فله الأسماء الحسنى للمبالغة، وللدلالة

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٥/ ١١٢) بسند ضعيف.

(٢) أخرجه النسائي رقم (٧٩٨٩ ـ ٧٩٩٠)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٥/ ١١٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٨٩)، والحاكم (٢/ ٣٦٨)، والبيهقي (٧/ ١٣١ ـ ١٣٢) وهو أثر صحيح.

(٣) تقدم ذكره، وهي قراءة شاذة.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٥/ ١١٤، ١١٧، ١٢٠) بسند صحيح.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٥/ ١٢١) من ابن جريج.

(٦) «التبيان» (٢/ ٨٣٧)، و«الفريد» (٣/ ٣٠٨).

على أنّها إذا حَسُنْت أسماؤه كلّها حَسُن هذان الإسمان، ومعنى حُسْن الأسماء: استقلالها بنعوت الجلال والإكرام، ذكر معنى هذا النيسابوري(١) وتبعه أبو السعود(٢).

قال الزجاج(٣): أعلمهم الله أنّ دعاءهم الله ودعاءهم الرحمٰن يرجعان إلى قول واحد، وسيأتي ذكر سبب نزول الآية، وبه يتضح المراد منها.

[التوسط بين الجهر والخفوت في الصلاة أليق بالوقوف في حضرة الله]:

ثم ذكر كيفية أخرى للدعاء فقال: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ أي: بقراءة صلاتك على حذف المضاف للعلم بأن الجهر والمخافتة مِنْ نعوت الصوت، لا من نعوت أفعال الصلاة، فهو مِنْ إطلاق الكل وإرادة الجزء، يقال: خفت صوته خُفوتاً: إذا انقطع كلامهُ وضَعُف وسكن، وخفت الزرع: إذا ذَبُل، وخافت الرجل بقراءته: إذا لَمْ يرفع بها صوتَه.

وقيل: معناه: لا تجهر بصلاتك كلِّها ولا تخافت بها كلها، والأوّل أولى ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: الجهر والمخافتة المدلول عليها بالفعلين ﴿سَبِيلًا﴾ أي: طريقاً متوسطاً بين الأمرين فلا تكن مجهورة ولا مخافتاً بها، وعلى التفسير الثاني يكون معنى ذلك: النهي عَنْ الجهر بقراءة الصلوات كلِّها، والنهي عن المخافتة بقراءة الصلوات كلها، والأمر بجعل البعض منها مجهوراً به، وهو صلاة الليل والمخافتة بصلاة النهار.

وذهب قوم إلى أنَّ هذه الآية منسوخة(٤) بقوله: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥].

ولمّا أمر أن لا يذكر ولا يُنادى إلّا بأسمائه الحسنى [٣/١٨٩] نبّه على كيفية الحمد له فقال: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ كما تقوله اليهود والنصارى، ومن قال من المشركين: إن الملائكة بنات الله، تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ أي: مشارك له في ملكه وربوبيته كما تزعمه الثنوية ونحوهم من الفرق القائلين بتعدد الآلهة ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ أي: لم يحتج إلى موالاة أحد لذلٍّ يلحقه، فهو مستغنٍ عن الوليّ والنصير.

---

(١) في «غرائب القرآن» (١٥/ ٩٣).
(٢) في «تفسيره» (٤/ ٤٦٨).
(٣) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ٢٦٤)
(٤) «أحكام القرآن» لابن العربي (٣/ ١٢١٥).

قال الزجاج(١): أي: لم يحتج أَنْ ينتصر بغيره.

وفي التعرّض(٢) في أثناء الحمد لهذه الصفات الجليلة إيذان بأن المستحق للحمد مَنْ له هذه الصفات؛ لأنّه القادر على الإيجاد، وإفاضة النعم لكون الولد مجبنة ومبخلة، ولأنّه أيضاً يستلزم حدوث الأب؛ لأنه متولد مِنْ جزء من أجزائه، والمُحْدَث غير قادر على كمال الإنعام، والشركة في الملك إنما تتصور(٣) لمن لا يقدر على الاستقلال به، ومَنْ لا يقدر على الاستقلال عاجز فضلاً عن تمام ما هو له، فضلاً عَنْ نظام ما هو عليه، وأيضاً الشركة موجبة للتنازع بين الشريكين فقد يمنعه الشريك من إفاضة الخير إلى أوليائه ومؤدية إلى الفساد ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]. والمحتاج إلى وليٍّ يِمْنعه من الذلّ وينصره على من أراد إذلاله ضعيفٌ لا يقدر على ما يقدر عليه من هو مستغنى بنفسه ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ أي: عظّمه تعظيماً، وصفْه بأنّه أعظم مِنْ كل شيء.

وقد أخرج ابنُ جرير، وابن مردويه عن ابن عباس(٤) قال: «صلى رسول الله ﷺ بمكة ذات يوم فقال في دعائه: يا الله يا رحمٰن، فقال المشركون: انظروا إلى هذا الصابئ ينهانا أَنْ ندعو إلٰهين، وهو يدعو إلٰهين، فأنزل الله ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾» الآية.

وأخرج ابنُ أبي حاتم(٥) عَنْ إبراهيم النخعي قال: إن اليهود سألوا رسول الله ﷺ عن الرحمٰن، وكان لهم كاهن باليمامة يسمونه الرحمٰن، فنزلت الآية. وهو مرسل.

وأخرج ابنُ جرير(٦) عَنْ مكحول: «أن النبيّ ﷺ كان يتهجد بمكة ذات ليلة يقول في سجوده: يا رحمٰن يا رحيم، فسمعه رجل مِنْ المشركين فلما أصبح قال لأصحابه: إن ابنَ أبي كبشة يدعو الليلة الرحمٰن الذي باليمن، وكان رجل باليمن يقال له: رحمٰن، فنزلت».

---

(١) في «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ٢٦٥). (٢) «روح المعاني» (١٥/ ١٧٨ ـ ١٧٩).

(٣) «النكت والعيون» (٣/ ٥٨٢)، و«مجمع البيان» (١٥/ ١١٢)، و«المحرر الوجيز» (١٠/ ٣٥٩ ـ ٣٦٠).

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٥/ ١٢٣ ـ ١٢٤) بسند ضعيف.

(٥) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٣٤٨).

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٥/ ١٢٤) مرسلاً.

وأخرج البيهقي في «الدلائل»[١] من طريق نهشل بن سعيد عن الضحاك، عن ابن عباس قال: «سُئل رسول الله ﷺ عن قول الله: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟﴾ إلى آخر الآية، فقال رسول الله ﷺ: هو أمان مِنْ السّرَق». وإن رجلاً من المهاجرين مِنْ أصحاب رسول الله تلاها حيثُ أخذ مضجعه، فدخل عليه سارق فجمع ما في البيت وحمله والرجل ليس بنائم حتى انتهى إلى الباب فوجد الباب مردوداً، فوضع الكارةَ، ففعل ذلك ثلاث مرات، فضحك صاحب الدار ثم قال: إني حصّنتُ بيتي.

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عباس[٢] في قوله: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ الآية قال: نزلت ورسول الله ﷺ متوارٍ، فكانَ إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فإذا سمع ذلك المشركون سبّوا القرآن ومَنْ أنزله ومَنْ جاء به، فقال الله لنبيِّه: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ أي: بقراءتك، فيسمع المشركون، فيسبّوا القرآن ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ عَنْ أصحابك، فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذوه عنك ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ يقول: بين الجهر والمخافتة.

وأخرج ابن مردويه[٣] عنه قال: كان نبيّ الله ﷺ يجهر بالقراءة بمكة فيؤذى، فأنزل الله ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾.

وأخرج ابنُ أبي شيبة[٤] عَنْه أيضاً نحوه.

وأخرج أبو داود[٥] في «ناسخه» عنه نحوه.

وأخرج الطبراني، وابنُ مردويه[٦] عنه أيضاً قال: كان مسيلمة الكذاب قد

---

(١) أخرجه البيهقي في «الدلائل» (٧/ ١٢١) بسند ضعيف جدّاً، نهشل بن سعيد بن وردان، متروك، وكذبه إسحاق بن راهويه.
والضحاك بن مزاحم الهلالي صدوق كثير الإرسال.
وقال النسائي: «الضحاك لم يسمع من ابن عباس، والحديث إسناده ضعيف».

(٢) أخرجه البخاري رقم (٤٧٢٢، ٧٤٩٠)، ومسلم رقم (١٤٥/ ٤٤٦)، والترمذي رقم (٣١٤٥ ـ ٣١٤٦)، والنسائي في «التفسير» رقم (٣٢٠).

(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٣٤٩).

(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٣٤٩).

(٥) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٣٤٩).

(٦) أخرجه الطبراني رقم (١٣٠٢٩).

سُمّي الرحمٰن، فكان النبيّ ﷺ إذا صلى فجهر ببسم الله الرحمٰن الرحيم قال المشركون: يذكر إلٰه اليمامة، فأنزل الله ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾.

وأخرَج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في «الشعب» عَنْ محمد بن سيرين[١] قال: نبئت أنّ أبا بكر كان إذا قرأ خفض، وكان عمر إذا قرأ جهر، فقيل لأبي بكر: لم تصنع هذا؟ قال: أنا أناجي ربي، وقد عرف حاجتي، وقيل لعمر: لم تصنع هذا؟ قال: أطردُ الشيطان وأُوقظ الوسنان، فلما نزل ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ قيل لأبي بكر: ارفعْ شيئاً، وقيل لعمر: اخفض شيئاً.

وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، والبخاري، ومسلم وغيرهم عن عائشة[٢] قالت: إنما نزلت هذه الآية ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ في الدعاء.

وأخرج ابن جرير، والحاكم عنها[٣] قالت: نزلت في التشهد.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن منيع، وابن جرير، ومحمد بن نصر، وابن المنذر، وابن مردويه عن ابن عباس[٤] مثل حديث عائشة الأوّل.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عَنْ محمد بن كعب القرظي[٥] قال: إن اليهود والنصارى قالوا: اتخذ الله ولداً، وقالت العرب: لبيك لا شريك لك إلّا شريكاً هو لك تملكه وما ملك، وقال الصابئون والمجوس: لولا أولياء الله لذلّ. فأنزل الله هذه الآية ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إلى آخرها.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٥/ ١٣٢)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٢٦١٢) بسند ضعيف. ابن سيرين لم يسمع من أبي بكر رضي الله عنه وقد رواه بصيغة «نُبئت».

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٢/ ٤٤٠)، (١٠/ ٤٠٤)، والبخاري رقم (٤٧٢٣، ٦٣٢٧، ٧٥٢٦)، ومسلم رقم (١٤٦/ ٤٤٧)، والبزار في «مسنده» رقم (٢٢٢٨ ـ كشف)، والنحاس في «ناسخه» (ص٥٥٣)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٢/ ١٨٣).

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٥/ ١٣٣)، والحاكم (١/ ٢٣٠) وصححه ووافقه الذهبي.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (٢/ ٤٤١)، وابن منيع كما في «المطالب العالية»، وابن جرير في «جامع البيان» (١٥/ ١٢٦) بسند حسن.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٥٠٠)، وابن سعد في «الطبقات» (٧/ ١٤٢)، وابن أبي شيبة (١٣/ ٤٧٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٧٢٧) مرسلاً.

مجاهد[١] في قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ قال: لم يحالف أحداً ولم يبتغ نصر أحد.

وأخرج أحمد، والطبراني عن معاذ بن أنس[٢] قال: قال رسول الله ﷺ: «آية العزّ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾» الآية كلها.

وأخرج أبو يعلى وابن السُنّي عن أبي هريرة[٣] قال: «خرجت أنا ورسول الله ﷺ ويده في يدي، فأتى عليّ رجل رثّ الهيئة فقال: أي فلان ما بلغ بك ما أرى؟ قال: السّقَمُ والضُرّ، قال: ألا أعلمك كلمات تذهب عنك السقم والضرّ؟ توكلتُ على الحي الذي لا يموت، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ إلى آخر الآية، فأتى عليه رسولُ الله ﷺ وقد حَسُنت حاله فقال: ممّ؟ قال: لم أزل أقول الكلمات التي علمتني».

وفي لفظ: أن النبي ﷺ علّم ذلك أبا هريرة.

قال ابن كثير[٤]: وإسناده ضعيف وفي متنه نكارة.

وأخرج ابنُ جرير عن قتادة[٥] قال: «ذكر لنا أن رسول الله ﷺ كان يعلم أهله هذه الآية: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ إلى آخرها الصغير من أهله والكبير».

وأخرج عبد الرزاق في «المصنف» عن عبد الكريم بن أبي أمية[٦] قال: «كان رسول الله ﷺ يُعلّم الغلام مِنْ بني هاشم إذا أفصح سبع مرات ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ إلى آخر السورة».

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٥/١٣٨) بسند صحيح.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» رقم (١٥٦٢٥، ١٥٦٣٤)، والطبراني رقم (٤٢٩ ـ ٤٣٠) بسند ضعيف.

(٣) أخرجه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» رقم (٥٤٦)، وأبو يعلى في «مسنده» رقم (٦٦٧١) بسند ضعيف.
قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٥٥): «رواه أبو يعلى وفيه موسى بن عبيدة الربذي وهو ضعيف».

(٤) في «تفسيره» (٩/ ٩٧).

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٥/١٣٨) بسند صحيح.

(٦) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» رقم (٧٩٧٦). وهو معضل. وعبد الكريم «ضعيف».

وأخرج ابن أبي شيبة في «المصنف» من طريق عبد الكريم، عن عمرو بن شعيب[١] فذكره.

وأخرجه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» من طريق عمرو بن شعيب[٢]، عن أبيه، عن جدّه.

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (١/٣٤٨)، (١٠/٥٥٦).

(٢) أخرجه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» رقم (٤٢٤).

فهرس موضوعات الجزء الخامس

الموضوع	الصفحة
	٨٣

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة
تفسير سورة الرعد	١٥٦

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

تفسير سورة الإسراء ٥٠٠

الموضوع	الصفحة

الموضوع الصفحة

دار ابن الجوزي 8428146
9786038298749